

سيّـــار الجميل

الملك فيصل الأول
1883 - 1933

أدواره التاريخية
ومشروعاته النهضوية

سيّار الجميل

الملك فيصل الأول
1883 - 1933

أدواره التاريخية
ومشروعاته النهضوية



الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الجميل، سيّار

الملك فيصل الأول، 1883-1933: أدواره التاريخية ومشروعاته النهضوية/ سيّار الجميل

432 ص.

ببليوغرافية: ص 393 - 420.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-954-8

1. فيصل الأول (ملك العراق). 2. العراق - تاريخ. 3. الثورة العربية الكبرى.

4. العراق – العلاقات الخارجية. 5. العراق- الأحوال السياسية. 6. العروبة.

أ. العنوان.

956.704

العنوان بالإنكليزية

King Faisal I, 1883 - 1933

His Historical Roles and Renaissance Projects

Sayyar al Jamil

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة

عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

Email: info@caus.org.lb

http://www.caus.org.lb

© حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2021



فيصل الأول (1883 - 1933)

الإهداء

إلى روح حفيده الملك الشاب فيصل الثاني

الذي قُتل في بغداد ظلمًا وعدوانًا

صبيحة 14 تموز/يوليو 1958

المحتويات

شكر

لا يسعني وأنا أكمل هذا الكتاب وأدفعه إلى النشر، إلا أن أقدّم واجب الشكر والتقدير إلى كل من قدّم إلي يد المساعدة في هذا العالم، ومن أرسل لي منشورات وكتبًا ومقالات ومصورات تخص الموضوع، وأعانني في المكتبات ودوائر الأرشيف بالوثائق والتسجيلات والصحف القديمة. وأبرزها: دائرة التسجيلات البريطانية في لندن وأخص بالذات الآنسة جوي بيترسون، ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن. وأرشيف المس غيرترود بيل في نيوكاسل ببريطانيا، ومكتبة بودليان الجديدة بجامعة أكسفورد وأخص بالذكر الدكتورة ديانا غبسون، وقسم الأرشيف في مكتبة الكونغرس الأمريكي بواشنطن دي سي، والأرشيف الأمريكي في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، كما أشكر المكتبة الوطنية بباريس والأرشيف الفرنسي. ومكتبة جامعة تورنتو في كندا، ومكتبة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة التي قرأت فيها جريدة **القبلة** القديمة. ومكتبة جامعة آل البيت في الأردن.

أريد أن أسجل هنا خالص الشكر والتقدير لكل من الأساتذة والزملاء والأصدقاء: المؤرخ الراحل البروفيسور ألبرت حوراني الذي زودني بأوراق مهمة وقديمة. وإلى الدكتورة خيرية قاسمية ـ رحمها الله ـ لتزويدي ببعض أوراق محب الدين الخطيب. وإلى الدكتور محمد فاضل الجمالي والسيدة زوجته سارة باول جمالي ـ رحمهما الله ـ لما زوّداني به من معلومات في تونس منذ ربع قرن مضى. كما أثني على المعلومات التي زودّني بها الأستاذ المناضل هاني الهندي رحمه الله في عمّان بالأردن. وإلى المرحوم الدكتور خير الدين حسيب الذي كان أول من طرح عليّ فكرة تأليف هذا الكتاب قبل سنوات طوال، وأرسل لي بعض المصورات والكتب. وأشكر أيضًا الأستاذ المرحوم حسان علي البازركان الذي أرسل لي مصورات كتاب والده **الخاطرات**، وإلى الأستاذ الراحل نجدة فتحي صفوت الذي

زودني بوثائق مهمة؛ وإلى الدكتور محمد عدنان البخيت الذي أهداني جريدة **العاصمة** بمجلدين اثنين؛ وإلى الدكتورة هدى حوّا للمعلومات التي زودتني بها عن قريب والدتها أمينة كسباني؛ وإلى الأستاذ محمد مظفر الأدهمي الذي وفر لي نسخة من كتابه عن فيصل الأول؛ وإلى الدكتور خالد زيادة الذي أهداني كتابه **حكاية فيصل**؛ والدكتور مؤيد الونداوي الذي أرسل لي نسخة قديمة من مذكرة فيصل على الآلة الكاتبة كما أمدني ببعض الوثائق المهمة. وأشكر أخي الدكتور سرمد الجميل الذي وفّر لي أعدادًا مهمة من جريدة **صدى الجمهور**. وأشكر الأستاذ عادل الياسري الذي أرسل لي من أمريكا كتابه الضخم عن جده السيد نور شيخ بني ياسر في العراق؛ وإلى الدكتور مهند مبيضين الذي صور لي بعض الكتب من مكتبة الجامعة الأردنية. ولا أنسى كل من وفر لي بعض المراجع. وهم الإخوة الأساتذة: جمال باروت ويقظان كامل الجادرجي ومحمد الأرناؤوط وإبراهيم الزبيدي وعلي البربوتي ومنان دلال باشي وعبد الوهاب القصاب وفاضل سعدوني.

ولا أنسى أيضًا كلاً من الصديق المؤرخ البروفيسور جيري بنتلي الذي نبهني إلى وثائق مهمة في مكتبة الكونغرس بواشنطن دي سي، وأيضًا الصديق الدكتور توماس لنك الذي زودني ببعض المصورات والوثائق من جامعة كيل بألمانيا. وأيضًا الدكتور إدموند كليف في نيوكاسل على جهوده عن أوراق المس غيرترود بيل.. وأيضًا الدكتورة سمر ماضي لمساعدتي في الأرشيف الفرنسي ووثائق فرساي. وخالص تقديري إلى مديرة مكتبي في كندا السيدة نجوى مسعد لجهودها معي، وإلى كل الأساتذة الذين قرأوا نص مخطوطة الكتاب، وسجلوا ملاحظاتهم العلمية عليها الشكر والتقدير. وأخيرًا، أشكر عائلتي الصغيرة التي أخذني تأليف هذا الكتاب منهم ليل نهار على مدى أكثر من ثلاث سنوات كل الشكر والتقدير.

المقدمة

1 ـ أهمية الموضوع وحدوده

هذه قصة دراماتيكية معقدّة متشابكة ومزدحمة بالتناقضات الداخلية والخارجية تترجم حالة النصر والفشل في تجربة تاريخية عربية حدثت في إثر الحرب العالمية الأولى، إذ يعالج هذا الكتاب الأبعاد التاريخية للأدوار التاريخية والمشروعات النهضوية العربية التي تميّز بها الملك فيصل الأول (1883 ـ 1933). لقد كُتب الكثير عن فيصل الأول، ولكن تاريخه لم يزل بحاجة ماسة إلى المزيد من الدراسات والكشوف الوثائقية وتحليل التواريخ المجهولة في حياتنا قبل مرور أكثر من مئة عام.

كنت منذ شبابي المبكر أقرأ تاريخ هذا «الرجل»، وأتتبع أخباره وأفكاره، وكان مشروع تأليف كتاب عنه يكبر معي أيضًا حتى أتيحت لي الفرصة كي أشرع بتأليفه على مدى أربع سنوات مضت مع كل أتعابها ومنغّصاتها وما صادفته من مشكلات. ولكن شغفي كان يزداد يومًا بعد يوم مع تاريخ هذا الرجل الذي وجدته يحمل تاريخًا مثقلاً بالأحداث، وهو من أبناء جيل الاستنارة العربية الذي تخضرم بين القرنين التاسع عشر والعشرين، ونجح في استجابته للتحديات القوية، وأدى أمانته ورحل وهو في الخمسين من العمر، ولم يكمل أدواره التاريخية. هنا، ينبغي أن يمنح هذا الرجل حقه في التاريخ نظرًا إلى أدواره السياسية الخارجية والداخلية. ومن خلال رؤية جديدة إلى مشروعاته النهضوية التي تمّيز بها والتي توحي حتى اليوم بثقلها وحيويتها بعد مرور مئة سنة عليها؛ إذ كان صاحبها يتمتع بأمرين اثنين: **أولهما** واقعيته مع المنطق[1]، إذ يعد صاحب مدرسة براغماتية متفاعلة مع

---

(1) كما وصفه المؤرخ مجيد خدوري في كتابه عرب معاصرون، انظر: Majid Khadduri, *Arab Contemporaries: The Role of Personalities in Politics* (Baltimore, MA: Johns Hopkins University Press, 1976), pp. 45-46.

ضرورات الواقع بمنطقية عالية بعيدًا من الشعارات والأوهام، وثانيهما نظرته البعيدة إذ امتلك أفقًا واسعًا للنظر إلى الأمور ولا يمكن مقارنته بزعماء لهم رؤيتهم الضيقة وذهنيتهم الضحلة.

يروي هذا الكتاب الأحداث الدرامية للملك فيصل الأول. مع إعادة تقويم دوره التاريخي الحاسم في التطورات السياسية لما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها وحتى رحيله عام 1933، إذ بقي تأثيره كبيرًا في المنطقة طوال القرن العشرين[2]. لقد تميز فيصل الأول بزعامته القتالية عالية المستوى لمجموعة من الضباط العسكريين القدامى الذين تخرجوا في كليات إسطنبول العثمانية. ووجد ضالته في المساعدة السياسية التي كان يقدمها له لورانس العرب (T. E. Lawrence) (1888 - 1935) الذي أصبح حلقة اتصال بينه وبين العالم. لقد نظمت الثورة العربية ضد سياسات حكومة الاتحاديين العثمانية؛ وغدا فيصل الممثل الرئيسي للقضية العربية بحكم فعاليته وحيويته السياسية ومكانته الاجتماعية. كما عمل إلى جنب السيدة غرترود بيل (Gertrude Bell) (1868- 1926) لاحقًا. وفي مؤتمر فرساي بباريس للسلام عام 1919 وجد نفسه الزعيم العربي المؤسس الذي يخرج لأول مرة على العالم بمشروع أول دولة عربية مستقلة تمثلها حكومته في سورية، والتي قضى عليها الفرنسيون في إثر احتلالهم لبنان وسورية. فبقي فيصل في الظل قليلًا ليغدو أول ملك للعراق عام 1921 ومؤسسًا للعراق المعاصر. ويقف معه رعيل جيل الاستنارة المخضرم من المدنيين والعسكريين العرب. ونجح في تحقيق الأهداف التي رسمها[3].

يبحث هذا الكتاب في تاريخ كل المنطقة من خلال دراسة أحد رموز العرب المحدثين. هو فيصل الأول شريفًا وأميرًا وملكًا، وسأكون موضوعيًا في قراءة تاريخ هذا الرجل من دون أي انحياز إلا إلى الحقائق التاريخية، بالرغم من أنني وجدته من أفضل الزعماء العرب في القرن العشرين، ليس لأنه بنى إمبراطورية على رمال متحركة كغيره من خلال الشعارات والأوهام، بل لأنه الزعيم العربي الوحيد الذي واجه جملة من التحديات واستجاب لها بالرغم من هزيمته هنا أو هروبه من هناك. كما أنه الزعيم العربي الوحيد الذي

---

(2) Reeva S. Simon, «The Hashemite «Conspiracy»: Hashemite Unity Attempts, 1921–1958,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 5, no. 3 (June 1974), pp. 314-327.

(3) عن جيل الاستنارة العربية، راجع التفاصيل في: سيار الجميل، **نظرية الأجيال: المجايلة التاريخية، فلسفة التكوين التاريخي، تحقيب الثقافة العربية الإسلامية**، ط 2 (بيروت؛ تورنتو: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2018)، ص462-463.

تميز بمشروعاته النهضوية العقلانية والواقعية، ليس على المستوى القطري الضيق، بل على مستوى الأمة كلها.

هذا الكتاب يعد إعادة تفسير تاريخية، أزعم أنها جريئة وشاملة، للنضال السياسي والعمل النهضوي العربي من أجل إتقانها وفهم تجربتها التاريخية عندنا نحن العرب. وإن كان هذا الكتاب قد كُتب في بدايات القرن الحادي والعشرين، فهو لا يُسقط مناخات اليوم على تاريخ بدايات القرن العشرين، إذ راعينا الظروف الموضوعية التي عاناها الناس قبل مئة سنة. وبالرغم من عدم إنكارنا المخططات الاستعمارية والخارجية التي عبثت بمقدراتنا وقتذاك، فإن التاريخ قد علمنا كم قاسى الرجال الأوائل من قسوة أولوية الإمبريالية الغربية، وهم يطالبون بوحدتهم وسعيهم من أجل نهضتهم، وكل من بريطانيا وفرنسا كانتا تسعيان لإعادة هيكلة المنطقة حسب مصالحهما. فإن لم يقبل الناس بما حدث، فما الذي يمكنهم أن يفعلوه في معركة ميسلون البطلة عام 1920، أو ما يمكنهم أن يحققوه في ثورة العشرين المجيدة عام 1920؟ إن الدرس التاريخي لما حدث هو الذي سينفع الأجيال القادمة في بناء قوة عربية جديدة وتحقيق ما لم يتحقق في الماضي.

2 ـ لماذا هذا الكتاب؟

إن هذا الكتاب لم يأتِ لإعادة الاعتبار للملك فيصل الأول تاريخيًا، ولم يكتب لتعداد مآثره والتغني بأمجاده، أو تجريحه وتعداد أخطائه. فهو إنسان يخطئ ويصيب. ولكنه يأتي من أجل أن تدرك الأجيال القادمة أن زعيمًا مثل فيصل الأول كان الاقرب إلى الإيجابية منه إلى السلبية، وأنه سخّر حياته كلها من أجل أن يبني شيئًا مصيريًا للعرب. وسواء نجح أم فشل في مهمته، فإن حجم أعماله أكبر كثيرًا من سنوات عمره القصيرة. فضلاً عن كشف هذا الكتاب معلومات تاريخية ووثائقية جديدة وغير معروفة لدى المؤرخين سابقًا. لقد كان الرجل عربيًا قحًا ولم ينفصل يومًا عن عروبته وبقي يعتز بثقافته وتاريخه حتى رحيله المبكر.

إن الكتاب سيرد على أولئك الذين يستخفون به كونه «أعرابي من بدو الصحراء» ليقول لهم إنه ابن مدينة عريقة اسمها مكة. علمًا بأن الرجل لا ينكر أنه نشأ صبيًا مع البدو. وهذا الكتاب سيرد على نزعة استشرت عند الأتراك تقول بأنه حارب العثمانيين وأخرجهم من الحجاز وسورية، فنعلمهم بأن الرجل حاول طويلاً أن يثني الوالي جمال باشا عن اضطهاده للعرب، وإيقاف إعدام شبابهم. ولكن الاتحاديين رفضوا مطالب العرب المشروعة. فلم يبق أمام العرب إلا الثورة المسلحة والذهاب مع الحلفاء! فلا عتب

للأتراك المعاصرين أن يتهموا العرب بالانفصال عن العثمانيين. بدليل أن قوميات أخرى انفصلت عنهم قبل العرب. وأن العرب حاولوا ثنْي الأتراك الاتحاديين عن سياساتهم المضادة دون جدوى.

ويأتي الكتاب ليرد على العراقيين الذين يعارضون فيصل كونه من الحجاز، وأنه غير عراقي. وهذه المعزوفة بدأت منذ مئة سنة، ولم يزل يرددها البعض ليس لأسباب وطنية، بل لأسباب ديماغوجية؛ فالإنكليز ليسوا وحدهم وراء ترشيحه، بل كان أعيان العراق في أغلبهم مع ترشيح فيصل الأول كي يعتلي عرش العراق. وتكفي نظرة على الصحف العراقية القديمة، لنجد أن فيصل الأول كان قد نودي به ملكًا قبل غيره عند العراقيين. وسيكشف الكتاب أن الإنكليز قد غيّروا رأيهم في اللحظة الأخيرة بناء على إصرار العراقيين في أن يكون فيصل الأول ملكًا بدل غيره من العراقيين، بل وبدل شقيقه الأمير عبد الله بن الحسين.

أزعم أن هذا الكتاب يمثل قراءة تاريخية متوازنة لموضوع فيصل الأول، لا لذاته وتمجيد عرشه، بل لقراءة تاريخه، ومعرفة مواقفه، وفهم مشروعاته. فهل حمل غيره من الزعماء العرب تاريخًا أفضل من تاريخه المزدحم بالأحداث؟ وهل صنع أحدهم لنفسه مثل اسمه وشابه شخصيته كما صنع الرجل اسمًا دوليًا له منذ دخوله قاعة مؤتمر فرساي عام 1919؟ ويكاد الزعيم جمال عبد الناصر يحمل مزايا مشابهة، ولكنها من نوع آخر[4]، ففيصل واقعي التفكير له مرونته، وعبد الناصر رومانسي الخطاب له تصلبه[5]!

ولقد حرصت على أن تكون هذه الدراسة، علمية سهلة القراءة لتاريخ رجل مهم عاش قصة دراماتيكية طويلة ومعقدة بالرغم من أن عمره كان قصيرًا، إذ مات وهو في الخمسين من العمر... وقد استغرقت كتابة هذا الكتاب ثلاث سنوات ضمن ضوابط منهج يستوعب كل التفسيرات المعيارية التي تم تقديمها حتى الآن، ولا نجادل في فكرة أن الأحداث والتطورات الرئيسية في المنطقة قد خلقت من مكائد القوى العظمى، وبخاصة بريطانيا وفرنسا. ولكننا التفتنا أيضًا إلى قراءة الدوافع الرئيسية وراء التطورات الإقليمية، وغيبوبة العقل والمنطق عند الفاعلين المحليين من أجل تأسيس تاريخ موازٍ بيننا وبين الآخرين، ومن أجل الوضوح في معالجة انقساماتنا وأخطائنا التاريخية، ولكي يتعلم أولئك الذين

---

(4) أنيس صايغ، **من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر: في مفهوم الزعامة السياسية**، (بيروت: المكتبة العصرية، 1965).

(5) لقد أوضحت ذلك مفصلًا في كتاب لي في طريقه إلى النشر عنوانه «زعماء العالم الحديث: بناة وطغاة».

لا يعرفون الكثير من هذه الأحداث ولا يقدّرون ما قام به أولئك الزعماء، وأزعم أنهم سيتعلمون الكثير من هذا الكتاب وفيه أشياء جديدة، وسيكون ردًا على أولئك المؤرخين والساسة المتخصصين من ذوي الآراء المخالفة والمعارضة والكارهة وهم يواجهون تحديًا قويًا ومواجهة دامغة لتفسيراتهم العابرة والمرتبكة عن فيصل ونظامه بالرغم من أننا لا ننكر ما وقع به الرجل من أخطاء، إذ لم يكن معصومًا عنها أبدًا، ولكنه كان الأفضل بين الزعماء العرب في مرونته وصنع قراره وطول باله في تطبيق «خذ وطالب»، فضلاً عن انسجامه مع كل التيارات السياسية والفكرية في زمنه.

3 ـ مضامين الكتاب وفصوله

يتضمن هذا الكتاب مقدمة واثني عشر فصلاً وخاتمة مع قائمة للمصادر والمراجع المعتمدة. عالجنا في الفصل **الأول** تكوين زعامة فيصل. والتأمل في سيرته المكتنزة وأصله وتنقلاته في حياته وتكوينه وصولاً إلى زعامته ومؤهلاته. ثم حلّلنا في الفصل **الثاني** دراسة قيادته للثورة العربية التي سموها الكبرى، إذ عُدّت «مشروع نهضة عربية». وقد أثبتنا قدراته وريادته في الحرب بالاعتماد على قادة متمرسين كان أغلبهم من العراقيين، ردًا على ما أشاعه البريطانيون وتضخيمهم لدور لورانس في تلك الثورة العربية 1916 - 1918. أما الفصل **الثالث**، فقد وقفنا عند أول محاولة عربية بزعامة فيصل في تأسيس كيان سياسي مستقل في دمشق من خلال حكومته العربية التي عاشت بين 1918 ـ 1920، وتسمّت «الحكومة الفيصلية». وكيف واجه العرب تحديات الاستعمار بالقضاء على ذلك «الكيان» العربي الوليد؟ أما الفصل **الرابع**، وهو من أخطر الفصول التي عالجنا فيه التحديات التي واجهها فيصل إزاء التنين الاستعماري المتحالف، البريطاني والفرنسي، ومن ورائهما الصهيونية العالمية، في مؤتمر فرساي للسلام 1919، وما أعقبه من مؤتمرات لتقسيم أشلاء الإمبراطورية العثمانية المنهزمة. أما الفصل **الخامس**، فيرى محللاً قيمة هذه الكاريزما المتمثّلة بالأمير فيصل، وهو بين قوتين بريطانيتين تكمل إحداهما الأخرى على مدى 10سنوات: لورانس 5 سنوات منذ 1916 حتى مؤتمر القاهرة 1921، وغيرترود بيل 5 سنوات أخرى منذ مؤتمر القاهرة 1921 وحتى عام 1926. وكيف تعامل فيصل مع هاتين القوتين السياسيتين؟ أما الفصل **السادس**، فيبحث عن الكيفية التي استطاع هذا «الشريف» أن يستقطب من حوله نخبة من الشريفيين العسكريين والمدنيين الذين تخرجوا من تحت عباءته العربية، ليمثلوا مدرسة في أدوارهم المتنافرة مذ غدوْا طبقة سياسية حاكمة في العراق، ولكنهم سيتفرقون بعد رحيله. أما الفصل **السابع**، فقد سمّيته «سيمون بوليفار

العرب» تعقد عليه الآمال ويستبعد بقية المرشحين لعرش العراق في مؤتمر القاهرة 1921 الذي انعقد برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني وبرفقته عدد من المسؤولين الخطيرين في مخاض صراع الإرادات على عرش العراق، ومن أجل ترتيب أوضاع الشرق الأوسط. وسيفوز فيصل بذلك العرش بالرغم من أنف فرنسا وغيرها، سواء كان ذلك الغير من الخصوم العرب أو غيرهم في الإقليم. أما الفصل **الثامن**، فسيجد فيصل نفسه ملكًا «صاحب جلالة» يعتلي عرش العراق. ويبدأ فصلاً جديدًا من حياته السياسية يتمثل بتكوين العراق السياسي.

وسنقف في الفصل **التاسع** وعنوانه المحنّك فيصل و«مواجهة المشاكل الصعبة»، من أجل تحليل المشاكل العويصة التي واجهت فيصل. وهو يحكم العراق سواء المتعلقة بمشكلة إيران الحدودية المزمنة، أو مشكلة الموصل التي أثارتها الجمهورية التركية في إثر تسلّم كمال أتاتورك مقاليدها، أم بتمرد كل من الشيخ محمود الحفيد وملا أحمد البارزاني في كردستان، أم إخفاقات عبد المحسن السعدون مع الإنكليز وانتحاره (أو: قتله). وأيضًا تمرّد الآثوريين وهو في أيامه الأخيرة. وماذا كانت أساليبه في معالجة كل تلك المشكلات؟ وفي الفصل **العاشر** بحثنا عن قيمة الرجل وقد غدا هو الرمز العربي على صعيد الأمة. وسيكون في زمنه محور دائرة الإنتلجينسيا في المنطقة، إذ سيغدو ذلك الرعيل[6] بدءًا بالحاشية إلى النخبة في سورية، وسيغدو رعيله طبقة سياسية في العراق ستبقى بعد رحيله حتى لما بعد الحرب العالمية الثانية.

أما الفصل **الحادي عشر**، «الباني: دور فيصل الأول في بناء المجتمع الحديث»، إذ وقفنا عند دوره في بناء المجتمع الحديث مع مشروعات تعود له في العراق والتي بقيت سارية المفعول حتى 2003 بفعل ذلك التأسيس ومبادئه القوية. وأخيرًا فإن الفصل **الثاني عشر**، مشروع تجديد العراق. فهو يعالج تجديد فيصل الأول للعراق. وتحليل المذكرة الخطيرة التي تركها للتاريخ قبل رحيله. وهي تصلح منهاج عمل بمستقبل العراق، منتهيًا برحيله وننتهي بالخاتمة وهي خلاصة من الاستنتاجات المعرفية والدروس التاريخية التي يمكننا التأمل فيها عن تجربة رجل مؤسس لا يقلّ أهمية عن زعماء نهضويين ومجددين عاصروه في القرن العشرين.

لقد وجدنا أن الفصول الاثني عشر أعلاه متضمنة مواقف سياسية وتاريخية كبرى

---

(6) حول مفهوم «الرعيل»، انظر: خيرية قاسمية وعزيز العظمة، الرعيل العربي الأول: أوراق نبيه وعادل العظمة (لندن؛ بيروت: دار رياض نجيب الريس، 1991)، ص 20 وما بعدها.

وخطيرة ومعقدة جدًا. كانت بالنسبة إلى هذا الزعيم تحديات صعبة استجاب لها وتجاوزها تتمثل بالموقف من الاتحاديين العثمانيين. والموقف من الصهيونية العالمية، والموقف من المحتلين الفرنسيين. والموقف من البريطانيين إزاء العراقيين وحصولهم على الاستقلال. مع ما قدمه من مشروعات مهمة جدًا، كمشروع ثورة تاريخية، ومشروع بناء دولة اتحادية فدرالية، ومشروع استقلال شعب وفرض سيادة، ومشروع تحديث مجتمع.

ستجدونني قد توسعت في هذا الكتاب عند القضايا الكبرى التي عاشها فيصل الأول مركزًا على مشروعاته النهضوية. واختزلت منجزاته في حكمه دمشق أو بغداد نظرًا إلى كثرة ما كتب عن ذلك خلال العهدين المذكورين، إذ يكاد كل منهما قد غطي بالمعلومات والاخبار. وعليه، فقد كرسّت اهتمامي على معالجة القضايا والظواهر التاريخية في حياة فيصل وعهوده التاريخية، سواء كان ذلك في سورية أم العراق، ومواجهته للعالم لأكثر من مرة.

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، والعالم كله يتغنى بأسطورة «لورانس العرب» التي دخلت حتى في الخيال الشعبي للغرب. ومع ذلك. فإن الذي يقف وراء هذه الأسطورة اسمه توماس إدوارد لورانس الذي طبّل له البريطانيون، عاش معذبًا من جراء ما انعكس على حياته من سلوكيات وعلاقات مبهمة في دوائر السياسة ودهاليزها. أو في ميدان الحرب التي ميزته بشكل لا يمحى، إذ خلقت منه بريطانيا بطلاً أسطوريًا، كونه خدم منافعها الاستعمارية وما بعد الاستعمارية لصلته بالجزيرة العربية وإجادته العربية ومعرفته بالتقاليد العربية.

وعليه، فإن هذا الكتاب سيضع لورانس في حجمه الطبيعي. لقد بات الغرب لا يعرف شيئًا على الإطلاق عن العرب إبان بدايات القرن العشرين. ولا عن دور أمير وملك عربي يدعى فيصل الأول، ولم يبق في ذاكرتهم إلا لورانس العرب وصورته في الفيلم الجائر الذي صور عنه بلباسه العربي في الصحراء العربية[7]، ذلك الفيلم الذي لم ينصف فيصل أبدًا.

(7) فيلم لورنس العرب (Lawrence of Arabia Film) هو فيلم درامي تاريخي بريطاني أُنتج عام 1962 مصوّرًا سيرة حياة ت. لورانس. أخرجه دايفيد لين وأنتجه سام شبيغل، من خلال شركته البريطانية Horizon Pictures، ووزعته كولومبيا بيكتشرز. الفيلم من بطولة بيتر أوتول في دور البطولة مع أليك غينيس الذي يؤدي دور الأمير فيصل. كتب السيناريو روبرت بولت ومايكل ويلسون. وإنتاج الفيلم، بريطاني وأمريكي مشترك، يصور تجارب لورانس في أجزاء من أراضي الحجاز وسورية الكبرى عند نهايات عهد الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، ولا سيما هجمات الجيش العربي على العقبة ودمشق وتورطه مع العرب الذين صوروا في الفيلم تصويرًا مشوّهًا والتعاطف مع لورنس وأعلاء شأنه في الحرب، ومهمته الخاصة، وتعامله مع القوات وكأنه قائدها وليس فيصل مع رفاقه الجدد =

وأظهره تابعًا ذليلاً وشخصية ليس لها أي طعم ولا معنى ولا قيمة. والحقيقة مغايرة تمامًا لذلك الإجحاف التاريخي بحقّ رجل شوّهت صورته، ومحيت شخصيته، وألغيت بطولته.. فضلاً عن مأساة تغيير أمة كاملة، وإظهار العرب بصورة غلاة متوحشين وقساة توسعيين، لا ذمة لهم ولا ضمير، وانتزاع صفة التمدن والضبط والربط عن رجال عرب قاتلوا ضد الدولة العثمانية التي هيمن عليها الاتحاديون في الحرب العالمية الأولى. وتغييب هوية العرب الوطنية والقومية والإنسانية. والأمر يسري على العرب أنفسهم، فلقد غاب من تاريخ العرب اليوم اسم فيصل الأول. ولم يعد يعرفه أو يسمع به إلا القلة القليلة من الأجيال العربية الجديدة. وقد غاب عنها اسمه وأدواره وقوة زعامته وتأثيره التاريخي على كلّ المنطقة إبان القرن العشرين.

4 ـ تحليل المصادر والمراجع

لقد أعانتني في كتابة هذا «العمل» جملة كبيرة من المصادر والمراجع المهمة. واعتمدت على جملة وثائق ورسائل وبرقيات وخطابات مهمة جدًا بمعلوماتها، فضلاً عن قرارات وبيانات مؤتمرات حددت مصير العراق. فضلاً عن قراءة دقيقة في صحف قديمة. فضلاً عن كتب مذكرات ومراجع ودراسات متنوعة لمؤرخين عرب وأجانب ومستشرقين التي أخضعتها للنقد التاريخي ومقارنة مضامينها بما جاء في المصادر القديمة. ويتبين من خلال الوثائق المستخدمة أن بعض المؤرخين، لا يقدمون تحليلات ذكية ومرضية من خلال قراءاتهم للمصادر الأولى للمعلومات، أو أنهم يدركون الأمر على حقيقته، ولكن تمنعهم عوامل خفية ودوافع دفينة من أجل تشويه تاريخ رجل يجمع العراقيون على أنه أفضل من حكم العراق في القرن العشرين. فهناك من ينتقص من عروبته باسم وطنية مزيفة سواء في سورية أم في العراق. وهناك من ينتقص من تجربته الصعبة في السلم أو الحرب ليجعله ملكًا مستوردًا أجلسوه على عرش العراق، ومنهم من يخاصمه كونه حجازيًا وليس سوريًا أو عراقيًا، علمًا بأن السوريين أو العراقيين لم يجمعوا على من يحكمهم من أبناء وطنهم حتى يكون فيصل على فوهة مدفع؟

= في قبائل الصحراء العربية. الفيلم من بطولة جاك هوكينز، أنتوني كوين، عمر الشريف، أنتوني كويل، كلود رينز وآرثر كينيدي. نال الفيلم عدة جوائز، واعترف به كواحد من أعظم الأفلام وأكثرها تأثيرًا في تاريخ السينما. واعتبر مادة تاريخية ثقافية وجمالية مهمة وتم اختياره للحفظ في مكتبة الأفلام الوطنية بمكتبة الكونغرس الأمريكية. انظر:
Adrian Turner, *The Making of David Lean's Lawrence of Arabia* (Dragon's World Ltd.,1994).

قارن بـ: L. Robert Morris and Lawrence Raskin, *Lawrence of Arabia: The 30th Anniversary Pictorial History* (New York: Doubleday and Anchor, 1992), A book on the creation of the film, authorised by Sir David Lean.

لقد كتبت عن فيصل الأول الكثير من الكتب والأدبيات والموسوعات، وتناوله كل الساسة العرب الذين عملوا تحت قيادته في مذكراتهم وتواريخهم. كما واعتنى الكثير من الباحثين والمؤرخين بمكانته وسيرته وارتباطاته وصولاً حتى وفاته. فنشرت عنه جملة كبيرة من الآراء والأحكام. وبالرغم من ذلك كله، فإن تاريخه المتنوع برغم حياته القصيرة بحاجة إلى المزيد من الأعمال والدراسات والبحوث. وينبغي الاعتماد على مصادر أساسية ووثائق وأوراق وسجلات وصحف قديمة في كتابة تاريخ بيوغرافي لزعيم عربي معروف مع تحليلات علمية وإجلاء مسائل ومشكلات. إن الاعتماد على وثائق تاريخية نادر جدًا لا يفي بما تفرضه الضرورة البحثية لمحطات متعددة. وهذا نقص منهجي آخر عند بعض المؤرخين. إن وثائق تاريخية مهمة جدًا غاب توظيفها. وهي بريطانية وعثمانية وفرنسية وعراقية وسورية، وهناك افتقاد لمصادر أساسية. إن من المهم جدًا توظيف تاريخ مقدرات العراق السياسية لمحمد طاهر آل المصيب العمري[8]. وجريدة **القبلة** التي كانت تصدر في مكة[9]، والتي جُمعت وأعيد نشرها في مجموع مصّور كبير في الأردن قبل سنوات. وهناك أيضًا جريدة **العاصمة**، وهي الجريدة الرسمية للحكومة الفيصلية الصادرة في دمشق إبان حكم فيصل، والتي أعيد نشر مادتها في مجلدات كاملة إبان التسعينيات في الأردن[10]؛ ناهيكم بالصحف الصادرة في عهد فيصل وخصوصًا جريدة **صدى الجمهور** العراقية التي أصدرها جدّي الأستاذ علي الجميل 1889 ـ 1928.

اعذروني إن قلت بأن العرب لم يوفّقوا تمامًا في تغطية التاريخ المفعم بالأحداث والمواقف والقرارات زمن الحكومة الفيصلية في سورية قبل الاحتلال الفرنسي وزمن تحديات العالم لمنطقتنا كأشلاء أو أسلاب عثمانية كما اعتبروها، إلا قليلاً، من جراء عدم اطلاعهم على الأدبيات التاريخية الرسمية التي صدرت في دمشق إبان تلك المرحلة

---

(8) انظر: محمد طاهر آل المصيب العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، 3 ج (الموصل: مطبعة عيسى محفوظ، 1924)، ج 1، ص 63 - 120.

(9) جريدة **القبلة**، صدرت في مكة المكرمة في 15 آب/أغسطس 1916. وكانت تطبع في المطبعة الحكومية الهاشمية الأميرية الواقعة في أجياد بمكة المكرمة وتولى مسؤولية تحريرها الشيخ محب الدين الخطيب ثم أعقبه حسين الصبان. وكان الشريف الحسين بن علي نفسه يدبّج مقالات سياسية وأدبية فيها ويوقعها باسم مستعار، مثل «ابن جلا» وكان هو الذي يهتم بما ينشر فيها بإشرافه شخصيًا على تحريرها، إذ يحذف أو يضيف بنفسه.

(10) أصدرت الحكومة العربية ـ الفيصلية في دمشق صحيفة باسم العاصمة، وكان العدد الأول يوم 17 شباط/ فبراير 1919 أصدرها (شكري باشا الأيوبي) الحاكم العسكري لولاية حلب، كما أصدر جريدة باسم حلب وصدر العدد الأول منها يوم 9 كانون الأول/ديسمبر عام 1918. انظر: سلسلة الوثائق الهاشمية: **صحيفة العاصمة (الصحيفة الرسمية للحكومة العربية 1918 - 1920)**، مج 1 و مج 2 (عمان: منشورات جامعة آل البيت، 1998).

التاريخية الصعبة. وفي مقدمتها جريدة **العاصمة** التي صدرت بإعادة نشرها في مجلدين كبيرين عام 2000، وأيضًا جريدة **القبلة** التي صدرت في مكة أيام الثورة العربية وما تلاها والتي أعيد نشرها هي الأخرى بجهود من الأمير الحسن بن طلال في الأردن. بل اكتفى الجميع بسرد ما كان غيرهم من المؤرخين قد كتبوه عن الموضوع قيلاً عن قال. وينبغي القول بأن المعلومات التي تضمنتها ملفات البلاط الملكي في العراق قد استفاد منها عدد من الباحثين والمؤرخين العراقيين في نصف قرن مضى.

دعوني أتوقف قليلاً عند بعض الدارسين والمؤرخين الذين كتبوا حول تجليات الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1918م وآثارها في الواقع. وأستطيع القول جازمًا بأن أغلبهم كتب وحرر واستنتج وأطلق أحكامًا. وهو لم يطّلع بشكل متروٍّ ودقيق على الوثائق والمحررات والخطب والمراسلات والمذكرات التي صدرت إبان حياة الحكومة العربية بدمشق، فضلاً عما كان يصدر فيها من الصحف وأبرزها: جريدة **العاصمة** الرسمية. علمًا أن هناك من اطّلع على بعض القيود والوثائق العثمانية التي سبقت تأسيس الحكومة، أو اطّلع على بعض الوثائق والقيود الفرنسية التي لحقت بانهيار الحكومة المعنية. ومنهم: أنكوس م. موندي (Anugus M. Mundy)[11]، وإيلي خدوري (Elie Kedouri)[12]، وجون ي. ماك (John E. Mack)[13]، وستيفن هيمسلي لونكريك (S. H. Longrigg)[14]، ومالكوم بروس رسل (Malcolm Bruce Russell)[15]، (الذي اطلع على بعض وثائق الحكومة العربية بدمشق) وهشام نشّابه (Hisham Nashabi)[16]، وفيليب دايفيد[17] (الذي اطلع

---

(11) راجع مقارنًا: Angus Mundy, «The Arab Government in Syria from the Capture of Damascus to the Battle of Meisalun (30 September 1918 - 24 July 1920,» (Unpublished MA Dissertation, American University of Beirut, 1965).

(12) انظر: Elie Kedouri, «The Capture of Damascus, 1 October 1918,» *Middle Eastern Studies*, vol. 1, no. 1 (October 1964), pp. 66 - 82.

(13) راجع ما كتبه: John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (London: Harvard University Press, 1967).

(14) انظر تحليلات لونكريك: Stephen H. Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate* (London: Oxford University Press, 1958).

(15) انظر: Malcolm B. Russell, «The Birth of Modern Syria: Amir Faysal's Government in Damascus, 1918 - 1920,» (Unpublished Ph.D. Thesis, Johns Hopkins University, 1977).

(16) انظر أيضًا: Hisham Nashabi, «The Political Parties in Syria 1918 - 1933,» (Unpublished MA Dissertation, American University of Beirut, 1952).

(17) وبالفرنسية، راجع تحليلات: Philippe David, *Un Gouvernment arabe? Damas: Le Congrés Syrien* (Paris: Marcel Giard, 1923).
ويأتي اطلاع فيليب ديفيد على بعض الوثائق الداخلية نظرًا إلى معايشته الأحداث.

على جزء من الوثائق الداخلية)، و ي. بالديسيرا (E. Baldissera)[18]، وفيليب خوري (Philip Kourri)[19]، الذي خلط الأوراق التاريخية جميعًا في تقييم طبيعة أول حكومة عربية مستقلة في دمشق وإطلاقه مجموعة من الأحكام الفاصلة دون استخدامه لوثائق تلك الحكومة نفسها! ولا يمكنني الاقتناع بأن المؤرخة الأمريكية فيب مار تحدد لنا نقاط القوة ونقاط الضعف في كل مرحلة تاريخية عراقية! كما لا يمكنني الاقتناع أبدًا بأن أطروحتها هي أن العراق كان دائمًا تحديًا للحكم بسبب تنوعه، وكأن مجتمعات أخرى في هذا العالم لا تمتلك تنوعات هي الأخرى[20]؟ لا أدري كيف لمؤرخة أمريكية تنصح العراقيين بالحكم الجيد، وهي نفسها قد ساهمت قبل عام 2003 بالتخطيط لتدمير العراق باعتماد متخذي القرار الأمريكان عليها؟ وسيرى القارئ الكريم كم كانت الحملة مضادة لتاريخ الملك فيصل الأول من جانب المؤرخين الصهاينة الذين قاموا بتشويه مواقفه وسياسته كونه استطاع التخلّص من الضغوط الصهيونية بذكاء ودهاء شديدين.

وهناك جماعة أخرى من المؤرخين الذين فسّروا تاريخ العراق المعاصر تفسيرًا ماركسيًا. ولا اعتراض لي على منهجهم، بل على تطبيقات بعضهم. ذلك أن تاريخنا المعاصر لم يولد من فراغ. ولم يستعره أحد من تواريخ أوروبية، بل هو حصيلة ركامات من تواريخ قرون مضت. فلا يمكن إطلاق أحكام أيديولوجية جاهزة عليه كما فعل حنا بطاطو وبيتر وزوجته ماريان سلاكليت وأيضًا سامي زبيدة وإسحق نقاش وايلي خدوري وفيب مار وغيرهم. ومن نافل القول أن جامعة آل البيت في الأردن كانت قد عقدت ندوة مهمة عن تأسيس الدولة العربية الحديثة وتاريخ فيصل الأول في سورية والعراق منذ قرابة 25 سنة. وقد نشرت أعمالها، بكل ما تضمنته من الأوراق العلمية المهمة المقدمة فيها[21]. وأخيرًا،

---

(18) E. Baldissera, «Note di Storia Siriana: Gli ultimi giorni del regno siriano di Faisal ibn Husein,» *Orient Moderno*, vol. 52 (1972), pp. 341 - 355.

مستفيدًا من بعض الأوراق والصحف الإيطالية التي فيها تفصيلات عن الأحداث بعد مغادرة فيصل بلاد الشام نحو أوروبا عبر إيطاليا.

(19) Philip S. Khoury, «The Politics of Nationalism: Syria and the French Mandate, 1920 - 1936,» (Ph.D. Thesis, Harvard University, 1980).

انظر له أيضًا: Philip S. Khoury, «The Tribal Shaykh, French Tribal Policy and the Nationalist Movement in Syria between Two World Wars,» *Middle Eastern Studies*, vol. 18, no. 2 (April 1982), pp. 180 - 193.

(20) Phebe Marr with Ibrahim Al - Marashi, *The Modern History of Iraq*, 4th ed. (London: Routledge, 2018).

(21) انظر: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، إعداد وتحرير هند أبو الشعر (المفرق؛ عمّان: منشورات جامعة آل البيت، 1999).

نشر علي عبد الأمير علاوي كتابًا بالإنكليزية عن تاريخ الملك فيصل الأول، عام 2014 عن مطبعة جامعة ييل Yale الأمريكية بعنوان Faisal I of Iraq، بـ 634 صفحة، زيّنه بصور وخرائط وله فهارسه[22]. وكنت قد كتبت ملاحظاتي النقدية عليه ونشرتها عام 2016[23]، ولا بد أن أذكر عدة أطروحات عراقية منحت في كل من جامعات بغداد والموصل والبصرة. وكتبها باحثون عراقيون قبل أكثر من 25 ـ 30 سنة مضت. تميزت بالجودة. وقيمتها أنها تضمنت مصادر ووثائق وملفات البلاط الملكي العراقي. أذكر بعض أسماء اصحاب تلك الأعمال، أمثال: عبد المجيد كامل[24] وعبد الرزاق النصيري[25] وغازي المرسومي[26] وعلاء جاسم محمد[27] وغيرهم. وينبغي أن أذكر أن بعض المراجع قد كانت من أجل الاطلاع. إذ لم أعتمد عليها في المعلومات التاريخية لعدم ثقتي بها أصلاً، مثل كتاب قدري قلعجي[28] وكتاب مصطفى طلاس[29]. وكتيب فيصل السامر. فالأول مادته إنشائية صرفة، والثاني أشك في كتابة مؤلفه له بنفسه. والثالث قد اطلعت على مصورات من الكتاب فلم أجد فيه أي جديد[30]!!

5 ـ أهمية المذكرات ومقالات المعاصرين لفيصل الأول

لا يمكن الاكتفاء بما هو مسجل في بعض المراجع عن فيصل. وأتمنى على الباحثين أن يتعمقوا في علاقة فيصل بكل من سورية والعراق وأهليهما. وكيف بنيت تلك العلاقة

---

(22) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014).

(23) انظر: سيار الجميل، «سيمون بوليفار العرب: كيف كتب علي علاوي تاريخ الملك فيصل الأول؟،» **المستقبل العربي**، السنة 38، العدد 443 (كانون الثاني/يناير 2016).

(24) عبد المجيد كامل التكريتي، **الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية، 1921 - 1933** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991).

(25) عبد الرزاق أحمد النصيري، «دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908 - 1932،» (أطروحة دكتوراه مقدمة إلى جامعة بغداد، كلية الآداب، 1990).

(26) غازي المرسومي، **البلاط الملكي في العراق ودوره في الحياة السياسية، 1921 - 1933** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).

(27) علاء جاسم محمد الحربي، **الملك فيصل الأول: حياته ودوره السياسي في الثورة العربية وسورية والعراق 1883 - 1933** (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1990).

(28) قدري قلعجي، **الثورة العربية الكبرى 1916 - 1925: جيل الفداء يومًا بيوم مع كامل الاسماء والوثائق والأدوار**، ط 2 (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1994).

(29) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى: دراسة تاريخية** (دمشق: دار طلاس للترجمة والنشر، 1984) (ط 1987/4).

(30) فيصل السامر، **جوانب جديدة من حياة الملك فيصل الأول** (باريس: [د. ن.]، 1976).

وخصوصًا ما عرف عن فيصل بتجسيره العلاقة مع النخب المثقفة السورية والعراقية من أدباء وأعيان وشعراء وساسة وعسكريين ومختصين من كل أصناف المجتمعين ومن كل بيئات سورية والعراق[31]. ولا ننسى كتب المذكرات المتعددة التي صدرت منذ أكثر من سبعين سنة لشخصيات مؤثرة عرفت فيصل حق المعرفة سواء كانوا من السوريين أو العراقيين أو الفلسطينيين واللبنانيين والأردنيين وهم كثر وكلها أفادتني في تكوين صورة واضحة عن فيصل الأول، ومن أهمها مذكرات وأوراق وتسجيلات: الملك عبد الله الأول وجعفر العسكري ورستم حيدر وعوني عبد الهادي ونوري السعيد وأحمد قدري وعلي جودت وتوفيق السويدي وناجي شوكت وتحسين قدري وحسين مكي خمّاس ونبيه وعادل العظمة وساطع الحصري وغيرهم. وكتب علي البازركان كتابه **خاطرات مكتومة** (3 مجلدات) وأفادني المجلد الثاني الذي يشمل فترة الاحتلال والانتداب الإنكليزي للعراق العربي من احتلال بغداد إلى مجيء الملك فيصل الأول إلى البصرة، وفيه نشأة حزب حرس الاستقلال ونظامه الداخلي، والمراحل التي مرت بها بغداد، وذهابه إلى الفرات الأوسط ورفعه بيرق العراق، ثم سفره إلى الحجاز وإلى عمان وعودته مع الملك فيصل الأول إلى العراق وملاحق فيها وثائق مهمة وردود أيضًا.

ويكفي الباحث والمؤرخ لو اطلع على المقالات التي نشرت في الصحف السورية والعراقية المتعددة التي كانت تصدر في العشرينيات لوجد مادة تاريخية رائعة لم يكشف النقاب عنها حتى يومنا هذا، وأخص بالذكر مقالات وقصائد وصحف كل من: محب الدين الخطيب ومحمد رشيد رضا وأمين حشيمي وفائز الخوري المحامي وقبلان الرياشي وجبر ضومط وراشد البيلاني ومحمد حمدي السفرجلاني وفتح الله سرسم، ومراد بيك سليمان، وعبد الجبار باشا الخياط، وعبد الحسين الأزري، وسليمان فيضي المحامي، وخير الدين العمري، وعبد الغفور البدري، ويونان عبو اليونان، وداود صليوا، وإبراهيم حلمي العمر، وعلي الجميل، وإبراهيم صالح شكر، وإنستاس ماري الكرملي، وكاظم الدجيلي، وسليم حسون، وعبد اللطيف ثنيان، وحسن غصيبه، وروفائيل بطي، وتوفيق السمعاني، ومعروف الرصافي وغيرهم[32].

---

(31) قارن بـ: سيار الجميل، «إنتلجنسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة،» **المستقبل العربي**، السنة 13، العدد 139 (أيلول/سبتمبر 1990). وهو في الأصل بحث قُدّم إلى الملتقى الأكاديمي تحت عنوان: «النخبة والسلطة في العالم العربي» الذي نظمه مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية في الجامعة التونسية في الفترة 4 - 9 كانون الأول/ديسمبر 1989.

(32) انظر: سيار الجميل، «الملك فيصل الأول والنخبة المثقفة: تأسيس جامعة آل البيت في العراق،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**.

أخيرًا، أود الإشارة أيضًا إلى أنني قمت بالتفريق بين المصادر وبين المراجع بتوصيفي ذلك في الهوامش والملاحظات، فالمصدر كل مادة قديمة قريبة من حياة فيصل والمرجع كل ما كتب حديثًا عنه. أزعم أنني قدمت محاولة علمية في تاريخنا العربي المعاصر والتركيز على تاريخ فيصل الأول سواء من الناحية البيوغرافية، وفهم زعامته ومنجزاته وخطابه بمنهجية عالية، وموضوعية متوازنة، وتحليلات مقارنة، واستشارة وثائق مهمة وجديدة. وأعتقد أن هذه «المحاولة» ستعقبها محاولات وتجارب ودراسات أخرى في المستقبل، سواء في الكشف عن معلومات جديدة، أو تحليل جوانب خافية، والبحث بما فيه الكفاية عن مصادر ووثائق أخرى في تاريخ الملك فيصل الأول. ومهمة المؤرخ الجاد أن يكون ذكيًا وموضوعيًا وحياديًا وحصيفًا من دون الدفاع عن جانب ضد الآخر. أتمنى مخلصًا أن تكون قراءة هذا «الكتاب مشوقة جدًا ونافعة لكل المهتمين في العالم بتاريخ رمز من رموز العرب. وإن دراسته بحاجة إلى إعادة نظر وتعمّق وموضوعية أكثر مما صدر حتى الآن عنه، أو ما قيل بحقه، وخصوصًا أن هذا العمل لا يتناول مجرد بيوغرافية زعيم عربي، بل إنه يركّز على مواقفه التاريخية ومشروعاته النهضوية العربية، وحجم التحديات التي استجاب لها وواجهها بحكمة وذكاء. فكان أن سجّل له شأنه الكبير في تاريخنا المعاصر. أتمنى أن يقرأ العالم قصة رائعة لزعيم عربي غبن حقه كثيرًا حتى الآن، ونال منه الكتاب المؤدلجون أو الكارهون أو الطائفيون أو الذين تناقلوا الأحكام الخاطئة من دون معرفة؛ إذ قدّم عدد من الكتّاب والمؤرخين بعض الأعمال منها الإنشائية الغارقة بالمديح أو الذم. ومنها المكررة التي تسرد النصوص والأحداث بلا أي تحليل أو فهم عميق. ومنها كتابات لا جديد فيه من المعلومات. ولم يعتمد أبدًا على الوثائق التاريخية.. واعتذر مسبقًا أن سهوت أو أخطأت أو قصّرت في كتابة فصول هذا الكتاب. وأختم بالقول: ليس المؤرخ من يجمع أي مادة تاريخية من مسرب عادي واحد، ولكن ما قدرته على فهم خفاياها من مسارب مختلفة. أتمنى مخلصًا أن أكون قد نجحت في بحث الملك فيصل الأول ودراسة مواقفه التاريخية ومشروعات النهضوية. وكنت موضوعيًا في معالجتي هذا «الموضوع». وسأتقبّل أي ملاحظات أو نقد بصدر رحب وفاء للبحث التاريخي واحترامًا لمؤسس تاريخنا العربي المعاصر.

سيّار الجميل

أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث

تورنتو ـ كندا

1 أيار/مايو 2020

الفصل الأول

التكوين
انبثاق زعامة نهضوية عربية
تاريخ حكاية فيصل

أولًا: التاريخ المتنوع لسيرة فيصل الأول

تاريخ فيصل الأول قصة غنية ومشوِّقة ومتنوعة ومعقدة وغاية في الإثارة والتعدد والصور والألوان، فهي متشابكة جغرافيًا بين إسطنبول العثمانية ومكة الحجازية ودمشق السورية وبغداد العراقية، مع محطات في باريس ولندن وروما والقدس وحيفا وأنقرة وطهران وبرن بسويسرا، فقد قضى الرجل 5 أو 6 سنوات من طفولته في الحجاز، و19 سنة من حياته الأولى في إسطنبول وأكثر من 10 سنوات في مكة الشريفة بالحجاز، وقرابة 4 سنوات في بلاد الشام، و11 سنة في بغداد بالعراق، ناهيكم بأوقات سفريات أخرى في أوروبا. ومرت حياته بسلسلة منعطفات مذهلة سواء في أيام السلم أم الحرب، وتنوعت مواجهاته الدرامية في الحرب سواء في تجربته الأولى ضد الأدارسة في جنوب عسير؛ أم ضد الأتراك العثمانيين إبان الحرب الأولى؛ أم ضد المحتلين الفرنسيين الذين أزاحوه عن السلطة وقضوا على تجربته العربية. أو مخاضاته الصعبة في السلم والمفاوضات بدءًا مع والي سورية الشهير جمال باشا (السفاح) أو في تجربته بتأسيس حكومة عربية مستقلة في سورية (1918 ـ 1920)[1]، أو مع أعمدة الاستعمار في مؤتمر فرساي 1919

(1) لقد استوحى المؤرخ خالد زيادة من تلك التجربة روايته التي سمَّاها حكاية فيصل، ط 2 (بيروت: دار النهار للنشر، 1999).

وضغوط الصهيونية العالمية عليه. وصولاً إلى مفاوضاتهم مع البريطانيين من أجل استقلال العراق، مرورًا بمفاوضاته مع شاه إيران الجديد رضا بهلوي[2]، أو مع الرئيس التركي الجديد مصطفى كمال أتاتورك[3]، أو مع خصم الهاشميين في الجزيرة العربية الملك عبد العزيز آل سعود[4] الذي لم يوافق أبدًا على أن يكون فيصل بن الحسين ملكًا على العراق[5]. وقد غرست العروبة في أعماق فيصل، إذ ساهم في إثراء الأمة بتجاربه وأفكاره مستلهما إياها من ثقافته التاريخية الواسعة[6]. ولم يميِّز الرجل في كل تجاربه بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين واليهود والصابئة واليزيديين؛ ناهيكم بعدم تفريقه بين السنة والشيعة في العراق أبدًا[7]. لقد واجه الرجل تحديات قاسية في حكمه لكل من سورية والعراق، وحتى رحيله المبكر، إذ مات وهو في الخمسين من عمره. وقد اتُّهم بعد مماته بعدة تهم. نسجت عدة قصص وهمية عن حياته، إذ اتهم بأكثر من قصة حب وعشق منذ شبابه المبكر. وهي لا أساس لها من الصحة. ومن جانب أميرة اشتهرت بكتابة قصص رومانسية اسمها كاثرين ريدزيويل (Catherine Radziwill)[8].

---

(2) رضا بهلوي، شاه إيران (1878 ـ 1944)، مؤسس الدولة البهلوية، حكم ما بين 1925 و1941 قام بخلع آخر شاه من الأسرة القاجارية الشاه أحمد شاه قاجار في 12 كانون الأول/ديسمبر 1925 وأنهى حكم القاجاريين. خلفه ابنه الشاه محمد رضا بعد أن أجبره غزو بريطاني ـ سوفياتي مزدوج في 25 آب/أغسطس 1941 على التنحي في 16 أيلول/ سبتمبر 1941. انظر: Cyrus Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power* (New York; London: I. B. Tauris, 2000), pp. 25 - 50.

(3) مصطفى كمال أتاتورك (1881 ـ 1938) مارشال ميداني تركي ورجل دولة ثوري ومؤلف ومؤسس لجمهورية تركيا الحديثة، وكان أول رئيس لها منذ عام 1923 حتى وفاته عام 1938. وقد قامت قيادته بإصلاحات تقدمية كاسحة، قامت بتحديث تركيا إلى دولة علمانية صناعية اعتمد الأيديولوجيا العلمانية والقومية، وأصبحت سياساته ونظرياته تعرف باسم الكمالية. نظرًا إلى إنجازاته العسكرية والسياسية، يُعد أتاتورك وفقًا للدراسات أحد أعظم قادة القرن العشرين. انظر: Feroz Ahmad, *The Making of Modern Turkey* (London; New York: Routledge, 1993), pp. 34 - 89.

(4) عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود 1876م ـ 1953 مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة وأول ملوكها، والحاكم 14 من أسرة آل سعود. نجح بعد احداث حافلة ان يضم إلى نجد والاحساء كل من حائل والحجاز وعسير ونجران والربع الخالي لتشمل أصقاع مملكته أغلب الجزيرة العربية. انظر: Gary Troeller, *The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud* (London: Frank Cass, 1976), pp. 45 - 90.

(5) كاظم نعمه، **الملك فيصل الأول والانكليز والاستقلال** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988)، ص 63 ـ 64.

(6) Nur Masalha, «Faisal's Pan - Arabism, 1921 - 33,» *Middle Eastern Studies*, vol. 27, no. 4 (October 1991), pp. 679 - 693.

(7) انظر التفاصيل في: سيار الجميل، **جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية اسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل** (الدوحة؛ الشارقة؛ بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، 2012)، ص 91 ـ 106.

(8) راجع الفصل الأخير من هذا الكتاب.

ثانيًا: الرقم الصعب في الشرق الأوسط

اقترن اسم فيصل الأول بتأسيس كيانين عربيين سياسيين: أولهما في سورية باسم **الحكومة الفيصلية** التي انهارت مع احتلال فرنسا لسورية ولبنان عام 1920. وثانيهما في العراق عام 1921 باسم المملكة العراقية[9]، التي حكمها بعد وفاته عام 1933، حفيده فيصل الثاني، حتى الانقلاب العسكري الذي أطاح المملكة عام 1958، ليبدأ النظام الجمهوري في العراق. ولكن بقيت أسس الدولة التي أسسها فيصل موجودة حتى 2003، إذ إنها تفككت ورحلت عن الوجود من دون عودة في إثر الاحتلال الأمريكي وتداعياته.

كان الملك فيصل الأول أيضًا رقمًا صعبًا في صنع الشرق الأوسط الحديث. بدءًا بالثورة العربية عام 1916 بأطوارها الزمنية الثلاثة، حيث أدت الأحداث إلى أن تخسر الإمبراطورية العثمانية الحرب مع حليفتها ألمانيا أمام بريطانيا وفرنسا.. ولقد أدى تفكك الإمبراطورية العثمانية إلى إقامة دول عربية جديدة. وكان فيصل أحد أبرز اللاعبين التاريخيين سواء في قيادته للثورة ودخوله دمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1918 وتأسيسه الحكم الفيصلي. ومن ثم اشتراكه في مؤتمر فرساي بباريس في 6 شباط/فبراير 1919. ومن ثم تأسيسه للحكم في العراق عام 1921 وحكمه 12 عامًا حتى وفاته عام 1933[10]. وعليه، فإن حياته كانت قصيرة ومليئة بالأحداث الثقيلة مجتازًا كل التطورات السياسية والعسكرية والفكرية المهمة خلال عصره[11].

ثالثًا: ولادته ونسبه

اختلف المؤرخون في سنة ولادة فيصل. فمنهم من قال إنها في 20 أيار/مايو 1883 في مدينة الطائف. ومنهم من قال إنها في مكة في التاريخ نفسه. ومنهم من قال إنها في الطائف بتاريخ 20 أيار /مايو 1885. وقد كتبت ولادته في التاريخ الهجري أنها حدثت في 12 رجب 1300 هـ التي تقابل 18 أيار/مايو 1883. والاتفاق مشترك أنها كانت في 20 أيار/ مايو[12]. وعليه، فإن ولادة فيصل كانت في الطائف يوم 18 أيار/مايو 1883. لقد ولد فيصل

---

(9) Nur - Eldeen Masalha, «King Faisal I of Iraq: A Study of his Political Leadership, 1921 - 1933,» (Phd Dissertation, School of Oriental and African Studies, University of London, 1987), the Introduction.

(10) Beatrice Erskine, *King Faisal of Iraq: An Authorised and Authentic Study* (London: Hutchinson, 1933).

(11) بقلم السيدة باتريشا ستيوارت إرسكين؛ مع التقدير من قبل المشير فيكونت اللنبي، ومقدمة بامتياز معالي جعفر باشا العسكري، مع 22 رسمًا إيضاحيًا.

(12) لقد ناقش علي علاوي في كتابه ولادة فيصل وتأكد أنها يوم 20 أيار/مايو 1883. انظر: Ali A. Allawi,

الأول ابن الشريف (الملك) الحسين بن علي. في 18 أيار/مايو 1883 في الطائف التي تبعد نحو 112 كم عن مكة. وكانت تابعة لولاية الحجاز إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية[13]، وتوفي في برن بسويسرا يوم 8 أيلول/سبتمبر 1933 ودفن ببغداد.

نشأ في سلالة عربية قديمة جدًا في مكة، إذ عرفوا بأشراف مكة (أو: شرفاء مكة)[14] الذين يمتد بهم التاريخ إلى بني هاشم من قريش العدنانية. أي أنه سليل آخر العتر الشريفة التي بقيت مرتبطة بمكة والمسجد الحرام كسدنة له، إذ ينتسب إلى بيت ابن نمي. فهو فيصل بن الحسين بن علي ذو عون. أي من آل محمد عبد المعين ابن عون ابن نمي من سلالة قتادة بن إدريس من سلالة موسى الجون من سلالة الأشراف الحسنيين المنسوبين إلى الإمام الحسن السبط بن علي بن أبي طالب من زوجته فاطمة الزهراء البتول ابنة الرسول الأعظم[15]. إن الشرافة (منصب خاص هي السدانة) قديمة جدًا. ولم تمنح من قبل محمد علي باشا الذي كان واليًا لمصر. بل هي منصب عربي قديم متوارث أبًا عن جد منذ صدر، وقد بقي الهاشميون يتقلدونه منذ أزمنة قبل الإسلام وبعد فتح القسطنطينية 1453. أرسلت آيات الشكر والتعظيم لأولئك الأشراف الحسنيين في مكة من جانب السلطان محمد الفاتح. ومن ثم يأتي بعد ذلك منصب الأمير كما جرى إطلاقه على من يعيّن في هذا المنصب. وهو منصب اجتماعي أكثر منه منصبًا سياسيًا[16].

Faisal I of Iraq (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 9.

(13) جاء في مصادر أخرى أن فيصل بن الحسين ولد في مدينة الطائف التي كانت تابعة لإمارة مكة وهي إحدى إمارات ولاية الحجاز إبان الحكم العثماني. انظر: محمد عبد الحسين، **ذكرى فيصل الأول** (بغداد: مطبعة الشعب، 1933). انظر أيضًا: أمين الريحاني، **فيصل الأول: رحلة وتاريخ** (بيروت: دار الجيل، 1988) الذي انفرد بقوله أن الولادة كانت بتاريخ ربيع الأول 1301هـ (أي أنها تقابل شهر كانون الثاني/يناير 1884 في مكة). انظر: مملكة العراق، مديرية الدعاية العامة، **فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله** (بغداد: مطبعة الحكومة، 1945) وجاء في هذه المدونة الرسمية أن ولادة فيصل كانت بتاريخ 20 أيار/مايو 1885، وقد وافقت ذلك المسز ستيوارت ارسكين. انظر كتابها: Mrs. Steuart Erskine, *King Faisal of Iraq,* with an appreciation by Viscount Allenby; and a foreword by Ja'far Pasha al Askeri (London Hutchinson 1934), pp. 3 - 4.

(14) لمزيد من التفاصيل، انظر: C. Van Arendonk, «Sharif,» in: *Encyclopaedia of Islam* (London; Leiden: Brill, 1934), vol. 4, pp. 328 - 329.

(15) أمين الريحاني، **فيصل الأول** (بيروت: مطبعة صادر، 1934)، ص 18 ـ 19. وراجع التفاصيل التاريخية والأنثروبولوجية في الفصل السادس، «أشراف مكة في العهد العثماني: أعرق بنية سلالية في التاريخ،» في: سيار الجميل، **بقايا وجذور: التكوين العربي الحديث** (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص 225 ـ 268.

(16) انظر كتاب المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزن جارجلو، **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، ترجمه إلى العربية خليل علي مراد، ط 2 (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2003)؛ انظر أيضًا الكتب الثلاثة لسيار الجميل: **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل منهج رؤيوي معاصر** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1989)؛ **تكوين العرب الحديث**، ط 2 (عمّان: دار الشروق للطباعة والنشر، 1997)، و**بقايا وجذور التكوين العربي الحديث** (بيروت؛ عمّان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1997).

رابعًا: الأسرة الهاشمية الشريفة

يعود تاريخ العلاقة بين الأشراف وبين العثمانيين إلى عهد السلطان بايزيد الأول، فهو أول من أرسل الأعطيات الذهبية المسماة الصرّة إلى مكة والمدينة ثم تبع السلطان مراد الثاني ثم محمد الفاتح وأعقبه بايزيد الثاني ومن بعده كل من السلطان سليم الأول وسليمان القانوني إلى آخر سلسلة السلاطين العثمانيين. وكانت عواطف السلطان محمد الفاتح كبيرة إزاء أشراف مكة الذين حظوا عنده بمكانة رفيعة وازدادت على عهود أولاده وأحفاده، ولم يكن نظام الشرافة سلاليًا وراثيًا، أي أن الشريف لا يرث هذه «المكانة بموت والده. ولكنه كان يجري من خلال الإجماع على الأصلح». وكثيرًا ما مورست القوة بفرض من له قوته وسطوته وقد عانى الأشراف من صراعات قوية جراء السعي إلى الشرافة. ولكن السلطان العثماني هو الذي يبارك تسمية الأشراف الذين ينتخب الأقوى والأصلح أميرًا. ويصدر فرمانًا بتسمية أمير مكة[17] .

عندما دخل العثمانيون مصر بقيادة السلطان سليم الأول 1512 ـ 1520 في إثر معركة الريدانيه ضد المماليك عام1517م، الذين كانوا يحكمون مصر، أرسل شريف مكة بركات الثاني أبنه الشريف محمد بن أبي نمي ليعلن بيعته للسلطان العثماني سليم الأول (حكم بين 1512 و1520م) وقد بقي الشريف بركات في منصبه وكان سليم الأول قد لقّبه عند فتحه دمشق وزيارته القدس في إثر انتصاره على المماليك في معركة مرج دابق الفاصلة 1516 بحامي الحرمين الشريفين[18]. ولكن بقيت السيادة العثمانية على مكة رمزية واسمية، وبقي نظام الشرافة منحصرًا بكل من أسرة ذوي زيد ثم آل بركات ثم العبادلة. وجدهم الأكبر الشريف عبد الله بن حسن الذي سيستمر ميراث سلالته حتى القرن العشرين والحادي والعشرين، وكان قد تخلى عن الإمارة عام 1631 ثم بدأ صراع من أجل الشرافة بين ذوي زيد وآل بركات والعبادلة باستيلاء الأشراف الزيدية على الشرافة إبان القرن السابع عشر. ثم حلت بآل بركات في القرن الثامن عشر. ليعود العبادلة في القرن التاسع عشر على يد الشريف محمد عون[19]. كيف؟

---

(17) جارجلو، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ص 56 ـ 89. انظر أيضًا: الجميل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث ، ص 232 ـ 239.

(18) لمزيد من التفاصيل، انظر: Sayyar Al - Jamil, «A Critical Edition of al - Durr al - Maknūn fī al - Ma'āthir al - Mādiya min al - Qurūn of Yāsīn al - 'umarī (920 - 1226 A.H. = 1514/15 A.D. - 1811/12 A.D.),» 3 vols. (PhD Doctor of Philosophy, St. Andrews University, Scotland, 1983), vol. II: The Text, pp. 183 - 184.

(19) Saleh al - Amr, «The Hijaz under Ottoman Rule 1869 - 1914: The Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence,» (Unpublished Ph.D. Dissertation, University of Leeds, 1974), pp. 1 - 3.

لم يكن منصب الشرافة وراثيًا بل كان ينتقل بعد موت الشريف إلى أقوى أبناء العائلة نفوذًا. وعندما عهد السلطان محمود الثاني إلى والي مصر محمد علي باشا بإخراج النجديين وإقصاء الوهابيين، نقل الأخير منصب الشرافة من بني زيد إلى محمد بن المعين ثمنًا لتحالفهم معه. حتى ظلوا يتوارثونها. وأدخل محمد علي باشا على نظام الحكم في الحجاز تعديلات أساسية لتقاسم السلطة في الحجاز بين ولاة الحجاز في جدة والأشراف الأمراء في مكة. ليغدو القرار في إثر انسحاب قوات محمد علي باشا المصرية من الحجاز عام 1840 صعبًا في ثنائية أصعب بين الطرفين الوالي العثماني والأمير العربي. فتبلورت حالة تنافس سياسي بينهما وكانت السلطة المركزية في الباب العالي تتدخل لمصلحة الولاة الرسميين السياسيين ولم يعد للسلطة الروحية التي يتمتع بها الأشراف مكانتها كما كانت في السابق. وعليه، فقد وصلت الحال أن يتم اعتقال الشريف محمد عون عام 1851 ونفيه مع ولديه الشريفين عبد الله وعلي إلى إسطنبول. ثم جاء ابنه الأكبر الشريف عبد الله باشا حتى توفي في 1877. خلفه أخوه حسين باشا أميرًا على مكة وصولاً إلى الشريف عون الرفيق في إثر الخلافات مع ولاة الحجاز الأتراك وتدخلات السلطان عبد الحميد الثاني (حكم بين 1876 و1909). وفي أيام عون الرفيق أُبعد ابن اخيه الشريف الحسين بن علي إلى الأستانة، وعُين عضوًا في مجلس الشورى، فمن هو الشريف حسين بن علي؟

خامسًا: الأب الشريف الملك حسين بن علي (1854 ـ 1931)

ولد الشريف حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون في إسطنبول عام 1853 أو 1854. وهو الابن الأكبر للشريف علي بن محمد. وأبوه هو الابن الثاني لمحمد بن عبد المعين، الأمير السابق لمكة. وكانت والدة الشريف حسين هي بيزم جيهان، التي تزوجها أبوه علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، وكانت شركسية[20]، وأنجب منها الحسين في إسطنبول، أي أن الحسين بن علي ينتمي إلى أسرة ذو عون من العبادلة. وهم فرع من عترة بني قتادة، الذين كان بيدهم حكم إمارة مكة منذ تولي الشريف قتادة بن إدريس أمورها عام 1201م. وكان آخر أربع سلالات من العتر الشريفة قد حكمت مكة بالكامل منذ القرن العاشر[21]. وكان الشريف حسين من أم شركسية غير عربية.

---

(20) نضال داود المومني، **الشريف الحسين بن علي والخلافة** (عمان: مطبعة الصفدي، 1996)، ص 28.

(21) جارجلو، **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**. انظر أيضًا كتب الجميل: **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل منهج رؤيوي معاصر؛ تكوين العرب الحديث، وبقايا وجذور التكوين العربي الحديث**.

في عام 1827، تم تعيين الشريف محمد بن عبد المعين في الإمارة، ليصبح أول أمير من ذوي عون، وينهي الهيمنة التي استمرت لقرون على ذوي زيد. حكم حتى عام 1851، عندما حل محله الشريف عبد المطلب بن غالب من ذوي زيد بعد خلعه. وتم إرساله مع عائلته وأبنائه للإقامة في العاصمة العثمانية القسطنطينية. وفيها ولد الشريف الحسين بن علي عام 1270 هـ (1854/1853). ولما أعيد تعيين الشريف محمد في الإمارة عام 1856 عاد الشريف الحسين، الذي كان يبلغ من العمر عامين أو ثلاثة، مع والده وجده إلى مكة[22]. ولما توفي الشريف محمد عام 1858 وخلفه نجله الأكبر الشريف عبد الله باشا، بعد ذلك ببضع سنوات، أي في عام 1278 هـ (1862/1861)، تم استدعاء علي إلى إسطنبول بينما بقي الشريف الحسين في الحجاز تحت رعاية عمه عبد الله باشا.

نشأ الشريف الحسين في حضن أمه الشركسية وفي منزلها. ولم توافق على إرساله إلى البادية أو إلى أي مكان خارج مكة خلافًا للعادة التي توارثها الأشراف من بني هاشم ليكبر أبناؤهم بين البدو الرحل. وقد تداول الناس سيرته الأولى فقالوا عنه إنه نشأ شابًا ذكيًا مهذبًا تمتع بشخصيته القوية والعنيدة منذ صغره متقنًا مبادئ اللغة العربية وأخذ علوم الشريعة الإسلامية والعقيدة والفقه وأصول الفقه[23]. وكان من بين معلميه الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، ودرس معه المعلقات السبع، وتمكن من الشعر العربي وتذوقه. كما درس مع الشيخ أحمد زيني دحلان القرآن، واستكمل حفظه كله عن ظهر قلب قبل أن يبلغ العشرين من عمره[24].

في عهد الشريف عبد الله باشا، أصبح الشريف حسين على دراية بالسياسة والمؤامرات المحيطة بمحكمة الشريف وما كان يدور في الكواليس. كما شارك في عدد من الحملات إلى نجد والمناطق الشرقية من الحجاز في كبح جماح بعض القبائل العربية التي مارس عليها الأمير شكلاً فضفاضًا من السيطرة. فتعلم الحسين طرق البدو ومناوراتهم، بما في ذلك المهارات اللازمة لتحمل البيئة الصحراوية القاسية في رحلاته. واكتسب معرفة

(22) Al - Jamil, «A Critical Edition of al - Durr al - Maknūn fī al - Ma'āthir al - Mādiya min al - Qurūn of Yāsīn al - 'umarī (920 - 1226 A.H. = 1514/15 A.D. - 1811/12 A.D.)».

(23) خير الدين الزركلي، ما رأيت وما سمعت (القاهرة: المطبعة العربية ومكتباتها، 1923)، ص 34.

(24) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط 15 (بيروت: دار العلم للملايين، 2002)، (مادة الملك حسين)، ص 249 - 250.

عميقة بالنباتات والحيوانات الصحراوية. وطور نوعًا من الشعر العام الذي يتفنن فيه البدو ويدعى «الملحون»، كما مارس ركوب الخيل والصيد[25].

سادسًا: الشرافة من الباشوية إلى الإمارة إلى الملكية

في عام 1287 هـ (1872/1871م) سافر الشريف حسين بن علي إلى إسطنبول لزيارة والده الذي أصيب بمرض عضال. ثم عاد إلى مكة بعد وفاة والده لاحقًا من ذلك العام[26]. وفي عام 1875 تزوج الشريف حسين الشريفة عابدية ابنة عمه عبد الله الذي توفي عام 1877. وحصل حسين وابن عمه علي بن عبد الله على مرتبة الباشوية. وجاء بعد عبد الله في الشرافة والإمارة شقيقه الشريف حسين باشا الذي اغتيل عام 1880. فأعاد السلطان عبد الحميد الثاني الشريف عبد المطلب من ذوي زيد أميرًا. فاتخذ الشريف حسين بن علي موقفًا معارضًا لما أصابه من ظلم، إذ سئم من قرار إزالة سلالة آل عون من الإمارة. وسافر إلى إسطنبول مع أركان ذويه يقدمون احتجاجهم فأمرهم السلطان عبد الحميد الثاني بالعودة ثانية إلى مكة. وكانت أجهزة السلطان الاستخبارية قد أعلمته بأن الأشراف من ذوي عون يتآمرون مع القوى البريطانية لإعادة الشرافة ومنصب الإمارة إلى عهدتهم، فأعيدت الإمارة والشرافة إلى ذوي عون عام 1882 بتعيين الشريف عون الرفيق باشا، الابن الأكبر المتبقي للشريف محمد وإقصاء الشريف عبد المطلب. كان جده الشريف محمد عون قد تولّى شرافة مكة وإمارتها ثانية عام 1856، فانتقل الحسين وهو طفل مع كل أسرته، وتربى في مكة حتى عودة أبيه إلى إسطنبول ثانية.

وبعد وفاة الشريف محمد عون عام 1858، تابع الشريف حسين تعليمه إلى جانب عمه الشريف عبد الله باشا بن محمد عون الذي كان أصبح أمير مكة حينذاك، فأحب ابن أخيه الحسين محبة خاصة وقربه منه حتى أصبح شابًا له استقامته وحكمته وتقواه. فزوجه ابنته عابدية عام 1875. وبعد وفاة الشريف عبد الله بن عون عام 1876 تولى شرافة مكة عمه الشريف عون الرفيق. وتزوج الملك حسين بن علي ملك الحجاز 1853 ـ 1931 بابنة عمه الشريفة عابديه بنت عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله وهو الذي تنتمي إليه العبادلة من شرفاء مكة، فولدت له أربعة أبناء، هم الحسن (توفي في

---

(25) المومني، الشريف الحسين بن علي والخلافة، ص 45.

(26) Burdett, ed., *Records of the Hijaz, 1798 - 1849*, 8 vols. ([Slough]: Cambridge Archive A. L. P. Editions, 1996), vol. 7: *1910 - 1918*, p. 304.

صغره) وعلي وعبد الله وفيصل الذين تعلموا على أيدي أساتذة كبار وابنة واحدة (من زوجه عابدية) اسمها الأميرة صالحة التي عاشت في بيت أخيها فيصل بالعراق حتى عام 1958، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الأردن وبقيت حتى وفاتها عام 1994. وعندما توفيت الملكة الأم عابديه عام 1888 اقترن الشريف حسين بن علي بعد رحيلها بالآنسة عادلة خانم وهي تركيه ابنة صالح حفيد فؤاد باشا الكبير الذي عارض بشدة كبيرة ما جرى من المذابح الأرمنية. وكان من أقوى المعارضين للسلطان عبد الحميد الثاني. وكانت قد توفيت في قبرص عام 1929 وهي إلى جنب زوجها الحسين بن علي. وقد أنجبت منه الأمير زيد والأميرتين فاطمة[27] وسارة [28]. وفي 2 محرم 1335هـ الموافق 31 تشرين الأول/أكتوبر 1916، بويع الشريف حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول التحالف الكبرى مثل إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ملكًا على الحجاز[29].

وظل في الآستانة إلى أن عُين بعد وفاة عمه الثالث عبد الإله أميرًا لمكة عام 1326هـ/1908م فألمّ باللغة التركية وحصل على إجازات في المذهب الحنفي. فبعد الموت المفاجئ للأمير عبد الإله بعد ذلك بوقت قصير تم تعيين حسين الشريف الأكبر بموجب مرسوم رسمي من السلطان عبد الحميد في 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1908[30]. وفي فرمان الباب العالي نجد تكريمًا غير مسبوق «لحضرة شريف حسين باشا دام سعده وأدام الله تعالى إجلاله توقيع رفيع همايون ...»[31] فعاد الشريف حسين بن علي إلى مكة. كي يبقى أميرًا لها وهو يشهد ما يفعله الاتحاديون بالدولة على مدى ثماني سنوات وإدخالها الحرب العظمى. ويرى ما فعله الاتحاديون بالبلاد كلها واتباعهم سياسة التريك ضد العرب، وقمع واضطهاد الأحرار، علمًا بأن العرب آخر من نادى بالتحرر من ذلك الاستبداد، فأشعل الثورة

---

(27) H. R. H. Princess Fatima. b. at Stinia Palace, Yenikoy, Bosphorus, Turkey, 18xx (d/o Abdiya). m. a European. She died before May 1975.

(28) H.R.H. Princess Sara. b. at Stinia Palace, Yenikoy, Bosphorus, Turkey, 1898 (d/o Adila). m. at Istanbul, Turkey, 9th September 1933 (div.), H.E. Sayyid Muhammad Atta Amin Bey, CVO (20.6.1933) (b. at Baghdad, Iraq).

(29) أمين الريحاني، **ملوك العرب** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986)، ص 67.

(30) Hasan Kayalı, «A Case Study in Centralization: The Hijaz under Young Turk Rule, 1908 - 1914, The Grand Sharifate of Husayn Ibn 'Ali,» in: Hasan Kayalı, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908 - 1918* (Berkeley, CA: University of California Press, 1997).

(31) راجع نص الفرمان الهمايوني (بالعثمانية) في: *Belgelerle Osmanlı Devrinde Hicaz 1, (Mekke - i Mükerreme)* (Istanbul: Çamlıca Basım Yayın, 2008), pp. 258 - 260.

العربية الكبرى متحالفًا مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية التي انحرفت قيادتها انحرافًا خطيرًا وبدأت كل أجزائها تنادي بالتحرر والاستقلال. وكان قد امتلك سمعة واسعة لدى المحيط العربي حتى لقب بـ «ملك العرب».

سابعًا: طفولة فيصل في الحجاز وصباه في إسطنبول

فيصل هو الابن الثالث للشريف الحسين بن علي. وهو الشريف الكبير الذي كان أميرًا لمكة. وأمه عابدية بنت الشريف عبد الله ابن عم الشريف الحسين. وحمل في يومه الثامن إلى عرب عتيبه خارج الطائف للرضاع، عملاً بالتقاليد الهاشمية المتوارثة القديمة. فدرج فيصل من الخيام، مترعرعًا في أحضان البادية. وكانت طفولته المبكرة في الصحراء مع بقية الصبيان، وتعلم هناك أحد أهم المبادئ منذ صغره هناك: إن أحسنت إليه أحسن إليك. وإن أسأت إليه أساء إليك[32]، فضلاً عن تعلمه أصول النطق الصحيح والحياة في الخيام والتأمل والصبر والتحمل منذ نعومة أظفاره.

قضى فيصل برفقة أهله ووالده وإخوته وجدته لأبيه والعائلة في العاصمة العثمانية 19 عامًا (أي بين 1891 و1910) بحكم ضيافة السلطان عبد الحميد الثاني للشريف الحسين. الذي يعدّ في الحقيقة أسرًا باسم الكرم السلطاني تخوفًا من أية حركة انفصالية يقوم بها هذا الشريف الذي بدا عنيدًا منذ شبابه المبكر. لقد غادر الشريف الحسين بن علي إلى إسطنبول عام 1892. وبعد عام واحد من مغادرة الأب، التحق الإخوة الثلاثة بأبيهم في إسطنبول. وقد انطلقوا من جدة في شباط/فبراير عام 1893، أي أن فيصل كان في العاشرة من العمر، وكانوا تحت رعاية جدتهم (أم والدهم الشريف حسين) الشركسية السيدة بسمة جيهان، وبرفقة اثنتين وثلاثين سيدة من العائلة، وحاشية عم والدهم الشريف عبد الله الذي كان مقيمًا في إسطنبول والذي سيحظى فيصل بمحبته الغامرة. هنا نتوقف قليلاً لنسأل: إذا كان الأبناء الثلاثة في رعاية جدتهم الشركسية، وقد رافقتهم طفولتهم وصباهم، فكم أخذوا من عاداتها وتقاليدها؟ وكم تعلموا منها الكثير، كما يتجلى ذلك في حياتهم.

كانت تلك الرحلة هي البحرية الأولى. وتوقفت الباخرة في بور سعيد. وفيها تزّود الإخوة الثلاثة بكميات من الملابس الشتوية السميكة، تحسبًا لقدوم الشتاء، وترقبًا للعيش في مناخ إسطنبول البارد والرطب. وغادرت الباخرة بور سعيد متوغلة في عمق البحر

(32) الريحاني، ملوك العرب، ص 21.

المتوسط بعد خروجها من قناة السويس. غير أنهم ما لبثوا أخيرًا مع حلول يوم 7 آذار/مارس 1893 أن وصلوا إلى العاصمة الإمبراطورية، حيث رسا مركبهم أمام جسر السراي حين كان الفجر موشكًا على الانبلاج[33].

استقرت العائلة في منزل مفروش قدمه السلطان عبد الحميد الثاني لها إكرامًا للشريف الحسين بن علي. ويقع المنزل على مضيق البوسفور، في منطقة جميلة ساحرة حيث مياه البوسفور الزرقاء والسفوح المشجرة الخضراء، والشواطىء المزدانة بالجماليات حيث تمتد المنتجعات والقصور المبنية على الطراز الإيطالي. ويشهد الرائي من المنزل سائر أنواع المراكب تمخر عباب مياهه الزرقاء. فضلاً عن السفن الناقلة للركاب من جسر غلطة في الجانب الأوروبي إلى أسكودار على الطرف الآسيوي، فضلاً عن الزوارق الفخمة الخاصة التي توصل الشخصيات العثمانية المهمة سواء كانت ملكية أم غير ملكية إلى القصور والدوائر والدارات. وتنتشر القوارب الشراعية الصغيرة وزوارق المجاذيف المحملة بالفواكه والخضار واللحوم والأسماك المعروضة للبيع. ويبدو أن الإخوة الثلاثة قد وجدوا إسطنبول مدينة رائعة. ويصفها الشريف عبد الله (أخو فيصل) في مذكراته، على أنها موطن قوميات متعددة وما من أحد يشعر فيها بالغربة، وهي مركز تجاري يتوافر فيه كل شيء من جميع البلدان، ومكان ممتع في سائر الفصول وتحديدًا في الربيع حيث تكثر الفواكه بصورة خاصة[34]. وخلال فترة إقامة فيصل وأخويه في إسطنبول التي دامت قرابة ست عشرة سنة، كانت العاصمة العثمانية مطبوعة بالطابع المميز والجلي للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني وهو في ذروة قوته ومركزيته وتبنيه فكرة الجامعة الإسلامية وإعلانه الخلافة، معتمدًا في ذلك على شخصيات عربية معروفة أمثال أبو الهدى الصيادي وغيره[35].

درس الإخوة الثلاثة على يد معلم من الأكاديمية العسكرية بإرادة سلطانية، ودرسوا مواد اللغة التركية والجغرافيا والرياضيات والتاريخ العثماني والإسلامي. وقد أصبح الإخوة الثلاثة تحت وصاية هذا المعلم، من طليقي اللسان باللغة التركية. وقد كلف أحد أساتذة الأزهر لتعليمهم اللغة العربية وقواعدها. وأبوهم نفسه دأب على تعليم أبنائه القرآن، كما

---

(33) انظر مذكرات الملك عبد الله بن الحسين، **الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين: حقبة من تاريخ الأردن**، تحرير عمر المدني (عمّان: الدار المتحدة، 1977). (هذه الطبعة من مذكرات عبد الله قد نشرت طبق الأصل من المذكرات التي نشرت بعنوان مذكراتي في عمان لأول مرة عام 1945)، وهي المعتمدة ص 43.

(34) المصدر نفسه، ص 45 و50.

(35) لمزيد من المعلومات حول أبو الهدى الصيادي، انظر: Butrus Abu - Manneh, «Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abdulhuda Al - Sayyadi,» *Middle Eastern Studies*, vol. 15, no. 2 (May 1979), pp. 131 - 154.

تولى معلم آخر تدريبهم على الخط العربي والعثماني. ومن هذه الدروس كان الإخوة الثلاثة يتمتعون بعطلتين اثنتين خلال العام إحداهما في الصيف والأخرى في الشتاء حيث كانوا يستمتعون بالصيد البري والبحري[36]. واهتم الشريف حسين بتربية أبنائه مركزًا على اللغة العربية والأبناء يكبرون في أجواء العاصمة العثمانية حيث تعلموا التركية. فكان أن وظّف معلمًا سوريًا من دمشق اسمه صفوت أفندي العوا. وكان هذا الأخير يشكو من فيصل إلى أبيه كسلَه وخمولَه مقارنة بذكاء أخيه عبد الله. فكان أن وبخ توبيخًا مريرًا، واستمع إلى نصائح من أبيه[37]، فامتثل مستجيبًا، وبات منطلقًا في فهم دروسه أسرع من بقية أقرانه وتفوق كثيرًا على أقرانه.

أبناء الشريف حسين



وكان الأب الشريف حسين قد أنجب من زوجته التركية ابنه الرابع الذي سمّاه زيدًا، والذي سيكبر في ظل أبيه ويتثقف أيضًا ويمارس أدواره هو الآخر سواء في أيام الثورة العربية أم في الحكومة العربية في دمشق لاحقًا.

انضم فيصل تلميذًا صبيًا إلى تلاميذ مدرسة غلطة سراي[38] الأرستقراطية في الأستانة

(36) الملك عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين: حقبة من تاريخ الأردن، ص 52.

(37) المصدر نفسه، ص 52.

(38) ثانوية غلطة سراي (Galatasaray Lisesi) هي مدرسة ثانوية تركية مخصصة للأرستقراطية العثمانية، تقع في إسطنبول، وتعد الثانوية الأكثر شهرة في تركيا. تدرس المدرسة موادها باللغة الفرنسية. وهي من أقدم الثانويات في تركيا، =

وتثقف على مهل من خلال مناهج مدنية قوية وتفتح ذهنه منذ مراهقته على الحياة في عاصمة تاريخية تزخر بالتواريخ المتنوعة وتزدحم بالتناقضات السياسية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وقد كان للأحداث والمصادفات التاريخية دور كبير في بناء الجوانب الأخرى من حياة الملك فيصل الأول، وخصوصًا أنه شهد فصولاً تاريخية من حكم عبد الحميد الثاني ومعارضة الأحرار لسياساته في أرجاء الدولة العثمانية.

نعم. قضى فيصل شطرًا كبيرًا من طفولته ومراهقته في إسطنبول، وتلقى تعليمه الخصوصي على أيدي معلمين من أوروبا وتركيا وأرمينيا، فتعلم عددًا من اللغات (الفرنسية والتركية والفارسية). وبعيدًا من نشأته وتربيته في بيئة عربية نمطية، أصبح فيصل بفضل الفترة التي قضاها في إسطنبول بعد عودته لدياره شابًا يمتلك ثقافة عالمية[39]. وهذا صحيح، ذلك أنه تثقف ثقافة عليا في العاصمة العثمانية. لكنه لم يكن طرفًا في الأحداث التي كانت تدور هناك! وكانت سنوات صباه وشبابه المبكر في العاصمة العثمانية قد علمته الكثير، والتقى بأنواع من البشر، وفهم مبدأ التعايش العثماني الذي عاشت عليه الإمبراطورية العثمانية كل أزمنتها.. لكنه تعلم فن القيادة عن والده. وفي عام 1913، وقد تم انتخابه ممثلاً لمدينة جدة في مجلس المبعوثان العثماني (البرلمان العثماني). وفي عام 1916، أرسله أبوه في مهمة إلى القسطنطينية. وقد زار فيصل دمشق مرتين، وكان في واحدة من الزيارتين وراء تأسيس بروتوكول دمشق، وانضم مع جماعة العربية الفتاة وهي «جماعة» عُدّت الأب الروحي للقومية العربية.

ثامنًا: شاهد على نهايات تاريخ العثمانيين

كان فيصل الأول شاهدًا على المتغيرات المصيرية في حياة الدولة وخصوصًا الانقلاب العثماني عام 1908 وتداعياته في عام 1909. ويحكي محمود عزمي في مقالة له نشرها بعد عشر سنوات على رحيل فيصل الأول موضحًا جوانب من شخصيته القوية وتكوين زعامته وسحر جاذبيته العربية. يقول: **وقد قابلت جلالته لأول مرة في الإسكندرية وحظيت من جلالته بحديث صحفي لجريدة السياسة وكنت أيامها ألبس القبعة وكان جلالته يلبس «السيدارة» أو «الفيصلية»**[40].

= فقد أنشأها السلطان العثماني بايزيد الثاني سنة 1481 ولا تزال تقدم خدماتها التعليمية، وتخرج فيها العديد من الوزراء والصدور العظام والضباط الكبار. انظر: *Report of the Commissioner of Education for the Year Ended June 30, 1912*, Congressional Edition, vol. 6410 (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1913), p. 570.

(39) Allawi, *Faisal I of Iraq*, pp. 15 - 16.

(40) محمود عزمي، «العظماء السبعة الذين عرفتهم،» مجلة الاثنين الصادرة بمصر (4 كانون الثاني/يناير 1943).

تثقف فيصل كما يبدو أفضل من أخويه ثقافة دينية ومدنية. وعند شبابه برع في فن السياسة والمحاورة والتفاوض ومجال الثقافة العامة وتذوق الشعر العربي وألمّ بأسرار صناعته. وكان يعرف الكثير من جغرافية العالم، ويقرأ التاريخ كثيرًا، ويتأمل في الأفكار الرائجة في زمنه المخضرم بين القرنين: التاسع عشر والعشرين، وقبيل عودته إلى الحجاز تزوج هناك بابنة عمه حزيمة بنت الشريف ناصر وزوجته الشريفة رفيعة[41]:

أنجبت منه ولده الوحيد الأمير غازي 1912 ـ 1939م وثلاث بنات هن الأميرات عزة 1905 ـ 1960[42] وراجحة 1907 ـ 1959[43].

(41) «The Hashemite Royal Family», Jordanian Government - Archived from the original on 6 April 2019.

(42) الأميرة عزة بنت فيصل الأول، ولدت في إستانبول 1905، وكانت أكبر ذريته، عادت إلى الحجاز وعمرها ثلاث سنوات، ونشأت في مكة حتى وصولها العراق مع عائلتها عام 1924 وبقيت ببغداد حتى زواجها عام 1936. وتختلف عن أختها راجحة، إذ كانت أنانية وعصبية المزاج وتعاني الكآبة، فسافرت مع أختها راجحة إلى اليونان للترفيه عن نفسها، وبموافقة أخيها ورافقهما سكرتيرها الخاص فيكتور بحوش مع ثلاث خادمات، وكانت قد تعرفت إلى شاب إيطالي اسمه أنستاس خارالامبوس يعمل في السياحة، ونشأت بينهما علاقة حب، فتزوجا من دون أخذ موافقة أخيها، إذ اختفت يوم 27 حزيران/يونيو 1936 بعد أن تركت رسالة إلى أختها راجحة، ورغم محاولات الأخيرة معها كي تثنيها عن الإهانة التي ستلحق بعائلتها، إلا أنها باءت بالفشل، واستقرت عزة في جزيرة رودس وحصلت على الجنسية الإيطالية لكون زوجها إيطالي الجنسية، وعد زواجها مشروعًا ونافذًا في قانون الأحوال الشخصية الإيطالي. وقد قادت هذه الحادثة إلى تداعيات خطيرة لاحقًا، ولكنها انفصلت عن زوجها بعد ثلاث سنوات أي في عام 1939 وعادت من قبرص إلى إيطاليا عام 1940، ولم تنجب من زواجها، وساءت حالتها وضاقت الدنيا بها إذ قطعت إيطاليا المعونة المالية، وتلكأت بريطانيا في مساعدتها فعانت الفقر والخوف من القتل. وفي عام 1945، اقتنع الأمير عبد الإله بالعطف عليها، ولم تنجح محاولة دخولها مصر، فتوسلوا لدى عمها الأمير عبد الله بن الحسين الذي كان غاضبًا عليها، فوافق أن تسكن القدس، فأقامت فيها حتى عام 1960 إذ انتقلت إلى عمّان عام 1960، حيث أصيبت بمرض السرطان، فقصدت لندن للعلاج، لكنها توفيت هناك ونقل جثمانها إلى عمّان لتدفن في المقبرة الملكية. إن هذه الحادثة قد حطمت أعصاب الملك غازي «وتمنى الموت لنفسه وكتب متهمًا أيادي أجنبية وراء هذه القضية» انظر الوثيقة الرقم 17 في: **أوراق الملك غازي: المملكة العراقية (البلاط الملكي)**، تحقيق وتعليق زهير كاظم عبود؛ تقديم سيار الجميل (بغداد؛ بيروت: مؤسسة شرق غرب ـ دار المسار للنشر 2010)، ص 95 ـ 100. انظر أيضًا: نهلة نعيم عبد العالي، «حادثة الأميرة عزة.. أسرار وحقائق،» ملاحق جريدة المدى اليومية «الملاحق» ذاكرة عراقية، 2014/2/23.

(43) الأميرة راجحة بنت فيصل الأول: عاشت ببغداد بعد وصولها مع عائلتها، وهي أصغر من أخيها الأمير غازي، وكان قد تقدم بطلب يدها العديد من الأغنياء والأمراء العرب والذين حلموا بالاقتران بها ومصاهرة ملك العراق، لكنها آثرت الاقتران بعراقي بسيط أحبته ووجدت السعادة عنده. لقد تزوجت عام 1937 من عبد الجبار محمود أحد أبناء منطقة الفضل! وهو من مواليد 1913 ووالده الأسطة محمود الخياط، وكانت أمه خياطة الملكة حزيمة، وقد تعّرف إلى ابنتها الأميرة راجحة ونشأت بين الاثنين علاقة حب مبكر، ودرس وأصبح معلمًا يدرّس الرسم، ومن خلال معرفته بالفنان الحاج سليم الموصلي (أبو الفنان جواد سليم) وكان سليم مدرس الرسم الخاص للأمير غازي، ثم دخل عبد الجبار كلية الطيران ليغدو ملازمًا طيارًا، وكان قائد القوة الجوية وقت ذاك عقيد الجو الركن محمد علي جواد وهو من أبناء محلته الفضل، ففاتحه بالأمر، فكان الوسيط هو الفريق بكر صدقي رئيس أركان الجيش الذي فاتح الملك غازي، فوافق الملك، وجرت مراسيم عقد القران في نادي الضباط العسكري عام 1937 بحضور الملك غازي ممثلًا عن اخته الأميرة راجحة ووكيلًا عنها، وبكر صدقي وكيلًا عن الملازم الطيار عبد الجبار .. ولقد عاشا حياة سعيدة على مدى عشرين سنة حتى انقلاب 14 تموز/يوليو 1958 عندما انتهى بهم المطاف للعيش في سويسرا، وقد ماتت راجحة بعد 7 أشهر فقط من الانقلاب كمدًا على ما حاق بأهلها في العراق.

ورفيعة 1910 ـ 1934[44] (والأخيرة جاء ذكرها في بعض الأرشيفات باسم رئيفة[45]: وكانت الملكة حزيمة 1884 ـ 1935 قد وصلت إلى العراق عام 1924 أي بعد ثلاث سنوات من وصول زوجها الملك فيصل الأول إلى بغداد.

امتلك الشريف فيصل بن الحسين كاريزما الزعامة لجاذبيته وسحره منذ مطلع شبابه وبدت ملامح القيادة لديه منذ وجوده في إسطنبول. فلقد تكوّن تربويًا ومعرفيًا في صباه وشبابه المبكر فيها. فهو من مواليد 1885. وكان قد سافر فيصل مع أخويه الشريفين الآخرين علي وعبد الله إلى إسطنبول في عام 1304هـ ـ 1891م وهو بعمر 6 سنوات، إذ عاد إلى مكة برفقة أخويه في عام 1328 هـ ـ 1910م[46] بعد أن تثقف ثقافة سياسية وأدبية عريضة. وتعلم مع أخويه العلوم المدنية والعسكرية في إسطنبول[47]، وفي عام 1916 قاد قوات الثورة العربية الكبرى ودخل دمشق منتصرًا عام 1918. ومثّل العرب في مؤتمر فرساي عام 1919. وأسس مملكته السورية عام 1920 التي قضى عليها الفرنسيون. ثم نودي على فيصل لعرش العراق وأسس المملكة العراقية عام 1921، وتوفي 1933. وهو ينتمي إلى سلالة أشراف مكة القدماء الذين تعود جذورهم إلى 1250 سنة مضت. ومن فرع آل عون الشريف[48].

تاسعًا: الملكة حزيمة زوجة فيصل

الملكة حزيمة بنت ناصر (1884 ـ 1935)، ولدت في مكة ونشأت فيها. وقضت شطرًا من حياتها في إسطنبول. ودعيت حزيمة بأميرة العرب، وشريفة مكة، وملكة سورية (آذار/مارس 1920م تموز/يوليو 1920م) وملكة العراق (1921 ـ 1933) والملكة الأم في المملكة العراقية (1933 ـ 1935). وهي ابنة عم فيصل الأمير ناصر بن علي باشا وشقيقتها هي الملكة مصباح بنت ناصر ملكة الأردن وزوج الملك عبد الله بن الحسين. ولدت في مكة في 1884، وتزوجها الأمير فيصل عام 1904 في إسطنبول. تلقبت الأميرة حزيمة

---

(44) وفي بعض المصادر وجدت اسمها «رفيعة» عاشت حياتها القصيرة في حالة بائسة إذ كانت قد وقعت وهي صغيرة جدًا على رأسها، فأصيبت بعوق لازمها طوال حياتها، وكان أخوها غازي يعطف عليها كثيرًا، وقد ماتت بعد موت أبيها بأشهر.

(45) «The Hashemite Royal Family», Jordanian Government - Archived from the original on 6 April 2019.

(46) عبد الله بن الحسين (الملك)، مذكراتي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع؛ مكتبة برهومة، 1989)، ص 20.

(47) المصدر نفسه، ص 20.

(48) انظر: الجميل: العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل منهج رؤيوي معاصر؛ تكوين العرب الحديث، و بقايا وجذور التكوين العربي الحديث.

بملكة سورية.. وأقامت في القصر الملكي بدمشق. وقد فقدت لقبها بعد خروجهم من سورية 1920 ووصلت إلى الحجاز مع أولادها وبقيت أربع سنوات، ولكنها غادرت الحجاز مضطرة بسبب معركة الهدى الفاصلة بين الأشراف الحجازيين وبين السعوديين النجديين؛ فكان أن أمر الملك حسين الأب بترحيل أهل بيته وكل ذويه إلى جدة. ولكن أسرة فيصل الأول توجهت منها إلى عمان فمكثوا فيها مدة ثم غادروا إلى العراق بعد حزيران/يونيو 1924، عقب تسمية الأمير غازي وليًا للعهد من طرف المجلس التأسيسي، ووصلت إلى بغداد من عمان عام 1924 لتلقب بملكة العراق وأقامت مع زوجها وعائلتها في عدة بيوت ببغداد. تلقبت بالملكة الأم بعد رحيل زوجها حتى وفاتها ببغداد 1935 ودُفنت إلى جوار زوجها في المقبرة الملكية في الأعظمية ببغداد. وقد وصفتها السيدة غيرترود بيل قائلة «لقد كانت الملكة حزيمه امرأة خجولة حساسة وذات جاذبية إلى جانب ما حباها الله به من لطف وكرم أخلاق. وكان لها نفس الشمائل الموجودة عند الملك». توفيت الملكة حزيمة في 27 آذار/مارس 1935 في إثر سكتة قلبية، فتألم العراقيون لفقدها وشيّعت تشييعًا رسميًا وشعبيًا.

كانت عائلة فيصل الأول تعيش عيشة بسيطة إذا ما قورنت بحياة الملوك المعروفة بالإسراف والتبذير، إذ كان الملك فيصل غير مهتم بجمع المال وتكديسه فلم يكن جشعًا ولا مغرمًا بالمال ولا باستغلال الفرص لاكتناز الذهب. كان زاهدًا ومتواضعًا، ويكتفي بالعيش الكريم. وكانت بعض العوائل العراقية الثرية تعيش حياة أكثر رفاهًا من العائلة المالكة التي تعتمد في مصروفاتها على إيجار أملاكها في الحجاز التي تعهدت الحكومة البريطانية بعدم تدخل السلطة المحلية في شؤونها، وكان إرسال مبالغها عن طريق وكيل العائلة المالكة في الحجاز محمد نصيف. وتخبرنا المعلومات المؤكدة أن الملكة حزيمة وأولادها لم يمتلكوا لهم أي عقارات أو أراض في العراق. وكان للملكة راتب شهري مقداره 476 روبية. وإن أنجال فيصل لا تتجاوز رواتبهم 180 روبية.

كتب كريم ثابت الكثير من صفات فيصل الأول الذي قابله. وقد نشرت المقابلة على صفحات مجلة **المصور** المصرية. وجاء فيها قول كريم ثابت: «وكان جلالته لابسًا بدلة رمادية في اليوم الذي تشرفت بمقابلته فيه. ولما أبديت له إعجابي بها قال: إن ثمن المتر منه لا يزيد عن ريال... يجب علينا أن نشجع صناع بلادنا»[49]. ويستطرد كريم ثابت قائلاً: «ولمحت في أحد جوانب البلاط رزمة من «الفوط» (مناشف الوجه) فسألت عنها. فقيل

---

(49) كريم ثابت، «في حضرة جلالة فيصل الأول ملك العراق»، مجلة **المصور** المصرية، العدد 395 [د.ت.]، ص 4.

لي إن جلالته اشتراها أخيراً من مصنع وطني شرفه بزيارته»[50]. ويستطرد في مكان آخر قائلاً: «وقد خصص جلالته يومين في الأسبوع، وهما يوم الأربعاء ويوم السبت، لمقابلة أي فرد من أفراد شعبه يرجو رؤيته ليرفع إليه التماسًا أو شكوى أو تظلمًا فيستمع لأقواله ثم يتسلم منه عريضته ويحولها إلى الجهة المختصة بعد ما يؤشر عليها بما يجب عمله بصددها». ويذكر ثابت في مكان آخر ما نصه: «وقد أخذ جلالته في السنوات الأخيرة يشجع المشروعات والأعمال الاقتصادية التي يقوم بها العراقيون بكل ما أوتي من قوة. فلا يكاد يتصل بمسامعه أن عراقيًا أنشأ مصنعًا حتى يذهب لزيارة مصنعه من دون أن يُشعر أحدًا بقدومه. فيفاجئ صاحب المصنع ومساعديه وعماله قبل أن يتمكنوا من إعداد أي شيء لاستقباله. فيطوف أرجاء المصنع ويقف عند كل قسم من أقسامه منقبًا مستفسراً وقد يسأل أحيانًا العمال أنفسهم عمّا يعنّ له الاستعلام عنه منهم. ثم لا يغادر المصنع من دون أن يبتاع بعض مصنوعاته تشجيعًا للقائمين به وعطفًا عليهم...»[51].

عاشرًا: سكن فيصل الأول في بغداد؟

كانت عائلة فيصل قد توجهّت من عمان نحو ميناء البصرة. واستقبلت الملكة حزيمة وأولادها استقبالاً كبيراً يوم وصولها في 7 كانون الأول/ديسمبر 1924. ولقد أقيم احتفال خاص من جانب وفد نسوي ترأسته الأديبة بولينا حسون صاحبة أول مجلة نسوية عراقية اسمها ليلى. وهي أخت الصحافي الموصلي الشهير سليم حسون صاحب جريدة **العالم العربي**. وألقت بولينا كلمة ترحيبية بالمناسبة.

استقرت العائلة الملكية ببغداد في قصر شعشوع، الذي قامت وزارة الداخلية باستئجاره للملك فيصل الأول كي يسكن فيه وعائلته. وهو بيت صغير له جمال بنائه ويطل على نهر دجلة عند منطقة الوزيرية، وبقوا فيه حتى 9 نيسان/أبريل 1926، إذ خرجوا منه بسبب الأضرار التي أصابته بتأثير فيضان دجلة فانتقلوا إلى بيت صغير آخر مؤجر من صاحبه مناحيم دانيال ويقع مطلاً على دجلة عند منطقة السنك. ونظرًا إلى صغر هذا البيت. انتقلوا مرة أخرى إلى سكن في مدرسة الصنائع مطلع عام 1927. وفي إثر ذلك قرر مجلس الوزراء العراقي إنشاء قصر ملكي الذي اكتمل عام 1933 حين رحل فيصل الأول الذي بقي 12 سنة في الحكم من دون بيت يمتلكه أو قصر ملكي يقيم فيه! وقد جاء في تصريح له إلى

(50) المصدر نفسه.
(51) المصدر نفسه.

مجلة **المصور** المصرية قائلاً: «لقد انتهينا من بناء المملكة فباستطاعتنا الآن أن نبني قصراً ملكيًا». لكنه رحل قبل أن يدشنه. وكانت الملكة حزيمة وأولادها قد سكنوا في قصر قديم بُني منذ العهد العثماني واسمه قصر الحرم. وذلك قبل بناء قصر الزهور. وصدق فيصل عندما ختم مذكرته الشهيرة التي كتبها عام 1932 بقوله: «وإنني سأكون سعيدًا ببناء مصنع في العراق بدل بناء قصر ملكي».

حادي عشر: خصال فيصل القيادية والريادية

يتلمس المؤرخ الخصال التي امتلكها هذا الرجل. فقد تميّز عن غيره باثنتين من أدق المزايا: أولاهما جاذبية مقنعة لمن يحيط به أو يعمل معه. أو سحر يمكن أن يلهم الآخرين التفاني من أجل الأهداف التي يرسمها. وثانيهما، قوة نفسية تتبنى العزم والحزم والوفاء مع تواضع يفرض احترام الآخرين له. تلك «القوة» التي تتناغم معها عدة مواهب في الريادة سواء على مستوى صنع القرار، أو المغامرة المدروسة، أو الحكمة في الرأي، أو الأفق الواسع والمهارة في إدارة الأزمات، ولما قمت بمقارنة تكوينه الأول منذ طفولته وحتى شبابه بحياة وسيَر زعماء عرب آخرين، وجدت الفرق كبير بينه وبينهم، إذ كان يتمتع برجاحة رأي منذ صغره. وكانت طبيعة أسئلته تدور جميعها حول القيادة وخصالها، ناهيكم باهتماماته من خلال الكتب التي كان يطّلع عليها وخصوصًا رغبته العارمة في كتب الجغرافية والتاريخ، وتركيزه بوجه خاص على سيَر الزعماء وأساليب تفكيرهم في تاريخ العالم. وكان كتومًا وبارد الأعصاب وله مرونته وطيب معشره. ولكنه لا يقوى على المواجهة لوحده، فيستعين بمستشارين، إذ لا يأمن إلا بمن يثق به ثقة كبيرة. ومن نقاط ضعفه كما وجدت أنه يريد إرضاء الجميع وحتى خصومه، وكان متواضعًا أكثر من اللزوم، إذ وقف بوجهه العديد من الساسة والمثقفين السوريين والعراقيين من دون أن يردعهم[52].

لقد «بدأت قيادة فيصل العسكرية وهو في العشرين من عمره. عندما اشترك مع أخيه عبد الله في قيادة الحملات التأديبية ضد القبائل التي كانت تتمرد على القيادة في الحجاز. واستمر الحال حتى كان انقلاب الاتحاديين عام 1908. وهنا أوفد الشريف حسين بن علي

---

(52) راجع مقارنًا: Nur Masalha, «Faisal's Pan - Arabism, 1921 - 33,» *Middle Eastern Studies*, vol. 27, no. 4 (October 1991) p. 679.

انظر أيضًا: تحسين قدري، **مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول**، دراسة وتحقيق سيار الجميل (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 165، و Thomas E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom* (London: Wordsworth Editions, 1997), p. 76.

نجله فيصل ليكون نائبًا في مجلس المبعوثان عن جدة. وكذلك كان عبد الله نائبًا عن مكة. وبقيا هناك حتى انفضّ المجلس فعادا إلى مكة»[53].

ثاني عشر: قيادة مشروع عربي

يتبدى هذا المشروع واضحًا كل ذلك لدى المؤرخ الذي يسبر غور تفكير فيصل بن الحسين ويتابع تجاربه القيادية العربية السياسية والحربية والإدارية والاجتماعية وغيرها، كما يحكي ذلك تاريخه على الأرض كزعيم واقعي تحرك بنفسه على الأرض. ولم يكن مجرد زعيم رمزي يستمد نفوذه سلاليًا أو دلاليًا كأحد وارثي الشرافة في الحجاز وعلى أساس عاطفي أو عقائدي أو تقليدي... لقد نجح فيصل في قيادته للثورة العربية الكبرى عسكريًا على امتداد 1916 ـ 1918. ثم نجح في إلقاء خطابه قوميًا ممثلاً العرب في مؤتمر فرساي بباريس عام 1919. ونجح في تأسيس حكومته العربية المستقلة سياسيًا في سورية وأعلن عن مملكته عام 1920، ثم انتقل إلى تجربته الناضجة في العراق ليؤسس كيان العراق المعاصر استراتيجيًا عام 1921. لقد نجحت أيضًا فلسفته في الحكم بتأسيس عقد اجتماعي بين الدولة والمجتمع سوسيولوجيًا وواءم بين كل العناصر السكانية[54]، وبدأ برنامجًا ممتازًا في التحديث وتطوير المؤسسات[55]. وعليه، فإن فيصل الأول قد ساهم مساهمة فعّالة على الأرض لتأسيس مشروع نهضوي عربي مدني حديث في النصف الأول من القرن العشرين. يقول الأمير الحسن بن طلال: «نجح فيصل، ومعه الحركة الوطنية العراقية وشباب العراق في إقامة دولة العراق بحدودها الحالية. وإدخال الدستور إلى حياة الشعب على نحو أشاع التآلف والانسجام والوحدة بين مختلف الأديان والمذاهب والطوائف. ولم يدفع بالإسلام أو الروح القومية إلى حدود التطرف. فكل شيء بقدر. وكل شيء بحسبان. ولا تفرّد بالرأي، بل شورى وديمقراطية، وسعي حثيث لتحقيق مصالح الشعب وسط عواصف المصالح الإقليمية والدولية. وهنا تكمن عبقرية فيصل»[56].

---

(53) بكر خازر المجالي، «فيصل الأول من «الوجه إلى ميسلون» 1918 ـ 1920،» في: مجموعة من المؤلفين، بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)، تحرير هند أبو الشعر (عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999)، ص 146.

(54) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، 1916 ـ 1918 (بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر، 1982)، ص 234.

(55) مراجعات لجريدة العاصمة التي أصدرتها الحكومة الفيصلية في دمشق، الأعداد 7 ـ 55 الصادرة بين 10 آذار/مارس 1919 وحتى 1 أيلول/سبتمبر 1919.

(56) الحسن بن طلال (الأمير)، الأعمال الفكرية ـ المجلد الأول (عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع؛ بيروت: مطبعة برجي، 2007)، ص 686.

ثالث عشر: مغزى القيادة... الريادة: كاريزما فيصل

دعونا نتأمل في نظرية ماكس فيبر عن معنى القيادة، ونحاول فهم سيرة فيصل من خلالها. فما الذي قالت به نظرية ماكس فيبر؟ توفّر مصادر إضافية لمن سيضطلع بالقيادة، وما يتميز به من أسلوب خاص به في فن القيادة، وأن ينجح في ثلاثة أنواع من القيادات: التحويلية والظرفية والمعاملات. فإن انتصر في مهامه القيادية الثلاث فهو يتحول في زعامته إلى الريادة. والريادة تجسد تحول الزعامة من قيادية سياسية وحربية إلى ريادة سحرية وكاريزما جاذبة لكل المجتمع[57]. وإن طبقّنا ما قال به ماكس فيبر للجواب عن التساؤل القائل: كيف نجح فيصل الأول في قيادته؟ سنجده وقد تمثلت به ثلاثة أنواع من القيادة: البيروقراطية، والكاريزمية، والتقليدية. وكان ماكس فيبر واحدًا من أوائل المنظّرين الألمان في تجسيد فهم طبيعة القيادة نفسها للدولة الحديثة، سواء كانت قد حققت تحصيل حاصل الانتصار في الحرب فكانت مكتسبة، أو كانت ظرفية كالتي وجدها تابعة. وهذا ما وجدناه لدى فيصل في الذي حققه من انتصار قيادته الحربية ضد الأتراك ودخوله دمشق منتصرًا ليؤّلف كيان حكومته المستقلة في سورية من طريق الاكتساب. في حين وجدنا أن تأسيسه للمملكة العراقية قد جاء بواسطة التتابع ومن خلال تحركات فعالة لأعيان العراق وشخصياته الذين نادوا بفيصل على عرش العراق. ويؤكد ماكس فيبر في تنظيره المحدث للفكر السياسي أن أي زعيم يخرج منتصرًا في حرب من الحروب، فهو يسجل له شرعية تاريخية في حكم البلاد[58].

رابع عشر: زعيم التحولات في طور انتقالي

يعتقد ماكس فيبر أيضًا بأن هناك اثنين من النماذج الأساسية يكتمل من خلالهما عمل القادة الحقيقيين؛ هما: المعاملات والتحولات. إنه يعتقد بأن قادة المعاملات هم البناة الذين عملوا ضمن الأنظمة القائمة في إطار البيئة الوطنية لتحقيق النتائج المرسومة وينبغي أن يكون في مرحلة التأسيس زعيم المعاملات هو البيروقراطي الفعّال في استخدام المعرفة إزاء شعبه مع ممارسته السلطة القانونية في إطار الدستور، وأن يقدم النتائج تلو

(57) Max Weber, «The Three Types of Legitimate Rule,» translated by Hans Gerth, *Berkeley Publications in Society and Institutions*, vol. 4, no. 1 (1958), pp. 1 - 11.

(58) Wolfgang J. Mommsen, *The Political and Social Theory of Max Weber* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1992), p. 89.

الأخرى لتحقيق رضا الشعب عنه[59]. وهذا ما حظي به كل القادة الذين تمتعوا بالشعبية. وهذا ما حققه فيصل الأول. أما كونه زعيم التحولات كما رسم ذلك ماكس فيبر في النموذج السابق ذكره فينطبق ذلك عليه أيضًا. كون فيصل الأول قاد جملة من التحولات التاريخية في غضون زمن قصير، سواء كانت حربية أو سياسية أو دبلوماسية وطنية أم عربية أم دولية.. وظل يحتل مركز البطولة العربية مقارنة بغيره من الزعماء العرب الذين جايلوه. لقد كان فيصل أحد أبرز الزعماء المؤسسين للبنى الجديدة التحويلية. وكان له أسلوبه الخاص في التعامل مع الأحداث أو الشخصيات أو النخب أو رؤساء القبائل والعشائر أو رجالات الدين أو الضباط الشريفيين أو مع التجار والمهنيين أو مع الموظفين. فهو يتعامل بتحول ذكي مع الأمور من منظور مختلف تمامًا واحده عن الآخر. وهنا نجح فيصل، وهو يمتلك سحر الشخصية أو الكاريزما الريادية، في أن يكون زعيمًا حقيقيًا لم يأتِ أحد من بعده يمتلك مزاياه وأساليبه وخصاله[60].

خامس عشر: الريادة العربية

كان الرجل ذكيًا في كسب الجولة، وخصوصًا في زعامته الأولى (أو كما يسميها ماكس فيبر الريادة). صحيح أنه كان قائدًا للجيش العربي، لكنه كسب من خبرات الضباط الشريفيين العراقيين والسوريين خبرة واسعة. فضلاً عن الخطط التي كان يرسمها لورنس والإنكليز في ماجريات الحرب. ونجح في استقطابه معنى النصر للجيش العربي الزاحف ضد حكم الاتحاديين العثمانيين عقب اندلاع الحرب العظمى الأولى بسنتين[61]. ونجح في تأسيس كيان عربي مستقل في دمشق بعد أن فتحها وأسس الحكومة العربية التي سمّيت «الفيصلية» على اسمه. وتُوّج ملكًا عليها ودعيت بالمملكة العربية السورية أو مملكة سورية الكبرى عام 1920 وبعد أن احتلها الفرنسيون هرب نحو أوروبا، إذ غادر بالقطار نحو درعًا ومنها إلى السواحل الفلسطينية، ومنها بطريق البحر نحو إيطاليا حيث حل في قصر إيستي

(59) Martin Riesebrodt, «Charisma in Max Weber's Sociology of Religion,» *Religion*, vol. 29 (1999), pp. 1 - 14.

(60) سيار الجميل، «سيمون بوليفار العرب: كيف كتب علي علاوي تاريخ الملك فيصل الأول؟،» **المستقبل العربي**، السنة 38، العدد 443 (كانون الثاني/يناير 2016).

(61) راجع نص الحوار الذي أجرته ونشرته جريدة **الأنفورماسيون** الباريسية مع الأمير فيصل بن الحسين في باريس (بعددها الصادر في 12 شباط/فبراير عام 1919) وقامت بترجمته ونشره بالعربية جريدة **الاستقلال العربي** الدمشقية في عددها 131، وهنا نعتمد على جريدة **القبلة** التي أعادت نشره في عددها 247، السنة 3، يوم الخميس 16 رجب سنة 1337 للهجرة.

لاشي كما ذكر هو نفسه في مذكراته وأبرق إلى لويد جورج برقيتين أرفقهما بمذكرة طويلة عن القضية العربية بصورة عامة، والقضية السورية بصورة خاصة. وتعدّ مذكرته الطويلة من المذكرات الخطيرة[62]. وقد وجد الإنكليز أن فيصل بن الحسين هو الأفضل، وخصوصًا أن العراقيين قد فشلوا في اختيار ملك لهم أو زعيم يوحدهم، وأن اسم فيصل ذائع في العراق. فكان هو المرشح الأول لعرش العراق. وسنرى المناداة عليه عام 1921 ليكون ملكًا على العراق ليحكمه من 23 آب/أغسطس 1921 إلى 1933.

هنا اكتسب فيصل زعامته الثانية بعدما اكتسب زعامته العربية؛ مذ نجح في تعزيزه الوحدة بين المسلمين السنة والشيعة فضلاً عن تشجيعه الولاء المشترك وإعلاء شأن العروبة بهدف إنشاء دولة عربية اتحادية تشمل المشرق العربي من خلال العراق وسورية وسائر أنحاء الهلال الخصيب، أثناء وجوده في السلطة. وحاول فيصل تنويع إدارته من خلال إدراج مجموعات عرقية ودينية مختلفة في المكاتب ومختلف الوظائف. ومع ذلك. ربما ساهمت محاولة فيصل في إعلاء مبادئ القومية العربية من أجل عزل مجموعات دينية معينة.

سادس عشر: بساطة ودهاء

وصف لورانس فيصل في كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** بالنص: «كان طويل القامة نحيفًا وكان يرتدي عباءة بيضاء وعقالاً مذهب العقد أرخى جفونه على عينيه وبدا أمامي كأنما لحيته السوداء ووجهه الذي لا لون له قناع يحجب فكره عن الغرباء»[63]. أما خصاله وسجاياه فقد سجلها عنه، وبأمانة، أحد الموظفين الأكراد في الديوان الملكي ببغداد، واسمه أحمد مختار بابان (الذي أصبح لاحقًا في الخمسينيات رئيسًا للوزراء)، إذ سجل في مذكراته تلك الخصال. كما فهم تمامًا نزعة فيصل الوطنية بحكم اطلاع هذا الموظف على المخابرات التي كانت تجري بين فيصل الأول والمندوب السامي البريطاني وغيره.

---

(62) انظر: **مذكرات فيصل: مذكرات سرية عن القضية واحتلال سورية**، نشرها سامي الشمعة (دمشق: دار اليقظة العربية، [د. ت.])، ص 9 ـ 48. يتضمن هذا الكراس رسالتين مرسلتين من الملك فيصل وكان في إيطاليا إلى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، **الأولى** مؤرخة في 11 أيلول/سبتمبر 1920، **والثانية** مؤرخة في 13 أيلول/سبتمبر 1920، وقد صدرتا من نفس القصر الذي آوى اليه فيصل في إيطاليا فضلًا عن مذكرة طويلة مرسلة إلى الحكومة البريطانية مستعرضًا فيها الرسائل المتبادلة بين الملك الحسين بن علي والسير هنري مكماهون. وجدير بالذكر أن هذا الكراس لم يكن معروفًا أبدًا عند المؤرخين، ولم يستخدمه أحد من قبل حتى اكتشافه مؤخرًا.

(63) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom*, p. 129.

ويستطرد بابان قائلاً: «وكنت أحس في ذلك الوقت المبكر من عمري وعملي أن الملك فيصل كان فعلاً رجلاً ذكيًا، وداهية يعرف كيف يتعامل ويناور لخير البلد. وأنه كان صاحب تجربة غنية. فقد مرت عليه تجارب كثيرة، وخاصة تجربته مع الفرنسيين. فكان يحاول جهد طاقته أن لا تتكرر مأساة سورية في العراق»[64].

سابع عشر: بدء الأدوار السياسية

مارس الأمير فيصل بن الحسين أدواره الأولى في إسطنبول. وأدرك حجم متغيرات الحياة الجديدة في بدايات القرن العشرين. وشهد الانقلاب العثماني عام 1908 وبدايات حكم الاتحاديين، لتنضج مداركه السياسية ومعرفته بمتغيرات العالم. وكانت اسطنبول محورًا مركزيًا في العالم الحديث، إذ كانت تربط الشرق بالغرب. وبدت ملامح الزعامة عند فيصل منذ طفولته، إذ عرف بذكائه وقوة شخصيته واستقلاليته، وتعلم فن القيادة من والده ودرس على أشهر المعلمين اللغة والمعارف. فضلاً عن إجادته التركية والعربية وقليلاً من الفرنسية[65].

وعند عودة فيصل إلى الحجاز برفقة أبيه وكل أفراد عائلته، وتقلّد أبوه منصب الإمارة في مكة، نصبه مديرًا لشؤون البدو. فكانت وظيفته تستوجب عدة حملات تأديبية من حين إلى آخر. فيخرج بمعية أخيه عبد الله بحملة على الغزاة والمتجاوزين وقطاع الطرق الضالين. كما قاد فيصل عام 1912 الحملة ضد أدارسة عسير الذين كانوا قد ثاروا على الدولة وأسقطوا أبها في الجنوب. وسارت الحملة إلى تهامة واستولت على القنفذة في طريقها نحو أبها. وبعد أن تفشت الملاريا في جيشه، نجح في الوصول إلى أبها، وأخرج القوات العسيرية للأدارسة منها. ولكنهم عادوا بعد تنظيم قواتهم فاستولوا عليها مستغلين وباء الملاريا الذي كان يفتك بجيش فيصل وقد أصابته العدوى هو نفسه، فلم ينتصر في تلك الحرب، إذ عاد محمولاً على نقالة إلى مكة مع ضنك الحمى التي هدّت قواه وهو لم يزل في ريعان الشباب[66]. وكانت أخباره المشؤومة قد وصلت إلى بيته وأهله؛ إذ شاع في

(64) أحمد مختار بابان، **مذكرات أحمد مختار بابان: آخر رئيس للوزراء في العهد الملكي في العراق**، إعداد وتقديم كمال مظهر أحمد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999)، ص 29.

(65) انظر: محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ظبيان، **فيصل بن الحسين من المهد إلى اللحد: سجل عام لتاريخ القضية العربية وتطوراتها، مج 1: في حياة الفقيد الحافلة بجلائل الأعمال، وصدى الفاجعة الكبرى في جميع أنحاء العالم وآراء العظماء وكبار المفكرين في شخصية الفقيد** (دمشق: المطبعة العصرية، 1933)، ص 49.

(66) الريحاني، **فيصل الأول**، ص 22.

عموم الحجاز أن فيصل قد أودت الملاريا بحياته فجزع أهله، وشلّت ابنته وبقيت مقعدة طوال حياتها[67]. وقد اعترف فيصل بشجاعة أهل عسير وشدتهم في القتال وخصوصًا رجالهم اللوامع[68].

بعد مضي أقل من عام على تجربته العسكرية في جنوب عسير. جرى تحوّل مهم في حياته الأولى، ففي عام 1913. تم انتخابه ممثلًا لمدينة جدة في مجلس المبعوثان العثماني. وفيه تعرّف إلى عدد كبير من المندوبين والنواب العرب واطلع على مشكلاتهم المتنوعة. وكان يراقب من خلال علاقاته الأولى بالطلبة العرب المدنيين والعسكريين من خلال جمعياتهم العربية التي انبثقت منذ عام 1909، وعاد إلى مكة. ولكن بعد إعلان الإمبراطورية العثمانية تحالفها مع ألمانيا القيصرية في الحرب ضد الوفاق الدولي في كانون الأول/ديسمبر 1914. أرسله والده الشريف الحسين بن علي في مهمة خاصة إلى القسطنطينية لمناقشة طلب العثمانيين للمشاركة العربية في الحرب. وقد مضى برًا، أي على طول الطريق البري. وزار الأمير فيصل دمشق. والتقى بممثلي الجمعيات السرية العربية. ومنها العربية الفتاة والعهد. وبعد زيارة القسطنطينية عاد فيصل إلى مكة المكرمة عبر دمشق أيضًا، حيث التقى مرة أخرى بممثلي الجمعيات السرية العربية. وتلقى بروتوكول دمشق. وانضم إلى مجموعة العربية الفتاة المدنية ليبدأ حركة التنسيق معها. ولكنه في الوقت نفسه بقي مواليًا للدولة[69]. ويذكر أمين الريحاني في كتابه عنه بأن فيصل كان في بداية أمره يقول بوجوب التفاهم بين الترك والعرب. وبالحكم اللامركزي[70]، ولما نشبت الحرب عام 1914 بدخول الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا القيصرية ضد الحلفاء، ظهر الشريف فيصل في سورية لمواصلة سعيه مع الشباب العرب من أجل القضية العربية. وبدت فاعليته السياسية من خلال المراسلات التي كان يحملها من أبيه الشريف حسين إلى جمال باشا والي سورية، وكان أحد القادة الاتحاديين الثلاثة الكبار. وكان فيصل هو الذي أبلغ جمال باشا احتجاج والده الشريف حسين الشديد بإعدام الشباب العرب على دفعتين في كل من دمشق وبيروت، الذي كان نقطة تحوّل أساسية في فكر فيصل ليتجه مباشرة إلى ضرورة تحقيق أهداف العربية الفتاة وجمعية العهد؛ إذ أبى التستر والتكتم على الفظائع التي اقترفها جمال باشا بحق العرب. فكان أن اشتبه به هذا الأخير. وهمّ باعتقاله. فما كان من فيصل إلا أن

---

(67) المصدر نفسه، ص 23.
(68) المصدر نفسه، ص 23.
(69) المصدر نفسه، ص 24.
(70) المصدر نفسه، ص 24.

يخرج من دمشق بحيلة ذكية رتبها مع أصدقائه من الدمشقيين. فعبرت على جمال باشا كي يعود فيصل سالمًا إلى مكة في ربيع عام 1916[71].

ثامن عشر: الحرب العالمية الأولى والثورة العربية

وفي 23 تشرين الأول/أكتوبر 1916 في منطقة الحمرا قرب وادي صفرا، التقى الأمير فيصل بالنقيب لورانس، ضابط الاستخبارات البريطاني القادم من القاهرة. وليكن ضابط ارتباط بين العرب والإنكليز. وكان الطرفان قد تبادلا المراسلات ممثلة بالشريف الحسين والسير هنري مكماهون. وقد خرج الطرفان باتفاق يقضي بشراكة العرب إلى جانب الحلفاء في الحرب شريطة موافقة البريطانيين على تصور الشريف حسين الذي وضعه لدولة عربية مستقلة بعد انتهاء الحرب تمتد من شمال سورية والعراق وتنتهي باليمن وحضرموت جنوبًا. ووجد الأب الشريف الحسين في ولده فيصل الرجل المناسب لقيادة القوات الهاشمية وتحقيق ذلك[72].

بين عامي 1916 و1918، ترأس فيصل الجيش الشمالي للتمرد العربي الواسع النطاق، الذي واجه العثمانيين في جبهة حرب تمتد على طول الحجاز والأردن وسورية[73]. في عام 1917 حاول الأمير فيصل اتباع الأسلوب السياسي بعدما تأكد أن مطالب والده تُعَدّ حلمًا لا يمكن أن يحققه البريطانيون، فبدأ يعمل على الحفاظ على ما حققه من مكاسب بالتفاوض على ترتيب معين مع العثمانيين يحكم بموجبه الولايات العثمانية لسورية والموصل كتابع عثماني. وفي كانون الأول/ديسمبر 1917 اتصل الأمير فيصل بالجنرال العثماني جمال باشا معلنًا عن استعداده للانشقاق والانضمام إلى الجانب العثماني شريطة أن يمنحه مملكة عربية تضم سورية والموصل يحكمها، قائلاً إن اتفاق سايكس ـ بيكو قد خيب أمله في الحلفاء، وهو يريد العمل الآن مع إخوانه العثمانيين[74]. ويبدو أن العثمانيين لم يستمعوا إلى مشروعه، إذ عبّر جمال باشا عن عدم استعداده للتعاقد مع فيصل من الباطن على أهم جزء من الإمبراطورية العثمانية، وتنازُل العثمانيين عن مركزيتهم فيه لفيصل. ولما وجد فيصل ردًّا

---

(71) المصدر نفسه، ص 24.

(72) George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Simon Publications 2001) (1st ed. London 1939), pp. 67 - 69.

(73) Thomas E. Lawrence, *Revolt in the Desert* (London: Leonaur Ltd., 2008), p. 78.

(74) Efraim Karsh and Inari Karsh, *Empires of the Sand. The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789 - 1923* (Cambridge, MA: Harvard University Press 1994), p. 195.

سلبيًا بقي مخلصًا لوالده[75]. أستطيع القول إن هذه المعلومة يتيمة، إذ لا يمكن أن نجد أي أصل لها، إذ لم تذكرها أي مصادر أخرى توصلنا إليها. ويبدو أن كلًا من المؤرخَين أفرايم وإناري كارش يحاولان تشويه تاريخ فيصل الأول بأية وسيلة.

أخيرًا، فإن العثمانيين كانوا يحاولون فقط كسب الوقت لتشتيت شمل القوات العربية وإيقاف المشروع الهاشمي من التنفيذ[76]. في كتابه، **أركان الحكمة السبعة**، سعى لورانس إلى وضع أفضل تلميع لإخلاص فيصل للبريطانيين. ولكن بدا واضحًا أن فيصل كان مخلصًا للقضية العربية، إذ لم يثق لا بالإنكليز ولا بالأتراك العثمانيين. وبقي على تعامل مزدوج مع الطرفين لضمان تمرير قضيته. وبدا لورنس متناقضًا في رسم ملامح غير حقيقية عن فيصل والترويج له كصديق مخلص للحلفاء، علمًا بأن فيصل قد أدرك عام 1917 خيانة البريطانيين والفرنسيين للعرب عندما كذبوا في وعودهم للعرب مدعيًا أن فيصل كان يسعى فقط لتقسيم الفصيلين «القومي» و«الإسلامي» في جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة[77]. كتب المؤرخان الإسرائيليان إفرايم كارش وزوجته إناري أن صحة حسابات لورانس مفتوحة للتساؤل بالنظر إلى أن الخلاف الرئيسي داخلCUP لم يكن بين العثماني جمال باشا والقومي مصطفى كمال كما ادعى لورانس، بل بين الرأسين الكبيرين الحاكمين من الاتحاديين أنور باشا وجمال باشا[78].

تاسع عشر: المحاولة الأخيرة وضرورة الحلفاء

في ربيع عام 1918 بعدما أطلقت ألمانيا عملية مايكل في 21 آذار/مارس 1918، التي ظهرت إلى بعض الوقت للتغلب على هزيمة الحلفاء، اتصل الأمير فيصل مرة أخرى بالوالي جمال باشا والي سورية طالبًا السلام بشرط أن يُسمح له بحكم سورية وعَدِّه تابعًا عثمانيًا. ولكن جمال باشا كان واثقًا من الانتصار فلم يلتفت إلى مقترح فيصل[79]. وبعد حصار دام 30 شهرًا للمدينة المنورة من جانب القوات العربية للقوات العثمانية، هُزم الدفاع العثماني

---

(75) من أجل المزيد من التوضيحات التاريخية، انظر: Suleiman Mousa, «A Matter of Principle: King Hussein of the Hijaz and the Arabs of Palestine,» *International Journal of Middle East Studies,* vol. 9, no. 2 (1978), pp. 184 - 185.

(76) Ibid., pp. 137 - 138.

(77) Ibid., p. 196.

(78) Ibid.

(79) Ibid., p. 197.

الذي نظمه الوالي العثماني فخري باشا ونُهبت المدينة. وعليه، يمكننا القول إن فيصل قد حاول لأكثر من مرة أن يبقى متعايشًا مع العثمانيين. ولكن عناد جمال باشا حال دون إيجاد صيغة سياسية للتعاون العربي ـ العثماني.

لقد اضطر الأمير فيصل أن يبقى يعمل مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى في الامتداد نحو دمشق التي استولى عليها في تشرين الأول/أكتوبر 1918. ووقف على رأس حكومة عربية جديدة فيها. وقد تشكلت بعد تحريرها تلك المدينة. ودخلها فيصل دخول الفاتحين بعد أن أنهى قيادته للثورة التي يختلف الناس في تقييمها. ولكن يجمع المؤرخون على دورها، وكم كان تأثير فيصل في قيادتها. ومن المؤسف أن الغرب فهم هذه «الثورة» من خلال لورانس في كتاباته؛ من دون الاطلاع على مصادر عربية. ومع ذلك انتقد بعض المؤرخين، أمثال دايفيد فرومكين، لورانس الذي لم يكن دقيقًا. كما أنه أعطى لنفسه مساهمة خاصة ودورًا خلال الثورة.

عشرون: شخصية فيصل وثقافته الأدبية

بدا واضحًا أن لفيصل شخصيته المتميزة إبان حياته وله قيمته التاريخية بعد رحيله، إذ ترجمت ذلك ردود الفعل الصارخة عند العرب أجمع، واجتياحهم موجة حزن ومواساة كبرى عبرت عنها كل الصحف العربية والأجنبية عام 1933، أثناء جنازة تشييعه من برن بسويسرا إلى سواحل فلسطين التي خرج أهلها لتوديعه ونقل جثمانه إلى العراق. ونُكست الأعلام في عموم العواصم العربية. «ومما رواه المستر لويس توماس الكاتب الإنكليزي الكبير أن فيصلاً كان حينما يستريح من متاعب الحرب يمضي وقته في تلاوة أشعار قومه القدماء الأماجد وكان أحب الشعراء إليه امرؤ القيس وهو أشهر شاعر عربي قديم تغنى بالجمال والنساء والصحراء والحب. وكان يطرب جلالته ويسر نفسه أن يقرأ أشعار زهير وطرفة والأعشى والمتنبي وغيرهم. وكثيرًا ما كان يردد قول المتنبي شاعر الفخر والحكمة:

الخيــل والليــل والبيــداء تعرفنــي   والسيف والرمح والقرطاس والقلم»[80]

وقال في حوار له مع أحد الصحافيين على ظهر إحدى السفن: «إنني يا أخي لا أفهم حقيقة ما معنى هذه الكلمة: ديمقراطي! ولماذا يقولون عني أنني ديمقراطي كأنني

---

(80) حمادة وظبيان، فيصل بن الحسين من المهد إلى اللحد: سجل عام لتاريخ القضية العربية وتطوراتها، مج 1: في حياة الفقيد الحافلة بجلائل الأعمال، وصدى الفاجعة الكبرى في جميع أنحاء العالم وآراء العظماء وكبار المفكرين في شخصية الفقيد، ص 14.

أعمل عملاً عجيبًا. وأنا عربي بدوي هكذا نشأت وهكذا عشت وهكذا سأموت. أنا لست سوى فرد من الأفراد. وإذا كنت ملكًا فلكي أؤدي مهمة، فهل احتاج لتأدية هذه المهمة إلى التوسل بالعظمة والعظمة لله!»[81]. وجاء في كتاب عنه صدر في عام 1933 النص التالي: «ومن الحوادث التي تروى عن جلالته بهذا الصدد أن بعض الأدباء زاروا جلالته مرة في بغداد. فقدم أحدهم إخوانه إلى جلالة الملك بقوله: هذا فلان وهو سني. وهذا فلان وهو شيعي، وهذا فلان وهو نصراني فقال جلالته: حسبي أن يقال لي هذا عراقي ولا أحب أن أعرف أكثر من هذا»[82].

(81) المصدر نفسه، ص 16.

(82) المصدر نفسه، ص 23.

الفصل الثاني

الثائر:
قيادة ثورة
فاتحة مشروع نهضوي عربي
الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1918

أولًا: طبيعة قيادة الأمير فيصل بن الحسين

1 ـ النظام

يبدو للمؤرخ بعد مرور مئة سنة على اندلاع حدث تاريخي بحجم الثورة العربية الكبرى أن الآراء تنوعت في تقييم هذا الحدث وكثرت المغالطات، بل وتباينت بين معجب بقيادتها كونها تسعى إلى تحرر العرب من هيمنة الأتراك العثمانيين، إلى من يشكك في أدوارها بسبب التحالف مع البريطانيين ووجود لورانس في وقائعها، إذ يضع جملة كبيرة من علامات الاستفهام ضدها! وثمة من يسجل اعتراضاته عليها بسبب تعاطفه مع العثمانيين. وهناك من يعدّها ثورة نهضوية مشروعة كان لها نتائجها التي أثّرت في المنطقة على امتداد القرن العشرين. ومن دون ريب، فإن فيصل بن الحسين كانت له رؤيته السياسية، ولكن المهارات القتالية فقد تميزت بها القيادات العسكرية لعدد من القادة والضباط الكبار وجلّهم من العراقيين. ويؤكد المؤرخ بولاي أ. موهس (Polly A. Mohs) قدرة فيصل البارعة على إقناع القبائل التي شارك أبناؤها في صنع الحدث، في حين اعتمد على خطط الضباط الشريفيين، وكلهم من المحترفين الذين كانوا قد دخلوا حربًا ومهروا في إعداد الخطط المنظمة على النسق الألماني، سواء من المشاة أو الخيالة أو على مستوى الأركان. ويدا

واضحًا من درس الأحداث والوقائع على الجبهة الطاعة للقيادة في تنفيذ الأوامر أو توجيه المقاتلين في تقدمهم، أو الانتظام داخل الفرق. ويستغرب بعض المراقبين كيفية انتظام مقاتلين هم من البدو، وقد امتثلوا للأوامر في ظروف بيئية صعبة ومناخ أصعب[1]. ولم يجد المؤرخ أية حالات انقسام أو اختلاف ضمن المخطط الحربي بوضوح الرؤية وتعيين الهدف. وأعتقد أن مبعث ذلك وجود فيصل قائدًا، الذي يتضح من خلال قيادته السياسية لتجربتين في الحكم لاحقًا في كل من سورية والعراق، أنه يمتلك القدرة على حل المشكلات وإدارة الأزمات معًا.

2 ـ القيادة السياسية والتعبئة العسكرية

وعليه، فإن قيادته السياسية للحرب كانت هي المهيمنة على قيادته العسكرية طوال زمن الحرب، إذ عُد رمزًا سياسيًا عربيًا، وقد شعر الجميع بضرورته التاريخية بعدما افتقدوه على امتداد الأزمنة العثمانية المنصرمة. هنا، يبدو واضحًا أن منظومة جيشه العربي كانت متحررة من أغلالها القبلية، إذ بدت أنها منظومة عسكرية كفوءة ومقتدرة وعلى أفضل درجات التنظيم، وتنطبق عليها محددات القيادة والتعريف القائل بأنها «عملية التأثير الاجتماعي الذي يمكن للشخص أن يجند المساعدات والدعم من الآخرين في إنجاز مهمة مشتركة»[2]. هنا، لأول مرة ينظر إلى القيادة، وأقصد بها قيادة فيصل، من منظور عربي محض ارتبط بكل المشرق العربي معبرًا عن إرادة قومية واضحة تدعمها جماهير في كل بيئة عربية، وانطلاقة حدث معبر عن تلك الإرادة لهدف نبيل، إذ كان قد بلغ الاستياء العربي مبلغًا كبيرًا من سياسات الاتحاديين إزاء العرب، وخصوصًا إعدامات جمال باشا (السفاح) لقوافل من الشباب العرب وملاحقتهم في كل من سورية ولبنان والعراق.

هكذا، نجح فيصل في التعبئة بهذا الاتجاه من خلال ضباطه في الميدان، ونجح في توظيف أهدافه على نحو ذكي وجيد وجعلها مجتمعية ومن ثم سياسية. وهذا أكبر رد على المشككين في الحدث، وعلى الذين يعارضون الحدث، سواء من الأتراك أو حتى من العرب. فهو لم يكن حدثًا شوفينيًا عربيًا ضد الأتراك العثمانيين، بل كان في الأساس

---

(1) Polly A. Mohs, *Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War* (London: Routledge, 2007), p. 41.

(2) David Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze* (London: Osprey, 2008), pp. 32 - 37.

ضد سياسات الاتحاديين العنصرية وخصوصًا اضطهاداتهم للعرب وعدم تلبية مطاليبهم في اللامركزية والمشاركة الإدارية وفي التربية والتعليم بالعربية كما قدمها العرب في المؤتمر العربي الأول بباريس عام 1913. كما أن الحدث تزامن مع ما كانت قد خططت له دوائر استعمارية بريطانية ضمن سيرورة الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918)، بدليل أن مراسلات الحسين مكماهون لم تخرج إلا بوعود نكثها البريطانيون لاحقًا، وهي لم تتضمنها معاهدة أو اتفاقية كما جرى من جانب البريطانيين مع أطراف أخرى. واذا كان البريطانيون قد ضخموا دور لورانس العرب ضمن ذلك الحدث، فلم يكن دور لورانس أساسيًا، بل كان له دور ثانوي، فهو بمثابة مترجم وحلقة اتصال في تنفيذ الخطط لا أكثر ولا أقل، إذ لم يكن شخصية قيادية، وبالرغم من مشاركته الفعّالة في بعض العمليات، ومنها تفجير سكة حديد الحجاز ودوره في جلب الأسلحة، لكنه لم يكن ضابطًا كبيرًا أو مستشارًا وخبيرًا، وهو حلقة اتصال بين العرب وبين العالم من خلال الإنكليز[3].

لقد فرض فيصل نفسه قبل أن يأتي لورانس لاختياره قبل إخوته، ولا يمكن لمؤرخ حصيف قبول ما جاء لدى بعض المؤرخين والكتّاب من تعابير غير مسؤولة. ففي سياق ما كتب عن عام 1917، «قرر ضابط الاستخبارات البريطاني المغامر، توماس إدوارد لورانس، اختيار فيصل ليجري تسويقه على أنه ممثل «الثورة العربية»، التي كان يجري التخطيط لها للإطاحة بالخلافة العثمانية في شبه جزيرة العرب»[4]. كانت الثورة قد اندلعت في بداية حزيران/يونيو 1916، وقد نُصب فيصل لقيادتها، ولم يكن لورانس إلا مساعدًا وجاسوسًا، ولكنه جاء باسم ضابط ارتباط ليغدو مترجمًا عند فيصل لاحقًا. وقد كشفت الوثائق التي كانت مادة أساسية للتواريخ الجديدة أن فيصل الأول كانت علاقاته قوية بالشباب العرب السوريين والضباط والقادة العراقيين قبل اندلاع الثورة[5]، وقبل قرارات والي الشام جمال باشا (السفاح)[6] في البطش بالأحرار العرب. كانت الثورة العربية هي الرد العربي الحاسم

---

(3) H. Montgomery Hyde, *Solitary in the Ranks: Lawrence of Arabia as Airman and Private Soldier* (London: Constable, 1977), pp. 23 - 28.

(4) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 76.

(5) Harold Orlans, *T. E. Lawrence: Biography of a Broken Hero* (Jefferson, NC; London, McFarland, 2002).

(6) أحمد جمال باشا (1873 ـ 1922)، والي بغداد العثماني وأحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي (الباشاوات الثلاثة: أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا، الذين قاموا بالانقلاب العثماني (1908)) التي أطاحت حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ثم شارك في الانقلاب العسكري العثماني (1913)، واتهم بمقتل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا. وشغل بعدها منصب وزير الأشغال العامة عام 1913 ثم وزيراً للبحرية عام 1914، وتولى في الحرب العالمية =

ضد إعدام قافلتين من الشباب العربي في دمشق وبيروت على يد السفاح، وضد السياسة الاتحادية في نهج التريك وآليته التي اتبعتها الدولة العثمانية التي غدت بأيدي ثلاثة زعماء اتحاديين كبار، هم: طلعت باشا (1874 -1921)، وأنور باشا (1881 ـ 1921) وجمال باشا السفاح (1873 ـ 1922)، فلم يكن الخليفة/السلطان بصاحب قرار كي يثور العرب ضده! هذه المعادلة السهلة لم يفهمها أو يدركها العرب حتى اليوم. وعليه، فإن فيصل الأول لم يبق كما ورد ليكون هو المرشح لتقديمه للعرب على أنه الوجه الأمثل للثورة العربية ضد العثمانيين[7].

إن قيادة فيصل لمثل ذلك الحدث، كما تطلعنا عليه التفاصيل مقارنة بعلوم القيادة، وما نتج منها من نظريات، إنما تنطوي على الصفات والخصال والميزات التي منها، ظرفية التفاعل بين الواقع والهدف، وظيفة التنظيم وحسن إدارته، والسلوك القيمي القائم على مبادئ راسخة[8]، والطاقة الكبيرة في تحمل الأعباء وحجم العمل، والرؤية الثاقبة ومرونة التعامل[9]، الريادة السحرية المتمثلة بالكاريزما، والإحاطة بكل شاردة وواردة من خلال الاستخبارات داخليًا وخارجيًا، وغيرها[10].

3 ـ دعم النخب والجماهير

ولعل أهم الخصال، استقبال عدد كبير من الضباط والقادة العسكريين العرب الذين التحقوا بركب الثورة، وهم في رتب متنوعة، إذ تألفت هذه الفئة من كبار القادة العسكريين الذين تمتع بعضهم بالنفوذ الاستراتيجي الذي حملوه معهم، إذ كان لكل واحد منهم سيرة بطولية مسبقًا، وله تاريخ رسمي في صفوف الجيوش العثمانية، ناهيكم بضباط من درجة أدنى التحقوا بالثورة من أجل تحقيق أهداف نبيلة كانت ولم تزل حلمًا للعرب في تأسيس كيان عربي موحّد يضمهم جميعًا، وهو أول مطلب طالب به الشريف الحسين بن علي

= الأولى منصب قيادة الجيش الرابع العثماني، وفي عام 1915 نصّب حاكمًا على سورية وبلاد الشام وفرض استبداده على بلاد الشام وأصبح الحاكم المطلق فيها. انظر: Michael Provence, *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism* (Austin, TX: University of Texas Press. 2005), pp. 34 - 90, and Ernst E. Ramsaur, *The Young Turks: the Prelude to the Revolution of 1908* (New York: Russell and Russell, 1957), pp. 67 - 89.

(7) Allawi, *Faisal I of Iraq*, pp. 77 - 79.

(8) C. Snouck Hourgronje, *The Revolt in Arabia*, with a foreword by Richard J. H. Gottheil (New York; London: G. P. Putnam's sons, 1917), pp. 5 - 11.

(9) Keith Grint, *Leadership: Limits and Possibilities* (New York: Palgrave Macmillan, 2005).

(10) Martin M. Chemers, *An Integrative Theory of Leadrership* (New York; London: Psychology, Press, 2014), p. 56.

بتأسيس المملكة العربية الكبرى في المشرق العربي[11]. ولقد دعم الثورة كل الشخصيات العربية من المدنيين، وخصوصًا في سورية ولبنان والعراق وشرق الأردن وفلسطين، مع سلسلة من الأعيان والنخب المثقفة من الأدباء والعلماء العرب[12].

شغل حدث الثورة العربية الكبرى واجهات الصحف الصادرة بالعربية أو التركية، ونقلت أخبارها وسلسلة وقائعها وطبيعة قيادتها، ووصفت بالعظمى والكبرى أو أطلق عليها بالنهضة، مع إدانة لها طبعًا من جانب صحف النظام الاتحادي في العاصمة إسطنبول. لقد بدأت الثورة يوم 5 حزيران/يونيو 1916 وأعلنت في 8 حزيران/يونيو من طرف الشريف حسين بن علي. جاء في ذلك الإعلان التاريخي أن اندلاع الثورة في يوم 10 حزيران/يونيو يأتي بهدف تأمين الاستقلال عن الأتراك العثمانيين ونظام الاتحاديين الحاكم، وإقامة دولة عربية موحدة واحدة تمتد من شمال حلب والموصل نزولاً إلى عدن في اليمن جنوبًا، ومن جبال زاغروس والخليج العربي شرقًا إلى البحر المتوسط والأحمر غربًا. ويكتب أحد المستشرقين الهولنديين، وكان عالمًا في اللغة العربية، كتابه عن الثورة العربية وينشره أثناء مسيرتها عام1917، ويقول بأن «بغداد وبقية العواصم والمدن العربية تقبلت بسرور كبير اندلاع هذا الحدث التاريخي المنبثق من مكة المكرمة وعلى يد الأشراف الذين لهم مكانة نبيلة وسامية في قلوب المسلمين أجمعين»[13].

4 ـ العروبة: مبدأ الثورة الأساسي

تعد الثورة العربية التي انطلقت من الحجاز انعطافة تاريخية إيجابية كبيرة في حياة العرب ضد الأتراك الاتحاديين[14]. على الرغم من أن الثورة العربية دعيت بالشريفية لدى العرب، فقد نظر أعداؤها إليها بوصفها تمردًا متجذرًا في الشعور القومي العربي ومروقًا عن الخلافة، إذ تكررت دعوة المسلمين في كل العالم إلى محاربة هؤلاء المارقين المتمردين. وقد رد الشريف حسين متهمًا «تركيا الفتاة» بانتهاك مقدسات الإسلام، ودعا العرب المسلمين

(11) Randall Baker, *King Husain and the Kingdom of Hijaz* (Cambridge, MA: The Oleander Press, 1979), p. 23.

(12) Sayyar Al - Jamil, «Arab Nationalist Pioneers in Mosul,» *International Journal of Contemporary Iraqi Studies*, vol. 3, no. 2 (November 2009).

(13) Hourgronje, *The Revolt in Arabia*, p. 13.

(14) سيار الجميل، **العثمنة الجديدة: القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك** (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 42.

إلى التمرد المقدس ضد الحكومة العثمانية الاتحادية التي وصفها بـ «الأثيمة»[15]. وعلى الطرف الآخر، راح الأتراك يتهمون الثورة بشتى الاتهامات، وبأنها مجرد تمرد قبائل قاموا بخيانة الخلافة الإسلامية، وأن العرب قد تحالفوا مع قوى الاستعمار في محاولاته تقسيم بلاد المسلمين والتحكّم فيها[16]. وفي حين بقي الشريف الحسين بن علي في عاصمته مكة المكرمة رمزًا سياديًا ومفجرًا حقيقيًا للثورة، فهو ولّى ولده فيصل القيادة العسكرية للثورة (وهي مهمة خطيرة) وعمره 21 عامًا، في حين ولّى ولده عبد الله العلاقات الخارجية، وتولّى ولده البكر علي شؤون الحجاز الداخلية[17].

بدأ صعود الفكرة القومية في تاريخ الإمبراطورية العثمانية منذ عام 1821. وكانت للقومية العربية جذرها التاريخي أيضًا وخصوصًا في المشرق العربي مستندة إلى ركيزة حقيقية وقديمة جدًا تتمثل بـ «العروبة». كان التوجه السياسي للعرب القوميين في السنوات السابقة على الحرب العظمى الأولى معتدلة عمومًا. وكانت مطالب العرب تنتهج الطابع الإصلاحي، وقد حددت في الحكم الذاتي، مع زيادة استخدام اللغة العربية في التربية والتعليم بالمدارس، وإجراء تغييرات في نظام التجنيد العثماني بحيث يستطيع العرب كمجندين خدمة أوطانهم العربية بدل أن يسحقوا في أماكن بعيدة وبيئات صعبة[18].

بدأت الثورة الدستورية على يد الترك الشباب في 3 تموز/يوليو 1908 وسرعان ما انتشرت أفكارها في جميع أنحاء الإمبراطورية. ونتيجة لذلك، اضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى أن يعلن عن إعادة دستور 1876، وكان فيصل قد شهد منذ شبابه المبكر نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثاني 1909، إذ كان عمره وقت ذاك 24 عامًا. وتعرف إلى حقبة التجربة الدستورية (المشروطية) الثانية. وشهد حكم الاتحاديين ومعاناة العرب معه، إذ غدا أكثر استبدادية من عبد الحميد إزاء العرب بعدما كان يبدو لأول مرة أكثر ليبرالية في

---

(15) المصدر نفسه. انظر أيضًا: Sean McMeekin, *The Berlin - Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power* (Cambridge, MA: Belknap Press, 2012), pp. 288 and 297.

(16) Mustafa Bostancı, *Birinci Dünya Savaşı'nda Osmanlı Devleti'nin Hicaz'da Hâkimiyet Mücadelesi (The Struggle of Ottomans in Hijaz Region during the World War I)* (Istanbul: Akademik Bakış, 2014), pp. 34 - 39.

(17) انظر التفاصيل في: أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997)، ص 196 ـ 219 (وقد غرق هذا الكتاب بتفاصيل في سرد أسماء وأحداث لا ضرورة تاريخية لها).

(18) سيار الجميل، **العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة**، ط 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013)، ص 320.

التوقعات. تألف البرلمان الجديد من 142 نائبًا من الأتراك، و60 من العرب، و25 من الألبان، و23 من الإغريق، و12 من الأرمن، و5 من اليهود، و4 من البلغاريين، و3 من الصرب؛ ومنح الدستور المزيد من التركيز على المركزية وبرنامج التحديث[19].

في تلك المرحلة، لم تكن القومية العربية حركة جماهيرية، بل نخبوية في كل من سورية والعراق، حيث كانت قوية لدى نخب المثقفين، وكان عموم العرب قد منحوا ولاءهم الأساسي للدين أو الطائفة أو القبيلة، أو كان بعضهم يمنح ولاءه لحكومته القبلية أو الخاصة. كان فيصل قد اطلّع من خلال عضويته في بعض الجمعيات العربية على مشاعر عربية فيّاضة، ولكنه كان يرى أن الأيديولوجيا العثمانية التي غالى بها الاتحاديون هي المنافس القوي والحقيقي للقومية العربية، وخصوصًا بعد نفي السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909 وإحلال أخيه السلطان محمد رشاد مكانه، بعدما كان مجرّدًا من كل السلطات الحقيقية[20].

في عام 1913، التقى المثقفون والسياسيون العرب في باريس مؤسسين للمؤتمر العربي الأول. في قاعة سانت جرمان، وقدموا مجموعة من المطالب التي تختصر بمزيد من الحكم الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية[21]. كما طلبوا مجددًا من الجيش العثماني أن لا يسوق المجندين العرب للخدمة في مناطق أخرى إلا في وقت الحرب. ولكن بالرغم من وعود المسؤولين الأتراك بتنفيذ رغبات العرب، إلا أنهم لم يحققوا لهم شيئًا يذكر، بل لوحق الشباب العرب الذين اشترك بعضهم في المؤتمر العربي الأول من جانب والي الشام جمال باشا السفاح وقدمهم للمحاكمة، وأصدر أحكامًا بالإعدام ضدهم وشنقوا في كل من دمشق وبيروت عام 1915 بعدما لفقت لهم تهمٌ لا أساس لها من الصحة[22].

---

(19) Hasan Kayalı, «Elections and the Electoral Process in the Ottoman Empire, 1876 - 1919,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 27, no. 3 (1995), pp. 265 - 286.

(20) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (Cambridge, MA: Belknap of Harvard University Press, 1991), and David David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: H. Holt, 2001).

(21) سيار الجميل، «مؤتمر باريس 2013: مئوية المؤتمر العربي الأول في باريس 1913،» **عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، السنة 2، العدد 5 (صيف 2013).

(22) التفاصيل في: سيار الجميل، «المؤتمر العربي الأول 1913: رؤية جديدة لزمن الاستنارة بعد مئة عام،» ورقة ألقيت في: الندوة التاريخية التي عقدت في معهد العالم العربي بباريس لمناسبة مرور 100 سنة على انعقاد المؤتمر العربي الأول، في سانت جرمان في باريس عام 1913، وذلك بتاريخ 4 ـ 5 حزيران/يونيو 2013.

ثانيًا: عمليات الثورة وقائدها

1 ـ الانجذاب للثورة

تشير التقديرات إلى أن عدد القوات العربية المشاركة في عام 1916 بلغ نحو خمسة آلاف جندي[23]. ولكن هذا الرقم ربما ينطبق على العسكريين النظاميين العرب الذين قاتلوا خلال حملة سيناء وفلسطين مع قوة مشاة قادمة من مصر بقيادة الجنرال أللنبي[24]، إذ لا يمكن أن ينطبق هذا الرقم أبدًا على قوات الثورة العربية الكبرى سواء من كان ضمن جيش فيصل النظامي، أو من التحق به طوال سير التقدم نحو الأعلى، إذ تفاقم عدد الملتحقين بالثورة في مناسبات قليلة، ولا سيَّما خلال الحملة العسكرية الأخيرة في سورية، فلقد نما هذا العدد أكثر فأكثر، بعدما انضم كثير من العرب إلى الثورة، ولكن بصورة متقطعة وبجهود قيادة فيصل، وغالبًا ما كانت هناك حملة تمضي في التقدم ويدور القتال ضد الجيش التركي في منطقة عربية، فينضم المزيد من أبناء القبائل في تلك الدائرة بعدما يقوم فيصل بالالتقاء بشيوخها وأعيانها ويكرمهم بيديه ويجذبهم بكلامه الساحر[25].

كان ذلك واضحًا خلال الغارة العربية على العقبة وملاحقة الجيش التركي المنسحب بعد فشله الذريع في صد المهاجمين العرب، ففي الوقت الذي تهاجم قوة عربية أولية تتألف من بضع مئات إحدى القلاع أو الحصون أو المدن، ينضم إليها أكثر من ألف مقاتل وهم من القبائل المحلية. ويحدث ذلك بتخطيط من فيصل وأركان حربه من القادة الشريفيين. انضم خلال الهجوم النهائي على العقبة قوات عربية غير نظامية. وكانت تقديرات القوات لدى فيصل فعالة، فهو يدرك مدى قوتها أو ضعفها، وهو شديد الكتمان على اتصالاته مع الأطراف، بحيث لا يعرف هذا ما دار مع ذاك، فضلاً عن إدراكه أن مادة جيشه تختلف وتتباين من مكان إلى آخر فما كان من أحداث في اراضي الحجاز هو غير ما حدث في ما

---

(23) Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, p. 34.

(24) الفيلد مارشال إدموند هنري هينمان أللينبي، (Edmund Henry Hynman Allenby, 1st Viscount Allenby) (1861 ـ 1936) قائد عسكري وإداري بريطاني، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قواته البريطانية في الاستيلاء على فلسطين وسورية عامي 1917 و1918. انظر التفاصيل في: Lawrence James, *Imperial Warrior: The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby 1861–1936* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1993), pp. 45 - 56.

انظر أيضًا: Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917–1919* (London: Routledge, 1999), pp. 34 - 39 and 78 - 90.

(25) أمين الريحاني، **فيصل الأول**، ط 2 (بيروت: مؤسسة الريحاني للطباعة والنشر، 1958)، ص 56 ـ 78.

وراء العقبة حتى حوران، وقد نضجت تجربته القيادية عام 1918، ووصل العدد الرسمي إلى ثلاثين ألف من الرجال، وهو نواة الجيش الأردني لاحقًا.

2 ـ استراتيجية فيصل

كان فيصل ملزمًا باتباع استراتيجية قيادية جديدة في منطقة شرق الأردن، إذ بدا واضحًا أن الجيش العربي قد ميزته أكثر من قوة لوجستية وسياسية: الأعوان من العشائر الذين كانوا يشنون حرب عصابات ضد فلول الجيش العثماني ثم يختفون في الصحاري والبوادي في حرب المساءات التي يجيدونها، وهي التي تسمى الكر والفر. وهناك قوة الجيش الشريفية، وهي قوة منظمة ولها غرفة عمليات وأركان حرب، وقد تكّونت مادة هذا الجيش الذي تم تجنيده من الجنود والضباط العثمانيين ومن الأسرى العرب، وقاتل طويلاً في معارك تقليدية[26]. وتخبرنا بعض المدونات التاريخية عن الأيام الأولى للثورة، ورجاحة عقل فيصل وخبرته التي استفاد منها الضباط الشريفيون إلى حد كبير، وقد كانت جاذبة القوى، وخصوصًا في تجنيد البدو وغيرهم من القبائل المنتشرة في الصحراء، وكان فيصل يدرك من النظرة الأولى جدية من يتعامل معه كي يتحالف وإياه، فإذا لم يطمئن إلى من يأتي إليه، فتغدو العلاقة مجرد محالفة فضفاضة[27]، وبدا واضحًا لفيصل أن أغلب البدو لن يحاربوا إلا إذا دُفع لهم مقدمًا قدر من عملة ذهبية. ومع حلول نهاية عام 1916، كان الفرنسيون قد أنفقوا مبلغًا قدره مليون ومئتان وخمسون فرنكًا من الذهب في دعم التمرد العربي ضد الأتراك الاتحاديين[28]. وبحلول أيلول/سبتمبر 1918، كان البريطانيون يصرفون مبلغًا قدره مئتان وعشرون ألف باوند استرليني في كل شهر من أجل دعم التمرد العربي[29]. ويبدو واضحًا أن هذه المبالغ صرفت رواتب ومكافآت للجند من البدو والمرتزقة، إذ إن السلاح كان يأتي بواسطة بريطانيا.

كانت استراتيجية فيصل تقضي باتباع خطة رسمها بعد تأمل طويل تمكنّه من إقناع كل الفصائل العسكرية من أصول عربية، وكانوا ما زالوا يخدمون في الجيش العثماني إلى التمرد والانضمام إلى قضيته، وقد فوتت الدولة العثمانية هذا الأمر باتباع استراتيجية مضادة لسياسة الأمير فيصل، إذ كانت قد أرسلت حكومتها رسميًا معظم قواتها وقطعاتها العربية

---

(26) Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, pp. 20 - 23.

(27) Ibid., p. 21.

(28) Ibid.

(29) Ibid.

إلى الخطوط الأمامية في جبهة الحرب الأوروبية أو الروسية، وقامت بتفريقهم من دون أن تضع أيًّا منهم على مقربة من الآخر، وبالتالي، لم يلتحق منهم بالثورة العربية سوى حفنة من الفارين من الجبهات برًا وبحرًا انضموا إلى قوات الثورة العربية سواءً في مراحلها الأولى أم الوسيطة أم الأخيرة، وكان أغلب الملتحقين بها هم من الضباط العراقيين الذين بقوا مستمرين على نهج فيصل ومسير الثورة، حتى وإن وصلوا في وقت لاحق من الحملة. كان تجهيز القوات الأردنية في البداية سيئًا، ولكنها كانت في وقت لاحق تتلقى إمدادات كبيرة من الأسلحة، وأبرزها بنادق ورشاشات من بريطانيا وفرنسا[30].

3 ـ حجم التحديات

بلغ عدد القوات العثمانية في الحجاز قرابة من عشرين ألفًا من العسكريين الرجال في عام 1917. عند اندلاع الثورة في حزيران/يونيو 1916، وكان الفيلق السابع في الجيش العثماني يتمركز في النقطة 4TH في الحجاز، وكان من المقرر أن ينضم إلى فرقة المشاة الـ 58 بقيادة اللفتنانت كولونيل علي نسيب باشا، وكان مسؤول القوة المؤقتة الجنرال جمال باشا (كان يسمي نفسه: محمد الفاتح)، الذي كان يتولى مسؤولية الحفاظ على سكك الحديد في الحجاز، وقوة مشاة معسكرة في الحجاز كانت تحت قيادة الجنرال فخري باشا[31]، وقد وقعت عدة مواجهات. وفي إحدى المواجهات تزايدت الهجمات على خط سكة الحديد الحجازية، وهو ما دعا إلى إنشاء قوة ارتباط عام 1917[32].

اشتملت القوة العثمانية على عدد من الوحدات العربية، وأفرادها عرب بقوا أوفياء للسلطان والخليفة العثماني، وقاتلوا جيدًا ضد الحلفاء. كانت القوات العثمانية تتمتع بميزة واضحة على القوات العربية منذ البداية، إذ كان للعثمانيين إمدادات جيدة من الأسلحة

(30) Ibid., p. 24.

(31) فخري باشا أو فخر الدين باشا (1868 ـ 1948)، قائد عثماني شهير عند نهايات عمر الدولة العثمانية، ويعرف أيضًا بـ«نمر الصحراء» ولقبه الإنكليز بـ«النمر التركي»، هو آخر الأمراء والقواد العثمانيين على المدينة المنورة (1916 ـ 1919) استعصى داخل المدينة على رأس 70 ألف مقاتل، وطال حصارها من جانب جيش الثورة العربية، وبعدما اشتد الحصار عليه في المدينة من جانب قوات الثورة العربية بقيادة عبد الله بن الحسين استسلم إلى قوات الثورة في بئر درويش (الفريش). وبعد استسلامه استقبله الشريف عبد الله بن الحسين استقبالًا رسميًا، حرص على أن يرضي به كرامة الرجل وكبرياءه بالحفاوة البالغة والموافقة على كل شرط من شروطه من دون أي نقاش. انظر: Mesut Uyar and Edward J. Erickson, *A Military History of the Ottomans: From Osman to Atatürk* (Santa Barbara: Praeger Security International/ABC - CLIO, 2009), pp. 111 - 114.

(32) Bostancı, *Birinci Dünya Savaşı'nda Osmanlı Devleti'nin Hicaz'da Hâkimiyet Mücadelesi (The Struggle of Ottomans in Hijaz Region during the World War I)*.

الألمانية الحديثة. إضافةً إلى ذلك، كانت القوات العثمانية بدعم كل من القوات الجوية العثمانية، ومهمتها حماية الأسراب الجوية القادمة من ألمانيا وأغلب عناصرها من الدرك العثماني. وعلاوة على ذلك، اعتمد العثمانيون على دعم كان يقدمه ابن رشيد حاكم إقليم حائل، وهو إقليم بقي يسيطر عليه رجال القبائل (وهو اليوم شمال السعودية بعد سيطرة السعوديين عليه وخلع آل رشيد[33] من حكمه)، وكان الحجاز قد وقع تحت دهم السعوديين وقواتهم من حين إلى آخر مع التهديد بدهم الهجمات. ولكنْ ثمة ضعف كبير حاق بالقوات العثمانية التي كانت بعيدة جدًا، فهي في نهاية خط إمداد طويلة وضعيفة يشكلها خط سكة الحديد بين الشام والحجاز، والذي بدأ يتعرّض لمشكلات صعبة جراء الهجمات العربية عليه، فكان أن تسبب ضعف العوامل اللوجستية في تشكيلات العثمانيين العسكرية وقد استغل فيصل هذا الحال، فكان العثمانيون غالبا ما يجبرون على القتال وهم في موقف دفاعي. وكانت الهجمات العثمانية ضد القوات العربية في كثير من الأحيان قد تعثرت بسبب نقص الإمدادات من المشاكل أكثر مما لتصرفات العدو[34].

ثالثًا: الصراعات

1 ـ فيصل بعد معركة العقبة

كان دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب ضد الحلفاء والتحالف مع ألمانيا القيصرية سببًا مباشرًا في إشعال الحريق والتهاب المواقف في الشرق الأوسط. ووفقًا لأحكام التحالف العثماني ـ الألماني، تم القبض على العديد من الشخصيات القومية العربية في دمشق وبيروت، وتعرضوا للتعذيب. وهو ما خلق شعورًا عارمًا ضد الأتراك والتعاطف مع أية حركة قومية عربية تنتشل الموقف وتقصي العثمانيين عن حكمهم، ولقد أجج الحلفاء البريطانيون والفرنسيون التمرد ضد الدولة العثمانية بصيغتها الاتحادية التي تبلورت بعد عام 1909[35].

---

(33) آل رشيد عائلة وسلالة عربية حكمت إمارة جبل شمر في إقليم حائل شمال وسط الجزيرة العربية وعاصمتها حائل إبان القرن التاسع عشر الميلادي عام 1834، وحكمت لمدة 88 سنة حتى مطلع القرن العشرين، وكان الصراع بين آل رشيد وآل سعود في نجد قويًا حتى سقطت إمارتهم عام 1921، كونهم بقوا موالين للعثمانيين ضد الإنكليز، فضم السعوديون إقليم حائل إلى مملكتهم. انظر: Madawi Al Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidis of Saudi Arabia* (New York: I. B. Tauirs, 1991), pp. 34 - 75.

(34) نوري السعيد، **مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية، 1916 ـ 1918** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1987)، ص 45 ـ 74. (في الطبعة الأولى نشر هذا الكتاب بعنوان محاضرات بدل مذكرات)!

(35) Hasan Kayalı, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908 - 1918* (Berkeley, CA: University of California Press, 1997), pp. 23 - 47.

بسبب القمع من جانب الإمبراطورية العثمانية وحلفائها من القوى المركزية والكبرى، تأجج موقف الشريف حسين، الوصي على المدينة المقدسة مكة المكرمة، فدخل في علاقة مراسلات مع المملكة المتحدة وفرنسا ضد العثمانيين لينطلق في 8 حزيران/يونيو 1916، أما تاريخ الوجود الفعلي، فهو غير مؤكد إلى حد ما. وقد سهَّل إجراء تلك العلاقات مع الأجهزة البريطانية خصوصًا ضابطٌ عربي شاب غامض، كان منخرطًا في الجيش العثماني يدعى محمد بن شريف الفاروقي، وهو ضابط عثماني موصلي من آل العمري ويعد أول ضابط عراقي التحق بالشريف حسين، وقام بمهمته الدبلوماسية في القاهرة بين السِّير هنري مكماهون وبين الشريف حسين[36]، وكان الأمير عبد الله بن الحسين هو الذي ينقل المراسلات السرية بيده وبنفسه من دون أن يشاركه أحد.

2 ـ المأزق التاريخي

لم يكن الشريف حسين بن علي أول القياديين العرب من الذين اتصلوا بالإنكليز، إذ سبقه غيره في ذلك منذ عشرات السنين، وإذا كانت له مراسلاته حول القضية العربية مع هنري مكماهون (Henry McMahon) [37] في مصر، فإن المراسلات تلك لم يسفر أمرها عن توقيع أية اتفاقية أو معاهدة بين الطرفين، بل وصفت بالعهود أو التعهدات التي وعد بها العرب بتلبية مطالبه، وكان تحت إمرته نحو 50 ألف رجل من حمَلة السلاح، ولكن كل ما كان لديه أقل من 10 آلاف بندقية، وكانت الظروف الصعبة التي عاشها العرب في ظل حكم الاتحاديين العثمانيين تقود إلى أن يتحالف العرب ضد خصومهم الجدد الذين تحالفوا مع الألمان رسميًا ودخلوا الحرب معهم، وتعلمنا الأدلة التاريخية على أن الحكومة العثمانية كانت تخطط لتنحية الشريف حسين عن مكانته الرمزية في نهاية الحرب، وهو ما قاده إلى تبادل الرسائل مع المندوب السامي البريطاني هنري مكماهون الذي أقنعه أن مساعدته على جانب الحلف الثلاثي سوف يكافأ عليها بتأسيس مملكة عربية يقف الشريف حسين على رأسها، وهي تشمل المشرق العربي كله والممتد جغرافيًا بين مصر وبلاد فارس،

---

(36) انظر التفاصيل عن محمد شريف الفاروقي، في: سيار الجميل، **زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب** (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999)، ص 241 ـ 242. (وانظر عنه لاحقًا).

(37) السير فنسنت آرثر هنري مكماهون 1862 ـ 1949 كان ضابطًا ودبلوماسيًا في الجيش الهندي البريطاني، شغل منصب المفوض السامي في مصر بين 1915 ـ 1917. كان أيضًا مسؤولًا في الراج البريطاني وعمل مرتين كمدير مفوض لبلوشستان. اشتهر مكماهون بمراسلاته مع الشريف الحسين بن علي، شريف مكة. انظر: David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Holt, 1989), pp. 286 and 288.

باستثناء الممتلكات والمصالح الإمبريالية البريطانية في الكويت وعدن والفرنسية على الساحل السوري. وقرر الشريف حسين، الذي كان حتى ذلك الحين رسميًا على الجانب العثماني. وبالرغم من شعوره بالألاعيب التي يدبرها معسكر الحلفاء بسبب الشائعات التي راجت حول منافسة الشريف علي حيدر[38]، وهو زعيم من سلالة آل زيد من الأشراف، على منصب شريف مكة، وهو ما أجج موقف الحكومة العثمانية في العمل قريبًا على خلع الشريف حسين [39].

3 ـ ردود الفعل

إن هواجس الشريف حسين، وخصوصًا بعد سلسلة الإعدامات في حق عدد من القادة والساسة والمثقفين القوميين العرب في دمشق وبيروت، دفعت به إلى البحث عن حماة في خضم تلك الأزمة الصعبة. وفي 5 حزيران/يونيو 1916، قاد كل من ولديه الأميران علي وفيصل الثورة محليًا من خلال مهاجمة الحامية العثمانية في المدينة المنورة، ولكنهما هُزما مع جيشهما الصغير من طرف حامية الدفاع العثمانية التي كان يقودها فخري باشا كما ذكرنا آنفا. هكذا، بدأ التمرد العربي الواسع في 10 حزيران/يونيو 1916، عندما أمر الشريف حسين مؤيديه مهاجمة الحامية العثمانية في مكة المكرمة بقيادة فيصل الذي وجد لديه قدرات متفوقة. وفي معركة مكة المكرمة، التي دامت طويلاً، استمر القتال العنيف لأكثر من شهر في الشوارع، وكانت المعارك دامية، ولكن رجحت الكفة لصالح قوات فيصل، إذ

---

(38) كان الشريفُ علي حيدر بن الشريف عبد المطلب من إشراف مكة الذين ينتمون إلى آل زيد الذين حكموا الحجاز إلى سنة 1250 هـ 1834م، وانتهى عهدهم ليأتي بعدهم آل عون بتنصيب الأمير الشريف محمد عبد المعين بن عون جد الملك الحسين بن علي. وفي إثر إعلان الشريف الحسين الثورة العربية وإعلان استقلاله عن العثمانيين الاتحاديين، عيَّنت الحكومة الشريف علي حيدر أميرًا بدلًا من الحسين، وعلي حيدر تلقَّى علومَه في السراي السلطانية مع أمراء آل عثمان، وكان يُحسن اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية، وله شغفه الفني بالرسم وبراعته في الموسيقى وكان عضوًا بمجلس الشيوخ العثماني ووزيرًا للأوقاف العثمانية، ونصّب أميرًا على مكة، له شخصية قوية ولا يضارعُها أحدٌ من بني قومه. وقد تم تنصيبه شريفًا لمكة، ولكنه لم ينفّذ الأمر بسبب هزيمة الدولة في الحرب العظمى واستقلال الشريف حسين بالحجاز، وقد كان محبًّا للعلم والعلماء يتصف بسجاياه الطيبة وإنسانيته وبره وإحسانه، جمع نفائس من المخطوطات والمطبوعات النادرة وترك مكتبة شخصية زاخرة، وابنه هو الفنان الموسيقار الشهير محي الدين حيدر الذي يعدّ أحد أعمدة الموسيقى العربية في القرن العشرين. راجع عنه تفاصيل أكثر في: Randall Baker, *King Husain and the Kingdom of Hejaz* (New York: Oleander Press, 1979), pp. 11 - 15.

انظر أيضًا: David George Hogarth, *Hejaz Before World War I: A Handbook*, 2nd ed. (New York: Oleander Press 1978), 1st ed. 1917, pp. 56 - 57, and Mohs, *Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War*, pp. 24 and 128.

(39) Joshua Teitelbaum, *The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of the Hijaz* (London: C. Hurst and Co. Publishers, 2001).

مارست القتال أفضل كثيراً من القوات العثمانية المسلحة، وكانت ثمة أحداث عنيفة أدى فيها رجال القبائل العربية دورهم. راهن العرب على وعود بريطانيا بتأسيس كيان عربي يمتد من جبال طوروس شمالاً حتى اليمن جنوبًا ومن جبال زاغروس شرقًا حتى سواحل المتوسط غربًا، ولكن الآمال العربية خابت بعد اكتشاف المؤامرة البريطانية ـ الفرنسية لتقسيم التركة العثمانية من البلدان العربية كما ستظهر جلية في اتفاقية سايكس ـ بيكو لاحقًا[40]. وثمة معلومات عن التحاق عزيز علي المصري بقوات الثورة فنصبه الشريف حسين قائدًا للجيش وعيّن نوري السعيد رئيسًا لأركان الجيش. وسرعان ما دب الخلاف بين الاثنين من أجل المنصب، وكان نجم نوري يلتمع، فتحدد مصير عزيز علي المصري، إذ لم تمض إلا ثلاثة أشهر حتى غادر إلى القاهرة ولم يعد ثانية. كان نوري يأمل أن يكون هو القائد لكنه فوجئ بوصول ضابط مصري آخر هو محمود القيسوني بدلاً من عزيز علي المصري. ووصف علي جودت القادم الجديد أنه مجرد أداة بأيدي البريطانيين[41]. وقد اكتشف نوري من خلال صديقه شريف الفاروقي في مصر أن القيسوني ضابط ذو رتبة صغيرة وليست له درجة الأركان، فرفض نوري العمل تحت قيادته، فمنح نوري المنصب مع لقب الباشوية[42].

ثمة معلومات تخبرنا أيضًا أن قوات مصرية أرسلها البريطانيون إلى مكة المكرمة قد انضمت إلى الحدث، وكانت الحاجة ماسة إليهم لاستخدامهم في دعم المدفعية، وأخيرًا تولى مكة المكرمة في 9 تموز/يوليو 1916[43]. ولم تنفع نيران المدفعية العثمانية، إذ كانت تطلق عشوائيًا، وكانت قد سببت الكثير من الضرر في مكة المكرمة، وتحولت إلى أن تكون دعاية قوية ضد العثمانيين إزاء الهاشميين، إذ صوّر موقف العثمانيين كما لو كان ذلك تدنيسًا لعاصمة الإسلام المقدسة. على نحو آخر وباتجاه الطائف، هاجم الشريف الأمير عبد الله بن الحسين أيضًا في 10 حزيران/يونيو 1916 مدينة الطائف وحاصر الحامية العثمانية بدعم من المدفعية المصرية، وتولى الشريف عبد الله الطائف في 22 أيلول/سبتمبر 1916[44].

---

(40) إبراهيم الراوي، **من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث** (بيروت: مطبعة دار الكتب، 1969)، ص 59، وسليمان موسى، محرر، **المراسلات التاريخية: الثورة العربية الكبرى**، 3 مج (عمّان: المؤلف، 1973)، مج 1: **1914 ـ 1918**، ص 129.

(41) علي جودت الأيوبي، **ذكريات 1900 ـ 1958** (بيروت: مطابع الوفاء، 1967)، ص 44.

(42) الراوي، المصدر نفسه، ص 106. انظر أيضًا: Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, pp. 14 - 15.

(43) *The Manchester Guardian* (22 June 1916).

(44) Dale H. Hoiberg, ed., «Abdullah,» in: *Encyclopedia Britannica*, vol. I: (A - ak Bayes), 15th ed. (Chicago, IL: Encyclopedia Britannica Inc., 2010), p. 22.

4 ـ البحر الأحمر

كانت القوات البحرية الفرنسية والبريطانية قد استولت على البحر الأحمر، وأبعدت الزوارق الحربية العثمانية وأغرقت بعضها في وقت مبكر من الحرب[45]. توجهت القوات العربية نحو ميناء جدة الذي تعرّض للهجوم من جانب 3500 مقاتل عربي في 10 حزيران/يونيو 1916، وساعد في تلك العمليات القصف الذي مارسته السفن الحربية البريطانية والطائرات المائية. وكان الدعم الجوي حاسمًا للقوات العربية فكان أن استسلمت الحامية العثمانية في 16 حزيران/يونيو[46]. وبحلول نهاية أيلول/سبتمبر 1916، امتدت الجيوش العربية بقيادة الأمير فيصل، وسيطر على المدن الساحلية في كل من رابغ، وينبع، وقنفذة، ونجح جيشه في أسر 6000 سجين عثماني. سمح الاستيلاء على موانئ البحر الأحمر للبريطانيين إرسال قوة عسكرية محترفة تتألف من 700 من أسرى الحرب العربية ـ العثمانية (وجلهم أصلاً من العراق) وكان على رأسهم العقيد أركان حرب نوري السعيد الذي كان متلهفًا للانضمام إلى الثورة والمشاركة في قيادتها[47]. كما وصل أيضًا ملتحقًا بالثورة عدد من الجنود المسلمين من شمال أفريقيا، وبالرغم من تمدد الثورة نحو الشمال، فلقد بقي نحو خمسة عشر ألف جندي عثماني مسلحين جيدًا في الحجاز، ومع ذلك أدى هجوم مباشر على المدينة المنورة في تشرين الأول/أكتوبر 1916 في صد الهجوم الدموي للقوات العربية[48].

رابعًا: خطط فيصل

1 ـ المساعدات اللوجستية

يبدو أن لورانس قد انسجم كثيرًا مع الأمير فيصل، ولكنه لم ينسجم مع الأمير عبد الله، وخصوصًا في مسألة الحصول على المساعدات اللوجستية من البحرية الملكية، أو ما يخص العودة إلى الوراء، إذ شنّ العثمانيون هجومًا على ينبع في كانون الأول/ديسمبر 1916. وقد أقنع لورانس الأخوين الأميرين فيصل وعبد الله لتنسيق أعمالهم وجهودهم في

---

(45) Charles L. Parnell, «Lawrence of Arabia's Debt to Seapower,» *Proceedings* (United States Naval Institute), vol. 105 (August 1979).

(46) Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, pp. 89 - 92.

(47) S. C. Rolls, *Steel Chariots in the Desert* (London: Jonathan Cape, 1940), pp. 21 - 22 and 41 - 42.

(48) Murphy, Ibid., p. 34.

دعم الاستراتيجية البريطانية. فكان فيصل قد وظف ذلك في مطالبته أن تكون المساعدات البريطانية في خدمة الجيش العربي وأن يكون المستفيد الأول منها، ولما كان رأي الأمير عبد الله مناقضًا، فلقد تلقى لوجستيًا أقل كثيرًا من المساعدات البريطانية[49]. وكان فيصل يرى أن قطع العرب لسكة حديد الحجاز بمثابة قطع أنفاس العثمانيين في حاميتهم بالمدينة المنورة. فكان أن هاجم العرب سكة حديد الحجاز في مناسبات عديدة. وقد انشغلت القوات العثمانية بذلك وأجبرهم على حماية سكك الحديد وإصلاح الضرر المستمر، فجعلهم طعمًا للغارات العربية في الليل[50].

2 ـ التقهقر العثماني

في 1 كانون الأول/ديسمبر 1916، قاد فخري باشا هجومًا عثمانيًا مع ثلاثة ألوية من المدينة المنورة، وذلك بهدف اتخاذ ميناء ينبع على البحر الأحمر قاعدة له بعد استعادتها. وقد هزمت قواته القطعات العربية في منازلات عديدة وكاد يحقق هدفه في ينبع على البحر الأحمر، ولكن حريقًا قد هزم محاولاته مع خسائر فادحة في 11 ـ 12 كانون الأول/ديسمبر 1916، فتحولت قواته التركية جنوبًا باتجاه رابغ، ولكن بسبب هجمات المسلحين العرب على موقعه وقطعهم الإمدادات عنه، اضطر إلى العودة إلى الوراء نحو المدينة المنورة في 18 كانون الثاني/يناير 1917[51].

3 ـ هجمات على سكة حديد الحجاز وقطع الإمدادات

استمرت الهجمات على خط سكة حديد الحجاز. وفي 3 كانون الثاني/يناير 1917، بدأ الأمير فيصل خطته بالاتجاه شمالاً على امتداد ساحل البحر الأحمر مع 5100 من راكبي الجمال، و5300 من الرجال المشاة سيرًا على الأقدام، وبحوزتهم أربعة مدافع، وعشرة مدافع رشاشة، و380 من الإبل المحملة بالأمتعة والميرة. في حين أن 800 جندي عثماني من الحامية العثمانية كانوا على استعداد لهجوم من الجنوب، ولكن هجومًا عربيًا مضادًا خطط له فيصل بمعية ضباطه ومدير أركان حربه باعتماد 400 مقاتل من العرب هاجموا

---

(49) Thomas E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom* (London: Wordsworth Editions, 1997), pp. 167 - 173.

(50) سليمان الموسى، **لورانس والعرب: وجهة نظر عربية** (عمّان: منشورات وزارة الثقافة، 1992)، ص 124 وما بعدها.

(51) سليمان الموسى، **الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908 ـ 1924** (بيروت: دار النهار، 1977)، ص 208 ـ 260.

الأتراك يوم 23 كانون الثاني/يناير 1917[52]، فاستسلم كل العثمانيين في غضون 36 ساعة. وتخلى العثمانيون عن زحفهم نحو مكة المكرمة لصالح موقف دفاعي في المدينة المنورة مع مفارز صغيرة متناثرة على طول الخط الحديدي الحجازي[53].

4 ـ الهيكلية العسكرية

في تلك الظروف العصيبة، نجح فيصل في إنشاء قوة عربية جديدة ارتفع عدد المقاتلين فيها إلى نحو سبعين ألف رجل مسلح. ومن المحتمل أن هناك مبالغة في هذا العدد مع ثمانية وعشرين ألف بندقية وقام بتقسيمها بناء على خطط القادة والضباط الكبار العرب إلى ثلاث مجموعات رئيسية. قوة قادها أخوه الأمير علي ليهدد بها المدينة المنورة، وأخرى قادها الأمير عبد الله لمشاغلة الأتراك ومضايقة الاتصالات العثمانية والاستيلاء على إمداداتها، والقوة الأساسية بقيت تحت قيادة الأمير فيصل نفسه في الامتداد على الساحل، وكان قد أمّن مجموعات تشتهر بالإغارة وهي تقود فصائل من الإبل المحملة بالمواد الغذائية تمتد على مسافة جغرافية هائلة تمثل دائرة نصف قطرها الفعّال 1000 ميل (1600 كم) وهي تنقل المواد الغذائية الخاصة بهم وتسحب المياه من الآبار ضمن النظام التقليدي، وتبتعد كل واحدة عن الأخرى نحو 100 ميل (160 كم)[54].

5 ـ تشكيل الجيش العربي

وفي أواخر عام 1916، بدأ الأمير فيصل وبناء على المقترحات التي نصحه بها كبار ضباطه العرب، بتشكيل الجيش العربي المعروف أيضًا باسم القوات الشريفية، وكان الضباط والقادة العراقيون يمثلون عماد ذلك الجيش، وكلهم من أجدر الضباط المحترفين الذين كانت لهم خبراتهم وتجاربهم الحربية في الجيش العثماني الذين تخلوا عنه بعدما وجدوا انحراف الساسة الاتحاديين عن المبادئ الدستورية، كما شهدوا الممارسات القمعية لهم ضد العرب، ووجدوا ضالتهم في الثورة العربية الكبرى التي عدّوها منقذًا للعرب جميعًا والعمل من أجل الاستقلال، فتخلوا عن العسكرية العثمانية؛ فمنهم من كان مأسورًا، ومنهم من أتى هاربًا، ومنهم من التحق بالثورة بعدما صدرت ضده جملة من الأحكام القاسية، وكان على رأسهم: نوري السعيد (1888 ـ 1958)، وجعفر العسكري (1886 ـ 1936)، وعزيز

(52) Parnell, «Lawrence of Arabia's Debt to Seapower,» p. 79.

(53) Ibid., p. 80.

(54) Ibid., p. 81.

علي المصري (1880 ـ 1965)، وجميل المدفعي (1890 ـ 1958)، وعلي جودت الأيوبي (1886 ـ 1969) وغيرهم (بقي عزيز علي المصري قرابة ستة أشهر، وقد أعفاه الشريف حسين من مسؤولياته وأمره بالمغادرة بعد اكتشاف علاقة سرية بينه وبين فخري باشا القائد التركي في المدينة المنورة).

خامسًا: 1917: مرحلة انتقالية

1 ـ عمليات ناجحة

يبدو للمؤرخ أن عام 1917 قد بدأ بصورة جيدة للثوار الهاشميين المنتصرين، وخصوصًا عندما نصبت قوات عربية كانت بقيادة الأمير عبد الله كمينًا لقافلة عثمانية يقودها أشرف بك اتخذت من الصحراء سبيلاً لها، فكان أن ألقى الثوار العرب القبض عليها، وسيطروا على حمولتها وهي تضم عملات ذهبية قدرت بـ 20 ألف جنيه استرليني كانت مرسلة بهدف رشوة البدو وشراء ولائهم للسلطان، وابتداءً من بدايات عام 1917، بدأ المقاتلون العرب بمهاجمة سكة حديد الحجاز. بمشاركة قوات حرب العصابات بتنظيم من ضباط الجيش النظامي العربي[55].

وفي شباط/فبراير 1917، نجح غارلاند لأول مرة في تدمير قاطرة تتحرك. ونفذ محمد ولد علي راهو باسم البعثة العسكرية الفرنسية هجومه، وهدم جزءًا من سكة حديد الحجاز في شباط/فبراير 1917. وفي آذار/مارس 1917 أدى لورانس أول هجوم له على خط سكة الحجاز. وتوالت الهجمات في ليلة 1917/7/6، وثمة غارة في أغسطس/آب عام 1917، إذ قاد الكابتن راهو قوة من البدو لتدمير 5 كم من سكك حديد الحجاز وأربعة جسور[56].

في آذار/مارس 1917، اكتسحت قوة عثمانية بمشاركة رجال ابن رشيد من حائل الحجاز، ولكنها كانت قليلة الضرر بالقوات العربية. ومع ذلك، فإن الفشل العثماني الذريع في الاستحواذ على ينبع في كانون الأول/ديسمبر 1916 قد أدى إلى إدراك فيصل وطاقمه لما يدور في الذهنية القيادية العسكرية العثمانية التي كانت مضطرة إلى أن تدافع دومًا مع

---

(55) Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, pp. 39 - 43.

(56) Ibid.

فشل محاولاتها الهجومية. ويرى لورانس في وقت لاحق أن فشل الهجوم العثماني ضد ينبع يعدّ نقطة تحول كفلت الهزيمة في نهاية المطاف للعثمانيين في الحجاز[57].

2 ـ الالتحاق بركب الثورة

في عام 1917، كان لا بد من إجراء ترتيبات بين القوات العربية مع القوات غير النظامية تحت راية الشيخ عودة أبو تايه (1850 ـ 1924)[58]، وخصوصًا ضد ميناء العقبة، استعدادًا للمعركة القادمة من أجل السيطرة العربية عليه. وكانت العقبة هي الميناء العثماني الوحيد المتبقي على البحر الأحمر، وكانت هناك قوة مصرية استطلاعية مهمتها الدفاع عن مصر في حال تهديدها من الجهة اليمنى، وهي تستعد للمضي قدمًا في سنجق معان من ولاية سورية. وكان فيصل يرى أن الهيمنة العربية على العقبة ستساعد على نقل الإمدادات والمؤن والمعدات إلى الثورة العربية. لقد تمّ تجنيد فصائل أخرى من البدو المتنقلة على الجمال من الحويطات، وهي قبيلة سورية تشتهر بالقتال على ظهور الجمال[59].

يروي القائد محمد علي العجلوني[60] ذكرياته عن الثورة العربية الكبرى، وسأركز خصوصًا على قصة التحاقه بركب الثورة. كتب العجلوني قائلًا: في تلك الليلة نزعت ملابسي العسكرية العثمانية، وأبدلتها بأردية رثة مهلهلة كي لا يطمع فيّ قطاع الطرق، واصطحبت شابًا من بني حسن اسمه مطر، وبدأت رحلتي متنكرًا بهذا الزي قاصدًا أقرب ميادين الثورة في الجنوب (جنوب الأردن الآن)، نتخلل منازل البدو ونجتازها بحذر، فمررنا بعمان وخرجنا منها برفقة رجل من عشيرة الخرشان... وواصلنا السير معًا مشاةً إلى شرق قصر المشتى[61]، حتى استقبلتنا الصحراء، وشعرت بالأمان، وعلمنا منه ومن بعض جيرانه

---

(57) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom.*

(58) اسمه الكامل: أبو عناد عودة بن حرب أبو تايه الحويطي، شيخ من الفريجات من بني علوان بن حويط من قبيلة الحويطات العربية التي تسكن في المنطقة الممتدة من شمال الجزيرة العربية إلى غربها في الحجاز جنوبًا ومن صحراء النفود الكبرى شرقًا إلى الأردن والنقب وسيناء والسويس غربًا. وقف إلى جانب الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك العثمانيين. انظر: سليمان الموسى، **صور من البطولة** (عمّان: المطبعة الهاشمية، 1968)، ص 37 ـ 58.

(59) المصدر نفسه، ص 180 ـ 184.

(60) القائد محمد علي العجلوني (1893 ـ 1971) قائد عسكري أردني شارك في الثورات والمعارك العربية ابتداءً من الثورة العربية الكبرى ومعركة ميسلون ووصل إلى أرفع المراتب العسكرية والسياسية في المملكة الأردنية الهاشمية. انظر: محمد علي العجلوني، **ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى** (عمّان: مكتبة الحرية، 1956).

(61) قصر المَشْتى هو أحد القصور العربية التي بناها الأمويون في بلاد الشام. يقع القصر على مسافة 32 كم جنوب شرق مدينة عمّان. بناه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد عام 744م. ويحيط بالقصر سور مربع طوله 144 مترًا فيه 25 برجًا دائريًا، عدا برجي المدخل فهما بشكل نصف مثمن ويقع القصر في الأردن في لواء الجيزة. انظر: Andrew Petersen *Dictionary of Islamic Architecture* (London: Routledge, 2002), p. 140.

أن الشيخ مفلح القمعان الزبن أحد شيوخ بني صخر ذهب إلى الجنوب، وقابل الأمير فيصل بن الحسين، وعاد محملاً بالهدايا، وأن بعض الشيوخ يقصدونه في مضاربه للتشاور معه...»[62].

3 ـ سقوط العقبة

وفي 6 تموز/يوليو، بعد هجوم بري مفاجئ، سقطت العقبة بأيدي القوات العربية مع عدد قليل من الضحايا، فانفتح الطريق البحري مباشرة لنقل المواد الغذائية والإمدادات اللازمة لعدد يقدر بـ 2500 من العرب و700 من الأسرى العثمانيين في العقبة؛ وقد وصلت قطع من البحرية البريطانية والفرنسية ساعدت العرب على تأمين سيطرتهم على العقبة. وحتى تقدمت الجيوش العربية حدثت مواجهات عند بلدة الكرك ضد القوات العربية وأجبرتها على التراجع إلى الوراء. وأدت انتصارات أللنبي مباشرة إلى الاستيلاء على القدس قبل عيد الميلاد 1917[63].

سادسًا: زيادة المساعدة الحلفاء ونهاية القتال 1918

1 ـ اتساع حجم القيادة

قبل وقت من سقوط العقبة بأيدي الثوار العرب، انضم العديد من الضباط الآخرين إلى حملة فيصل. فتعزز موقف فيصل كثيراً، وكان فيصل في قلق دائم على الإمدادات من الأسلحة التي كانت تصل من قبل الحلفاء وأغلبها من البنادق والمتفجرات وقذائف الهاون والمدافع الرشاشة، وقد زودت المدفعية بإذن من فيصل بعدد من المستشارين البريطانيين والفرنسيين (والجزائريين بمعيتهم) فضلاً عن بعض المصريين والهنود مع تخصيص سيارات مصفحة للاستخدام. مع دعم سلاح الطيران الملكي في كثير من الأحيان بدعم عمليات الثورة العربية، وكان الفرنسيون قد بنوا علاقة جيدة مع الشريف حسين ومع ولديه الأميرين علي وعبد الله وقدموا مساعدات إلى الجيش الجنوبي العربي بقيادة الأمير علي الذي فرض الحصار على المدينة، وكذلك إلى جبهة الجيش الشرقية بقيادة الأمير عبد الله التي كانت مكلفة بمسؤولية حماية الجناح الشرقي والحد من عمليات ابن رشيد. كان

---

(62) أعيد نشر مذكرات العجلوني في عام 2002، وأعيد نشرها بحلقات في جريدة الدستور الأردنية بتاريخ 2009/7/2.

(63) Parnell, «Lawrence of Arabia's Debt to Seapower,» pp. 76 and 78.

الهدف في الجنوب ممثلاً بالمدينة المنورة، وقد استسلم القائد العثماني، فخري باشا، بعدما تلقى الأوامر بذلك من قبل الحكومة التركية، وذلك يوم 9 كانون الثاني/يناير 1919. وكان إجمالي عدد القوات العثمانية في المدينة المنورة قبل وقت الاستسلام 456 ضابطًا و9364 جنديًا[64].

2 ـ الجرأة في اتخاذ القرارات

أطلق العرب حملة ناجحة جدًا ضد سكة حديد الحجاز، واستولوا على الإمدادات العسكرية، وتم تدمير القطارات، وعزل الجيش العثماني في المدينة عن الإمدادات، بالرغم من أن الهجمات كانت مختلطة في نجاحاتها، فإن الثوار العرب كانوا قد حققوا أهدافًا أساسية في الشمال عام 1918. واتصف فيصل بالجرأة والشجاعة في اتخاذ القرارات، كما حققوا في كانون الثاني/يناير 1918، انتصارهم في واحدة من أكبر معارك الثورة، إذ هزموا قوة عثمانية كبيرة في قرية الطفيلة[65]، وألحقوا ضررًا كبيرًا بالأتراك، إذ بلغ عدد الإصابات أكثر من 1000 إصابة في صفوف العثمانيين إزاء فقدان مجرد أربعين رجلاً عربيًا[66].

3 ـ تركيبة الجيش العربي

في آذار/مارس 1918، تألف الجيش العربي الشمالي بتنظيم من القائد المارشال جعفر باشا العسكري وتحت إمرة فيصل[67]، في نيسان/أبريل 1918، عمل كل من جعفر العسكري ونوري السعيد في رسم الخطط لقيادة الجيش النظامي العربي في هجوم مباشر على محطة السكك الحديد العثمانية، وقد تم الدفاع جيدًا في معان[68]، وتحققت بعض النجاحات

---

(64) Ibid.

(65) مدينة الطفيلة، تبعد عن العاصمة عمّان نحو 180 كم. وتعد الطفيلة من أقدم المناطق المأهولة بالسكان، حيث تعاقبت عليها الأمم المختلفة: ابتداء بالأدوميين ثم خضعت المنطقة لحكم الأنباط إلى أن جاء الرومان إلى المنطقة، وأما اسمها السابق كان دي تفلوس وتعني أم الكروم ثم خضعت للحكم الإسلامي بعد معركة مؤتة ومعركة اليرموك. انظر عنها: Government of Jordan, Department of Statistics (Amman, 1964).

وعن دورها في الثورة العربية، انظر: Neil Faulkner, *Lawrence of Arabia's War: The Arabs, the British and the Remaking of the Middle East in WWI* (New Haven, CT: Yale University Press, 2016), pp. 372 - 377.

(66) Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, pp. 64 - 68.

(67) Ja'far Al - Askari, *A Soldier's Story: The Memoirs of Jafar Pasha Al - Askari (1885 - 1936)*, translated by Mustafa Tariq Al - Askaripage; edited by William Facey and Najdat Fathi Safwat (London: Arabian Publishing, 2003), pp. 5 - 6, 103 - 112 and 217.

(68) معان مدينة أردنية عريقة تقع في الجهة الجنوبية من بلاد الشام على الأطراف الغربية للهضبة الصحراوية =

الأولية مع خسائر فادحة لكلا الجانبين. ومع ذلك، نجحت قطعات الجيش الشريفية في تحييد الموقف العثماني في معان، الذي صمد حتى أواخر أيلول/سبتمبر 1918[69].

4 ـ استمرار العمليات

في ربيع عام 1918، جرت عملية القنفذ، وهي محاولة منسقة لقطع وتدمير سكة حديد الحجاز، منطلقة في أيار/مايو 1918، وأدت إلى تدمير 25 جسرًا من سكة حديد الحجاز. وفي 11 أيار/مايو، استولت القوات العربية النظامية على حامية وأسرت 140 سجينًا. وكانت تتقدم نحو الشمال في عمليات تلحق خسائر بشرية لدى الأتراك، وإجبارهم على الانسحاب في نهاية المطاف إلى بئر السبع[70] حيث وصلت يوم 6 أيلول/سبتمبر في إثر مسيرة من 700 ميل (1100 كم) في 44 يومًا. وأخذ قادة القوات التركية يقلقون حيال أمن جنوبهم في بلاد الشام وفي شأن ولاء القبائل العربية وتعاطفها مع تقدم الجيش العربي في شرق نهر الأردن وعلى رأسها الرولة وبني صخر، وقبائل الحويطات.

في عام 1918، كان الفرسان العرب قد اكتسبوا خبرة وقوة ضد مواقع الجيش العثماني. وهاجموا الحاميات الصغيرة، ودمروا خطوط سكك الحديد. وقد حققوا انتصارًا كبيرًا في 27 أيلول/سبتمبر عندما كان لواء كامل من العثمانيين، وبمعيتهم قوات نمسوية وألمانية، متراجعًا من مزيريب، وقد أبيد تقريبًا في معركة ضارية مع قوات الثورة العربية قريبًا من قرية طفس التي نهبها الأتراك أثناء تراجعهم، بعدما ارتكبوا مجزرة فيها[71]، وصفها لورانس في رسالة إلى أخيه بأنها جاءت انتقامًا لمذبحة تعرض لها اللواء العثماني، إذ قتل الأتراك كل سكان طفس، وكانت المجزرة ردًا جنونيا على الفعل الجنوني، وقد أُسر ما لا يقل عن 250

= الممتدة من شبه الجزيرة العربية حتى بادية الشام. وموقعها استراتيجي وسكنتها أقوام مختلفة، وتغنى بها الشعراء، وتصل مساحتها إلى عشرين كم^2، ومناخها صحراوي. عن دورها، انظر: Joseph A. Massad, *Colonial Effects: The Making of National Identity in Jordan* (New York: Columbia University Press, 2001), pp. 49 - 78.

(69) السعيد، **مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية، 1916 - 1918**، ص 12 وما بعدها.

(70) بئر السبع: من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع اليوم في لواء الجنوب الإسرائيلي على بعد 71 كم جنوب غرب القدس. وهي أكبر مدن منطقة النقب الصحراوية، إذ تسمى أحيانًا «عاصمة النقب». انظر: Alef Abu - Rabia, «Beersheva,» in: Michael Dumper and Bruce E. Stanley, eds., *Cities of the Middle East and North Africa: A Historical Encyclopedia* (Santa Barbara: Praeger Security International/ABC - CLIO, 2007).

(71) طفس مدينة سورية تتبع إداريًا ناحية مزيريب في جنوب محافظة درعا، تتربّع على ضفاف وادي الهرير الشرقية في سهل حوران، إلى الشمال والشمال الغربي من مدينة درعا على مسافة بنحو 13 كم، وجنوب دمشق العاصمة بنحو 100 كم. تقع طفس بين مدينة داعل من الشرق وناحية المزيريب من الغرب.

مقاتلاً تركيًا وألمانيًا ونمساويًا جنبًا إلى جنب مع عدد لا يحصى من الأتراك، وقد اصطفوا جميعًا، فأُطلقت النار عليهم من دون محاكمة. وقد وصف لورانس في وقت لاحق في كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** رعب طفس بأنه «ولّد الجنون» ثم جرت معارك أخرى تحقق فيها نجاح مذهل. وبحلول أواخر أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر 1918، ساد الإحباط الجيش العثماني على نحو متزايد، فقاد إلى التراجع والاستسلام، حتى تمت السيطرة على درعا في 27 أيلول/سبتمبر 1918. وتشتت الجيش العثماني في أقل من 10 أيام من المعارك المستمرة مع الإشادة بجهود الأمير فيصل بن الحسين[72].

سابعًا: الانتصار: المعركة النهائية (1918 ـ 1919)

عانت دمشق خلال الحرب العالمية الأولى مآسي المجاعة التي اجتاحت البلاد وسببت موجات من هجرة العباد، فضلاً عن كونها مقر الجيش العثماني الخامس، ومقرًا للحاكم العثماني العسكري جمال باشا (السفّاح)، الذي اشتهر باضطهاده العرب مؤسسًا ديوانًا للأحكام العرفية فيها، وكان من أشرس قراراته يتمثّل بإعدام سبعة من وجهاء المدينة في 6 أيار/مايو 1916 وهو اليوم الذي تحوّل إلى عيد الشهداء. وفي 30 أيلول/سبتمبر 1918 انسحبت القوات العثمانية وغادر الوالي العثماني دمشق مؤذنًا ذلك بنهاية عصر العثمانيين في سورية. وفي اليوم التالي وصلتها قوات من جيش الثورة العربية الكبرى، وبعدها بأيام وصل الأمير فيصل بن الحسين فاتحًا محررًا في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1918، ومؤسسًا لمملكته وحكومته الفيصلية المستقلة في دمشق يوم 8 آذار/مارس 1920[73] التي بنيت على ركائز ومبادئ تمثل الأسس التاريخية لبناء دولة عربية، وهي المبادئ والأسس التي اعتمدها فيصل، وهي: العروبة والاتحادية والوطنية والمدنية والديمقراطية والبرلمانية[74].

كانت طلائع قوات الثورة العربية قد وصلت إلى مشارف دمشق العاصمة، وخصوصًا الفرسان بقيادة الشريف ناصر والفرسان من قبيلة الرولة بزعامة الشيخ نوري الشعلان، وكان يوم 30 أيلول/سبتمبر 1918 يومًا تاريخيًا ببقاء أكثر القوات العربية خارج المدينة وانتظار

---

(72) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom*, pp. 169 - 173.

(73) الأيوبي، **ذكريات 1900 ـ 1958**، ص 66، وراجع أيضًا: أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق: وزارة الثقافة، 1993)، ص 63 ـ 66.

(74) انظر: محمد الأرناؤوط، «الدولة العربية 1918 ـ 1920: قضايا المرحلة المستجدة،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، تحرير هند أبو الشعر (عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999)، ص 39 ـ 55.

وصول الأمير فيصل بن الحسين لفتح دمشق بعد تحريرها. وقد تم إرسال وحدة صغيرة إلى داخل أسوار المدينة، حيث وجدوا علم الثورة العربية يرفرف على مبانيها، والناس قد خرجت عن بكرة أبيها لاستقبال هذا القادم الجديد، وكانت الأهازيج تذكر أعواد المشانق التي شنق عليها الأحرار العرب، وبقيت المشاعل موقدة طوال الليل في دمشق حتى اليوم التالي 1 تشرين الأول/أكتوبر 1918، حيث أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العظمى أوزارها[75].

كانت قوة مشاة المصرية قد ضبطت فلسطين، شرق الأردن، لبنان[76]، في حين أن أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية وجنوب سورية قد قطعت عن المدينة المنورة، وقطعت أيضًا من باقي الإمبراطورية العثمانية، ولكن لن يتم الاستسلام حتى كانون الثاني/يناير 1919. وغدا فيصل ملكًا على سورية (التي كانت تعني كامل بلاد الشام) خلال حفل إعلان الاستقلال وإنشاء المملكة السورية العربية. غير أن عهد الاستقلال لم يستمرّ طويلاً، إذ دخلت القوات الفرنسية دمشق بعد معركة ميسلون في 24 تموز/يوليو 1920، وفي أيلول/سبتمبر أعلنت دولة دمشق المصغّرة ضمن خطة الانتداب الفرنسي لتقسيم سورية إلى دويلات. في عام 1922 نقلت عاصمة البلاد إلى حمص ضمن الاتحاد السوري، على أن تبقى دمشق عاصمة إقليم دمشق فقط، وهو ما ألغي عام 1925 بعودة دمشق عاصمة الدولة السورية[77].

ثامنًا: وعود في العلن ونكث للعهود في السر

وافقت المملكة المتحدة على ما جرى بين الشريف الحسين والسِّير مكماهون من المراسلات، وأكدت أنها ستدعم استقلال العرب إذا ما ثاروا ضد العثمانيين. وكان للجانبين تفسيرات مختلفة لهذا الاتفاق. لكن، في هذا الحدث، تراجعت المملكة المتحدة وفرنسا عن الاتفاق الأصلي وتم تقسيم المنطقة بحيث شعر العرب بأن اتفاقية سايكس ـ بيكو 1916 كانت غير مواتية. وحصل الخلط كذلك في مسألة وعد بلفور عام 1917، الذي وعد بتقديم الدعم لليهود وتحقيق حلم الصهاينة بتأسيس «وطن قومي»

---

(75) يوسف الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966)، ص 90.

(76) Cyril Falls, *Official History of the Great War Based on Official Documents by Direction of the Historical Section of the Committee of Imperial Defence; Military Operations Egypt and Palestine from June 1917 to the End of the War* (London: H. M. Stationary, 1930), vol. 2.

(77) المصدر نفسه، ص 91 ـ 94.

في فلسطين. أصبحت منطقة الحجاز غرب المملكة العربية دولة مستقلة تحت سيطرة الشريف حسين الذي كان عنيدًا في عدم التنازل عن مطالبه الأولى فنفاه الإنكليز إلى قبرص، وقضي على مملكته التي يقف على عرشها نجله الأكبر الملك علي، ثم أزيل ملك الهاشميين من الحجاز عام 1925، وكان الشريف حسين يختلف اختلافًا جذريًا عن الزعيم السعودي عبد العزيز[78]. كما أزيل كل من وقف ضد بريطانيا وسياساتها إبان الحرب العظمى الأولى، إذ أزيل حكم آل رشيد من حائل، وأزيل حكم آل السعدون[79] من المنتفج، وأزيل حكم الأدارسة من عسير، وأصبح عبد العزيز آل سعود هو زعيم الجزيرة العربية بلا منازع باستحواذه على حائل والحجاز ومن قبلها الإحساء، ثم سيطر على عسير وصولاً إلى حدود اليمن غربًا ووصولاً إلى حدود عمان والخليج العربي شرقًا، فقاد ذلك كله إلى تأسيس المملكة العربية السعودية.

تاسعًا: حصيلة النتائج والاستنتاجات التاريخية

1 ـ ماذا أنتجت الثورة العربية الكبرى تاريخيًا؟

أسس فيصل الأول مملكته في سورية التي غزاها الفرنسيون عام 1920، علمًا أن فيصل هو الزعيم العربي الوحيد الذي أدخل إلى قاعة مؤتمر فرساي عام 1919، وألقى كلمته باسم العرب جميعًا، وبعد احتلال سورية ونفي فيصل في أوروبا، نودي عليه ملكًا على العراق ليؤسس مملكته الهاشمية العراقية، في حين نودي على الأمير عبد الله ليؤسس إمارة شرق الأردن عام 1921 ومن بعدها ستتحول الإمارة إلى اسم المملكة الأردنية الهاشمية. حكم فيصل الأول العراق بين أعوام 1921 و1933 وخلفه نجله الوحيد الملك غازي وحكم العراق بين1933 و1939 إذ اغتيل في حادث سيارة، فخلفه نجله الوحيد الملك فيصل الثاني، وكان وصيًا عليه خاله الأمير عبد الإله بن علي حتى عام 1953، إذ تولى سلطاته الدستورية في

(78) Gary Troeller, «Ibn Sa'ud and Sharif Husain: A Comparison in Importance in the Early Years of the First World War,» *The Historical Journal*, vol. 14, no. 3 (September 1971), pp. 627 - 633.

(79) آل سعدون هي الأسرة التي حكمت إمارة المنتفق (أو المنتفج باللهجة العراقية) والواقعة في جنوب العراق (لواء الناصرية) وحتى عام 1918، وهي اتحاد من مشيخات قبلية وعشائرية مختلفة الأصول، وهو اتحاد قبلي ضخم يمتد في شمال وشمال شرق الجزيرة العربية وجنوب العراق. انظر: حميد السعدون، **إمارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمية 1546 ـ 1918** (عمّان: دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، 1999).

ذلك عام عند بلوغه الثامنة عشرة، ولكن أطاح بعض الضباط العراقيين الحكم الملكي الهاشمي في فجر يوم 14 تموز/يوليو 1958[80].

سجل بعض المؤرخين والساسة العرب وغيرهم ملاحظاتهم ضد بعض زعماء الثورة العربية كونها اعتمدت على المساعدات اللوجستية والخبرات من جانب البريطانيين والفرنسيين، ولم يكن هناك أي خيار آخر في غمار تلك الحرب العظمى. كما ينتقد بعض المؤرخين الأتراك مبادئ الثورة العربية ويعدُّونها خيانة للدولة العثمانية، من دون أن يبحثوا في الأسباب الحقيقية لاندلاعها، ولم يلتفتوا إلى السياسات الفاشية التي اتبعها الأتراك الاتحاديون ضد العرب بعد تسلمهم الحكم، وخصوصًا بعد الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909. وتعَدّ الثورة حدثًا استراتيجيًا كبيرًا، ولا بد أن تحدث في خضمه بعض الأخطاء وبعض الخلافات. وأعتقد ان زعامة فيصل للقوات الثورية كانت ضرورة تاريخية، إذ حافظ على التوازن بين الأجنحة المضطربة سواء بين القبائل المنسجمة وبين القبائل المتمردة، أو بين ما يريده الأب القائد للثورة الشريف حسين وبين الواقع الذي كان على الأرض، وبين شيوخ القبائل وبين الضباط الشريفيين، وبين الإنكليز والفرنسيين، أو بين المثقفين وبين المعممين من رجال الدين... إلخ[81].

2 ـ مشروع الثورة العربية الكبرى: ولادة الأيديولوجيا القومية العربية ومفهوم بناء الدولة

إن فكرة «القومية العربية» سابقة تاريخيًا عن الثورة، إذ كانت «الفكرة» قد بدأت منذ نهايات القرن التاسع عشر، ثم تبلورت على الأرض سياسيًا من خلال الجمعيات والمنتديات العربية التي تأسست في بدايات القرن العشرين، وخصوصًا في عام 1909 وتكرّست الفكرة في عام 1913 عند انعقاد المؤتمر العربي الأول في سانت جرمان بباريس[82]. لقد عدّ مشروع الثورة خطوة نهضوية تأسيسية في بدايات القرن العشرين، وكان

---

(80) Charles Tripp, *A History of Iraq*, 3rd ed. (New York: Cambridge University Press, 2007), pp. 34 - 76, and Hala Fattah with Frank Caso, *A Brief History of Iraq* (New York: Facts on File, 2009), pp. 154 - 186.

(81) انظر: سيار الجميل، «الملك فيصل الأول وتأسيس جامعة آل البيت في العراق،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**.

(82) انظر التفاصيل في: سيار الجميل، **التحوّلات العربية: إشكاليات الوعي، وتحليل التناقضات، وخطاب المستقبل** (بيروت؛ عمّان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص 53. انظر أيضًا: سيار الجميل، **الرؤية المختلفة: قراءة نقدية في منهج محمد عابد الجابري (أجوبة الخطاب عن أسئلة التاريخ)** (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999)، ص 147 ـ 160.

الهدف الأسمى يتمثّل بتأسيس المملكة العربية في المشرق العربي (شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد وادي الرافدين)، وقد وُصف «المشروع» بأنه الأكثر بروزاً والأعمق حقيقة لما كان عليه واقع العرب مقارنة بشعوب أخرى. ووقف ضده كل من الإنكليز والفرنسيين مع بعض العرب أنفسهم كونه يقضي على مصالحهم الفئوية والعقائدية والأسرية وعلى تناقضاتهم المذهبية والطائفية والانقسامية[83]! وكان من الأفضل للعرب وهم يطالبون بتحقيق هدفهم النهضوي في الوحدة والاستقلال، أن يرافق ذلك تحضير برنامج متكامل لبناء دولة مدنية حديثة[84]!

إن فيصل الأول الذي اجتمع من حوله أفضل الرجال العرب قد نجح في مهمته الاستراتيجية في البداية، ولكن التحديات كانت أقوى منه كثيراً. وبالرغم من ذلك، فإنني أعتقد بأنه الزعيم العربي الذي فهم المعادلة الأساسية والصعبة التي لها معايير معقدة جدًا ليس في البطولة وبلوغه مرتبة الريادة في أيام الحرب والثورة، ولكن في تطوير آلية الحكم وتأسيساته القيمية بعدما انبثقت على يديه أول دولة عربية مستحدثة صنعها بنفسه في تاريخ العرب المعاصر إبان القرن العشرين. وكانت دولة لها استقلاليتها وسيادتها ومؤسساتها وهياكلها إزاء بنية اجتماعية منشطرة ومفككة تحفّ بها العقبات والأهواء والاتجاهات والانقسامات الجغرافية والعرقية والأقلياتية والدينية والمذهبية والطائفية والقيمية الاجتماعية والعشائرية والقبلية في واقع بلدان المشرق العربي برمته. ذلك الواقع الذي كان عند مطالع القرن العشرين ولم يزل حتى اليوم عند مطالع القرن الحادي والعشرين، يمتلك عدة مرجعيات مختلطة ومتعددة ومتنافرة في بناها السوسيولوجية (ومن بعد السياسية) في الضد من المبادئ والقيم الوطنية، التي استمرت مذكية روح الاختلاف والتباينات الفكرية والسياسية على امتداد القرن العشرين. وكان ذلك كله سببًا أساسيًا وعميقًا في إخفاق الكثير من المشروعات الوطنية والقومية للدولة العربية[85].

---

(83) Megan Donaldson, «Textual Settlements: The Sykes - Picot Agreement and Secret Treaty - Making,» *American Journal of International Law*, vol. 110 (2016), pp. 127 - 131.

(84) سيار الجميل، «مفهوم الدولة وركائزها: تجربة الحكومة العربية في دمشق: مشروع الملك فيصل في بناء دولة عربية اتحادية (الولايات العربية المتحدة)،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، ص 20.

(85) المصدر نفسه، ص 21 ـ 22.

ينبغي مشاركة المؤرخ محمد عدنان البخيت في قوله بأن «الشريف حسين بن علي وأبنائه الذين تصدّوا لمشروع مهم جدًا، هو مشروع النهضة العربية، ونحن نسيء لهذه النهضة عندما نقزّمها تاريخيًا بنتائج عسكرية باسم جيوش الثورة في الشمال أو في الوسط وما إلى ذلك. فمشروع النهضة العربية كان قد انطلق من الثوابت التالية: مركزية الدين، والقاعدة العربية، وإدارة التباين والتعدد، والمواطنة. والمهم أن الأمة قد أجمعت في برها على الشريف الأمير فيصل بن الحسين»[86].

كان دور فيصل القيادي على عكس ما أشاعه الإنكليز لغطًا وتحريفًا وتدليسًا عن دور لورانس وتضخيم دوره في زمن الحرب، سواء من جانبه في **أعمدة الحكمة السبعة**[87]، أو من جانب غيره من الإنكليز، علمًا بأن دور لورانس لا يتعدى دور المترجم والمساعد في الاتصال[88]. لقد كان فيصل هو الوحيد الذي يرسم بمعية نخبة من ضباط أركانه الشريفيين العراقيين استراتيجية الحرب وتقدم الثورة، وخصوصًا في التقاط العقبة، المدينة الساحلية الرئيسية. صحيح أن الباحث قد لاحظ أن تقارير لورانس لرؤسائه حول التقاط العقبة، كانت بداية لأسطورة شاعت لاحقًا عمن سمي «لورانس العرب»، ولكن سنقف على المزيد من الشواهد التاريخية الموثقة التي تمنح القارئ الاطمئنان إلى دور فيصل. إن كتابة التاريخ ينبغي أن تتمتع بقدرة ذكية على محاكمة ما يثيره المؤرخ نفسه من إشكاليات، ويثبت بأن أسطورة لورانس مجرد تجميل لداهية وهمية مبنية من السرد الذي لا صحة تاريخية له، ولا عن أي دور أساسي من البطولة.

---

(86) محمد عدنان البخيت في كلمته الافتتاحية لندوة «بناء الدولة العربية الحديثة» في: مجموعة من المؤلفين، المصدر نفسه، ص 12 ـ 13.

(87) T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph: The Complete 1922, Oxford Text* (Saint Paul, MN: Wilder Publications, 2011).

(88) لمزيد من التفاصيل، انظر: Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence* (London: William Heinemann, 1989), pp. 34 - 65.

الفصل الثالث

المؤسّس
تكوين الحكومة العربية في دمشق (1918 . 1920)

أولاً: أول تجربة عربية تاريخية فريدة في التاريخ الحديث

يعدّ تأسيس حكومة عربية نقطة تحوّل تاريخية من العثمنة إلى العروبة. كونها أوّل محاولة قوميّة عربية لإنشاء كيان سياسي عربي مستقل في دمشق، وتجربة فريدة في التاريخ العربي الحديث باجتماع سوريين من سورية الطبيعية والعراق والحجاز لتأسيس نواة دولة عربية مستقلة في دمشق. لكن السؤال: لماذا لم تدم الحكومة العربية في دمشق سوى سنتين؟ ومن أبرز الأجوبة: الافتقار إلى الخبرات الإدارية، وانعدام الوزن السياسي في مجتمع مفكّك أنهكته الحرب الأولى، فضلاً عن أجوبة أخرى. فقد تألفت الحكومة العربية في دمشق في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1918 بإذن من الجيش البريطاني[1]، ونالت استقلالاً فعليًا كـ «إمارة» بعد انسحاب القوات البريطانية من شرق أويتا في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1919[2]، ثم كمملكة في 8 آذار/مارس 1920، إذ غدت حكومة فيصل مملكة بين 8 آذار/مارس و25 تموز/يوليو 1920. خلال نشوئها لحقبة وجيزة، سيطرت حكومة فيصل على منطقة محدودة[3] وكانت تعتمد على بريطانيا التي وافقت فرنسا في معارضتهما فكرة سورية

(1) Zeine N. Zeine, *Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria* (Delmar, NY: Caravan Books, 1977), pp. 45 - 49 and 64 - 67.

(2) Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Iraq and Syria* (London: Routledge, 2013), pp. 30 - 39.

(3) Anthony John Kuhn, «Broken Promises: The French Expulsion of Emir Feisal and the Failed Struggle for Syrian Independence,» (Carnegie Mellon University; H&SS Senior Honors Thesis April 2011). George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Simon Publications 2001) (1st ed. London 1939), p. 104.

الكبرى ورفضت الاعتراف بالمملكة[4]، التي استسلمت المملكة للقوات الفرنسية في 25 تموز/يوليو 1920.

كانت الثورة العربية نتاجًا لمراسلات مكماهون ـ حسين، وكان كيان سورية لزعامة فيصل نتاجًا لتلك الثورة التي غدر البريطانيون بالوعود التي قطعوها للعرب بتأسيس المملكة العربية مقابل الثورة ضد الأتراك الاتحاديين العثمانيين[5]. وفوجئ العرب بتوقيع اتفاقيات منفصلة ولا وجود لهم فيها، وهي تخص مصيرهم التاريخي، إذ كشفت اتفاقية سايكس ـ بيكو بين البريطانيين والفرنسيين عن أسوأ عملية غادرة للعرب في نهاية المطاف، وهو ما أدى بعد البدء بتنفيذ الاتفاقية إلى تقويض وتدمير كيان فيصل السياسي والنهضوي. وعلى الرغم من أهمية الثورة العربية في البلدان العربية الحديثة عقبها، كان هناك في ذلك الوقت عدم ثقة كبير وحتى معارضة لفكرة مملكة عربية أو سلسلة من الممالك العربية.

يرجع ذلك جزئيًا في تفسير بعض الساسة والمؤرخين إلى التأثير الكبير للفرنسيين والبريطانيين في تشتيت مبادئ الثورة العربية وإنشاء ما سمَّوه الدول والكيانات العميلة ذات المعايير الحديثة التي تتفق ومصالح كل من بريطانيا وفرنسا[6]. وذهب الراديكاليون إلى أبعد من ذلك في تفسيراتهم تدخلات القوى الأجنبية في منطقتنا العربية من خلال المبالغ الكبيرة من المال والدعم اللوجستي العسكري لتأسيس ممالك يقودها الطامحون إلى السلطة والهيمنة والنفوذ، وليس من ناضل حقًا من القوميين الشرعيين العرب. وتزداد التهم ضد ممالك الهاشميين في كل من الحجاز والعراق والأردن. ويزداد الراديكاليون من المعارضين اليساريين إلى أبعد من ذلك ليزعموا أنها لعنة بالنسبة إلى الكثير من العرب الذين يرون أن عائلة شريف مكة الحسين بن علي من الهاشميين، تمكنت من انتزاع السيطرة من السلطان العثماني وصاروا ملوكًا بعدما عانى العرب طويلاً من العثمانيين لعدة قرون[7]. وأعتقد أن الراديكاليين العرب يستخفون بالمنجزات التي تحققت على الأرض على يد

---

(4) Itamar Rabinovich, «Symposium: The Greater - Syria Plan and the Palestine Problem,» *The Jerusalem Cathedra* (1982), p. 262.

انظر أيضًا: Article «Al - Sham» in: *The Encyclopedia of Islam* by C. E. Bosworth, vol. 9, p. 261 (1997).

(5) Zeine, *Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria*, pp. 209 - 215.

(6) Efraim Karsh and Inari Karsh, *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789 - 1923* (Cambridge, MA: Harvard University Press 1994), pp. 185 - 191.

(7) Ibid., p. 187.

فيصل بن الحسين، سواء في إدارته الحكومة العربية في الشام (1918 ـ 1920) أو في زعامته للعراق 1921 ـ 1933.

ثانيًا: الحكومة الدستورية العربية

قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، استولت القوة الاستطلاعية المصرية ـ البريطانية تحت قيادة إدموند أللنبي على دمشق في 30 أيلول/سبتمبر 1918. بعد ذلك بوقت قصير، أي في 3 تشرين الأول/أكتوبر، دخل فيصل المدينة[8]، وابتهجت الناس، ولكن فيصل اصطدم بأللنبي الذي دخل بقواته إلى دمشق أيضًا، وتمّ إبلاغ فيصل باتفاقية سايكس ـ بيكو التي صدمته وصدمت والده[9]. جاء فيصل ليؤسس مملكة عربية مستقلة باسم والده الشريف حسين بن علي، ولكن سرعان ما تم إخباره بتقسيم المنطقة العربية، وأن سورية باتت من حصة الفرنسيين، وقد سقطت سورية تحت قوة الحماية الفرنسية. من الواضح أن فيصل لم يجد طريقًا يسلكه إلا البقاء في ظل البريطانيين الذين أدرك خيانتهم للعهود والمواثيق، وقد علم لاحقًا أنها لاعبت العرب، كونها قدمت وعودها من خلال مراسلات لا من خلال اتفاقيات رسمية، كما حصل بين الإنكليز وبين عبد العزيز آل سعود في عقد اتفاقية 1915 بين الطرفين. وكان فيصل الذي وجد خيانة عند البريطانيين وطمأنة وتسويفًا من جانبهم بقولهم إن التسوية الفعلية ستنجح في وقت لاحق من انتهاء الحرب ربما كان يأمل أن يكون البريطانيون حتى ذلك الوقت قد غيروا دعمهم للمطالب الفرنسية في سورية.

في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1918، وبإذن من الجنرال أللنبي، أعلن فيصل عن إنشاء حكومة دستورية عربية في دمشق مستقلة تمامًا [10]. كما أعلن فيصل أنها ستكون حكومة عربية قائمة على العدل والمساواة لجميع العرب بغض النظر عن الدين[11]. وقد أثار هذا الأمر استياء رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو، إذ كان إنشاء دولة عربية شبه مستقلة دون اعتراف دولي وتحت رعاية البريطانيين أمرًا محبطًا للتحالف الدولي. وحتى تلك التطمينات التي قدمها الجنرال أللنبي والتي تنص على أن جميع الإجراءات المتخذة كانت مؤقتة لم تخفف التوترات بين البريطانيين والفرنسيين والعرب. وجاءت التطورات السياسية

---

(8) Zeine, Ibid., p. 30.

(9) John D. Grainger, *The Battle for Syria, 1918 - 1920* (Rochester, NY: Boydell Press, 2013), pp. 45 - 48.

(10) Zeine, Ibid., p. 34.

(11) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), pp. 154 - 156.

اللاحقة بالنسبة إلى كل أولئك النهضويين العرب، وخصوصًا أولئك الذين حاربوا في ميادين الثورة العربية إبان الحرب، قد كافأتهم بالإحباط لكي يجدوا أنفسهم وهم من البعد بمكان من تحقيق أهدافهم التي تخيلوها قريبة جدًا، لكنها تبدو الآن صعبة المنال كثيرًا.

ثالثًا: إعلان فيصل الأول ملكًا على سورية عام 1920

حضر فيصل مع حاشيته مؤتمر باريس للسلام عام 1919، وعمل فيصل من أجل القضية العربية ونيل العرب استقلالهم بخطاب ألقاه في المؤتمر، وقام بمهمة الترجمة العقيد لورانس. ولكن الحلفاء المنتصرين قرروا أنهم هم الذين يقررون مصير الممتلكات العثمانية وأن العرب وغيرهم في الشرق الأوسط سيطبق عليهم ما حدث للأمم المهزومة من القوى المركزية. كان وضع الأراضي العربية في الشرق الأوسط موضوع مفاوضات مكثفة بين الفرنسيين والبريطانيين. في أيار/مايو 1919، التقى رئيسا الحكومتين الفرنسية والبريطانية ليقررا فيما بينهما رسم خارطة لمطالباتهم لما بعد الحرب.

كانت التطورات الدولية تنذر بالخطر المحدق، فما كان من القوى السياسية وعلى رأسها جمعية العربية الفتاة إلا التحضير لعقد مؤتمر وطني. ودعت الجمعيات والجماعات السورية إلى الاستقلال التام وتأسيس مملكة عربية يتوّحد فيها العرب تحت حكم فيصل الذي أصبح ملكًا. شجعت لجنة كينغ كرين (Crane Commission ـ King)[12] الجهود المبذولة لتوحيد الانتخابات المتسرعة، ودعت إلى إشراك ممثلين من جميع أنحاء الأراضي العربية، بما في ذلك فلسطين ولبنان، على الرغم من أن المسؤولين الفرنسيين منعوا الكثير من ممثليهم من الوصول إلى دمشق[13]. وعُقدت الجلسة الرسمية الأولى للمؤتمر الوطني

(12) كانت لجنة كينغ ـ كرين، قد سميت رسميًا باسم لجنة الحلفاء المشتركة بين الولايات لعام 1919 في تركيا، وهي لجنة تحقيق بشأن التصرف في مناطق داخل الإمبراطورية العثمانية المنهزمة السابقة. فبدأت اللجنة عملها وتعد ثمرة مؤتمر باريس للسلام عام 1919. زارت اللجنة مناطق في فلسطين وسورية ولبنان والأناضول، وقامت بمسح الرأي العام المحلي، وقيمت وجهة نظرها حول أفضل مسار عمل للمنطقة. كان من المفترض أصلًا أن يقودها ممثلون فرنسيون وبريطانيون وإيطاليون وأمريكيون، وانتهى به الأمر إلى تحقيق أجرته حكومة الولايات المتحدة فقط بعد انسحاب الدول الأخرى لتجنب خطر «مواجهتها بتوصيات من مندوبيها المعينين الذين قد يتعارضون مع سياسات الدول». مع انسحاب تلك الدول الحليفة الأخرى، فقدت اللجنة أية صدقية حقيقية. وقدمت اللجنة تقريرها إلى مؤتمر فرساي بباريس للسلام في آب/أغسطس 1919. وقد تم تقويض عملها منذ البداية من قبل فرنسا وميثاق المملكة المتحدة واتفاقية سايكس بيكو والتصميمات الاستعمارية، اختتم مؤتمر السلام إلى حد كبير مستقبل المنطقة من خلال وقت الانتهاء من التقرير. انظر: Andrew Patrick, *America's Forgotten Middle East Initiative: The King - Crane Commission of 1919* (London: I. B. Tauris, 2015).

(13) Eugene Rogan, *The Arabs: A History*, 3rd ed. (New York: Basic Book, 2012),

السوري في 3 حزيران/يونيو 1919، وانتُخب هاشم الأتاسي[14] رئيسًا لها[15]. وعندما وصلت لجنة كينغ كرين إلى دمشق في 25 حزيران/يونيو 1919، قوبلت بسلسلة من المنشورات الصاخبة التي تقول «الاستقلال أو الموت».

في 2 تموز/يوليو 1919، أصدر المؤتمر الوطني السوري في دمشق عددًا من القرارات التي تدعو إلى ملكية دستورية مستقلة تمامًا مع فيصل كملك، وتطلب المساعدة من الولايات المتحدة، وترفض أي حقوق يطالب بها الفرنسيون[16]، وقد رسمت القرارات حدود المملكة العربية السورية على أنها في الشمال، تحادد الأناضول؛ وفي الجنوب يمتد خط من رفح إلى الجوف ويتبع الحدود السورية ـ الحجازية تحت العقبة من الشرق، وأن الحدود التي شكلها نهرا الفرات والخابور، وخط يمتد من مسافة ما شرق البو كمال إلى مسافة ما شرقًا مع العراق نحو الجوف، وعلى الغرب سواحل البحر المتوسط[17].

وسعيًا من فيصل كما يبدو واضحًا للمؤرخ لمواجهة فصل المسألة السورية عن القضية العربية، فقد تأسس الحزب الوطني العربي، وأصدر الحزب مشروع دستوره الأساسي المتألف من ثلاثين مادة أعلن فيها مبادئ عربية قومية (سمّاها «وطنية») واعلن في بنوده جملة مبادئ منها الاستقلال ورفض الأجنبي وتأسيس مملكة دستورية تدعى الولايات العربية المتحدة، والتشديد على العناصر العلمية وأن يكون الاتحاد مع مملكة الشريف/الملك الحسين بن علي، ثم اشترطت إذا لم يتم ذلك فقطع أية علاقة سياسية وولائية والمناداة بالحكم الجمهوري الذاتي متمثلاً بـ «الولايات السورية المتحدة»، ولكل ولاية عربية حكومة دستورية خاصة بها وجيش وطني ومجلس تشريعي منتخب، وكلها تنبثق من الدستور العربي، وأن يقام مجلسان تشريعيان عامّان للنواب والشيوخ في دولة الولايات العربية المتحدة، وأن لا تكون العاصمة دينية بل تاريخية، وقد فضلت دمشق الشام عاصمة الأمويين سابقًا، وأن رئيس الحكومة التنفيذية في كل ولاية يعد حاكمًا، ثم

---

(14) هاشم الأتاسي (1875 ـ 1960) شخصية سورية ورجل دولة ورئيسًا لسورية من عام 1936 إلى عام 1939، ومن عام 1949 إلى عام 1951 ومن عام 1954 إلى عام 1955، لقب بـ «أبي الجمهورية» ودرس في إسطنبول وعمل في دواوين الدولة العثمانية في بيروت وحمص، وكان من المقربين من الملك فيصل الأول خلال المملكة السورية العربية ونشط بعد ذلك خلال الانتداب الفرنسي على سورية وعرف بنشاطه السياسي وكان مطالبًا بالاستقلال. أسس وتزعّم حزب الكتلة الوطنية التي أدّت دورًا بارزًا في الحياة السياسية السورية قبل 1963، وهو محترم من جانب كل السوريين. انظر: يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، (بيروت: دار النهار، 1983)، ص 270.

(15) Tauber, *The Formation of Modern Iraq and Syria*, p. 17.

(16) Ibid., p. 19.

(17) Antonius, *The Arab Awakening*, p. 439, appendix G.

المناداة بفصل الدين عن الدولة لتحكم البلاد حسب الشرائع المدنية الحديثة، وإقرار التعليم الإجباري، والعربية هي اللغة الرسمية، وإقرار حرية الطباعة والخطابة، ويتوجب ضمانة حقوق الأقليات، وحق التدخل العسكري في الولايات لرد التدخلات الأجنبية، وتمتع الأجانب بحقوق المواطنين المدنية وممارسة حرفهم وأعمالهم، واحترام كل ولاية خيارات الأخرى، وعودة ريع المكوس والبريد والبرق إلى الحكومة المركزية، وترقية المرأة وتحريرها من القيود العقيمة، وأن يكون مجلس الأمة (الكونغرس العربي) هو الذي يأخذ قرارات إشهار الحرب وعقد الصلح وتحديد مهمات ملك العرب، وحصانة أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، والتشريعات لا تصدر إلا من خلال مجلس الأمة، وأن يكون النائب في المجلس يحمل الجنسية العربية وله مؤهلاته وكذلك عضو مجلس الشيوخ، ثم الاهتمام بالمخاطر الخارجية وأخيرًا الدفاع عن النفس وحماية هذه المبادئ[18].

لقد تلاشت أي آمال ربما كان فيصل قد وعد بها، وهو يرى صمت البريطانيين والأمريكيين في مواجهة التحركات الفرنسية بسرعة، وبخاصة بعد الاتفاق الأنكلو ـ فرنسي لانسحاب القوات البريطانية من سورية ونهاية الحكومة العسكرية البريطانية في سورية. فكان أن انسحب البريطانيون من المنطقة في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1919[19].

رابعًا: سقوط حكومة فيصل ومعركة ميسلون 1920

في كانون الثاني/يناير 1920، أُجبر فيصل على إبرام اتفاق مع فرنسا ينص على أن تحافظ فرنسا على وجود الدولة السورية ولن تنشر أية قوات في سورية طالما ظلت الحكومة الفرنسية هي الحكومة الوحيدة التي تزود المستشارين والخبراء الفنيين[20]. فكانت أنباء هذه التسوية غير مبشرة بالخير، وانتكست طموحات وأحلام أنصار فيصل من المناهضين بشدة لفرنسا ومخططاتها، فكان أن ضغطوا على فيصل باتجاه الاستقلال فورًا الذي يعبر عن عكس التزامه مع الاتفاق، وهذا ما فعله عقب ذلك الانقلاب الذي كان يمارس الثورة في الحقيقة، إذ وقعت هجومات عنيفة ضد القوات الفرنسية واجتمع المؤتمر السوري في آذار/ مارس 1920 لإعلان فيصل ملكًا على سورية، وكذلك الإعلان عن تأسيس المملكة العربية

(18) انظر جريدة القبلة (مكة المكرمة)، العدد 215، السنة 4، يوم الخميس 22 ذي الحجة 1337 ه الموافق 18 أيلول/سبتمبر 1919.

(19) Tauber, *The Formation of Modern Iraq and Syria.*

(20) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire 1914–1921* (London: Mansell Publishing Limited, 1987), p. 167.

السورية رسميًا، وأعلن هاشم الأتاسي رئيسًا للوزراء ويوسف العظمة وزيرًا للحرب ورئيس الأركان[21].

تم رفض هذا الإجراء الانفرادي على الفور من جانب البريطانيين والفرنسيين معًا، واستدعت دول الحلفاء مؤتمر سان ريمو في نيسان/أبريل 1920 لإنهاء تخصيص تفويضات عصبة الأمم في الشرق الأوسط. فكان أن رفض فيصل وأنصاره ذلك. وبعد أشهر من عدم الاستقرار والفشل في الإيفاء بوعود الفرنسيين، وجه قائد القوات الفرنسية الجنرال هنري غورو (Henri Gouraud) [22] إنذارًا نهائيًا للملك فيصل في 14 تموز/يوليو 1920 معلنًا الطلب منه الاستسلام أو القتال[23].

دارت معركة فاصلة بين القوات العربية بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة الذي قاد جيشًا صغيرًا لمواجهة تقدم الفرنسيين الذين كانت قواتهم بقيادة الجنرال غورو. بعد عدم إصغاء العظمة وأنصاره الذين تجاهلوا أمر فيصل، انتهت المعركة بهزيمة العرب واكتساح الفرنسيين لدمشق، وكان فيصل قلقًا من نتائج معركة دامية طويلة مع الفرنسيين بجيش عربي قليل الأفراد ومعتمد بصورة أساسية على الأسلحة الفردية مقابل المدفعية الفرنسية. في معركة ميسلون، هزم الفرنسيون الجيش السوري بسهولة، حيث استشهد الجنرال العظمة

---

(21) يوسف العظمة (1883 ـ 1920) كان وزير الحرب السوري في حكومتَي رئيس الوزراء رضا الركابي وهاشم الأتاسي، ورئيس أركان الجيش العربي في عهد الملك فيصل. شغل منصب وزير الحرب من كانون الثاني/يناير 1920 حتى استشهاده أثناء قيادته القوات السورية ضد الغزو الفرنسي خلال معركة ميسلون البطلة. وهو من عائلة ثرية دمشقية. أصبح ضابطًا في الجيش العثماني وحارب على جبهات متعددة في الحرب العالمية الأولى. وبعد انسحاب العثمانيين المهزومين من دمشق، خدم العظمة الأمير فيصل زعيم الثورة العربية، كان العظمة من بين أكثر المعارضين صخبًا للحكم الفرنسي، ومع تقدم قواتهم نحو دمشق من لبنان، تم تفويضه لمواجهتهم بالرغم من تقديم النصائح له بعدم المغامرة. فاشتبك العظمة بقيادة جيش متنوع من المتطوعين المدنيين، وبعض الضباط العثمانيين السابقين وسلاح الفرسان من بعض البدو، وقام الفرنسيون بسحق تلك القوات وسقط العظمة صريعًا في ممر ميسلون يوم 24 تموز/يوليو، وتمزق جيشه وتفرق جنوده، وهو ما سمح للفرنسيين باحتلال دمشق في 25 تموز/يوليو 1920. لقد أصبح العظمة بطلًا وطنيًا في سورية لإصراره على مواجهة الفرنسيين على الرغم من تفوقهم العسكري الواضح ومصرعه النهائي في المعركة. وكان قبل ذهابه إلى المعركة قد أوصى الملك فيصل خيرًا بابنته ليلى من بعده إذ أدرك انه لن يعود من المعركة حيًا، وابنته ليلى من زوجته التركية، التي غادرت مع ابنتها إلى تركيا، وهناك عاشت ليلى حياة كريمة وتزوجت وتوفيت في السبعينيات من القرن العشرين. انظر: أرشيف آل العظمة في مكتبة عزيز العظمة، انظر أيضًا:
Tauber, Ibid., pp. 94 - 99, and Peter Wien, *Arab Nationalism: The Politics of History and Culture in the Modern Middle East* (Abingdon: Routledge, 2017), pp. 67 - 68.

(22) هنري جوزيف يوجين غورو (1867 ـ 1946) كان جنرالًا فرنسيًا اشتهر بقيادته للجيش الرابع الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى. انظر: Rogan, *The Arabs: A History,* pp. 220 and 225.

(23) Tauber, Ibid., p. 215.

خلال المعركة. وأدت الخسارة إلى حصار دمشق والاستيلاء عليها في 25 تموز/يوليو 1920، ويدأ سريان الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان بعد ذلك. وتم تنصيب حكومة موالية لفرنسا بقيادة علاء الدين الدروبي بعد يوم واحد من سقوط دمشق[24]. وفي 1 أيلول/سبتمبر 1920، قسم الجنرال غورو ولاية الانتداب الفرنسية في سورية إلى عدة أقاليم صغيرة كجزء من مخطط فرنسي لتسهيل السيطرة على سورية. هكذا، ستصبح المملكة العربية السورية، من خلال وجودها القصير والمضطرب، مصدر إلهام كبير لحركات التحرر العربية اللاحقة. وستكون قصة شعب عربي لا يقبل أن يعبث بمصيره الآخرون من القوى الإمبريالية.

خامسًا: دولة أم حكومة؟

«الحكومة العربية في الشام 1918 ـ 1920» كنت أول تجربة عربية مستقلة وعولجت أسباب تأسيسها ومنجزاتها، وانصبّ الاهتمام على عوامل فشلها الذريع، كونها لم تدم سوى سنتين فقط، إذ كانت ثمرة نضالات عربية من خلال ثورة العرب الكبرى (1916 ـ 1918)، فعُدّت نقلة ملحميّة نحو الدولة الحديثة والمجتمع المدني ودور الشرائح الاجتماعية وفكرها بالتركيز على الجذور المجتمعية والفكرية السياسية للدولة متمثّلة بالمهنيين والصراع الطبقي بين الإقطاع والفلاحين وبشرائح اجتماعية عليا، هي: الأسَر المرتبطة بالمؤسسّة الدينية، والأسَر المرتبطة بالإنكشارية (الآغوات)، وكبار الموظفين القدماء، والأسر التجارية والطبقة الوسطى... إلخ[25].

توضحت جليًا طبيعة الحكم الفيصلي بين الوحدةِ السياسية إزاء نمو العصبيّات المحليّة التي قام بتفكيكها وتحليل سلبياتها، ونفض عنها العوامل الخفيّة المستعرة بنشوء الحساسيات الداخلية التي استيقظت فجأة بعد انبثاق هذا التكوين العربي لأول مرّة بعد تاريخ طويل جدًّا من غياب حكم العرب لأنفسهم. مع جملة من الانقسامات الاجتماعية التي لم يظهرها التوحيد السياسي، وقد ظهرت جليّة في الموقف من الشخصيات غير السورية وخصوصًا العراقية والفلسطينية.

جاء تثبيت ركائز الحكومة العربية وبناء الدولة قويًا، إذ نجح العرب في هذا «البناء» وخصوصًا لمؤسسّات تلك الحكومة التي لم تصل إلى رتبة الدولة الحقيقية. كما يتوضح

---

(24) Ibid.

(25) من المهم مراجعة كتاب نشوان الأتاسي، تطور المجتمع السوري 1831 ـ 2011 (بيروت: دار أطلس للنشر والترجمة، 2020)، ص 23 ـ 43.

ذلك من خلال ما تشكّل ليس «دولة» عربية بل «حكومة» عملت على عدم توقّف الحياة في البلاد، واستمرار الأجهزة الموروثة عن العثمانيين. وقد أجريت تحولات داخلية على أهم المؤسسّات والأجهزة والقوانين، وأقامت حكومة فيصل أول سجل للمحامين لكن لم يكن يشترط فيه حيازة إجازة جامعية[26]، واعتماد «العروبة» أيديولوجيا لكل من الدولة الوليدة والمجتمع الجديد. ولكن كلًّا من الدولة وأيديولوجيتها لم تدوما طويلاً في الوقت المستقطع ريثما يتفّق الخصوم الأوروبيون على المصير الذي ستعيشه المجتمعات العربية في القرن العشرين!

سادسًا: الرؤية الخارجية: العلاقات والاتفاقيات والهيمنة الدولية

كانت هذه التجربة التاريخية هي الأولى في التعامل العربي مع مواجهة الآخر، وخصوصًا مع طبيعة الرؤية التركية المضادة الآن للتحولات العربية التي تكشف عنها بعض الوثائق العثماني، إذ تكشف بعض نماذجها وخصوصًا تقارير الضبّاط العثمانيين الموفدين سرًا إلى سورية، وشرح وضع منتسبي الدولة من الأتراك في سورية بعد الانسحاب العثماني، والعوائل السوريّة المعلّقة في إسطنبول، والمعتقلين العرب في السجون العثمانية، وتسريح العسكريين العرب من الجيش العثماني وموقف العرب في الأناضول من حكومة دمشق العربية.

شاب طبيعة العلاقات بين الحركتين العربية والتركية الاستقلالية في حقبة الحكومة العربية التردي وتفاقم التناقضات من جراء تفاعل العوامل التي حكمتها، ولم تزل العلاقات بين الحركتين غير مدروسة خلال تلك المرحلة الزمنية الصعبة إلّا بشكل جزئي عابر. وقد مرّت بثلاث مراحل: الأولى من أيلول/سبتمبر 1919 حتى أواخر شباط/فبراير 1920. والمرحلة الثانية تبدأ مع منتصف كانون الثاني/يناير 1920. أما المرحلة الثالثة، فتبدأ بعد مدة من إعلان المؤتمر السوري في 7 آذار/مارس 1920، لتصل العلاقات العربية ـ الفرنسية إلى أقصى ترديّها، ومع تفاهم عربي ـ تركي أحبط من جرّاء العمل بالهدنة الفرنسية ـ التركية في 30 أيار/مايو 20 حزيران/يونيو 1920.

وكان دور نفط الموصل في تعديل الاتفاقيات التقاسمية إبان مرحلة تلك الحكومة تزداد أهميته الكبرى، وخصوصًا أن الخلافات الأساسية دارت على موقع الموصل بدءًا

(26) انظر: إليزابيث لونغنيس، أزمة الطبقات الوسطى في المشرق العربي: المهن العليا ودورها في التغيير الاجتماعي، ترجمة رندة بعث (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 2012)، ص 74.

باتفاقية سايكس ـ بيكو مع الأزمة البترولية في بريطانيا عام 1917 ومحاولتها انتزاع الموصل من حليفتها فرنسا مستغلّة وضعها غير المستقر في سورية. واضطر كلينمصو إلى التنازل عن الموصل في أول أيلول/سبتمبر 1918 سرًّا، وانتهت مشكلة الموصل[27]. لكن تركيا طالبت بالموصل بعد تأسيس الجمهورية التركية، وضمن انتقالات ذلك الطور التاريخي الذي عاشته الحكومة العربية في دمشق، جرى تداخل كلّ من المحلّي والإقليمي والدولي انتهى بإغلاق الأبواب في وجه المشروع الاستقلالي العربي بدخول فرنسا بجيشها، ونحر التجربة العربية النهضوية الوليدة بعد معركة ميسلون البطلة 1920، فوقعت سورية تحت الانتداب بعد انتصار الجيش الفرنسي ومغادرة فيصل وطاقمه دمشق.

سابعًا: من الفكرة إلى الثورة ومن الحكومة إلى النهاية التراجيدية

إن هذه السلسلة من التحولات التاريخية من الثورة إلى الحكومة وتطوّرات الفكرة العربية بدءًا من الانبثاق إلى النشأة ووصولاً إلى الثورة وانتهاء بالحكومة العربية، أي كيف بدأت الفكرة العربية؟ وكيف تبلورت؟ وكيف تحققت على أرض الواقع من جانب عناصر متنوعة بقيادة الهاشميين سواء من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والضباط العراقيين؟ وكيف كان دور سورية التي سمَّاها فيصل «أس العروبة وأساسها». وبعد قيام الحكومة العربية في دمشق، حصل تطوّر في صلب «الفكرة العربية»، إذ تحوّلت من مجموعة أدبيات وبرامج سياسيّة ومشاعر وآراء تطرح في جمعيات وصحافة إلى ثورة ترجمت إرادة العرب وأقامت مملكة عربية لها مؤسسّاتها وأجهزتها ودستورها ومجلس تمثيلي وأعلنت الاستقلال.

كانت النهاية مع هزيمة التجربة في معركة غير متكافئة أبدًا وقعت في ميسلون، وتوضّحت للعيان الأسباب الداخلية للهزيمة المتوقعّة، إذ أوضحت حفريات تاريخية في الأسباب الداخلية للنكوص، القريب منها والبعيد، هشاشة الموقف العسكري والسياسي، ووهن في البنية العربية إذ تصدعت في مفاصلها وتفاصيلها وخصوصًا أن الثورة العربية قد أفرغت من خصائصها وتجليّاتها، وقد خلفّت «كارثة» ميسلون أزمة في الضمير والوجدان العربيين ترجمها وعكسها إنتاج فكري وشعري غزير بحاجة اليوم إلى فحص ودراسة وتدبّر. لقد كان فيصل أمام ضغوط هائلة من الداخل والخارج[28].

---

(27) انظر التفاصيل لاحقًا (الفصل العاشر من هذا الكتاب).

(28) غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي. محور «المجتمع والدولة» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987)، ص 118 ـ 121.

أما أثر النخبة السياسية والثقافة الدستورية السائدة في دستور سورية 1920، فثمة مجالات أربعة بتأثير النخب السياسية في ذلك الدستور، تتمحور بكل من الوجود القومي «للأمة العربية»، و«الأمة السورية»، وتعزيز حاكمية «الأمة السورية» عبر الحكم الدستوري النيابي، وفصل الدين عن الدولة، كما يظهر ذلك من خلال ما تضمنته بنود الدستور مقارنة بينها وبين بنود دساتير أخرى.

ثامنًا: المواقف الفكرية والسياسية

احتدمت المواقف الفكرية والسياسية عن الحكومة العربية في دمشق قبيل انبثاق المؤتمر السوري الأول وتعددت المواقف من فيصل الذي غدا ملكًا على سورية، وتبلورت أفكار معارضة من بعض السوريين ومنهم نخبة من الكتاب والساسة. تجسد ذلك برؤية رشيد رضا، متهمًّا مؤسّسات الحكومة العربية وإدارتها بالمحسوبيات وتجاهلها من جانب فيصل والقفز من فوقها من دون أي حساب لما كان هناك من ضغوط على فيصل، وهي جملة اتهامات صرّح بها رشيد رضا في مواقفه المتناقضة، وكان عضوًا في المؤتمر السوري الأول، ثمّ رئيسه في فترة إنذار غورو والاحتلال الفرنسي لسورية. ومواقف آل الأمير عبد القادر الجزائري من تلك الحكومة، ولكن أهم من وقف يحمل رؤية دينية مجادلة في الفكر والسياسية هو رشيد رضا إزاء الحكومة، وقد كشف عن تحولات رشيد رضا من الفكر إلى السياسة ثم عودته إلى مصر. وقد توضّحت لاحقًا مواقف رشيد رضا المضطربة بعلاقته مع السعوديين. وكان هناك تعاون مع الفرنسيين ضد فيصل من السوريين، ومنهم شيوخ قبائل عربية خذلوا فيصل في مهمته الوطنية ومنهم زعيم الفدعان الأمير محجم بن مهيد الذي ناهض الملك فيصل في عامي 1919 و1920 وخدم في عام 1921 مصالح فرنسا[29].

تاسعًا: التحولّات من القضية العربية إلى المسألة السورية

بدا واضحًا أن نخبة من الضباط والمدنيين العراقيين الذين دُعوا لاحقًا بالشرّيفيين قد كان لهم دورهم في الحكومة الفيصلية بدمشق، وكانوا بين 300 و400 من القادة والضبّاط والمدنيين العراقيين، أبرزهم: جعفر العسكري ونوري السعيد وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وغيرهم، بدءًا بالدور الخفي الذي قام به

(29) حنا بطاطو، فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم، ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندي؛ مراجعة ثائر ديب (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 63.

الضابط الموصلي محمد شريف الفاروقي في القاهرة، وكان مندوبًا للشريف الحسين بن علي برتبة «وزير مفوّض»، وكان حلقة وصل بينه وبين الإنكليز منظمًا للضباط العراقيين الشريفيين، وإرسالهم إلى الحجاز، وقد أقاله الشريف حسين عام 1917 وعاد إلى العراق وقتل في ظروف غامضة، ويقال انتحر. وسنقف لاحقًا على طبيعة الدور الأساسي الذي أدّاه أولئك الشريفيون في التأسيس ودور أيديولوجي في جمعية العهد العسكرية العراقية التي زاحمتها جمعية العربية الفتاة المدنية السورية، وانتقال الحكومة من أهدافها العربية القومية إلى جعلها قضيّة سورية وطنية، وكيف كانت نهاية أولئك الشريفيين التراجيدية والمأسوية على أيدي الفرنسيين والإنكليز معًا من خلال أسرهم وإهانتهم وتسفيرهم نحو جزيرة أرواد، ومن ثمّ إلى مصر، وإعادتهم بعد سنتين إلى العراق بحرًا، ناهيكم بالفلسطينيين ودورهم في الحكم العربي، سواء من خلال الحضور أو مواقف النخب أو العوام والتحوّلات السياسية التي شهدتها المنطقة عمومًا وفلسطين خصوصًا بعد الاحتلال البريطاني عليها. وثمة خصوصية تاريخية تتعلق بتطوّر موقف مجلس الإدارة اللبناني بين الممارسات العسكرية الفرنسية وسياسة اللامركزية السورية. تتكّشف إضاءات على أحداث ومواقف طمستها مسارات وتوجهات الانتداب الفرنسي ما بعد ميسلون، وتمّ تعميم أيديولوجيات انقسامية قريبة إلى «الحس المشترك» منها إلى الحقيقة التاريخية العلمية.

عاشرًا: كيف كان التأسيس عند فيصل؟

1 ـ فيصل: رجل دولة

أعتقد أن فيصل الأول هو الزعيم العربي الوحيد الذي فهم تلك المعادلة الأساسية والصعبة التي تتصف بمعايير معقدة جدًا في تطوير آلية الحكم وتأسيساته القيمية بعدما انبثقت على يديه أول دولة عربية مستحدثة في تاريخ العرب المعاصر في القرن العشرين التي تؤلفها: دولة عربية لها سيادتها ومؤسساتها وهياكلها وأجهزتها إزاء بنية اجتماعية منشطرة ومفككة تحفّ بها العقبات والأهواء والاتجاهات والانقسامات والتكتلات الجغرافية والعرقية والأقلياتية والدينية والمذهبية والطائفية والقيمية الاجتماعية والعشائرية والقبلية في واقع الشرق العربي قاطبة[30]. ذلك الواقع، الذي كان عند مطلع القرن العشرين

(30) سيار الجميل، «سيمون بوليفار العرب: كيف كتب علي علاوي تاريخ الملك فيصل الأول؟،» المستقبل العربي، السنة 38، العدد 443 (كانون الثاني/يناير 2016). انظر كتاب علي علاوي بالإنكليزية: Allawi, *Faisal I of Iraq.*

ولم يزل عند نهاياته، يمتلك عدة مرجعيات مختلطة ومتعددة ومتنافرة في سوسيولوجياتها الاجتماعية (ومن بعد السياسية) التي استمرت مذكية روح الاختلاف والتباينات الفكرية والسياسية على امتداد القرن العشرين. وكان ذلك سببًا أساسيًا وعميقًا في إخفاق الكثير من المشاريع القومية للدولة الوحدوية أو الاتحادية العربية. وهنا يطرح السؤال نفسه دومًا: إذا كان كل هذا وذاك يمثّل وضعها الصعب على امتداد القرن، فكيف يمكنها حمل مشروعات دولة الوحدة العربية عشية انهيار الحكم العثماني وبدء المرحلة الاستعمارية؟

ولعل أبرز الأسباب التاريخية التي زادت من سوء الواقع العربي ليس من الناحية السياسية وحسب، بل من الناحية الاجتماعية أيضًا: تطبيقات معاهدة سايكس ـ بيكو التي لم تجزئ الواقع فحسب، بل نجحت أيضًا في اغتيال الحلم والحكم معًا؛ حلم المجتمع المتمثل بزعاماته ورجالاته ونخبه ومفكريه ومثقفيه؛ وحكم الدولة المتمثل بأول تجربة عربية مؤسساتية مستقلة طموحة تميزت بصفتين أساسيتين:

أولهما، زمانية انبثقت قبل انعقاد مؤتمر الصلح بباريس عام 1919 وهذا ما لم نجده في تجارب معاصرة أخرى في العالم أجمع!

وثانيهما، مكانية انبثقت قبل أي دولة مستحدثة أخرى في منطقة الشرق الأوسط بخاصة وآسيا وأفريقيا بعامة.

لا بد لنا أن نتوقف قليلاً عند رسالة مهمة جدًا بعثها الملك فيصل في إثر اعتلائه العرش إلى ويلسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يهمنا جدًا معرفة موقفه من الاتفاقات السرية بين بريطانيا وفرنسا، حول تقسيم البلاد العربية، وقد بنى قرائنه على المبادئ التي أعلنها ويلسن في تحرير الشعوب ومبدأ تقرير المصير، قال: «... وبعدما استوثق العرب من هذه المواعيد (يعني بها: وعود الإنكليز للعرب في التحرر وتأسيس دولتهم) خاضوا غمار الحرب وقلوبهم ملأى ثقة واطمئنانًا بأن حلفاءهم لا بد أن ينجزوا مواعيدهم للأمة العربية عندما تلقي الحرب أوزارها.

وقد انقسمت سورية عقب الهدنة إلى أربع مناطق إدارية وذلك وفقًا لمعاهدة سرية لا نعلم من حقيقتها شيئًا. فحنق الشعب عندما رأى ما آلت إليه حالة البلاد ولم يسكن جأشه إلا بعد التأكيدات العديدة بأن هذه التقسيمات وقتية لا بد أن تضمحل مع الحكم العسكري، ولم يطل هذا الأمر حتى ذاع خبر اتفاق عُقد بين بريطانيا العظمى وفرنسا يؤول إلى فرط عقد البلاد وتقسيمها. فكان لهذا النبأ وقع سيئ في النفوس حتى إن الشعب عيل صبراً ورجع بعضه إلى امتشاق الحسام للذود عن وحدة سورية التي أصبحَ أمرها مبهمًا...

ولم ير دواء لتلافي الأمر أنجع من جمع المؤتمر السوري المنتخب من الشعب وإعلان استقلال سورية والمناداة بي ملكًا عليها..»[31].

لقد أضفى تأسيس (الأقطار) وتدشين عصر جديد من القطرية: آليات صعبة جدًا، ليس على المستوى الاجتماعي لبنية الواقع القائم، بل على المستوى السياسي في تشكيل ما سمي «الأوطان» التي لم يكن العرب يعرفونها بمثل هذه الصيغة التي أوجدت نفسها قطريًا فيها على امتداد القرن العشرين. وبقدر ما كانت قسمات العرب الاجتماعية بحاجة إلى تجسيد هياكلها العظمية، وأصحابها العرب بحاجة إلى تطوير أوضاعهم القائمة من خلال تحديث آلياتهم ومفاهيمهم باتجاه تمفصلهم عن ذهنية الماضي العثماني وآلياته الصعبة والمستهلكة (وحتى التنظيماتية منها)، فقد كانوا بحاجة إلى مؤسسات وأجهزة ومرافق وقيم وقوانين وأنساق وممارسات... كلها جديدة تقرب المسافة بين بنيتهم الاجتماعية المتوارثة وبين واقعهم السياسي والإداري، بعيدًا من تأسيس دول جديدة لهم تلبس لبوس الأوطان والأمم!

لا بد لي أن أستلّ فقرة مما قاله فيصل في أحد بياناته يوم السبت الموافق 1920/1/17:

«لقد قمت بالثورة في وجه الترك وغايتي الوحيدة استقلال الأمة العربية، ولكن بعض الناس يتوهمون أنني عقدت اتفاقًا في باريس، فليس لهذا الوهم ظل من الصحة فأنا ابن محمد وأنا ابن أولئك الأجداد الكرام فأنا أسير على خطتهم ولا أرضى ولن أرضى بأي اتفاق كان سوى استقلال البلاد العربية ولا أسعى فقط لاستقلال سورية بل لاستقلال البلاد العربية كلها، وهذه هي الغاية التي عاهدت الله عليها، فإذا ظللت وحدي مجاهدًا في سبيلها فسأبقى مجاهدًا إلى النهاية، ولو وقف في طريقي من العقبات ومثبطات العزائم...»[32].

وهنا، لا أريد أن أضفي أفكارًا أخرى، فثمة استخلاصات فكرية وتنظيرية ناهيكم باستنتاجات تاريخية ومعرفية، قدمها بعض المؤرخين والمفكرين العرب والأجانب، سواء في الوقائع العينية للتعدديات المجتمعية العربية، أم للأحداث السياسية الساخنة التي

---

(31) انظر الوثيقة في: *The National Archives of the United States* (Washington, DC: Records of the Department of State Relating to Internal Affairs of Asia, 1910 - 1929), Record Group R. G. no. 58 - 9, Syria (890. d00101).

(32) انظر: «بيان سمو الأمير،» في: **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق) التي أصدرتها الحكومة العربية بدمشق، وصدر عددها الأول في 1919/12/17، مع ثبت بالأعداد المعتمدة منها. وقد نشرت أعدادها كاملة بمجلدين كبيرين اثنين مؤخراً **الوثائق الهاشمية**، بإشراف عام محمد عدنان البخيت؛ جمع وإعداد هند أبو الشعر؛ تحرير محمد الأرناؤوط وسلطي الشخاترة (عمّان: جامعة آل البيت، المطبعة الهاشمية، 1988)، مج 2، ص 4.

اتفقت أو اصطدمت بواقع المجتمع وخصوصًا فيصل الأول، فضلاً عن عدد من المشاريع التي قُدمت حول بناء الدولة العربية المستحدثة في القرن العشرين، علمًا بأن انبثاق الدول القطرية العربية لم يكن أبدًا مشروعًا، أو أنها تقع ضمن خيارات المشروع القومي النهضوي لأولئك الزعماء الأوائل[33].

2 ـ من الدولة العربية المستقلة إلى الدولة الوطنية المنتدبة

لقد عولجت قضايا فكرية تجديدية متعددة تخص الدولة ومؤسساتها، فهناك معالجة مهمة لموضوع «الأحزاب» نشره أمين حشيمي[34]، وموضوع آخر بعنوان «الاشتراكية والمساواة» نشره المحامي فائز الخوري في قسمين[35].

لقد زالت دولة فيصل العربية في دمشق، ولكن رجالها ومؤسساتها بقوا في قيد الحياة يستمدون من تجربة تلك «الدولة» كل المعاني والنظم والأساليب. ولعل رجالات سورية الكبرى الشهيرين في النصف الأول من القرن العشرين كانوا قد تخرجوا من عباءة فيصل أو تأثروا بها تأثرًا مباشرًا وكبيرًا، أذكر منهم: الصالح إسماعيل، وحقي العظم (1864 ـ 1955)[36]، وتاج الدين الحسيني[37].

---

(33) ثمة مراجع تاريخية وكتابات فكرية وفلسفية وسياسية، لا بدّ من الاطلاع عليها من أجل مراجعة أو استفادة أو نقد أو مناقشة بعض الأفكار والأطروحات والآراء والأحكام التي أوردها الكثير من مفكريها وكتابها ومؤلفيها العرب والأجانب، أذكر منهم: عبد الله العروي وجورج أنطونيوس وعبد العزيز الدوري وسمير أمين وخير الدين حسيب وغسان سلامة وعزيز العظمة وبرهان غليون ومسعود ضاهر وزين نور الدين زين وخيرية قاسمية وعدنان البخيت وإيليا حريق وفهمي جدعان وعزمي بشارة وذوقان قرقوط وعلي محافظة وعبد اللطيف طيباوي ومجيد خدوري وإيلي خدوري وحنا بطاطو وأنكوس موندي وجون ماك ومحمد عابد الجابري ومحمد جابر الانصاري وجمال باروت وهشام نشابه وفيليب خوري ومالكولم بروس رسل وفيليب دايفيد وروجر أوين وشارل عيساوي وفاسيلييف ولوتسكي وغيرهم.

(34) أمين حشيمي «الأحزاب،» **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العدد 32 (5 حزيران/يونيو 1919).

(35) فائز الخوري المحامي، «الاشتراكية والمساواة،» **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العددان 33 ـ 34 (حزيران/يونيو 1919).

(36) أول رئيس للوزراء في عهد الجمهورية السورية وحاكم دولة دمشق ورأس مجلس الشورى مرتين.

(37) تاج الدين الحسيني (1885 ـ 1943)، ثاني رئيس للجمهورية السورية من 16 أيلول/سبتمبر 1941 وحتى وفاته يوم 17 كانون الثاني 1943. تَقَلّد رئاسة الحكومة أربع مرات ما بين 1928 و1936، وشارك في وضع أول دستور جمهوري للبلاد عام 1928. لُقب بالرئيس المعِمار نظرًا إلى اهتمامه بالتطوير والبناء، وفي عهده الأخير حصلت سورية على استقلالها من حكم الانتداب الفرنسي وكان له خصومه الذين شوهوا صورته واتهموه بالعمالة للفرنسيين. انظر: **الحكومة السورية في ثلاث سنوات من 15 شباط 1928 إلى 15 شباط 1931: على عهد رئاسة صاحب الفخامة السيد تاج الدين الحسني** (دمشق: مطبعة الحكومة، 1931). انظر أيضًا: نجيب الأرمنازي، **سورية من الاحتلال حتى الجلاء** (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1953) ص 143 ـ 152.

وشكري القوتلي[38] وعلي رضا الركابي[39] وحسن الحكيم[40] وفارس الخوري[41]، وخالد العظم[42] وجميل مردم بك (1893)[43] وخليل مردم بك (1895 ـ 1959)[44] وزكي

---

(38) شُكري بن محمود بن عبد الغني القُوَّتلي (1891 ـ 1967) رئيس الجمهورية السورية خلال الحقبة (1943 ـ 1949) ثمّ (1955– 1958)؛ وزعيم سياسي نشط في الكتلة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي، وشارك في الثورة السورية الكبرى. نالت سورية في عهده استقلالها التام، وعرف بميوله القومية العربية، ودعمه لمصر عبد الناصر مشاركًا إياه في صنع الوحدة السورية ـ المصرية فأطلق عليه لقب «المواطن العربي الأول» وفي سورية، عرف بلقب «أبو الجلاء». انظر: Philip S. Khoury, «Factionalism among Syrian Nationalists during the French Mandate,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 13, no. 4 (November 1981), pp. 441 - 469.

انظر أيضًا: Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009), pp. 67 - 93.

(39) علي رضا باشا الركابي (1868 ـ 25 أيار/مايو 1942)، سياسي سوري دمشقي، كان ضابطًا عثمانيًا، وترأس الحكومة العربية في سورية بعد تحررها من العثمانيين، ثم أصبح رئيسًا للوزراء في إمارة شرق الأردن. رشح نفسه لانتخابات الرئاسة ولأول مرة عام 1923 ولأول انتخابات رئاسية في الجمهورية السورية عام 1932. ولكن الحظ لم يحالفه فاعتزل، لكنه لم يفز بها فاعتزل وتوفي عام 1942. انظر عنه في: يوسف الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966)، ص 37 وما بعدها.

(40) حسن بن عبد الرزاق الحكيم (1886 ـ 1982)، زعيم سياسي سوري دمشقي، ترأس الحكومة السورية لاحقًا، وهو من الآباء المؤسسين للجمهورية السورية وشارك بوضع دستور سورية عام 1950. وفي عهده أعلن عن استقلال سورية من الانتداب الفرنسي في أيلول/سبتمبر عام 1941. وله مؤلفاته المهمة. انظر: حسن الحكيم، **مذكراتي: صفحات من تاريخ سوريا الحديث، 1920 ـ 1958**، 2 ج (بيروت: دار الكتاب الجديد 1965)، ج 1، ص 25 وما بعدها.

(41) فارس الخوري (1873 ـ 1962) زعيم ومفكر وطني سوري مسيحي بروتستانتي له أدبه وشعره. وفي عام 1919 عُين عضوًا في مجلس الشورى الذي اقترح على الشريف فيصل تأسيسه، وأسس معهد الحقوق العربي، وكان هو أحد أساتذته، كما اشترك في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق. تولى فارس الخوري وزارة المالية في الوزارات الثلاث التي تألفت خلال العهد الفيصلي في سورية. انتخب فارس الخوري رئيسًا للمجلس النيابي السوري عام 1936 ومرة أخرى عام 1943، كما تولى رئاسة مجلس الوزراء السوري ووزيرًا للمعارف والداخلية في تشرين الأول/أكتوبر عام 1944. وكان لتولي فارس الخوري رئاسة السلطة التنفيذية في البلد السوري المسلم وهو رجل مسيحي صدى واسع، لكنه كان يدافع عن مصالح الجميع. انظر: محمد الفرحاني، **فارس الخوري** (بيروت: مطبعة دار الغد، 1964).

(42) خالد العظم (1903 ـ 1965) أحد أبرز الزعماء السياسيين خلال حقبة الجمهورية الأولى من تاريخ سورية. رأس الحكومة في سورية ست مرات، وتولى كرسيًا وزاريًا أكثر من عشرين مرة. الرئيس الحادي عشر بصفة مؤقتة للدولة السورية بين 4 نيسان/أبريل و16 أيلول/سبتمبر 1941، وقف ضد البعثيين والقوميين وانتقل إلى لبنان وعاش فيها بفاقة وشظف حتى وفاته، وقد صادر «مجلس قيادة الثورة» أملاكه داخل البلاد، التي ورثها عن آبائه وأجداده من آل العظم الذين حكموا ولاية دمشق العثمانية إبان القرن الثامن عشر. وقد لقب من قبل خصومه بـ «المليونير الأحمر». انظر: رشاد محمد وغسان حداد، **أوراق من تاريخ سورية المعاصر، 1946 ـ 1966** (عمان: مركز المستقبل للدراسات، 2001)، ص 27 وغيرها.

(43) انضم إلى حزب الشعب عام 1925 وناضل ضد الفرنسيين، وفي عام 1928 انتخب نائبًا عن دمشق وظل يُنتخب حتى 1948 واستوزر عام 1932 ثم استقال بسبب الخلافات. ألف حكومته الأولى بين 1936 و1938 وأصبح وزيرًا للخارجية في 1943 ـ 1944 ثم وزيرًا للدفاع والاقتصاد في 1945 ـ 1946 ألف بعدها حكومته الثانية حتى انقلاب حسني الزعيم عام 1948 حيث هرب إلى القاهرة وتوفي فيها ودفن في دمشق.

(44) أحد رجال دمشق الوطنين ومؤلف النشيد الوطني للجمهورية العربية السورية «حماة الديار عليكم سلام» وعُين وزيرًا للخارجية وكان في آخر أيامه رئيسًا لمجمع اللغة العربية بدمشق.

الخطيب (1887 ـ 1961)[45] وسعيد الغزي وصبري العسلي (1897 ـ 1976) وعبد الله عطفة (1897 ـ 1976)[46].

حادي عشر: معالجات فيصل الأول لإشكالية «بناء الدولة» العربية

أولاً، الدعوة إلى مؤتمر وطني تأسيسي لكسب مبدأ الشرعية للدولة والحكم، وتحول فيصل الأول من زعيم ثوري إلى حاكم دستوري. جاء ذلك عقب عدة متغيرات حدثت في السياسة الداخلية للدولة العربية التي بدأت تواجه سلسلة من المؤمرات المفضوحة ضدها من جانب الإنكليز والفرنسيين الذين بدأوا يطبقون ما كانوا قد اتفقوا عليه من مشاريع تقسيمية للبلاد العربية[47].

ثانيًا: ماذا طرح الأمير فيصل بن الحسين في شهر أيار/مايو 1919؟ سيحدد الجواب عن هذا السؤال «مفهوم الدولة» كما طرحه الرجل مستفيدًا من تجاربه السياسية التي ألمّ بها في المرحلة المبكرة من بناء الدولة، وكما رآها صالحة للجمع بين كل المتناقضات التي ظهرت على السطح بين دخوله العاصمة دمشق ممثلاً المطالب العربية في التحرر في إثر انتصار الثورة العربية على الأتراك عام 1918 وصولاً إلى دخوله قاعة قصر فرساي الذي انعقد فيه مؤتمر الصلح عام 1919 ممثلاً المطالب العربية في الاستقلال في إثر إعلان الدولة العربية في دمشق[48].

---

(45) خريج الشاهانية في إسطنبول وكان من أكفأ الإداريين في مناصب متعددة ونصب وزيرًا.

(46) عسكري سابق خريج إسطنبول، ساهم في الثورة العربية الكبرى وهرب بعد ميسلون إلى الأردن وتلقى تعليمًا في فرنسا عام 1938 وتمرد على الفرنسيين ونصبه شكري القوتلي رئيسًا لأركان الجيش السوري بعد الجلاء. كان قائد الجيش السوري في حرب 1948 ضد اسرائيل واستقال لمسؤوليته في سوء إدارة الحرب وتجهيز الجيش؛ واستبدل بحسني الزعيم. وفي آذار/مارس 1949، قاد الزعيم انقلابه العسكري الذي أوصله إلى سدّة الرئاسة، وعيّن عطفة وزيرًا للدفاع، وبعد خلع الزعيم في آب/أغسطس 1949، تابع عطفة دوره كوزير للدفاع في حكومة هاشم الأتاسي الانتقالية، وبعد استقالة الحكومة، اعتكف عطفة عن العمل عام حتى وفاته.

(47) من أجل التوسع في مضمون هذا «الموضوع»، راجع المعلومات التاريخية المهمة التي يتضمنها مصدر وثائقي مهم، كمجموعة من الأوراق الخاصة التي يحتفظ بها مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد البريطانية، انظر: Private Papers Collections, in Middle East Center, St. Antonys College, University of Oxford.

(48) سهيلة الريماوي، التجربة الفيصلية في بلاد الشام (عمّان: وزارة الشباب، مطبعة التوفيق، 1988)، ص 58 ـ 59.

فما مفهوم الدولة التي أرادها الأمير فيصل بن الحسين؟ أرادها دولة عربية موحدة ثم طالب بتأسيس دولة اتحادية، وكان هو نفسه صاحب المشروع لا غيره نظرًا إلى المزايا الفكرية والسياسية التي امتلكها[49]. لقد طرح فيصل بن الحسين دفاعه (الذي صاغه بنفسه وبمساعدة أبرز المستشارين الذين رافقوه لحضور مؤتمر الصلح بباريس 1919)، على مبدأين اثنين:

أولهما، أن البلاد العربية لا يمكن تجزئتها لأنها أمة واحدة تطمح إلى الاستقلال.

ثانيهما، معالجة تباين المستويات النهضوية للعرب، نظرًا إلى حالات التفاوت بين بلد عربي وآخر من النواحي العلمية والعمرانية. وإن مساحتها الكبرى بحاجة ماسة إلى التكتل بتوفير المواصلات الكافية. وعليه، فإن ذلك يجعل مهام الحكومة العربية الواحدة أمرًا صعبًا جدًا في ذلك الظرف[50].

يظهر لنا أن فيصل الأول كان يستحسن تأسيس ثلاث حكومات مستقلة في كل من سورية والعراق والحجاز، ولكن تجمعها جامعة سياسية خارجية وجامعة اقتصادية داخلية. أي أن تكون هذه الحكومات متحدة في قضاياها السياسية الخارجية، ولكنها مستقلة في تعاملاتها وأوضاعها الاجتماعية الداخلية، شريطة وجود رابطة اقتصادية عربية إقليمية توحد جماركها وخطوطها، مع توحد في برامجها الأخرى: الأمنية والتربوية والتعليمية أي توحد مشروعها العربي في التربية والتعليم (المعارف)[51].

ثاني عشر: استراتيجية مشروع فيصل: الولايات العربية المتحدة

1 ـ مشروع فدرالي وليس كونفدراليًا

إن أهم مشروع نهضوي عربي نادى به فيصل الأول وسبق غيره فيه يتمثل بمشروع بناء دولة «الولايات المتحدة العربية»[52]. كان طموح فيصل أن يكون مشروعه الاستراتيجي،

---

(49) متابعة لأعداد المجلد الأول من جريدة العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية) (الوثائق الهاشمية)، مصدر سبق ذكره.

(50) انظر المصدر نفسه، المجلد الأول: العاصمة: جريدة الحكومة الرسمية (دمشق)، السنة 1، العدد 25 ـ الاثنين 12 شعبان 1337هـ ـ 12 أيار/مايو 1919م، «الحكومات العربية المتحدة (1)».

(51) المصدر نفسه.

(52) انظر التفاصيل عن هذا «المشروع»، في: سيار الجميل، «بناء الدولة العربية الحديثة (2): مفهوم الدولة =

مشروعًا فدراليًا على غرار الولايات المتحدة الأمريكية، وليس مشروعًا كونفدراليًا، كالمشروع الذي طرحه لاحقًا نوري السعيد[53]، وهو أحد الذين تخرجوا من تحت عباءة فيصل، ولم يستطع نوري أن ينجح في مشروعه الاتحادي الكونفدرالي العربي، بل تحوّل إلى ما سمي «جامعة الدول العربية»[54].

2 ـ مبادئ فيصل لدولة الولايات المتحدة العربية[55]

لعل أبرز ما في مشروع فيصل بن الحسين يتمثل بتسميته باسم «الحكومات العربية المتحدة» (أو: الولايات العربية المتحدة) في إطار دولة عربية قومية اتحادية واحدة تشكلها كيانات ذاتية مرتبط بعضها ببعضها الآخر ضمن الإطار الفدرالي الذي يعمل بالآلية الإدارية اللامركزية والمعروف باسم (Etats Federaux)، وتتباين بنيتها حسب البيئات والأقاليم والطبائع والعادات والتقاليد والتواريخ والمواريث وتعدد الأقليات وتنوع الخصوصيات والمؤثرات الطبيعية والاجتماعية والجغرافية والمناخية[56].

ولما كانت هناك ثمة تباينات وتجانسات عند العرب، فقد أسس فيصل مفهومًا جديدًا من المبادئ قابلاً للتطور إلى مشروع سياسي وأيديولوجي للتنفيذ من أجل تحديد مسار الدولة العربية آخذًا في الحسبان: المفهوم الذي كان سائدًا في التفكير السياسي الحديث عن الدولة المعاصرة التي تصنف إلى صنفين:

أولهما، دولة موحدة تؤلفها حكومة منفردة واحدة لا تقبل الانقسام ولا التجزؤ نظرًا إلى تجانس العناصر الداخلية، ومكتملة تامة في علاقاتها السياسية الخارجية.

ثانيهما، دولة مركبة تؤلفها حكومات مشتركة (فدرالية) تقف على رأسها زعامة حاكم دستوري واحد (ملك/رئيس/زعيم)، ولكن شرط أن يتضمن هذا التأليف اتحادًا عربيًا كاملاً ودائمًا.

= العربية: رؤية تحليلية في مشروع فيصل الأول: دولة الولايات العربية المتحدة،» بحث ألقي في الحلقة البحثية التي عقدتها جامعة آل البيت بالأردن يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر 1998. ونشر في كتاب: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، تحرير هند أبو الشعر (عمّان: منشورات جامعة آل البيت، 1999).

(53) فالديمار غالمان، **عراق نوري السعيد**، دراسة وتقديم وتحقيق سيار الجميل، ط 1 المحققة (بغداد: دار موزيبوتيميا، 2015)، ص 52 ـ 53.

(54) انظر التفاصيل، في: سيار الجميل، **جامعة الدول العربية: شيخوخة مشروع عربي فاشل** (بيروت: دار العرب للنشر والتوزيع؛ الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، 2015)، ص 15 ـ 29.

(55) التفاصيل التاريخية ستأتي لاحقًا في فصل كامل من هذا الكتاب.

(56) المصدر نفسه.

وهناك أمثلة تاريخية ومعاصرة لطبيعة الدولة الاتحادية في عدد من دول أوروبا وأمريكا، ولكن الموضوع المشروع ينتهي بالقول: إن نوع الحكم في دواخل البلاد (أو: الولايات) العربية المتحدة، لا بد أن يكون على قاعدة تأسيسية من اللامركزية (وفق ما صرح به فيصل في خطابه الأخير) بقوله: «إنني أعلم يقينًا، أن القسم الجنوبي من البلاد السورية لا يدار كما يدار الساحل ولا يدار الساحل كما يدار داخل سورية مثلاً وحوران وجبل الدروز والمنطقة الجنوبية»، إذ يجد أن أضرارًا ستقع لا محالة من جراء تطبيق قانون مركزي واحد على بلاد مترامية الأطراف تختلف في تنوعاتها ومستوياتها. فالقانون الذي ينطبق على بيروت وجبل لبنان ودمشق مثلاً لا يمكن تطبيقه على حوران وجبل الدروز وعرب البادية. وإن من أبرز العوامل التي كانت قد ألحقت الخراب بالنظام العثماني وأدت إلى انهيارها تطبيقها التنظيمات المركزية ضمن آلية القانون الواحد الذي طُبق على إسطنبول وضواحيها المتطورة والذي طبق في الوقت نفسه على أطراف الدولة وأقاليمها المتخلفة[57].

وماذا أيضًا؟

3 ـ اتحاد دستوري مدني للجميع

لم يغفل فيصل الأول أبدًا عن حقوق الأقليات التي كانت تشغل تفكيره في السياسة الداخلية، فاهتم بها اهتمامًا كبيرًا، على أن درجة هذه الحقوق ونسبتها لا تتعين إلا بالقانون الأساسي (الدستور) الذي ينظمه مجلس المؤسسين المنتخب من أعيان البلاد ومفكريها. لقد دعا فيصل إلى عقد مؤتمر سوري عام للمذاكرة في شكل الإدارة الداخلية للحكومة السورية، على أمل أن يغدو ذلك المؤتمر أساسًا لمجلس المؤسسين أو كان هو بعينه. وقد أرجأ العمل بتأسيس الاتحاد بين الحكومات العربية وتعيين روابطها وشد أواصرها وصلاتها فيما بينها بعد تصديق مؤتمر الصلح بباريس على استقلالها.

دعونا نسمع ما قاله فيصل في حفلة النادي العربي بحلب وهو يخطب وسط جمع غفير من المثقفين والموظفين قائلاً: «إنه لا يوجد من يقول إننا نحن العرب أو السوريين لا نتمكن من إدارة شؤوننا بأنفسنا، ربما يكون هذا حقًا وربما يكون باطلاً فيلزم أن نفهم

(57) المصدر نفسه، المجلد الأول: العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العدد 26، السبت 17 شعبان 1337هـ ـ 17 أيار/مايو 1919، «الحكومات العربية المتحدة (2)».

انظر أيضًا: «الخطاب التاريخي العظيم لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل المعظم في حفلة نادي العرب في مدينة حلب»، المصدر نفسه، المجلد الأول: العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العدد 35، الاثنين، 17 رمضان 1337هـ ـ 16 حزيران/يونيو 1919، ص 3 ـ 4.

من يقدم علينا أننا إذا تُركنا وشأننا نتولى أمورنا بأنفسنا ستتمكن من إثبات كفاءتنا وجدارتنا، فإذا أثبتنا ذلك فدعونا نسير في سبيل الأمم المتمدنة»[58]. وهنا يكرس فيصل مبدأ الاعتماد على النفس في تكوين الدولة الاتحادية التي كان يفكر فيها وفي تأسيسها في المشرق العربي. وهنا يكون فيصل قد سبق في تفكيره مصطفى كمال أتاتورك في تقديم الأخير لمشروعه في بناء الدولة التركية الحديثة التي انبثقت بعد قرابة أربع سنوات على مؤتمر الصلح بباريس، أي عام 1923 والتي بنيت كما نعرف على ستة مبادئ عدّت فيما بعد ثوابت أساسية للأيديولوجيا الكمالية في تركيا المعاصرة[59].

لعل أهم وأخطر ما ورد في مشروع فيصل بن الحسين ومفهومه للدولة العربية الاتحادية هو مبدأ «العلمنة» الذي لم يذكره بالاسم. لنقرأ فقرة من خطبته بحلب التي قال فيها: «نعلم أن فينا من هو في الأقلية ومن هو في الأكثرية بالنظر إلى المذاهب. وهو الأمر الذي ربما يقال أو يتصور أنه موضع اختلاف ويمكن أن يجعل بعض من يجهل حالة العرب سببًا للقول في أمر العرب ومستقبلهم. أما أنا فأقول لا أكثرية ولا أقلية لدينا ولا شيء يفرق بيننا، إنما نحن جسم واحد.. ولا شك أن أعمال الحكومة المؤقتة تدل على أن لا أديان ولا مذاهب فنحن عرب قبل موسى ومحمد وعيسى وإبراهيم، نحن عرب تجمعنا الحياة ويفرقنا الموت... وأؤمل أن كل سوري يكون عربيًا قبل كل شيء، وأؤمل أن كل من يتكلم بالعربية يشعر بمثل هذه العواطف التي أشعر بها. لا يحترمنا العالم المتمدن إلا إذا احترمنا أنفسنا واحترم بعضنا بعضًا، وإذا انقسمنا إلى أحزاب وشيع فإنه يستخف بنا وهو ينظر إلى الأديان كافة نظرًا واحدًا ولا يميز بين أمة وأمة. وأريد أن ينظر المجتمع العربي بعضه إلى بعض بهذا النظر...»[60].

أما المبدأ الآخر، فهو مبدأ «الاستقلالية» كما جاء في خطاب مساء السبت الموافق 28 حزيران/يونيو 1919 قائلًا: «كل عربي في صدره حب العربية يفضل الاستقلال ويرفض الاستعباد. فمما لا خلاف فيه أن كل ذي شعور حي يأبى أن تهتك حرمات وطنه...»[61].

---

(58) المصدر نفسه.

(59) للمقارنة، انظر: سيار الجميل، العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997)، ص 118 و295 ـ 321.

(60) انظر: «الخطاب التاريخي العظيم لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل المعظم في حفلة نادي العرب في مدينة حلب،» ص 4.

(61) انظر: «ملخص خطاب سمو الأمير فيصل الذي ألقاه مساء السبت 29 رمضان 1337هـ ـ 28 حزيران/يونيو 1919م،» في جريدة العاصمة (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العدد 40 الاثنين 9 شوال 1337هـ ـ 7 تموز/يوليو 1919، ص 3 ـ 4.

4 ـ خلاصة المبادئ والركائز الأساسية

نستخلص هنا المبادئ الأساسية لمشروع دولة فيصل العربية الاتحادية: الاتحادية العربية (المبدأ القومي والوطني) واللامركزية الإدارية (الأحكام الداخلية) والديمقراطية (ضمان حقوق الأقليات). والدستورية القانونية (الحقوق والواجبات والاعتماد على النفس). والعلمنة المدنية (بناء المجتمع المدني). والاستقلالية السياسية (الحياة الحرة: مصالح الأمة ومنفعة السلم العام).

إن أهم نقطة في «الدولة» التي أسسها فيصل أنه جمع كل التيارات والاتجاهات في حزمة بناء المؤسسات من دون أن يتخذ تيارًا واحدًا أو يلتزم جماعة واتجاهًا محددًا. إن الدولة ومؤسساتها التي بناها فيصل على مدى سنتين 1918 ـ 1920 قد استمرت مضامينها بالرغم من الوجود الفرنسي، وعلى أيدي رجال سوريين منهم من ذهب ليعمل في إمارة شرق الأردن، إذ اعتمد عليهم الأمير عبد الله بن الحسين وقد قدموا خدماتهم على أحسن وجه أمثال عادل العظمة ورشيد طليع، ومنهم من ذهب إلى نجد ليعمل في ظل عبد العزيز آل سعود، ومنهم من استقطبهم فيصل عام 1921 ليعمل في العراق في مختلف الميادين وخصوصًا في التعليم والمالية والطب مع بقاء البعض في لبنان[62].

ونجد الهجمة على فيصل لم تقتصر على الفرنسيين، بل شارك فيها الإنكليز أيضًا، وكانت بعض الصحف المصرية مثل جريدة **الكنانة**، كانت تروج مقالات الإنكليز بالطعن في فيصل بعد تمكنه وإعلان مشروعه، إذ نقلت ما نشرته جريدة **ستانس مان** الإنكليزية الصادرة في 28 نيسان/أبريل 1920 قولها: إن من الخطأ أن يترك الحلفاء للأمير فيصل البلاد التي يطمع فيها على شواطئ سورية، لأن الأمير نفسه يرضى بدون ذلك.. وقد ردّت عليهم جريدة **القبلة** في مكة قائلة: على إثر ذلك أرسلنا نحن إلى جريدة **الإجيبشيان غازيت** مقالة في اللغة الإنكليزية، ونشرت القبلة تعريبها قائلة: «إن البلاد ليست لفيصل يتصرف فيها تصرف التاجر بالسلعة، بل هي لأهلها الذين لا يتنازلون عن شبر منها مهما كلفهم الأمر. وأما فيصل فهو رجل من الأمة أدى لها خدمات لم يؤدها رجل سواه، فوضعت فيه ثقتها وأنابته عنها للدفاع عن قضيتها العادلة أمام الدول...» والجواب طويل[63].

---

(62) Adel Beshara, *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and Identity* (New York; London: Taylor and Francis, 2012).

(63) جريدة **القبلة** (مكة المكرمة) العدد 386، يوم الاثنين 6 رمضان 1338هـ الموافق 24 أيار/مايو 1920م.

الاستنتاجات

إن أمورًا جديدة، ورؤى متنوعة قدمتها تجربة الحكومة العربية في الشام 1918 ـ 1920، إذ نجحت أولاً من خلال رسمها في العالم تأسيس أول حكومة عربية جديدة عقب الحرب العظمى على الأرض وتحقيق حلم العرب بعيدًا من الشعارات، وقد غاب عن هذه «التجربة» لورانس وغيره... إذ تميزّت التجربة بوجود ساسة وضباط عرب اتصفوا بجرأتهم في الإدارة والتحولات... ولكن التجربة التاريخية نجحت في الكشف عن بعض الأمراض المزمنة لدى العرب، وخصوصًا بحث العصبيّات، وتبلور الحساسيات القبلية، والجهوية، والمذهبية التي كانت عاملاً مضادًا للتجربة القومية وتوظيف تلك الحساسيّات من جانب الإنكليز والفرنسيين. ومن طرف آخر، طرحت التجربة رؤية تاريخية، إذ كشفت معلومات جديدة عن الدور الخارجي في إطار الصراع البريطاني ـ الفرنسي ضمن مسلسل من المؤتمرات لتقسيم النفوذ، وكانت النتيجة اغتيال تجربة عربية رائدة ولدت وماتت بعد مرور سنتين فقط وقبل مئة سنة بالضبط. الأمر الآخر أن تطورًا كبيرًا قد حصل في الفكر القومي العربي ولكن لم تنجح التجربة في ترجمته على أرض الواقع، إذ أثبتت الأحداث أن السنة الأولى كان العمل فيها ضمن مبادئ جمعية العهد القومية، ولكن في السنة الثانية من التجربة تحوّل العمل فيها من العروبة إلى أن تكون قضية سورية والسعي للمؤتمر السوري العام.

ويبدو واضحًا أن العرب لم يتعلّموا من تلك التجربة التي أجهضت بعد سنتين من ولادتها، وكان حجم المؤامرة الاستعمارية كبيرًا جدًّا ضدّها، فضلاً عن أن جملة عوامل داخلية قد وقفت ضدّها، وبالأخص من جانب عملاء فرنسا، وأعتقد أن المجتمع لو بقي ملتفًّا من حولها لبقيت تفاوض المستعمرين بقوة، ولكن خذلت مع ضعف الجيش العربي، وبالرغم من النصائح التي أسديت بعدم الوقوف أمام جيش غورو الفرنسي، ولكن يوسف العظمة ولفيف من أبناء سورية الذين لم يستسلموا للإنذار الفرنسي وواجهوا الفرنسيين ببطولة منقطعة النظير في ميسلون التي استشهد فيها نحو 800 شهيد في غضون ساعات قلائل. وأعتقد أنّ موقف يوسف العظمة وأصحابه الميامين كان رمزيًا بطوليًا ليسجل علامة وطنية فارقة في التاريخ، وكان موقفًا انتحاريًا في الوقت نفسه. وكنت أتمنى على العرب في القرن العشرين، أن يتعلّموا كثيرًا من دروس تلك التجربة الرائعة، ويعالجوا خطواتهم العربية بأنفسهم في ضوء اتّساع حجم التحديات التاريخية التي جسّدها المشروع الصهيوني ضدّهم.

الفصل الرابع

التنّين:
مؤتمر فرساي للسلام
اتفاقية فيصل ـ وايزمان 1919:
وقعّها تحت الضغوط وأفشلها شرطه التعجيزي

أولًا: ما هو مؤتمر فرساي للسلام عام 1919؟

كان مؤتمر باريس للسلام من أكبر المؤتمرات في تاريخ العالم الحديث، المعروف أيضًا باسم مؤتمر فرساي للسلام، أو كما أُطلق عليه بمؤتمر الصلح، وهو الاجتماع الذي عقد في 1919 و1920 من جانب الحلفاء المنتصرين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى من أجل وضع شروط السلام للقوى المركزية المهزومة. شارك في المؤتمر قادة ودبلوماسيون وممثلون لشعوب من 32 دولة وجنسية، وكانت قراراته الرئيسية تقضي بإنشاء عصبة الأمم وتوقيع معاهدات السلام الخمس مع الدول المهزومة. ومنح الممتلكات الألمانية والعثمانية في الخارج على أنها «تفويضات» تذهب بصورة رئيسية إلى كل من بريطانيا وفرنسا، وفرض تعويضات على ألمانيا، ورسم حدود وطنية جديدة، وولادة كيانات سياسية في بعض الأحيان من خلال الاستفتاءات، من أجل نشوء أمم قومية تعكس الحدود العرقية بشكل أوثق.

وكانت النتيجة الرئيسية في الخروج من معاهدة فرساي تصفية الحساب مع ألمانيا. فوضعت المادة 231 من المعاهدة التي تكرس ذنب اندلاع الحرب باسم «عدوان ألمانيا وحلفائها». وقد أثبت هذا الحكم تاريخيًا أنه مهين جدًا لألمانيا، ممهدًا الطريق لتعويضات

باهظة الثمن كان من المفترض أن تدفعها ألمانيا (لم تدفع سوى جزء صغير قبل دفعها الأخير في عام 1931). وسيطرت الدول الخمس الكبرى (فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، واليابان والولايات المتحدة) على المؤتمر. وكان «الأربعة الكبار» الذين لعبوا بمصائر الشعوب والأمم، هم رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو (1841 ـ 1929)، ورئيس الوزراء البريطاني دايفيد لويد جورج (1863 ـ 1945)، والرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (1856 ـ 1924)، ورئيس الوزراء الإيطالي فيتوريو إيمانويل أورلاندو (1860 ـ 1952) الذين التقوا بصورة غير رسمية 145 مرة واتخذوا جميع القرارات الرئيسية قبل التصديق عليها[1].

بدأ المؤتمر في 18 كانون الثاني/ يناير 1919. وفي ما يتعلق بنهايته، لاحظ المؤرخ مايكل نيبرغ أنه «على الرغم من أن كبار رجال الدولة توقفوا عن العمل شخصيًا في المؤتمر في حزيران/يونيو 1919، فإن عملية السلام الرسمية لم تنته حقًا حتى تموز/يوليو 1923، عندما تم توقيع معاهدة لوزان»[2].

ثانيًا: فيصل في فرنسا وبريطانيا قبل المؤتمر

أسجل الآن ما كتبه تحسين قدري المرافق العسكري للأمير فيصل بن الحسين في مذكراته، فهو شاهد قريب على ما حدث، قائلاً: «لقد استُقبل الأمير فيصل كأمير حجازي، وفرنسا كانت تعارض كثيرًا دخول الأمير مؤتمر فرساي... وأنني ذات يوم ذكّرت لورانس هذا وكنت قلقًا للغاية فقلت له أين وعودك يا لورانس؟ أهذا هو نتيجة كفاح العرب معكم...! فأجابني: أن الأمير سيدخل مؤتمر السلام هذا، إذا كانت الحكومة الإنكليزية لها وجود.. والإفرنسيين أكثروا من الاحتفال بالأمير الحجازي، وفكروا أنهم بذلك يؤثرون عليه كما كانوا يفعلون مع (باي تونس)[3]. وفي الاحتفال وجدت الأمير ينهرني ويقول: هيا لنخرج ونذهب من هنا..! هل الفرنسيين يفكرون أنني جئت إلى هنا للتمتع بالراقصات والونسة؟ لا..! إنهم يغلطون في ذلك، وكان منفعلاً جدًا، وترك الاحتفال غاضبًا، وقد بهت جميع الحاضرين عندما غادر الأمير الحفل»[4].

---

(1) Michael S. Neiberg, *The Treaty of Versailles: A Concise History* (New York: Oxford University Press, 2017), p. ix.

(2) Andrew J. Crozier, «The Establishment of the Mandates System 1919 - 25: Some Problems Created by the Paris Peace Conference,» *Journal of Contemporary History*, vol. 14, no. 3 (1979), pp. 483 - 513.

(3) هو محمد الناصر بن محمد باي أو محمد الناصر باي أو محمد الناصر باشا باي أو الناصر باي هو الباي الخامس عشر من البايات الحسينيين الذين حكموا تونس، حكم من 11 مايو /أيار 1906 إلى 8 تموز/يوليو 1922.

(4) تحسين قدري، **مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول**، دراسة وتحقيق سيار الجميل (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 178.

كان الأمير كثير الاهتمام في نجاح الثورة العربية، وسماع أول صوت للثورة والأمة العربية في طلب استقلالها... ولقد علمت بريطانيا بأن من العيب والعار أن تترك عهودها إلى الملك حسين، وأن تترك الأمير فيصل من دون أن تساعده للدخول إلى مؤتمر السلام، الأمر الذي ربما يؤثر في سمعتها، وبالأخص أن الجنرال أللنبي كان قد خطب في «الغيلد هول»[5] في لندن عن أهمية مساعدة الأمير فيصل، وقواه النظامية والبدوية، في ظفره في جبهة القتال. كل هذا كان يحاك في لندن، وكان لورانس يرغب في تطمين مطالب العرب، ودخول الأمير إلى مؤتمر فرساي ظافرًا. وكل ذلك كان من أجل أن يلقى الستار على مطالب الملك حسين والأمير فيصل في العهود المعطاة للعرب في استقلال بلادهم من دون أي شرط، وطبعًا معاهدة سايكس بيكو كانت موجودة، وكان الفرنسيون يطالبون بتنفيذها بإلحاح[6]. أذكر ونحن في باريس، أقام المسيو بيشون وزير الخارجية[7] حفلة غداء على شرف الأمير وسمعته يذكر إلى ممثل بريطانيا: هل أنتم مسرورون الآن ونحن نكرم الأمير فيصل...؟!

الغريب أن الأمير في باريس، لم يمر له زمن إلا واشتغل فيه، ولم تؤثر فيه ظرافة باريس وحِسانها ومعالم المدينة فيها، فكل همه كان كيف يتمكن من إفهام الغرب والأمريكان عن مطالب العرب في نيل استقلالهم من بعد ثورتهم الكبرى، وقرر فيصل الذهاب إلى لندن للاتصال بالبريطانيين، وأخذ الوثائق التي كانت معقودة بينهم وبين أبيه الملك حسين. وفي 9 كانون الأول/ديسمبر 1918، ذهبنا إلى بولوني[8] ومنها إلى دوفر[9]، وجاء لورانس ليكون بمعية الأمير واستقبل استقبالاً رسميًا، ونزلنا ضيوفًا في فندق كارلتون[10].

---

(5) Guildhall: هو مبنى تاريخي فخم مدرج من الدرجة الأولى في مدينة لندن، يقع قبالة غريشام وشوارع باسينغهال، وقد تم استخدام المبنى كقاعة بلدية لعدة مئات من السنين، ولا يزال المركز الاحتفالي والإداري لمدينة لندن ومؤسستها. إن مصطلح «غيلدهول» يشير إلى كل من المبنى وإلى الغرفة الرئيسية، وهي قاعة كبيرة تمثل روحها من القرون الوسطى. ويشار إلى المبنى تقليديًا باسم غيلدهول، ابدأ «ذي» غيلدال.

(6) قدري، المصدر نفسه، ص 178 ـ 179.

(7) هو ستيفن بيشون (Stephen Pichon) وزير الخارجية الفرنسية بين 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1917 و20 كانون الثاني/يناير 1920، وكان صحافيًا ودبلوماسيًا وسياسيًا في الجمهورية الفرنسية الثالثة.

(8) بولوني أو (Boulogne - sur - Mer): مدينة ساحلية فرنسية معروفة تقع على الساحل الشمالي لفرنسا. وفيها ميناء يقابل السواحل البريطانية على بحر المانش.

(9) دوفر (Dover): مدينة إنكليزية تقع على مضيق بحر المانش وهي ميناء بريطانيا الرئيسي نحو أوروبا، تقع في مقاطعة كينت، في جنوب شرق إنكلترا. وهي تواجه فرنسا عبر دوفر، في أضيق جزء من القناة الإنكليزية، جنوب شرق كانتربري.

(10) قدري، المصدر نفسه، ص 179.

وقابل الأمير الملك جورج الخامس[11] بلباسه العربي، وكترجمان كان معه لورانس أيضًا بلباسه العربي، كان لورانس يحب الظهور والشهرة، ولكن من دون أن يظهرها هو بنفسه. طالب الأمير الحكومة البريطانية بصور عن عهودها للملك حسين، وكانوا يماطلون بها ولم يجيبوه عن مطالبه إلا بالمماطلة، وكان لويد جورج[12] قد توافق مع كليمنصو[13] في

---

(11) الملك جورج الخامس (George V) (1865 ـ 1936)، دعي رسميًا بملك بريطانيا العظمى وآيرلندا، وإمبراطور الهند 1910 ـ 1936، وهو أحد أبناء الملك إدوارد السابع وحفيد ملكة بريطانيا الملكة فيكتوريا. أحبه شعبه كثيرًا واحترموا جهوده كونه عُرف بضوابطه الصارمة والتزامه بواجباته وأدائه للمسؤولية على نحو مستقيم، وصلت بريطانيا في عهده إلى أوج قوتها وخرجت منتصرة في الحرب العالمية الأولى. ويبدو للمؤرخ أن الملك جورج الخامس بالرغم من كونه يملك ولا يحكم، فقد كان لآرائه وزن كبير في الأحداث الداخلية وتأثيراتها في الدولة والسياسات البريطانية خلال عهده الذي تفاعلت فيه جملة تيارات وصعود بعض الأيديولوجيات كالشيوعية والاشتراكيات والطوباويات والنزعات الفاشية وبدء الحركات الاستقلالية التي أخذت العالم إلى تاريخ من نوع آخر. انظر: Harold Nicolson, *King George the Fifth: His Life and Reign* (London: Constable and Co, 1952), pp. 34 - 98, and Kenneth Rose, *King George V* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1983), pp. 19 - 78.

(12) هو دايفيد لويد جورج (David Lloyd George) زعيم سياسي بريطاني 1863 ـ 1945. من قادة حزب الأحرار الليبرالي البريطاني. انتخب رئيسًا للوزراء خلال المرحلة الثانية من الحرب العالمية الأولى، وحكم بين 7 كانون الأول/ديسمبر 1916 و19 تشرين الأول/أكتوبر 1922. كان وزيرًا للخزانة (1908 ـ 1915)، وله شخصية قوية، وأدخل الكثير من الإصلاحات التي أرست أسس دولة الرفاهية الحديثة في بريطانيا. تميز بنشاطه في رئاسته للحكومة الائتلافية أيام الحرب وما بعد الحرب (1916 ـ 1922)، وكان لاعبًا رئيسيًا في مؤتمر باريس للسلام عام 1919، وكان له دوره الذي أعاد ترتيب أوروبا بعد هزيمة القوى المركزية. وبوصفه رئيسًا للوزراء، فضل لويد جورج المحافظين في ائتلافه إبان انتخابات عام 1918، وترك الحزب الليبرالي أقلية. أصبح زعيم الحزب الليبرالي في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، ولكن تفاقمت الانقسامات فيه بحلول الثلاثينيات فأصبح الرقم المهمش غير الموثوق به على نطاق واسع. وتاريخيًا يعد لويد جورج، بعدما صوت له، ثالث أكبر رئيس وزراء بريطاني في القرن العشرين في استطلاع للرأي، انظر: Emyr Price, *David Lloyd George: Celtic Radicals* (Cardiff: University of Wales Press, 2006), pp. 12 - 56, and Martin Pugh, «Lloyd George, David: 1st Earl Lloyd - George,» in: John Cannon and Robert Crowcroft, eds., *The Oxford Companion to British History*, 1st Revised ed. (New York: Oxford University Press, 2009), pp. 45 - 8.,

(13) جورج بنجامين كليمنصو (Georges Benjamin Clemenceau) (1841 ـ 1929) من رجالات فرنسا تمتع بمواصفات رجل دولة، كان صحافيًا وسياسيًا درس الطب ولم يكمله. كان قوي الحجة والشخصية في زعامته السياسية فانتخب مرتين لرئاسة الحكومة الفرنسية، إذ حكم للحقبة 1906 ـ 1909، ثم حكم للمرة الثانية إبان مرحلة حرجة سياسيًا وحربيًا 1917 ـ 1920، إذ قاد بلاده ببراعة وذكاء خلال الحرب العالمية الأولى. ليغدو أحد أقوى المؤسسين لمعاهدة فرساي 1919 كونه أحد أقوى المنتصرين. ذهب إلى الولايات المتحدة عام 1865، إذ مارس الصحافة والتعليم حينًا، وتزوج من أمريكية، وعاد إلى فرنسا عام 1869 وانتخب رئيسًا لبلدية مورنمارتر (1870 ـ 1871)، ثم انتخب نائبًا (1876 ـ 1893)، وأصدر صحيفة راديكالية في باريس عام 1880 بعنوان العدالة، هاجم فيها بعنف الوزراء لانعدام كفاءتهم، فكانت كتاباته مؤثرة جدًا. أصبح عضوًا في مجلس الشيوخ (1902 ـ 1920)، ووزيرًا للداخلية 1906، وغدا رئيسًا للوزراء للمرة الأولى (1906 ـ 1909)، وكان له إنجازه عندما نفذ الفصل بين الكنيسة والدولة، وأنزل الجيش من ثكناته لفض الإضرابات فكان أن خسر تأييد الاشتراكيين، وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1917 عينه الرئيس بوانكاريه ثانية رئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع، فألف وزارة ائتلافية (لقبت بالاتحاد المقدس)، حتى سنة 1920، في عام 1919. وبعد انتصار الحلفاء على دول المحور، ترأس كليمنصو مؤتمر الصلح في قصر فرساي بباريس، معارضًا أفكار الرئيس =

إلحاق الموصل بالعراق مقابل حرية العمل لفرنسا في سورية. وقد علم الأمير فيصل بهذه الخدعة الإنكليزية، ولم يرد[14] أن يضيع الفرصة في إيجاد دولة عربية كأساس لاستقلال جميع البلاد العربية في المستقبل، ووضع هذه السياسة أمام مؤتمر الصلح، واتصل بالبريزيدان[15] ولسن[16] وهيوز[17]. وكانوا فعلاً يساعدونه على هذه السياسة[18].

= الأمريكي وودرو ويلسون، ودافع عن سلامة فرنسا وأمنها وهيبتها في العالم مشيرًا إلى مبادئ الثورة الفرنسية، كما دافع عن الروح الاستعمارية والممتلكات الفرنسية، لكنه هزم في انتخابات 1919. بسبب تزايد خصومه الكاثوليك والملكيين والاشتراكيين وغيرهم.. اعتزل كليمنصو الحياة السياسية، وعاش في كوخ صغير يطل على الأطلسي، وتوفي في 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1929 عن 88 عامًا. انظر: Edgar Holt, *The Tiger: The Life of Georges Clemenceau: 1841–1929* (London: Hamilton, 1976), pp. 22 - 45.

(14) هكذا وردت في الاصل.

(15) بالبريزيدان: هكذا وردت في نص المذكرات، والقصد منها الرئيس بالإنكليزية، فهي من President.

(16) توماس وودرو ويلسون (Thomas Woodrow Wilson) (1856 - 1924) سياسي ومنظّر وأكاديمي أمريكي شغل منصب رئيس الولايات المتحدة 28 للحقبة (1913 ـ 1921). ولد ونشأ ودرس في أمريكا، ونال الدكتوراه بالعلوم السياسية في جامعة جونز هوبكنز، وعمل باحثا واستاذا في مؤسسات بحثية وعلمية قبل رئاسته لجامعة برنستون، (1902 ـ 1910). ترشح عن الحزب الديمقراطي في انتخابات نيو جيرسي 1910 وأصبح الحاكم 34 للولاية (1911 ـ 1913). ثم ترشح ويلسون في انتخابات الرئاسة، وفاز بالمنصب 1912 وكان ويلسون يمثل خطوة تاريخية تقدمية عند بدايات القرن العشرين. حقق عدة إنجازات منها إشرافه على إقرار السياسات التشريعية التقدمية، ومن بين سياساته الجديدة أيضًا قانون الاحتياطي الفدرالي، وقانون لجنة التجارة الاتحادية، وقانون كلايتون لمكافحة الاحتكار، وقانون قروض المزارع الاتحادي. وقانون الإيرادات لسنة 1913، ومنجزات وقوانين أخرى وحافظ ويلسون على سياسة الحياد عندما اندلعت الحرب العظمى 1914، حتى دخولها عام 1917، وأصدر ويلسون مبادئه الشهيرة من أجل السلام 1918، وسافر إلى باريس 1919 بعد إقرار الهدنة، للمشاركة في مؤتمر فرساي، وكان ويلسون أحد المشجعين على تأسيس عصبة الأمم وإبرام معاهدة فرساي. منح جائزة نوبل للسلام 1919. قام ويلسون بجولة وطنية في عام 1919 ترويجًا للمعاهدة، وقد أصيب بجلطة دماغية حادة. وخصوصًا عندما رفض مجلس الشيوخ هذه المعاهدة. فكان أن عزل ويلسون نفسه في البيت الأبيض وضمر نفوذه. وضع ويلسون خطة لإعادة انتخابه لولاية جديدة، فأوقف المؤتمر الوطني الديمقراطي عام 1920، ولكن الحزب تغاضى عن سعي الرئيس للترشح لولاية ثالثة. انظر: Lloyd E. Ambrosius, *Woodrow Wilson and American Internationalism* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2017), pp. xii and 120 - 146, and John Milton Crooper, *Woodrow Wilson: A Biography* (New York: Knopf, 2009).

انظر أيضًا: August Heckscher, *Woodrow Wilson* (Norwalk, Connecticut: Easton Press, 1991), pp. 12 - 19 and 67 - 69.

(17) تشارلز إيفانز هيوز الأب (Charles Evans Hughes) (1862 ـ 1948): محام وأكاديمي ورجل قانون أمريكي معروف وسياسي جمهوري لامع من ولاية نيويورك، نصّب رئيسا للمحكمة العليا الحّادي عشر. وكان أيضًا الحاكم 36 لولاية نيويورك، والمرشح الجمهوري للرئاسة في انتخابات 1916، ونصّب وزيرًا للخارجية الأمريكية وتسلسله 44. سليل مهاجرين من مقاطعة ويلز. فاز في انتخابات حاكم ولاية نيويورك، وشغل هذا المنصب بين 1907 ـ 1910. كان تقدميًا على الطريقة الليبرالية، وكان وراء تشريع قانون مورلاند. وفي انتخابات 1916 الرئاسية، تنافس مع ويلسن ففاز الأخير، وفي انتخابات 1920، تنافس مع وورن هادينغ ففاز الأخير الذي عرض عليه حقيبة الخارجية فقبلها هيوز، وبقي وزيرًا للخارجية حتى 1925، وفي عام 1930، نصّب لقيادة المحكمة العليا. وتقاعد هيوز عام 1941 وتوفي في 1948. انظر: Clare Cushman, *The Supreme Court Justices: Illustrated Biographies, 1789–1995*, 2nd ed. (London; Thousand Oaks: Congressional Quarterly Books, 2001), and Betty Glad, *Charles Evans Hughes and the Illusions of Innocence: A Study in American Diplomacy* (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1966).

(18) قدري، **مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول**، ص 180 ـ 181.

ثالثًا: مذكرة فيصل إلى مؤتمر فرساي

غالبًا ما يشار إليه باسم «مؤتمر فرساي»، ولكن تم توقيع المعاهدة الأولى فقط هناك، أي في القصر التاريخي بفرساي، وصدرت عن المؤتمر قرارات مصيرية تخص عدة شعوب ودول في العالم، وكان لكل من بريطانيا وفرنسا الدور التاريخي في إصدار تلك القرارات بباريس. لحقت بهذا المؤتمر عدة مؤتمرات، مع صدور عدة اتفاقيات أسست لنظام دولي على امتداد القرن العشرين. لقد حضر العديد من الشخصيات المهمة من بعض البلدان العربية، أمثال سعد زغلول من مصر، وباي تونس وغيرهما مع بعض المطارنة، وبقوا خارج قاعة المؤتمر، إذ لم توجّه الدعوة الرسمية للحضور والمشاركة إلا للأمير فيصل بن الحسين كي يتكلّم نيابة عن أبيه الشريف حسين بن علي وتوضيح مطالب العرب. وصل فيصل إلى باريس، بعد مغادرته دمشق إلى بيروت، ومنها انطلق على ظهر بارجة حربية بريطانية وصلت إلى ميناء مرسيليا الفرنسي في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1918، فكان أن قضى مع مرافقيه في فرنسا عشرة أيام، زار خلالها عدة مدن فرنسية، وزار بعض ميادين الحرب.

وفي مساء يوم 9 كانون الأول/ديسمبر 1918، غادر فيصل إلى العاصمة البريطانية لندن، وبقي فيها حتى 7 كانون الثاني/يناير 1919، وعاد منها إلى باريس لحضور المؤتمر. لم تكن فرنسا راضية عن حضوره ومشاركته[19]، ولكن تمّ إدخاله إلى قاعة المؤتمر وإلقاء خطابه بضغوط بريطانية، ولكن بعدما نصح بأن يقبل بسيطرة فرنسا على سورية، من دون أن يعلن رفضه لها أو تنديده بها كون بريطانيا غير مستعدة لإذكاء الخصومة مع الفرنسيين حول مشكلة سورية. وفي مواجهة المطالبات والسندات المتضاربة بين البريطانيين والفرنسيين، فعل البريطانيون ما يفعلونه بشكل يحفظوا به ماء وجههم من تنصلهم من وعودهم للعرب، إذ تم الاحتفاظ بالقوات في سورية على الرغم من تسليم سورية للآخرين والتنكيل بحكومة فيصل العربية في دمشق. وقد استخدموا الوقت في المناورة ضد المطالبات الفرنسية. وتقلب لويد جورج على مخططات الاستيطان المختلفة. إذ كانت العلاقات مع فرنسا في خطر وشبه حرب باردة بين الحلفاء على الغنائم. وبحلول 21 أيار/مايو 1919، أعرب كليمنصو عن معارضته الكاملة للخطط البريطانية[20].

(19) David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (London: Macmillan 1989), pp. 165 - 169 and 178 - 188.

(20) Margaret MacMillan, *Paris 1919: Six Months That Changed the World,* foreword Richard Holbrooke (London: Random House Trade Paperbacks, 2003), pp. 78 - 87, 91 - 99 and 139 - 146.



تجمع هذه الصورة التي التقطت خلال الزيارة، الأمير فيصل بن الشريف حسين
ونوري السعيد ورستم حيدر ومرافقه تحسين قدري،
وفائز الغصين وتوماس إدوارد لورانس.

ألقى فيصل بن الحسين خطابًا مهمًا في قاعة المؤتمر وهو بزيّه العربي الذي أثار اهتمام الحضور والمشاركين، وكان لورانس يترجم له خطابه وتصريحاته. ومما جاء في الخطاب قراءته مذكرة أعدها خصيصًا للمؤتمر، فقال: «جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الإسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوبًا، معترفًا باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم. ويستثنى من هذا الطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة، وعدن وهي محمية بريطانية». ويستطرد قائلاً: «وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة، يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا، مثل تثبيت الدول القائمة فعلاً في تلك المنطقة،

وتعديل الحدود فيما بينها وبين الحجاز، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن، وإنشاء دولة جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها، وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة. وإني لأستند في مطلبي هذا على المبادئ التي صرح بها الرئيس ولسن (وهي مرفقة بهذه المذكرة) وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بسكان الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية»[21].

رابعًا: الاتهامات الخطيرة

لقد اتُّهم فيصل اتهامات ظالمة، وقد حاول البعض معالجتها باقتضاب ومحلية، وخصوصًا أفكار فيصل الأول بعمق في التاريخ المقارن أو الموازي، إذ كان لا بد من تحليل كل الآراء المضطربة لما سمِّي «اتفاقية فيصل ـ وايزمان» التي تناولها عدد من الباحثين والمؤرخين[22] الذين لم أجد هناك نقدًا تاريخيًا للأسف لما ورد في أعمالهم سواء بالعربية أم الإنكليزية أم العبرية وما وظفه المؤرخون الصهاينة من أجل تثبيت حقوق وهمية باسم فيصل. وعلى الرغم من معالجة واحد أو اثنين من المؤرخين العرب مثل هذا «الموضوع» الخطير، إلا أن تأثير ذلك كان قليلاً في الثقافة العربية السائدة، كما أن الاعمال العربية لم يلتفت إليها أغلب المؤرخين في العالم.

1 ـ اتفاقية أُقحمت في التاريخ

كانت قد أُقحمت هذه «الاتفاقية» على التاريخ تحت عنوان «اتفاقية فيصل ـ وايزمان» من جانب الصهاينة، وقيل أنها قد وقعت بين العرب والصهاينة يوم 3 كانون الثاني/يناير 1919، أي أنها موقعة باسمَي الأمير فيصل بن الحسين، وكان أبوه الشريف الحسين ملك مملكة الحجاز القصيرة العمر، وحاييم وايزمان (Chaim Weizmann) (1874 - 1952)[23]

(21) نص «الخطاب» زودتني به ضمن أوراق محب الدين الخطيب الدكتورة خيرية قاسمية رحمها الله منذ عام 1998. وراجع ما كتبه كل من رستم حيدر وعوني عبد الهادي في مذكراتهما.

(22) كان في مقدمتهم محمد مظفر الأدهمي. انظر: «اتفاقية فيصل ـ وايزمان ـ لورانس،» **المؤرخ العربي**، العدد 23 (1983).

(23) حاييم وايزمن كان زعيمًا صهيونيًا ورجل دولة إسرائيلي من المؤسسين، خدم رئيسًا للمنظمة الصهيونية ولاحقًا كان أول رئيس لإسرائيل. انتخب في 16 شباط/فبراير 1949، وخدم حتى وفاته عام 1952. وكان وايزمان هو الذي أقنع حكومة الولايات المتحدة بالاعتراف بدولة إسرائيل التي أُسست حديثًا. كان وايزمان أيضًا عالمًا كيميائيًا مشهورًا، يُعد «الأب المصنّع» للتخمير الصناعي، إذ طور عملية تخمّر الأسيتون ـ البيوتانول ـ الإيثانول، التي تنتج =

الزعيم الصهيوني الذي تفاوض على وعد بلفور لعام 1917 مع الحكومة البريطانية، وقد وقعت قبل أسبوعين من بدء مؤتمر فرساي بباريس للسلام[24]، جنبًا إلى جنب مع رسالة كتبها تي. لورانس باسم الأمير فيصل إلى فيليكس فرانكفورتر في آذار/مارس 1919، كانت واحدة من وثيقتين استخدمهما الوفد الصهيوني في مؤتمر السلام بباريس ليجادلوا بأن الخطط الصهيونية المعدّة لفلسطين كانت تحظى بموافقة مسبقة من العرب[25].

2 ـ «لعبة» لم يمررها فيصل

تم تقديم «الاتفاقية» إلى الأمير فيصل في غرفته في فندق كارلتون في 3 كانون الثاني/يناير باللغة الإنكليزية، ولم يتمكن فيصل من قراءتها، إذ تم شرح محتوياتها لفيصل من قبل لورانس كمترجم وحيد، ولا يعرف كيف ترجم «النص» من جانب لورانس[26]. وقد وقّع فيصل الوثيقة في الجلسة نفسها، من دون سؤال مستشاريه الذين كانوا ينتظرونه في غرفة منفصلة، وكان بمنتهى الذكاء في خطوته هذه، إذ عجّل بوأد المشروع قبل عرضه على الآخرين والأخذ والرد حوله، وذلك من خلال اشتراطاته التي كتبها في مكان مبرز أي أنه أضاف تحذيرًا واضحًا باللغة العربية بجوار توقيعه[27]، بحيث رأى فيصل أن الاتفاق مشروط أن تكون فلسطين ضمن المنطقة العربية، وأن تتحقق مطالب العرب، ولكن اللعبة بانت واضحة بأن قدمت المنظمة الصهيونية الاتفاقية إلى مؤتمر باريس للسلام من دون سابق إنذار ومن دون إذن[28]. وبدا واضحًا أن فيصل الأول أراد بهذه اللعبة كشف المستور الذي تغطّي عليه كل من بريطانيا وفرنسا إزاء العرب. وقد وصف يوآف جيلبر الوثيقة بأنها «ذات قيمة دعائية فقط»، حيث سرعان ما أصبح واضحًا أن شروط فيصل لن تتحقق[29]، أي

= الأسيتون من خلال التخمير البكتيري. كانت طريقة إنتاج الأسيتون الخاصة به ذات أهمية كبيرة في تصنيع الوقود الدافع المتفجر مزودًا بذلك الحرب البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. أسس معهد سيف (Sieff) للأبحاث في ريهوفوت بإسرائيل (الذي أعيد تسميته لاحقًا معهد وايزمان للعلوم تكريمًا له)، وكان دوره فعالًا في إنشاء الجامعة العبرية في القدس. انظر عنه: Barnet Litvinoff, *The Essential Chaim Weizmann: The Man, The Statesman, The Scientist* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1982), pp. 23 - 47 and 112 - 119.

(24) Geoffrey Lewis, *Balfour and Weizmann: The Zionist, the Zealot and the Emergence of Israel* (London: A and C Black, 2009), pp. 67 - 9.

(25) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 189.

(26) Ibid., p. 188.

(27) Ibid., p. 189a.

(28) Ibid., p. 189c.

(29) Yoav Gelber, *Jewish - Transjordanian Relations 1921–1948: Alliance of Bars Sinister* (London: Routledge, 2014), p. 8.

بمعنى أن فيصل أدرك بأن لا قيمة أبدًا لهذه الاتفاقية التي فرض فيصل فيها شروطه. وقد اعتمد هذا الاتفاق على إيفاء مؤتمر السلام بالمطالب العربية وكذلك على امتثال العرب الفلسطينيين. لكن سرعان ما اتضح أنه لن يتم استيفاء أي من هذه الشروط. لذلك فقد اتفاق وايزمان ـ فيصل معناه السياسي وبقي وثيقة ميتة ذات قيمة دعائية فقط.

خامسًا: الخلفية التاريخية: وضع فلسطين

في الوقت الذي تمّ فيه الاتفاق العاجل، كانت قد سبقته (بصرف النظر عن وعد بلفور المشؤوم) كانون الثاني/يناير كل من مراسلات السير مكماهون ـ الشريف حسين واتفاقية سايكس ـ بيكو ورسالة هوغارث ورسالة باسيت وإعلان السبعة والإعلان الأنكلو فرنسي. ومن بين هذه كلها، تم نشر اتفاقية سايكس ـ بيكو للعامة من قبل البلاشفة عام 1917، وكان إعلان السبعة إضافةً إلى الإعلان الأنكلو فرنسي وثائق عامة. ولقد دعت اتفاقية سايكس ـ بيكو إلى «دولة عربية واحدة أو كونفدرالية للدول العربية... تحت حكم زعيم عربي». كما اقترح الفرنسيون والبريطانيون إدارة دولية في «المنطقة المركزية» (وهي منطقة تشمل القدس، كأصغر وحدة جغرافية من فلسطين المنتدبة)، التي تقرر أن يكون شكلها بعد التشاور مع روسيا، وبعد ذلك بالتشاور مع الحلفاء الآخرين «وممثلي شريف مكة»[30].

سادسًا: تنكر بريطانيا لوعودها

تبادل السير هنري مكماهون عدة رسائل مع والد الأمير فيصل، الشريف الحسين بن علي، شريف مكة عام 1915، وكان عضو الارتباط بين الطرفين في القاهرة ضابط موصلي اسمه شريف الفاروقي[31] الذي اعتمد عليه الشريف حسين، حيث وعد الشريف الحسين بالسيطرة على كل الأراضي العربية باستثناء «أجزاء من سورية» الواقعة غرب «أحياء دمشق، وحمص، وحماة وحلب». أما فلسطين، فتقع في الجنوب الغربي من هذه المناطق، ولم يتم ذكرها صراحة. وتم تخصيص تلك المنطقة اللبنانية الحديثة على ساحل البحر

---

(30) Antony T. Anghie, «Introduction to Symposium on the Many Lives and Legacies of Sykes - Picot,» *American Journal of International Law*, vol. 110 (2016), pp. 105 - 108.

(31) سيأتي ذكره لاحقًا.

المتوسط كجزء من الانتداب الفرنسي مستقبلاً[32]. ولكن بعدما وضعت الحرب أوزارها، تم التنازع على مدى الاستبعاد الساحلي بشدة. واحتج الشريف الحسين على أن عرب بيروت سيعارضون بشدة أن يكونوا منعزلين عن الدولة العربية أو عن المحيط العربي، لكنه لم يثر مسألة القدس أو فلسطين بين عامي 1916 و1920. وعليه، فقد فسرت الحكومة البريطانية هذه الالتزامات على أنها تشمل فلسطين في المنطقة العربية. ومع كل ذلك لعب البريطانيون لعبة أخرى، إذ جاء في كتاب تشرشل الأبيض عام 1922، أنهم أقحموا جدلاً أن فلسطين قد تم استبعادها[33].

سابعًا: اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور

على أساس تأكيدات السير هنري ماكماهون، بدأت الثورة العربية في 5 حزيران/ يونيو 1916، منطلقة ضد حكم الاتحاديين العثمانيين[34] ومع ذلك كله، فقد قام البريطانيون والفرنسيون بإبرامهم سرًا اتفاقية سايكس ـ بيكو في 16 أيار/مايو 1916[35]، وبموجبها قسمت هذه الاتفاقية الكثير من الأراضي العربية إلى مناطق نفوذ موزعة بين الطرفين، ووضعها تحت الإدارة البريطانية والفرنسية وسمحت بتدويل فلسطين[36]. ولما علم الشريف الحسين بهذا الاتفاق الذي تم تسريبه من جانب الحكومة الروسية الجديدة في كانون الأول/ديسمبر 1917، انتكس انتكاسة نفسية مريرة وأُحبط إحباطًا كبيرًا[37]، لكنه بدا راضيًا عن برقيتين مخادعتين أرسلتا إليه من السِّير ريجينالد وينغيت (Sir Reginald Wingate)، المفوض السامي لمصر، مؤكدًا له أن التزامات الحكومة البريطانية تجاه العرب كانت لا تزال سارية المفعول، وأن اتفاقية سايكس ـ بيكو لم تكن معاهدة رسمية[38].

---

(32) James, *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia* (London: Lawrence Little, Brown Book Group, 2010), p. 229.

(33) Barr, *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle That Shaped the Middle East* James (New York: Simon and Schuster, 2011), p. 60.

(34) Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley, CA: University of California Press, 1981), p. 78.

(35) Fred John Khouri, *The Arab - Israeli Dilemma* (Syracuse, NY: Syracuse University Press. 1985), pp. 8 - 10.

(36) Ibid.

(37) Suleiman Mousa, «A Matter of Principle: King Hussein of the Hijaz and the Arabs of Palestine,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 9, no. 2 (1978), pp. 183 - 194.

(38) Khouri, Ibid., p. 10.

صدم العرب وفوجئ العالم بعد نشر إعلان بلفور، فأرسل البريطانيون القائد المعروف دايفيد جورج هوغارث (David George Hogarth) (1862 - 1927)[39] لرؤية الشريف الحسين في كانون الثاني/يناير 1918 حاملاً رسالة مفادها أن «الحرية السياسية والاقتصادية» للسكان الفلسطينيين ليست موضع شك أبدًا[40]. وأفاد هوغارث أن الشريف الحسين «لن يقبل أبدًا بدولة يهودية مستقلة في فلسطين، ولكن لم يتم أبدًا إرشادي بتحذيره من أن بريطانيا كانت تتأمل مثل هذه الدول»[41]. ويشّوه إشعياء فريدمان الصورة التاريخية لرد فعل الشريف حسين من وعد بلفور عندما ذكر بأن الشريف الحسين لم يكن منزعجًا منه[42]، ولكن العكس كان هو الصحيح في محاولة عدة مؤرخين يهود تشويه مواقف الزعماء العرب. فلقد خضع كل من إيلي خدوري وفريدمان لمجادلات نقدية وأفحم قولهما بأن الشريف الحسين قبِل وعد بلفور[43]. وجادل تشارلز دي سميث بأن كلاً من فريدمان وإيلي خدوري يسيء تمثيل المستندات والوثائق التاريخية وينتهكان المعايير العلمية من أجل الوصول إلى استنتاجاتهما[44]. بينما يقول شناير إن المؤرخين سكبوا محيطات من الحبر تتبع ردود الفعل الأولية للشريف الحسين وأبنائه على وعد بلفور دون تسوية الجدل، مشيرًا إلى أن الشريف حسين اعتبر فلسطين أرضًا عربية[45]. وأدى القلق العربي المستمر بشأن نيات الحلفاء أيضًا خلال عام 1918 إلى الإعلان البريطاني إلى السبعة والإعلان الأنكلو ـ فرنسي، الذي وعد

---

(39) كان يعرف باهتماماته العلمية ويحمل الدكتوراه وله خبراته التاريخية والطبوغرافية في المناطق العربية، وعرف عنه أنه كان حارس متحف أشموليان، بأكسفورد في الحقبة 1909 ـ 1927. تم تكليف هوغارث بإدارته محمية المتطوعين في البحرية الملكية خلال الحرب العالمية الأولى، وعمل مع قسم الاستخبارات البحرية. وخلال عام 1916، كان مديرًا للمكتب العربي في القاهرة بالإنابة وهو حلقة الوصل مع لورانس، وله عدة كتب منشورة، ومنها كتابه عن الجزيرة العربية *(Arabia)*. انظر: «Hogarth, David George,» in: *Who's Who*, vol. 59 (1907), p. 855.

(40) Ibid.

قارن بـ: James Onley, *The Arabian Frontier of the British Raj* (New York: Oxford University Press, 2007), pp. 67 - 82.

(41) Sahar Huneidi, *A Broken Trust: Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians, 1920–1925* (London: I. B. Tauris, 2000), p. 66.

(42) Isaiah Friedman, *Palestine, a Twice - Promised Land?: The British, the Arabs and Zionism, 1915–1920* (London: Routledge, 2018), pp. 191 - 192.

(43) Ibid., p. 328.

قارن بـ: Elie Kedourie, *In the Anglo - Arab Labyrinth: The McMahon - Husayn Correspondence and its Interpretations, 1914–1939*, Cambridge Studies in the History and Theory of Politics (New York: Cambridge University Press, 1976), pp. 256 - 257.

(44) Charles D. Smith, «The Invention of a Tradition: The Question of Arab Acceptance of the Zionist Right to Palestine during World War I,» *Journal of Palestine Studies*, vol. 22, no. 2 (1993), pp. 48 - 61.

(45) Jonathan Schneer, *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab - Israeli Conflict* (London: Random House Trade Paperbacks 2012), pp. 67 - 69.

الأخير «بالتحرير الكامل والنهائي للشعوب التي طالما اضطهدها الأتراك، وإعداد حتى الحكومات والإدارات الوطنية التي تستمد سلطتها من الممارسة الحرة للمبادرة واختيار السكان الأصليين»[46].

ثامنًا: تمهيدًا للمؤامرة الصهيونية

1 ـ يلاحظ أن الأمير فيصل لم يذهب بنفسه إلى حاييم وايزمان، بل جاء الأخير إليه وفي ساعة حرجة قبيل انعقاد مؤتمر الصلح.

2 ـ يلاحظ في الصورة التي جمعتهما أيضًا بأن الأمير فيصل هو من يلبس أرديته العربية، وأن حاييم وايزمان قد تكلّف ليرتدي الغطاء والعقال العربي مداهنةً وتزلفًا من دون طلب من الأمير.

التقى وايزمان بالأمير فيصل لأول مرة في حزيران/يونيو 1918، خلال التقدم البريطاني من الجنوب ضد الإمبراطورية العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى. وبوصفه قائدًا لـ «اللجنة الصهيونية» المرتجلة، سافر وايزمان إلى جنوب شرق الأردن لحضور الاجتماع. وأكد وايزمان لفيصل أن «اليهود لم يقترحوا تشكيل حكومة خاصة بهم، لكنهم كانوا يرغبون في العمل تحت الحماية البريطانية، لاستعمار وتطوير فلسطين دون التعدي على أي مصالح مشروعة»[47]. علق جورج أنطونيوس في عام 1938 قائلاً: «كان التأثير المشترك لهذه التأكيدات هو حثه على الاعتقاد بأنه لا يوجد شيء من التطلعات الصهيونية على هذا النحو أو في السياسة التي تعلنها الحكومة البريطانية فيما يتعلق بتحقيقها والتي من شأنها أن تتدخل في الحرية السياسية والاقتصادية العربية في فلسطين»[48].

---

(46) Report of a Committee Set up to Consider Certain Correspondence between Sir Henry Mc-Mahon and the Sharif of Mecca in 1915 and 1916, Archived 24 October 2015 at the Wayback Machine, UNISPAL, Annex A, para. 19.

انظر أيضًا: Khouri, *The Arab - Israeli Dilemma*, pp. 8 - 9.

(47) Charels D. Smith, *Palestine and the Arab - Israeli Conflict: A History with Documents* Subsequent 4th ed. (London: Palgrave Macmillan, 2001), p. 80.

(48) George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Simon Publications 2001) (1st ed. London 1939), pp. 280 - 285.

تاسعًا: فيصل يقتحم بركان التحديات

كان وايزمان يهدف قاصدًا صوغ اتفاق بين الأمير فيصل والحركة الصهيونية مخادعًا إياه لدعم المملكة العربية الوليدة من خلال الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبدا واضحًا أن فيصل كان أذكى منه، إذ أدرك غرضه الأساسي، وخبر أن هذا سيتجاهل على التوالي رغبات العرب الفلسطينيين، وأن اليهود لعبوا لعبتهم على أساس أن يبلع العرب الطعم، ومن ثمّ يتم احتقار الفلسطينيين وازدرائهم. في هذه الحالة، نجح وايزمان في تمرير اتفاقية غير رسمية من خلال فيصل الذي بدا واضحًا أنه غير موافق أبدًا على الاستيطان اليهودي الوثيق في فلسطين ولا على مساعدة الحركة الصهيونية تنمية الأمة العربية الشاسعة التي كان فيصل يأمل في إنشائها[49]، ويجادل المؤرخ بار بأن البريطانيين عرضوا رشوة على الأمير فيصل بمبلغ 150 ألف جنيه إسترليني لدعم المشروع، وتغيير شرطه، فرفض ولم يوافق[50].

أعربت الصحف البريطانية عن مخاوف سياسية بشأن مسودة المقترحات التي قدمتها اللجنة الاستشارية لفلسطين (برئاسة هربرت صموئيل (Sir Herbert Samuel)[51]، وعليه، فقد اقترح آرثر ج. بلفور (Arthur James Balfour) [52] على وايزمان أنه «سيكون من المفيد جدًا إذا تمكن الصهاينة والأمير فيصل من العمل بشكل موحد والتوصل إلى اتفاق بشأن بعض نقاط النزاع المحتمل»[53]. وعليه، فقد التقى وايزمان مع فيصل مرة أخرى في 11 كانون الأول/ديسمبر 1918، بينما كان الاثنان في لندن يستعدان لإلقاء بيانهما لمؤتمر

---

(49) William L. Cleveland, *A History of the Modern Middle East* (Boulder, CO: Westview, 2004), p. 228.

(50) Barr, *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle That Shaped the Middle East*, p. 70.

(51) السير هربرت صموئيل (1870 ـ 1963) كان سياسيًا ليبراليًا بريطانيًا وكان زعيم الحزب بين 1931 ـ 1935. وهو أول يهودي يمارس اسميًا دوره السياسي يعمل وزيرًا في مجلس الوزراء ويصبح زعيمًا لحزب سياسي بريطاني كبير، وهو آخر عضو في الحزب الليبرالي يشغل أحد مكاتب الدولة الأربعة الكبرى (بوصفه وزيرًا للداخلية بين 1931 ـ 1932 في حكومة رامزي ماكدونالد الوطنية). انظر: Bernard Wasserstein, *Herbert Samuel: A Political Life* (Oxford: Clarendon Press, 1992), pp. 36 - 49, and Bernard Wasserstein, «Herbert Samuel and the Palestinian Problem,» *English Historical Review*, vol. 91, no. 361 (October 1976), pp. 753 - 775.

(52) عاش بلفور بين 1848 ـ 1930، وهو رجل دولة بريطاني محافظ شغل منصب رئيس وزراء بريطانيا بين 1902 ـ 1905. وعمل وزيرًا للخارجية في وزارة لويد جورج، وأصدر إعلان بلفور في عام 1917 نيابة عن مجلس الوزراء البريطاني وارتكب أكبر جرم بحق العرب. انظر عنه: George Earle Buckle, «Balfour, Arthur James,» in: Hugh Chisholm, ed., *Encyclopædia Britannica*, 12th ed. (London; New York: Cambridge University Press, 1922), vol. 30, pp. 366 - 368.

(53) Lewis, *Balfour and Weizmann: The Zionist, the Zealot and the Emergence of Israel*, pp. 34 - 39.

السلام القادم في باريس. قبل أسبوعين من توقيع الاتفاقية، في 12 كانون الأول/ديسمبر 1918.

عاشرًا: الحملات الصحافية ضد البيان العربي في فرساي

نُقل عن الأمير فيصل في صحيفة التايمز، اعتمادًا عن علي علاوي (لا شك أنه حرض عليه لورانس ووزارة الخارجية): بدأ الفرعان الرئيسيان للأسرة السامية، العرب واليهود، يفهمون بعضهم بعضًا، ونأمل أن تبادل الأفكار في مؤتمر السلام، وهو المؤتمر الذي سيسترشد بمُثُل حق تقرير المصير وإثبات الجنسية، سيجعل كل دولة تقدم دعمًا محددًا نحو تحقيق تطلعاته. فالعرب لا يشعرون بالغيرة من اليهود الصهاينة، ويعتزمون منحهم مجال اللعب النظيف، وقد أكد اليهود الصهاينة للعرب القوميين عزمهم على رؤية أن لديهم أيضًا دورًا عادلاً في مناطقهم. وكانت قد أثارت المؤامرة التركية في فلسطين الغيرة بين المستعمرين اليهود والفلاحين المحليين، لكن الفهم المتبادل لأهداف العرب واليهود سيزيل على الفور الأثر الأخير لهذه المرارة السابقة، التي كانت قد اختفت بالفعل عمليًا قبل الحرب من خلال عمل اللجنة الثورية العربية السرية، التي أرست أسس النجاحات العسكرية العربية في العامين الماضيين في سورية وغيرها[54].

قبل يومين فقط من الاتفاق، وفي 1 كانون الثاني/يناير 1919، قدم وفد الأمير فيصل بيانًا إلى مؤتمر السلام، وقدمت مذكرة أخرى في 29 كانون الثاني/يناير. أشار البيان إلى هدف تاريخي يتمثّل بـ «توحيد العرب في نهاية المطاف في دولة واحدة»، مع تعريف المناطق العربية على أنها «من خط الإسكندرية بلاد فارس جنوبًا إلى المحيط الهندي» (1 كانون الثاني/يناير) أو «من خط الإسكندرية ديار بكر جنوبًا إلى المحيط الهندي» (29 كانون الثاني/يناير). وصفت المذكرة الأخيرة حدود أي دول جديدة بأنها «أمور تتعلق بالتنسيق بيننا، بعد التحقق من رغبات سكانها» في إشارة إلى المبادئ السياسية التي أعلنها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون لتقرير المصير[55].

---

(54) Allawi, *Faisal I of Iraq*, p. 187.

(55) Adel Beshara, *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and Identity* (New York; London: Taylor and Francis, 2012), p. 265.

حادي عشر: اتفاق وخلاف

كان الطرف الآخر قد أعدَّ وثيقة من دون أن يجلس الطرفان لصوغ أي نص للاتفاقية، أي بمعنى أن الأمير فيصل ومستشاريه لم يشاركوا أبدًا في صوغ تلك الوثيقة المكتوبة سلفًا، التي تحمل اسمَي الموقعين لها. وعليه، فهو مجرد اتفاق كتابي وقع بين الطرفين في 3 كانون الثاني/يناير 1919، ولكن من دون أن ننسى ما سجله الأمير فيصل عليها بقلمه بالعربية كي يدرك العالم كله على مدى التاريخ أن ذمته بريئة. علمًا بأنه لم يأخذ الإذن صراحة من والده للدخول في مثل هذه الاتفاقية، إذ إنه يحمل تعليمات والده على كاهله والمقتصرة على شرط أن يقبل فقط بتحقيق الوعود البريطانية السابقة باستقلال العرب؛ تم إضافة التحذير نتيجة لذلك. في اليوم التالي، وصل وايزمان إلى باريس على رأس الوفد الصهيوني إلى مؤتمر السلام.

ثاني عشر: نص الاتفاقية المزعومة[56]

1 ـ اتفاقية بين الأمير فيصل ووايزمان (3 كانون الثاني/يناير 1919)

صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، ممثلاً بالنيابة عن مملكة الحجاز العربية، والدكتور حاييم وايزمان، ممثلاً عن المنظمة الصهيونية ويتصرفون فيها، مع مراعاة القرابة العرقية والروابط القديمة القائمة بين العرب واليهود، وإدراكًا منهم أن أكثر الوسائل المؤكدة لتحقيق إتمام طموحاتهم الطبيعية هي من خلال التعاون الأقرب الممكن في تنمية الدولة العربية وفلسطين، والرغبة في تأكيد الفهم الجيد القائم بينهما، قد اتفقت على ما يلي:

أعطيت تحت أيدينا في لندن، إنكلترا، في اليوم الثالث من يناير، ألف وتسعمئة وتسعة عشر.

2 ـ النقاط الرئيسية للاتفاقية

أولاً، ألزم الاتفاق كلا الطرفين بإجراء جميع العلاقات بين المجموعتين من خلال حسن النية والتفاهم، والعمل معًا لتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع مع حماية حقوق الفلاحين العرب والمزارعين المستأجرين، وحماية الممارسة الحرة للاحتفالات الدينية. وقد كانت الأماكن المقدسة الإسلامية تحت سيطرة المسلمين.

---

(56) C. O. 730. File 153/78089, The Public Record Office, London, P.R.O.

ثانيًا، تعهدت الحركة الصهيونية بمساعدة العرب المقيمين في فلسطين والدولة العربية المستقبلية على تنمية مواردهم الطبيعية وإقامة اقتصاد نام.

ثالثًا، يجب أن تحدد اللجنة بعد مؤتمر باريس للسلام الحدود بين دولة عربية و فلسطين.

رابعًا، التزمت الأطراف بتنفيذ إعلان بلفور لعام 1917، الذي يدعو إلى وطن قومي لليهود في فلسطين.

خامسًا، وكان من المقرر عرض النزاعات على الحكومة البريطانية للتحكيم.

وقّع وايزمان الاتفاقية نيابة عن المنظمة الصهيونية، بينما وقع فيصل نيابة عن مملكة حجاز العربية قصيرة العمر.

3 ـ اشتراطات فيصل: لعبة سياسية لإفشال المؤامرة

اشترط فيصل موافقته على الوفاء بوعود الحرب البريطانية للعرب، الذين كانوا يأملون في الاستقلال في جزء كبير من الإمبراطورية العثمانية. أرفق بالوثيقة المكتوبة بيانًا مكتوبًا بخط اليد، أضاف بعده لورانس ترجمة غير دقيقة قليلاً:

نص التحذير

النص العربي الأصلي للاتفاقية التي قام بالترجمة الحرفية لها المؤرخ البروفيسور فيليب خ. حتي (Philip K. Hitti)[57]، عام 1943.

(مرفق بالوثيقة الأصلية)

إذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في 4 كانون الثاني/يناير سنة 1919 المقدم لنظارة خارجية حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورة كانت شريطة أن يحصل العرب على استقلالهم كما هو مطلوب في مذكرتي بتاريخ 4 كانون الثاني/يناير 1919، إلى وزارة الخارجية لحكومة بريطانيا العظمى، سأوافق على المواد المذكورة أعلاه. ولكن إذا تم إجراء أدنى تعديل أو مغايرة فيما يتعلق بمتطلبات [المذكرة] لن ألتزم بعد ذلك

(57) هو المؤرخ اللبناني المعروف فيليب خوري حتي، ولد في 22 حزيران/يونيو 1886 ـ وتوفي في برينستون 24 كانون الأول/ديسمبر 1978) كان أستاذًا لبنانيًا أمريكيًا وباحثًا مؤرخًا في كل من جامعة برينستون وجامعة هارفارد، وخبيرًا في تاريخ العرب والشرق الأوسط والإسلام واللغات السامية. قام بمفرده تقريبًا بإنشاء نظام الدراسات العربية في الولايات المتحدة. ومن أشهر أعماله التاريخية، كتاب تاريخ العرب (مطول).

بكلمة واحدة من هذه الاتفاقية التي تعد باطلة وليس لها حساب أو صلاحية، ولن أكون مسؤولاً بأي شكل من الأشكال. إذا تم تأسيس العرب كما طلبت في البيان الذي أصدرته في 4 كانون الثاني/يناير، موجه إلى وزير الخارجية البريطاني، فسأقوم بتنفيذ ما هو مكتوب في هذه الاتفاقية. وإذا تم إجراء تغييرات، فلا يمكنني أن أكون مسؤولاً عن الفشل في تنفيذ هذه الاتفاقية[58]. وعليه، فإن اتفاق فيصل وايزمان لم يصبح فعالاً أبدًا».

ثالث عشر: المناقشات اللاحقة

1 ـ مؤتمر باريس للسلام

قدم فيصل مقترحاته الخطية إلى المؤتمر في 27 كانون الثاني/يناير. مسودة مذكرة أحضرها لورانس بناء على طلب الأمير فيصل إلى ستيفن بونسال[59] من الوفد الأمريكي بعد فترة وجيزة من قيام الصهاينة بتقديم عرضهم الأولي[60]، ووفقًا لمذكرات بونسال، ذكرت وجهات نظر مختلفة تمامًا عن الاتفاقية مع وايزمان: إذا كانت آراء الصهيونيين الراديكاليين، كما عرضت على مؤتمر السلام، يجب أن تسود، فستكون النتيجة اضطرابًا مزعجًا، وحرب أهلية عاجلة أو لاحقة في فلسطين. ولكن آمل ألّا أكون مخطئًا. أؤكد أن العرب ليس لديهم أي عداء عنصري أو ديني ضد اليهود، وهو ما يسود للأسف في مناطق أخرى كثيرة من العالم. أؤكد أنه مع اليهود القاطنين لعدة أجيال في فلسطين، فإن علاقاتنا ممتازة. لكن الوافدين الجدد من اليهود يظهرون صفات مختلفة تمامًا عن هؤلاء «المستوطنين القدامى» كما نسميهم، الذين استطعنا العيش معهم والتعاون معهم بشروط ودية.

من أجل كلمة أفضل، يجب أن أقول إن المستعمرين الصهاينة الجدد قد جاءوا بروح إمبريالية دون استثناء تقريبًا. يقولون إننا لفترة طويلة كنا مسيطرون على وطنهم الذي

---

(58) شهادة المؤرخ فيليب حتي إلى لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الأمريكي في 15 شباط/فبراير 1944، في: الولايات المتحدة، الكونغرس، دائرة الأرشيف، لجنة الشؤون الخارجية، **الوطن القومي اليهودي في فلسطين: جلسات الاستماع أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الأمريكي**، المؤتمر الثامن والسبعون، الدورة الثانية. مكتب الطباعة الحكومي الأمريكي، 1944. انظر: United States, Congress House, Committee on Foreign Affairs, *Jewish National Home in Palestine: Hearings Before the United States House Committee on Foreign Affairs*, Seventy - Eighth Congress, Second Session. U. S. Government Printing Office, 1944), p. 251.

(59) ستيفن بونسال (29 آذار/مارس 1865 ـ 8 حزيران/يونيو 1951) كان صحافيًا أمريكيًا ومراسلًا ومؤلفًا ودبلوماسيًا ومترجمًا، فاز بجائزة بولتزر لعام 1945 للتاريخ.

(60) Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorized Biography of T. E. Lawrence 1990 Atheneum* (London: William Heinemann Ltd., 1989), pp. 606 - 7.

أخذه العرب منهم بالقوة الغاشمة في العصور المظلمة، ولكن الآن في ظل النظام العالمي الجديد يجب أن نخلص. وإذا كنا حكماء فينبغي أن نفعل ذلك بسلام دون أن نقاوم ما هو نظام العالم المتحضر[61]. إن بونسال يسجل هنا في كتابه مذكرات الرئيس ويلسون السرية الخاصة التي اعتنى بها بونسال وذلك خلال مفاوضات السلام في الحرب العالمية الأولى باريس[62]. إن الصراع مع الصهيونية لم يكن سياسيًا وحسب، بل كان ولم يزل فكريًا وتاريخيًا عندما يتخذ الصهاينة اتفاقية وايزمن مع فيصل الذي نجح في كبح جماحهم بشروطه الذكية فراحوا يفسرون ذلك بتفسيرات واهية، كي نقرأ عند مارتن سيكر قوله: ظهر الأمير فيصل أمام المجلس الأعلى في 6 شباط/فبراير.

وفي إشارة أخرى إلى أن تعاطفه الصهيوني قد يتذبذب، اقترح «ترك فلسطين، نتيجة لطابعها العالمي، على جانب واحد للنظر المتبادل بين جميع الأطراف المعنية»[63]. فلقد قدم الصهاينة كتابًا في 3 شباط/فبراير مع مثولهم أمام المجلس الأعلى في27 شباط/ فبراير[64]. وجاء في مقابلة أجرتها لوماتان في 1 آذار/مارس عن الأمير فيصل قوله: هذا الشعور باحترام الديانات الأخرى يملي رأيي حول فلسطين... إذا كانوا يريدون تشكيل دولة والمطالبة بحقوق سيادية في هذه المنطقة، فإنا أرى مخاطر خطيرة جدًا. ويخشى أن يكون هناك صراع بينهما وبين الأجناس الأخرى[65]. وعليه، فإن فيصل كان يدرك من رؤية بعيدة للمستقبل أن صراعًا سينشب بين الصهيونية وكل الأقوام القاطنة في فلسطين عندما يصرّح بمثل هذا الكلام وهو بمنتهى الوعي السياسي والتاريخي.

2 ـ مراسلات فرانكفورتر

فرية أخرى ضد فيصل من قبل الصهيونية العالمية وتلصق به ظلمًا وعدوانًا، بصدد رسالة باسمه وكتبت بقلم ت. أ. لورانس في آذار/مارس 1919 والأمير لا يدري بها أبدًا،

---

(61) Stephen Bonsal, *Suitors and Suppliants: The Little Nations at Versailles,* introduction by Arthur Krock (New York: Simon Publications; Prentice Hall 1946), p. 56.

(62) Ibid.

(63) Martin Sicker, *Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831–1922* (Westport, CT: Greenwood Publishing Group, 1999), p. 147.

(64) Ibid., p. 148.

(65) [Le Retour a Jerusalem Ce que pensent du sionisme les representants des musulmans et des communantes chretiennes]. Le Matin (in French). France. 1 March 1919). Archives de la Bibliothèque nationale de Paris).

ولو كانت قد صدرت عنه، لما أذاع تصريحاته في صحيفة لوماتان الفرنسية، ويبدو أن الصهاينة قد تضايقوا جدًا من موقف فيصل الذي قابله فيليكس فرانكفورتر، رئيس المنظمة الصهيونية الأمريكية، وتبع ذلك إرسال رسالة إليه صاغها لورانس في 3 آذار/مارس 1919 بتوقيع فيصل، وستتبين لاحقًا أن فيصل لا يعلم بها، وقد جاء في «الرسالة»: «إن العرب، وخاصة المتعلمين بيننا، ينظرون بأعمق تعاطف مع الحركة الصهيونية. إن تفويضنا هنا في باريس على دراية تامة بالمقترحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية أمس إلى مؤتمر السلام، ونحن نعتبرها أمر معتدل وسليم»[66].

3 ـ من يكون فرانكفورتور؟

كان فيليكس فرانكفورتر (1882 ـ 1965) محاميًا وأستاذًا نمسويًا أمريكيًا، عمل كقاض مشارك في المحكمة العليا للولايات المتحدة. ثم عمل في المحكمة العليا بين عامي 1939 و1962، وكان من المدافعين عن ضبط النفس القضائي في إصدار أحكام المحكمة. ولد فرانكفورتر في فيينا، النمسا، وهاجر إلى مدينة نيويورك في سن الثانية عشرة. بعد تخرجه من كلية الحقوق بجامعة هارفارد، عمل في مكتب وزير الحرب ل. هنري خلال الحرب العالمية الأولى. ثم خدم فرانكفورتر كقاض عام، بعد الحرب، وساعد على تأسيس اتحاد الحريات المدنية الأمريكية، وغدا له منصبه كأستاذ في كلية الحقوق بجامعة هارفارد. ثم تسلّق ليصبح صديقًا ومستشارًا للرئيس فرانكلين دي روزفلت، الذي عينه لملء شاغر المحكمة العليا الناجم عن وفاة بنيامين كاردوزو[67].

وللعلم، أن فرانكفورتر لم يكن شخصية مؤثرة، وكان صهيونيًا، لكنه لم يكن يهوديًا متصلبًا متزمتًا، وبدا أنه كان على علاقة مع الرئيس ولسن وقد ضغط عليه لدعم وعد بلفور وأقنعه بأنه بيان للحكومة البريطانية يدعم إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وفي عام 1918، شارك في المؤتمر التأسيسي للكونغرس اليهودي الأمريكي في فيلادلفيا، وأسس منظمة ديمقراطية وطنية للقادة اليهود من جميع أنحاء الولايات المتحدة. وفي عام 1919، عمل فرانكفورتر كمندوب صهيوني في مؤتمر باريس للسلام[68].

---

(66) Charles A. Seldon, «Prince of Hedjaz Welcomes Zionists» (Paris, 4 March 1919).
وانظر نص «الرسالة» في: Letter by Emir Feisal to Felix Frankfurter, published in full at amislam.com (collection of correspondence).

(67) Patit P. Mishra, «Felix Frankfurter,» in: James D. Ciment and Thaddeus Russell, eds., *The Home Front Encyclopedia: United States, Britain, and Canada in World Wars I And II* (Santa Barbara: Praeger Security International/ABC - CLIO, 2007), pp. 76 - 77.

(68) Elinor Slater and Robert Slater, *Great Jewish Men* (New York: Jonathan David Company, Inc, 1996), pp. 112 - 115.

4 ـ نص الرسالة

رد فرانكفورتر في 5 آذار/مارس: «... هذه الأهداف معروضة الآن على مؤتمر السلام كمقترحات محددة من قبل المنظمة الصهيونية. نحن سعداء حقًا لأنكم تعتبرون هذه الاقتراحات «معتدلة وسليمة»، ولأن لدينا فيكم مؤيدًا قويًا لتحقيقها»[69]. عندما عُرضت الرسالة على لجنة شو في عام 1929[70]، تحدث رستم حيدر إلى الملك فيصل في بغداد وأبلغ أن فيصل «لم يتذكر أنه كتب أي شيء من هذا النوع»[71]. في كانون الثاني/يناير 1930،

---

(69) Seldon, «Prince of Hedjaz Welcomes Zionists».

(70) تقرير شو، رسميًا تقرير لجنة الاضطرابات الفلسطينية في آب/أغسطس 1929، والمعروف باسم لجنة شو، كان نتيجة لجنة تحقيق بريطانية بقيادة السير والتر شو، أنشئت للتحقيق في أعمال الشغب العنيفة في فلسطين في أواخر آب/أغسطس 1929. صدر تقرير اللجنة في آذار/مارس 1930 وأدى إلى إنشاء تحقيق هوب سيمبسون في أيار/مايو 1930. وخلصت إلى أن سبب أعمال الشغب كان في المخاوف العربية من استمرار الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، وبخاصة صدى من طبقة عربية بلا أرض متنامية. تم تأكيد ذلك لاحقًا في تحقيق هوب سيمبسون والورقة البيضاء اللاحقة باسفيلد، وكلاهما دعا إلى هجرة يهودية محدودة إلى فلسطين. انظر: Great Britain, 1930: Report of the Commission on the Palestine Disturbances of August 1929, Command paper Cmd. 3530 (Shaw Commission report).

قارن بـ: Henry Laurens, *La Question de Palestine: Une Mission sacrée de civilisation, 1922 - 1947* (Paris: Fayard, 2002), p. 183.

(71) Allawi, *Faisal I of Iraq*, p. 215.

كتب رستم حيدر لصحيفة في بغداد أن فيصل: «يجد من الغريب جدًا أن تُنسب إليه مثل هذه المسألة لأنه لن يفكر في أي وقت في السماح لأي دولة أجنبية بالمشاركة في دولة عربية»[72]. كتب عوني عبد الهادي، سكرتير الأمير فيصل، في مذكراته أنه لم يكن على علم أبدًا باجتماع عُقد بين فرانكفورتر وفيصل قائلا: «أعتقد أن هذه الرسالة، على افتراض أنها أصلية، فقد كتبها لورانس، وأن لورانس نفسه قد وقعها باللغة الإنجليزية نيابة عن فيصل دون علمه. وأعتقد أن هذه الرسالة هي جزء من الادعاءات الكاذبة التي قدمها حاييم وايزمان ولورانس لقيادة الرأي عام وتضليله»[73]. بحسب علاوي، فإن التفسير الأكثر ترجيحًا لرسالة فرانكفورتر هو أن تم عقد اجتماع، وصيغت رسالة باللغة الإنكليزية من قبل لورانس، ولكن «محتوياتها لم يتم توضيحها بالكامل لفيصل. ثم ربما تم حثه على التوقيع أو لا»[74].

وأعتقد أن الرسالة بمجملها لم تعرض أصلاً على فيصل، إذ لا يمكن أبدًا أن يطلع عليها أو على بعض منها ويقبله، فكيف يمكن توقيعها من جانبه وهي تتنافى أصلاً مع تصريحاته ومبادئه؟[75]، وكان من السهل جدًا على لورانس تزوير توقيع فيصل! كما يمكن الرد على كل من يؤكد هذه التهمة أيضًا بأن نفي فيصل علمه بمثل هذا الموضوع، يعني بكل وضوح ضلوع لورانس بأقذر مؤامرة ضد فيصل نفسه، كما أن فيصل نفسه قد شعر بخطورة لورانس الذي كشف بنفسه تدليسه وتحريفه وسوء ترجمته وعدم نقله الحقائق كما هي، فضلاً عن تجاوزاته بحيث يكتب رسالة كاملة ويوقعها بدلاً من فيصل. وحين نعلم أن فيصل استغنى عنه نهائيًا في إثر عودته من باريس، ولم يبقِه معه أبدًا، علمنا كم كان لورانس خطيرًا جدًا.

يلاحظ المؤرخ جون ماك أن فرانكفورتر أعاد طبع الرسالة في عدد تشرين الأول/ أكتوبر 1930 من مجلة *The Atlantic* الشهرية، مضمونًا لصحتها، معلقًا «رسالة الأمير فيصل كانت وثيقة تم إعدادها في ظل الظروف الأكثر مسؤولية» وأنه على الرغم من اعتراض فيصل على التفسيرات التي فهمت رسالته على أنها تعني موافقة على السياسة الصهيونية، ولم يتنصل من تأليفها[76]. وهذا دليل آخر على إثبات حق النفي، ذلك أن فيصل لم يعترف

---

(72) Ibid.

(73) Ibid.

(74) Ibid., pp. 216 - 217.

(75) Ibid., pp. 216 - 217.

(76) John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 501.

بها حتى يتنّصل عنها، فكيف يوافق عليها؟ ثم لم أجد أي ذكر لها في أعمال فرانكفورتر التي راجعتها بدقة، كما أنه لم يذكرها في سيرته وأسأل: لماذا تذكرها عام 1930 لينشرها في مجلة **أتلانتك**. لقد أراد الصهاينة أن يدعموا موقفهم أمام لجنة شو بأية وسيلة عام 1929 ليستخرجوا رسالة مكتوبة من جانب لورانس التي تعَدّ واحدة من لعباته الكثيرة التي لعبها، وقد كشفه فيصل وطرده، ويقال إن الأمير عبد الله أخا فيصل كان لا يطمئن ابدًا له ولا يطيق رؤيته.

سادس عشر: فشل الاتفاقية بإرادة فيصل

يوضح كتاب ذكرى استقلال سورية بتاريخ 8 آذار/مارس 1920، طبيعة الحدود الجغرافية المعلنة لمملكة فيصل العربية السورية، بما في ذلك فلسطين والأردن، بمعنى أن حكومته الفيصلية كما سمِّيت امتد نفوذها على أغلب جغرافية بلاد الشام باستثناء جبل لبنان. ويتوضح من هذا «الكتاب» تقسيم المملكة إلى ثلاثة أقسام: داخلية وساحلية وجنوبية (والأخيرة تشمل فلسطين). وثمة تفاصيل أخرى[77].

في تشرين الأول/أكتوبر 1918، مع دخول القوات العربية دمشق عند نهايات الثورة العربية الكبرى وبعدها دخل الجنرال أللينبي مع قواته، وألّف الأمير فيصل حكومة عربية وبدأ بتأسيس كيان سياسي عربي مستقل. في أيار/مايو 1919، أجريت انتخابات للمؤتمر الوطني السوري. وفي 2 تموز/يوليو 1919، عارض الكونغرس في مذكرة قدمت إلى لجنة كينغ ـ كرين[78] تمامًا

---

(77) يوسف الحكيم، سورية والعهد الفيصلي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966)، ص 230 ـ 247.

(78) كانت لجنة كنغ ـ كرين، التي سميت رسميًا باسم لجنة الحلفاء المشتركة بين الولايات لعام 1919 في تركيا، لجنة تحقيق بشأن التصرف في مناطق داخل الإمبراطورية العثمانية السابقة، والتي تم قمع نتائجها. بدأت اللجنة كثمرة لمؤتمر باريس للسلام عام 1919. كان من المفترض أصلًا أن يقودها ممثلون فرنسيون وبريطانيون وإيطاليون وأمريكيون، وانتهت كتحقيق أجرته حكومة الولايات المتحدة فقط بعد انسحاب الدول الأخرى لتجنب خطر «مواجهتها بتوصيات من المندوبين المعينين لها والتي قد تتعارض مع سياساتهم». وكان ممثلو اللجنة الذين عينهم الرئيس وودرو ويلسون هما هنري تشرشل كينغ وتشارلز ر. كرين. مع انسحاب الدول الحليفة الأخرى، فقدت اللجنة أي صدقية حقيقية. لا يزال المؤلفون يرغبون في قياس المستقبل المنشود للمنطقة في ما يتعلق بنظام الانتداب. زارت اللجنة مناطق في فلسطين وسورية ولبنان والأناضول، وقامت بمسح الرأي العام المحلي، وقيمت وجهة نظرها حول أفضل مسار عمل للمنطقة. بدأ العمل في حزيران/يونيو 1919 وقدم تقريره في باريس في 28 آب/أغسطس 1919، بعنوان تقرير القسم الأمريكي للجنة الدولية للمنتدبين في تركيا. تم منع نشره في البداية لأسباب مختلفة، وأبلغت وزارة الخارجية لاحقًا أن المنشور «لن يتوافق مع المصلحة العامة». نُشر تقرير اللجنة في نهاية المطاف في طبعة 2 كانون الأول/ديسمبر 1922 على صفحات مجلة *Editor & Publisher*. انظر: Frank W. Brecher, «Woodrow Wilson and the Origins of the Arab - Israeli Conflict,» *American Jewish Archives*, vol. 39, no. 1, p. 37. Citing, U. S. State Department, The Paris Peace Conference, vol. 11 (1987), p. 75.

أي هجرة إلى فلسطين والأخيرة لن يتم فصلها عن سورية[79]، ونلمس أيضًا تدليسًا صهيونيًا عندما كتب أحدهم أن المؤتمر الوطني السوري قد أجبر فيصل على التراجع عن دعمه المؤقت للأهداف الصهيونية[80]، علمًا بأن الوثائق العربية لا تذكر أبدًا مثل معلومات كهذه ملفقة تاريخيًا ومن جانب مؤرخين صهاينة منحازين وهم ضد العرب. عند هذه النقطة، يمكن اعتبار الاتفاق في عداد الوثائق الملفقة كما جاء ذلك عند مؤرخ يهودي مدقق[81]. في 7 آذار/مارس 1920، تم إعلان فيصل ملكًا للمملكة العربية السورية (سورية الكبرى). وفي نيسان/أبريل 1920، أعطى مؤتمر سان ريمو فرنسا الانتداب على سورية، وهو ما أدى إلى اندلاع الحرب الفرنسية ـ السورية. وفي معركة ميسلون التي وقعت في 24 تموز/يوليو 1920، انتصر الفرنسيون على الجيش العربي، وطرد الملك فيصل من سورية التي غادرها بالقطار نحو فلسطين ومن هناك أبحر نحو إيطاليا، وبعد ذلك زعم أن الشروط التي ألحقها فيصل بالاتفاقية لم تتحقق، وبالتالي فإن الاتفاق يعدّ لاغيًا وغير موضوعي. وطبقًا للمعاصرين الذين كانوا على تماس مع فيصل، بمن فيهم غيرترود بيل وإ. ي. لورانس، كانوا يدافعون عن بريطانيا وعن كل ما ارتكبه ساستها تجاه فيصل والعرب وقالوا بأن الفرنسيين، وبدعم بريطاني، خانوا قضية فيصل والقضية العربية مما جعل المعاهدة باطلة[82]. وصرح سانت جون فيلبي (St John Philby) (1885 - 1960)[83] الممثل البريطاني

(79) Smith, *Palestine and the Arab - Israeli Conflict: A History with Documents*, p. 111.

(80) Ibid., p. 111.

(81) «أجرى يوسف مازور دراسة وتحليلاً متعمقين لقضية ما بعد الصهيونية. لقد كشف عن أسرارها ومخاطرها وتوصل إلى استنتاجات مذهلة، كشفت عن زيف ما حصل وتشويه الحقائق وتلفيق الرسائل، إذا تخضع الآن فقط للتدقيق عام الذي تستحقه، يمكن أن تسهم في تغيير كبير في نوع ومستوى خطاب الحياة أو الموت الحاسم الذي نشارك فيه إسرائيل. انظر ما قاله يوسف مازور في كتابه: Yosef Mazur, *Zionism, Post - Zionism and the Arab Problem: A Compendium of Opinions about the Jewish State*, edited by Mike Cohen (Boulder, CO: Westview Press 2012), p. 123.

(82) Georgina Howell, *Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations* (New York: Sarah Crichton Books, 2008), p. 78.

(83) كان هاري سانت جون بريدجر فيلبي قد عرف أيضًا باسم جاك فيلبي أو الشيخ عبد الله فيلبي، بريطانيًا ومستشارًا ومستكشفًا وكاتبًا وضابط استخبارات مكتب استعماري بريطاني لكنه أصبح عربيًا بالإعلان عن إسلامه ويعترف بتعصبه لذلك. كان اشتراكيًا منذ بداياته وفي عام 1908 انضم إلى الخدمة المدنية الهندية بعد إكماله دراسة اللغات الشرقية في جامعة كامبريدج، فتم نقله إلى لاهور في البنجاب في 1908، واكتسب طلاقة في الأردية والبنجابية والبلوشية والفارسية والعربية في نهاية المطاف. اشتغل في العراق، وكان من المستقبلين للملك فيصل عند وصوله العراق، وكان من الذين روّجوا لإقامة جمهورية في العراق، ترك العراق والتحق بعبد العزيز آل سعود، اعتنق الإسلام عام 1930 وأصبح فيما بعد مستشارًا لابن سعود، وحثه على توحيد شبه الجزيرة العربية تحت الحكم السعودي، ومساعدته على التفاوض مع المملكة المتحدة والولايات المتحدة عند اكتشاف البترول عام 1938؛ وكتب عدة كتب عن السعودية. انظر: Elizabeth Monroe, *Philby of Arabia* (London: Pitman Publishing, 1973), pp. 12 - 83.

في فلسطين، في وقت لاحق رفض الملك الأب الحسين بن علي، شريف مكة وملك الحجاز، الذي كان فيصل يتصرف سياسيًا نيابة عنه، الاعتراف بالاتفاقية بمجرد اطلاعه عليها[84].

at the disposal of the Arab State for the purpose of a survey of the economic possibilities of the Arab State and to report upon the best means for its development. The Zionist Organisation will use its best efforts to assist the Arab State in providing the means for developing the natural resources and economic possibilities thereof.

ARTICLE VIII.

The parties hereto agree to act in complete accord and harmony on all matters embraced herein before the Peace Congress.

ARTICLE IX.

Any matters of dispute which may arise between the contracting parties shall be referred to the British Government for arbitration.

Given under our hand at LONDON, ENGLAND, the THIRD day of JANUARY, ONE THOUSAND NINE HUNDRED AND NINETEEN.

Chaim Weizmann

اشتراطات فيصل بخط يده من أجل إيقاف تمرير الاتفاقية

(84) *News Chronicle* (1937), quoted by Neville Barbour, *Palestine, Star or Crescent?* (New York: Odyssey Press, 1947), p. 100.

خامس عشر: الكشف عن الاتفاقية

تم الكشف عن الاتفاقية لأول مرة للجمهور في عام 1936. وقد لاحظت UNSCOP أنه «بالنسبة إلى كثير من المراقبين في ذلك الوقت، فإن إبرام اتفاق فيصل - وايزمان يبشر بالخير للتعاون المستقبلي بين العرب واليهود في فلسطين»[85]، ويشير كذلك إلى تقرير فلسطين لعام 1937. وأشارت الهيئة الملكية إلى أنه «لم يكن أي زعيم عربي منذ عام 1919 قد قال إن التعاون مع اليهود ممكن» على الرغم من الآمال المعرب عنها خلاف ذلك من جانب الممثلين البريطانيين والصهاينة[86]. لم ترَ UNSCOP أن الاتفاقية صالحة على الإطلاق[87]، على الرغم من أن وايزمان أكد أنه ينبغي اعتبار المعاهدة صالحة، بينما وافق في الوقت نفسه على أن فيصل لديه الحق في إبطالها بعد خسارته سورية أمام الفرنسيين[88].

ولكن يا وايزمان إن فيصل أبطل ما تقدمت به إليه قبل خسارته سورية أمام الفرنسيين.

سادس عشر: تحليل تاريخي

أوضح علي علاوي ذلك على النحو التالي: «عندما غادر الأمير فيصل الاجتماع مع وايزمان لشرح ما دار في اللقاء لمستشاريه الذين كانوا في مجموعة موحدة من المكاتب في فندق كارلتون، قوبل بتعبيرات من الصدمة وعدم التصديق. كيف يمكنه توقيع الوثيقة التي كتبها أجنبي لصالح أجنبي آخر باللغة الإنكليزية، أي بلغة لا يعرف شيئًا عنها؟ رد فيصل على

(85) «United Nations Special Committee on Palestine 1947», Official Records of the Second Session of the General Assembly, United Nations.

انظر: Elad Ben - Dror, *Ralph Bunche and the Arab - Israeli Conflict: Mediation and the UN 1947–1949* (London: Routledge, 2015).

(86) لجنة بيل، المعروفة رسميًا باسم الهيئة الملكية الفلسطينية، كانت لجنة تحقيق ملكية بريطانية برئاسة اللورد بيل، عينت في عام 1936 للتحقيق في أسباب الاضطرابات في فلسطين الانتدابية، التي كانت تديرها بريطانيا، بعد ستة أشهر - إضراب عام عربي طويل في فلسطين الانتدابية، انظر: Aharon Cohen, *Israel and the Arab World* (New York: Funk and Wagnalls, 1970), pp. 207 - 210.

(87) Official Records of the Second Session of the General Assembly (A/364), Archived 11 January 2008 at the Wayback Machine, United Nations, 3 September 1947.

(88) «Chaim Weizmann to Arthur Balfour,» in: Chaim Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series A,* edited by Dvorah Barzilay and Barnet Litvinoff (Jerusalem: Israel University Press, 1977), vol. 8: *Nov. 1917 - Oct. 1918,* pp. 45 - 49.

هذان المجلدان من أوراق حاييم وايزمان، أول رئيس لإسرائيل، ضروريان لفهم كامل لتفكير وايزمان بوصفه صهيونيًا، مع رسائله ومناوراته ومن الضرورة دراستها ونقد محتوياتها من أجل فهم الذهنية التي ساهمت بتأسيس الكيان الصهيوني.

مستشاريه كما هو مسجل في مذكرات عوني عبد الهادي: «أنت محق في أن تفاجأ بأنني وقعت مثل هذه الاتفاقية المكتوبة باللغة الإنكليزية. لكنني أؤكد لك أن مفاجأتك ستختفي عندما أقول لك أنني لم أوقع على الاتفاقية قبل أن أشترط كتابةً أن موافقتي على التوقيع عليها كانت مشروطة بقبول الحكومة البريطانية لمذكرة سابقة قدمتها إلى وزارة الخارجية... [هذه المذكرة] احتوت الطلب على استقلال الأراضي العربية في آسيا، بدءًا من خط يبدأ في الشمال في الإسكندرية، ديار بكر، ويصل إلى المحيط الهندي في الجنوب. وفلسطين، كما تعلمون، تقع ضمن هذه الحدود... لقد أكدت في هذه الاتفاقية قبل التوقيع أنني لست مسؤولاً عن تنفيذ أي شيء في هذه الاتفاقية إذا كان أي تعديل على ملاحظتي مسموحًا به»»[89].

كان إدوارد غراي[90] وزير الخارجية خلال مفاوضات مكماهون ـ حسين. في حديثه في مجلس اللوردات في 27 آذار/مارس 1923، أوضح أنه أثار شكوكًا خطيرة بشأن صحة تفسير الحكومة البريطانية للتعهدات التي تسبب بها، كوزير للخارجية، للشريف حسين في عام 1915. ودعا إلى الإعلان عن جميع التعاملات السرية المتعلقة بفلسطين[91]. تم في وقت لاحق رفع السرية عن العديد من الوثائق ذات الصلة في الأرشيف الوطني ونشرها. من بينها محضر اجتماع اللجنة الشرقية لمجلس الوزراء، برئاسة اللورد جورج كرزون (George Curzon)[92]، الذي عقد في 5 كانون الأول/ديسمبر 1918، وكان بلفور حاضرًا. وكشف المحضر أنه عند

(89) عوني عبد الهادي، **مذكرات عوني عبد الهادي**، تقديم وتحقيق خيرية قاسمية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ص 56.

(90) السير إدوارد غراي (1862 ـ 1933) رجل دولة ليبرالي بريطاني وكان وراء السياسة الخارجية البريطانية في زمن الحرب العالمية الأولى. وهو من أتباع «الليبرالية الجديدة»، شغل منصب وزير الخارجية بين 1905 ـ 1916، وكان محور سياسته الدفاع عن فرنسا ضد العدوان الألماني، وحل نزاعًا بارزًا مع ألمانيا حول خط سكة حديد بغداد عام 1913، ومنع ألمانيا من السيطرة على أوروبا الغربية بمجرد بدء الحرب، ووقع اتفاقية سايكس ـ بيكو في 16 أيار/مايو 1916 ونصب عام 1916 سفيرًا لدى الولايات المتحدة 1919 ـ 1920 وزعيم الحزب الليبرالي في مجلس اللوردات بين 1923 ـ 1924. انظر: Christopher Clark, «Sir Edward Grey and the July Crisis,» *International History Review*, vol. 38, no. 2 (2016), pp. 326 - 338.

(91) Report of a Committee Set up to Consider Certain Correspondence between Sir Henry Mc-Mahon and the Sharif of Mecca in 1915 and 1916 Archived 24 October 2015 at the Wayback Machine, UNISPAL, Annex A, paragraph 19.

(92) اللورد جورج ناثانيال كرزون، 1859 ـ 1925، رجل دولة من المحافظين، شغل منصب نائب الملك في الهند بين 1899 و1905، وأنشأ حينذاك إقليم البنغال الشرقي وآسام، وتقلد وزيرًا للخارجية بين 1919 ـ 1924. على الرغم من نجاحه اللامع بوصفه نائب الملك ووزير خارجية، لكنه حرم منصب رئيس الوزراء. جادل ونستون تشرشل الذي نافس اللورد كرزون كونه من المدرسة الاستعمارية الكولونيالية الفيكتورية، وكانت مواهبه الاستعمارية قد تجلت في مؤتمر لوزان 1923. انظر عنه في: G. H. Bennet, *British Foreign Policy during the Curzon Period, 1919–1924* (New York: St. Martin's Press, 1995), pp. 23 - 67.

توضيح موقف الحكومة، أوضح كرزون أن: «فلسطين مدرجة في المناطق التي تعهدت بريطانيا العظمى بأن تكون فيها عربية ومستقلة في المستقبل»[93]. وعلينا أن نعلم أنه خلال العقد الأول من الانتداب، تمتع البريطانيون بتدفق رأس المال اليهودي الذي عبأه الصهاينة؛ وهو ما مكنهم ليس من تمويل إدارة فلسطين فقط، ولكن تحويل مشاريعها الإمبريالية الإقليمية أيضًا. ولكن في منتصف الثلاثينيات، مع تجمع غيوم الحرب العالمية الثانية، ألغي التزام بريطانيا بالصهيونية بالحاجة إلى تأمين أصولها الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وبالتالي تحولت إلى سياسة استرضاء العرب. وفي عام 1947، تخلت بريطانيا عن محاولاتها لفرض تسوية في فلسطين تكون مقبولة للبلدان العربية وأحالت فلسطين إلى الأمم المتحدة، من دون توصيات، تاركة الخصوم لتسوية صراعهم في ساحة المعركة[94].

استعدادًا للقاء الدبلوماسي البريطاني مارك سايكس، معربًا عن «المفاهيم المسبقة الراسخة حول اليهود» والشائعة في وقته بين النخبة الإنكليزية [95]، كتب إلى فيصل عن الشعب اليهودي: «أعرف أن العرب «يحتقرون ويدينون ويكرهون اليهود»، لكنه أضاف: «أتحدث الحقيقة عندما أقول إن هذا العرق، المحتقر والضعيف، عالمي وقوي ولا يمكن إخماده» واقترح أن يرى فيصل اليهود على أنهم حلفاء أقوياء له[96]. وهذا كله لا يتناسب مع وصف العرب من جانب وايزمان، إذ قال بأنهم يتسمون بـ «الغدر» و«الغطرسة» و«انعدام المتعلمين» و«الجشعين»، واشتكى للبريطانيين من أن النظام في فلسطين «لم يأخذ في الاعتبار حقيقة وجود اختلاف نوعي جوهري بين اليهود والعرب»[97]. بعد لقائه بالأمير فيصل، زُعم أن وايزمان أفاد بأن الأمير فيصل «كان يحتقر العرب الفلسطينيين الذين لا يعدّهم عربًا» (كذا)[98]. ويقول سيكر إنه تم توقيع الاتفاقية في 4 كانون الثاني/يناير[99].

وصف جورج أنطونيوس ذلك على النحو التالي: «وجد فيصل نفسه في موقف

(93) ورد في: Palestine Papers, 1917-1922, Doreen Ingrams, page 48 from the UK Archive files PRO CAB 27/24.

(94) Michael J. Cohen, *Britain's Moment in Palestine: Retrospect and Perspectives, 1917 - 1948* (London: Routledge, 2014), pp. 23 - 27.

(95) Ibid., pp. 89 - 101.

(96) Tom Segev, *One Palestine Complete: Jews and Arabs under the British Mandate* (New York: Metropolitan Books/Henry Holt and Company, 2000), pp. 110 - 111.

(97) «Chaim Weizmann to Arthur Balfour,» in: Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim* vol. 3. *September 1903 - December 1904*, general editor Meyer W. Weisgal, pp. 197 - 206, and *Weizmann,*

(98) «Chaim Weizmann to Vera Weizmann,» in: Ibid, p. 210.

(99) Martin Sicker, *Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831–1922* (Westport CT: Greenwood Publishing Group, 1999), p. 145.

صعب. ولم تكن الاقتراحات التي كان أصدقاؤه في وايتهول يضغطون عليه لتأييدها غريبة فقط على شروط مهمته، التي بلغت بضعة أسطر من التعليمات الموجزة الصادرة من جانب والده، ولكن أيضًا في كان يعتمل فيه نزاع مع الشعور العام الملتهب إلى حد ما في البلدان العربية الشمالية. حاول الحصول على توجيهات محددة من أبيه الملك حسين، ولكن كل ما استطاع استخلاصه من والده العنيد والمتشبث بآرائه الصارمة المستبدة كان أمرًا بعدم قبول أي شيء أقل من الوفاء بتعهدات بريطانيا العظمى في ما يتعلق باستقلال العرب، الأمر لم يعطه أي خط عرض مهما كان... لقد شعر بشدة بقصور معداته إزاء دهاقنة السياسة العالمية، وجهله بالإنكليزية، وعدم معرفته بأساليب الدبلوماسية الأوروبية، وقبل أي شيء، القيود المفروضة على فائدته بسبب رفض والده منحه سلطات كاملة»[100]. وأجد أنه كان يواجه محنة قاسية وهو يواجه ضغوطًا كبرى، وهو القادم لأول مرة من الشرق الأوسط، ويريد إخراج مستقبل العرب من أفواه الأسود الجائعة! ومع كل هذا وذاك، فإنني أجده سياسيًا محنكًا، عندما عالج الأمر بمناورة ذكية جدًا، فقد أسرع بالتوقيع، ولكنه وضع شرطًا تعجيزيًا حكم على الاتفاقية بالفناء... ويرى محمد مظفر الأدهمي الذي عالج القضية ودفاعه عن فيصل قائلاً: إن الملاحظة التي كتبها فيصل هي نقض كامل للاتفاقية وتأكيد لبياناته التي أزعجت الصهاينة[101]. ويستطرد قائلاً: «وعليه فإن توقيع فيصل المعاهدة كان إلغاءً تامًا لها. يبقى سؤال مهم وهو: لماذا لم يرفض فيصل التوقيع؟ يبدو لي أن حراجة موقف فيصل أمام الضغوط البريطانية والصهيونية والتهديد بالتخلي عنه أمام الفرنسيين جعلته شاء أم أبى يدخل في معمعة المساومات فكان أن رفض الاتفاقية بطريقة دبلوماسية لا تثير البريطانيين عليه وهو الذي لا يمتلك أية قوة تساعده»[102]. إنني أتفق مع ما جاء في جريدة التايم التي وصفت الأمير فيصل بأنه من أقوى السياسيين العرب، وأن له رؤية عميقة ونافذة للمستقبل، وكان صبورًا إزاء التحديات التي كانت تحيط به، وقد واجه لوحده أقسى الظروف وأثقل الضغوط ولم يستسلم، لكنه امتلك القدرة على مناورة أعتى السياسيين الأوروبيين، وأخذ منهم من دون أن يمنحهم شيئًا[103].

---

(100) Antonius, *The Arab Awakening*, p. 282.

(101) محمد مظفر الأدهمي، **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991)، ص 21.

(102) المصدر نفسه، ص 21 ـ 22.

(103) «Jews and Arabs in Syria: The Emir Feisul Looks to a Bright Future,» *The Times* (12 December 1918), p. 7, col. B.

ـ المادة الأولى: تسيطر الدولة العربية وفلسطين في جميع علاقاتهما وتعهداتهما على حسن نية وتفاهم ودي، ولهذا الغرض يتم إنشاء وصيانة وكلاء عرب ويهود معتمدين حسب الأصول في الأراضي المعنية.

ـ المادة الثانية: فور الانتهاء من مداولات مؤتمر السلام، تحدد الحدود المحددة بين الدولة العربية وفلسطين من قبل لجنة يتم الاتفاق عليها من قبل الطرفين.

ـ المادة الثالثة: عند وضع دستور فلسطين وإدارتها، يتم اعتماد جميع هذه الإجراءات التي ستوفر الضمانات الكاملة لتنفيذ إعلان الحكومة البريطانية في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1917.

ـ المادة الرابعة: يجب اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتشجيع وتحفيز هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع، وبأسرع ما يمكن لتوطين المهاجرين اليهود على الأرض من خلال الاستيطان الأوثق والزراعة المكثفة للتربة. في اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب حماية الفلاحين والمستأجرين العرب في حقوقهم ومساعدتهم على دفع عجلة تنميتهم الاقتصادية.

ـ المادة الخامسة: لا يجوز وضع أي قانون يحظر أو يتدخل بأي شكل من الأشكال في الممارسة الحرة للدين؛ علاوة على ذلك، يُسمح إلى الأبد بممارسة المهنة الدينية والعبادة والتمتع بها، دون تمييز أو تفضيل. لا يشترط أي اختبار ديني على الإطلاق لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

ـ المادة السادسة: تكون الأماكن المقدسة المحمَّدية تحت السيطرة المحمَّدية.

ـ المادة السابعة: تقترح المنظمة الصهيونية إرسال لجنة من الخبراء إلى فلسطين لإجراء مسح حول الإمكانات الاقتصادية للبلاد، وتقديم تقرير عن أفضل السبل لتطويرها. ستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية لغرض مسح الإمكانيات الاقتصادية للدولة العربية وتقديم تقرير عن أفضل السبل لتطويرها. ستبذل المنظمة الصهيونية قصارى جهدها لمساعدة الدولة العربية على توفير وسائل تنمية الموارد الطبيعية والإمكانات الاقتصادية فيها.

ـ المادة الثامنة: يتفق الطرفان على العمل باتفاق وانسجام تأمين في جميع الأمور التي تم تبنيها هنا قبل مؤتمر السلام.

ـ المادة التاسعة: أي مسائل خلافية قد تنشأ بين قاعة الأطراف المتعاقدة تحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم.

تحفظ الأمير فيصل إذا تم تأسيس العرب كما طلبت في البيان الذي أصدرته في 4 كانون الثاني/يناير، موجه إلى وزير الخارجية البريطاني، سأقوم بتنفيذ ما هو مكتوب في هذه الاتفاقية. إذا تم إجراء تغييرات، فلا يمكنني أن أكون مسؤولاً عن الفشل في تنفيذ هذه الاتفاقية.

وجزء من المقترحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية إلى مؤتمر السلام في 3 شباط/ فبراير هي:

«يجب أن تتبع حدود فلسطين الخطوط العامة المبينة أدناه: ابتداءً من الشمال عند نقطة على البحر المتوسط في محيط جنوب صيدا واتباع مستجمعات المياه في سفوح لبنان حتى جسر الكارون، ومن ثم البير تتبع الخط الفاصل بين حوضي وادي الكورن ووادي التيم ثم في اتجاه جنوبي يتبع الخط الفاصل بين المنحدرين الشرقي والغربي للحرمون، إلى المنطقة المجاورة غرب بيت جن، ومن ثم باتجاه الشرق مستجمعات المياه الشمالية لنهر مغنية بالقرب من خط سكة حديد الحجاز وغربه، وفي الشرق خط قريب من سكة حديد الحجاز وغربها ينتهي بخليج العقبة، وفي الجنوب حدود يتم الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية. في الغرب البحر المتوسط.

أما تفاصيل التسويات، أو إجراء أي تعديلات ضرورية على التفاصيل، يتم تسويتها من قبل لجنة خاصة يكون فيها تمثيل يهودي»[104].

لقد نشر النص في الصحافة العربية في ذلك الوقت. وتضمنت ترجمة جورج أنطونيوس عام 1938 للمادة 7 على النحو التالي: «نحن نرفض ادعاءات الصهاينة بإنشاء كومنولث يهودي في ذلك الجزء من جنوب سورية المعروف بفلسطين ونعارض الهجرة اليهودية إلى أي جزء من البلاد. نحن لا نعترف بأن لهم صفة، ونعتبر مطالباتهم تهديدًا خطيرًا لحياتنا الوطنية والسياسية والاقتصادية، وسيستمر مواطنونا اليهود في التمتع بالحقوق وتحمل المسؤوليات المشتركة بيننا»[105]. «تم تضمين ملحق في هذه المعاهدة،

(104) «Statement of the Zionist Organization regarding Palestine» Archived from the original on 12 February 2007.

(105) انظر: خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين 1918 ـ 1920، وينتقدها محمد مظفر الأدهمي أنها =

يتعلق بتحفظ من الملك فيصل بأنه سيفي بجميع الوعود في هذه المعاهدة إذا حصل ومتى سيحصل على مطالبه، المتمثلة باستقلالية العرب وبناء دولتهم. لقد تم تحقيق متطلبات الملك فيصل في الوقت الحاضر، فالدول العربية كلها مستقلة، وبالتالي فإن الشرط الذي يعتمد على تنفيذ هذه المعاهدة أصبح ساري المفعول، وبالتالي فإن هذه المعاهدة، لجميع **المقاصد والأغراض، يجب أن تكون اليوم وثيقة صالحة**»[106]. ولكن شرط فيصل قد أبطل مفعول الاتفاقية، ولم يعد بعد توقيع فيصل أي تأثير لها، وبالرغم من إلحاح وايزمان على أن يسجل له رهان على الاستقلال اللاحق، إلا أن كلامه لا يلغي شروط فيصل التي أبطلت الاتفاق المبرم، وهذا هو الرد التاريخي[107].

استنتاجات: التخلّص من قبضة التنّين

نعلم أنه في 4 كانون الثاني/يناير 1919، وقع الأمير فيصل وحاييم وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية، اتفاقية اشتهرت باسم فيصل - وايزمان للتعاون العربي اليهودي. ويشير أغلب المؤرخين المتعاطفين مع الصهيونية إلى أن فيصل قبل فيها بشروط وعد بلفور، وهو تصريح رسمي نيابة عن الحكومة البريطانية صدر من جانب آرثر بلفور، علمًا بأنه قد مورست على فيصل ضغوط دولية من أجل تمرير وعود بريطانية واعدة لتأسيس وطن يهودي في فلسطين. ولكن فيصل تخلّص منها بمناورة ذكية عندما ربط ذلك بشروط تعجيزية، فأمات الاتفاقية، ولكن بمجرد أن منحت الدول العربية الاستقلال الذاتي عن القوى الأوروبية بعد سنوات من اتفاقية فيصل وايزمان، واعترف الأوروبيون بهذه الدول العربية الجديدة، جادل وايزمان وأتباعه بأنه منذ الإيفاء بالامتثال في نهاية المطاف، لا تزال

= أوردت نصًا غير دقيق للنص العربي الذي أضافه فيصل إلى الاتفاقية حيث إن الباحثة لم تطلع على الاتفاقية والنص الأصلي عليها وإنما أخذتها عن كتاب أنطونيوس يقظة العرب المترجم إلى العربية، كما أوردت ترجمة مذكرات وايزمان للترجمة المحرفة التي قام بها لورانس عند ترجمة النص العربي لعبارة فيصل إلى الإنكليزية وكانت هذه الترجمة عند خيرية قاسمية غير دقيقة أيضًا مما أفقدها القدرة على إمكان مقارنة النصين. ولهذا فإنها توصلت إلى أن فيصل قد وقع الاتفاقية بدون تحفظ رغم ما ورد في تصريحاته إلى Jeffries في آذار/مارس 1920. وعليه فإن إلقاء الباحثة اللوم على فيصل ابتعاد عن الحقيقة التاريخية التي تقول إن فيصل رفض المعاهدة وهو ما ثبتناه هنا. انظر: الأدهمي، **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة**، ص 40، م. 31.

(106) Official records of the Second Session of the General Assembly (A/364/Add. 2 PV. 21) Archived 12 March 2007 at the Wayback Machine, United Nations, 8 July 1947.

(107) لمزيد من التفاصيل، انظر: Neil Caplan, «Faisal Ibn Husain and the Zionists: A Re - examination with Documents,» *The International History Review*, vol. 5, no. 4 (1983), pp. 561 - 614.

اتفاقية الوطن اليهودي في فلسطين سارية[108]. وفي الحقيقة، لم يكن لهذه الشراكة المأمولة فرصة كبيرة للنجاح، وكانت رسالة ميتة من جانب فيصل ذاته بحلول أواخر عام 1920. كان فيصل يأمل في أن يكون التأثير الصهيوني على السياسة البريطانية كافيًا لإحباط التصاميم الفرنسية على سورية، لكن التأثير الصهيوني لا يمكن أن ينافس أبدًا المصالح الفرنسية. في الوقت نفسه، كان أن فشل فيصل في الحصول على تعاطف كبير من أنصاره العرب نظرًا إلى مواجهته فكرة إقامة وطن يهودي في فلسطين، حتى في ظل سيادة عربية فضفاضة.

وأخيرًا، بقدر ما كسب فيصل من خصوم صهاينة لموقفه المتصلب، فقد لقي العديد من الخصوم العرب الذين لم يدركوا ثقل التحديات والضغوط التي تعّرض لها فيصل في الخروج من قبضة التنين[109].

(108) Official records of the Second Session of the General Assembly (A/364/Add. 2 PV. 21), United Nations, 8 July 1947 Archived 7 May 2015 at the Wayback Machine.

(109) أنيس صايغ، **الهاشميون والثورة العربية الكبرى** (بيروت: دار الطليعة، 1966). (يتضمن هذا «الكتاب» بعض الآراء التي لا يمكن قبولها، فالمؤرخ لا يمكنه إسقاط الحاضر على الماضي).

الفصل الخامس

الكاريزما
فيصل بين لورانس وغيرترود بيل

مقدمة

ينبغي تحليل أدوار فيصل التاريخية بين لورانس والمسّ غيرترود بيل، والفرق كبير جدًا بين الاثنين، بل تتسّع المسافة بينهما كثيرًا بالرغم من سعيهما نحو هدف واحد، وسنقف قليلا عند الاثنين من أجل نقد كل من انساق وراء لغط الإنكليز وغيرهم بتضخيمهم دور لورانس (العرب) في زمن الحرب، فلا يمكن الاعتماد على ما سجله لورانس في كتابه **أعمدة الحكمة السبعة**[1] إلا استخدامه بتحفظ شديد، علمًا بأن دور لورانس لا يتعدى دور المترجم والمساعد الذي تميز بسرعته في الاتصال[2]، لكنه كان فعّالاً بالنسبة إلى ما يريد البريطانيون تقريره. وتخبرنا كل الشواهد التاريخية بأن فيصل كان يرسم بمعية ضباط أركانه العراقيين، استراتيجية الحرب وتقدم الثورة العربية. إن تقرير لورانس لرؤسائه حول التقاط العقبة، كانت بداية لأسطورة شاعت عمّن سمي «لورانس العرب». ولكن العرب لم يبرهنوا حتى الآن على أدوار فيصل الحقيقية وجعلها أسطورية. لقد فرض فيصل نفسه من خلال اعتماد والده الحسين بن علي عليه في التعامل عسكريًا مع الآخرين كالبدو وأدارسة عسير قبل أن يأتي لورانس لاختياره قبل أخويه. ولا يمكن لمؤرخ حصيف قبول ما جاء به البعض

---

(1) قارن بـ: T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph: The Complete 1922 Oxford Text* (Saint Paul, MN: Wilder Publications, 2011).

(2) H. Montgomery Hyde, *Solitary in the Ranks: Lawrence of Arabia as Airman and Private Soldier* (London: Constable, 1977), pp. 23 - 28.



فيصل بين لورانس في مرحلته الأولى إلى السيدة غيرترود بيل في مرحلته الثانية

من المؤرخين البريطانيين، وبالأخص في سياق ما كتب عن عام 1917، عندما قرر ضابط الاستخبارات البريطاني المغامر، توماس إدوارد لورانس، اختيار فيصل... ليجري تسويقه على أنه ممثل «الثورة العربية» التي كان يجري التخطيط لها للإطاحة بالخلافة العثمانية في شبه جزيرة العرب[3].

اندلعت الثورة في بداية حزيران/يونيو 1916، وقد نصِّب فيصل لقيادتها، ولم يكن

(3) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 76.

لورانس إلا مساعدًا، وكان فيصل نفسه يدرك جاسوسية لورانس وخطورة علاقاته مع المكتب العربي (البريطاني) بالقاهرة. وقد كشفت الوثائق أن علاقات فيصل الأول بالشباب العرب السوريين والضباط والقادة العراقيين قبل اندلاع الثورة كانت قوية[4]، وقبل قرارات والي الشام جمال باشا (السفاح) البطش بالأحرار العرب، فكانت الثورة العربية هي الرد الحاسم ضد إعدام قافلتين من الشباب في دمشق وبيروت، وقامت ضد سياسة التريك التي اتبعها الزعماء الاتحاديين الثلاثة: طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا (السفاح). فلم يكن الخليفة/السلطان بصاحب قرار كي يثور العرب ضده! هذه المعادلة السهلة لم يفهمها أو يدركها العرب ولا الترك حتى اليوم! وعليه، فينبغي أن يدرك الجميع أن فيصل الأول لم يبق كما ورد ليكون هو المرشح لتقديمه للعرب على أنه الوجه الأمثل للثورة العربية ضد العثمانيين[5].

أولًا: من يكون لورانس؟

عمل آثاريًا بريطانيًا في سورية، وضابطا عسكريًا، ودبلوماسيًا في الاتصالات ومترجمًا، وعُرف كاتبًا ومؤلفًا واسمه الكامل توماس إدوارد لورانس (1888 ـ 1935)، وكان مشهورًا بدوره في الاتصال بالعرب خلال الحملة البريطانية التي قادها الجنرال أللينبي باتجاه سيناء وفلسطين، ثم دوره التاريخي مستشارًا ومترجمًا وخبيرًا في الثورة العربية الكبرى (1916 ـ 1918) ضد الإمبراطورية العثمانية التي حكمها الاتحاديون خلال الحرب العالمية الأولى. مع درجة اتساع عليا مع الدوائر البريطانية والعربية وتنوع نشاطاته مع القوى السياسية الفاعلة، وقدرته الذكية على وصفها بوضوح في الكتابة، إلى درجة إقناع أغلب المسؤولين البريطانيين مع عشقه للحرية والصحراء والألبسة العربية الفضفاضة التي أكسبته شهرة عالمية على مدى عقود من الزمن خلال القرن العشرين وحتى بعد مماته، أي وصولاً إلى الفيلم الذي سمي باسمه «لورانس العرب» المنتج عام 1962 والذي وصل إلى درجة كبيرة من المبالغة والأكاذيب على أساس أنشطته في زمن الحرب.

ولد لورانس لقيطًا، أي خارج إطار الزواج الشرعي أو القانوني، في مقاطعة ويلز، في آب/أغسطس 1888 من أب أنكلو أيرلندي اسمه توماس تشابمان، وأُم تدعى سارة جونر

---

(4) انظر: Harold Orlans, *T. E. Lawrence: Biography of a Broken Hero* (Jefferson, NC; London: McFarland and Company, Inc., 2002), pp. 34 - 38.

(5) Allawi, Ibid., pp. 77 - 79.

وهي مربية إسكتلندية، وكانت سارة ابنة اليزابيث جونر وجون لورانس، لم تتزوج سارة وتوماس زواجًا كنسيًا أو رسميًا، لكنهما عاشا معًا تحت اسم لورانس[6]، وكان الجنس خارج نطاق الزواج عصر ذاك مخجلاً للغاية في المجتمع البريطاني، وأولئك الذين ولدوا بطرق غير شرعية حملوا العار والشنار[7]. تربى لورانس في طفولته وصباه مع أمه، التي كانت قاسية عليه جدًا، حتى عام 1896، حيث انتقل لورانس إلى أكسفورد، ودرس فيها بالمدرسة الثانوية للبنين بين 1896 و1907، وبين 1907 و1910 درس التاريخ في جامعة أكسفورد. بين عامي 1910 و1914، وتخرج بعدما كتب أطروحة عن الحروب الصليبية، فشغف بحياة العرب والمسلمين إبان العصور الوسطى[8]. وعشق لغتهم وبدأ يقرأ عنهم ويحلم بالعيش معهم.

في صيف 1909، انطلق وحيدًا في جولة سيراً على الأقدام لمدة ثلاثة أشهر كي يدرس القلاع الصليبية في سورية العثمانية، حيث مشى 1600 كم سيرًا على الأقدام[9]. إن مسافة جغرافية كهذه، كانت كافية لتجعله يلتقط أدق صور الحياة العربية السورية ويسجل معلوماته عنها كي تستفيد منها الدوائر البريطانية. تخرّج لورانس بمرتبة الشرف الأولى[10] بعد تقديم أطروحته بعنوان تأثير الحروب الصليبية على الحياة العسكرية المعمارية الأوروبية حتى نهاية القرن الثاني عشر، مستندًا إلى البحوث الميدانية التي أجراها مع بيسون في فرنسا، حول الشرق الأوسط[11].

في عام 1910، عاد إلى سورية ليعمل آثاريًا من خلال منحة دراسية دُفع له فيها 100 جنيه استرليني في السنة[12]. في كانون الأول/ديسمبر 1910، أبحر إلى بيروت ووصل إلى جبيل، حيث درس اللغة العربية[13]. ثم عاد للعمل في الحفريات، بالقرب من جرابلس في

---

(6) Richard Aldington, *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry* (London: Collins, 1955), pp. 60 - 69.

(7) Jeremy Wilson, «T. E. Lawrence: From Dream to Legend,» T. E. Lawrence Studies, 2 December 2011, <https://bit.ly/3oBoQHj> (Retrieved 25 October 2016).

(8) Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence* (London: William Heinemann, 1989).

(9) Ibid., pp. 57 - 61

(10) Ibid., p. 67.

(11) Malcolm Dennis Allen, *The Medievalism of Lawrence of Arabia* (University Park, Pennsylvania: Penn State Press, 1991), p. 29.

(12) Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence*, p. 73.

(13) Ibid., pp. 76 - 77.

شمال سورية، والتقى لورانس مع المسّ غيرترود بيل[14]. في عام 1912 عمل لورانس لفترة وجيزة مع السير فليندرس بيتري[15] في كفر عمار في مصر[16].

لقد جعلته جولاته في البيئات العربية يتعلم اللغة العربية التي شغف بها وأجاد التحدث بها بطلاقة.. وهو ما أهّله لدور من نوع آخر في أخطر مؤسسة قبل اندلاع الحرب، وهي الاستخبارات العسكرية البريطانية. ففي كانون الثاني/يناير 1914، اختير لورانس من قبل الجيش البريطاني في مهمة لإجراء مسح عسكري بريطاني لصحراء النقب. وقد أتّم لورانس مهمته في وقت لاحق، وقدم تقريرًا عن نتائجها [17] وكانت مهمة جدًا، إذ حفلت برسم خرائط للمنطقة، مع إيلاء اهتمام خاص لخصائص ذات أهمية عسكرية مثل مصادر المياه. كما زار لورانس العقبة والبتراء.

جُند لورانس فورًا في الجيش البريطاني في إثر اندلاع العمليات القتالية في آب/أغسطس 1914، واستدعي قبل نهاية عام من جانب عالم الآثار الشهير والمؤرخ القائد دايفيد هوغارث إلى المكتب العربي الذي استُحدث لوحدة الاستخبارات في القاهرة. فوصل لورانس إلى القاهرة في 15 كانون الأول/ديسمبر 1914. وكان رئيس المكتب الجنرال جلبرت كلايتون الذي أبلغ المفوض السامي المصري السير هنري مكماهون بذلك[18].

ثانيًا: العلاقة العربية ـ البريطانية من خلال استراتيجية المكتب العربي في مصر

لقد كانت الحالة السياسية والاجتماعية خلال عام 1915 معقدة جدًا، فقد وصلت درجة كراهية العرب للأتراك الاتحاديين إلى أوجها من جراء استيائهم من السياسات العقيمة وعمليات الاضطهاد التي مارسها جمال باشا السفاح في داخل الأراضي العثمانية الناطقة بالعربية، وكانت هناك حركة عربية قومية متزايدة تعارض حكم الاتحاديين، بما في ذلك

---

(14) Ibid., p. 88.

(15) السير ويليام ماثيو فليندرز بيتري (1853 ـ 1942)، المعروف باسم Flinders Petrie، كان عالم مصريات إنكليزي ورائد في المنهجية في علم الآثار والحفاظ على القطع الأثرية. شغل أول كرسي لعلم المصريات في المملكة المتحدة، وحفر عددًا من أهم المواقع الأثرية في مصر بالاشتراك مع زوجته هيلدا بيتري. يرى البعض أن اكتشافه الأكثر شهرة هو اكتشاف Merneptah Stele.

(16) Ibid., pp. 99 - 100.

(17) Ibid., p. 136.

(18) Ibid., p. 166.

العديد من الجنرالات والقادة والضباط العرب الذين يخدمون القوات المسلحة العثمانية. إذ كانوا على اتصال مع الشريف حسين بن علي أمير مكة[19] الذي بدأ مراسلاته مع البريطانيين من أجل الخلاص، وكان قد عرض مشروعه لقيادة الثورة ضد العثمانيين. ولكن في المقابل، أراد ضمان بريطانيا لدولة عربية مستقلة، بما في ذلك الحجاز وسورية وبلاد الرافدين[20]، فكان أن استغلت بريطانيا مشروعه بوعودها لمثل هذه الانتفاضة، ولكنها لم تحققها لاحقًا، إذ كانت تبغي تحقيق أهدافها ضد ألمانيا في حربها ضد الأتراك الاتحاديين العثمانيين، على وجه الخصوص، والحد أكثر فأكثر من التهديد لقناة السويس. وإذا كانت هذه استراتيجية المكتب العربي البريطاني في مصر، فإن حكومة الهند البريطانية كانت لها استراتيجية من نوع آخر، إذ كانت بدأت تتوغل بقواتها البريطانية في العراق وجعله مخزنًا غذائيًا لها من الحبوب والجلود والخيول والأصواف، فضلاً عن احتفاظها بموقعها في عدن[21]. لقد أشرف لورانس في المكتب العربي على إعداد الخرائط، وأصدر نشرة يومية للجنرالات البريطانيين الذين يعملون على مسرح العمليات، وأجرى مقابلات مع الأسرى من الضباط العرب العثمانيين. وكان أيضًا مناصرًا ثابتًا على وجود سورية عربية كبرى مستقلة[22]. بالرغم من نداءات فرنسية مضادة لذلك، وطرح مشروع فرنسي إزاء المشروع البريطاني قبل سايكس ـ بيكو.

ثالثًا: الالتزامات العربية في ظل الوعود الموهومة

في تشرين الأول/أكتوبر 1915، تفاقم الوضع السياسي إلى تبلور أزمة تاريخية، إذ طالب الشريف حسين بالتزام فوري من قبل بريطانيا، مع تهديداته بأنه إذا ما تم رفضه، وقال إنه سوف يلقي ثقله وراء العثمانيين[23]. وكان هذا من شأنه أن يخلق رسالة عربية إسلامية ذات صدقية يمكن أن تكون شديدة الإجهاد لبريطانيا، التي كانت تحت الضغط، وخصوصًا في تلك اللحظة الحاسمة من الصعوبات الحادة في حملة غاليبولي. رد البريطانيون برسالة من المندوب السامي السير هنري مكماهون (Henry McMahon) كان مقبولاً عمومًا، بينما كان يحتفظ بالتزامات على ساحل البحر المتوسط والأراضي المقدسة. وأعتقد أن

(19) Ibid., p. 158.
(20) Ibid., p. 195.
(21) Ibid., pp. 169 - 170.
(22) Ibid., pp. 181 - 189.
(23) Ibid., pp. 211 - 212.

الشريف حسين بن علي لم يكن مطمئنًا للإنكليز في وعودهم أبدًا، وكان يصر على أن يكون قراره مستقلاً عنهم، وقد حفظ له الإنكليز ذلك كي يطيحوا بمملكته ويجعلوه أسيراً بعد انجلاء المواقف باتفاقهم مع الفرنسيين على مستقبل البلاد العربية.

وبعد فترة وجيزة من اندلاع الحرب، تطوع لورانس في الجيش البريطاني الذي كانت قطعات منه متمركزة في مصر. وتم إرساله في عام 1916، بمهمة استخباراتية، وسرعان ما انخرط مع الثورة العربية الكبرى، إلى جانب ضباط بريطانيين آخرين، ليعمل كحلقة وصل للقوات العربية. وقد تفوق في خدماته مذ عمل بصورة وثيقة مع الأمير فيصل بن الشريف حسين الذي وصفه بأنه الزعيم الحقيقي الذي يمكنه صنع مستقبل للعرب، وشارك في العمليات العسكرية ضد القوات المسلحة العثمانية وأحيانًا قادها من الناحية الفنية على مدى سنتين، وبلغت ذروتها بفتح دمشق في تشرين الأول/أكتوبر 1918. كيف؟

رابعًا: لورانس موظف نشيط

في ربيع 1916، أرسل لورانس إلى العراق للمساعدة في تخفيف حصار العثمانيين للقوات البريطانية في الكوت، والعمل على تشجيع العراقيين على أن ينتفضوا عربيًا ضد العثمانيين من طرف ورشوة المسؤولين العثمانيين من طرف آخر. ولكن مهمته كانت مخيبة للآمال ولم يكن لها أي نتيجة مفيدة. وتشير المعلومات التاريخية، أن المسؤولين البريطانيين في القاهرة لم يكونوا على علم بما تم التفاوض عليه بما سمي اتفاقية سايكس ـ بيكو في لندن، التي منحت نسبة كبيرة من أراضي سورية إلى فرنسا. ناهيكم بأن ذلك يعني ضمنًا أن أي دولة عربية مستقلة للعرب في سورية، فهي ستضطر إلى احتلال دمشق وحمص وحماة وحلب. ولا يعرف متى عرف لورانس بهذا الاتفاق الذي خيّب آماله المعاكسة بالضد من محتويات المعاهدة(24).

خامسًا: الثورة العربية الكبرى 1916

اندلعت الثورة في حزيران/يونيو 1916، منطلقة من مكة ببيان أعلنه الشريف الحسين بن علي على الملأ، وبعد بضع انتصارات أولية تعثرت، وواجهت القوات العربية خطر القوات العثمانية الحقيقية المتقدمة على طول ساحل البحر الأحمر لاستعادة مكة. في

(24) Ibid., pp. 256 - 276 and 313.

16 تشرين الأول/أكتوبر 1916، أُرسل لورانس من القاهرة إلى الحجاز في بعثة لجمع المعلومات الاستخبارية، وكانت برئاسة رونالد ستورس (Ronald Storrs) [25]. فكان أن وصل لورانس، وقابل ثلاثة من أبناء الشريف حسين: علي، وعبد الله، وفيصل. وقد خلص إلى أن فيصل كان أفضل مرشح لقيادة الثورة العربية[26]. وفي حين تشبّث به الأمير فيصل، فإن الأمير عبد الله كرهه ولم يطمئن إليه أبدًا!

سادسًا: لورانس يكسب الجولة

في تشرين الثاني/نوفمبر، تقرر تعيين س. ف. نيوكومب لقيادة اتصال بريطاني دائم مع موظفي فيصل[27]. وبما أن نيوكومب لم يصل إلى المنطقة وكانت المسألة عاجلة، فقد تم إرسال لورانس مكانه. في أواخر كانون الأول/ديسمبر 1916، وضع كل من فيصل ولورانس خطة لإعادة تمركز القوات العربية بطريقة منعت القوات العثمانية حول المدينة المنورة من تهديد المواقع العربية، كما تمّ التخطيط لوضع سكك الحديد الممتدة من سورية تحت التهديد. عندما وصل نيوكومب ملتحقًا بمنصبه، وكان لورانس يستعد لمغادرة الجزيرة العربية، تدخل الأمير فيصل بصورة عاجلة، مطالبًا بأن تصبح مهمة لورانس دائمة، إذ وجد فيصل في لورانس إمكانات فنية كبيرة مع ذكاء في تنفيذ العمليات الصغرى، ورسم الخرائط[28]. وظل لورانس ملتزمًا بقوات فيصل حتى سقوط دمشق عام 1918.

سابعًا: مساهمات لورانس الفنية

يمكننا أن ندرج أهم مساهمات لورانس في عمليات الثورة العربية في مجال الخطط الفنية والاتصال مع القوات المسلحة البريطانية، كما أنه شارك شخصيًا أيضًا في عدد من الاشتباكات العسكرية وصنع المتفجرات مظهرًا معرفته بالأسلحة الإنكليزية:

---

(25) السير رونالد هنري أمهيرست ستورز (1881 ـ 1955) كان مسؤولًا في وزارة الخارجية البريطانية والمستعمرات. شغل منصب السكرتير الشرقي في القاهرة، والحاكم العسكري للقدس، ثم أصبح محافظ قبرص، وحاكم شمال روديسيا. انظر: Ritchie Ovendale, «Storrs, Sir Ronald Henry Amherst (1881 - 1955),» in: *Oxford Dictionary of National Biography* (Oxford: Oxford University Press, 2020).

(26) Wilson, Ibid., pp. 300 - 312.

(27) Ibid., p. 321.

(28) Ibid., pp. 23, 47 and 58.

ـ 3 كانون الثاني/يناير 1917: هجوم على البؤرة الاستيطانية العثمانية في الحجاز[29].

ـ 26 آذار/مارس 1917: هجوم على سكك الحديد في أبا ـ نام[30].

ـ 11 حزيران/يونيو 1917: هجوم على جسر في رأس بعلبك[31].

ـ 2 تموز/يوليو 1917: هزيمة القوات العثمانية في أبا اللسن، البؤرة الاستيطانية للعقبة[32].

ـ 18 أيلول/سبتمبر 1917: هجوم على سكك الحديد بالقرب من مدوارة[33].

ـ 27 أيلول/سبتمبر 1917: هجوم على سكك الحديد، دمرت محركًا[34].

ـ 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1917: بعد هجوم فاشل على جسور اليرموك، قام بتفجير قطار على خط السكة الحديد بين درعا وعمان، وتعرض لعدة جروح في الانفجار والقتال اللاحق[35].

ـ 23 كانون الثاني/يناير 1918: معركة الطفيلة، وهي منطقة استراتيجية تقع جنوب غرب البحر الميت، وكانت المعركة من خطط الضباط النظاميين العرب تحت قيادة جعفر باشا العسكري. وكانت المعركة في بدايتها مشاركة دفاعية، ولكنها تحولت بذكاء القادة العرب إلى رواية هجومية، ووصفت في التاريخ الرسمي للحرب بأنه «إنجاز رائع من تنفيذ الخطط واستخدام الأسلحة». وكان لورانس له مشاركة في تزويد الأسلحة، فحصل على شهادة التميز لدوره في الطفيلة وتم ترقيته إلى عقيد. ونجح العرب في قتل 400 من الجنود الأتراك وأسروا أكثر من 200 من الأسرى[36].

ـ آذار/مارس 1918: شارك في هجوم على السكك الحديد بالقرب من العقبة[37].

---

(29) Ibid., p. 348.

(30) Ibid., p. 388.

(31) Ibid., pp. 55 - 57.

(32) Ibid., p. 416.

(33) Ibid., p. 446.

(34) Ibid., p. 448.

(35) Ibid., pp. 455 - 457.

(36) T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph: The Complete 1922, Oxford Text* (Saint Paul, MN: Wilder Publications, 2011), pp. 537 - 546, and Christophe Leclerc, *Avec T. E. Lawrence en Arabie, La Mission militaire francaise au Hedjaz 1916–1920* (Paris: L'Harmattan, 1998).

(37) Wilson, Ibid., p. 495.

ـ 19 نيسان/أبريل 1918: ساهم في هجوم مباغت باستخدام سيارات مدرعة بريطانية على تل شاهم[38].

ـ 16 أيلول/سبتمبر 1918: ساهم في تدمير جسر السكة الحديد بين عمان ودرعا[39].

ـ 26 أيلول/سبتمبر 1918: مشاركته في هجوم تراجع في إثره كل من العثمانيين والألمان بالقرب من قرية طفس؛ وقامت القوات العثمانية بقصف القرويين ثم كان رد فعل القوات العربية في المقابل عنيفًا.

ـ في حزيران/يونيو 1917، في الطريق إلى العقبة، قام لورانس برحلة 300 ميل شمالاً، وزار خفيةً رأس بعلبك، وأطراف دمشق، والأزرق. والتقى هناك بأعيان ومشايخ عرب، حاملاً إليهم رسالة بتجنب التمرد حتى وصول قوات فيصل، وجاء ذلك من جراء الهجوم على جسر لخلق انطباع عن نشاط لعمليات عصابات[40].

ثامنًا: ضابط اتصالات بين الطرفين

كان لورانس حلقة ارتباط قوية بين فيصل ومقر البريطانيين، إذ كان دقيقًا بانتظام بين الطرفين، وينسق العمل العسكري[41]. وبحلول صيف 1918، أعلن الأتراك عن مكافأة كبيرة يقدمونها لمن يقبض على لورانس؛ كانت في البداية مبلغًا قدره 5000 جنيه استرليني[42]، ووصلت في نهاية المطاف إلى 20,000 جنيه استرليني (يقدر المبلغ اليوم (في 2017) بنحو 2.1 مليون دولار أو 1.5مليون جنيه استرليني)[43]. وقد كتب أحد الضباط في مذكراته: «على الرغم من أن مبلغًا ضخمًا كهذا قد وضع ثمنًا لرأس لورانس من جانب الأتراك، فإن أي عربي لم يحاول حتى الآن أن يخونه...»[44]. وكانت العناصر الرئيسية للاستراتيجية العربية، قد طورت بشكل رئيسي من قبل فيصل والقادة العسكريين الشريفيين، وخصوصًا ما يرسمه كل من القائد جعفر العسكري ورئيس الأركان نوري السعيد، وقد وافقهم لورانس

---

(38) Ibid., p. 498.

(39) Ibid., p. 546.

(40) Ibid., pp. 424 - 425.

(41) Ibid., p. 471.

(42) Ibid., p. 424.

(43) Ibid., p. 460.

(44) John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), pp. 158 and 161.

على تجنب الاستيلاء على المدينة المنورة، وثانيًا تمتد الاستراتيجية العربية شمالاً عبر معان ودرعا إلى دمشق وخارجها...»[45].

تاسعًا: لورانس والبدو

من المهم أن نقرأ ما كتبه لورانس عن البدو كقوة قتالية: إن «قيمة القبائل هي دفاعية فقط، ومكانها الحقيقي هو ميدان حرب العصابات، فهي ذكية، وحيوية جدًا، فاقدة الوعي تقريبًا، ولكنها فردية جدًا لتحمّل الأوامر وتنفيذها، أو القتال بشراسة على خط النار، وتتجلى روح المساعدة بين بعضهم بعضًا. إن حرب الحجاز هي حرب استثنائية لها أحاديتها وخصوصيتها، فهي تجري بين قوى من الدراويش ضد القوات النظامية، ونحن إلى جانب الدراويش، ولا تنطبق كتبنا المدرسية على شروطها على الإطلاق»[46]. لقد كانت المدينة هدفًا جذابًا للثورة كأقدس موقع للإسلام، ولأن حاميتها العثمانية ضعفت بسبب المرض والعزلة وانقطاع الأرزاق[47]. أصبح من الواضح أن من المفيد أن تترك هناك بدلاً من محاولة الاستيلاء عليها، بينما تتم مهاجمة الحاميات باستمرار، تلك الممتدة من جنوب الحجاز جنوب دمشق[48]. وكان لهذا تأثير على أن العثمانيين لم يستطيعوا استخدام قواتهم في المدينة المنورة، واضطروا إلى تكريس العديد من الموارد للدفاع عن السكك الحديدية وإصلاحها[49].

عاشرًا: الاستراتيجية العربية إزاء مؤامرة سايكس - بيكو

كان التخطيط يقضي بالحركة نحو الشمال والوصول إلى دمشق، وأخيرًا حلب التي غدت مثيرة للاهتمام في سياق اتفاقية سايكس - بيكو. على الرغم من أن لورانس علم بتفاصيل سايكس - بيكو لاحقًا، وقد اطلع الأمير فيصل على ما كان يعرفه[50]. وهو ما

---

(45) Konrad Morsey, «T. E. Lawrence: Strategist,» pp. 185 - 203 from: Stephen Tabachnick, ed., *The T. E. Lawrence Puzzle* (Athens: University of Georgia Press, 1984), p. 194.

(46) Wilson, Ibid., p. 353.

(47) David Murphy, *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze* (London: Osprey, 2008), p. 36.

(48) Ibid.

(49) Wilson, Ibid., pp. 383 - 389.

(50) Ibid., pp. 361 - 362 and 444.

خالف الاستراتيجية العربية في التوسع نحو الشمال، وكان كل شيء يبدو طبيعيًا ومنطقيًا قبل سايكس ـ بيكو التي تحدثت لغة بنودها عن تقسيم لم يكن في الحسبان. لقد بقيت الاستراتيجية العربية بتأسيس كيان عربي منفصل عن العثمانيين وغيرهم في سورية، وأنه كيان سياسي وشرعي لم يمنحه أحد للعرب، بل هم الذين ناضلوا وحاربوا بتحرير الإقليم نفسه وتأسيسه على أيديهم.. وبدا لورانس مؤمنًا بهذا التوجه. وكان الفرنسيون، وبعض ضباط الاتصال البريطانيين، غير مرتاحين بوجه خاص إزاء الحركة الشمالية، حيث إنه يضعف المطالبات الاستعمارية الفرنسية(51).

حادي عشر: السيطرة على العقبة

في عام 1917، نجح العمل المشترك مع القوات العربية غير النظامية، بما في ذلك مشاركة عوده أبو تايه ضد ذلك الموقع الاستراتيجي في مدينة العقبة المطلة على البحر الأحمر، وكانت الدفاعات خفيفة من طرف البحر، إذ كان من الممكن الاستيلاء عليها بسهولة إن هوجمت من البحر، بينما كان الدفاع الشديد عنها من البر، وهي كانت تقود مسالك المناطق الداخلية عبر الجبال. وكان من الصعب جدًا مهاجمتها(52). لقد قاد الحملة الشريف ناصر وتجنّب لورانس بعناية بالغة إبلاغ رؤسائه البريطانيين حول تفاصيل الهجوم الداخلي المخطط، بسبب القلق الذي كان يدور لدى القيادات العربية، إذ أيقنوا أن البريطانيين سيمنعونه كونه يتنافى مع المصالح الفرنسية. وقد سقطت العقبة في أيدي القوات العربية في 6 تموز/يوليو 1917، بعد هجوم مفاجئ بري على البر، وقد أُخذت الدفاعات التركية على حين غرة من الخلف(53).

بعد الاستيلاء على العقبة، وافق الجنرال السير إدموند أللينبي، القائد العام الجديد لقوة المشاة القادمة من مصر، على استراتيجية قيادة القوات العربية التي أوصلها إليه لورانس، الذي كتب بحقه أللينبي قائلاً: «أعطيته يدًا حرة. وقد تميز تعاونه بأقصى درجات الولاء، ولم يكن لدي أي شيء سوى الثناء على عمله، الذي كان في الواقع لا يقدر بثمن طوال الحملة. كان التيار الموصّل إلى الحركة العربية، وكان قد اندمج مع العرب وعرف

(51) Ibid., pp. 309 - 310 and 390 - 391.

(52) Robert Graves, *Lawrence and the Arabs* (London: Jonathan Cape, 1934), p. 61.

(53) Wilson, Ibid., pp. 397 and 400.

لغتهم وأخلاقهم وعقلياتهم[54]. وعليه، بعد سقوط العقبة كان لورانس قد قوي موقعه عند فيصل ووازن بذكاء بين ذلك وبين ثقة أللينبي به.

ثاني عشر: درعا

تجادل ثلاثة من كتاب سيرة لورانس وتاريخه، وهم: مالكولم براون، وجون ي. ماك، وجيرمي ويلسون حول مسألة مثيرة للاختلاف حول القبض على لورانس يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1917 في درعا من قبل جنود أتراك من الحراس وأشبعوه ضربًا مبرحًا، واعتدوا جنسيًا عليه ـ لم يتم تحديد طبيعة الاتصال الجنسي بالضبط، والسؤال: هل حدث ذلك فعلاً؟ أم أنها مجرد مزاعم ادعاها لورانس؟؟ علمًا بأن هذه المسألة كانت لها آثارها النفسية القوية عليه، وذلك يفسر بعض السلوكيات غير التقليدية في حياته في وقت لاحق[55].

ثالث عشر: سقوط دمشق بأيدي القوات الفيصلية

في الأسابيع الأخيرة من الحرب، سقطت دمشق بيد القوات العربية وفتحها فيصل ورجاله، ولكن لورانس لم يكن موجودًا بسبب خيبة أمله؛ إذ كانت له آراء لم يأخذ بها أحد، وخلافًا لمقترحاته، وصل بعد عدة ساعات من فتح المدينة. دخل لورانس دمشق نحو الساعة 9 صباح 1 تشرين الأول/أكتوبر 1918[56] مؤيدًا إنشاء حكومة عربية مؤقتة تحت حكم فيصل في دمشق المحررة على أيدي القوات العربية، التي كان ينظر إليها على أنها عاصمة دولة عربية لها حكومة عربية مستقلة. وانتقل حكم فيصل من كونه أميرًا إلى المناداة به زعيمًا. ولكن بالرغم من ذلك كله، فقد وصل مع حكومته العربية إلى نهاية تراجيدية مؤسفة ومفاجئة عام 1920 بغزو الفرنسيين سورية بقيادة الجنرال غورو، وفشل معركة ميسلون البطلة ومغادرة فيصل وصحبه سورية، وتدمير حلم العرب في بناء المملكة العربية المستقلة. يقول المؤرخ دزموند ستيوارت: «وفي أثناء تلك السنوات التي أعقبت الحرب، سعى لورانس لإقناع رؤسائه في الحكومة البريطانية بأن استقلال العرب كان في مصلحتهم،

---

(54) Richard Perceval Graves, *Lawrence of Arabia and His World* (London: Thames and Hudson, 1976), pp. 90 - 92.

(55) John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), and Wilson, Ibid.

(56) Alex Barker, «The Allies Enter Damascus,» *History Today*, vol. 48 (1998).

وأن سر اتفاق سايكس - بيكو بين فرنسا وبريطانيا يتناقض تمامًا مع وعود الاستقلال التي كان قد قدمها للعرب ورأى أن ذلك إحباط كامل لعمله»[57].

رابع عشر: استلاب البطولة

في عام 1918، تعاون مع كولونيل الحرب لويل توماس لفترة قصيرة. خلال تلك المرحلة الصعبة التي كان العالم يترقب مصير الشرق الأوسط، كانت هناك حملة واسعة من الدعايات وإنتاج آلاف الصور والأفلام التي كانت تبهر العالم لحداثتها، والتي استخدمت ووظفت لصالح الحلفاء وخصوصًا بريطانيا، وذاع اسم لورانس منذ تلك اللحظات التاريخية الحاسمة كونه البطل، في حين تمّ التعتيم تمامًا على بطولات العرب وخطط قادتهم الكبار، وريادة فيصل بن الحسين التاريخية. وكان لورانس يقدّم نفسه للعالم وهو بلباسه العربي الجميل كونه الأب الحقيقي للحدث التاريخي أمام العالم، وفضلاً عن الدعاية لنفسه، صنع منه البريطانيون أسطورة عند بدايات القرن العشرين في عرض الصور والشرائح التي كانت مربحة جدًا، وخصوصًا في جولات حول العالم بعد الحرب.

نعم، مذ وضعت الحرب أوزارها، بدأ العالم يرى المزيد من الصور والأفلام، وكان لورانس مادة نادرة كي يتم تعريف العالم من خلاله بالعرب، فقد ذهب لويل توماس إلى القدس حيث التقى لورانس، فوجده شخصية غامضة، وهو يرفل في الزي العربي وقد أطلق خياله. وقد استأذن من الجنرال أللينبي ليرتبط مع لورانس لبضعة أسابيع.. ثم يعود لويل توماس إلى أمريكا، في بواكير عام 1919، ويقدم محاضراته، التي دعمها ببعض صور متحركة من النساء المحجبات والعرب في ثيابهم الخلابة وصور من البادية العربية والجِمال التي تتهادى على الرمال وصور من الفرسان البدو، وجرت سلسلة من مئات المحاضرات وانطلقت عروض أفلام، يحضرها علية القوم...[58]. كل هذا جرى بمعزل عن المقاتلين الحقيقيين وعن الرواد الأبطال من الرعيل الأول الذي ساهم على الأرض في المعارك وصنع التاريخ.

---

(57) Desmond Stewart, *T. E. Lawrence: A New Biography* (New York: Harper and Row Publishers, 1977), p. 78.

(58) Rex Hall, *The Desert Hath Pearls* (Melbourne: Hawthorn Press, 1975), pp. 120 - 121.

خامس عشر: سنوات ما بعد الحرب

1 ـ فيصل ولورانس

اختير لورانس سكرتيراً ومترجمًا للملك فيصل الذي ترأس وفدًا عربيًا إلى مؤتمر الصلح في فرساي بين كانون الثاني/يناير وأيار/مايو 1919 وقد تألف الوفد من: الملك فيصل رئيسًا (الحجاز)، ورستم حيدر (لبنان)، ونوري السعيد (عراقي)، وتحسين قدري مرافقًا (سوري) وهناك خادم فيصل الذي لم يعرف اسمه... كان لورانس يترجم خطاب الملك فيصل الذي ألقاه بالعربية مطالبًا بحقوق العرب في استقلال بلدانهم. وكان لورانس قد رافق فيصل إلى لندن مع حاشيته[59]. هنا لا بد من أن نقف قليلاً عند لورانس الذي كان موضع ثقة فيصل في تلك المرحلة الحاسمة، إذ وجده الأفضل بالنسبة إليه ليس مترجمًا فحسب، بل دليلاً ومرشدًا[60] ليس في بريطانيا وحدها، بل في فرنسا بعدما وضعت الحرب أوزارها. وأعتقد أن الملك فيصل قد وجد في لورانس ضالته كأفضل من يقوم بمهمة ترتيب العلاقة العربية ـ البريطانية أولاً، وأنه الأفضل في نقل ما يريد إيصاله إلى الدوائر البريطانية. ولكن العلاقة تنتهي إلى هذا الحد، إذ لم يكن صديقًا أثيراً لدى فيصل بدليل أن من اعتمدهم فيصل من الضباط والقادة والموظفين والمستشارين المدنيين العرب قد أبقاهم تحت ظله، وجاءوا بمعيته إلى العراق. أما لورانس، فقد انتهت العلاقة بين الاثنين بعد مؤتمر فرساي عام 1919. ويبدو واضحًا أن مهمة لورانس، إما قد انتهت عند هذا الحد بريطانيًا، وإما أن فيصل قد اكتشف أن ترجمات لورانس لتعابيره لم تكن منضبطة ودقيقة، وخصوصًا في نقل ما يريده بالعربية إلى الدوائر البريطانية، وخصوصًا محاولته توريط فيصل في توقيع معاهدة مزعومة مع وايزمان استخدمت بنودها التي لم يوافق فيصل عليها بتاتًا ضد فيصل نفسه من قبل السياسيين الصهاينة بصورة غير لائقة[61].

2 ـ البطولة المزيفة

بقيت سمعة لورانس البطولية منحصرة بما أُشيع عنه وما رسم له من هالة أكبر

---

(59) Michael Asher, *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia* (New York: Viking, 1998), p. 343.

(60) إن أفضل من عالج هذا «الموضوع» عربيًا بدقة علمية هو المؤرخ محمد مظفر الأدهمي في بحوثه عن فيصل الأول التي جمعها في كتاب بعنوان: **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1999).

(61) راجع النصوص بالإنكليزية والعربية التي قام بدراستها ومقارنتها المؤرخ الأدهمي في: **المصدر نفسه**، ص30 ـ 35.

من حجمه الحقيقي، إذ بدا للمؤرخ أنه رجل عادي بعد عودته، وبقيت حياته الوظيفية والاجتماعية مضطربة ولم يتقلد أي منصب سياسي أو إداري... بمعنى أنه كان مجرد ضابط اتصالات ومترجم ودليل انتهى مع انتهاء الحرب. وعقب الحرب مباشرة، عمل لورانس في وزارة الخارجية، وخدم شهورًا منذ عام 1921 مستشارًا للسير ونستون تشرشل. وبدا أن لورانس يكره العمل البيروقراطي[62]، وبسبب مواقفه وأدواره في الثورة العربية، غدت له سمعة شريرة في فرنسا، منذ حياته العربية وحتى اليوم، وينظر إليه كونه «عدو فرنسا» العنيد[63]. ويعدّه الفرنسيون صاحب أحكام خبيثة مسبقة لا تقبلها الحقائق كونها معادية لفرنسا. كان لورانس يكره حقًا النزعة السياسية الفرنسية ويراها غير معتمدة ولا تتوافق أبدًا مع الحقائق[64].

في عام 1922، صرح بأنه انسحب من الحياة العامة، ولكنه عمل في سلاح الجو الملكي البريطاني. وفي شباط/فبراير 1923، اضطر إلى الخروج بعد كشف هويته. وانضم إلى الفيلق الملكي للدبابات، ولم يكن سعيدًا هناك، فالتمس الانضمام إلى سلاح الجو الملكي البريطاني، وأدى مهمته في قاعدة نائية في الهند البريطانية أواخر 1926، حيث بقي حتى نهاية عام 1928. واضطر إلى العودة إلى بريطانيا، إذ لاحقته الشائعات كونه جاسوسًا واستمر يخدم في سلاح الجو الملكي البريطاني. وفي فترة ما بين الحربين العظميين، شارك ببناء عمليات الإنقاذ الجوية والبحرية[65]. لقد قضى السنوات التالية حتى عام 1935 بوصفه رجل المجندين الذين خدموا العرش البريطاني، وكان معظمهم في سلاح الجو الملكي، وقضى فترة قصيرة في الجيش. وخلال تلك المرحلة، كتب ونشر عمله المعروف، **أعمدة الحكمة السبعة**، الذي ضمّنه سيرته الذاتية ومشاركته في عمليات الثورة العربية الكبرى. كما ترجم بعض الأعمال إلى الإنكليزية وكتب عدة أعمال أخرى، نشرت جميعها بعد وفاته وتفاصيل أوقاته التي قضاها في سلاح الجو الملكي ومشاركته إياه في تطوير قوارب الإنقاذ، وكذلك علاقاته الودية مع الفنانين المعروفين والكتّاب والسياسيين.

وعليه، يستغرب المرء، وخصوصًا من المهتمين والمختصين العرب، مثل هذه البطولة

---

(62) Stephen Tabachnick, ed., *The T. E. Lawrence Puzzle* (Athens, GA: University of Georgia Press, 1984), p. 253.

(63) Ibid., pp. 224 and 236 - 237.

(64) Ibid., p. 236.

(65) Michael Korda, *Hero: The Life and Legend of Lawrence of Arabia,* Reprint edition (New York: Harper Perennial, 2011), p. 642.

المزيفة التي صنعها البريطانيون لشخص مثل لورانس، وروجت حوله الأفلام السينمائية التي شوهت تاريخ العرب تشويهًا متعمدًا. إن مقارنة واضحة بين مكانته التي صنعوها له على حساب العرب وبين ضآلته ومعاملته بحجمه الحقيقي في حياته ببريطانيا لاحقًا تكشف لنا الحقيقة التاريخية بوضوح وجلاء. ولم يزل الكتّاب الغربيون يخدعون العالم في ما يكتبونه وينشرونه عن بطولات لورانس العرب!

3 ـ الرحيل

كان في السادسة والأربعين، وبعد شهرين من ترك الخدمة العسكرية، أصيب لورانس في حادث وقع له وهو يقود دراجته النارية، وذلك على مقربة من كوخه، إذ فقد السيطرة بسبب السحب والضباب فاعترضه صبيان على دراجاتهما؛ فحاول تجنبهم، فارتطم رأسه وأصيب بجروح قاتلة في دورست، وتوفي بعد ستة أيام في 19 أيار/مايو 1935. وبني نصب تذكاري صغير له على جانب الطريق[66]. لقد جاءت وفاة لورانس فجائية من جراء حادث ارتطام دراجته النارية، وقد حصلت وفاته بعد رحيل فيصل الأول بقرابة سنتين، إذ توفي فيصل عام 1933 في سويسرا. ولكن يبدو واضحًا للمؤرخ أن العلاقة قد انتهت بين الاثنين بعد انعقاد مؤتمر الصلح بباريس عام 1919 على الرغم من مشاركة لورانس في مؤتمر القاهرة 1920 الذي تزعمه السير ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية، وسواء التقى الاثنان فيصل ولورانس بعد ذلك أم لا، فإن الأول ربما كشف حقيقة لورانس بعد تلاعبه في ترجمة نصوصه العربية إلى الإنكليزية، وربما كان قد اكتشفه منذ البداية، ولكن حاجته الماسة إليه، دفعته أن يبقيه دليلاً له أولاً، وضابط ارتباط بالسلطات البريطانية ثانيًا. كما بدأ فيصل تاريخًا جديدًا له في العراق منذ عام 1921، وكان لزامًا عليه التعامل مع المدرسة الهندية للاستعمار البريطاني بدل المدرسة المصرية التي كان لورانس أحد فرسانها.

سادس عشر: غيرترود مارغريت لوثيان بيل

كانت غيرترود بيل منذ 100 عام واحدة من أشهر المغامرات الرائدات في القرن العشرين، أدارت ظهرها للمجتمع الفيكتوري بعد دراستها في أكسفورد والسفر حول العالم، وغدت عالمة آثار، وخبيرة بالشؤون العربية وكاتبة وشاعرة ولغوية واتُّهمت بالجاسوسية

(66) Michael Kerrigan, *Who Lies Where - A Guide to Famous Graves* (London: Fourth Estate Limited, 1998), p. 51.

لبريطانيا. ولكن يجمع المؤرخون أنها امرأة كرست حياتها لمناصرة العراق وخدمته وكانت مشمئزة من وعد بلفور والحركة الصهيونية، وكانت مفيدة في رسم الحدود التي تحدد الشرق الأوسط اليوم.

عاشت بين 14 تموز/يوليو 1868 و12 تموز/يوليو 1926. هي كاتبة إنكليزية، ورحالة وآثارية، وضابطة سياسية، وإدارية، وخبيرة في شؤون الشرق الأوسط [67] وغدا اسمها كبيرًا في دوائر السياسة البريطانية بسبب معرفتها وقنوات الاتصال التي امتلكتها من خلال معايشتها منذ سنوات طوال في رحلاتها الواسعة مع العرب خصوصًا، سواء كانوا في البوادي أم في الأرياف والمدن، سواء في سورية الكبرى وبلاد الرافدين أو في إيران والأناضول وشمال الجزيرة العربية[68]، وعملت جنبًا إلى جنب لورانس الذي ساعدها على التعرف إلى الهاشميين سواء في العراق أم في الأردن، وكان لها الدور التاريخي في تأسيس الدولة في العراق ودورها في إدارة شؤونه ورؤيتها بالنسبة إلى مستقبله نظرًا إلى معرفتها العميقة بزعماء القبائل والأفندية والأعيان وخصوصًا في العراق، وحظيت بتقدير كبير وثقة عالية من جانب المسؤولين والضباط البريطانيين الذين كانت السلطة بيدهم وصنع القرارات الحاسمة. وقد وصفت بأنها «واحدة من الممثلين القلائل لحكومة صاحب الجلالة التي يحترمها العرب ويقدرون مواقفها الوديّة»[69]. وكانت وراء ترشيح فيصل لحكم العراق، إذ وجدت فيه الزعيم المناسب له بعدما عرفته معرفة عميقة وسبرت غور شخصيته، وبقيت وفية له بخلاف لورانس. وعليه، فإنها تختلف اختلافًا كبيرًا عن لورانس، إذ التصقت بالحياة العربية وأحبت الناس وعشقت العراق عشقًا كبيرًا وخدمته خدمات حضارية وثقافية وأصرت على أن تبقى في بغداد لتموت فيها وتدفن في ترابها.

1 ـ السيرة الأولى

ولدت غيرترود بيل في 14 تموز/يوليو 1868 في منطقة واشنطن نيو هول من مقاطعة دارم (Darham)، في شمال إنكلترا، وأنجبتها عائلة ثرية تربّت وتعلمت في ظلها، واتصفت

---

(67) Gertrude L. Bell, *The Arabian Diaries, 1913–1914*, edited by Rosemary O'Brien (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2000).

(68) لمزيد من التفاصيل، انظر: «Getrude Bell,» in: *The Oxford Dictionary of National Biography* (New York: Oxford University Press, 2004).

(69) Karl E. Meyer and Shareen B. Brysac, *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East* (New York: W. W. Norton and Co., 2008), p. 162.

منذ شبابها البكر بقوة شخصيتها وطاقتها على العمل ورؤيتها البعيدة ومجازفتها للمغامرة وعشقها للسفر الذي سيشكل مستقبلها في الحياة. كان جدها صناعيًا وليبراليًا ونائبًا في البرلمان. وهو الذي شجعها على الانخراط لخدمة بريطانيا العظمى منذ العهد الفيكتوري. توفيت أمها ماري شيلد بيل، عام 1871 وكانت الابنة غيرترود في الثالثة من عمرها في ذلك الوقت، فتوثقت علاقتها بأبيها السِّير هيو بيل، وهو رجل أعمال ويمتلك طاحونة(70). وكانت الابنة تستشيره في كل الأمور، وخصوصًا أنه خدم أيضًا لسنوات عديدة في مناصب حكومية مختلفة. تزوج والدها مرة أخرى وهي في السابعة وبالرغم من الصدمة التي تلقتها في طفولتها، وما سبب لها من إزعاج وكآبة، إلا أنها استجابت لكل التحديات وتعلمت من زوجة أبيها الكثير(71).

انخرطت في كوينز كولج في لندن ومن ثم انتسبت إلى جامعة أكسفورد وهي في السابعة عشرة لتدرس التاريخ الحديث. وتخرجت في أروقة سانت أنتوني بأكسفورد، بدرجة شرف(72). لم تتزوج بيل أبدًا، بل كانت لها صداقات ومراسلات وعلاقات عاطفية مع بعض من عملت معهم، إذ كان العمل شغلها الشاغل وقد كشفت عن ذلك لاحقًا ورسائل حب مع من أحبته كشفت بعد وفاته(73):

أ ـ توثيق الرحلات

وصفت رحلتها إلى بلاد فارس في أيار/مايو 1892، بعد سفرها لرؤية عمها وهو الوزير المفوض في طهران في كتابها الصور الفارسية، المنشور عام 1894. وساحت طوال العقد الأول من القرن العشرين حول العالم وشغفت بالآثار وتعلم اللغات وانطلق لسانها بالعربية والفارسية والفرنسية والألمانية والإيطالية والعثمانية. عادت إلى الشرق الأوسط عام 1899 وزارت فلسطين وسورية عام 1900، وتوقفت في القدس ودمشق، وتعايشت مع الدروز في جبل الدروز. وساحت عبر شبه الجزيرة العربية ست مرات على امتداد 12 سنة أخرى بين

---

(70) Georgina Howell, *Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008), pp. 114 - 119.

(71) Gertrude L. Bell, *The Arabian Diaries, 1913–1914*, edited by Rosemary O'Brien (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2000), pp. 5 - 6.

(72) Georgina Howell, *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell* (London: Macmillan, 2007), p. 41.

(73) C. Lukitz, *A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq* Liora (London: I. B. Tauris, 2006), pp. 34 - 56.

عامي 1899 و1904، وعادت إلى سويسرا تتسلق جبال الألب وكادت تكلفها حياتها في إحدى المرات[74].

ب ـ ملامح التميز

نشرت بيل ما سجلته عن الشرق الأوسط في كتابها الذي وصفت وصورت فيه تفصيلات رحلتها إلى مدن وبلدات سورية الكبرى مثل دمشق والقدس وبيروت وأنطاكية والإسكندرية. وكشفت أسرار تلك الصحاري العربية للعالم الغربي منذ عام 1907 [75]. في آذار/مارس 1907 عادت بيل إلى الأرجاء العربية من الإمبراطورية العثمانية لتعمل في الحفريات مع السير ويليام م. رامزي، عالم الآثار الإسكتلندي؛ واكتشفا أطلالاً مهمة في شمال سورية والأناضول قرب قونية، ونشرا كتابهما المشترك ألف كنيسة وكنيسة[76]. وكانت بيل قد زارت الأناضول وقت ذاك. وبما أن العديد من المعالم الأثرية قد اختفت منذ فترة طويلة، فقامت بتسجيل وثائقي لا يقدر بثمن الآن، من خلال الصور الفوتوغرافية التي التقطتها بشمولية واتقان فريد للآثار منذ أكثر من قرن[77].

في كانون الثاني/يناير 1909، غادرت بيل إلى العراق بلاد ما بين النهرين. للبحث عن آثاره متنقلة بين المدن والمواقع الأثرية وعادت إلى دمشق وأكملت رحلتها العربية الأخيرة والشاقة في عام 1913 حيث غادرت جنوبًا لـ 1800 ميل من دمشق إلى حائل التي كانت تعيش اضطرابًا سياسيًا، ثم عادت عبر الصحراء إلى بغداد ومن ثمّ إلى دمشق. وكانت ثاني امرأة بريطانية بعد زيارة الليدي آن بلنت (Lady Anne Blunt)[78] إلى حائل،

---

(74) Helen Berry, «Gertrude Bell: Adventurer, Diplomat, Mountaineer and Anti - suffragette,» *BBC History Magazine* (September 2013).

(75) انظر التفاصيل، في: Gertrude Lowthian Bell, *The Desert and the Sown*, with many Illustrations and a Map (London: William Heinemann, 1907), pp. 5 - 46, 72 - 85 and 105 - 127.

(76) *The Thousand and One Churches*, with Gertrude L. Bell (London: William Mitchell Ramsay, Hodder and Stoughton 1909); William M. Ramsay and Gertrude L. Bell, *The Thousand and One Churches*, edited by Robert G. Ousterhout and Mark P. C. Jackson (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Museum of Archaeology and Anthropology, 2008), pp. 41 - 53.

(77) يعلمنا أرشيف غروترود بيل في نيوكاسل عن سفرتها وعملها هذا بوجود أكثر من 250 صورة رقمية عالية الجودة من أرشيف غروترود بيل (Gertrude Bell) في جامعة نيوكاسل (المملكة المتحدة) محل الرسوم التوضيحية الأصلية، وهناك اهتمام بالسياق التاريخي والثقافي للمشروع.

(78) إنها الليدي آن إيزابيلا نويل بلانت، البارونة الخامسة عشرة في وينتورث؛ 1837 ـ 1917، كانت مؤسسًا مشاركًا، مع زوجها الشاعر ويلفريد بلنت، وقد سافرا وارتحلا على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط، واشتريا الخيول العربية من رجال القبائل البدوية وكانا ينقلان الخيول العربية الرائعة والأصيلة إلى إنكلترا.. وقد بقيت الليدي آن بلنت فترات طويلة في حائل التي جعلتها مركزًا لها، وخبرت شؤون المنطقة خبرة واسعة.

ووصلت خلال فترة من عدم الاستقرار بوجه خاص، واحتجزت في المدينة لمدة أحد عشر يومًا[79] .

ج ـ غمار الحرب والحياة السياسية

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، تطوعت بيل مع الصليب الأحمر في فرنسا. في وقت لاحق، طلبت منها الاستخبارات البريطانية نقل الجنود عبر الصحاري، ومن فترة الحرب العالمية الأولى حتى وفاتها، كانت المرأة الوحيدة التي تمتلك القوة والنفوذ السياسيين في تشكيل السياسة الاستعمارية البريطانية في الشرق الأوسط. غالبًا ما اكتسبت طواقم عمل من السكان المحليين من أجل إدارتهم وقادتهم في بعثاتها. طوال رحلاتها، أقامت بيل علاقات وثيقة مع شيوخ القبائل في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وهو ما أتاح لها الوصول إلى وجهات نظر ووظائف أخرى[80].

2 ـ من القاهرة إلى البصرة

في تشرين الثاني/نوفمبر 1915، تم استدعاؤها إلى القاهرة بغرض الاستشارة من جانب المكتب العربي البريطاني الذي كان برئاسة الجنرال جيلبرت كلايتون. كما قابلت مرة أخرى لورانس، وحضر كل من بيل وضابط الاستخبارات لورانس، وكلاهما من خريجي أكسفورد وكانا قد حصلا على مرتبة الشرف الأولى في التاريخ الحديث، وكلاهما يتحدث العربية بطلاقة وكان قد سافرا على نطاق واسع في الصحراء العربية وأقاما علاقات مع القبائل المحلية قبل الحرب العالمية الأولى. وكان عالم الآثار والمؤرخ الشهير اللفتنانت كومدور، دايفيد هوغارث، قد أدرك قيمة خبرة الاثنين لورانس والمس بيل، وبناءً على توصيته، تم تعيين لورانس أولاً، ثم المسّ بيل، في مقر الاستخبارات العسكرية في القاهرة عام 1915 للخدمة الحربية[81]. وعند وصولها في شباط/فبراير 1916، لم تتلقَّ في البداية منصبًا رسميًا، لكنها ساعدت بدلاً من ذلك المؤرخ هوغارث على تنظيم ومعالجة بياناتها الخاصة. أما لورانس فقد حُصرت مهمته مع النقيب دبليو إتش

---

(79) Howell, *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell*, pp. 218 - 219.

(80) Gertrude Bell, *A Woman in Arabia: The Writings of the Queen of the Desert*, edited by Georgina Howell (London: Penguin Audio, 2015), pp. 5 - 29.

(81) Report on Middle East Conference held in Cairo and Jerusalem, March 12th to 30th, 1921, Part VI, p. 12. British Colonial Office, june 1921 (CO935/1/1)

شكسبير حول موقع القبائل العربية والتصرف فيها وفي مساراتها ومعرفة اتجاهاتها من أجل إمكانية تشجيعهم بعد ذلك على الانضمام إلى اتجاه البريطانيين ضد الإمبراطورية العثمانية. هكذا، استخدم لورانس والبريطانيون المعلومات القادمة إلى المكتب العربي من أجل بناء تحالفات مع العرب[82].

في 3 آذار/مارس 1916، أرسل الجنرال كليتون فجأة المس بيل إلى البصرة، التي كانت القوات البريطانية قد استولت عليها في تشرين الثاني/نوفمبر 1914، كي تقدّم المشورة للمسؤول السياسي السِّير بيرسي كوكس بشأن منطقة تعرفها جيدًا أكثر من أي غربي آخر. وكان كوكس محسوبًا على حكومة الهند البريطانية، فهو من مدرسة استعمارية بريطانية تختلف عن مسار المكتب العربي، وقد أوجد السير برسي كوكس للمسّ بيل مكتبًا في مقره المتنقل، حيث كانت تعمل لمدة يومين في الأسبوع ولم تكن في القيادة العسكرية للبصرة[83]، إذ بدأت برسم خرائط لمساعدة الجيش البريطاني على الوصول إلى بغداد بأمان وسهولة. وهي أصبحت الموظفة السياسية الوحيدة في القوات البريطانية، وحصلت على لقب «ضابط الاتصال» بين العراق وبريطانيا كمراسل القاهرة» (أي المكتب العربي حيث تم تكليفها). وكانت وراء وحدة التحكم الميدانية التي يشرف عليها سانت جون فيلبي الذي تعلم منها الفنون الدقيقة للمناورة السياسية خلف الكواليس. ويبدو أن فيصل قد علم مكانة هذه المرأة التي أصبحت المهندس الرئيسي للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. وكان يسعى للالتقاء بها وإلقاء نظرة حميمة على امرأة شكلت الأمم.

3 ـ تكوين العراق المعاصر

بعد احتلال القوات البريطانية بغداد في 10 آذار/مارس 1917، تم استدعاء غروترود بيل من جانب السِّير برسي كوكس إلى بغداد[84] ومنحت لقب «السكرتير الشرقي». ومع الانتهاء من تفكيك الإمبراطورية العثمانية بنهاية الحرب العظمى في أواخر كانون الثاني/ يناير 1919، تم تكليف بيل بإجراء تحليل للوضع في بلاد ما بين النهرين، بسبب معرفتها

(82) George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Simon Publications 2001) (1st ed. London 1939), p. 316.

(83) Gertrude Bell, «To Herbert Baker, Basrah, June 25, 1916,» in: Florence Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell,* 2 vols. (London: Ernest Benn Limited, 1927), vol. 1, p. 379.

(84) Howell, *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell*, pp. 274 - 276.

وعلاقاتها بالقبائل في المنطقة. لقد كان لديها أفكار قوية حول القيادة المطلوبة في العراق. وأمضت الأشهر العشرة التالية في كتابة ما عُدّ لاحقًا تقريرًا رسميًا بارعًا وهو، تقرير المصير لبلاد ما بين النهرين. وكان لدى المفوض البريطاني في بلاد الرافدين، السير أرنولد ويلسون، عدة أفكار مختلفة حول كيفية إدارة العراق الجديد، مفضلاً أن تكون الحكومة العربية تحت تأثير المسؤولين البريطانيين الذين سيحتفظون بالسيطرة الحقيقية من جميع الجوانب، كما كان يدرك من تجربته، أن سكان بلاد ما بين النهرين لم يكونوا بعد على استعداد لحكم أنفسهم وإدارة بلادهم بكفاءة وسلم عام.

في 11 تشرين الأول/أكتوبر 1920، عاد بيرسي كوكس إلى بغداد، وطلب من بيل أن تستمر بمنصبها سكرتيرة شرقية، وأن تكون حلقة وصل وعضو ارتباط مع الحكومة العربية القادمة في العراق. لقد أدّت غيرترود بيل بصورة أساسية دور الوسيط بين الحكومة العربية والمسؤولين البريطانيين. وغالبًا ما كان عليها التوسط بين مختلف مجموعات العراق الفئوية السكانية بما في ذلك أغلبية السكان من الشيعة في المنطقة الجنوبية، والسنة في وسط العراق وشماله مع الأكراد الذين كانوا يرغبون في الاستقلال الذاتي. كانت مهمة الحفاظ على توحيد هذه الجماعات المتنوعة ضروريةً لتحقيق التوازن السياسي في العراق ولمصلحة الإمبراطورية البريطانية. لم يكن العراق يحتوي على موارد قيمة من النفط يومها فحسب، ولكنه سيكون بمثابة منطقة جغرافية عازلة، بمساعدة الأكراد في الشمال وكجيش دائم في المنطقة للحماية ضد تركيا وإيران وسورية[85].

كان المسؤولون البريطانيون في لندن، وبخاصة ونستون تشرشل، قلقين جدًا بشأن خفض التكاليف الباهظة في المستعمرات، بما في ذلك تكلفة القضاء على الانتفاضات والثورات والتمردات التي سمَّوها الاقتتال القبلي. وهو مشروع آخر مهم لكل من الحكام البريطانيين والعراقيين الجدد. وحسب رؤية البريطانيين إن مصير العراق لا يمكن أن يتحدد إلا بخلق هوية جديدة لهؤلاء الناس من سكانه حتى يعرِّفوا أنفسهم كأمة واحدة. ويعد تشرشل مسؤولاً عن خفض تكلفة احتلال الشرق الأوسط[86]. وقد حث على سحب معظم القوات البريطانية من العراق وتنصيب حكومة عربية[87]. فنجح في مؤتمره الذي عقده

(85) Priya Satia, *Spies in Arabia: The Great War and the Cultural Foundations of Britain's Covert Empire in the Middle East* (London: Oxford University Press, 2008), p. 160.

(86) Martin Gilbert, *Churchill: A Life* (London: Heinemann, 1991), pp. 411 - 412.

(87) Ibid.

بالقاهرة في تحديد مصير العراق واتفقوا على تنصيب فيصل ملكًا للعراق وشقيقه عبد الله أميرًا على شرق الأردن[88].

4 ـ استراتيجية جديدة للعراق
تحوّل من حكومة الهند إلى المكتب العربي في مصر

أدرك المسؤولون البريطانيون بسرعة أن استراتيجياتهم في حكم العراق تزيد من التكاليف الباهظة. أما إذا غدا العراق دولة تتمتع بالحكم الذاتي، فلن يكلف ذلك بريطانيا شيئًا. هكذا عُقد مؤتمر القاهرة عام 1921 لتحديد البنية السياسية والجغرافية التي يتم من خلالها تشكيل العراق من خلال مملكة تحدد مصير العراق والشرق الأوسط الحديث لاحقًا [89]. قدمت غيرترود بيل مداخلات مهمة في هذه المناقشات وبالتالي كانت جزءًا أساسيًا من تأسيس العراق المعاصر. وفي مؤتمر القاهرة، شدد كل من بيل ولورانس على أن يكون فيصل بن الحسين، وهو القائد السابق للقوات العربية التي ساعدت البريطانيين خلال الحرب ودخول دمشق في ذروة الثورة العربية. وقد عزلته فرنسا مؤخرًا كملك سورية، وعليه، قرر المسؤولون البريطانيون في مؤتمر القاهرة جعله أول ملك للعراق.

كان الاعتقاد سائدًا بأن فيصل ستساعده في مهمته جملة من العوامل، منها نسبه العريق وانتماؤه الشريف، وأيضًا مهاراته الدبلوماسية ومميزاته القيادية، كما أن لديه القدرة على توحيد المجموعات الفئوية السكانية الاجتماعية والعرقية المختلفة في البلاد. وسيحترمه الشيعة بسبب نسبه من سلالة محمد. وإن كلاً من السنّة، بمن فيهم الأكراد، سيتبعونه لأنه سني من عائلة عريقة ومحترمة. ناهيكم بمودة كل الأقليات الدينية له بمن فيهم اليهود والمسيحيون والصابئة واليزيدية وغيرهم، كونه يتمتع برؤية سلمية متصالحة ومتوازنة إلى الجميع. لقد كان إبقاء جميع الجماعات تحت السيطرة في العراق ضروريًا لتحقيق التوازن بين المصالح السياسية والاقتصادية للإمبراطورية البريطانية.

عند وصول فيصل إلى العراق عام 1921، نصحته غيرترود بيل بالمسائل المحلية، والمشكلات العراقية بما في ذلك المسائل المتعلقة بالجغرافيا القبلية والأعمال المحلية.

---

(88) Ibid., pp. 432 - 434, and Rhodes James, *Churchill: A Study in Failure 1900–1939* (London: Weidenfeld and Nicolson 1970), p. 133.

(89) Howell, *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell*, pp. 365 - 369.

كما أشرفت على اختيار المعينين للمناصب الوزارية وغيرها من المناصب القيادية في الحكومة الجديدة. وقد أطلق عليها العراقيون تسمية «الخاتون» (أي: السيدة القديرة بالعامية العراقية وتقابلها بالتركية الخانم وبالمصرية الهانم). لقد تمتعت هذه المرأة بالحكمة وبعد النظر، وبالرغم من أنها غدت من المقربين جدًا للملك فيصل ملك العراق وساعدت على تسهيل دخوله إلى قلوب العراقيين، وكيفية معالجة الأزمات والتعامل مع زعماء العشائر العراقية في بداية عهده، فهي لم تجد العمل مع الملك الجديد سهلاً: «يمكنك الاعتماد على شيء واحد لن أشارك أبدًا في إنشاء الملوك مرة أخرى؛ إنه ضغط كبير جدًا». حاول فيصل أن يتخلص من سيطرة المستشارين البريطانيين، بما في ذلك المسّ بيل، بنجاح محدود فقط[90].

ولكن فيصل ساعدها على تأسيس متحف الآثار العراقي ببغداد وتكثيف جهودها بجمع اللقى وحفظها وإضافتها إلى مجموعتها المتواضعة من القطع الأثرية، فضلاً عن إنشاء المدرسة البريطانية للآثار في العراق، وعملت كثيرًا من أجل منح مشاريع التنقيب وتوفير العائدات وأوصت في وصيتها ذلك. كما سعت للضغط على تأليف مخرجات مذهلة من الكتب والمراسلات وتقارير الاستخبارات والأعمال المرجعية والأوراق والأضابير والملفات المهمة في مرافق معينة. وكانت هذه المرأة تعاني مرارًا التهاب الشعب والحويصلات الهوائية التي تسببت فيها سنوات من التدخين المكثف؛ ومعاناتها من نوبات الملاريا. وكيفية التأقلم مع حرارة الصيف اللاهبة في بغداد، كل ذلك قد سبب لها معاناة كبيرة، وكان لها تأثير سلبي في صحتها حتى غدت ضعيفة القوام إلى حد ما وبدت هزيلة في حياتها الأخيرة وهي لوحدها في العراق[91].

وأشار المؤرخون إلى أن المشاكل الحالية في العراق تنبع من تلك الحدود السياسية التي تصورتها بيل منذ تكوين العراق المعاصر. كما تشير تقاريرها إلى ذلك. فقد كانت المشاكل متوقعة، وقد اعتقدت بيل وكل زملائها من البريطانيين بأن المجتمع العراقي منسجم بالرغم من مشاكله التي تختفي من خلال الحلول العقلانية التي يرسمها عقل مدني لتهدئة القوى الخلافية سواء كانت مذهبية أم عرقية في هذا الجزء من العالم. لقد وجدوا في العراق خلفيات تاريخية مزدهرة مع حالات تخلّف كبرى. كتبت بيل

(90) Gertrude Bell, «Friday July 8. [8 July 1921],» *The Letters,* Gertrude Bell Archive, Newcastle University (Archived from the original on 20 May 2009).

(91) قدّم الدبلوماسي الراحل نجدة فتحي صفوت محاضرة غنية بالمعلومات عن المس بيل. راجع نص المحاضرة التي ألقيت في قاعة الكوفة بلندن مساء الأربعاء 7 كانون الأول/ديسمبر 2005.

إلى والدها في 18 كانون الأول/ديسمبر 1920. تقول: «بلاد ما بين النهرين ليست دولة متحضرة»[92].

5 ـ مؤتمر القاهرة عام 1921

كان المس بيل والسير كوكس والعقيد لورانس من بين نخبة مختارة من «المستشرقين» والخبراء البريطانيين والعراقيين الذين دعاهم السير ونستون تشرشل لحضور مؤتمر عام 1921 في القاهرة من أجل تحديد مصير العراق والشرق الاوسط ضمن حدود الانتداب البريطاني وانبثاق الدول الناشئة مثل العراق[93]. وقد اختصرت المِسّ غيرترود وصفها للورانس باختصار أنه قادر على «إشعال الحرائق في غرف التبريد». وكانت طوال عقد المؤتمر في عمل دائب مع كل من برسي كوكس ولورانس بلا كلل ولا تراجع من أجل تأسيس مملكة عراقية في ظل عرش يعتليه فيصل وإمارة في شرق الأردن يترأسها الأمير عبد الله، نظير جهودهما تحت راية والدهما الحسين بن علي شريف وأمير مكة[94]. وبقدر ما ساهم لورانس بكل وسائله من أجل الحركة الصهيونية، فإن بيل عارضتها على أساس أنه سيكون من الظلم فرض حكم يهودي على السكان العرب في فلسطين. وكتبت بشكل مباشر أنها اعتبرت وعد بلفور المشؤوم سيكون حاجزاً لـ «عدم الثقة العميق» بيننا وبين العرب، وأن «الأمر يشبه الكابوس الذي تتوقع فيه كل الأشياء الفظيعة التي ستحدث ولا يمكن أن تمد يدك لمنعها»[95]. وعليه، فإن ثمة كراهية يضمرها الصهاينة ضد المس بيل ومنهم مارك سايكس، الدبلوماسي البريطاني المسؤول عن اتفاقية سايكس ـ بيكو، إذ لم يكن مغرمًا بها.

6 ـ المكتبة الوطنية والمتحف الوطني في بغداد

في تشرين الثاني/نوفمبر 1919، كانت بيل تتحدث بدعوتها في اجتماع للترويج من أجل تأسيس مكتبة عامة في بغداد، وعملت بعد ذلك رئيسة للجنة المكتبات بين 1921 و1924. وسميت مكتبة السلام اعتزازاً باسم بغداد مدينة السلام، ولكن في عام 1924 تم ضمها إلى وزارة المعارف وأصبحت تعرف باسم مكتبة بغداد العامة (أو في بعض الأحيان

(92) Howell, *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell*, pp. 413 - 419.
(93) Ibid., pp. 365 - 369.
(94) Ibid., p. 369.
(95) Ibid., p. 353.

باسم المكتبة العامة). في عام 1961، غدت تدعى المكتبة الوطنية العراقية. وكانت غيرترود بيل عاشقة للآثار وعلم الأركيولوجيات، وهي المؤسسة الحقيقية لمتحف بغداد للآثار، الذي غدت تسميته لاحقًا المتحف العراقي. لقد كان هدف بيل هو الحفاظ على الثقافة والتاريخ العراقيين اللذين تترجمهما الآثار النادرة والمهمة لحضارات بلاد ما بين النهرين، والاحتفاظ بها في بلادهم الأصلية. كما أشرفت على الحفريات وفحصت الاكتشافات والتحف واللقى المتنوعة من مختلف العصور الكلاسيكية والإسلامية الوسيطة، فكانت نواة المتحف الذي تم افتتاحه رسميًا في حزيران/يونيو 1926، وقبل رحيلها المبكر، وقد أطلق اسمها على الجناح الأيمن للمتحف تذكارًا لها.

7 ـ السنوات الأخيرة ورحيل خاتون العراق

كانت بيل قد عادت إلى بريطانيا عام 1925 وبقيت لفترة وجيزة، وقد عانت مشكلات عائلية مع اعتلال صحتها ووجدت عالمًا قد تغير تمامًا عن عالمها البريطاني الفيكتوري الذي عرفته في صباها وشبابها، ووجدت عائلتها تعاني انخفاض ثروتها بسبب الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بالبلاد وتفاقم بدايات إضرابات العمال في بريطانيا في إثر الحرب العالمية الأولى والاكتئاب الاقتصادي الذي خيم على الناس في أوروبا، فما كان منها إلا أن عادت إلى بغداد التي أحبتها كثيرًا، وكانت تقرأ محبة الناس لها في عيونهم ومعاملتهم لها سواء في السوق أو المجالس أو الدوائر العراقية، فكانت أن تعافت وابتهجت، ويبدو أن الإنكليز قد خذلوها بعد كل ما قدمته للإمبراطورية، وكانت قد سمعت أن شقيقها الأصغر هيو قد مات بسبب التيفوئيد، فأحزنها ذلك كثيرًا. وفي 12 تموز/يوليو 1926، فارقت المسّ بيل الحياة أثناء نومها بتأثير جرعة زائدة من الحبوب المنومة. علمًا بأن هناك الكثير من الجدل حول وفاتها، ولكن من غير المعروف ما إذا كانت الجرعة الزائدة كانت انتحارًا متعمدًا أو سهوًا كونها طلبت من خادمتها إيقاظها صباحًا. فتمّ تشييعها رسميًا وشعبيًا ودفنت في المقبرة البريطانية في منطقة الباب الشرقي ببغداد[96]. كانت جنازتها حدثًا كبيرًا، حضره عدد كبير من الأشخاص بما في ذلك زملاؤها والمسؤولون البريطانيون ومبعوث خاص من قبل ملك العراق. وقيل إن الملك فيصل شاهد الموكب من شرفته الخاصة وهم يحملون تابوتها إلى المقبرة[97].

---

(96) Janet Wallach, *Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell Adventurer, Adviser to Kings, Ally of Lawrence of Arabia* (London: Phoenix/Orion Books Ltd., 1997), p. 6.

(97) Lukitz, *A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq*, p. 235.

8 ـ لم يعد في العراق شي ذو قيمة إلا التاريخ!

ومن الطريف أن نقف عند كلمة نعي كتبها نظيرها المؤرخ والأركيولوجي د. ج. هوغارث (David George Hogarth) معبراً فيها عن احترام المسؤولين البريطانيين لها، بقوله: هذه المرأة الرائعة، لم تقم أي امرأة في الآونة الأخيرة بحمل صفاتها وامتلاك ذوقها واستعدادها للمغامرة الشاقة وتحمّلها المهام الخطيرة واهتمامها ومعرفتها العلمية، وكفاءتها في علم الآثار والفن، وهديتها الأدبية المتميزة، وتعاطفها مع جميع أنواع البشر فضلاً عن معرفتها بأحوال الرجال وتقييم شخصياتهم، ورؤيتها السياسية البعيدة والنافذة وتقديرها القيم الإنسانية ونشاطها وحيوتها وشخصيتها الذكورية وحسها عام الصلب وكفاءتها العملية كل ذلك خفف من سحر الأنوثة ومن روح أكثر رومانسية[98].

في عام 1926 ومع نهاية موسم التنقيب زارها المنقب ماكس مالوان وكتب في مذكراته: «كانت فرحة برؤيتي لأنها كانت وحيدة ومجروحة المشاعر لأنها لم تعد ذات سطوة وقوة»[99]. كتب لها والدها يطلب منها ترك العراق والعودة إلى لندن، لكنها أصرت على أن تبقى، إذ ردت عليه قائلة: لا أستطيع مغادرة بغداد الآن لأني أريد مساعدة المتحف الذي أنشأته، وهو يبنى، لم يعد في العراق شيء ذو قيمة إلا التاريخ.

استنتاجات

بدا واضحًا للجميع وبعد مرور أكثر من مئة سنة على علاقة فيصل بكل من توماس إدوارد لورانس وبالمسّ غيرترود بيل أن فيصل قد لعب على الاثنين أكثر مما لعب به الاثنان، إذ أدرك مع نفسه دورهما سواء بالنسبة إلى لورانس ما قبل مؤتمر القاهرة 1921، أو بالنسبة إلى غيرترود بيل ما بعد ذلك المؤتمر. ولقد نجح كثيراً بالاستفادة منهما سياسيًا ولوجستيًا وجعلهما جسراً بينه وبين بريطانيا. وكان فيصل قد عرف غير لورانس قبل أن يلتقي به[100]، ولكنه قبل أن يجد لورانس بغيته في فيصل، اكتشف فيصل ما الذي يقدمه هذا الشاب البريطاني المتحفز الذي بدا عاشقًا للحياة العربية، وبقدر ما يصنفه البريطانيون ذكيًا، ولكنه بدا أمام فيصل غبيًا، فإذا كان يلبس الكوفية والعباءة العربية لا يعني أنه قد تخلى عن جاسوسيته.

---

(98) Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq 1914 - 1921* (London: Faber and Faber, 2010), pp. 34 - 67 and 81 - 109.

(99) Max E. L Mallowan, *Mallowan's Memoirs* (New York: Dodd, Mead and Company, 1977), p. 98.

(100) Ibid.

وكان فيصل قد أدرك أن المكتب العربي بالقاهرة ممثلاً للحكومة البريطانية قام بإرسال هذا العسكري الشاب، وهو لورانس، للعمل مع القوات العربية في الحجاز في تشرين الأول/أكتوبر 1916. ليغدو حلقة اتصال بين العرب والبريطانيين وفي 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1916. في الحمراء في وادي الصفراء، التقى الأمير فيصل الكابتن توماس إدوارد لورانس، ضابط الاستخبارات البريطاني قادمًا من القاهرة(101). وكتب المؤرخ البريطاني دايفيد ميرفي أنه على الرغم من وجود العديد من الضباط البريطانيين والفرنسيين، ولكن لورانس تميز بقوة كتاباته ومعرفته اللغة العربية والثقافة العربية التي تشبّع بها، فهو وحده كسياسي وعسكري ومؤرخ وكاتب يمثل قضية الحلفاء في شبه الجزيرة العربية وهذا ما خبره فيصل فيه. ولقد وجد لورانس في فيصل مثالاً رائعًا للقيادة العسكرية والسياسية والقومية العربية، إذ لم يخضع لإرادته أبدًا، بل حدث العكس بخضوع لورانس لإرادة الزعيم فيصل القيادية(102).

أما المسّ غيرترود بيل، فقد وجد فيصل فيها المرأة التي عشقت حياة الصحراء وخبرت البداوة العربية، وهي الأفضل بريطانيًا للقضايا العربية، وخصوصًا أنها وقفت ضد وعد بلفور 1916. ويعزو دايفيد هوغارث الفضل الكبير لها، إذ كان دورها التاريخي مؤثرًا، من خلال سفرياتها الواسعة في الشرق الأوسط منذ عام 1888. وكان لها دورها المتميز في التاريخ الحديث، إذ حملت خبرات واسعة في شؤون العرب وجغرافيتهم وطبائعهم(103)، وقد وجدت في شخصية فيصل قوة متفوقة لم يتمتع بها غيره من القادة العرب(104). وكانت قد التقت بالشيخ حرب من الحويطات في كانون الثاني/يناير 1914، وقدم لها «الكم الهائل والوفير من المعلومات» التي كانت مفتاحًا حاسمًا لنجاح السيطرة على ميناء العقبة والتعامل الواقعي مع «عناصر قبلية تمتد جغرافيًا بين سكة حديد الحجاز والأمداء الواسعة من صحراء النفود، وبخاصة في المناطق التي تنتشر فيها مجاميع الحويطات»(105).

---

(101) Thomas E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom* (London: Wordsworth Editions, 1997), p. 76.

(102) T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph: The Complete 1922 Oxford Text* (Saint Paul, MN: Wilder Publications, 2011), pp. 6 - 8.

(103) Rosemary O'Brien, ed., *Gertrude Bell: The Arabian Diaries, 1913–1914* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2000), p. 51.

(104) Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell,* p. 104.

(105) Wallach, *Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell Adventurer, Adviser to Kings, Ally of Lawrence of Arabia,* pp. 25, 115 - 118 and 202.

وكانت تقارير المسّ بيل تحتوي على معلومات استفاد منها لورانس كما أكد هوغارث في الحملات العربية لعام 1917 و1918[106].

(106) James Onley, *The Arabian Frontier of the British Raj: Merchants, Rulers, and the British in the Nineteenth - Century Gulf* (Oxford: Oxford University Press, 2008), pp. 23 - 26.

وكان لورانس قد استفاد جدًا من معلومات هوغارث في كتابه الذي نشره عام 1904. انظر: David George Hogarth, *The Penetration of Arabia: A Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula* (London: Lawrence and Bullen, 1904), pp. 12 - 91.

الفصل السادس

الشريف

نخبة فيصل

الشريفيون يخرجون من تحت عباءة فيصل

أولًا: نخبة فيصل عبر الأزمنة

إنه الرعيل الأول من جيل مخضرم بين قرنين هو جيل الاستنارة وجيل ما بين الحربين العظميين، فلقد كان لفيصل نخبة من الشباب الأحرار الأوائل الذين انتموا إلى كل من جمعيات القحطانية والعهد والعربية الفتاة والمنتدى الأدبي، ومنهم من استشهد على يد جمال باشا في دمشق وبيروت في المرحلة المبكرة الأولى التي سبقت الثورة 1916، ومنهم من رافقه من العسكريين والمدنيين الشريفيين في سنتَي الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1918 وقد تجمعوا أيام الحكومة العربية في دمشق (1918 ـ 1920) واستقطبهم فيصل، ثم النخبة التي عملت معه في العراق، سواء من العراقيين أو ممن التحق به في العراق من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وغيرهم.

1 ـ تسميتهم... ولماذا؟

ثمة دور تاريخي للنخبة العسكرية العربية الفاعلة تحت قيادة فيصل، وهي أغلبية عراقية ساحقة من الضباط الذين تسمّوا لاحقًا «الضباط الهاشميين»[1] .. وتسموا «الشريفيين»

---

(1) للتفاصيل، انظر: Sayyar Al - Jamil, «Arab Nationalist Pioneers in Mosul,» *International Journal of Contemporary Iraqi Studies*, vol. 3, no. 2 (November 2009).

إثر التحاقهم بالثورة العربية الكبرى (1916 ـ 1918)[2]. ولم يكن كل الضباط العراقيين من الشريفيين، فمنهم من بقي عثمانيًا ولم يتخل عن ولائه، خوفًا من البطش التركي، أو أنه كان غارقًا في تقاليده الموروثة، وله موقفه المضاد من البريطانيين، ومنهم غادر عثمانيته بفراره من جبهات الحرب وأسره على أيدي الإنكليز، فاستجاب لدعوة فيصل نفسه، وأصبح محسوبًا على الشريفيين. وعليه، فإن القادة والضباط العرب واجهوا جملة تحديات سببت انقسامًا خفيًا في بنيتهم لاحقًا. فمن هي تلك النخبة؟

2 ـ الضباط الشريفيون العراقيون

كان لهؤلاء دورهم في عمليات الثورة وفي الحكومة الفيصلية وتشكيلاتها العسكرية والأمنية المهمة ومن ثم خدموا تحت راية فيصل في العراق، وساعدتهم كفاءاتهم الميدانية والتنظيمية، وولاؤهم لفيصل مع انتمائهم العروبي وهدفهم لِبناء دولة عربية جديدة معتبرين فيصل رمزاً تاريخيًا لهم مجسدًا النبل والبسالة العربيين: «وفي صباح أول تشرين الأول 1918م، دخلنا دمشق،.. ولا أنسى الاستقبال الذي حصل لنا حين دخولنا دمشق.. والجيش النظامي بقيادة نوري السعيد وعلي جودة وجميل المدفعي وتحسين علي.. قابلتنا الأهالي بحماس شديد، وكانت النساء تزغرد، وكان العلم العربي قد رفع على دار الحكومة»[3].

3 ـ تعريف النخبة الشريفية والمعنى التاريخي

إنها نخبة فيصل وطاقم يقف من ورائه ويشاركه أدواره ومشروعاته، لم يكن ثوماس

---

(2) من أجل تفاصيل الثورة العربية الكبرى عام 1916، انظر كل من: أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997)، مج 1: **النضال بين العرب والأتراك**. انظر أيضًا: سليمان موسى، محرر: **الثورة العربية الكبرى: وثائق وأسانيد** (عمّان: وزارة الثقافة والفنون، 1966)، **والمراسلات التاريخية: الثورة العربية الكبرى**، 3 مج (عمّان: المؤلف، 1973)، مج 3: **الثورة العربية الكبرى، 1920 ـ 1923**.

وللاطلاع انظر فقط: مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، ط 4 (دمشق: دار طلاس للترجمة والنشر، 1987). ولقد تأكدت أن (المؤلف طلاس) لم يكتب هذا «الكتاب» بنفسه، وإنما استعان بباحثين لم يعلمنا بأسمائهم ممن كتبوا له هذا «الكتاب»!! وانظر للاطلاع أيضًا: قدري قلعجي، **الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1925: جيل الفداء يومًا بيوم مع كامل الأسماء والأدوار والوثائق**، ط 2 (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1994)، ص 138 ـ 152 و225 ـ 266 (من الملاحظ أن قدري قلعجي أطلق عنوان كتابه: **الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1925** من دون أن يوّضح لماذا أنهى موضوع الثورة عام 1925؟؟، وهذا خطأ تاريخي جسيم!).

(3) انظر: تحسين قدري، **مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول**، دراسة وتحقيق سيار الجميل (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 171.

إدوارد لورانس سوى مجرد ضابط ارتباط بين العرب والإنكليز كما وصفه نوري السعيد، حيث ساعد في مسألة الأسلحة والأجهزة المادية[4]، إذ إن قوة الجيش العربي نظامية مدربة، أكثرها من جنود العرب العراقيين والسوريين والفلسطينيين الذين كانوا في الأسر وخدموا وتدربوا في الجيش العثماني، ويقودهم أقدر الضباط العرب من خريجي مدارس أركان إسطنبول، ومنهم «قادة وحدات كبيرة وبرتب عليا كجعفر العسكري ونوري السعيد وجميل المدفعي ومولود مخلص وعلي جودت الأيوبي وتحسين العسكري وعبد اللطيف نوري وتحسين علي وغيرهم من الضباط السوريين والعراقيين»[5]، وهو ما أُطلق عليه «الجيش الشريفي»[6]. لقد استمد هذا التوصيف من مصطلح الشرافة المستمد من أشراف مكة كون سلالتهم تمتد سلاليًا إلى النبي محمد، وكانت لهم مكانتهم لدى السلاطين العثمانيين[7]، وكانت لهم التأثيرات السياسية المتنافسة بين النخبة الحضرية والجموع القبلية المنضوين تحت سلطة الأشراف[8]. هكذا، فإن الشريفيين هم من القادة والضباط العراقيين الذين جعلوا من ولائهم تسمية لهم[9].

4 ـ استمداد الشرعية السياسية: أيديولوجيا جمعية العهد

آمن كل الضباط العراقيين الشريفيين بمبادئ جمعية العهد (1913)[10]، وكان جلّ أعضائها منهم[11]. ثم تحولوا من العثمنة إلى العروبة، وانخرطوا في الجيش العربي بقيادة

---

(4) توفيق سعيد الدملوجي (العقيد)، والذكريات ... (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000)، ص 96.

(5) المصدر نفسه، ص 97.

(6) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، ط 2 (دبي: جلوبال انفورميشن تكنولوجيز، 2004)، ص 189.

(7) سيار الجميل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص225 ـ 268.

(8) Timothy J. Paris, *Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920–1925: The Sherifian Solution* (London: Frank Cass, 2003), pp. 112 - 119.

(9) Teitelbaum, «Sharif Husayn Ibn Ali and the Hashemite Vision of the Post - ot- Joshua toman Order: From Chieftaincy to Suzerainty,» *Middle Eastern Studies*, vol. 34 no. 1 (January 1998), pp. 103 - 122.

(10) انظر التفاصيل في: محمد المهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، وقف على تصحيحه وطبعه سعد آل جريو (طبع على نفقة المؤلف) (بغداد: مطبعة الفلاح، 1923)، جمعية العهد وتأسيسها في الأستانة وبرنامجها السياسي، ص 33 ـ 34.

(11) Edmund A. Ghareeb and Beth K. Dougherty, *Historical Dictionary of Iraq* (Lanham, MA: Scarecrow Press, 2004), pp. 59 - 60.

الأمير فيصل[12]. وكان العهديون يؤمنون بأن الاتحاد سيحدث بين العراق وسورية. وهو بداية لاتحاد العرب جميعًا لاحقًا في مملكة واحدة وظل علم واحد. وانقسم العهديون إزاء بريطانيا إلى معتدلين وراديكاليين، إثر انفضاح أسرار سايكس - بيكو عام 1917، وتنامت مشاعر مضادة بعد تنكُّر بريطانيا لوعودها المقطوعة للعرب[13]، فواجه فيصل تحديات صعبة رفقة ضباطه الشريفيين وطاقمه في الحكومة العربية على مدى حكمه بالرغم من تأثير جماعة العهد القوي في حكومته في دمشق[14]. وكان دور ياسين الهاشمي مؤثرًا في تأسيس العهد[15] والاتفاق مع العربية الفتاة المدنية منذ 1913، وحدد الهدف برسم حدود الدولة العربية المقبلة واسترشد بها الشريف حسين بواسطة ولده فيصل[16].

كان يمثل النشاط السياسي الحيوي للعهديين ضابط موصلي شاب اسمه محمد شريف الفاروقي (1891 ـ 1920)، إذ كان نشيطًا جدًا في جمعية العهد أثناء وجوده ضابطًا في سورية، وانشق عن العثمانيين، وسعى بمحادثاته مع البريطانيين لدعم الثورة العربية[17]، ويشكك البعض في انتمائه إلى العهديين[18]. عندما أطيح بالحكومة العربية 1920، انتقل مقر العهد إلى حلب ودير الزور من أجل تأسيس حكومة عربية للعراق. ولكن انهيار دمشق أضعف العهديين كثيرًا، وتوقفت أنشطتهم لاحقًا. وأعتقد أن انقسامًا حادًّا بسبب المواقف من بريطانيا وفرنسا. ناهيكم بتحول تاريخي قد حدث من المسألة العربية إلى

---

(12) انظر، البصير، المصدر نفسه، وفصله بعنوان: «تهافت الضباط العراقيين والالتحاق بالثورة العربية»، ص73. انظر أيضًا: سيار الجميل، «مفهوم الدولة وركائزها: تجربة الحكومة العربية في دمشق: مشروع الملك فيصل في بناء دولة عربية اتحادية (الولايات العربية المتحدة)،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، إعداد وتحرير هند أبو الشعر (المفرق؛ عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999)، ص 15 ـ 37.

(13) Elie Kedourie, *In the Anglo - Arab Labyrinth: The McMahon - Husayn Correspondence and its Interpretations, 1914–1939* (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1976), pp. 78 - 79, and R. H. Lieshout, «“Keeping Better Educated Moslems Busy”: Sir Reginald Wingate and the Origins of the Husayn - McMahon Correspondence,» *The Historical Journal*, vol. 27, no. 2 (June 1984), pp. 453 - 463.

(14) سهيلة الريماوي، **الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي (1918 ـ 1920م)** (عمّان: دار مجدلاوي، 1998)، ص 78.

(15) البصير، **تاريخ القضية العراقية**، ص 111 ـ 112.

(16) انظر: العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 196.

(17) انظر عنه: محمد طاهر آل المصيب العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، 3 ج (الموصل: مطبعة عيسى محفوظ، 1924)، ج 1، ص 219 ـ 220. وانظر التفاصيل عنه لاحقًا.

(18) David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Non Basic Stock Line, 2009), pp. 56 - 58.

طرح البديل الذي تمثّل بالمسألة السورية[19]، والوعي بالأوطان في إطار الأمة القومية[20].

5 ـ انجذاب نحو فيصل والقضية العربية

كان لزعامة فيصل تأثيرها في الرأي العام العربي والأجنبي معًا. فضلاً عن تميزه بالذكاء والحلم والصبر والحكمة والتصميم والرؤية الموحدة للعرب وتوازنه[21]، وكما وصفه المؤرخ حنا بطاطو أن فيصل أدرك بما لا يقبل الجدل حدوده وحدود البلد الذي تولى حكمه إدراكًا جيدًا[22]، وبقدر ما كان الأتراك يتهمون فيصل ووالده بشتى التهم كونه تحالف مع الإنكليز ضدهم[23]، بقدر ما جذب إليه العرب من جراء ممارسات الأتراك الاتحاديين القاسية. وعليه، «فهو لم يرقص قط على الأنغام البريطانية»[24]. ولم يذعن للبريطانيين ولا للفرنسيين عندما حكم سورية بين عامَي 1918 ـ 1920، إذ عرف أساليب المناورة، وبرع في سياسته التي عرف بها «خذ وطالب» والتي اتبعها الضباط الشريفيون العراقيون، إذ كان مدرسة سياسية لهم[25].

ثانيًا: التكوين السياسي

اعتمد فيصل على مكوّنين أساسيَّين في بناء دولته العربية المستقلة أو مملكته بالعراق، وحرص على أن يكون فيهما متوازنًا، وأن يجعل الجميع على مسافة موحدة منه:

---

(19) لقد عالج موضوع «من العربية إلى السورية»، علي سلطان في بحثه «الملك فيصل الأول في سورية: القومية وأطماع الغرب،» في: مجموعة من المؤلفين، **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**، ص 293 ـ 294.

(20) من الأهمية بمكان مقارنة ما قاله محب الدين الخطيب في مقالتيه: «قوميتنا العربية،» **جريدة العاصمة**، العدد 48 السنة 1 (آب/أغسطس 1919)، و«الوطنية،» **جريدة الحكومة الرسمية** (دمشق)، العدد 82 السنة 1 (كانون الأول/ديسمبر 1919).

(21) Thomas E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom* (London: Wordsworth Editions, 1997), pp. 76, 89 and 103 - 106, and Florence Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell,* 2 vols. (London: Ernest Benn Limited, 1927), vol. 1, pp. 98 - 99.

(22) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1983) (1st published 1978), p. 331.

(23) انظر نموذج ذلك مثلاً ما كتبه جمال باشا (السفاح) في مذكراته، **مذكرات جمال باشا**، إعداد محمد السعيدي؛ تقديم سليمان الرياشي (بيروت: دار الفارابي، 2013)، الكتاب الأول، ص 292 ـ 293 و410 ـ 411.

(24) Batatu, Ibid., p. 332.

(25) سيار الجميل، «إنتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة،» في: الطاهر لبيب [وآخرون]، **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ 10 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992)، ص392 ـ 394.

أولهما: الضباط الشريفيون مستفيدًا من تجاربهم وخبراتهم العسكرية؛ وثانيهما رجالات بلاد الشام والعراق من المستنيرين والأحرار العرب الذين لهم انتماءاتهم القومية، وثقافتهم المدنية والوظيفية والمالية والتربوية، فضلاً عن زعماء البلاد وأعيانها الحضريين وشيوخها العشائريين المتنوعين، فكان وسيطًا إيجابيًا بين كل العناصر ليس بوصفه شريفًا حجازيًا، بل كونه زعيمًا عربيًا له دوره كوسيط للمصالح المشتركة[26]. فعدّ دعامة تستند إليها كل الميول والاتجاهات، وقاد السفينة العربية في أصعب الظروف[27]. فنجح في تجربتيه السورية والعراقية وفعالياتهما ونظامهما الخدمي والوظيفي والأمني[28]، ونجح في تكوين مالية جديدة لهما مع نظاميهما التعليميين الجديدين[29] وكان على رأسيهما تربوي براغماتي اسمه ساطع الحصري.

ثالثًا: الضباط الشريفيون العراقيون

ينحدر أغلبهم من الطبقة الاجتماعية الوسطى في العراق، وأغلبهم من الموصل، وهم من خريجي إسطنبول. ويقدر عددهم بين 300 (حسب تقدير حنا بطاطو)[30] ـ 400 ضابط كقادة وآمرين ومراتب دنيا من المشاة والخيالة والمدفعية، وهم:

1 ـ الأوائل الذين انضموا إلى نداء الشريف الحسين في إعلان الثورة 1916.

---

(26) قال فيصل في خطابه التاريخي بحفلة نادي العرب في مدينة حلب: «لا أكثرية ولا أقلية لدينا، ولا شيء يفرق بيننا، إنما نحن جسم واحد.. نحن عرب تجمعنا الحياة ويفرقنا الموت، لا تفريق بيننا إلا إذا قبرنا.. وأؤمل أن كل سوري يكون عربيًا قبل كل شيء، وأؤمل أن كل من يتكلم بالعربية يشعر بمثل هذه العواطف فإني أشعر بها. لا يحترمنا العالم المتمدن إلا إذا احترمنا أنفسنا واحترم بعضنا بعضًا وإن انقسمنا إلى أحزاب وشيع فإنه يستخف بنا وهو ينظر إلى الأديان كافة نظرًا واحدًا، ولا يميز بين أمة وأمة. وأريد أن ينظر المجتمع العربي بعضه إلى بعض بهذا النظر..» انظر: جريدة **العاصمة** (الصحيفة الرسمية للحكومة العربية 1918 ـ 1920م) (دمشق)، العدد 35 (17 رمضان 1337 الموافق 16 حزيران/يونيو 1919).

(27) من أجل تفاصيل أكثر ومن وجهة نظر نقدية، انظر: علي سلطان، **تاريخ سوريا: 1918 ـ 1920: حكم فيصل بن الحسين** (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1987)، ص 78، 103 و112.

(28) كوليت الخوري، أوراق فارس الخوري، الكتاب الثاني: **العهد الفيصلي وبداية الانتداب (1918 ـ 1924م)** (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1997)، ص 34.

(29) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), pp. 139 - 145, and Reeva S. Simon, «The Hashemite «Conspiracy»: Hashemite Unity Attempts, 1921 - 1958,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 5, no. 3 (June 1974), pp. 314 - 327.

(30) Batatu, *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers*, p. 319.

2 ـ اللواحق الملتحقون بولده الأمير فيصل، وهم عدد كبير من الضباط.

إضافة إليهم، فإن مدنيين التحقوا به في الحرب وفي الدولة أمثال: ناجي السويدي 1882 ـ 1942 وهو من رجال القانون العراقيين المعروفين، تخرج في كلية الحقوق بالأستانة، وعمل في الداخلية العثمانية، لكن العثمانيين حاولوا إيقافه عن مهامه في التغيير، فاستقال من وظائفه عام 1918. والتحق بحكومة دمشق واليًا على حلب ليعمل جنبًا إلى جنب جعفر باشا العسكري ومستشارًا قانونيًا للملك فيصل إبان حكمه لسورية، وعاد إلى العراق ليستقبل فيصل في البصرة إثر تسنمه عرش العراق. شغل ناجي باشا مناصب متعددة في العراق منها منصب رئيس الوزراء في الفترة الممتدة ما بين 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1929 إلى 23 آذار/مارس 1930[31]. كما التحق عدد من المدنيين العراقيين بحكومة فيصل بدمشق، وكانت الأخبار تصل العراق وهو يعيش أقسى أيامه مع نهاية الحرب الأولى[32].

بالرغم من تباين تلك النخبة الوطنية، لكنها غدت بنية متراصة الصفوف، جمعتهم العروبة، وباعدتهم المصالح الفئوية والطبقية[33]. هيمن خمسة من زعمائهم على أعلى المناصب، واعتمد فيصل عليهم اعتمادًا أساسيًا سواء كان ذلك في سورية أو في العراق: جعفر العسكري ونوري السعيد وعلي جودت الأيوبي وياسين الهاشمي ومولود مخلص، الذين كانوا يؤيدون فيصل وحكومته، ولكن سيكون الإنكليز سببًا في انقسامهم، وخصوصًا موقف ياسين الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي في حكومة المديرين العربية بدمشق الذي اعتقله البريطانيون عشية إكمال انسحابهم من سورية في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1919؛ فنتج من ذلك تناقض مرير بين التأييد والتنديد. ويبدو أنهم ترجموا خطاب فيصل وخطواته السياسية إلى أساليب عمل، إذ اقتنعوا قناعة حقيقية بأن العرب لوحدهم لا يمكنهم فعل شيء ذي بال، وأنهم مدينون بأسلحتهم ودعايتهم وبمناصبهم وبمواقعهم للبريطانيين!! لقد اتبعوا منهج فيصل في التوازن السياسي، فهو يعلن عداءه للإنكليز، لكنه يجاريهم لتحقيق هدفه، واشتهر بمبدأ «خذ وطالب»[34].

---

(31) راجع عنه: *Records of Iraq 1914 - 1966* (Chippendham, Wilts, UK: Antony Rowe Ltd., 2001).
انظر أيضًا: البصير، **تاريخ القضية العراقية**، ص 115.

(32) لمزيد من التفاصيل، انظر: Al - Jamil, «Arab Nationalist Pioneers in Mosul».

(33) لمزيد من التفاصيل، انظر: Arnold Talbot Wilson and Gertrude Lothian Bell, *Review of the Civil Administration of Mesopotamia* (London: H.M. Stationery Off., 1920), chap. 10: «The National Movement», pp. 126 - 147.

(34) انظر: سيار الجميل، «سيمون بوليفار العرب: كيف كتب علي علاوي تاريخ الملك فيصل الأول؟،» **المستقبل العربي**، السنة 38، العدد 443 (كانون الثاني/يناير 2016).

رابعًا: الأدوار التاريخية للقادة العراقيين الشريفيين

1 ـ محمد شريف الفاروقي[35]

ضابط موصلي عثماني، كان مرافقًا لفخري باشا قائد فيلق 12 في الموصل ووكيل قائد الجيش الرابع برتبة عميد، ونصب وكيلاً لجمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية، وغدا العضو الأول بجمعية العهد والتحق بالعربية الفتاة وزامل ياسين الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق 12، ثم وثق علاقاته في سورية بكل من سامي الصلح ومحمد المحمصاني واجتمع بهما بوجود فيصل في حلب، وأطلعوه على خططهم ليساهم معهم. شعر جمال باشا بخطورة الحركة العربية. قال الفاروقي: «فكان ما كان منه من حبس بعض إخواننا، وأما نحن الضباط، فبعد أن حبست في حلب مقدار 15 يومًا، أصدر أمره بإرسالنا أنا وياسين بك وأمين لطفي بك وعبد القادر أفندي إلى الأستانة..»[36]، ولما أطلق سراح الفاروقي، أرسل إلى جبهة قتال غاليبولي، فاجتاز خط النار وسلّم نفسه للبريطانيين، وأرسل إلى مصر للقيام بدوره. راسل الشريف حسين، فاعتمد عليه بعد أن وجد فيه الثقة والإخلاص والمعرفة بالخطط السياسية وكسب المستنيرين العرب، واعتماده على كل من علي جودت ومولود مخلص وعبد الله الدليمي»[37]. ويبدو لي أنه كان أول من نسّق الأدوار مع الإنكليز بالقاهرة، إذ حل في الحجاز ونظّم الضباط العراقيين القياديين للانطلاق بالثورة وعملياتها[38]. وانتدب معتمدًا في مصر لاستحصال المساعدات المالية والعسكرية اللوجستية البريطانية للحجاز[39]، وشرع بتأدية مهامه السياسية والدبلوماسية الموكولة إليه[40]. وكان يتمتع برتبة «وزير» لكن الشريف حسين استغنى عنه 1917، ولا تعرف أسباب إقالته، فعاد إلى العراق بعد احتلال الإنكليز بغداد 1917، وقُتل أثناء ثورة العشرين في العراق، وهو لم يكمل الثلاثين من العمر[41]، وبقيت ميتته غامضة حتى اليوم! وأعتقد أن تصفيته كانت على يد الإنكليز لأسباب مجهولة. كان للرجل دوره البارز في القاهرة بتحركاته واتصالاته الواسعة،

---

(35) راجع ما كتبته عنه في: سيار الجميل، زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب (بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999)، ص 324 ـ 316.

(36) العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج 1، ص 219 ـ 220.

(37) المصدر نفسه، ج 1، ص 229.

(38) المصدر نفسه، ج 1، ص 231.

(39) المصدر نفسه، ج 1، ص 274 ـ 300 و310 ـ 325.

(40) المصدر نفسه، ج 1، ص 274 ـ 279.

(41) المصدر نفسه، ج 1، ص 322.

ونجح في تنظيم عراقيين ومصريين وسوريين، ومنهم نوري السعيد ورؤوف عبد الهادي وأمين المعلوف وفؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب وركز على أبناء مدينته الموصل فكان منهم علي جودت ومولود مخلص وعبد الله الدليمي وجميل المدفعي وغيرهم[42].

2 ـ نوري السعيد: دينامو الحرب والسياسة

أقرب المقربين إلى فيصل، وأول من دخل دمشق، كان مسيطرًا على جهاز الأمن في دمشق، وكان بمعية فيصل في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1918 أثناء لقائه بالجنرال أللينبي القائد العام لقوات الحلفاء في فندق فيكتوريا بقلب دمشق، وحضور لورانس مترجمًا. كما واختاره فيصل ليرافقه إلى مؤتمر الصلح في فرساي مطلع 1919 إلى جانب رستم حيدر والمرافق تحسين قدري ولورانس مترجمًا[43]. ولد نوري في بغداد عام 1888 من أب موصلي اسمه سعيد أفندي بن صالح أفندي بن الملا طه الموصلي وأم قره غولية بغدادية[44] تخرّج في الكلية الحربية 1906، وعُيِّن ضابطًا عثمانيًا، والتحق بكلية الأركان في إسطنبول 1911، وانخرط في جمعية العهد 1913. كان نشاطه كبيرًا ومؤثرًا، مما دعا حكومة الاتحاديين إلى إبعاده عن إسطنبول[45]. تفوّق على الجميع بحركته ومناوراته وقربه من فيصل لفهمه السياسي للبريطانيين والفرنسيين[46]، واتصف برؤيته الواسعة للأمور. تنقل بين القاهرة والبصرة ونفاه الإنكليز في إثر احتلالها من قبلهم، ثم أرسل إلى مصر ليكون له دوره قبيل اندلاع الثورة 1916، وعند اندلاعها نصّب رئيسًا لأركان الجيش العربي.

أظهرت الحرب قدراته وذكاءه وقوة شخصيته في أيلول/سبتمبر 1918. رفض نوري

(42) مراجعة دقيقة لمراسلات محمد شريف الفاروقي الرسمية مع الملك الحسين بن علي، وكلها محررة في كتاب العمري، المصدر نفسه، ج 1، ص 274 ـ 325. وعن محمد شريف الفاروقي، انظر أيضًا في: **مذكرات جعفر العسكري**، تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوة (لندن: دار اللام، 1988) ص 103، م 6، والجميل، **زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب**، ص 241 ـ 243.

(43) فالديمار غالمار، **عراق نوري السعيد: انطباعاتي عن نوري السعيد بين سنة 1954 ـ 1958**، دراسة وتقديم وتحقيق سيّار الجميل، ط 1 محققة (بغداد: دار ميزوبوتيميا للطباعة والنشر والتوزيع، 2015)، ص 38 ـ 39.

(44) معلومات تاريخية جديدة عن أصل نوري السعيد من الموصل، تجدها في: راقم أفندي، **ديوان راقم أفندي 1853 ـ 1891م: ما تبقى من شعر عبد الله راقم أفندي النجيفي الموصلي**، دراسة وتحقيق سيار الجميل (بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر، 2019)، ص 34.

(45) عبد الرزاق أحمد النصيري، **نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932** (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1988)، ص 17.

(46) Yitzhak Nakash, *Reaching for Power: The Shi'a in the Modern Arab World* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011), p. 87.

إخلاء محطة مدينة درعا، ولم يستجب لطلب جورج بارو (George Barrow)، وأجابه بشجاعة بأن ما تحققه القوات العربية يكون تحت إشرافها وإدارتها مباشرة من دون وصاية من أحد[47]، كما فعل المستحيل لدخول العرب دمشق قبل الإنكليز، إذ عرف الخدعة البريطانية فأصر نوري أن يدخل بقواته قبل الإنكليز وحقق ذلك بالرغم منهم[48]. فكان أول الداخلين يقود قواته النظامية في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1918، ووزع قطعاته على مراكز دمشق الحساسة لضمان الأمن والنظام، فازداد ثقله عسكريًا وهيبته سياسيًا، كما تحلى بقدراته في حل خلافات كانت تحدث بين العراقيين والسوريين أو بين العرب والبريطانيين[49].

شارك فيصل في محادثات الصلح مع الأتراك 20 آب/أغسطس 1918، وتولى تصريف الأمور في غياب جعفر العسكري، وطرح على فيصل استدعاء ياسين الهاشمي قائد أحد فيالق الجيش العثماني الرابع في إثر انهزام قواته أمام البريطانيين والتجائه إلى دمشق، فاستدعاه فيصل ليوليه رئاسة مجلس الشورى الحربي في الشام نظرًا إلى كفاءته وقوة شخصيته[50]. قاد نوري باشا قواته النظامية ودخل حلب محررًا يوم 25 /11/ 1918 مدعومًا من الإنكليز، فانسحب الأتراك منها[51]. وكانوا يسيطرون على نصف حلب، وقد شاركت قوات علي رضا العسكري في الهجوم وتقهقر الأتراك وطوردوا حتى محطة السلمية التي تبعد 16 كم عن حلب[52].

كان نوري قوميًا ومدافعًا شرسًا عن آرائه، ويقف على مسافة واحدة من أي عربي من دون التأثر عاطفيًا أو جهويًا. وكان أيضًا حلقة وصل بين كل الأطراف[53]. اختاره فيصل في عداد أعضاء وفده إلى مؤتمر الصلح بباريس 1919[54]. كان تأثيره كبيرًا في ذلك المؤتمر في كانون الثاني/يناير 1919 منبهًا فيصل من مزالق لورانس ومصوبًا ترجماته، واصطحبه

(47) سليمان موسى، **مذكرات الأمير زيد في الحرب في الأردن 1917 ـ 1918**، ط 3 (عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011)، ص 164.

(48) صبحي العمري، **لورانس كما عرفته** (بيروت، دار النهار، 1969)، ص 231.

(49) أمين سعيد، **أسرار الثورة الكبرى ومأساة الشريف حسين** (بيروت: دار الكاتب العربي، 1965)، ص 239.

(50) يوسف الحكيم، **سوريا والعهد الفيصلي**، ط 3 (بيروت: دار النهار، 1980)، ص 116 (طبعة 1، 1966).

(51) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982)، ص 138.

(52) العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 201 ـ 202.

(53) فالديمار غالمان، **عراق نوري السعيد**، دراسة وتقديم وتحقيق سيار الجميل، ط 1 المحققة (بغداد: دار موزيبوتيميا، 2015)، ص 51 ـ 53.

(54) أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق: مطابع ابن زيدون، 1956)، ص 72.

فيصل ثانية إلى باريس للتفاوض بشأن سورية، ووصف بالأكثر إخلاصًا لسورية ومصيرها، إذ كانت له اتصالاته الكبيرة وهو في دمشق مفوضًا بصلاحيات واسعة من فيصل نفسه[55]. ويبدو أنه خبِر الاستراتيجية التي خطط لها كل من الإنكليز والفرنسيين واتبعاها في الشرق الأوسط[56]. خاض نوري المفاوضات بتخويل من الحكومة مع الجنرال غورو في بيروت إثر قرار فرنسا الامتداد نحو أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا، ولكنهما وصلا إلى طريق مسدود، بفرض الانتداب الفرنسي على سورية في إثر اجتماع فيصل مع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا وأذاع نوري السعيد ذلك الاتفاق[57]. وكانت النتيجة أن أُجبر فيصل على إعلان الاستقلال والمناداة به ملكًا دستوريًا لوضع كل من البريطانيين والفرنسيين أمام الأمر الواقع، وانعقد المؤتمر السوري في 6 آذار/مارس 1920 [58] ولم يشارك فيه نوري كونه سافر إلى أوروبا مكلفًا من جانب فيصل في مهمة سياسية لإقناع البريطانيين والفرنسيين وجرى تتويج فيصل ملكًا على سورية، وألفّ الوزارة علي رضا الركابي فبدأ زمن جديد، قلّ فيه نفوذ الضباط العراقيين. وتشير بعض المصادر إلى أن الركابي لم يكن مؤهلاً لشغل هذا المنصب، بينما تشير مصادر أخرى إلى كفاءته وحزمه الإداري[59].

قام فيصل بإرسال مستشاره الخاص نوري السعيد موفدًا إلى بيروت يوم 9 تموز/يوليو 1920 في إثر تحشيد فرنسا قواتها قريبًا من حدود غرب سورية، وقابل نوري الجنرال غورو طالبًا منه تسهيل سفر الملك إلى أوروبا الذي سيوجه في اليوم التالي إنذاره شفويًا إلى الملك فيصل، وربط غورو موافقته على سفر الملك الاعتراف بالانتداب وقبول شروط الإنذار، وكان نوري قد بذل جهودًا كبرى لإيجاد حلول وسطى للأزمة التي تفاقمت في إثر

(55) إحسان هندي، كفاح الشعب العربي السوري **1908 - 1948** (دمشق: إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، 1962)، ص 19.

(56) Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917–1919* (London: Routledge, 1999).

(57) Hubert Young, *The Independent Arab* (London: J. Murray, 1933), p. 263.

(58) ماري شهرستان ألماظ، **المؤتمر السوري العام 1919 - 1920** (بيروت: دار أمواج، 2000).

(59) Brian Cadner, *Allenby* (London: Cassell, 1965), p. 215.

جاء عنه في تقرير الاستخبارات البريطانية لسنة 1919 عن الشخصيات الرئيسية في دمشق ما يلي: «عمره 50 عامًا، جنرال سابق في العهد التركي، أمر بتسليم القيادة في منطقة طبرية للدفاع عنها، ولكنه هرب والتحق بالبريطانيين، ... وأستاذ قديم في أساليب الدسائس التركية». انظر: عبد العزيز العظمة، **مرآة الشام وتاريخ دمشق وأهلها**، تحقيق نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، 1987)، ص 228. كما يورد عنه محمد كرد علي أخبارًا سيئة. انظر: محمد كرد علي، **خطط الشام** (دمشق: مكتبة النوري، 1983) ج 3، ص 154.

المتغيرات السورية الداخلية، فاضطرت الحكومة السورية إلى قبول الإنذار![60]، فما كان من غورو إلا أن قاد جيشه نحو دمشق، ووقعت معركة ميسلون ضد الجيش العربي (24 تموز/يوليو 1920) التي استشهد فيها عدد كبير من المناضلين وفي مقدمتهم وزير الدفاع يوسف العظمة [61]. وفي إثر معركة ميسلون البطلة، كان نوري قائدًا لموقع دمشق مخولاً بالتفاوض مع الفرنسيين، وبذل جهودًا حتى النفَس الأخير من دون أية فائدة، ودخلت القوات الفرنسية دمشق يوم 25 تموز/يوليو 1920، فآثر الالتحاق بركب فيصل تاركًا دمشق في رحلة مشتركة، ولكن إلى العراق هذه المرة[62].

في العراق، اعتمد عليه فيصل الأول اعتمادًا كبيرًا، وكان ينفرد عن غيره بالثقة التي حظي بها من لدن فيصل، وكان مستشاره في حسم الكثير من القضايا الحيوية التي تخص العراق. وفي عام 1922 أصبح أول مدير عام للشرطة العراقية لفرض الأمن والنظام في العراق، استخدم هذا المنصب لملء القوة برجاله، وهو تكتيك يكرره في مواقع لاحقة؛ كان ذلك أساس نفوذه السياسي الكبير في السنوات اللاحقة[63].

كان حليفًا موثوقًا لفيصل، الذي عيّنه عام 1924 نائبًا لقائد الجيش لضمان ولاء القوات للنظام. مرة أخرى، استخدم نوري الموقف لبناء قاعدة قوته الخاصة. خلال عشرينيات القرن العشرين، ودعم سياسة الملك لبناء القوات المسلحة للدولة الناشئة، على أساس ولاء الضباط الشريفيين، وهم من الجنود العثمانيين السابقين الذين شكلوا العمود الفقري للنظام[64]. اقترح فيصل لأول مرة نوري كرئيس للوزراء في عام 1929، ولكن في عام 1930 فقط تم إقناع البريطانيين بالتخلي عن اعتراضاتهم. كما هي الحال في التعيينات السابقة، كان نوري سريعًا في تعيين مؤيدين في المناصب الحكومية الرئيسية، لكن هذا أضعف فقط قاعدة الملك الخاصة في الخدمة المدنية، فتوترت العلاقة الوثيقة السابقة

---

(60) Efraim Karsh and Inari Karsh, *Empires of the Sand. The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789 - 1923* (Cambridge, MA: Harvard University Press 1994), pp. 32 - 38.

(61) قاسمية، الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920، ص 138، والنصيري، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932، ص 70.

(62) Dan Eldar, «France in Syria: The Abolition of the Sharifian Government, April - July 1920,» *Middle Eastern Studies*, vol. 29, no. 3 (July 1993) pp. 487 - 504.

(63) Waldemar J. Gallman, *Iraq under General Nuri: My Recollection of Nuri Al - Said, 1954–1958* (Baltimore, MA: Johns Hopkins University Press, 1964).

(64) Liora Lukitz, *Iraq: The Search for National Identity* (London: Routledge Publishing, 1995), pp. 256 - 257.

بين الرجلين. كان من بين الأعمال الأولى التي قام بها نوري كرئيس للوزراء توقيع على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية لعام 1930، وهي خطوة لا تحظى بشعبية، حيث إنها أكدت بشكل أساسي السلطات البريطانية الإلزامية ومنحتهم امتيازات عسكرية دائمة في البلاد حتى بعد تحقيق الاستقلال الكامل. في عام 1932، قدم قضية تعزيز استقلال العراق لعصبة الأمم. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1932، أقال فيصل نوري كرئيس للوزراء وعين ناجي شوكت، مما حد من نفوذ نوري إلى حد ما. وبعد وفاة فيصل في العام التالي وانضمام غازي، انخفض احتمال وصوله إلى القصر. وما زاد من تأثيره كان صعود ياسين الهاشمي، الذي سيصبح رئيسًا للوزراء لأول مرة عام 1935.

3 ـ دور ياسين باشا الهاشمي وأعماله التنظيمية

عاش ياسين حلمي باشا الهاشمي بين 1884 و1937، وهو من أبرز القادة العراقيين. شارك الرجل في معارك الحرب الأولى[65]، وفي خريف 1917، أوفدت القيادة التركية العامة الفرقة 24 التي يقودها الهاشمي إلى جبهة فلسطين، وقد حارب عثمانيًا ضد البريطانيين، وانسحب أمام قوات الجنرال أللينبي وذهب إلى دمشق جريحًا[66] في بداية 1918، وقد تجدد اللقاء فيها مع رفاقه في الحركة العربية. وإذا كان جعفر قد اعتمد عليه الإنكليز في مهمات كبيرة، فإن الهاشمي بقي خصمًا لدودًا لهم، وسيعتقلونه لاحقًا[67]، فيغدو بطلاً قوميًا، وقد وصفه محمد عزة دروزة بأسمى الصفات الرجولية والأخلاقية العالية[68]. قال الهاشمي: «إن الإنكليز غير مخلصين لا لفيصل ولا لوالده إنهم بعد أن تعاهدوا على إنشاء دولة عربية اتفقوا مع اليهود وأصدروا وعد بلفور. كما اتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم سورية». للرجل رؤية مخالفة لما يراه جعفر ونوري، فالهاشمي يرى التفاهم مع الأتراك الاتحاديين بديلاً من الثورة ضدهم أجدى وأنفع، لأن انهيار تركيا العثمانية سينتهي بخضوع العرب للحلفاء الذين سيجعلون بلادهم مناطق نفوذ وسيطرة.. في حين غدا جعفر العسكري اليد اليمنى للأمير فيصل على امتداد الثورة وفي حكومته الفيصلية بدمشق. وبوساطة نوري السعيد، استقبل فيصل ياسين باشا بحضور نوري السعيد وأحمد قدري وعلي رضا الركابي وعلي جودت الأيوبي، وأشار ياسين باشا إلى أهمية ضرورة العمل المشترك من أجل

(65) البصير، تاريخ القضية العراقية، ص 111.

(66) سامي القيسي، ياسين الهاشمي وأثره في تاريخ العراق المعاصر (بغداد: دار دجلة، 2013)، ج 1.

(67) Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Syria and Iraq* (London: Frank Cass, 1995), p. 211.

(68) انظر: محمد عزة دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305 ـ 1404 هـ/1887 ـ 1984م، 6 مج (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1993)، مج 1، ص 372.

استقلال الأمة العربية. كان فيصل يستمع اليه باهتمام بالغ، وعرض عليه رئاسة الأركان الحربية للجيوش العربية الشمالية التي كان يتولاها هو نفسه، لكن ياسين أبى أن يقبلها مكتفيًا برئاسة أركان حرب الحاكم العسكري بدمشق علي رضا الركابي، ليستقر فيها(69).

أما الأدوار الجوهرية له فتمثلت بإعادة تنظيم الجيش وتطوير قدراته القتالية، وإلحاق كل المتطوعين الذين فقدوا وظائفهم. كما بدأ السعي لتكوين حزب سياسي سماه حزب الاستقلال مناصرًا للحكومة بتمكين العناصر الكفوءة في خدمة دوائر الحكومة الجديدة، وساهم بتأسيس مجلس المديرين وهو يوازي مجلس الوزراء برئاسة علي رضا الركابي، في حين ترأس الهاشمي مجلس الشورى العسكري، وغدا يسمى مدير الحربية العام(70). وبدا واضحًا شيء من التناظر والتكايد بين الرجلين(71).

حلّ ياسين باشا الجيش الشمالي ليعيد هيكلته بتنظيم الجيش العربي(72)، فتألف من ثلاث فرق: فرقة حلب (الشمال) وفرقة دمشق (الوسط)، وفرقة درعا (الجنوب)، وتنقسم كل فرقة إلى ثلاثة ألوية: مشاة ومدفعية وخيالة، ولكل لواء ثلاثة أفواج، والفوج ثلاث سرايا. ووفر الرجل امتيازات لتشجيع الانخراط في الجيش.. ونظم إدارة الدوائر العسكرية كالميرة والإعاشة والتسليح والمدفعية والمخابرة والخيالة(73). كانت شخصيته مريبة بنظر الإنكليز، إذ لم يتهاون أمامهم أو اعترف باتفاقهم مع الفرنسيين، فدبروا اعتقاله على مدى ستة أشهر، وأُطلق سراحه بجهود كل من فيصل وجعفر العسكري لدى الجنرال أللينبي(74). كان دور الرجل قويًا جدًا في تنظيم الحكومة وتأليفها على أسس قوية وعلمية سياسيًا وعسكريًا،

---

(69) Muhammad Y. Muslih, *The Origins of Palestinian Nationalism* (New York: Columbia University Press, 1988), p. 144.

(70) Basheer M. Nafi, «King Faysal, the British and the Project for a Pan - Arab Congress, 1931 - 33,» *Islamic Studies*, vol. 37, no. 4 (1998), pp. 479 - 502.

(71) دروزة، **مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305 ـ 1404 هـ/1887 ـ 1984م**، ج 1، ص 380.

(72) يحمل صبحي العمري في كتابه: **ميسلون: نهاية عهد**، على ياسين الهاشمي ليحمله مسؤولية حل جيش الثورة العربية وقبول فيصل لفكرة الهاشمي، ويعتبرها خطيئة تاريخية، في حين علل إحسان الهندي في كتابه **معركة ميسلون** أسباب إلغاء جيش الثورة كونه غير نظامي وأغلبه من الحجازيين، وقد تمرس على حرب العصابات وكان من الضرورة حلّه وتنظيم جيش آخر. قارن: صبحي العمري، **ميسلون: نهاية عهد**، سلسلة أوراق الثورة العربية؛ 3 (لندن؛ قبرص: دار رياض الريس للطباعة والنشر، 1991)، ص 39 ـ 42، وإحسان الهندي، **معركة ميسلون** (دمشق: وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد، 1967)، ص 84.

(73) Allawi, *Faisal I of Iraq*, p. 52.

(74) العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 231.

ويبدو ياسين باشا من جوابه للملك فيصل الذي استشاره أمام الجميع عشية أزمة إنذار غورو عن مقدرة الجيش في الوقوف أمام الفرنسيين، فلم ينصح بالدخول في معركة خاسرة أصلاً لا يصمد فيها الجيش إلا لدقائق![75] .. يبدو أنه قد تعلّق كثيراً بسورية، فقد وقف السوريون معه وقفة رجل واحد حين اعتقله الإنكليز.

في العراق، كان ياسين باشا مثيراً لقلق فيصل دومًا، وبقدر إيمانه بالعروبة كان يكره الإنكليز، وبالرغم من تقدير فيصل لخصاله وخبراته ومكانته العسكرية إذ عيّنه رئيسًا لهيئة الأركان العامة للجيش العربي في دمشق، إلا أن ياسين باشا كان كثير الانتقادات لفيصل بسبب مرونته مع الفرنسيين، وقد طرح عليه مقاربة الأتراك وكشف عن علاقة مراسلات بينه وبين أتاتورك لاحقًا. وعندما اعتلى فيصل عرش العراق، تردد في أن يكون الهاشمي في الصدارة كي لا يثير المتاعب، فضلاً عن الحساسية الشخصية بين ياسين الهاشمي من طرف وكل من جعفر العسكري ونوري السعيد من طرف آخر، وخشية تأثيره سياسيًا. وكانت بغداد قد رحبت به ترحيبًا غير عادي في إثر عودته إلى العراق، وبدأ مباشرة في العمل السياسي، وبدأ بانتقاد فيصل لمرونته مع الإنكليز، واتفق فيصل والإنكليز على تنصيب الهاشمي رئيسًا للوزراء وسحب البساط من تحت رجليه كمعارض كبير، وقد ضعف قادة الإخاء وأعضاء حزبه عن تأثيرهم السابق. وتم تنصيب شريكه رشيد عالي الكيلاني رئيسًا للديوان الملكي، لكن الملك فيصل بقي يخامره الشك في ياسين باشا ويتخوف من قيامه بانقلاب لتغيير نظام الحكم إلى جمهوري! ولكنه من طرف آخر يعترف بكفاءة ياسين باشا وخبرته ووطنيته وبأنه الأفضل سياسيًا لرئاسة الحكومة من غيره باستثناء نوري السعيد الذي قال عنه إنه «الرجل الوحيد الذي يصلح لرئاسة الوزراء في العراق». واستُقبل استقبال الأبطال في دمشق التي لجأ إليها إثر انقلاب بكر صدقي عليه عندما كان رئيسًا لوزراء العراق عام 1936، ومات في بيروت عام 1937 إثر سكتة قلبية ودفن في دمشق إلى جانب ضريح صلاح الدين الأيوبي[76].

4 ـ دور جعفر باشا العسكري

تمتع جعفر العسكري بمكانة عليا في الجيش العثماني، وخصوصًا بعد عودته من

(75) Mohammad A. Tarbush, *The Role of the Military in Politics: A Case Study of Iraq to 1941* (London: Routledge, 1988), pp. 116 - 117.

انظر التفاصيل في: ساطع الحصري [أبو خلدون]، **يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث** (بيروت: مكتبة الكشاف ومطبعتها، 1948).

(76) راجع ما كتبه عنه البصير، **تاريخ القضية العراقية**، ص 111 ـ 113. انظر أيضًا ما كتبه عنه دروزة، في **مذكراته**، ج 1، ص 372.

ألمانيا التي قضى فيها ثلاث سنوات 1910 ـ 1912، وله بطولاته في حرب البلقان 1913، وكان يتقدم على العديد من القادة الكبار مثل مصطفى كمال بيك وعلي تقي بيك وأنور بيك وصبيح نشأت بيك، وأرسلته الدولة إلى ليبيا للوقوف أمام البريطانيين، فوقع أسيرًا، وحاول الهرب، ولكن أُلقي القبض عليه، وسيق إلى مصر معتقلاً من جانب البريطانيين، وكانت تلك نقطة التحول في حياته من العثمنة إلى العروبة، إذ قبل أن يساوم البريطانيين من أجل أن يلتحق بالشريف حسين وثورته أوائل 1917، التقى فيصل مباشرة لتوكل إليه قيادة الجيش العربي إلى جانب عديله نوري السعيد الذي كان يتولى رئاسة الأركان. وكانت خططه العسكرية بارعة في تحرير معان وفتح الطريق نحو دمشق. وحين دخل فيصل دمشق، كان جعفر يتسلم عمّان من البريطانيين رافعًا عليها العلم العربي، ثم نصّب مفتشًا عامًا للجيش العربي، فحاكمًا عسكريًا لحلب والمنطقة الشمالية بديلاً من شكري باشا الأيوبي، ونجح في فرض الأمن واستتباب النظام في إثر الاضطرابات الساخنة التي نتجت من أحداث 28 شباط/فبراير 1919 بين العرب والأرمن بحلب الذين كانوا يتهمون العرب بتعاطفهم مع العثمانيين الاتحاديين[77].

أ ـ الحاكم العسكري لحلب والمنطقة الشمالية من سورية

يخبرنا مرافق جعفر باشا توفيق الدملوجي بأن الباشا عمل شهرًا واحدًا مفتشا عامًا للجيش العربي، ثم نصّب حاكمًا عسكريًا على ولاية حلب، أي قائدًا عسكريًا وواليًا مدنيًا في الوقت نفسه. وكان مولود مخلص قائدًا لفرقة حلب، وعلي جودت الأيوبي قائد الدرك، وناجي السويدي معاونًا للحاكم العسكري[78].

بقي جعفر باشا في حلب حتى أُلغي منصب الحاكمية العسكرية في حلب في نيسان/ أبريل 1920 ونقل إلى منصب آخر، كما استقال ناجي السويدي، وبقي رشيد طليع واليًا على حلب حتى وقعت معركة ميسلون وغادر فيصل سورية في إثرها إلى فلسطين ثم إلى أوروبا. وكان جعفر من جملة مرافقيه، ولكنه لم يكد يصل إلى بور سعيد حتى وصلته برقية تدعوه إلى بغداد عاجلاً. وفي هذا الوقت كانت «ثورة العشرين» المندلعة في العراق ضد الاحتلال قد اشتد أوارها وحملت البريطانيين على تغيير سياستهم في العراق وتأليف

---

(77) Ja'far Al - Askari, *A Soldier's Story: The Memoirs of Jafar Pasha Al - Askari (1885 - 1936)*, translated by Mustafa Tariq Al - Askaripage; edited by William Facey and Najdat Fathi Safwat (London: Arabian Publishing, 2003), pp. 100 - 103, 216 - 217 and 273.

(78) الدملوجي، والذكريات ... ص 105 ـ 108.

حكومة وطنية موقتة برئاسة عبد الرحمن النقيب الذي طلب إلى جعفر قطع سفره مع الملك فيصل والذهاب إلى بغداد ليكون أول وزير للدفاع في أول وزارة عراقية. وبهذه الصفة كانت المهمة الجديدة الثقيلة التي وجدها جعفر على عاتقه هي تأسيس جيش وطني عراقي. ومن المفيد أن نذكر بأن جعفر باشا العسكري قد دعي للمشاركة في مؤتمر القاهرة (1921) برئاسة السير ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية من أجل تقرير مصير العراق، وهو المؤتمر الذي رشح فيصل ملكًا على العراق[79].

كان جعفر باشا، موضع ثقة فيصل الأول، إذ اعتمد عليه أيام الثورة العربية كأبرز قادتها، ثم اعتمد عليه في حكومته العربية بدمشق، ووقف معه في مؤتمر القاهرة 1921، وبالرغم من تحمسه للإنكليز، إلا أنه كان وفيًا لفيصل ومخلصًا له ولا يمكنه أن يخونه أو يغدر به أبدًا[80]. لما تقرر أن يكون فيصل ملكًا على العراق ولم يسبق له أن زار العراق من قبل، لذلك كان جعفر العسكري من أقرب الناس إليه لأداء وظائفه المختلفة، وتم تعيينه وزيرًا للدفاع. وخلال هذه الفترة، كان جعفر باشا قد أتم ترتيب عودة 600 جندي عثماني كانوا أصلاً من العراق لتشكيل الضباط في الجيش العراقي الجديد. وقد غدا صهره نوري السعيد رئيسًا لهيئة الأركان العامة للجيش في شباط/فبراير 1921[81].

في تشرين الثاني/نوفمبر 1923، نصّب العسكري رئيسًا لوزراء العراق، إذ أراده فيصل مؤيدًا قويًا للملك في ظروف توقيع المعاهدة الأنغلو-عراقية التي كان البريطانيون يضغطون عليها للمساعدة في إضفاء الشرعية على وجودهم أمام عصبة الأمم باسم انتداب العراق. عارض الكثير من العراقيين المعاهدة ولم يبدُ أنها ستمر. ولكن بعد ذلك هدد المفوض السامي بيرسي كوكس بتنفيذ الانتداب البريطاني بطريقة مختلفة ما لم يتم تمريرها. وبعد أن تم ذلك، استقال العسكري من منصبه كرئيس للوزراء لأنه لم يستمتع حقًا بالعمل وشعر أنه حقق ما يحتاج إليه[82] في تشرين الثاني/نوفمبر 1926، نصّب فيصل جعفر باشا (الذي كان في ذلك الوقت وزيرًا مفوضًا للعراق في لندن) رئيسًا لوزراء العراق، إذ كان فيصل أمام معضلتين اثنتين: التجنيد واستياء الأقليات. وكان التجنيد الإلزامي قضية مثيرة للجدل حيث

---

(79) Charles Tripp, *A History of Iraq* (New York: Cambridge University Press, 2000), p. 47, and Stephen H. Longrigg, *Iraq, 1900 - 1950: A Political, Social, and Economic History* (London; New York: Oxford University Press, 1953), pp. 128 - 129.

(80) Tripp, Ibid., p. 47 and Longrigg, Ibid., pp. 128 - 129.

(81) Ibid.

(82) Tripp, Ibid., p. 57 and Longrigg, Ibid., pp. 148 - 151.

يعتقد أحد الأطراف أنهم بحاجة إليه لتشجيع بناء عراق قوي يحقق أهله الأمان لأنفسهم بجيش قوي وشريف، وكان قد بُني من المشاركين العراقيين في الثورة العربية 1916 ـ 1918 ويعتبرونه واجبًا مقدسًا؛ كما اعتبرها من هم في السلطة وسيلة لخلق الوحدة الوطنية والهوية العراقية. على الجانب الآخر، لقد اعترض سكان الفرات الأوسط وجنوب العراق على الخدمة الإلزامية واعتبروها قرارات بغيضة، ورأت القبائل المختلفة التي أرادت أن تكون مستقلة أنها مهددة. وهو ما أثار السخط الشيعي المتزايد في العراق.

لم يكن البريطانيون يؤيدون التجنيد الإجباري لأنهم أرادوا إبقاء العراق في حالة ضرورة قصوى لهم، في ظل احتجاجات ساخطة واسعة النطاق تحدث في جميع أنحاء البلاد ردًا على كتاب نشر في العراق عن الدولة الأموية في الشام وألّفه مؤرخ لبناني بحسن نية، واعتبروه فتنة كونه ينتقد الأغلبية الشيعية. وفي هذا الوقت أيضًا، أراد البريطانيون توقيع معاهدة أنغلو ـ عراقية جديدة. ومن بين القوى العديدة التي احتفظ بها البريطانيون، قالت المعاهدة إنها ستؤيد انضمام العراق إلى عصبة الأمم في عام 1932 (وليس عام 1928 كما وعدت سابقًا) ما دامت تحافظ على تقدمها بطريقة تتوافق مع الإشراف البريطاني. ولقد استقال العسكري من منصبه كرئيس للوزراء في كانون الأول/ ديسمبر 1927 نتيجة الاستقبال البارد الذي تلقته مسودة المعاهدة بين الشعب العراقي والاستياء المتزايد من الأغلبية الشيعية[83].

هنا أريد القول إن شرخًا قد حدث بين العراقيين والسوريين، وخصوصًا بعد دخول ياسين الهاشمي إلى الميدان، كونه لم يمتلك أية جهود في الثورة، إذ يكتب تحسين قدري قائلًا: «... أذكر بأن جميع الضباط العراقيين عيّنوا بوظائف مهمة، والغاية كانت ترمي إلى .. تشكيل قوة عربية موحدة وأمة عربية واحدة، ولكن كل قطر يمكن أن يدبر نفسه بمقتضيات مصلحته الداخلية... كان قسم من الضباط والموظفين يتجهون لإحداث بعض الشغب، مدعين بأنهم لم يأخذوا حقهم»[84]. ويحدثنا محمد عزة دروزة في مذكراته عن انشطار العهد إلى عهد عراقي وعهد سوري[85] في أواخر عام 1918، ويعزز ذلك ما جاء عند محمد المهدي البصير أيضًا[86].

---

(83) Tripp, Ibid., pp. 61 - 63, and Longrigg, Ibid., pp. 177 - 178.

(84) قدري، مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول، ص 172.

(85) دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305 ـ 1404 هـ/1887 ـ 1984م، ج 1، ص 413 ـ 418.

(86) البصير، تاريخ القضية العراقية، ص 113.

ب ـ حزب العهد ومنطلق الثورة من دير الزور نحو تلعفر والموصل

بقي فيصل محافظًا على توازنه وسط مواجهته إعصار فرنسا من لبنان وإعصار بريطانيا من مصر والعراق، ووجد نفسه في لجة انقسامات بين السوريين والعراقيين، فالسوريون أثاروا أمامه المسألة السورية بديلاً من مشروعه العربي، والعراقيون كانوا قد انقسموا أيضًا من خلال العهد إلى راديكاليين ضدّ الإنكليز وإلى مهادنين ومعتدلين مع فيصل... وكان لذلك تداعياته التي حدثت على الجبهة السورية، وخصوصًا الحركات الصعبة في دير الزور، إذ قام الضابط رمضان شلاش بتأثير من بعض العهديين بالشروع بمهمته في السيطرة على دير الزور التي كانت تديرها حامية بريطانية[87]. ففي ربيع 1919، عقد حزب العهد مؤتمرًا خطيرًا قرر فيه الحصول على ما يؤهله من جانب الناس للمطالبة بالحقوق، وإيفاد الضابطين جميل المدفعي وإبراهيم كمال إلى العراق للدعاية من أجل الاستقلال التام والحصول على مضابط مؤيدة لقرارات العهديين وأن تودع إلى الأمير فيصل لرفعها إلى مؤتمر الصلح، ثم الإنذار بالثورة باسم حزب العهد وإعلام بريطانيا وفرنسا بذلك، وأخيرًا، التأهب لإيقاد الثورة في العراق عند عدم تنفيذ المطالب[88]. في صيف 1919 غادر جميل المدفعي وإبراهيم كمال إلى الموصل وبغداد والتقيا بكل الساسة وأعادا تأسيس فروع العهد للمطالبة بالاستقلال، وعلم الإنكليز في العراق بذلك ووصل ناجي السويدي إلى بغداد أوائل حزيران/ يونيو 1919 زائرًا، فعيّن مساعدًا للحاكم العسكري ورئيسًا للبلدية، وعدّ ذلك عربونًا للاستقلال. ولما وجد السويدي أن الأمل ضعيف في تحقيق رغائب الأهلين في قيام الحكومة الأهلية العراقية على نمط الحكومة السورية وأن البريطانيين مهيمنون على البلاد اعتذر عن منصبه وعاد إلى حلب ثم دمشق وقد شرح سوء الأوضاع في العراق[89].

5 ـ مولود مخلص باشا ودوره

تقرر أن تندلع الثورة في العراق ضد الإنكليز، وتألفت لجنة خاصة في دمشق لترتيب

---

(87) انظر: جريدة **العاصمة**، السنة 2 العدد 124 (أيار/مايو 1920). وقارن بـ: علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (لندن دار الوراق، 2007)، ج 6 ص 130 ـ 132، ووميض نظمي، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**، ط 3 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1983)، ص 178.

(88) من الأهمية بمكان مراجعة ما جاء في: العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، ج 3، وراجع أيضًا ما أورده تحسين العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 215. انظر أيضًا: علي جودت الأيوبي، **ذكريات 1900 ـ 1958** (بيروت: مطابع الوفاء، 1967)، ص 100.

(89) العسكري، المصدر نفسه، ص 216.

ذلك، وجرت مراسلات بين ياسين الهاشمي ورمضان شلاش قائمقام الرقة وحاكمها العسكري، وأرسل إليه الحزب الضابط راجي العسكري لمرافقته في حركته وبمعاضدة حاكم حلب العسكري جعفر العسكري وقائد فرقتها مولود مخلص، فسقطت دير الزور بيد رمضان شلاش بتأثير من سياسة جمعية العهد، فاحتل شلاش مع العشائر التي جمعها دير الزور في 2 كانون الأول/ديسمبر 1919 وغلب الحامية الإنكليزية وأسرها مع حاكمها العسكري الكابتن شامبير (Captain Chamier) ومعاونيه الضباط وقوة الدرك وضبط السيارات والمدرعات وامتد نحو البوكمال لكن قواته ارتدت[90] .. توترت علاقة بريطانيا بالحكومة في دمشق، علمًا بأن فيصل كان يفاوض فرنسا في باريس[91].. وفي الشهر الأخير من 1919، توفد الحكومة العربية إلى دير الزور رؤوف الكبيسي قائد درك حلب وتوفيق الدملوجي مرافق الحاكم العسكري لولاية حلب لمفاوضة الحكومة الإنكليزية في أمر لواء دير الزور، ولدى وصولهم إلى المدينة وجدوا أن الحاكم السياسي البريطاني ومعاونه وضباطه وجنوده البريطانيين معتقلون مع السيطرة على أربع مدرعات، وأبى رمضان شلاش إطلاق سراحهم إلا بجلاء بريطانيا عن دير الزور وتركها لحكومة دمشق، فذهب الوفد إلى البوكمال لمفاوضة الإنكليز، ولحق بهم مرافق شلاش الضابط راجي العسكري البغدادي، ولكن قبض على الأخير للمساومة، وجرى الاتفاق على إطلاق سراح البريطانيين ونقلهم إلى البوكمال وتكون الحدود عند نقطة البوكمال بدلاً من دير الزور واخلاء سبيل راجي العسكري... ووقّع الطرفان هذه الاتفاقية في البوكمال، وعاد الدملوجي إلى دير الزور ومعه راجي العسكري، لكن شلاش رفض الاتفاقية، وبعد إلحاح عليه بالعواقب الوخيمة، أطلق سراح المعتقلين وأرسلهم إلى البوكمال[92]. كان ذلك جزءًا من حالة الفلتان أو الفوضى[93].
ويعزو محمد جمال باروت حركة شلاش إلى قيام دولة الرقة المستقلة تحت الراية العربية،

---

(90) يخطئ تحسين العسكري بتسمية الكابتن جامير بتسميته (الكابتن شامية). انظر: المصدر نفسه، ص 233.

(91) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920–1945.* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987), pp. 23 - 24.

(92) العسكري، المصدر نفسه، ص 232 ـ 233. وهذه الرواية فيها اختلاف واضح عن رواية الحدث نفسه كما كتبها توفيق الدملوجي في كتابه المعنون والذكريات ...

(93) Eliezer Tauber, «The Struggle for Dayr al - Zur: The Determination of Borders between Syria and Iraq,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 23, no. 3 (August 1991), pp. 361 - 385. Michael Provence: *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism* (Austin, TX: University of Texas Press, 2005), p. 98, and Michael Provence, «Ottoman Modernity, Colonialism, and Insurgency in the Interwar Arab East,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 43, no. 2 (May 2011), pp. 205 - 225.

بالتعاون مع رمضان شلاش حاكمها العسكري العربي القديم... واستمدت هذه «الدولة» قوتها العسكرية من دعم القوات الكمالية التي كانت تقاتل الفرنسيين في كليكيا[94]. ويبدو أن إخفاقات الحكومة العربية ومشكلاتها كانت تصبّ في مصلحة الاتفاقات البريطانية ـ الفرنسية التي ستظهر في مؤتمرات لاحقة[95].

6 ـ تحركات نحو الموصل: جميل المدفعي ودوره

كان قد انضم إلى مولود باشا مخلص في دير الزور كل من ضباط الموصل الشباب: عبد الحميد الدبوني وصفوت سعيد ومصطفى الأمين ويونس الحاج عبد الله ومصطفى شوقي وحمدي الطفلة وسعيد عبد القادر والطبيب حسني الموصلي ومحمود نديم السنوي ومحمود أديب وسليم الجراح ومحمد علي سعيد والمقدم شكري محمد والحاج رؤوف الشهواني ومحمود الجراح وحسن حمدي داؤد والمقدم كريم شاه وعبد الله صالح وكامل الشبيب وسلمان الجنابي وغيرهم[96].

وقد أخفيت تلك «الاتصالات» السرية عام 1919 خشية من البريطانيين. وكان مولود مخلص حلقة وصل بين الأطراف، وجرى الاتفاق على انطلاق حملة عسكرية منظمة يقودها جميل المدفعي نهاية شهر أيار/مايو 1920، ووصلت إلى دير الزور مخترقة طريق الجزيرة الفراتية نحو الموصل، وتجحفلت معها قوات مساندة من شيوخ القبائل فضلاً عن التحاق العهديين من المدنيين والعسكريين. وفي 2 حزيران/يونيو، انعقد اجتماع للعهديين في تلعفر مع شيوخ قبائل مستفيدين من معلومات جميل محمد ومحمد علي وكانا من ضباط الدرك الموجّه من جانب الإنكليز، فقاما بالإخبار عن وصول قوات عربية من دير الزور تتجمع عند قرية «عوينات» قريبًا من تلعفر، وينبغي استقبالها وتدعيمها. ثم قطعت الاتصالات البرقية بين تلعفر وبقية أنحاء العراق. وفي 4 حزيران/ يونيو، تدفقت القوات العربية والعشائر داخل المدينة، وأعلنت الثورة ضد البريطانيين، فاندلع القتال بين الطرفين، وقُتل اللفتانت ستيوارت (Lieutenant Stewart) قائد الدرك، وتمت السيطرة على

---

(94) محمد جمال باروت، **التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحّول من البدونة إلى العمران الحضري** (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 138.

(95) Daniel Neep, *Occupying Syria under the French Mandate: Insurgency, Space and State Formation* (New York: Cambridge University Press, 2012), pp. 56 - 58.

(96) العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 255، والجميل، **زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب**، ص 245 ـ 246.

تلعفر. وفي اليوم التالي، تقدمّت قوات بريطانية في رتل مصفحات نحو تلعفر لاستعادتها، لكنها وقعت في كمين للمقاومة، فأبيد الرتل وغنم المقاومون عدة سيارات مصفحة مع أسلحة وأعتدة. لقد أدى جميل المدفعي مهمته التي أثار من خلال حركاته العسكرية ضد البريطانيين عواطف العراقيين الذين ثاروا بعد أيام ثورتهم الشهيرة بثورة العشرين. وبعدها ذهب إلى الأردن، وعيِّن حاكمًا عسكريًا ومتصرفًا للكرك ثم مديرًا للأمن ثم متصرفًا للسلط، ثم عاد إلى بغداد عام 1923[97]. وفي العراق، كلف بتأليف عدة وزارات، كانت تأتي بعد كل أزمة من الأزمات إبان العهد الملكي.

خامسًا: ما تبّقى من الشريفيين العسكريين والمدنيين

إضافة إلى القادة الكبار: الفريق محمد جعفر باشا العسكري وأمير اللواء محمد نوري[98] باشا (السعيد) وأمير اللواء مولود باشا هناك أيضًا، طه الهاشمي (أخو ياسين حلمي باشا) وكان قد التحق الأخير بجمعية العهد السرية 1913، وأسره الإنكليز 1919 ثم أطلق سراحه. وصل دمشق فنصّب مديرًا للأمن العام في حزيران/يونيو 1920[99]. وهناك قوائم توضح أسماء العديد من الضباط والمراتب الشريفيين وأسماء بعض الشهداء وغيرهم[100]، فضلاً عن أسماء بعض المدنيين[101].

سادسًا: مصير الضباط الشريفيين وسراب الاستقلال

غادر أغلب زعماء الحَركة العربية بعد أن بنوا بإجماع المؤرخين أنظف تجربة عربية

---

(97) انظر: العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، ج 3، ص 350 ـ 372. وانظر أيضًا: ما كتب عن كل من مولود مخلص وجميل المدفعي في: *Records of Iraq 1914 - 1966.*

انظر أيضًا: لجنة عسكرية في وزارة الدفاع، **تاريخ القوات العراقية المسلحة** (بغداد: الدار العربية للطباعة 1986)، ج 1، ص 161.

(98) هكذا ورد اسمه رسميًا، وهذا ما يعزز ما قيل بأن اسمه الحقيقي محمد نوري. انظر: أفندي، **ديوان راقم أفندي 1853 ـ 1891م: ما تبقى من شعر عبد الله راقم أفندي النجيفي الموصلي**، ص 47.

(99) ذكر ذلك في **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 2، العدد 132 (حزيران/يونيو 1920)، ص 4. وللتفاصيل انظر: طه الهاشمي، **مذكرات طه الهاشمي**، تحقيق خلدون ساطع الحصري (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1978)، ص 22 ـ 56.

(100) راجع قوائم بأسماء من منحهم فيصل بن الحسين وسام معان والملحقة بالقانون الذي أصدره تكريمًا لكل المشاركين في الحرب سواء كانوا من الضباط أو الجنود. انظر: جريدة **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية ـ دمشق)، السنة 1، العدد 75 (تشرين الثاني/نوفمبر 1919)، ص 2 ـ 3.

(101) انظر: العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، ج 1، ص 274 ـ 325. فضلًا عن جمع الأسماء من صحف ومصادر عديدة.

تاريخية مؤسساتية مشرقة حوربت بلا هوادة من قبل الفرنسيين والإنكليز[102]. في تشرين الثاني/نوفمبر 1920، طلبت السلطات الفرنسية من كل العراقيين في الشام التجمع في المدرسة الحربية، وحذرتهم من أي تأخير، فتجمع قرابة 200 من العسكريين والمدنيين العراقيين من دون عوائلهم، وشحنوا جميعًا إلى بيروت، ومرّوا بظروف قاسية جدًا، إذ حوصروا بسرية من السنغاليين، وعوملوا بوحشية كمجرمين[103]. وتعرضوا للإهانات مع قسوة البرد وبلا طعام، ولم يعاملوا كأسرى حرب. ثم ساروا أرتالاً في شوارع بيروت مع استهزاء بعض عملاء فرنسا وأعداء العروبة الشامتين بهم. ووصلوا إلى الميناء وحشروا في باخرة من دون ماء أو طعام. وبعد ساعات رست الباخرة عند جزيرة أرواد، ونقلوا إلى قلعة رومانية قديمة فيها[104]. وقضوا ثلاثة أشهر هناك مع المعاملة البربرية. ثم أعادوهم في شباط/فبراير 1921 إلى بيروت ثم إلى الشام ثانية حيث أخذوا من كل واحد منهم تعهدًا خطيًا بعدم الاشتغال بالسياسة والإدارة الداخلية ولا ما يخل بالأمن[105]. بقوا في الشام شهراً تحت المراقبة، ثم جمعوهم وسفرّوهم بقطار خاص إلى مخيم قرب الإسماعيلية، وتحولوا إلى أسرى لدى البريطانيين في نيسان/أبريل 1921 وعزلوا مخافة تحريضهم للمصريين، لكنهم علموا أن مؤتمرًا سينعقد في القاهرة برئاسة تشرشل لبحث مستقبل العراق وترشيح أحد أنجال الشريف حسين ملكًا[106]. بقوا في المخيم شهرًا واحدًا، ووصلت باخرة استأجرتها الحكومة العراقية المؤقتة لنقلهم نساءً ورجالاً إلى العراق، فعادوا بحرًا ووصلوا إلى البصرة نهاية آذار/مارس 1921[107]. كان الموظفون البريطانيون بمنتهى السخط ضد الأسرى القادمين[108]. لقد وصف الاستقلال الذي تمتعت به الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920 بالسراب[109]، فلقد تواطأت ضدها كل القوى في الداخل والخارج.

---

(102) من أجل تفاصيل موسعة عن مؤامرة بريطانيا وفرنسا على الحكومة العربية، انظر: Thomas Martin, «Anglo - French Imperial Relations in the Arab World: Intelligence Liaison and Nationalist Disorder, 1920 - 1939,» *Diplomacy and Statecraft*, vol. 17, no. 4 (December 2006), pp. 771 - 798.

(103) Ibid., p. 111.

(104) Ibid., p. 112.

(105) Ibid., p. 113.

(106) Ibid., p. 114

(107) Ibid., p. 115.

(108) العسكري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**، ص 244.

(109) حسن الأمين، **سراب الاستقلال في بلاد الشام: 1918 ـ 1920م** (بيروت: شركة رياض الريس للكتب والنشر، 1998).

سابعًا: النخبة الفيصلية في العراق

فوق كل تلك العوامل من المستحدثات الجديدة، وقفت إلى جانب فيصل الأول نخبة عراقية من أولئك الذين عملوا تحت إمرته إبان الثورة العربية 1916 ـ 1920 مدنيين وعسكريين، أو غيرهم من المثقفين والرجال العراقيين ساسة وإداريين وعلماء وأدباء وفنيين. وهم كثر لا يمكن ذكرهم جميعًا، وقد ألفوا جماعات وقوى برغم تباين اتجاهاتها السياسية، ولكنها أجمعت كلها على قبول فيصل والتعامل معه والولاء له. وكان فيصل ذكيًا جدًا بحيث لم يلتزم أي جماعة أو حزب أو تيار على حساب الآخرين، إذ كان يتحدث باسمهم جميعًا. وكانت تلك النخبة في سباق مع الزمن بكل قوة لتأسيس جيش كان قد ولد لأول مرة عام 1920 على يد مؤسسه فريق أركان حرب جعفر العسكري، ولكن بدأت تلك النخبة تطالب بأن يعتمد على التجنيد الإلزامي، وحصل ذلك في عام 1934. لذلك كانت الطرق النهائية لقلب القوات العسكرية إلى قوات فعّالة هي المزج الفعال بين سكان القبائل والعشائر وبين سكان المدينة. وكانت تلك عملية صعبة جدًا لأنها ستعمل على هدم عنصر القوة المشتت عند المجتمع وتحويله إلى عنصر موحد بيد الدولة، وهو شرط أساسي قبل عملية الدمج في الحياة الوطنية. باختصار، فإن كل الفترة الصعبة الممتدة بين 1921 و1939، كانت عناصر الدولة قد استقرت وتركزت الملكية الهاشمية في بغداد بعدما كانت غير فعّالة بالمعنى الاجتماعي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى مقارنة بتلك القوة التي كانت مرتهنة بيد «شيخ القبيلة».

ثامنًا: خصوم فيصل أقل من أنصاره

خاصم فيصل عدد من المثقفين والساسة العراقيين والسوريين واللبنانيين لأسباب متنوعة، فمنهم من لم يعترف بالسلالة التي ينتمي إليها فيصل، ومنهم من كان يحمل ضغائن ضده منذ أيام الشباب في إسطنبول، ووقف ضده أيضًا كل المؤيدين للنظام العثماني القديم، كما عارضه كل المرشحين للعرش في العراق وأتباعهم، ومنهم من لم يؤيد تأسيس أي نظام ملكي من مؤيدي النظام الجمهوري، سواء في العراق أو سورية أو غيرهما، ومنهم من وقف ضد سياسته المرنة، إذ وجد البعض في التصلب والتشدد والراديكالية أسلوبًا مختلفًا عن سياسات فيصل، ناهيكم بمن كان يؤيد السياسة الفرنسية في سورية ولبنان، فصار له خصمًا كون فرنسا غدت خصمًا لدودًا له! وهناك من كره فيصل كونه عربيًا قحًا، وتقوّل ضد بنازع من قوميته أو شعوبيته أو عنصريته ضد العرب، ولا ننسى كل الإسلاميين الذين يخالفون القوميين والعلمانيين، وقد اعتبروا فيصل واحدًا من الاثنين.

عرضت جريدة **القبلة** في مكة المكرمة عدة ردود على مقالات نشرها بعض خصوم فيصل الأول، ومنها رد على جريدة **المقطم** المصرية التي حاولت عقد مقارنة بين حاكم مصر محمد علي باشا في دخوله سورية في القرن التاسع عشر وبين فيصل الأول في دخوله سورية في القرن العشرين، وقد ردّت **القبلة** في افتتاحيتها على **المقطم** ردًا لائقًا، كما ردّت على مقال في **المقطّم** نشره جبران تويني إذ اتصف مقاله كما تصفه **القبلة** بالحنق والحدة وعنوان مقاله «الأمير فيصل والوحدة العربية» وطالب تويني فيه من خلال سؤاله: لماذا لا تطلبون فصل المسألة السورية عن المسألة العربية؟ وهو يريد سلخ سورية عن عروبتها منتقدًا فيصل الذي قال أكثر من مرة إن سورية هي جزء من أجزاء البلاد العربية. وقد ردت **القبلة** على تويني ردًا قويًا وتفصيليًا وعلى جريدة **المقطم** التي تبنّت هذا الطرح[110]!

تأتي توصيفات البعض من خصومه وحتى غير المتفقين معه في أمثلتهم المعاكسة لتوجهات فيصل المتمدنة وتفكيره القومي العربي، وكان فيصل يدرك مواقف هؤلاء كلهم ضده، وقد أثبتت الأيام أن اختيارات فيصل كانت ناجحة باعتماده على مختصين عرب أقوياء وأذكياء من أديان ومذاهب مختلفة. والحقيقة، أن طاقمًا عربيًا خدم العراق على عهد فيصل الأول قد أسدى خدمات تاريخية للمجتمع العراقي إبان بناء مؤسساته، ومنهم ساطع الحصري الذي أشرف على بناء المعارف العراقية، وقد نجح نجاحًا باهرًا في بناء جيلين عراقيين رائعين في القرن العشرين. وهناك غيره من الرجال العرب الأقوياء أمثال: رستم حيدر وعبد العزيز الثعالبي وراسم سردست وأمين كسباني وغيرهم [111].

لقد شكّلت نخبة فيصل من الضباط الشريفيين العراقيين والمستشارين المدنيين العرب طبقة سياسية حاكمة على امتداد العهد الملكي في العراق، وبالرغم من تباين وجهات نظرهم وخلافاتهم السياسية اللاحقة، إلا أن فيصل كان قد وحدهم والتفوا حوله كالمحور، وكان يعرف ما الذي يكمن في دواخل أيٍّ منهم ويدرك نوازعهم القومية أو الوطنية أو السياسية أو الفكرية بوجه عام. وعليه، ومع غيابه عام 1933، وبالرغم من بقاء تلك الطبقة تحمل مبادئ فيصل وتؤمن بخطواته، وتتبع مدرسته، إلا أنها تفرقت وتشّظت سواء على عهد ولده الملك غازي الأول 1933 ـ 1939، أو على عهد الوصاية 1939 ـ 1953، أو على

(110) جبران تويني، «ولله المثل الأعلى،» و«الأمير فيصل والوحدة العربية،» جريدة **القبلة** (مكة المكرمة)، السنة 4، العدد 330 (16 صفر 1338هـ الموافق 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1919).

(111) الجميل، «إنتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة».

عهد الملك فيصل الثاني 1953 ـ 1958. ولقد انتهت نهائيًا في فجر الرابع عشر من تموز/ يوليو 1958.

استنتاجات

كانت التجربة العربية الفيصلية في دمشق 1918 ـ 1920 في غاية التطور السريع والتحول التاريخي سواء في عروبتها أم في استقلاليتها أم في بنيتها السياسية، كان عليها الاستمرار قبل أن تأكلها عوامل الفشل.

وهي تعد أول تجربة تاريخية فاشلة للعرب، استغلها التآمر الخارجي بسبب تحوّل الاهداف القومية إلى ما سمي «المسألة الوطنية»، وخصوصًا التحول من أيديولوجيا جمعية العهد العراقية إلى ما أرادته جمعية العربية الفتاة السورية!

كان فيصل بن الحسين حكيمًا ليس في قيادته للثورة العربية (1916 ـ 1918)، بل غدا رمزًا تاريخيًا لتشكيل نواة دولة عربية مستقلة في دمشق 1918 ـ 1920.

لقد استقبل فيصل وجيشه العربي بزغاريد النسوة والرقص في شوارع دمشق، وخرج مع رهطه من الشريفيين بإهانة درامية وسحق الجيش الفرنسي الجيش السوري بقيادة يوسف العظمة.

حاول فيصل وكل رهطه من الشريفيين معالجة كل التعقيدات التي استجدّت ونمو الحساسيات والعصبيات التي ظهرت بعد تبلور الحكومة العربية في دمشق، فلم تنجح معالجاتهم السياسية.

يبدو أن فيصل قد شعر بالتحول من القضية العربية إلى القضية السورية، فطرح مشروعه الكونفدرالي العربي: «مشروع الولايات العربية المتحدة» على غرار «الولايات المتحدة الأمريكية»، لكن أحبطت التطورات السياسية ذلك!

كانت المواقف السياسية تتغير مع التقلبات الفكرية لدى العديد من الكتاب والمفكرين العرب الذين ساندوا الثورة العربية الكبرى، ولكنهم تبدلت غاياتهم واتجاهاتهم بعد تأليف الحكومة العربية في دمشق.

لقد انعكست تلك التبدلات والحساسيات على النخب الشريفية العربية على مدى سنتين من حياة تلك الحكومة، إذ وجدنا بعضهم من العراقيين والفلسطينيين يشعر بالغربة في سورية، كما وصف ذلك كل من علي جودت وتوفيق الدملوجي وتحسين قدري وغيرهم، وقد وجدنا مدى الحساسية المفرطة ضد الضباط الشريفيين الذين انتهوا نهاية مأسوية على أيدي الفرنسيين والإنكليز.

الفصل السابع

سيمون بوليفار العرب
مؤتمر القاهرة 1921
صراع الإرادات على عرش فيصل للعراق



يظهر في وسط الصورة جلوسًا: السِّير ونستون تشرشل، وعن يمينه هربرت صاموئيل وعلى شماله السِّير برسي كوكس. ووقوفًا خلفهم من اليسار: المس بيل، ساسون حسقيل، الفيلد مارشال إدموند أللينبي، الفريق أركان حرب جعفر باشا العسكري ... وعن يساره باللبس المدني تي. اي. لورانس ... المعروف بلورانس العرب.

مرت قرابة سنة على ما سمِّي المؤتمر العراقي الذي نودي فيه بالأمير عبد الله بن الحسين ملكًا على العراق، وذلك في 8 آذار/مارس 1920 تحت مسمى «المناداة باستقلال العراق»: اتحاده بسورية وانتخاب جلالة الملك عبد الله ملكًا دستوريًا عليه وإعلان الأمير زيد نائبًا لذلك فيه، وأعلن قرار المؤتمر العربي العراقي العام الذي وصف في التقرير بأنه يمثل الشعب العراقي تمثيلاً قانونيًا في جلسته المنعقدة في دمشق الشام. ونشر القرار الذي وجدناه منشورًا بعد شهر من انعقاد المؤتمر يوم 8 نيسان/أبريل سنة 1920 [1]. وبعد سنة من انعقاده يأتي انعقاد مؤتمر القاهرة بين 12 و30 آذار/مارس 1921 برئاسة وزير المستعمرات البريطاني السِّير ونستون تشرشل وبمشاركة وحضور أكثر من أربعين موظفًا إداريًا وسياسيًا وعسكريًا ممن كانوا يشغلون مناصب مهمة في أرجاء المنطقة العربية. حدد هذا المؤتمر المصير التاريخي والمستقبل السياسي لدول الشرق الأوسط، وخصوصًا العراق، وشرق الأردن، وفلسطين، وأن المرأة الوحيدة التي شاركت في المؤتمر هي المس غيرترود بيل، وشارك من العراق كل من جعفر باشا العسكري وزير الدفاع العراقي، وساسون حسقيل وزير المالية العراقي.

أولاً: ترشيح فيصل والخلاف بين بريطانيا وفرنسا

كان الفرنسيون والبريطانيون حليفين خلال الحرب العالمية الأولى وعملوا بجد وقوة معًا حتى يحصل الطرفان على أقصى استفادة من تسوية الحرب بعدما وضعت الحرب أوزارها. استجابت فرنسا للدعم البريطاني في تغيير موقفها من أجل حق لها في الأراضي الألمانية بأوروبا وقامت بالتخلي عن ولاية الموصل. إن الموصل، وفقًا لمعاهدة سايكس ـ بيكو، كانت قد أُدخلت في مجال الاهتمام الفرنسي، لكن رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو ترك المقاطعة (الولاية) تذهب إلى بريطانيا بوجه عام[2]. وكانت العلاقات جيدة بين بريطانيا فرنسا عقب الحرب، لكنهما مع كل ذلك، كانت الواحدة منهما تتربص بالأخرى، ولا شك في أنهما كانتا خائفتين من أن يتولى الطرف الآخر المنطقة من دونه!

(1) نص «القرار» الذي انتهى إليه المؤتمر العراقي في: جريدة القبلة (مكة المكرمة)، السنة 4، العدد 373 (19 رجب 1338هـ الموافق 8 نيسان/أبريل 1920).

(2) Telegram from Churchill to Cox September 10, 1920 (Summary of Letters from the French), IOR/L/PS/10/919

السؤال: لماذا كره الفرنسيون فيصل بشدة إلى درجة أنهم كانوا على استعداد لوصفه بأنه مشروع عمل عدائي ضدهم؟

لقد أصرّ البريطانيون على تنصيبه ملكًا على العراق، وكانوا على استعداد للمخاطرة بالتحالف مع فرنسا من أجله [3]، كونهم وجدوا فيه الرجل المناسب للعراق وله سمعة عالية في أوساط العراقيين الذين من الصعب أن يتفقوا على شخصية من بينهم تحكمهم، فكان فيصل هو الخيار المنطقي والمفضل.

من السهل بعد ذلك أن نفهم لماذا كان الفرنسيون سلبيين في حكم فيصل العراق المجاور لهم في سورية ولبنان. وبالرغم من ذلك، من المثير للاهتمام مناقشة وجهات النظر البريطانية بشأن الفرنسيين بصدد معارضة فيصل[4]. ونسأل: كيف يمكن للبريطانيين القيام بمثل هذا العمل غير الودود بالنسبة إلى المتحالفين الفرنسيين[5]؟ ليس من السهولة الإجابة عن هذا التساؤل، ولكن، كما ذكرنا سابقًا، كان أرنولد ويلسون أول من اقترح أن يكون فيصل المرشح المثالي لتبوُّؤ العرش في العراق[6]. وجاء ذلك متضمنًا في رسالة مرسلة إلى منظمة IO في وقت مبكر من 31 تموز/ يوليو 1920[7]، أي بعد مرور ستة أيام فقط من إخراج فيصل من سورية وتم إرساله إلى المنفى. وكان البريطانيون على وشك دعوة الشريف عبد الله شقيق فيصل الذي اختارته لندن لبحث إمكان توليه العراق. وفي الساعة الثانية عشرة تقرر تأجيل القرار عن حكم العراق كذلك. وبعد أسبوع واحد فقط، أي بتاريخ 5 آب/أغسطس 1920، جلس المندوب السامي في العراق والمنصّب حديثًا، السِّير بيرسي كوكس، ينصت مع تعليمات للتحقيق في إمكان جعل فيصل أميرًا أو ملكًا على العراق[8].

من المهم ملاحظة أنه كانت هناك ثلاثة شروط مسبقة لتعيين فيصل ملكًا على العراق، منها أن يعرض المنصب في بلاد ما بين النهرين، وأن حكومة صاحب الجلالة تفضل الفكرة من حيث المبدأ شريطة ما يلي: (1) إن الطلب التلقائي على فيصل قادم بشكل كافٍ بوجود

(3) Ibid.

(4) Jan Karl Tanenbaum, «France and the Arab Middle East 1914 - 1920,» *Transactions of the American Philosophical Society* (Florida), vol. 68, no. 7 (1978), p. 39.

(5) Letter from Gouraud to Millerand, 18 February 1920, Ibid., p. 37.

(6) Wilson to IO July 31, 1920, FO 371/5038.

(7) Ibid.

(8) Instruction from IO to Iraqi High Commissioner Percy Cox August 5, 1920, IOR/L/PS/10/919.

هيئة تمثيلية للرأي العام في بلاد ما بين النهرين؛ (2) وإن الشريف فيصل مستعد من حيث المبدأ لقبول ذلك العرض من جانب بريطانيا العظمى؛ (3) وإن بريطانيا كسلطة إلزامية تستوجب الاتفاق على شكل من أشكال الانتداب على الخطوط التي صيغت بالفعل للتواصل مع عصبة الأمم، أو تعديلها، كما يمكن لحكومة صاحب الجلالة أن تنصح بالموافقة عليه؛ وبذلك يمكن التغلب على الحساسية الفرنسية[9].

هكذا وصلت التعليمات إلى المفوض السامي للعراق بيرسي كوكس، 5 آب/أغسطس 1920.

على امتداد الأشهر السبعة التالية، نوقش موضوع فيصل والفرنسيين داخل أروقة الإدارة البريطانية ودوائرها السياسية. ومع ذلك، فإن القرار الذي اتخذ في مؤتمر القاهرة في آذار/مارس 1921 لم يوقف كل معارضة لاختيار فيصل. من الجدير بالذكر أن البريطانيين مارسوا ضغوطًا شديدة على فرنسا بشأن اختيار أمير لسورية. من جانب فرنسا، كما يكتب تشرشل إلى كوكس في أيلول/سبتمبر 1920، فإن فرنسا تراقب وضعًا متطابقًا كهذا، وبالتالي سيعتبر اختيار فيصل من بريطانيا حلاً غير ودي[10].

في القسم السياسي لمكتب الشؤون الخارجية، تم اقتراح اختيار حل مختلف تمامًا عن فيصل كون خلفيته التاريخية تقول غير مرغوب فيه فرنسيًا. وكانوا يعتقدون أن أي موقف سيؤدي إلى الخلاف بين فرنسا وبريطانيا وسيكون ذلك سيئ الحظ جدًا وخصوصًا حول أهمية المضي قدمًا وبصورة غير رسمية تجاه ترشيح فيصل[11]، وهي حالة لا تتفق وما تريده المواقف الفرنسية، فمن المستحيل تنصيب فيصل والتقدم به نحو الأمام[12]، ولكن كما ذكرنا سابقًا، إن لحظة زمنية قصيرة، وبناءً على اقتراح ويلسون في برقيته وقد زكّى الموقف على أن فيصل هو أفضل مرشح [13] وكان هناك الكثير من اللغط والخلاف داخل أروقة الإدارة البريطانية وقد كُتبت مذكرة موجزة عن كل ذلك في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1920. وخاتمة ذلك تُعلمنا بملاحظة تقول إن الأغلبية تعتقد أنه من المستحيل جعل فيصل أميرًا (ملكًا) ما لم يحصل اتفاق على ذلك مع فرنسا.

---

(9) Ibid.

(10) Telegram from Churchill to Cox September 10, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 (seen 2001).

(11) Minute written in the Political Department of FO, September 27, 1920, FO371/5038.

(12) Telegram from IO to FO, October 20, 1920, IOR/L/PS/18/B353.

(13) Telegram from Montagu to FO October 9, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001).

في الفترة التي تلت ذلك، خاضت بريطانيا معركة شرسة مع الفرنسيين للحصول على قبول فيصل. هذا لم يحدث قط. كان كوكس لا يزال إيجابيًا بالنسبة إلى ترشيح فيصل في كانون الثاني/ يناير 1921[14]، لكنه لاحظ جيدًا أن وزير خارجية بريطانيا، اللورد كرزون، قلقًا جدًا بشأن التطورات المتعلقة بفرنسا وموقفها عندما جرت محاولات التفاوض مع المسؤولين الفرنسيين، لكن دون جدوى[15]. وقد أدت المناقشات الداخلية إلى اتخاذ قرار لعقد مؤتمر في القاهرة في آذار/مارس 1921 لتحديد مستقبل العراق.

ثانيًا: مؤتمر القاهرة 1921

نتيجة هذا كله، تمت مناقشة عقد مؤتمر في القاهرة خاص بالعراق كي يأخذ صفة خاصة بوجود عراقيين ومختصين بشؤون العراق، وفي ضوء النقاش أعلاه، من المهم الإشارة إلى أن المشاركين لهم أهمية توازي أهمية العراق في الشرق الأوسط، واتخاذ القاهرة مكانًا مناسبًا لعقد مؤتمر القاهرة، وبأي حال من الأحوال، فقد كانت فكرة السِّير ونستون تشرشل ناجحة لجعل بريطانيا صاحبة القرار في تمثيل المواقف المختلفة، وبعيدًا من مجال الأخذ والرد في داخل الإدارة بالعاصمة لندن. كان المشاركون في المؤتمر يسعون جميعًا بوجه إيجابي وحصري تقريبًا لترشيح فيصل، إذ ذهبوا إليه لاتخاذ القرارات المناسبة في المؤتمر بدلًا من السؤال حول كيفية تجنُّب المقاومة الفرنسية وتصلب مواقفها، وفتح المجال أمام الفرص الأخرى التي قد تكون موجودة.

إن التعمق في دراسة التقرير البريطاني الصادر عن مؤتمر القاهرة بأجزائه الثلاثة يظهر ثلاثة أمور أساسية، يمكن اختزالها بالآتي:

أولًا، كان البريطانيون مستعدين لاتخاذ القرار الملائم، وجعل الفرنسيين أمام الأمر الواقع وإدراك الفرنسيين أن العراق سيغدو مملكة يجلس فيصل على عرشها.

ثانيًا، عرف البريطانيون أن عليهم أن يجعلوا الأمر يبدو وكأن فيصل كان يمثل رغبة الشعب، وأن العراقيين كانوا يراهنون على فيصل لا على غيره.

---

(14) Minute sent to all departments of FO October 16, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001).

(15) Report by High Commissioner Percy Cox to FO 26 December 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001).

ثالثًا، تقرر أن السِّير برسي كوكس يجب أن يعود إلى العراق حالاً «ليبدأ بتفعيل الآليات كلها وأن المؤتمر قد ترجم ما أراده العراقيون، مما يؤدي إلى قبول ترشيح فيصل»[16].

لقد رأينا بوضوح أن الخلاف على فيصل لم يكن فرنسيًا فقط، بل كانت هناك معارضة بريطانية داخلية أيضًا، أي كان هناك خلاف داخلي كبير بين البريطانيين في ما يتعلق بالمعارضة الفرنسية لفيصل، وتعاطف سياسي معها. ومع ذلك، فإن الملاحظات الداخلية والبرقيات المتبادلة المختلفة واضحة تمام الوضوح، وخصوصًا طبيعة العمل في الدوائر السياسية البريطانية، وفهم أساليب التعامل مع المحطات الأجنبية التي اعتقدت أغلبية كبيرة من الساسة البريطانيين أنها كانت فكرة سيئة لمواجهة الفرنسيين، وبخاصة أن البريطانيين أنفسهم كانوا منقسمين في معارضتهم تنصيب ملك أو أمير على العراق مناهض أصلاً للفرنسيين، وجعل الفرنسيين يتجنبون ذلك. لذلك من اللافت للنظر أن البريطانيين اختاروا في نهاية المطاف المراهنة بكل شيء في فيصل.

وأعتقد أن الخلافات الداخلية البريطانية كانت بين مدرستي الاستعمار البريطاني الاثنتين: مدرسة الهند البريطانية التي يعود أمر العراق لها تاريخيًا وعسكريًا، ومدرسة القاهرة البريطانية التي تتباين رؤاها عن المدرسة الأولى. وعليه، فقد اختار تشرشل القاهرة مكانًا للمؤتمر. كما اعتقد أيضًا بأن الترشيح يعود مرة أخرى إلى من كان له التأثير الأكبر في العملية، إذ كانت ثقة الدوائر البريطانية بالعقيد لورانس كبيرة، فهو مستودع أسرارها بالنسبة إلى فيصل، وأن اختيار فيصل كان مجرد اقتراح محتمل قبل مؤتمر القاهرة، وقد توضّح ذلك جليًا بتدعيم ترشيح فيصل هذا خلال اليوم الأول من المؤتمر. وبالفعل خلال الاجتماع السياسي الأول اتفق أعضاء اللجنة على أن فيصل كان الخيار الأفضل[17].

ثالثًا: لماذا الشريف فيصل؟

كان الشريف فيصل (هكذا كان يدعى في أروقة المؤتمر) وشريكه المارشال جعفر العسكري من المؤيدين الأقوياء في تحالف العرب مع بريطانيا للخلاص من العثمانيين الاتحاديين، وكانا شريكين في السرّاء والضرّاء إبان الحرب. وكان جعفر على معرفة بالحكم البريطاني وأن ليس هناك من يقف مع العرب إلا الإنكليز، فهم الوحيدون الذين يمكن

---

(16) Report of the Cairo Conference June 1921, CAB/24/126.

(17) The political committee consisted of Winston Churchill, Percy Cox, Hubert Young, Gertrude Bell and T. E. Lawrence.

الاعتماد عليهم في تحقيق الأهداف، وأن حيوية فيصل ومرونته يمكن أن يعتمد عليهما في حكم العراق. ويبدو واضحًا أن فيصل قد كسب الجولة لدى البريطانيين ليس بتأثير لورانس، بل للسمعة التي امتلكها العراقيون عنه منذ سنوات الحرب.

كانت ورقة الشريف عبد الله (أخي فيصل) قد ضعفت كثيرًا لدى الإنكليز، بدليل أن الحجة التي ذكرت مرارًا ضد عبد الله أنه كسول ولا يمتلك فاعلية فيصل[18]، وكان ذلك أحد أسباب إبعاده عن عرش العراق. كان التركيز الرئيسي لهذه اللجنة في المناقشات أبعد من ذلك خلال المؤتمر لا يتعلق بالاختيار، فهو محسوم كما يظهر للشريف فيصل[19]، ولكن كان الأكثر إيلامًا وتفكيرًا ملحًّا يكمن في البحث عن الطريقة التي يجب أن توصل الشريف فيصل إلى العرش من دون خلق أي متاعب دولية والكثير من العتب أو الغضب الفرنسي[20]. إن أحد أسباب عدم موافقة الفرنسيين على ترشيح فيصل لعرش العراق يتمثل بعدم تلبيته مطالبهم، ومحاربته قضيتهم، والتزامه قضية القوميين السوريين في الصراع ضد فرنسا. وقد وصل الأمر إلى درجة أن فيصل اختار المسار القومي (الوطني) ورفض تحقيق ما أراده الفرنسيون في حكم سورية، وأنه أصرّ على أن لا يرى خيارًا إلا ذلك المسار الصعب.

لقد نجح الفرنسيون في إخراجه من الأرض عنوة، ويمكن للمرء أن يناقش ما إذا كان من الممكن لفيصل أن يبقى تحت حراب الفرنسيين بعيدًا من المسار الوطني، أو أن يغادر رافضًا إياهم فيحفظ كرامته، ولكن هناك شيء واحد مؤكد؛ في النهاية، كان الوطنيون قد وجدوا في فيصل رمزًا لهم وليس النقيض في ذروة تلك الأزمة العصيبة، فأصبح فيصل الشخصية الأمامية الأولى للقومية العربية، ولكن هناك القليل من الشك في أن الشريف فيصل كان يأمل في مقاتلة البريطانيين إلى حد أكبر من الوقوف ضد الطموحات الفرنسية في الشرق الأوسط. وقد تميز فيصل من جانب اثنين من المؤرخين، هما إيلي خدوري وفيليب خوري، بالتوصيفين التاليين، ذلك أن فيصل كان قائدًا لم يستطع فرض إرادته، إذ يظهر تاريخه لدى خدوري أنه استسلم للأقوى من خلال الضغط عليه في أية لحظة معينة[21]. في حين وصفه

---

(18) Report of the Cairo Conference June 1921, CAB/24/126.

(19) Report of the Cairo Conference June 1921 (Appendix minutes of a meeting of the political committee on March 12, 1921), CAB/24/126.

(20) Report of the Cairo Conference June 1921 (Appendix minutes of meetings of the Political Committee 13 and 14) March 1921), CAB/24/126.

(21) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire 1914–1921* (London: Mansell Publishing Limited, 1987), p. 169.

خوري أنه لم يكن قائدًا بمعيار أتاتورك وجهوده لبناء حكومة عربية مركزية قوية في دمشق الراسية على «المبدأ الوطني» والتي حكم عليها بالفشل منذ البداية[22]. ولا يمكن مجاراة ما قاله كل من المؤرخين، ذلك أن فيصل قاد ثورة عربية طويلة قرابة سنتين، وانتصر بدخوله دمشق منهيًا الوجود العثماني للاتحاديين، وأن فيصل لا يمكن ان ينفصل عن المبادئ التي جمعته بكل من جمعيتي العربية الفتاة (المدنية) والعهد (العسكرية)، وخصوصًا في سورية والعراق، كما لا يمكنه أن يقف ضد الميول والمطالب القومية في سورية والتي كان يتطلع إليها العرب في العراق وغيره، وقد فقدت فرنسا في فيصل كل أمل، كما هي الحال عند عملائها، وأن الحكومة الفرنسية لم تسمح أبدًا بالمواقف المعادية للفرنسيين.

رابعًا: الزعيم المناسب للعراق

كما بينتُ سلفًا، فإن كل الحجج حول فيصل كانت ذات صلة جزئيًا بالموقف. ولا شك في أن البريطانيين كانوا يقصدون بأن فيصل يعد مصدرًا يعّول عليه بما جعله مناسبًا كحاكم للعراق. ولا يوجد أي شك في أن بريطانيا وجدت في فيصل زعيمًا مناسبًا في مكان مناسب، فهو الأنسب لوقف الثوار المتمردين في العراق وأنه سيكون عاملاً في استقرار العراق. السؤال الذي أطرحه هنا، وهو يحمل دلالات مهمة، هو: هل كانت هذه الأسباب كما كان يجري على الأرض في العراق هي التي جعلت فيصل ملكًا للعراق وزعيمًا غير عادي؟ نقطة مهمة هي أن فيصل لم يكن قط الرجل الحقيقي كمرشح للعرش في العراق قبل نفيه من سورية. وإذا كان هناك من عارض زعامته للعراق، فإن ويلسون يعدّ أول مسؤول اقترح فيصل كحاكم لذلك، من جرّاء ما لمسه في العراق من ميول العراقيين الذين كانت لهم مشاكلهم المختلفة عن السوريين. ومن المثير للاهتمام أن نرى استعداد فيصل لتولّي مهمته في العراق، وهو يراقب الأحداث وسعيه لإعادة العرش إليه في العراق بدلاً من سورية.

لقد غادر فيصل سورية بالقطار في الليلة نفسها التي دخلت قوات الجنرال غورو الفرنسية دمشق في إثر معركة ميسلون البطلة. كان البريطانيون يراقبون ذلك المشهد التراجيدي في مقاومة السوريين للقوات الفرنسية المحتلة؛ فوجد البريطانيون في فيصل المرشح الذي يمتلك إلى حد كبير الشروط المسبقة لتولي العرش في العراق، ويبدو أنها نكاية بريطانية بالفرنسيين. لقد حبس المؤرخون أنفسهم تقليديًا في مسار حيث يبدو أن

(22) Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus, 1860 - 1920* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), p. 81.

الجميع يتخيل مرشحين آخرين، وكأن الأمور كانت تسير وفق تطلعات الناس من دون أن يوسّعوا أفق التفكير ليدركوا أن عدة زعامات في العالم لم تأت إلى الحكم من دون تزكية من هذه الدولة الكبيرة أو تلك. السؤال: لماذا لم يمنح الشريف عبد الله القليل من التركيز؟ وما قصة المرشحين الآخرين ذوي الصلة بزعامة العراق عام 1921؟

خامسًا: قصة المرشح عبد الله بن الحسين لحكم العراق

1 ـ ترشيح عبد الله لحكم العراق

ذكر لورانس في **أعمدة الحكمة السبعة**: «جاء عبد الله، على الفرس الأبيض، بهدوء مع سرب من العبيد الأثرياء سيراً على الأقدام عنه، من خلال تحية صامتة تحترم البلدة... بدأت أشك في بهجة مستمرة. كان لعينيه وميض مؤكد، وعلى الرغم من خمس وثلاثين سنة فقط من العمر، كان يرتدي العباءة والعمامة. قد يكون منظره يسبب الكثير من الضحك. بدت الحياة ممتعة جدًا لعبد الله... وأصبحت أكثر ثقة بأن عبد الله كان متوازنًا جدًا، ورائعًا أيضًا مع روح الدعابة ليكون نبيًا... ولكن عبد الله سيكون أداة معقدة جدًا من أجل تحقيق غرض واحد»[23].

في اليوم الذي أُعلن فيه فيصل ملكًا على سورية خلال انعقاد المؤتمر السوري في 7 آذار/مارس 1920، أعلن عن الشريف عبد الله [24] (وهو أكبر من فيصل) ملكًا على العراق

---

(23) Thomas E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom* (London: Subscribers' Edition text. 1926), pp. 67 - 68.

(24) عبد الله الأول بن الحسين (1882 ـ 20 تموز/يوليو 1951)، كان حاكمًا أميرًا لشرق الأردن وملكًا للأردن، بين 1921 و1951 عند اغتياله. كان أمير شرق الأردن من 11 نيسان/أبريل 1921 حتى 25 أيار/مايو 1946 تحت الانتداب البريطاني، وأعلن اعتلاءه العرش، ملكًا لدولة مستقلة منذ 25 أيار/مايو 1946 حتى اغتياله في القدس. ولد عبد الله في مكة بالحجاز، وكان ثاني أربعة من أبناء الشريف الحسين بن علي، شريف مكة ومن زوجته الأولى عبدية بنت عبد الله. تلقى تعليمه في إسطنبول والحجاز. بين 1909 و1914، نصّب عبد الله عضوًا في مجلس المبعوثان العثماني، كنائب لمكة، ولكنه كان مع أبيه في مهمة الاتصال بين أبيه والمكتب العربي ـ البريطاني بالقاهرة والمشاركة في الثورة العربية ضد العثمانيين الاتحاديين خلال الحرب العالمية الأولى. بين عامي 1916 و1918، وأدّى دورًا رئيسيًا في عمليات تلك الثورة تحت قيادة والده الشريف الحسين. قاد الشريف عبد الله شخصيًا غارات حرب العصابات على بعض الحاميات. وغدا أميراً لشرق الأردن في نيسان/أبريل 1921 في إثر مؤتمر القاهرة 1921 برئاسة تشرشل، ولكن تأسيس الكيان جاء بمبادرة منه. ثم أصبح ملكًا في عام 1946 بعد أن تم منح شرق الأردن الاستقلال عام 1946. حكم الملك عبد الله المملكة الأردنية الهاشمية حتى عام 1951 حين اغتيل في القدس بينما كان عند مدخل المسجد الأقصى لتأدية صلاة الجمعة من جانب فلسطيني معارض له، وقد خلفه ابنه الأكبر الملك طلال ومن بعد حفيده الملك الحسين بن طلال وصولًا إلى الملك عبد الله الثاني. انظر: Kamal S. Salibi, *The Modern History of Jordan* (London: I. B. =

من جانب العراقيين الحاضرين في ذلك المؤتمر[25]. وكان للإدارة البريطانية في العراق تحت حكم ويلسون، وكما جاء ذكره في سلسلة من التقارير السرية، أسماء عدة مرشحين للعرش في العراق، وممن أعربوا عن رغبتهم في الحصول على ذلك، إذ كان هناك ثمة تسابق على ذلك المنصب الرفيع. لقد فسرت الإدارة البريطانية رغبات الشعب. وكان الشريف عبد الله يحلم بذلك منذ وقت مبكر من كانون الثاني/يناير 1919، وقد تم اعتباره من جانب وزارة الخارجية البريطانية (FO) رجلاً مناسبًا وممكنًا لنيل موقع أمير في العراق[26]. كان كل شيء جاهزًا للبريطانيين الذين أرادوا ولاءً من أمير العراق، كان عبد الله سينصّب حاكمًا للعراق قريبًا، بحكم علاقاته القوية مع المكتب الشرقي في القاهرة، وصِلته بالإنكليز منذ تبادل مراسلات حسين ـ مكماهون. ولكن لم يصبح عبد الله ملكًا على العراق. بخلاف فيصل، الذي كان قليل الاتصال مع البريطانيين قبل الثورة العربية الكبرى منذ وقت مبكر من عام 1914، كان عبد الله حلقة الاتصال بين الشريف حسين والبريطانيين في القاهرة. ومنذ اللحظة الأولى كان قد لقي استقبالاً حسنًا من جانب الممثلين البريطانيين في القاهرة ووصف بأنه جيد، وأنه رجل بريطانيا وصديقها[27]، وأنه يحمل لقب الإمارة وسليل عائلة شريفية بارزة لها مكانتها في الإمبراطورية العثمانية.

أمضى عبد الله الشتاء في إسطنبول كممثل في مجلس المبعوثان العثماني. وعند عودته توقف في القاهرة وقفة طبيعية وهو في طريقه إلى مكة، وهنا اتصل به القنصل البريطاني العام في مصر اللورد كيتشنر. ناقش عبد الله إمكان المساعدة البريطانية من أجل طرد العثمانيين من الحجاز وإنشاء مملكة عربية بدعم من بريطانيا العظمى[28]. كان البريطانيون في البداية يرفضون مثل هذا النوع من الكلام [29]، ولكن عندما كان كل شيء جاهزًا لإعلان تحالف الخيمة الثلاثية الحربَ ضد الإمبراطورية العثمانية، التي دخلت

= Tauris, 1998), p. 93, and Mary Christina Wilson, *King Abdullah: Britain and the Making of Jordan* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1990), pp. 56 - 78.

(25) Wilson to IO April 2, 1920, IOR/L/PS/10/756 and Wilson to IO May 24, 1920, IOR/L/PS/10/759

(26) Telegram from Wilson to Cairo High Commissioner Sir Reginald Wingate, January 28, 1919, in: Jane Priestland, *Records of Jordan, 1919 - 1965*, 14 vols. (London: Archives Editions, 1996), vol. 1: *1919 - 1922*.

(27) Telegram from Consul General Kitchener to Cheetham, September 24, 1914, FO371/2139.

(28) Telegram from Consul General Kitchener to Foreign Minister Sir Edward Gray, 6 February 1914, FO371/2130.

(29) Note from Ronald Storrs, April 19, 1914, FO141/460.

التحالف الثلاثي في آب/أغسطس 1914، اتصل عبد الله بالبريطانيين للاستفسار عما إذا كانت من مصلحة الهاشميين تقتضي توثيق التعاون مع بريطانيا. كان البريطانيون لا يزالون موجودين يترقبون ذلك الاتصال. كان ذلك قد جرى [30]، ويبدو أنه كان مترددًا في التعاون مع بريطانيا، ولكن من المؤكد أن عبد الله قد أقنع والده الشريف حسين بذلك، وهو الرجل الذي يتصف بثبات الرأي وأنه كان الأكثر حكمة بالنسبة إلى الهاشميين[31]. كان لدى رونالد ستورز (Ronald Storrs) انطباع إيجابي جدًا عن الشريف عبد الله، وبعد الاجتماعات الأولى مع ستورز، أصبح عبد الله مسؤول الاتصال الهاشمي مع البريطانيين[32].

كان عبد الله، في الواقع، وزيرًا لخارجية والده طوال الفترة منذ عام 1914 إلى ما بعد نهاية الحرب العظمى. وحتى بعد أن تولى الشريف فيصل قيادة أجزاء كبرى من القوات العربية كان الشريف عبد الله مسؤولاً عن الاتصال مع كل من الإمبراطوريتين البريطانية والعثمانية. لقد بقي عبد الله مؤهلاً وميسرًا وأمينًا لتبادل الرسائل بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون وخزان أسرار العقول التي تقف وراء الثورة العربية[33]. وعليه، ومن خلال هذا كله، كان لعبد الله تجربة مباشرة في الجوانب الإيجابية والسلبية للدبلوماسية البريطانية. ولقد قال لورانس (الذي لم يكن يودّه الأمير عبد الله أبدًا) «إنه الابن الأكثر ملاءمة سياسيًا للشريف حسين»[34]. ربما أدرك البريطانيون سياسيًا أن فيصل يصلح لحكم العراق أكثر من عبد الله لتلك المهمة، ومن الملاحظ أن لورانس وصف في سيرته الذاتية كيف أنه لم يمنح عبد الله أية فرصة في أول لقاء جرى مع الشريف عبد الله في جدة، فقد رفضه لورانس بشكل صريح بوصفه القائد الذي كان يكره لورانس[35]. والحقيقة، أن لكل من الأخوين عبد الله وفيصل مواصفات يختلف أحدهما فيها عن الآخر، بالرغم من منبتهما الواحد وثقافتهما المشتركة الأولى، ولكنها تباينا في الزعامة ومنهج القيادة. يكتب إيلي

---

(30) Abdullah to Ronald Storrs, October 20, 1914, FO371/6237.

(31) George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Simon Publications 2001) (1st ed. London 1939), pp. 112 - 119.

(32) Telegram from Kitchener to Cheetham, September 24, 1914, FO371/2139.

(33) Wilson, *King Abdullah: Britain and the Making of Jordan*, p. 26.

(34) Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom*, p. 50, Note by T.E. Lawrence October 27, 1916, FO882/5.

(35) Lawrence, Ibid., pp. 74 - 75.

خدوري عن فيصل قائلاً: «لم يكن فيصل قائدًا، ولم يكن قادرًا على فرض إرادته، ويبين تاريخه. إنه كان يخضع للضغط الأقوى الذي يمارس عليه في أية لحظة»[36]. ويستطرد فيليب خوري معلقًا ليقول: «ويمكن العثور عند حنا بطاطو على صورة مختلفة لفيصل تبرز لديه صفات قيادية في ظل شروط شديدة التعقيد والغدر للحياة السياسية والاجتماعية في العراق بعد 1920»[37].

2 ـ الرؤية إلى زعامة أخوين

أعتقد أن أهمية فيصل هي معرفة الدبلوماسية البريطانية وكيفية عمل البيروقراطية البريطانية القوية والعتاد جناح الطائر. يجب ألّا أقول إن البريطانيين لم يعتبروا ذلك ميزة حصل عليها فيصل ولم يحصل عبد الله كمثلها، ويُعتقد أن يكون ذلك مهمًا، إذ تمتع فيصل بعلاقة جيدة جدًا مع الأشخاص المناسبين داخل النظام البريطاني، وهم الذين اعتقدوا أن بإمكانهم تشكيله لأن يؤدي الدور الذي يريدونه، وخصوصًا أن البريطانيين، جادلوا أنفسهم بأن عبد الله سيكون أميرًا أفضل كثيرًا من أخيه فيصل على وجه التحديد، لأنه كان أكثر استقلالية من فيصل، ولم يكن لديه نفس الخط الموازي الطويل مع السوريين سواء كانوا من البيروقراطيين أو القوميين[38]. كانت هناك مجموعات من البيروقراطيين الطموحين الذين انخرط فيصل معهم. وكانت تسيطر على تلك المجموعات روح التيارات القومية التي سادت في كل من سورية وتركيا في إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى وما قبلها كما ذكرنا سابقًا، وكانت تلك العلاقة مع هذه الحركات القومية موجودة وهي التي أدت في نهاية المطاف إلى المواجهة مع فرنسا وكانت وراء رحلة فيصل المنفي إلى لندن. وهذا كله يمثل وجهة النظر البريطانية كما تعرضها الوثائق بصورة صريحة. وعليه، كان البريطانيون على إدراك تام بالفوارق الأساسية والجزئية بين الأخوين. إن أهم ما تمّ تأكيده، أن الشريف عبد الله كان على اتصال وثيق بهم منذ عام 1914، وكان جميع البريطانيين معه باستثناءات قليلة، وبقي الانطباع إيجابيًا في ما يتعلق

---

(36) Elie Kedourie, *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914 - 1921* (Eastbourne: Cassell, 1987), p. 169.

(37) فيليب خوري، **أعيان المدن والقومية العربية: سياسة دمشق، 1860 ـ 1920**، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1993)، ص 143، م 72.

(38) Notes from conversation between Garland, The Arab Bureau, and Sheikh Abdul Melik of the Arab Agency, August 1920, FO 371/5040.

بفيصل، ولكن عبد الله لم يبق في تعاون أطول مع بريطانيا، فالسنوات التي قضاها مع البريطانيين كانت بمهام دبلوماسية. كان فيصل قد قضى معظم سنواته السابقات مع القوميين في سورية والعراق قبل الاتصال بلورانس، لكن عبد الله شغل منصب وزير الخارجية للأب الشريف حسين بن علي[39].

3 ـ اختيار فيصل وأبعاد عبد الله

استند ذلك الاختيار على فيصل إلى المنطق الذي يفكر البريطانيون من خلاله، فقد وجدوا أن فيصل قد استند في علاقاته السياسية إلى معرفته بالنظام البريطاني، ولكن في ما يتعلق بعبد الله هو أبعد ما يكون عن ذلك، وأن تقلُّده منصب وزير خارجية لأبيه الشريف حسين كان على الورق، إذ إن صاحب العلاقة المباشرة بالمراسلات هو محمد شريف الفاروقي الذي اعتمد عليه الشريف حسين ليكون ممثله لدى الإنكليز في القاهرة. وهذه الحجة لا تكفي عبد الله لاختياره زعيمًا للعراق، إذ وجد الإنكليز في فيصل مهارة سياسية وكايرزما زعامة تسحر الناس، وسمعة كبيرة بين القبائل وأن فيصل قد تعلم الكثير من الضباط الشريفيين الذين رافقوه في الحرب ناهيكم بعلاقته بالمثقفين العرب وتجسيره العلاقة بينه وبينهم، وبنى صداقة مع لورانس في سياق تلك الحرب وبوجود مستشارين بريطانيين في إدارته في سورية. كان عبد الله طوال هذه المدة على اتصال مع صناع القرار البريطانيين في المنطقة. من جانبه، لم يحصل عبد الله على ذلك الاتصال نفسه مع لورانس كما فعل فيصل. وقد اقترح البريطانيون أن يجازى الشريف عبد الله بما يستحقه، إذ يصلح لمنصب الأمير الفخري، ولكن ليس في العراق، إذ له كفاءته أيضًا[40].

4 ـ التفاضل بين أخوين: عبد الله وفيصل؟

عُدّ عبد الله صالحًا لمنصب أمير الدولة العربية الذي تتأهل له قدراته وشخصيته. له في الشؤون الدينية باعٌ كبير، وسمعته جيدة، حيث يقال إنه الملك. لديه تعاطف خاص مع الطائفة الشيعية، وفي الأمور الدينية والأدبية، هو أمر ذو فهم واسع النطاق[41].

---

(39) انظر: سيار الجميل، «القومي والسياسي في تفكير زعيمين عربيين،» في: **الملك عبد الله بن الحسين: مفكرًا وأديبًا**، إعداد وتحرير بكر المجالي وقاسم الدروع (عمّان: مطبعة الروزنا، 1999)، ص 9 ـ 19.

(40) ومع ذلك، كما ذكر سابقًا، كان هذا صحيحًا بالنسبة إلى معظم المرشحين البريطانيين كما كانوا يناقشون.

(41) Telegram from Wilson to Cairo High Commissioner Sir Reginald Wingate, January 28, 1919, in: Priestland, *Records of Jordan, 1919 - 1965*, vol. 1: *1919 - 1922*.

هكذا وصفه السير أرنولد ويلسون[42]، في بغداد يوم 18 كانون الثاني/يناير 1919، ومن المفارقات أن ويلسون أعطى عبد الله لقطات جيدة، واعتقد أنه مرشح جيد، ولكنه لم يفعل لمصلحة مجموعات المجتمع العراقي، ويمكن الموافقة عليه من جانب المسلمين كافة السنة والشيعة[43]. كما ذكرنا سابقًا في المهمة، لم يكن ويلسون مؤيدًا كبيرًا للحل الهاشمي للعراق في الفترة التي أعقبت الاحتلال البريطاني للعراق، إذ طلبت وزارة الخارجية أسماء عدة شخصيات رئيسية وكانت كل من القاهرة وبغداد تريان أن عبد الله هو حاكم العراق في المستقبل. إضافة إلى ويلسون في العراق، كان هناك المفوض السامي لمصر السير ميلين تشيثام (Milne Cheetham)[44] ومستشار المدرسة الهندية إدوين مونتاكو (Edwin Montagu)[45] وكان انطباعهم إيجابيًا عن عبد الله[46]. وفي تقييمه لمكتب الخارجية (FO)، كتب تشيثام أن عبد الله لم يكن الوحيد كأنسب أمير عربي، لكنه كان أيضًا أقل طموحًا من فيصل، وبالتالي على الأرجح سيكون أسهل للسيطرة. ووفقًا

---

(42) السّير أرنولد تالبوت ويلسون (1884 ـ 1940) هو المفوض المدني البريطاني لإدارة العراق في بغداد بين 1918 و1920. خدم ويلسون تحت قيادة السير بيرسي كوكس، الحاكم الاستعماري لبلاد ما بين النهرين (العراق على عهد الانتداب) خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، بما في ذلك زمن الثورة العراقية ضد البريطانيين في عام 1920. وعمل سياسيًا برلمانيًا في بريطانيا وقتل إبان الحرب العالمية الثانية، وهو في الخامسة والخمسين، له عدة كتب منشورة ومن أهمها كتابه عن الخليج العربي. راجع عنه: Elaine Harrison, «Wilson, Mona (1872 - 1954),» in: *The Oxford Dictionary of National Biography* (New York: Oxford University Press, 2004), pp. 89 - 91.

(43) وكما ذكر سابقًا في المهمة، لم يكن ويلسون مؤيدًا كبيرًا للحل الهاشمي للعراق.

(44) السّير ميلن كرومبتون تشيثام (1869 ـ 1938) كان دبلوماسيًا بريطانيًا. ولد في بريستون، درس الكلاسيكيات في أكسفورد، وبعد ذلك انخرط في الخدمة الدبلوماسية. وخدم في مدريد وباريس وطوكيو وبرلين وروما وريو دي جانيرو قبل إرساله إلى القاهرة في كانون الثاني/يناير 1910. عندما أعلنت المملكة المتحدة حمايتها على مصر في كانون الأول/ديسمبر 1914، وأصبح المفوض السامي بالنيابة، بانتظار وصول السير هنري مكماهون. فتولى مسؤولية الإقامة البريطانية خلال ربيع وخريف عام 1919، وبالتالي كان عليه مواجهة ثورة عام 1919 المصرية. خدم لاحقًا في السفارة البريطانية في باريس، وعُيِّن وزيرًا في سويسرا عام 1922. في عام 1924 تم تعيينه وزيرًا لليونان، بعد انقطاع دام عامين في العلاقات الدبلوماسية. ثم أُرسل إلى الدنمارك عام 1926، وتقاعد في عام 1928. انظر: Arthur Goldschmidt, *Biographical Dictionary of Modern Egypt* (Boulder, CO: Lynne Rienner Publishers, 2000), p. 42.

(45) كان إدوين صموئيل مونتاغو (1879 ـ 1924) سياسيًا ليبراليًا بريطانيًا شغل منصب وزير الدولة للهند بين عامي 1917 و1922. ثم غدا «راديكاليًا» وتعصّب للصهيونية بتأثير من السير هربرت صموئيل والسّير روفوس اسحق للعمل وزيرًا في الحكومة البريطانية. ومثل مصالح الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية وعارض أكثر القوميين الهنود بصرامة، وقاد مونتاغو الوفد الهندي إلى مؤتمر فرساي باريس للسلام عام 1919، حيث عارض خططًا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوقع سقوط السلطنة قريبًا، إنه يمثل سياسة الصقور في المدرسة الهندية البريطانية الاستعمارية. انظر: Montagu Venetia, ed., *Edwin S. Montagu: An Indian Diary* (London: Heinemann, 1930), pp. 34 - 39, and Stephen P. Roskill, *Hankey: Man of Secrets*, 2 vols. (New York: Collins, 1970), pp. 112 - 135.

(46) EC 39th minute November 27, 1918, CAB27/24.

له، سيكون عبد الله أكثر رضى باللقب من فيصل. وبحسب تشيثام، كان عبد الله «العربي الوحيد المناسب»[47]. باختصار، يبدو أن الإداريين البريطانيين في بغداد والقاهرة حققوا نتائج جيدة لعبد الله ونظروا إليه كحل إيجابي لحكم العراق.

يذكر أنه تم خلال هذه الفترة تنصيب الأمير فيصل رئيسًا للحكومة العربية في سورية ولا يزال البريطانيون يأملون أن يوافق فيصل على شروط الفرنسيين. وأن يوافق البريطانيون يستوجب الحصول على رجل مرن هناك أيضًا. لذلك لم يكن فيصل مرشحًا لحكم العراق في ذلك الوقت، فالموقف في العراق كان صعبًا جدًا وكانت تداعياته قد أثرت في التصنيفات التي تدور في رؤوس البريطانيين. وفقًا لويلسون، لم يكن البريطانيون فقط هم من قاموا بعمل جيد بالنسبة إلى عبد الله. فثمة تقارير تظهر معلوماتها ما يدور في أذهان العراقيين، وعليه، فقد توجه ويلسون في بغداد إلى وزارة الخارجية البريطانية بمعلوماته بناء على استطلاعاته بين السكان العراقيين المحليين، ويظهر أن بعضهم رفض ترشيح عبد الله. ليس لجزئية سبب دوره الديني كسليل للنبي، ولكن أيضًا لأنه كان مدربًا ومعروفًا مع النظام التركي. كانت قطاعات من النخبة المثقفة في بغداد في ذلك الوقت تخاف من تغيير حالة الأشياء، وأن ذلك سيؤثر في موقعهم الجمعي في المجتمع[48].

سادسًا: أيهما أراد العراقيون ملكًا على العراق عبد الله أم فيصل؟

اعتقد السكان المحليون في العراق أن عبد الله كان مناسبًا لزعامته العراق، ولا أدري كيف حُسم هذا الأمر من جانب المسؤولين البريطانيين في بغداد؟ ويعتقد البريطانيون أن عبد الله الأنسب وهو الذي كان الابن المفضل للشريف حسين، وأن أباه نفسه يعتقد أنه وريثه الطبيعي، ولا أدري مدى صحة ذلك؟ هل من الممكن عندئذ إعطاء إجابة مُرضية عن أي شقيقين أراده السكان المحليون في العراق (إذا أراد بعضهم)؟ إنني أعتقد أن هناك القليل من الأدلة على أن البريطانيين قدموا أي معلومات شاملة ودقيقة، إذ أظهرت استطلاعات الرأي أن السكان المحليين يفضلون أحدهم على الآخر. كما نوقش سابقًا، كان ويلسون معنيًا لفترة طويلة بمنع الهاشميين من الوصول إلى السلطة، وهذا ربما يحول دون الحصول

(47) Telegram from Sir Milne Cheetham til FO, 30 January 1919, in: *Records of Iraq 1914 - 1966* (Chippendham, Wilts, UK: Antony Rowe Ltd., 2001).

(48) Report from the Baghdad Political Department to FO 26 January 1919, in: Ibid.

على تقرير محايد حول ما يريده السكان. وكما ذكر من قبل، إن من الأهمية بمكان بالنسبة إلى البريطانيين أن الشخص الذي اختاروه كان مطلوبًا بالفعل من قبل الناس، ولكنهم يريدون مجادلة القوى العظمى الأخرى[49]. ولقد تبيّن أن مصالحهم وضمان وجودهم وتطويرها هي التي تحرّك كل رهاناتهم على هذا أو ذاك.

عندما قاد فيصل المنتصر القوات العربية إلى دمشق في تشرين الأول/أكتوبر 1918، خسر عبد الله دور الاتصال البريطاني - الهاشمي الأبرز. وكان ذلك تحصيل حاصل في أعين البريطانيين، إذ برز فيصل كقائد للجيش، في حين أن جهود عبد الله العسكرية خلال الثورة قد ضاعت! لقد وصفنا في فصل سابق الجهود العسكرية التي بذلها الأمير فيصل خلال الحرب، ولا شك في أن النجاح المعتدل الذي حققه كان رائعًا بجهود الضباط الشريفيين الكبار والصغار وكان كافيًا لرفع وضعه مع البريطانيين بوجه عام بالرغم من أنهم يعتقدون بأنه نجاح قد تحقق تحت إشراف لورانس. ولقد تم ذلك بمساعدة تجمعات اللوبيات الصهيونية التي كانت نشيطة إلى حد كبير، إذ عمل الفيلق اليهودي الأول في بريطانيا ووصل إلى مناصب خطيرة. وكانت إحدى النتائج المهمة للحرب الأولى احتلال الشرق الأوسط والهيمنة على فلسطين من خلال إعلان بلفور، وهو ما عقد اتفاقًا بين الحكومة البريطانية والاتحاد الصهيوني لبريطانيا العظمى وأيرلندا للسعي من أجل إقامة وطن لليهود في فلسطين[50]. ويعتقد أن هناك لحظات مهمة يجب مناقشتها أولاً، ويجب على المرء مناقشة مسألة مقدار الدعم الذي يحظى به عبد الله في العراق ثانيًا.

سابعًا: المرشحون الذين لم يكونوا مرشحين أصلاً

على الرغم من تركيز هذه المهمة على الأخوين فيصل وعبد الله، إلا أنه من الجدير ذكر بعض المرشحين الآخرين لعرش العراق، ولو باختصار، وكلهم كانوا تحت رحمة البريطانيين، وما الذي يقوله ويلسون عنهم، ولماذا لم يكونوا على صلة بما ورد في تقرير مؤتمر القاهرة، إذ تم ذكر ستة مرشحين آخرين في نقطة واحدة فقط، وهم:

(1) السيد عبد الرحمن النقيب (نقيب أشراف بغداد)؛ (2) سيد طالب النقيب (نقيب

---

(49) Arnold Wilson, Baghdad to FO April 30, 1920, *Records of Iraq 1914 - 1966* (2001), Note from IO (on the basis of information from Percy Cox, Baghdad) to FO on February 15, 1921, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001) and Report from IO to FO June 1, 1921, IOR/L/PS/10/920.

(50) Joseph Green, *A Social History of the Jewish East End in London, 1914–1939: A Study of Life, Labour, and Liturgy* (New York: Edwin Mellen Press, 1991), pp. 68 - 78 and 101 - 109.

أشراف البصرة)؛ (3) الشيخ خزعل (أمير المحمرة)؛ (4) عبد العزيز ابن سعود (سلطان نجد)؛ (5) آغا خان (إمام الإسماعيلية)؛ (6) برهان الدين (أمير تركي)[51].

بادئ ذي بدء، يسأل المرء إن كان الأول والثاني من النقباء العراقيين، فما علاقة الأربعة الآخرين بالعراق والعراقيين؟ وأين أسماء بقية المرشحين العراقيين للعرش أمثال فريق أول أركان حرب هادي باشا العمري؟ إنني أعتقد أن الأسماء كلها قد حُشرت حشراً في المؤتمر، لكي يقال للعالم بأن هناك ثمة مرشحين للمنصب، إذ إن بريطانيا قد قررت مسبقًا لمن سيكون عرش العراق.

كان نقيب بغداد، السيد عبد الرحمن النقيب الكيلاني (1841 ـ 1927)[52]، شخصية دينية رائدة في المجتمع السني في بغداد. والنقيب لقب عثماني، إذ يقف على رأس نقابة السادة الأشراف في بغداد، وهناك نقباء في كل من الموصل والبصرة وبقية حواضر أخرى عربية. تلقى الكيلاني التمويل من الإدارة العثمانية بحكم موقعه. واستخدمه البريطانيون كمستشار لهم، لكنهم لم ينظروا إليه كمرشح للعرش. في العديد من تقارير ويلسون الحكومية في بغداد[53]، يبدو أن النقيب لم يكن فقط عجوزاً وبصحة سيئة، ولكن لا يحظى بدعم كبير إلا من أتباعه في بغداد. وقد تقدم النقيب بترشيحه بعد مؤتمر القاهرة، إلا أن المفوض السامي لبغداد، السِّير بيرسي كوكس، استقال في وقت لاحق فأهمل طلبه[54]، أو أن طلبه قد رُمي في سلة المهملات!

أما سيد طالب النقيب (1871 ـ 1929)، نقيب الأشراف في البصرة[55]، فكان بدوره له حجمه المحلّي في ولاية البصرة الجنوبية. وكان في عام 1920 قد عدّ لفترة وجيزة مرشحًا محتملاً مؤيدًا لبريطانيا[56]، ولكنه سرعان ما أثار مشكلة لبريطانيا بنصرته للأتراك العثمانيين،

---

(51) Report of the Cairo Conference June 1921, CAB/24/126.

(52) عبد الرّحمن الكيلانيّ النّقيب (1841 ـ 1927) رئيس المجلس التّأسيسيّ الملكيّ العراقيّ ورئيس أوّل حكومة عراقيّة في العصر الحديث ونقيب أشراف بغداد. انظر عنه: رجاء الخطاب، **عبد الرحمن النقيب: حياته الخاصة وآرائه السياسية وعلاقته بمعاصريه** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981).

(53) State Report from Baghdad to FO 24 November 1918, *Records of Iraq 1914 - 1966.*

(54) State Report from the High Commissioner Percy Cox in Baghdad, 10 June 1921, IOR/L/PS/10/919.

(55) هو طالب باشا بن رجب النقيب الرفاعي، أحد أبرز السياسيين العراقيين القدماء وكان أول وزير للداخلية في وزارة عبد الرحمن الكيلاني، انظر: خيري العمري، **شخصيات عراقية** (بغداد: دار المعرفة، 1955)، ص 23.

(56) Note by Secretary of State for IO Edward Montagu, August 26, 1920, *Records of Iraq 1914 - 1966.*

وشك البريطانيون في موقفه، وخصوصًا أنه حصل على دعم خاص من خارج البصرة. وأخيرًا، كان البريطانيون خائفين من الصداع الذي سيخلقه سيد طالب إزاء فيصل. وخلال مؤتمر القاهرة نوقش ذلك، وتقرر أن يمنح إجازة يقضيها خارج البصرة، وهذا يعني بالفعل ترحيله إلى سريلانكا[57] .

تم رفض الأسماء الأربعة التالية في القائمة لأسباب مختلفة. فشيخ المحمرة لم يفعل شيئًا ذي بال وكان لديه بعض الأتباع الذين لا علاقة لهم بالعراق، ورُفض اسم ابن سعود منذ اللحظة الأولى لأسباب دينية تتعلق بمذهب السعوديين الوهابي الذي لا يتلاقى أبدًا مع أهواء العراقيين واتجاهاتهم ونزعتهم الوطنية، ناهيكم بالخلافات التاريخية بين الطرفين. كذلك رُفض اسم آغا خان لعلاقته الواهية بالعراق فكيف يكون حاكمًا على العراقيين. تم رفض أي أمير تركي لعوامل قومية، فأغلب العراقيين هم من العرب، وفي الحقيقة، لم يناقش البريطانيون أميرًا تركيًا بجدية مطلقًا، ربما ليس لأي سبب آخر غير ذلك بعد وقت قصير من الحرب مع الإمبراطورية العثمانية[58]، بالرغم من اندفاع التركمان في العراق لترشيحه. ويبدو واضحًا أن البريطانيين قد استبعدوا الفريق أركان حرب هادي باشا العمري 1860 1932م[59] لعثمانيته وهو من آل العمري بالموصل[60].

إن جميع المرشحين المذكورين هنا، أو غيرهم الذين تواتر ذكرهم في الساحة لم يحظوا بأي تعاطف عراقي جماعي تتفق على أي واحد منهم إرادتهم، ويبدو واضحًا أن انقسامات اجتماعية خفية هي التي حددت ولم تزل تحدد طبيعتهم في حقيقة الأمر على امتداد مئة سنة، وأن كل ما نجده من ظواهر إيجابية علنية كاذبة تختفي في لحظة معينة تاريخية حاسمة لتطفو على السطح كل الترسبات، إذ يتمسك العراقيون ببقايا ما ورثوه عن تاريخ مضطرب بانقساماته المتنوعة الدينية والمذهبية والعرقية والثقافية، وسنرى ذلك بوضوح في لجوء العراقيين إلى الشريف (الملك) حسين بن علي ليطلبوا منه تنصيب أحد أنجاله ملكًا عليهم، وقد تمّ التشديد على فيصل، ووجد الجميع فيه علاجًا سحريًا يخلصهم من تنازعهم على اختيار مرشح عراقي ليكون ملكًا.

---

(57) Telegram from High Commissioner Percy Cox in Baghdad to Winston Churchill April 18, 1921, *Records of Iraq 1914 - 1966.*

(58) Report of the Cairo Conference June 1921, CAP/24/126.

(59) من أشهر قادة الدولة العثمانية في مرحلتها الأخيرة درس في إسطنبول وألمانيا، وشارك في عدة حروب، ونصّب قائدًا للفيلق الثالث ورئيس أركان الجيش العثماني، ثم أصبح عضوًا في مجلس الشورى بقصر يلدز. انظر عنه: العمري، **شخصيات عراقية**، ص 67.

(60) الجميل، **زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب**، ص 228 و244.

ثامنًا: فيصل: إرادة العراقيين

احتضن البريطانيون فيصل وسعوا لتنصيبه ملكًا على العراق، ولكن ليس لسواد عيونه، بل لأنهم اقتنعوا قناعة تامة بأن الرجل يصلح لقيادة بلد مثل العراق وباختيار العراقيين أنفسهم. وإذا كانت هذه إجابة مقنعة، فالسؤال: لماذا اختار البريطانيون فيصل ليكون رجل المرحلة؟ إذا رصدنا ما نشر على امتداد مئة سنة، وخصوصًا بالعربية أو الإنكليزية، فسنجد أن المؤرخين يلتزمون بالنموذج التقليدي للتفسير، إذ ينصب التركيز على مجموعة من الحجج، وهي:

1 ـ أن سكان العراق أرادوا ذلك فعلاً، كما تشير إليه الوثائق، إذ نظر الناس إلى فيصل كأفضل مرشح للحكم في تلك المرحلة التأسيسية الصعبة التي تتطلب تكوين عراق المستقبل.

2 ـ ثمة أسباب عسكرية لبناء قوة العراق الجديدة توكل لفيصل كقائد للقوات العربية خلال الثورة العربية الكبرى، وسيتمكن قريبًا من إنشاء جيش قادر على بناء تلك القوة. وهذا سيمنع البريطانيين من إنفاق موارد كبيرة للحفاظ على استقرار البلاد من وجهة نظرهم.

3 ـ بسبب علاقات فيصل الوثيقة مع البريطانيين، فإن العراق بحاجة ماسة إلى دولة قوية يمكنه الاستناد إليها بتأمين ضروراتها، وأن أفضل من يقوم بهذا الدور هو فيصل الذي نجح في توازنه في الحفاظ على مصالح بلاده إزاء البريطانيين ومستشاريهم. علمًا بأن كل طرف لا يطمئن للطرف الآخر.

لقد بينت من خلال مراجعتي لهذه الحجج أنها تتفق وما جرى على أرض الواقع بعيدًا من الشعارات التي ينادي بها البعض وليس باستطاعته تنفيذها. وعليه، ليس هناك شك في إمكان استخدام هذه الحجج لتفضيل فيصل إزاء العديد من المرشحين المحتملين الآخرين، فقد كسب اقتناع العراقيين به وارتياح البريطانيين له، وخصوصًا أنه يأتي بالرغم من أنف فرنسا التي كانت لا تطيقه أبدًا. وستنتصر إرادة المكتب العربي في القاهرة على ما إرادته مدرسة الهند، وإذا كانت مهمة لورانس قد انتهت في مؤتمر القاهرة، فإن مهمة المِسّ غيرترود بيل ستنتهي هي الأخرى لتتحول إلى متحف لآثار العراق. وإذا كان لورانس قد أنهى مهامه الخطيرة وغادر إلى بريطانيا ليصبح أيقونة الشرق الأوسط عند البريطانيين، فإن غيرترود بيل آثرت البقاء في بغداد لتموت وتدفن فيها عام 1926.

باختصار، كان الجواب الحقيقي يقول بأن فيصل كان هو الخيار المنطقي الوحيد ليس لقيادة بلاد صعبة فحسب، بل لتأسيس دولة وتحديث مجتمع داخل موضوع التاريخ.

تاسعًا: العراقيون إزاء فيصل

1 ـ مؤتمر القاهرة: ترجمة إرادة العراقيين والبريطانيين معًا

لقد أوضحت النتائج التاريخية التي خرج بها مؤتمر القاهرة من خلال تقرير المؤتمر بأقسامه الثلاثة، أنه قد عُقد خصيصًا من أجل العراق وتأسيس مملكته الجديدة، وبقيت أوراقه سرية لأزمنة طويلة في إثر انعقاده «في 12 آذار/مارس 1921 برئاسة السِّير ونستون تشرشل وزيرًا المستعمرات، واتخذ المؤتمر قرارًا بتأسيس مملكة عربية في العراق، وأن يكون فيصل بن الحسين ملكًا لها، وستكون المملكة الجديدة دستورية ديمقراطية. فهللت الصحف المحلية وأعلنت أن ذلك الابن الملكي قد ترك الحجاز متوجهًا إلى العراق»[61].

2 ـ موقف العراقيين من ترشيح فيصل

أعتقد أن إصرار البريطانيين على ترشيح فيصل لعرش العراق، لم يقتصر على رؤيتهم وحدهم، بل كان أيضًا ترجمة لإرادة العراقيين، وكان الإنكليز يعلمون علم اليقين أسباب وصول أعيان عراقيين إلى مكة، فانشغلت بهم، ومنهم عدد غير قليل من رجال ثورة العشرين الذين فروا من العراق ليكونوا لاجئين في ضيافة الشريف حسين وكانوا يحملون معهم تفويضًا عراقيًا يمّثل إرادة قبائل الفرات الأوسط الثائرة التي تنادي بالأمير فيصل نجل الشريف حسين ملكًا على العراق. وتُعلمنا المدونات العراقية بأن وفد العراقيين إليه كان يتألف من فريقين؛ الأول من الأفندية والجلبية ممثلي المدينة، وهم كل من: جعفر أبو التمن وعلي البازركان ومحمود رامز وشاكر القرة غولي وإسماعيل كنة وأمين زكي وعبد الرزاق الهاشمي. أما الفريق الثاني فهو يتألف من سادات الفرات الأوسط وشيوخ عشائرهم الكبيرة، وهم السادة والشيوخ: نور الياسري وهادي المكوطر وعلوان الياسري ومحسن أبو طبيخ ومرزوق العواد ومهدي الفاضل ورايح العطية. ويحكي لنا عبد الشهيد الياسري أن الملك حسين التفت في مجلسه مع الأعيان العراقيين نحو السيد نور الياسري يخاطبه كونه أكبر الحاضرين سنًا وقال له: يا سيد نور إني أعتبرك كأخي الأكبر، وإني قد أودعت ولدي فيصل عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم أودعته عندكم، فأجابه السيد نور: إننا سنرحب بفيصل وسيكون موضع احترامنا ومحبتنا وسنضحي في سبيله بكل ما نملك[62].

---

(61) مأمون أمين زكي، ازدهار العراق تحت الحكم الملكي، 1921 ـ 1958: دراسة تاريخية، سياسية، اجتماعية مقارنة (لندن: دار الحكمة، 2011)، ص 32.

(62) عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين (النجف: مطبعة النعمان، 1966)، ص 240 ـ 241.

3 ـ فيصل بإرادة العراقيين

لا بد أن نعرف أن ثورة العشرين قد انكفأت وانتهت في كل المناطق، وقبل ذلك هاجر زعماء الثورة في الفرات الأوسط ومنهم السيد نور الياسري، وكان سبب الانكسار قلة التموين العسكري والقصف الجوي الماحق[63]، وقد صُدم السيد نور لتسليم عبد الواحد الحاج سكر نفسه إلى السلطات بعد أن أقسم اليمين بعدم الاستسلام[64]، فكان أن جمع السيد نور القيادة الميدانية للثورة بعد تشتتها لمواصلة تحرير العراق، وكان محسن أبو طبيخ يفكر باللجوء إلى إيران ولكنه غيّر ذلك ليلتحق بالحجاز. وجرى ذلك للشيخ رايح العطية وهو أحد القادة الميدانيين ملتحقًا بقافلة السيد نور[65]، ولما وصلوا إلى الحجاز لاقوا ترحيبًا كبيرًا من الشريف حسين والأمير فيصل، وكانوا قد وصلوا بعد مشقة، وكان علي البازركان قد وصل قبلهم مع 242 شخصًا[66]. وكتبت المسّ بيل أن الحجاز وحائل صارا بؤرة لتجمعات العرب ضدنا[67].

«وفي الربع الأول من سنة 1921م كان وصول الثوار العراقيين إلى المدينة المنورة بطريق حائل وعلى ظهور الجمال وهم أساطين الثورة العراقية التي حدثت في 30 حزيران/ يونيو 1921 وكان من جملتهم السيد نور السيد عزيز الياسري وجعفر ابو التمن وعلوان الياسري ورايح العطية وشعلان الجبر ومحسن أبو طبيخ وغيرهم، وقد أعقبهم محمود رامز وعلي آل البازركان وإسماعيل كنه[68]، وظهر أن زعيمهم هو السيد نور الياسري، ثم توجهت القافلة إلى مكة واستقبلهم الشريف حسين بعد الاتصالات التي جرت معه، وخصوصًا أن رسولاً من الشريف حسين كان يتصل بزعماء الثورة وأن علاقة خفية كانت تربط الشريف بالسيد نور[69]. وقضى الزعماء العراقيون طوال شهر رمضان في ضيافة الشريف حسين بمكة بدءًا بـ 9 أيار/مايو 1921 وكان الشريف يدعوهم على مائدته كل أسبوع ليلة الجمعة»[70].

---

(63) المصدر نفسه، ص 523.

(64) المصدر نفسه، ص 524.

(65) المصدر نفسه، ص 525.

(66) علي البازركان، **خاطرات مكتومة** (مخطوط)، ج 2 ص 242.

(67) Florence Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell,* 2 vols. (London: Ernest Benn Limited, 1927), p. 237.

(68) إبراهيم الراوي، **ذكرياتي من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث**، ط 2 (بيروت: مطبعة دار الكتاب، 1969)، ص 148، والياسري، **البطولة في ثورة العشرين**، ص 533.

(69) الياسري، المصدر نفسه، ص 541.

(70) المصدر نفسه، ص 542.

عاشرًا: موقف الشريف حسين

وقد ورد أن لورانس وقف متعاطفًا مع العراقيين قبل انطلاق ثورتهم الكبرى، وخصوصًا من خلال حملته في الصحف البريطانية وصدى مقالاته في البرلمان البريطاني، وكذلك الحث على إصدار عفو عام عن الثوار وتسهيل عودة اللاجئين من زعماء الثورة إلى العراق (رسالة السير برسي كوكس إلى وزارة المستعمرات عن مقترحات لورانس وموافقته حول عودة اللاجئين)[71].

1 ـ تعاطف الشريف حسين مع العراقيين في ثورتهم ضد الإنكليز[72]

قال الشريف حسين: إن تضحياتكم وأتعابكم في ثورتكم لن تذهب سدى، فقد أثمرت هذه الثمرات وهي استقلال بلادكم واحترام العالم لكم وإكباره لجهودكم وثورتكم. ثم أردف قائلاً إنكم تطلبون ولدي عبد الله لملوكية العراق، وإني قد اخترت لكم ولدي فيصل وهو ثقتي ومحل اعتمادي فهل توافقون؟ فأجابه الزعماء إن هدفنا هو أن يكون أحد أنجالك ملكًا على العراق وليس لنا رغبة في أحد آخر والذي أنت تختاره وتعينه نوافق عليه بكل سرور. فقال لهم: إن اختياري وقع على فيصل فأقر الجميع رأيه ووافقوا على اختياره لفيصل ملكًا على العراق[73]. وأبرق محمد رضا الشبيبي (1889 ـ 1965)[74] بذلك برقية إلى بغداد بتاريخ يوم السبت 7 رمضان 1339هـ الموافق 14 أيار/مايو 1921 بتعيين الشريف حسين ابنه فيصل مرشحًا لحكم العراق[75]، وذلك بعد أن انهالت البرقيات يوميًا إلى الشريف حسين تسترحمه بإيفاد أحد أنجاله إلى العراق، وكانت تبرق باللاسلكي، فكتب الشريف حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة يعلمه بتسلمه رسائل العراقيين الذين يطالبون بحكم أحد أبنائنا، ونحن ننتظر فيصل لإعلان ذلك في الوقت المناسب[76]. وقد نشرت جريدة القبلة بمكة برقيات أهل بغداد سواء كانت بأسماء جماعية أم بتواقيع فردية،

---

(71) F.O. 371 - 6350. E541.

(72) المصدر نفسه، ص 549.

(73) الياسري، المصدر نفسه، ص 338 ـ 339 وانظر: جريدة لسان العرب، 1921/7/1.

(74) محمد رضا جواد الشبيبي شاعر من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني، مفكر رصين شديد التؤدة والأناة، ابتلي بالسياسة فكان مصلحًا اجتماعيًا مثالي النزعة أكثر منه سياسيًا ورجل دولة عضو المجلس التأسيسي ووزيرًا للمعارف 1924. انظر عنه: *Records of Iraq 1914 - 1966.*

(75) الياسري، **البطولة في ثورة العشرين**، ص 554.

(76) F.O. 686.95. File No. 51.

وكلها تسترحم الشريف حسين بمطالبها وهي مؤرخة في 10 نيسان/أبريل [77]1921. وللمِس بيل تعليقات على أجوبة الشريف حسين على العراقيين. ولقد تأثر الأمير عبد الله من إزاحته عن موقعه في الترشُّح، ويقال إنه حنق على أخيه فيصل في إثر عودة الأخير من باريس، وأخذ يوصمه بكلمات جارحة[78].

بدا واضحًا أن مكانة فيصل عند العراقيين كانت كبيرة. وينقل المؤرخ عادل الياسري عن سجلات الوثائق البريطانية، ما كتبه معاون التحقيقات الجنائية في بغداد في منتصف عام 1919 عن رأي الأمير فيصل الذي قال: «لست إنكليزيًا ولا فرنسيًا بل عربي ابن عربي. أنا لا أخدم أي أمة أو دولة. أنا خادم العرب، وأعتقد أن هدفي الوحيد في الحياة هو خدمتهم بتأمين الاستقلال الكامل لهم. وعلى الرغم من أننا حاربنا وتخلصنا من الأتراك المسلمين، فإنه يوجد أشخاص يريدون أن يضعونا تحت نير آخر. يجب أن يعارض الشرق العربي الفكرة بالقوة. كيف يمكن أن أكون عميلاً للإنكليز أو أي أمة أخرى حين تكون السلطة عندي قد منحني إياها الشعب الذي يطالب بالاستقلال الكامل»[79]. ولقد تعّرف العراقيون إلى فيصل في مكة عندما لبوا دعوة الشريف حسين على مائدة السماط في مأدبة كبرى حضرها نحو 400 من الشخصيات المهمة في مكة، تمثلاً بتقاليد مآدب الملوك العرب في قديم الزمان[80].

2 ـ ما أراده الأجداد انتهكه الأحفاد

بدا واضحًا أن مكانة فيصل كانت أكبر من مكانة عبد الله عند العراقيين، ذلك أن فيصل غدا ملكًا على سورية، وقد علمته السنين حنكة السياسة، وعلمه الحكم الحكمة في الإدارة، فضلاً عن التجارب مع الدول قد دربته على الخبرة في التعامل... ولكن هذا قد يكون في الأعالي عند العراقيين، وفجأة يهوى عندهم بتبريرات واهية فالملك فيصل الأول الذي اعتزوا به كثيرًا وتفاخروا به وبكوه بكاءً مرًا عند موته عام 1933، انقلبوا عليه وحطموا تمثاله الجميل في قلب بغداد صبيحة 14 تموز/يوليو 1958! وصدقت توقعات الجد الشريف الحسين بن علي عندما قال للعراقيين: «أخشى على ولدي فيصل أن يكون مصيره كجده

---

(77) جريدة القبلة (مكة المكرمة)، 1921/5/2.

(78) البازركان، خاطرات مكتومة، مج 2، ص 275.

(79) العراق في سجلات الوثائق البريطانية، مج 2: 1918 ـ 1921، المحرر الاستشاري ألف دي ل. رش؛ محرر البحوث جين بريشود؛ ترجمة كاظم سعد الدين (بغداد: بيت الحكمة، 2012)، ص 304.

(80) جريدة القبلة (مكة المكرمة)، 1921/5/5.

الحسين»، فبعد مرور 37 سنة، قُتل حفيد فيصل الأول الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله بن الملك علي أشنع قتلة فجر 14 تموز/يوليو 1958 من جانب العراقيين، وهي حالة مشابهة لما حدث لشهيد كربلاء[81]. إنها سيكولوجيا صعبة يتوارثها العراقيون عن تاريخ مضمخ بالدماء منذ مئات السنين، وتكرار الحالات التي تتفاقم تناقضاتها إلى السماء، ثم تهوي فجأة إلى أسفل سافلين، وفي الحالتين، تجد لها تبريرات جاهزة من جانب العراقيين أنفسهم عندما ينتشون ويرقصون في صنعهم لأحداث دموية، ثم ينتكسون يبكون ويلطمون على ما فعلوا بأيديهم. وتكتب المِسّ بيل في رسائلها أنها تذكرت، وهي تشهد قدوم فيصل إلى العراق قصة جده الحسين، وتجد شبهًا تامًا بين الظروف لكليهما، إذ وصل كل منهما وحيدًا إلا من بعض المرافقين، ولكنها كانت تبعد شبح النحس[82]، وقد برهنت الأيام أن مصيرهما واحد! ويقول الأمير الحسن بن طلال: «فها هي صورة فيصل البهي يتنقل بسيفه من دمشق إلى فرساي ليكتشف أن العالم مليء برائحة البارود وأن دمشق مضت من بين يديه بعدما غنّت له في موكب الفتح الثاني والدخول البهيج «أمسى عليك الخير يا أبو غازي، يا باشة العربان» وكان غازي هو الآخر شهيدًا على الدرب، وتشاء مقادير هذا الهاشمي العظيم أبو عبد الله الحسين طيب الله ثراه أن يعيش كربلاء الثانية من جديد لصنوه وأبناء عمومته الهواشم في قصر الرحاب، وإذا الرحاب قد خلا بمذبحة من الصعاب» [83].

حادي عشر: فيصل مغادرًا إلى العراق

1 ـ وداع فيصل للحجاز

أجري حفل رسمي خارج مكة عصر يوم الجمعة العاشر من حزيران/يونيو 1921 لتوديع فيصل في سرادق فخم قامت بتنظيمه رئاسة مركز البلدية. وقد غص السرادق بالوزراء والشيوخ وأركان الدولة ورجال الأمة والأعيان الحجازيين والعرب وأحاطهم الجند النظاميون الذين أدوا السلام العسكري عند تشريف فيصل الحفل، وقد قام بالسلام على الجميع وانطلق بالسيارة الخصوصية نحو جدة، فأطلقت المدفعية إطلاقاتها لتتم مراسيم

---

(81) انظر ما كتبه: الراوي، **ذكرياتي من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث**، ص 149.

(82) Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell*, p. 307.

(83) هذا كلام مهم ورد في مقال بعنوان «في ذكرى رحيل الحسين بن طلال،» نشره الأمير الحسن بن طلال في جريدة **الحياة** اللندنية بعد مرور عام على رحيل شقيقه الملك الحسين بن طلال، مستعرضًا نكبات الهاشميين معتبرًا نكبة الأسرة الهاشمية الحاكمة في العراق، نقلاً عن: الياسري، **البطولة في ثورة العشرين**، ص 570.

التوديع بكل أبهة وفخامة[84]. وكان موكبًا رسميًا شارك فيه الشريف حسين ومعه ضيوفه وكان إلى جنبه السيد نور الياسري وأعيان العراق ووفود عسكرية ومدنية وكان السفر ليلاً لشدة الحر وباتوا في جدة، وكانت الباخرة الحربية نورث بورك راسية في ميناء جدة بانتظار القادمين من مكة، وكانت قد وصلت جدة يوم 11 حزيران/ يونيو وكانت بقيادة الكابتن ف. ر. كامبل، وقد خُصص مكان خاص مريح من الدرجة الأولى في الباخرة يتسع لعشرة أشخاص فقط لفيصل وحاشيته[85]. وجاء في برقية المعتمد البريطاني في جدة المرسلة إلى إدارة الاحتلال في بغداد يعلمها بعدد مرافقي فيصل على الباخرة، فهناك فيصل و4 أشخاص بمعيته من الحاشية والمرافقين (فهم 5 أشخاص)، و8 شخصيات من الزعماء العراقيين (فيبلغ المجموع 13 شخصًا)، وأن عدد الأتباع والخدم يبلغ 16 شخصًا (7 خدم لفيصل و9 خدم للأعيان العراقيين) فيبلغ المجموع كاملاً 29 شخصًا على متن نورث بورك يصلون البصرة يوم 23 حزيران/ يونيو 1921 [86].

وكان الشريف حسين قلقًا جدًا على ولده فيصل في ذهابه إلى العراق، إذ كان يخشى من خصوم فيصل في العراق، إذ لم يكن يثق بما سمعه من أعيان العراق، أو بما سجله بعض العراقيين في برقياتهم ورسائلهم، وكان يريد الحفاظ على سرية وصول فيصل البصرة [87] ويخبرنا عبد الشهيد الياسري أن الملك حسين بن علي اقترب من السيد نور الياسري قبل صعود الأخير إلى الباخرة في اللحظة الأخيرة قائلاً له: «يا سيد نور إني اعتبرك كأخي الأكبر وإني قد أودعت ولدي فيصل عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم أودعته عندكم، فأجابه السيد نور» قائلاً: «إننا سنرحب بفيصل، وسيكون موضع احترامنا ومحبينا ونضحي في سبيله»[88]. ويضيف عادل الياسري قائلاً: «ومن جملة ما قاله له الملك حسين: «إن هذا وديعتي ولدي فيصل أرجو مؤازرته، وإني أخشى عليه من العراقيين، لأنهم سبقوا وخانوا جده الحسين»، فرد عليه السيد نور: «إننا نرحب بالأمير فيصل ونعتز به، ولكن نرجو أن توصي الأمير فيصلاً فينا خيرًا لأن كرسي العراق مغر وملعون»، فالتفت الملك حسين إلى ولده فيصل وقال أجب عمك السيد نور، فتقدم الملك الأمير فيصل، واستشهد بالآية الكريمة في جوابه إلى السيد نور: ﴿**والسابقون السابقون أولئك المقربون**﴾ وختم كلامه

---

(84) جريدة القبلة (مكة المكرمة) (13 حزيران/يونيو 1921).

(85) F.O. 686. 95. File No. 51. dated 5/6/1921.

(86) F.O. 686.74, dated on 12/6/1921 .

(87) F.O. 686. 74. File. no. 51, dated 5/6/1921.

(88) الياسري، البطولة في ثورة العشرين، ص 340.

بقوله «جدي الحسين يكون خصمي إذا لم أنصفكم»[89]. ويكشف هذا الرد من جانب الاثنين أن السيد نور يدرك ما الذي عليه العراق من مشاكل وأن كرسي السلطة صعب جدًا، وأن رد فيصل يكشف عن أن الرجل كان مخلصًا في رده وفي معنى ذلك الرد الذي يوجز فيه طبيعة هؤلاء الاعيان الذين راحوا لوضع ثقتهم في فيصل كونه من آل البيت من دون غيره من العراقيين.

خاطب الأب الحسين العراقيين وأسمعهم أمنياته التي نشرت في **القبلة** وهو خطاب موجه في الحقيقة إلى الشعب العراقي وأعلمهم بأنه لا يهدف من وراء تنفيذ رغباتهم إلا «حصول أقوامنا على استقلالهم ببلادهم، ووحدتهم بأي صورة وشكل كان...»[90]. ولقد رحب نقيب بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني بقدوم فيصل ونادى به ملكًا على العراق، إذ وصلته رسالة من الحسين بن علي أوصاه بولده خيرًا، كما تسلم رسالة من فيصل يعلمه فيها بقدومه، وكان النقيب مرشحًا للعرش، إلى جانب مرشحين آخرين أمثال طالب النقيب من البصرة وهادي العمري من الموصل ولكن لم يفز أي منهم بالعرش، إذ إن العراق كان بحاجة ماسة إلى فيصل ليغدو مظلة للجميع، وقد أدرك الإنكليز خطورة المعادلة العراقية، فكل طيف لا يقبل أن يسوده طيف آخر، وخصوصًا بعد خروج العراق على أيدي البريطانيين من إطار الدولة العثمانية.

2 ـ لماذا اعتلاء فيصل عرش العراق؟

إن قدوم فيصل إلى العراق كان بإرادة العراقيين أنفسهم باستثناء البعض ممن لا يؤمن أصلاً بالعراق وطنًا وهوية. إن العراقيين لم يتفقوا كالعادة على ترشيح أحدهم ملكًا، وكان هناك ثلاثة مرشحين: عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد، وهادي باشا العمري من الموصل، وطالب باشا النقيب من البصرة[91]، وثمة أصوات كانت تنادي بالجمهورية، وأصوات أخرى تنادي بآخرين، ولكن الأغلبية اندفعت باتجاه اسم فيصل من أجل ترشيحه قبل الإنكليز، وخصوصًا ما كسبه من شهرة في إثر اشتراكه في مؤتمر فرساي عام 1919. إن ما شاع ضده منذ تولّيه عرش العراق حتى الآن كان بتأثير عوامل أخرى يدركها الأذكياء، وقد اثبتت الأيام أن

---

(89) إذ ينقل ذلك عن: محمد علي جعفر التميمي، قلب الفرات الأوسط (النجف: مطبعة الغري، 1952)، ص100، ويعلق الياسري قائلًا: «اني أعتبر هذا المصدر أدق المصادر لأنه صدر في العهد الملكي، وأما المراجع الأخرى هي جمهورية». انظر: الياسري، المصدر نفسه، ص 569، م 2.

(90) جريدة **القبلة** (14 شوال 1339 هـ الموافق 20 حزيران/يونيو 1921).

(91) انظر التفاصيل في: الجميل، زعماء وأفندية: **الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب**، ص 241 ـ 246.

الرجل كان مؤهلاً لحكم العراق أكثر من العراقيين، وأن البلاد وقفت على رجليها في عهده القصير، وكان وراء حبك نسيج دولة وبناء مؤسسات دولة امتدت طوال القرن العشرين.

ومن الواضح أن خلافًا سياسيًا كان يعصف في الدوائر السياسية البريطانية، وخصوصًا بين الذي كان يريده كل من المكتبين البريطانيين في الهند والقاهرة حول كيفية حكم العراق عندما كان اسم الأمير عبد الله مقترحًا لعرش العراق، فالمعادلة تغّيرت فجأة لمصلحة فيصل. وعليه، فإن معركة سياسية داخلية استعرت بين أرنولد ويلسون ومكتب الهند البريطاني من ناحية، وبين لورانس ووزارة الخارجية البريطانية من ناحية أخرى[92]. هذه المعركة حسمها كل من السِّير برسي كوكس والمِسّ غيرترود بيل لصالح فيصل نزولاً عند رغبة العراقيين الذين لا يمكن أن يجتمعوا على حاكم من بينهم، ولكنهم حسموا الموقف لمصلحة فيصل.

وفي سورية، شعرت فرنسا بالأسف لعدم استعداد فيصل للتنازل أمام الفرنسيين. لقد تفاوضت طويلاً ذهابًا وإيابًا مع فيصل الذي حكم كيانًا جديدًا، وكان قد غدا أمام العالم ضحية فرض شروطه العربية في كيانه الوطني المستقل إزاء نفوذ الفرنسيين الزاحف بقوات عسكرية شرسة، وانتهت بإنذار فرنسي لم يستطع فيصل الوفاء به. بعد قليل، ضربت القوات الفرنسية في لبنان/سورية بسهولة قوات فيصل في ميسلون، فغادر فيصل نحو المنفى في 24 تموز/يوليو 1920، فكان ضحية العروبة وطارت سمعته في الآفاق.

استنتاجات

من المؤكد تاريخيًا أن إجماعًا عراقيًا توحدت عليه إرادة العراقيين على اختيار فيصل باستثناء من له مصالح خاصة، وليردوا بذلك وثائقيًا على جملة من الاتهامات التي أطلقها خصومه ضده. كنت أتمنى أن يقّدم العراقيون توثيقًا تاريخيًا لذهاب وفد عراقي يضم قرابة تسعين شخصية من أكبر أعيان العراق إلى مكة لطلب موافقة أبيه الشريف حسين من أجل تتويج فيصل ملكًا للعراق[93]، وكان قد أجابهم: «أخشى على ولدي فيصل أن تفعلوا به ما فعلتم بجده الإمام الحسين بن علي»! وعليه، فإن مؤتمر القاهرة عام 1920 وقراراته كانت تتويجًا لإرادة العراقيين، كما توضح لنا مجاميع الملفات والرسائل والبرقيات التي أرسلها المسؤولون البريطانيون عن العراق إلى العاصمة لندن وصناع القرار فيها.

---

(92) IDCE 38th minute May 17, 1920, FO371/5226.

(93) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq* (London: al - Saqi Books, 2000) (1st published 1978).

الفصل الثامن

الملك فيصل وتكوين العراق السياسي مؤسس دولة

أولاً: القادم الجديد

كان العراقيون بكل أطيافهم بانتظار القادم الجديد وهو يمخر عباب البحر الأحمر والبحر العربي ومن ثم بحر الخليج العربي، وخلال ذلك نشط كل من الشرفاء المتحمسين والعشاق المناصرين والضباط الشريفيين والأحرار والعملاء والانتهازيين والوصوليين والنفعيين والمتربصين لإثبات مواقعهم منذ تلك اللحظة عند الرجل الذي سيقودهم، وكانوا كلهم يترصد واحدهم الآخر، وتبلورت أنشطة جديدة من حفل سينما رويال الذي اجتمع فيه 500 شخص لتأليف لجان زينات واستقبال وترحيب، ليبدأ انقسام من نوع جديد وتناقضات جديدة عجز فيصل نفسه عن حلها، إذ تكمن من ورائه نزعات طائفية وانتماءات غريبة ودامت تصفية الحسابات طويلاً، عبرت عنها إبان حكم فيصل نفسه بأشكال مختلفة من الاعتراضات والاحتجاجات والمشاعر الملتهبة، ولكنها أخذت ابعادًا من نوع آخر بعد رحيل فيصل عن الحياة؛ متمثلة بسلسلة من الأحداث والصدامات والانقلابات والتظاهرات والتحزّبات والانشقاقات حتى الانفجار صبيحة 14 تموز/يوليو 1958. وسنقف لاحقًا عند مذكرة فيصل الأول من أجل تحليل مضامينها الخطيرة. بقي السِّير برسي كوكس يرسل أخبار فيصل إلى أبيه الحسين بن علي من خلال برقياته، ويعلمه بردود فعل وجود فيصل بين العراقيين وخصوصًا الاستفتاء والتتويج[1].

(1) F.O. 686 - 74. no. 2, dated 19/6/1921.

ثانيًا: الدعاية لفيصل

كان للدعاية التي مارسها كل العائدين من سورية من الضباط الشريفيين والأفندية المثقفين المدنيين، وخصوصًا أولئك الذين شاركوا في الثورة العربية الكبرى تحت إمرة الأمير فيصل بن الحسين وعلى رأسهم جعفر العسكري ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ومولود مخلص وعبد الله الدليمي وغيرهم من العسكريين، إلى جانب كتابات ومقالات وقصائد الصحف التي كان يحررها كبار الأفندية المدنيين العراقيين أمثال: توفيق السمعاني[2] وداود الجلبي[3] وإبراهيم صالح شكر[4] وعلي الجميل[5] وسليم حسون[6] وروفائيل بطي[7] وفاروق الدملوجي[8] وفهمي المدرس[9] وعلي البازركان[10]؛ كان لكل هؤلاء وغيرهم الأثر الواسع في الترويج للأمير فيصل بن الحسين بوصفه أفضل مرشح لاعتلاء عرش العراق. وإلى الدعاية العراقية، كانت المستشارة المسّ غورترود بيل التي لها مكانتها الخاصة في الدوائر البريطانية تؤيد تلك العواطف العراقية المتأججة. وكان الطاقم البريطاني الذي يحكم العراق وقتذاك يراقب الموقف في العراق، قد أدرك ما يريده العراقيون الذين لم يتفقوا على عراقي واحد ليحكمهم، علمًا أن هناك عدة أسماء مطروحة لم تلقَ قبولاً واسعًا كالذي حظي به فيصل بن الحسين، وخصوصًا قبل انعقاد مؤتمر القاهرة

---

(2) توفيق السمعاني (1904 ـ 1982) أديب وصحافي عراقي، ونائب عن مدينة الموصل لعدة دورات، وصاحب جريدة الزمان البغدادية، التي صدرت في العهد الملكي عام 1937، حتى عام 1963.

(3) داود الجلبي (1879 ـ 1960) هو طبيب عسكري خريج إسطنبول وله معرفة بفيصل وكان مؤرخًا ومحققًا ومؤلفًا وله عضويته العلمية في مجامع علمية عربية وانتخب نائبًا وعين عضوًا في المجلس التأسيس ومجلس الأعيان ولم يكن محابيًا للسلطة أبدًا.

(4) إبراهيم صالح شكر (1893 ـ 1944) كاتب وصحافي، وعمل في الإدارة وله مقالات في السياسة والإصلاح.

(5) علي الجميل (1889 ـ 1928) من أدباء الموصل وخريج الكلية الملكية الشاهانية في إسطنبول، وكان يعرف فيصل معرفة قديمة وأبى أن يتقلد منصبًا على عهده، وله مؤلفات وحرر جريدة **الموصل** ومجلة **النادي العلمي** وجريدة **صدى الجمهور**. توفي في حلب 1928 ودفن في الموصل.

(6) سليم حسون (1871 ـ 1947)، من أدباء الموصل استقر ببغداد وعُرف بكتاباته الصحافية وأصدر جريدة **العالم العربي**.

(7) رُوفائيل بُطيّ (1901 ـ 1956) أديب وصحافي عراقي من الموصل، وعرف بمؤلفاته الأدبية وأصدر جريدة **الزمان** ببغداد.

(8) فاروق الدَّمْلُوجي (1881 ـ 1957) هو طبيب بيطري خريج إسطنبول، وهو باحث من الموصل وإخوته صديق وهو إداري ومؤرخ، وتوفيق الذي كان مرافقًا عسكريًا لفيصل.

(9) فَهْمي المُدَرّس (1873 ـ 1944) سياسي ومؤلف وأديب وكاتب وشاعر عراقي. درس في إسطنبول وزار السوربون وله ثقافته العليا، شغل منصب أمين جامعة آل البيت في العراق في عهد فيصل.

(10) علي البازركان (1887 ـ 1958) له مشاركاته الوطنية ببغداد وهو في سلك التدريس وساهم في ثورة العشرين وترك مذكراته وأوراقه.

في 12 آذار/مارس 1921، الذي حسم الجدل الدولي الذي تزعمته فرنسا، وحسم المنافسات الإقليمية على حكم العراق، وفي مقدمتهم الأتراك والسعودية وإيران، وحسم المناكفات العراقية بتباين وجهات النظر والنزاع الداخلي من أجل العرش، وحسم أخيراً تطلعات فيصل بن الحسين على حساب أحلام شقيقه عبد الله بن الحسين الذي انتظر ذلك العرش طويلاً. وللعلم أن الدعاية قد كانت عراقية خالصة وليست بريطانية ممولة، فالضباط الشريفيون رافقوه في الحرب، والمثقفون المستنيرون رافقه بعضهم من أيام إسطنبول وأغلبهم من القوميين وشيوخ القبائل والعشائر ذهبوا إلى أبيه يطلبونه منه.

ثالثًا: رؤية فيصل على متن سفينة «نورث بروك»

غادر فيصل بن الحسين نحو العراق بطريق البحر، إذ كان على متن سفينة بريطانية اسمها «نورث بروك» (Northbrook) وكان يصحبه عليها عدد من المرافقين العرب والعراقيين، وهو بزيه العربي، وهي أبحرت من ميناء جدة في طريقها نحو البصرة صبيحة 22 حزيران/يونيو 1921. كان فيصل يحلم بالعرش الجديد الذي نادى به العراقيون وأوجده له البريطانيون بعدما أخرجوه من فم الأسد، وكان الرجل يعتقد أن حقه قد استرده بالرغم من أنف فرنسا وكل منافسيه من المعارضين المتعصبين أو الجمهوريين. كان فيصل يفكّر في المستقبل، وهو يحكم هذه البلاد التي لم يرها من قبل أبدًا، كما كان يفكّر في الوسائل التي تجعله يوازن بين ما يريده شعبه منه واشتراطات بريطانيا. كما كان يفكّر في بلاد عريقة لها تاريخها الحضاري العميق، ولها جغرافيتها المتنوعة وألوانها المختلفة. كان يفكّر في كيفية حكم شعب متنوع ومختلف الأديان والنزعات والثقافات. فكيف لفيصل أن يوفّق بين الجميع؟ كان يفكر في كيفية الأخذ بهذه البلاد نحو الارتقاء وتخليصها من التأخر والتخلف الذي تعيش عليه. ما الذي يفعله في بلاد تحيطها بلدان كبيرة وكيف يخلصها من مشكلات صعبة تعيشها؟ مع من يتعامل سياسيًا، وهو يدرك حجم المنافسات على الزعامة في العراق؟ كم كانت تجاربه قاسية مع خصومه، فما السبل التي يمكنه اتخاذها كي يحافظ على ملكه الجديد أولاً وعلى وطنه الجديد ثانيًا. كم هي قدرة فيصل على الاستفادة من تجاربه هو نفسه مع دول بذاتها؟ وما الذي يمكن الاستفادة من تجارب زعماء آخرين وخصوصًا منطقته في الشرق الأوسط؟ كان يضمرها هذا الأمير الشاب النحيل الذي يشبه ملامح القديسين والأولياء بهدوئه ونفاذ رؤيته وعمق نظرته؟ أي أيام حبلى بالصراعات والمؤامرات والأطماع ستنتظره هناك في البلاد التي خذل أهلها جده الحسين وأهل بيته الكرام عليهم السلام من قبله؟

في الحقيقة، وكما أوضحت كتب المذكرات، وكما جاء في العديد من الصحف العراقية التي كانت تصدر وقتذاك، أن العراقيين كانوا فرحين مستبشرين بهذا القادم الجديد ليحكمهم. احتفل العراق بوصول فيصل الأول كما تُجمع على ذلك أخبار الصحف والمؤرخين العراقيين وكتابات المستشرقين، ولكن بعضهم يسجل أن العراقيين في تلك اللحظة لم يستقبلوا القادم الجديد بلهفة، ولم يفرحوا بمقدم فيصل، ولم يرحبوا به، ومن المؤكد وجود عدد من المعارضين العراقيين له سواء ممن كان تابعًا لهذا في البصرة أو لذاك في الموصل أو لذاك في بغداد أو كركوك وأربيل مع وجود بعضهم يؤمن بالنظام الجمهوري[11] بمن فيهم البريطاني عبد الله فيلبي[12]! ولكن من المؤكد أيضًا أن الناس خرجت لاستقباله، ونحرت الخراف وأقيمت الولائم من قبل الشيوخ والوجهاء والأعيان والتجار في البصرة وعلى امتداد خط سير القطار الذي كان يقلّه من ميناء البصرة حتى بغداد، ويبدو أن فيصل قد أدرك وتلمّس بذكائه وحساسيته المفرطة موقف الناس وانطباعاتهم من خلال قراءته لوجوههم.

في اليوم السابع عشر من شهر شوال 1339 هـ المصادف 23 حزيران/ يونيو 1921 وصل الأمير فيصل إلى البصرة، فاستقبل في مينائها استقبالاً رائعًا وظهرت مبالغة المحبين له من خلال إكرامه وانتشار المآدب الفخمة له. وكان وفد يتألف من شخصيات عراقية معروفة قد ذهب لاستقباله، وكان الوفد يمثل كل أطياف المجتمع كي يشارك في الاستقبال عصر يوم الجمعة 24 حزيران/ يونيو 1921. ثم قصد فيصل بغداد العاصمة بواسطة القطار، وتوقف في كلّ من الحلة التي عرج منها على الكوفة والنجف وكربلاء زائرًا المراقد التي يعتبرها أضرحة أجداده، وكالعادة استقبل استقبالاً فخمًا، وكان سموه يلقي خطبًا متباينة شاكرًا العراقيين وقفتهم معه، وهو يطمئن رغبات أبناء العراق المتلهفين إلى الحكم الوطني ثم واصل سفره حتى وصل إلى بغداد في 29 حزيران/ يونيو 1921، فكان أن استقبله الناس استقبالاً لم تشهد له بغداد نظيرًا له من قبل[13]. وقد اختار سكنًا متواضعًا قريبًا له من دائرة الحكم في القشلة

(11) انظر التفاصيل في: حسين جميل، «بداية فكرة الجمهورية في العراق،» **الهلال** (القاهرة) (كانون الثاني/ يناير 1965)، ص 96 ـ 7.

(12) خيري أمين العمري، **حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث**، تقديم علي الوردي (بغداد: الدار العربية للموسوعات، 1969)، ص 75.

(13) انظر التوصيفات الرائعة التي نشرتها جريدة لسان العرب الصادرة ببغداد في الأعداد التي صدرت في أيام 2، 7، 9، 11 من تموز/يوليو 1921.

ببغداد واسمه «دار المشيرية»[14]، التي اتخذها فيصل مقرًا لسكنه المؤقت في بداية الأمر، ثم انتقل في منتصف شهر آب/أغسطس 1921 إلى سكن آخر هو دار ابن شعشوع التي تطّل على دجلة[15]. أما دار المشيرية فقد اتخذه فيصل مقرًا للبلاط الملكي ومنه يدير شؤون البلاد الرسمية ويستقبل فيه زواره[16]، علمًا بأنه لم يكن مكانًا مناسبًا لزعيم البلاد، مقارنة بالقصور التي سكن فيها فيصل في دمشق أيام حكومته العربية فيها ! ويبدو ان الرجل لم يكن ذلك مثار اهتمامه، وعاش في سكن عادي طوال حكمه للعراق. المهم أن الأجواء العامة في العراق عمومًا كانت صافية ومفرحة بالزعيم الجديد، ولكنها في بيئات أخرى ملغومة وغير صافية تعلن عن مشاعر مضادة لفيصل بن الحسين ولوجوده حاكما للعراق.

خامسًا: الالتقاء بالعراقيين

زار فيصل بن الحسين المدرسة الجعفرية وحضر احتفالها به واستمع إلى خطب وأشعار عدد من المثقفين والشعراء العراقيين أمثال الشيخ باقر الشبيبي[17]، وحضرتها معه المِس بيل[18]، كما حضر احتفال مدرسة الفلاح وفتح باب التبرع لها وشاركهم فيصل بالتبرع. كما حضر فيصل احتفالية اليهود العراقيين به وكذلك احتفالية المسيحيين له، ونظم له السيد محمد الصدر احتفالية في المدرسة الإيرانية، وأيضًا في التفيض والحسينية وأُلقيت القصائد في المهرجانات في عموم العراق.

ترأس عبد الرحمن النقيب مجلس الوزراء في جلسته يوم 11 تموز/يوليو 1921 وأقروا بالإجماع المناداة بفيصل ملكًا على العراق، وأوعز إلى وزارة الداخلية اتخاذ الإجراءات

---

(14) دار المشيرية: دار رسمية قديمة، وسميت بهذا الاسم لأنها كانت المقر الرسمي للولاة العثمانيين في بغداد الذين كانوا يحملون رتبة «المشير»، وتقع في قلب مبنى القشلة الواسع عند ساحة الميدان في الرصافة ببغداد. انظر: غازي المرسومي، **البلاط الملكي في العراق ودوره في الحياة السياسية، 1921 ـ 1933** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 19، م 2.

(15) ابن شعشوع: أحد اثرياء التجار اليهود في بغداد وكان قد بنى هذه الدار في منطقة الكسرة وهي تطلّ على دجلة، وفيها عاش فيصل الأول مع أسرته لسنوات.

(16) انظر ما كتبه عنه: أمين سعيد، **أيام بغداد: وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ومعالمه التاريخية** (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1934)، ص 103 (علمت بأن هذا الكتاب قد أعيد نشره عام 2013).

(17) محمد باقر الشبيبي (1889 ـ 1960) شاعر عراقي ومن رجال ثورة العشرين. نجفي اشترك في بعض الحركات السريّة. أصدر جريدة الفرات الأسبوعية ناطقة باسم الثورة، ولكنّها عطّلت بعد خمسة أعداد. انتُخب نائبًا عن لواء المنتفك عدة مرّات. من مؤلفاته ديوان شعر.

(18) Florence Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell,* 2 vols. (London: Ernest Benn Limited, 1927), Letter 16 July 1921, p. 318.

الرسمية لاستفتاء الرأي العام، فجرى الاستفتاء يوم 19 آب/أغسطس 1921 واشترك فيه نحو مليون عراقي، وكانت النتيجة 96 بالمئة موافق لاختيار فيصل ملكًا[19]. وكان أغلب المعترضين من كركوك الذين أرادوا أميرًا تركيًا لا عربيًا.

سادسًا: الاستقبال الملكي

وصف طالب مشتاق في مذكراته لحظة وصول فيصل إلى بغداد قائلًا: «ونزل فيصل من القطار مُشرق الوجه مبتسمًا تكسو وجهه ملامح رجولة وسيمة، وعلا التصفيق ودوّت الهتافات بحياته ملكًا على عرش العراق. وبعد الانتهاء من المراسم توجَّه إلى الكاظمين للقيام بواجب الزيارة إلى الإمام موسى الكاظم وكانت الجماهير محتشدة في مدخل الصحن الشريف. وفي الصحن نفسه نُحرت عشرات القرابين عندما وضع قدميه على عتبة المدخل[20]. وعمت الأفراح عند العراقيين الذين ابتهجوا ابتهاجًا كبيرًا، ووصلت إلى حد خروج النسوة إلى أسطح الدور يزغردن مرحِّبات بهذا القادم الجديد الذي لم يألفوا مثله منذ قرون مضت. وقد تأخر وصول قطار فيصل من البصرة إلى بغداد من الصباح إلى المساء بسبب توقف القطار عدة مرات في المدن وإلقاء فيصل التحية على مستقبليه وهو برفقة صحبه العراقيين الذين قدموا بمعيَّته، واحتشدت جماهير بغداد في الشوارع التي سار فيها موكب فيصل. وما زاد في ثقل الحدث أن زعماء ثورة العشرين كانوا يحتفون به، وكأنهم يقولون للعالم: ها نحن قد عدنا وانتصرنا على المحتلين، وكان البريطانيون يراقبون ما يجري في بغداد وبقية المدن العراقية.

سابعًا: الاستفتاء والتتويج

1 ـ الاستفتاء

ترأس عبد الرحمن النقيب مجلس الوزراء في جلسته يوم 11 تموز/ يوليو 1921 وأقروا بالإجماع المناداة بفيصل ملكًا على العراق، وأوعز إلى وزارة الداخلية اتخاذ الإجراءات الرسمية لاستفتاء الرأي العام، فأجري الاستفتاء يوم 19 آب/ أغسطس 1921 واشترك فيه نحو

(19) *Iraq Administration Reports 1914 - 1932,* 10 vols. (Cambridge, MA: Achieve Editions, 1992), vol. 5, p. 158.

(20) طالب مشتاق، **أوراق أيامي، 1900 ـ 1958**، إشراف حازم طالب مشتاق، ط 2 (بغداد: الدار العربية للطباعة، 1989)، ص 98.

مليون عراقي، وكانت النتيجة أن 96 بالمئة وافقوا على اختيار فيصل ملكًا[21]. وأن أغلب المعترضين كانوا من كركوك الذين أرادوا أميرًا تركيًا لا عربيًا. ووصف هذا «الاستفتاء» كونه استفتاءً شكليًا لا قيمة له، إلا لكي يقال بأن الإرادة العراقية مجمعة على أن يعتلي فيصل بن الحسين عرش العراق ويورث الحكم من بعده أولاده وأحفاده.

2 ـ التتويج

عصر يوم الخميس 30 حزيران/ يونيو 1921 ، وبعد يوم واحد من وصول فيصل إلى بغداد، توجه مع وزير الدفاع جعفر العسكري لزيارة مرقد الإمامين الكاظم والجواد في مدينة الكاظمية وقد كسيت المدينة بأبهى زينتها واستقبله في مدخل البلدة السيد محمد الصدر والحاج أمين الجرجفجي وتوجهوا إلى الصحن الشريف يشقون الطريق المزدحم بأبناء الشعب ونُحرت الذبائح حال نزوله عند عتبة الصحن الشريف، ودخل الأمير الروضة بعدما أُخليت من الناس حيث استقبله كليدار الروضة الشيخ علي الكليدار ورئيس المرشدين السيد باقر. بدأ الأمير بقراءة الزيارة وبصوت مسموع وافتتحها بقوله (السلام عليك يا جدّاه) وكررها ثلاث مرات وأدى الصلاة واستمع إلى كلمات وقصائد المرحبين، وبعدها غادر الحضرة الشريفة لزيارة علماء الدين في الكاظمية السيد حسن الصدر والد السيد محمد الصدر والشيخ محمد عبد الحسين آل ياسين والشيخ مهدي الخالصي كل في داره، حيث رحبوا بزيارته ودعوا أن يحقق آمال الأمة لصالح البلاد على يديه. بعد ذلك زار الحاج عبد الحسين الجلبي من أعيان الكاظمية في قصر الإبل...[22].

وعليه، فإن مملكة العراق وتكوين العراق المعاصر قد ولدا يوم 23 آب/ أغسطس 1921، وجرى الاعتراف بهذا الكيان الجديد تحت اسم «المملكة العراقية» التي أصبح لها علم ونشيد وطني تحت عرش جلالة الملك فيصل الأول. وقد تألفت الوزارة من حكومة جديدة وقام الملك الجديد فيصل الأول بزيارة أغلب المدن العراقية لشكر أهلها وأبنائها في موقفهم ورد الجميل إليهم، وثمة تفاصيل واسعة عن زياراته تلك لمناطق الفرات الأوسط والمناطق الجنوبية والشمالية من العراق[23].

(21) *Iraq Administration Reports 1914 - 1932*, vol. 5, p. 158.

(22) باقر السيد أحمد الحسني، **ذكريات في مسيرة الحكم الوطني الملكي في العراق: من الروضة الكاظمية الشريفة إلى البلاط الملكي**، إعداد وتحقيق نزار باقر الحسني (عمّان: مطابع دار الأديب، 2011).

(23) راجع الصحف العراقية: **الموصل** و**لسان العرب** و**العراق** و**العالم العربي** و**دجلة** و**صدى الجمهور** و**البلاد** وغيرها.

3 ـ يوم التتويج

كان يومًا تاريخيًا عند العراقيين وقتذاك، وقد بقي مغروسًا في الذاكرة الوطنية للعراقيين، ولكنه سيصبح شبحًا في الذاكرة التاريخية بزوال النظام الملكي من العراق عام 1958، ذلك اليوم الذي اعتز به العراقيون بكل وقائعه وتفاصيله التاريخية، والذي دعي بيوم تتويج فيصل الأول ملكًا على العراق في صبيحة 23 أغسطس/ آب 1921، الموافق 18 ذي الحجة 1339 هـ. ابتدأت مراسيم حفل التتويج منذ الساعة السادسة صباح يوم 23 آب/ أغسطس 1921 مع اتخاذ السِّير برسي كوكس احتياطات أمنية مشددة خشية مشاكسات بعض المعارضين العراقيين أو حتى المتطفلين من الأشقياء، فسجلت ساعات الصباح زمنًا فاصلاً بين زمنين اثنين، وبداية تاريخ جديد للعراق. وقد اختيرت الساعة السادسة صباحًا لبدء المراسم بسبب حرارة الشمس العراقية اللافحة في شهر آب اللاهب.

تم التتويج يوم 23 آب/ أغسطس 1921 في حفل كبير بميدان القشلة[24] وقد حضره بين 1000 و1500 عراقي من جميع أصقاع العراق ومن كل أطياف المجتمع، إذ حضر حفل التتويج ممثلون عن كل دين وجماعة ومدينة ولواء. وأتت أكبر الوفود من مدينة الموصل، وكان الحفل بمنتهى الرسمية والدخول إليه بالبطاقات، وفي وقت محدد، إذ مُنع الكثير من الحضور من جراء تأخرهم ومنهم السيد محمد الصدر (1882 ـ 1956)[25] خوفًا على حياة الملك. وعندما أعلنت نتائج الاستفتاء، ألقى فيصل خطابه الرسمي في تتويجه ملكًا على العراق متمسكًا بنهجه الثابت. وقد رفض طلب البريطانيين إليه بأن يعلن في خطابه أن السلطة النهائية هي بيد المندوب السامي، وجاء في خطابه: «أتقدم إلى الشعب العراقي الكريم بالشكر الخالص على مبايعته إياي مبايعة حرة دلت على محبته لي وثقته بي، وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا لإعلاء شأن هذا الوطن العزيز، وهذه الأمة النجيبة لتستعيد مجدها الغابر وتنال منزلتها الرفيعة بين الأمم الناهضة الراقية... وهنا واجب آخر يدعوني لأرتل آيات الشكر للأمة البريطانية، إذ أخذت بناصر العرب في أوقات الحرب الحرجة فجادت بأموالها وضحت بأبنائها في سبيل تحريرهم واستقلالهم... ولا يغرب عن الأذهان أنه إذا كان الناس

---

(24) عن ميدان القشلة، انظر: عبد الكريم بن مصطفى البغدادي العلاف، بغداد القديمة (بغداد: مطبعة المعارف، 1960)، ص 43.

(25) هو السيد محمد حسن الصدر من المجتهدين الشيعة وله نفوذه في الكاظمية ونصب رئيسًا لمجلس الأعيان في العراق عام 1929. انظر: *Records of Iraq 1914 - 1966* (Chippendham, Wilts, UK: Antony Rowe Ltd., 2001).

على دين ملوكهم، فالملوك على دين شعوبهم، فعلى قدر التضامن يكون النهوض، ونحن الآن أحوج الأمم إلى التضامن والتعاضد والعمل بجد ونشاط ضمن دائرة السلم والنظام... الأمة بمجموعها هي حزبي، لا حزب لي سواها، ومصلحة البلاد العامة هي مصلحتي، لا مصلحة لي غيرها... إلخ [26].

أجريت البيعة لفيصل بالإجماع بحضور المسؤولين البريطانيين وعلى رأسهم السِّير برسي كوكس بعد إجراء استفتاء شكلي عام ودعاية المخلصين له ودعم البريطانيين له في كل أصقاع العراق المختلفة، فكان أن كسب الجولة فبويع بالإجماع ملكًا، إذ بويع من قبل السنة والشيعة معًا، وحسم الأمر لفيصل الذي اعتلى العرش وانبثق كيان جديد للعراق اسمه المملكة العراقية، وبتأييد الأغلبية. ولكن أقلية من العراقيين تزعمها السيد طالب النقيب جاهرت بأن حكم العراق للعراقيين، وأقلية ثانية كانت تميل إلى الأتراك، وهي من بقايا المتعاطفين مع العثمانيين وأغلبهم من بقايا قديمة سكنت في العاصمة بغداد والموصل، وهناك نفر على عدد الأصابع من المثقفين العراقيين التقدميين الذين كانوا يطالبون بنظام جمهوري لا ملكي ولا أميري. وكان الموالون لحكم فيصل، من الشريفيين وأغلب المشاركين في ثورة العشرين ومن شيوخ العشائر العربية وكل المؤمنين بالعروبة من القوميين ودعاة القومية العربية، وكان هؤلاء يمثّلون وقتذاك حركة تقدمية [27].

وعليه، فإن مملكة العراق وتكوين العراق المعاصر قد ولدا يوم 23 آب/ أغسطس 1921، وتم الاعتراف بهذا الكيان الجديد تحت اسم «المملكة العراقية» التي أصبح لها علم ونشيد وطني تحت عرش جلالة الملك فيصل الأول. وقد تألفت الوزارة من حكومة جديدة وقام الملك الجديد فيصل الأول الذي قام بزيارة أغلب المدن العراقية لشكر أهلها وأبنائها في موقفهم ورد الجميل إليهم. وثمة تفاصيل واسعة عن زيارته تلك إلى مناطق الفرات الأوسط والمناطق الجنوبية والشمالية من العراق [28].

---

(26) نشرت الجرائد العراقية في كل من بغداد والموصل والبصرة نص الخطاب أو مقتطفات منه. انظر جريدة العراق 25 آب/أغسطس 1921 وجريدة لسان العرب 26 آب/أغسطس 1921 وجريدة الموصل 27 آب/أغسطس 1921، وعثرت على نسخة مكتوبة بخط اليد من خطاب فيصل، وقد كتبت بعض التعليقات على هوامش الصفحة الأولى. انظر: مديرية الدعاية العامة، **فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية** (بغداد: مطبعة الحكومة، 1945).

(27) علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (لندن: دار الوراق، 2007)، ج 6، القسم 1، ص61.

(28) راجع الصحف العراقية: **الموصل ولسان العرب والعراق** وغيرها.

يحدثنا علي الوردي عن سعي فيصل نفسه إلى عرش العراق بدلالة ما ذكرته جريدة **الاستقلال** البغدادية التي أطنبت كثيراً في مدح فيصل، والتي نشرت في 11 آب/ أغسطس 1920 برقية صدرت عن لندن تذكر أن فيصل كان في طريقه إلى سويسرا لمقابلة رئيس الوزراء البريطاني الذي كان في زيارة لها من أجل المداولة بشأن جلوسه على عرش العراق[29]. **ولا أدري كيف كان يفكر البعض من العراقيين**، وهم يصدقون كل ما يقال وينشر في الصحف المحلية عن قضية لم يتداول أحد بشأنها وقتئذ كما أوضحت لنا الوثائق!

توِّج الملك فيصل الأول في ساحة مبنى القشلة. التي تعَدّ واحدة من أهم البنايات التاريخية ببغداد على ضفاف نهر دجلة. ومن معالمها المتبقية وزارة الدفاع والقصر العباسي ودار الوالي وقبة السراي والمحاكم القديمة وجامع الوزير وانتهاء بالمدرسة المستنصرية. إن أقدم الدوائر العراقية التابعة للحكومة قد شغلت بناية القشلة، وكانت مركز القيادة للدولة في بغداد، وقد شغلتها فيما بعد أغلب وزارات الحكومة العراقية والمحاكم والدوائر المالية ومديرية المعارف، ووزارة الداخلية ومديرية الشرطة العامة. وشهدت القشلة أحداثًا اجتماعية وسياسية كثيرة[30].

4 ـ فيصل في إثر التتويج

يقول السيد باقر الحسني: «وبناءً على اقتراح السيد محمد الصدر زار الملك فيصل مدينة الكاظمية عصر يوم التتويج فوجد البلدة في أبهى زينتها مما أذهله روعة ما شاهده بحضور كبار علماء الكاظمية وأشرافها إلى جانب كبار رجال الدولة الرسميين مما لم يشهد مثيله في أي احتفالات أجريت له في بغداد، وقد أقيمت له حفلة في الصحن الشريف، وبايعت هذه البلدة والحضور فيها من أعلامها وأعيانها وسائر أبنائها الملك، ثم قام السيد محمد الصدر وقدم للملك سيفًا مرصعًا بالأحجار الكريمة ومغطى بالذهب وقلده أمام الحضور في عاصفة من التصفيق ثم ألقى كلمة بليغة مع دعاء لنصرة الملك وتأييده لخدمة الوطن والأمة. وقام الملك بعد ذلك وألقى كلمة شكر فيها الأمة العراقية الكريمة على مبايعتها إياه وتقليده هذا السيف رمزاً للجهاد المطلوب في سبيل توطيد دعائم الاستقلال

---

(29) الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، ج 6، القسم 1، ص 37.

(30) مصطفى جواد وأحمد سوسة، **كتاب دليل خارطة بغداد المفصل** (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1958).

للعراق. ثم وقف الملك في ركن داخل الروضة وقد أسبل على غرار الإمامية وسجد على تربة كبيرة أعدت له وحضر هذه المراسم بعض المقربين وبوجود رؤوف البحراني وصادق البصام وأحمد زكي الخياط وآخرين»[31]. هنا، بدا فيصل يمثّل دورًا جديدًا كي يرضي شيعة العراق والتناغم مع مشاعرهم، ولكن هذا لا يكفي أبدًا.

ثامنًا: معرفة فيصل بالعراق والعراقيين

عند اعتلاء فيصل بن الحسين عرش العراق باسم الملك فيصل الأول، كان شابًا له حيويته وقد نضجت شخصيته، وعلمته السنوات الصعبة والتجارب المريرة الكثير وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره. ولكن المرء سيدهش حقًا إذا ما علم بأن الرجل كان على دراية ومعرفة بأحوال العراق وطبيعة مجتمعه وتاريخ بلاد عريقة مع تمكن من جغرافيتها، وهو يدرك طبيعة الخلافات والتعقيدات والتناقضات التي يستوجب ضبطها. وبدا واضحًا أن الرجل كان قد تعّلم الكثير من شبابه المبكر عن العراق، فضلاً عن الثقة التي منحها لكثير من مرافقيه العراقيين وخصوصًا من الضباط العسكريين الذين تسمّوا بالشريفيين سواء في تجربته أيام الثورة العربية (1916 ـ 1918) أو أيام الحكومة العربية في دمشق (1918 ـ 1920)، إذ بدا أنه امتلك معلومات واسعة عن العراق والعراقيين، ورسم صورة واضحة وكاشفة عن بلاد ما بين النهرين، وأنواع سكانها، وطبائع أهلها في المدن والأرياف والبوادي فضلاً عن تنوع أديانها، وتكويناتها العشائرية واختلافاتها المذهبية وأصنافها العرقية وتعدد الثقافات فيها. وكان يراقب من كثب عمليات ثورة العشرين وتابع ماجريات وقائعها من خلال صلته بجمعية العهد وتحركات القوات من دير الزور وتلعفر، وأخيرًا لقاءاته في مكة بزعماء عراقيين قبل قدومه.

بدا مدركًا تمام الإدراك حجم الكوارث التي تعرض لها العراق إبان الحرب العظمى الأولى وما لحق بالعراق من تخلف وتأخر مع معاناة المجتمع كله من المجاعات والأوبئة. وفي حفل الاحتفاء الذي جرى لمبايعته ملكًا على العراق والذي نظمته الطوائف المسيحية الكاثوليكية في كنيسة الكلدان ببغداد يوم 30 تموز/يوليو 1921، وبحضور السِّير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني والمِسّ غيرترود بيل، ألقى الملك فيصل الأول خطابًا

(31) الحسني، ذكريات في مسيرة الحكم الوطني الملكي في العراق: من الروضة الكاظمية الشريفة إلى البلاط الملكي، ص 88.

قال فيه: «اسمحوا لي أن أقول إن العراق بقي 800 سنة تحت الحكم الأجنبي ينتقل من استبداد إلى آخر حتى وصل لهذه الدرجة من التأخر، أما أنا فلا أطلب أن تصبروا على هذا العهد الطويل بل اعطوني عوض كل مئة عام لا بل عوض كل مئتي عام سنة واحدة وبعد انقضاء أربع سنوات تعالوا نناقش الحساب فأعطيكم تفاصيل عن الأعمال التي قمت بها»(32).

تاسعًا: تداعيات ترشيح فيصل لحكم العراق

مقابل ترشيح فيصل ملكًا على العراق، لم يتفق العراقيون على اختيار أي واحد من المرشحين العراقيين، وهم في الحقيقة: عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد، وهادي باشا العمري من الموصل، وطالب باشا النقيب من البصرة. وكانت أصوات من هنا وهناك تنادي بالجمهورية، وأصوات تنادي بمشيخة خزعل الكعبي (أبو المحمرة)، أو بإمارة عبد الله بن الحسين. لقد شهدت تلك «المرحلة» الصعبة المزيد من التقلبات بين العراقيين، بتأييد هذا والتنّصل من ذاك، وحتى بين المثقفين المتنورين الذين تحكمت فيهم الانتماءات الجهوية والتماهي مع العشائريات والنزعات الطائفية والمذهبية(33)، ولكن اسم فيصل كان أكبر منهم جميعًا، ذلك أن العراقيين قد اختلفوا في ما بينهم كالعادة، ولكنهم اندفعوا باتجاه ترشيح فيصل قبل الإنكليز، بل وذهب وفد من أعيان العراق إلى أبيه الشريف حسين بن علي يطالبونه بالموافقة على المناداة بفيصل ملكًا على العراق، وخصوصًا أن الشهرة كسبها بعد اشتراكه في مؤتمر الصلح بفرساي في باريس عام 1919. وعليه، فإن ما جاء عند بعض المؤرخين المتأخرين لا أساس له من الصحة، وخصوصًا عندما يقال إنه «بفضل حملة الدعاية النشطة التي قادها لورانس وحلفاؤه، بمن فيهم السِّير بيرسي كوكس، فاز فيصل الأول بعرش العراق». إن هذا ما تلوكه الألسن ضده منذ تولّيه عرش العراق حتى الآن، ولكن، أثبتت الأيام أن الرجل كان مؤهلاً لحكم العراق، وأنه أوقف البلاد على رجليها، وأنه كان وراء بناء مؤسسات دولة حديثة وثقافة سياسية حديثة امتدت طوال القرن العشرين.

---

(32) مديرية الدعاية العامة، فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية (بغداد: مطبعة الحكومة، 1945).

(33) إن قراءة متمعنة ودقيقة لما كتبه سليمان فيضي، تفضي إلى مثل هذه النتيجة. انظر: سليمان فيضي، في غمرة النضال (بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، 1952)، ص 53 وما بعدها.

عاشرًا: مركزية العراق بين المد والجزر

يغالي المؤرخ البريطاني بيتر سلاغليت في رسمه العلاقة المتغيرة بين بريطانيا والعراق على مدى ثمانية عشر عامًا من الاحتلال والتفويض، والتفاعلات بين الشيعة والسنّة، وموقف الأكراد، والحدود بين تركيا وشمال العراق، والسياسات المتعلقة بالدفاع، وحيازة الأراضي والقبائل والتعليم. ويخلص إلى استنتاجات غير واقعية كونه من البعد بمكان من الواقع، محللاً إرث الانتداب وتقديم بعض التفسيرات الواهية لضعف العراق المستمر كدولة والعقبات الهيكلية التي تحول دون ظهور نظام سياسي تعددي[34] ومن دون أن يقف قليلاً عند العوامل الداخلية المثبطة لكل تقدم تاريخي، ومن دون أن يرى ما حدث من متغيرات جذرية على عهد فيصل الأول، وخصوصًا إبان العشرينيات من القرن العشرين.

يقف الملك فيصل الأول ليس وراء تأسيس دولة مؤسسات ونظام سياسي في العراق، بل وراء إحداث متغيرات اجتماعية واسعة في بنية المجتمع وتبديل هياكل الحياة القديمة، واعتنى بالنواحي الأساسية وأهمها التعليم والمال والاقتصاد وبناء ثقافة جديدة وانفتاح الجيل الجديد في ما بين الحربين العظميين على العالم ومتغيراته الفكرية، ومنح مساحة واسعة من الحريات السياسية نضجت خلالها أدوات وأساليب المجتمع العراقي في ظل ملكية فيصل الأول، ففي عهده نضجت أفكار سياسية متنوعة كان من أقواها الأفكار الراديكالية وانخراط العراقيين في الكفاح، وستظهر في إثر الاستقلال الذي حققه فيصل الأول ودخول العراق عضوًا في عصبة الأمم من خلال معاهدة 1930 مع بريطانيا، الأفكار اليسارية والقومية وتتشكل الجماعات والمنتديات في إبان الثلاثينيات، ومن ثم الأحزاب السياسية الراديكالية في الأربعينيات. ويأتي التحول الصعب على يد فيصل الأول الذي أتعبه جدًا وهو لم يزل على قيد الحياة، اهتمامه بتفاصيل مختلف اتجاهات الرأي العام الذي كان يشحن من قبل السياسيين والأفندية وقادة القبائل والديماغوجيين، بعيدًا من تدخل الضباط والطيارين والشرطة من العسكريين. وهذا ما غاب فهمه عند عدد من المؤرخين وفي مقدمتهم حنا بطاطو الذي اهتم بالظاهرة السياسية من دون معرفة خفاياها في الأعماق وما ترتب عليها من تناقضات، وغابت عنه جملة من الأسئلة المحيرة التي لم

---

(34) Peter Sluglett, *Britain in Iraq: Contriving King and Country*, foreword Albert Hourani, 2nd ed. Revised ed. (New York: Columbia University Press, 2007), pp. 18 - 112.

يدركها على الأرض[35]. فليس كل العوامل الاجتماعية والأنثروبولوجية والثقافية حاضرة في ذهنه وهو يقسم العراقيين إلى ملائكة وشياطين! ليس المهم التفاصيل الشخصية والأنساب والقرابات، ولكن المهم معرفة أين يكمن الخلل في تاريخ العراق على مدى مئة سنة سواء كان ملكيًا أم جمهوريًا، وليس التنكيل بعهد سياسي وإضفاء صفات العظمة على عهود سياسية أخرى!

حادي عشر: بقايا الماضي العثماني وترسباته

بالرغم من كون فيصل قد نشأ في بيئة عثمانية وتأثر بالتقاليد العثمانية، ولكنه نجح في بناء قطيعة بينه وبين الأتراك العثمانيين[36]. كان لها تأثير كبير في العراق الحديث الذي لم يرث تركة عثمانية ثقيلة، ولكنه ورث كل ترسبات الماضي الوسيط منذ قرون مضت. ولقد ورث أيضًا البيروقراطية العثمانية التي ستصبح الأساس للحكومة العراقية، وكان على فيصل تجديدها من خلال المدارس المدنية التي تأسست في تضاعيف القرن التاسع عشر، وقد أنجبت نخبة من السكان في المدن الكبيرة، ومعظمهم من السنّة الحضريين، الذين سيواصلون حكم البلاد بطريقة روتينية دون الالتفات إلى الواقع المضني. ولقد انتقد هذه الحالة بعض المؤرخين الغربيين، ومنهم المؤرخة فيب مار[37] من دون أن تدرك أن السلطة الدينية حرمت الانخراط في المدارس المدنية من أجل الإبقاء على المدارس الدينية. أدار العثمانيون ما سيصبح العراق لقرون وكان لديهم الكثير من المشاكل، لكن عهدهم الطويل أظهر أنهم كانوا فعالين، وكان حكم الملكية الذي دام ثلاثين عامًا في ظل الانتداب البريطاني ثم العراق المستقل أكثر من مجرد حقيبة مختلطة من الناحية الأيديولوجية، لم تستطع حل الخلافات بين الوطنيين سواء كانوا من القوميين أو من القطريين الذين أرادوا التركيز على المنطقة وجعلوا أنفسهم من الإصلاحيين الذين كانت أولويتهم العراق، أو الانقسام داخل العرب بين السياسيين الذين كانوا في الأغلب موالين لبريطانيا والجيش، والكل كانوا ضد الاستعمار، وفي الخفاء تجد روابطهم قديمة مع السفارة البريطانية أو قنصلياتها في المدن. جاء هذا الأخير ليعتبروا أنفسهم القادة

(35) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1983) (1st published 1978), pp. 34 - 101.

(36) Peter Mansfield, *The Ottoman Empire and its Successors* (London: Macmillan, 1973), pp. 70 - 77.

(37) Phebe Marr, *The Modern History of Iraq*, 4th ed. (London: Routledge, 2017), pp. 35 - 39.

الحقيقيين للبلاد وأطلقوا سلسلة من الانقلابات. قاد الإصلاحيون، وبخاصة الشيوعيون الذين كان لديهم أكبر قاعدة شعبية في البلاد، احتجاجات متزايدة بخاصة ضد التأثير الإنكليزي، حيث أدى إلى المزيد والمزيد من القمع. كما حكمت النخبة من خلال الجيش والملاَّك العقاريين في الريف من خلال إقطاعياتهم الكبرى عندما أصبح عدد متزايد من السكان حضريين فزاد سكان المدن.

وأخيراً، تم تطوير النفط مما جعل البلاد تعتمد اقتصاديًا على الصناعة. هنا كان الجانب الآخر من أطروحة المؤرخة فيب مار. لم تتمكن النخب أبدًا من الاتحاد والتعامل مع المعارضة. إن الأيديولوجيا القومية العربية التي سادت تعني أن الهوية العراقية لم يتم تشكيلها أبدًا حتى ذلك الحين، ويمكنها أن تجذب جميع شعوب البلاد. تم تجاهل سكان المناطق الحضرية المتزايدة إلى حد كبير سياسيًا واقتصاديًا. ولا يزال العراق يعتمد على النفط منذ اكتشاف أول بئر نفط فيه عام 1928 حتى يومنا هذا، وأدى النفوذ البريطاني المستمر وقوة الجيش إلى انقلاب عام 1958 الذي قضى على الملكية. وعلى الرغم من استمرار الحكم الملكي لفترة أطول كثيراً من العديد من الحكومات التي تبعته، إلا أنه لم يتمكن أبدًا من التغلب على الاختلافات في البلد ودفع الثمن النهائي لذلك. ومع كل هذا وذاك، فقد نجح فيصل الأول في بناء تجربة حديثة في العراق، غدت من بعده قبلة عند العرب، وغدا العراق قويًا وبلدًا مستقراً وغنيًا ومريحًا في منطقة الشرق الأوسط برمّتها(38).

ثاني عشر: عهد فيصل الأول في مجال الانتداب البريطاني

1 ـ الانتداب البريطاني

لم يكن عهد فيصل الأول عهدًا مثاليًا، فقد بدأ العراق وجوده المعاصر كدولة سعى فيصل إلى أن تنال استقلالها رسميًا بطريقة واضحة لا «غامضة»، إذ ليس أمام العراق إلا الاعتماد على بريطانيا وهي دولة قوية وتعرف العراق أكثر من غيرها وتدرك أغلب مشاكله. وعلى الرغم من رفض الشعب العراقي للاستعمار وأعوان الاستعمار، إلا أن الحقيقة المُرة

(38) William L. Cleveland, *A History of the Modern Middle East*, 6th ed. (London: Routledge, 2018), pp. 107 - 109.

لم يدركها العالم إلا بعد فوات الأوان. كان الوجود البريطاني مرئيًا كما كان من قبل، وقد عانى فيصل الأول قبل غيره بقاءَ معظم المستشارين والمسؤولين البريطانيين في مواقعهم في الوزارات والمؤسسات الحيوية، ولكن لا مناص للجيش العراقي مثلاً إلا أن يعتمد على البريطانيين في التدريبات والتسلح، حيث كانت تقوم بعثات عسكرية بريطانية بتدريب الجيش العراقي وسيطرت القوات الجوية الملكية على قواعد جوية في الحبانية والشعيبة وغيرها كانت تابعة للبريطانيين، وبقيت كليات بريطانيا العسكرية والمدنية تستقبل الطلبة العراقيين للدراسة أو التدريب أو اكتساب الخبرات. كانت الشركات المملوكة لبريطانيا بارزة كما كانت في أي وقت مضى في جميع القطاعات الرئيسية للاقتصاد، وكان الدينار العراقي مربوطًا بالجنيه الإسترليني، وبقي النفوذ البريطاني على الملك ووزرائه قويًا. ومع ذلك، تم تشكيل السياسة العراقية على عهد فيصل الأول بقوة وكفاءة عالية، وسارت المؤسسات العراقية في تطورها، مع تطور الصناعات والغرف التجارية والسوق. وفُرض الأمن الداخلي وقلّت المنازعات العشائرية وكثرت المدارس وصدرت العملة الوطنية العراقية، وبدأ التنقيب عن النفط مع وفرة المنتجات الزراعية... إلخ.

استندت هذه العمليات إلى عوالم وتواريخ سياسية مختلفة ستدوم طويلاً كدليل على قوة التأسيس الذي وقف فيصل الأول على رأسه، وأجبرت المجتمع على التعايش مع عالم جديد من سياسات الدولة العراقية، حدده منهج فيصل وخطواته الأساسية مع أولئك الذين سيطروا على المركز في بغداد أو الحواضر الأخرى، وأحيانًا بخلق القواسم المشتركة، ولكن أيضًا مع تفاقم الاختلافات وروح المعارضة، إذ بقي البعض يعارض شرعية النظام كونه ولد في أحضان بريطانيا، أي أنه جاء من رحم الاستعمار. لقد كان فيصل الأول زعيمًا مرنًا ويستوعب الجميع ويتسم بطابع علماني بصورة متزايدة بالرغم من وصف توفيق السويدي له أنه لا يقبل بالرأي الآخر، ولكنه من ناحية أخرى كما جاء به تشارلز تريب أن الضرورة باتت ماسة حول مسائل الامتياز الاقتصادي وحول الدعوات لإعادة توزيع الثروة وتأكيد الحقوق الأساسية، وكذلك حول التفسيرات المختلفة للهوية الوطنية والواجب. غالبًا ما كانت الهويات الطائفية والمجتمعية مهمة في تشكيل استجابات الناس لهذه القضايا المختلفة ويمكن أن تظهر في أوقات الأزمات[39]، وأضيف أيضًا، أن من كان يمتلك أي روح طائفية انقسامية ويبحث عن إحياء مشاكل تاريخية فهو قد يظهرها بشكل مفضوح، ولكن باستطاعته أن يخفيها ليعبر بدلاً منها عن نزعة معارضة شديدة، أو أنه يلبس ألبسة

---

(39) Charles Tripp, *A History of Iraq* (New York: Cambridge University Press, 2000), pp. 67 - 69.

راديكالية ويبقى يصرخ ضد الاستعمار وأعوانه... لكنهم لم يحددوا مطالبهم الحقيقية في تلك الردود بأي شكل من الأشكال.

2 ـ طبيعة العلاقة بالمندوب السامي البريطاني

قبل تتويج فيصل الأول ومع تأكيد مبايعته من خلال استفتاء شكلي كما أوضحنا ذلك، تم عزل المسؤولين التنفيذيين البريطانيين من السلطة. وفي 23 آب/أغسطس 1922، أي بعد سنة واحدة على تتويج فيصل الأول، أصيب الملك بالتهاب الزائدة الدودية وأصبح غير قادر على الحكم لعدة أسابيع. في تلك اللحظة، استعر جدل محتدم حول طبيعة السيطرة البريطانية على الشؤون العراقية ومدى قوتها من خلال الالتزامات التعاهدية. ربما في أكثر الأعمال جرأة في حياته السياسية، استولى السِّير برسي كوكس على السلطة، وحكم بطريقة بريطانية مباشرة، وقد صُدم فيصل صدمة عنيفة من جراء التصرف البريطاني، إذ غدا برسي كوكس في الواقع ملكًا للعراق بالنيابة، واتخذ إجراءات مثل سجن ونقل أولئك المعارضين المعادين للتدخل الأجنبي. وكان فيصل يتناساهم أو ينسق معهم؛ فضلاً عن إسكات أحزاب المعارضة ووسائل الإعلام؛ وحتى الأمر بقصف المتمردين القبليين[40].

كانت تلك الحركة الغبية التي يختلف حولها الناس، قد أوضحت حقيقة الوجود البريطاني الذي تم تفسيره ضمن اختلافات واسعة ليس بين المؤرخين وحسب، بل بين الساسة البريطانيين أنفسهم. فقد كتب جون تاونسند أن أفعال برسي كوكس «أظهرت خطأً بريطانيًا، فليس كوكس بمسؤول بعيد من الخطأ، وأن تصرفه غير مقصود على الرغم من أنه قد يحدث في كثير من الأحيان» وأن ما حدث كان «ربما أعظم إنجاز لكوكس» قدّم لفيصل بحيث كشف نواياه[41]. ووصفت إجراءات برسي كوكس بأنها «شديدة وغير شعبية»، وقد أشير إلى أن فيصل الأول بدأ منزعجًا جدًا، وكانت لديه «اعتراضات قوية على تصرفات المفوض السامي»[42]. كل ذلك يتناقض مع رواية برسي كوكس، حيث كتب أن أفعاله كانت ضرورية لاستقرار الدولة[43]. مهما كانت الحالة، نجحت إجراءات كوكس في الحفاظ على

---

(40) Ibid., p. 52.

(41) John Townsend, *Proconsul to the Middle East: Sir Percy Cox and the End of Empire* (London: I. B. Tauris, 2010), p. 78.

(42) Ahmad A. R. Shikara, *Iraqi Politics, 1921 - 41: The Interaction between Domestic Politics and Foreign Policy* (London: LAAM Ltd., 1987), p. 39.

(43) Bell, ed., *The Letters of Gertrude Bell*, p. 599.

الوضع الراهن للبريطانيين، واستأنف فيصل حكمه في أيلول / سبتمبر بعد أن بدأت ممانعته في توقيع المعاهدات المتوالية[44].

ثالث عشر: قضايا فيصل الأساسية

1 ـ فيصل وانتحار السعدون

كان فيصل مؤمنًا بأن مملكته لا يمكنها البقاء في قيد الحياة إن خرج الإنكليز من العراق الذي لا حول له ولا قوة إزاء القوى المحيطة به، لكنه من طرف آخر ذهب بعيدًا في تمويله السري للمعارضة الشعبية التي وقفت ضد المعاهدة[45]، كما كانت له علاقاته الخفية بالأحزاب المعارضة للإنكليز، فاصطف هو ونخبته الشريفية العراقية مع خندق المناوئين عراقيًا للحزب الحر العراقي وضد عبد الرحمن النقيب وكل الموالين للإنكليز. سقطت حكومة عبد الرحمن النقيب ليأتي من بعده عبد المحسن السعدون الذي كلّف بتأليف الحكومة وهو مدني عصري التفكير وكان قد قضى عشر سنوات في مجلس المبعوثان العثماني طوال عهد الاتحاديين[46].

تعامل مع فيصل عدد من رؤساء الوزراء المدنيين والعسكريين، إذ تولى الحكومة في عهد فيصل الأول بعد النقيب وعبد المحسن السعدون كل من جعفر العسكري وياسين الهاشمي وتوفيق السويدي وناجي السويدي ونوري السعيد وناجي شوكت. وكلهم كانوا يتمتعون بثقة الإنكليز، ولكن فيصل الأول كان يرتاب من خطورة بعضهم، إذ كان السعدون قد اختير ليكون رئيسًا لجمهورية تحت حماية الإنكليز بعد التخلص من فيصل، وقد أكد أخوه عبد الكريم السعدون ضمان تأييد العراقيين لأخيه! واعتقد أن هذه الجماعة كانت تحلم، وأن عبد المحسن كان يريد إقناع المندوب السامي هنري دوبس في 23 أيار/مايو 1924 بأن العراق لا يمكن حكمه من جانب ملكين الملك والمندوب السامي وينبغي اختفاء أحدهما ويقصد به فيصل[47]! وقد كشف فيصل عن علاقة خفية

---

(44) Reeva Spector Simon and Eleanor H. Tejirian, *Creation of Iraq, 1914 - 1921*, foreword by Gary Sick (New York: Columbia University Press, 2004), p. 97.

(45) حنا بطاطو، **العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية**، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، 1990)، الكتاب الأول، ص 212.

(46) Batatu, *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers*, p. 192.

(47) Ibid.

تربط السعدون بآل سعود، ولكن السعدون بدا متناقضًا ومؤيدًا للإنكليز، فاتهم بأسلوب جارح وشعر بأنه لوحده في الميدان فانتحر في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1929 بعد تركه وصية كتبها بالتركية، ولا يعرف لماذا وجهها إلى ولده علي فقط. إنني أضع علامات استفهام كبيرة على هذا الحدث المحزن، ولكن من كان وراء قتل عبد المحسن السعدون إن كان قد قتل ولم ينتحر؟

2 ـ التوازن السياسي لا التوافق الموازي

في السنوات الاثنتي عشرة التي حكم فيها فيصل الأول العراق، وجدنا حالة توازن سياسي تمتع بها الرجل بعيدًا من التوافق الموازي مع البريطانيين، وتلك مهمة صعبة جدًا، فلا يمكن أبدًا أن نسمح لأنفسنا بوصفه أنه مجرد أداة للبريطانيين كما يحلو للبعض وصفه بكل برود، ذلك أن فيصل الأول كان يمشي طوال سنوات حكمه للعراق على حبل طويل يمتد فوق هاوية بين جبلين اثنين، ولا يمكنه أبدًا أن يقطع صلته بأي طرف من الطرفين. إن أي نقطة إعاقة ستسبب له قطيعة تامة لا تحمد عقباها، وإن ذلك من شأنه أن يدمر كل صدقية معه لدى الجماهير العراقية. من ناحية أخرى، لم يستطع الوقوف ضد البريطانيين بشدة، وبالتأكيد لا يمكنه المطالبة بالاستقلال الفوري. وكان قد تعلم من تجربته القاسية في سورية، وأثبتت فترة ولايته القصيرة فيها عدم قدرته على المواجهة بفعل ضعف بلده الذي يعيش تحديات صعبة.

بدت له أيضًا تقلبات المزاج العراقي من ساعة إلى أخرى، وتنوع الرأي العام، وتقلبات المعارضة السياسية في العراق ضمن التوجهات المضادة والمتشابكة المنظمة والعفوية[48]، وما يقال في الليل يمحوه النهار. وعليه، فقد ظهر فيصل قاضيًا أفضل كثيراً مما كان يمكن الحصول عليه بالواقع... ومتى؟ كان عليه أن يتوازن سياسيًا ويوظف التدرج والتوافق والبحث المستمر من خلال الانفتاح السياسي والتسامح مع المعارضين السياسيين، وتعزيز الثقة بالرجال الذين يعرفهم، وخصوصًا أولئك الذين يعتمد عليهم سياسيًا في تأليف الحكومات أو في هياكل الإدارات، إن التوازن كان منهجه وأسلوب عمله المفضل دائمًا. وكان قد حصد الثمار في النهاية، إذ كسب الجولة بحصوله على استقلال العراق وقبوله في عصبة الأمم في عام 1932. وقبل رحيله بأشهر معدودة.

---

(48) علاء حسين عبد الأمير الرهيمي، المعارضة البرلمانية في العراق في عهد الملك فيصل الأول: دراسة تحليلية (بغداد: مؤسسة بيت الحكمة، 2007)، ص 13 و45 ـ 72.

3 ـ موضوعات فيصل السياسية

تناول فيصل جميع القضايا البارزة في العراق، وطرحها للمعالجة، ومنها: تصحيح الأوضاع الطائفية وحساسيات الشيعة ولامبالاة السنّة، وقد نجح إلى حد ما في تضييق الهوة بين الطرفين من خلال قضية مهمة جدًا يستقطبها تعزيز الوطنية العراقية وتكوين التضامن الوطني، والحد من الوصولية في الحصول على المناصب والسلطة، إذ أدرك أن العراقيين يعشقون السلطة، وكان دومًا يلزم الآخرين باحترام المؤسسات واحتكار القوة للحكومة المركزية، كما عمل على زيادة حجم وقدرات الجيش وتسليحه وتطوير قدراته، وانبثقت على يديه القوة الجوية العراقية واعتنى بها، كما كانت أمنيته الأساسية والطموحة في خلق نظام تعليمي مدني غير طائفي ولا ديني، إذ وجد أن التعليم المدني يوحد الناس في دولة معلمنة، وقام بتشجيع اللامركزية الإدارية ومنح سلطات وصلاحيات كبيرة للمتصرفين والقائمقامين، ناهيكم بتعزيزه واحترامه هو نفسه القضاء بوصفه سلطة غير سياسية ويخضع لها الجميع بمن فيهم هو نفسه، وقد وقف هو نفسه إبان العشرينيات وابن أخيه الوصي الأمير عبد الإله في الأربعينيات أمام القضاء كبقية أبناء الشعب المواطنين الآخرين. وحافظ فيصل على سياسة اعتدال العناصر المتضاربة، كما حافظ على علاقته الجيدة بالبريطانيين، مع تعزيز مكانته كزعيم عربي. ويرى هنري فوستر في سرده التاريخي الموثق أن فيصل الأول كان ركنًا أساسيًا في صنع تاريخ رائع سواء إبان الحرب أو في فترات ما بعد الحرب، وقد عالج بدهاء واضح مشكلات واجهته في العراق، وخصوصًا دوره في معالجته الهادئة لمشكلة الموصل عام 1925، وضغوط الانتداب البريطاني في العراق، ودوره الناضج في التطور الدستوري العام[49].

4 ـ مبدأ فيصل في التعامل السياسي مع الإنكليز: خذ وطالب

بدا الملك فيصل في سياسته الخارجية والداخلية معًا متوازنًا بين الممكن والطموح، أو بين الواقع والحلم، وبدا وسطيًا يقف على مسافة واحدة من الجميع، وكان ذكيًا في الحصول على ما يريد باللين واستخدام المرونة المباشرة، ولم يكتف بما يحصل عليه، بل يأخذ من الإنكليز ويطالبهم بالمزيد. وكان يحّرض المعارضة للإعلان عمّا تريد ليتحدث عن مطالبها بأسلوب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، وهو يعلم علم اليقين حاجة العراق

(49) Henry A. Foster, *The Making of Modern Iraq* (Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1935), pp. 76 - 79, 142 - 148, and 178 - 179.

وشعبه إلى ضرورات لا يوفرها أحد في مثل ذلك الوقت بسهولة، وخصوصًا وهو يعيش الظروف الصعبة التي خلقتها تداعيات الحرب العظمى الأولى. إنه حكم العراق في أسوأ مرحلة اقتصادية كان يمر بها العالم أجمع حيث تفاقمت الأزمة الاقتصادية في العالم، وخصوصًا في بريطانيا ووصلت إلى أوج قوتها عام 1929.

كان العراقيون يشكلون أكبر ضغط عليه كونه وعدهم أنه سيحقق لهم التقدم خلال أربع سنوات أولى من عهده، ولكنه لم يخلص من وجود معارضة متشرذمة، وفرقاء من الساسة العراقيين الذين تدفعهم الأهواء والمصالح والأنانيات، ناهيكم بنزعة الوطنيين وهم في طور ولادة هوية جديدة ضمن انتماء وطني حدد أسسه الملك فيصل وحتى أشكاله في إطار الوطنية العراقية، وانتقالاً إلى مشاكل العشائر وهجمات القبائل واعتراضات المثقفين الأفندية... إلخ من تحديات الداخل، وهو أمام الانتداب البريطاني الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، ولكن نجح فيصل في أن يحصل على ما يريد بالرغم من سلسلة المعاهدات التي قيدت العراق، ولكن كان يسعى إلى الاستقلال بأي ثمن، الذي وصل إليه العراق عام 1932 في إثر معاهدة 1930، ودخوله عضوًا في المنظمة الدولية «عصبة الأمم» بجهود الملك فيصل الأول[50]، وقد حقق الرجل ذلك ورحل عن الحياة عام 1933.

كان الرجل قد اشتهر بعبارة «خذ وطالبْ»، وذلك هو الطريق الثالث الذي اختاره في تعامله مع البريطانيين، محققًا للعراق والعراقيين بعض أمنياته، وأهمها الاستقلال كأول دولة عربية تحصل عليه وقبل مصر الذي حصلت عليه في إثر معاهدة 1936!

رابع عشر: مشكلات في مواجهة فيصل

1 ـ فيصل الأول يفرض اسمه دوليًا

بغض النظر عمّن بقي يعجب بالمؤسس فيصل الأول، أو عمّن اختلف معه وعن أسلوبه، فالأمانة التاريخية تقتضي بعد مرور قرابة 90 سنة على رحيله، استعادة ذكراه كواحد من أبرز القادة العرب الذين عرفهم التاريخ الحديث في القرن العشرين، ولكنه غبن عند بني قومه غبنًا شديدًا، وبرغم بعض أخطائه التاريخية، إلا أن تجربته في الثلث الأول من القرن العشرين كانت خالية من خطايا كالتي ارتكبها قادة عرب آخرون في ثلثيه الآخرين. نعم،

(50) مجيد خدوري، **نظام الحكم في العراق**، ترجمة فيصل الأطرقجي (بغداد: مطبعة المعارف، 1946)، ص 41 ـ 46.

لقد كانت الحالة صعبة ومريرة في ظل أوضاع الهيمنة الفرنسية والبريطانية على العرب، وإيجابيات الرجل كانت من دون شك أكبر كثيراً من سلبياته. وكان فيصل الوحيد الذي اعتُرف به دوليًا ليمثّل العرب على رأس وفده في مؤتمر الصلح بباريس في عام 1919، وألقى كلمته بين المؤتمرين مطالبًا بحقوق العرب السياسية. لقد تمتع بقدرة كاريزمية فائقة في الحكم والقيادة وفي تعامله المتوازن بين البريطانيين والعراقيين. على عهده الذي استمر 12 عامًا ولدت من خلاله دولة العراق المعاصر وبنيت مؤسساتها الدستورية والخدمية كافة. ومر عهده بسلسلة من المعاهدات مع بريطانيا، ولم يرحل الرجل عام 1933، إلا وكان العراق قد نال استقلاله رسميًا ودخل عضوًا أصيلاً في عصبة الأمم، ودولة معترف بها لها سيادتها وكامل مؤسساتها. وأستطيع القول بأن عهد فيصل الأول هو العهد الدستوري والتأسيسي الأول الذي شهد لوحده عراقيًا حرية في الصحافة وانبثاق الأحزاب وولادة الفكر الحديث والتيارات الجديدة. وتُعد العشرينيات من أخصب مراحل النمو في الأجهزة والمرافق السياسية والمدنية والعسكرية برغم فقر البلاد المدقع وارتباط العراق بمعاهدات ثقيلة مع البريطانيين، وخروجه من تركة نظام عثماني طويل كانت له قساوته وسكونيته السياسية والاقتصادية. كما شهد عهد فيصل الأول حالة وفاق دبلوماسي وسياسي مع كل من الجارتين إيران وتركيا، إذ توثقت علاقاته مع مؤسسين اثنين لهما: مصطفى كمال أتاتورك والشاه رضا بهلوي، فضلاً عن دور فيصل في نسيان الماضي الشخصي الأليم وإعلاء مصلحة العراق العليا بترسيخ العلاقات مع الملك عبد العزيز آل سعود.

2 ـ الصراع على السلطة ومشكلات النفوذ والقرابة

كان السعي نحو السلطة في العراق محمومًا منذ بدء تشكُّل الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، وقد هيمنت الإدارة والركض وراء المناصب على النظام السياسي منذ بداياته، وبقدر ما صعد أناس للسلطة والنفوذ البيروقراطي وكسب الجاه، انزوى آخرون عن ذلك كله مكتفين بنصيبهم من الحياة، وقد كانت لهم أنشطتهم وفعالياتهم السياسية الخطرة سواء أيام العثمانيين الاتحاديين أم ضد المحتلين الإنكليز. ومع تسّنم فيصل الأول العرض، كثر الأذناب والدعاة والمداهنون، وهناك من استغل مرونة فيصل لاكتساب القوة والنفوذ ليس في الدولة وحسب، بل في المجتمع أيضًا، مع ازدياد المستغلين مع قوة تحالف جمع الساسة الكبار مع شيوخ العشائر المتنفذين[51].

---

(51) نزار الحسو، الصراع على السلطة في العراق الملكي: دراسة تحليلية في الإدارة والسياسة (بغداد: دار آفاق عربية، 1984)، ص 16 ـ 34.

تفاقم أمر النخبة السياسية والعسكرية لتصبح طبقة كان لها نفوذها في كل من الإدارة والسياسة كي توزع المناصب في ما بينها، وارتبط قسم كبير منها برابطة القرابة، وخصوصًا عند العوائل البغدادية المتنفذة التي زاد ثراؤها، وتشابهت سلوكياتها، بل وتمتعت كجماعات غير رسمية بنفوذ كبير في الإدارة والسياسة. وعُدّ عهد فيصل الأول بمثابة رعاية أبوية لهذا النسيج الذي كان يعمل من أجل مصالحه الفئوية والكومبرادورية وفيهم تجار ووكلاء مصالح أجنبية، ويضاف إلى هؤلاء الملاّك من المستغلين[52]. والمصالح الخاصة للفئة العليا من الأعيان، وهم «السراة» (أي: سراة القوم)، فكانت تلك المصالح السراتية تنمو أكثر فأكثر على حساب الشرائح الاجتماعية الفقيرة والمسحوقة، الأمر الذي سبب تراكم الأحقاد والضغائن سنة بعد أخرى خلال العهد الملكي كله، وأضعف القوى الفاعلة في المجتمع، وقادت تلك الأوضاع إلى نمو الحركات السياسية الراديكالية وتفاقم المعارضة الوطنية، وقد تألبت جميعًا لتنفجر يوم 14 تموز/يوليو 1958، وتقضي على العهد الملكي.

خامس عشر: جدلية التقدم والتخلف وولادة نقيض النقيض

كان كل ذلك يتمشى مع مشروع بناء القوى البشرية التي يمثلها الخريجون من المدارس والكليات الجديدة مع إرسال بعثات إلى الخارج بأوامر من فيصل نفسه، وكان موقف فيصل صعبًا وهو يمارس دورًا تحكيميًا في الخلافات والصراعات على مختلف الجبهات، وخصوصًا وهو يمثل العراقيين أمام الإنكليز وسياسات الانتداب، وهو يمثل أيضًا الوسيط والمرجع في صراع الإرادات السياسية بين القوى الوطنية والطبقة الحاكمة ومن يتحالف معها. وأجده حائرًا وسط هذا المناخ السياسي الصعب بين الشدة واللين كاستراتيجية يوظفها في ربط العراق بعضه ببعض وهو في مسيرته نحو المستقبل، فضلاً عن مشاكل الطبقة السياسية نفسها، وانقساماتها بين إصلاحيين وعلمانيين (كماليين) وقوميين وضباط شريفيين... إلخ، صحيح أن جميعهم لبس «الفيصلية»[53] كرمز يجمعهم بفيصل،

---

(52) خلدون حسن النقيب، **الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة**، ط 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996)، ص 77.

(53) السدارة الفيصلية نسبة إلى اسم فيصل، وهي غطاء الرأس للرجال بديلًا من الطربوش العثماني في العراق، وقد أوجدها فيصل الأول نفسه ولبسها كي يوحّد العراقيين بها أولًا، ولكي يقطع صلتهم بالماضي العثماني ثانيًا، علمًا بأن بعض المثقفين العراقيين الذين خالفوا فيصل لم يلبسوها، وبقوا على طرابيشهم.

ولكنهم يتفرقون في اتجاهاتهم ونزوعاتهم[54]. وعليه، ما غاب هذا الرجل عن المشهد العراقي برحيله حتى حلت الخلافات والتناحرات مكشوفة وعلى رؤوس الأشهاد.

لقد واجه فيصل بأفكاره الجديدة مجتمعًا تقليديًا بكل ظروفه الاقتصادية الصعبة وفوارقه الطبقية الحادة، وتمايزاته الثقافية والجهوية من بيئة إلى أخرى، وسلوكياته المضطربة، وهو يجمع البداوة والريف والمدينة، وانقساماته المذهبية والعرقية والدينية وكلها كوابح أمام بناء نظام الدولة الحديث والقيم المدنية الجديدة. واخترقت المؤسسات كل التقاليد البليدة والبالية، وقد سببت ترضيات ووساطات عائلية أو جهوية أو طائفية أو عشائرية وكل تلك التقاليد مجيء وزراء ونواب ومديرين من التابعين والأذناب يتصدرون المشهد ويثيرون المشاكل ويمارسون المحسوبية والمنسوبية بدرجة مقرفة[55].

اقتصر مجلس الأعيان على شخصيات دينية وعشائرية معروفة يعينها الملك كهيئة معينة وصفوة مختارة على الأسس التقليدية المذكورة. أما مجلس النواب، فلا يختلف أعضاؤه عن الأول بشيء، ولكن شهد وجود نواب أقوياء إبان عهد فيصل. ولكن تصادم المتمدنين والمثقفين مع شيوخ العشائر والأعيان ساهم في إضعاف الحياة السياسية في العراق، وكان للأحزاب السياسية دورها المحدود، ولكن كانت الصحافة العراقية قوية من الناحية السياسية، ونشرت مقالات رائعة في نقد الأحوال العامة وتصرفات المسؤولين[56]. بقي القضاء في العراق محافظًا على قوته ونزاهته وكفاءة رجاله طوال العهد الملكي بالرغم من افتقار المحاكم العراقية بمختلف مستوياتها إلى الحماية والحرية في عملها[57].

سادس عشر: هل تطورت السياسة العراقية؟

تطور السياسة العراقية من الانتداب البريطاني إلى الاستقلال المبكر، وكيف سمح ذلك للجيش بأن يصبح قوة في الحكومة، وكان الجيش بعيدًا من السياسة، أما الملك فيصل فكان مركزيًا في إدارة العراق. كان هناك عدد كبير من الشخصيات السياسية الذين أرادوا

---

(54) سيار الجميل، «إنتلجينسيا العراق: التكوين .. الاستنارة .. السلطة،» **المستقبل العربي**، السنة 13، العدد 13 (أيلول/سبتمبر 1990).

(55) انظر الفصلين الأول والثاني من كتاب حنا بطاطو: «التحليل الطبقي والمجتمع العراقي،» والفصل الثاني: «عودة إلى الطبقات الاجتماعية القديمة،» في: مجموعة من المؤلفين، **المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات** (بغداد؛ بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، 2006)، ص 9 ـ 52.

(56) الحسو، **الصراع على السلطة في العراق الملكي: دراسة تحليلية في الإدارة والسياسة**، ص 60 ـ 68.

(57) المصدر نفسه، ص 58.

السلطة بأي ثمن، وكان فيصل قادرًا على إدارتها من خلال التناوب باستمرار عبر الحكومات حتى يحصل كل طموح على قطعة من الكعكة. استمرت معظم الإدارات العراقية تعمل على عهده بنزاهة وجدية في المتوسط. وعند نهاية المطاف، بدأت الانقسامات بتأثير الأحزاب السياسية وتشكيلاتها والتأثر بالأيديولوجيات في العالم، ودعا قِصر النظر إلى إلقاء اللوم على فيصل ونظامه، وكأن العراق كان خاليًا من المشكلات العصية، وكانت تلك الأحزاب تفتقر إلى أي منصة حقيقية، وكان الغرض منها التسلق نحو السلطة[58]، وببساطة تعزيز الدعم لمن كان رئيس الوزراء. بدورها، تصرفت كل حكومة على عهد فيصل بحدود ما يرسمه لها لحفظ توازن النظام السياسي مع عدم وجود، أو عدم السماح بوجود، معارضة منظمة، إذ كان فيصل يمثل بالنسبة إلى الجماعات والقوى المتصارعة بيضة القبان سواء بالنسبة إلى منافسات الطبقة السياسية في ما بينها، أو بين القوى السياسية باتجاهاتها المتنوعة ليبرالية كانت أم قومية أم راديكالية خلال تلك الفترة الزمنية في التاريخ العراقي[59].
تختلف آراء الملك فيصل اختلافًا كبيرًا عن آراء الساسة العراقيين الذين جعلوا أنفسهم في حالة استقطاب وتنافر، ولكن بقي فيصل يمسك العصا من الوسط، ويعتقد حتى خصوم فيصل أنه مارس دورًا مهمًا في تحقيق الاستقرار في الدولة الجديدة، واستطاع أن يكون حكيمًا في تعامله مع البريطانيين، وفي الوقت الذي يعتقد البعض أنه كان ضعيفًا وجزءًا من أية مشكلة، أجده يعالج أية مشكلة بدقة متناهية وهو بعيد منها. وليس من الصعب الجمع بين الآراء السياسية المتباينة فكلها تتلاعب بها العواطف، إلا فيصل، فقد كان سياسيًا جيدًا ويمتلك بعد نظر، ولكن من أخطائه أنه بقي معلقًا أيضًا لا يدري ما العمل وسط التنافس والتناحر المستمر بين العراقيين القياديين، ولم يحسم الأمر لمصلحة من يراه أفضل على قاعدة «يا غريب كن أديب»، أي أنه لم يدرك حاجة بعض العراقيين إلى الإقصاء أو العقوبة.

سابع عشر: النضال من أجل دخول العراق عصبة الأمم

في 23 آذار/مارس 1928، كتب علي الجميل في جريدته **صدى الجمهور** مقالة مهمة بعنوان «العراق في عصبة الأمم» طالب فيها بانضمام العراق إلى هذه المنظمة الدولية، وأن تكون له شخصيته الدولية فهو أصبح ناضجًا وباستطاعته الوقوف على

---

(58) للاستزادة عن دور الأحزاب، انظر: فاروق العمر، **الأحزاب السياسية في العراق 1921 ـ 1932** (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1978).

(59) Mohammad Tarbush, *The Role of the Military in Politics: A Case Study of Iraq to 1941* (London; New York: Routledge, 1982), pp. 62 - 69 and 80 - 84.

رجليه بعيدًا من الانتداب البريطاني، وهو قادر على حماية نفسه وأبناء شعبه كافة، وقال: «نظر مجلس عصبة الأمم في جلسة 5 الجاري بعد خمسة عشر شهرًا في نتائج أعمال الإدارة البريطانية في العراق في سنة 1926 وذلك بناء على تقرير لجنة الانتداب، وقد اشتمل هذا «التقرير» على السؤال عن التدابير المتخذة لحماية الأقليات وهن العقبات التي أخرت تنفيذ هذه «التدابير» وأشار بنتيجة الارتياح إلى تحسن الحالة منذ سنة 1926 على حدود العراق المتصلة بإيران وتركيا وسورية، ولكن من بواعث الأسف أن لا تكون العلاقات مع إيران أكثر تحسنًا. وقد طلبت اللجنة إيضاحًا عن القانون الذي يقضي بأن منع أخذ الرسوم على المواد الأولية عند إعادة إصدار البضائع يمكن تقريره بإرادة ملكية، وقد سجلت اللجنة منذ مدة امتياز البترول للشركة الإنكليزية ـ الإيرانية خمسًا وثلاثين سنة، وهي تنتظر الوثائق الإيضاحية التي وعدت بها، وقد طلبت أيضًا أن تطلع على نص الامتياز الممنوح لشركة البترول التركية، وأعربت عن قلقها من النقص المستمر في نفقات مصلحة الصحة العمومية، ورغبت في أن تقف التدابير المتخذة لمقاومة الملاريا ووفيات الأطفال وخصوصًا في البصرة، ثم أعربت عن رغبتها في الحصول على تقرير عام عن حياة البلاد الاقتصادية بعد الأزمة التي دامت سنتين أو ثلاث سنوات، وطلبت إيضاحات عن قانون العمل وشروط استخدام العمال الهنود ونقلهم والتعاقد معهم، وأبدت ارتياحها إلى زيادة نفقات التعليم، وطلبت أن تعرف كيفية توظيف الأساتذة الأخصائيين كما طلبت إيضاحات كثيرة عن التصرف بدخل الأوقاف.

وقد علق الموسيو بالاير مقرر المجلس على آراء اللجنة قائلًا: إنها لم تتناول المفاوضات الأخيرة التي دارت بين حكومة إنكلترا وحكومة العراق بشأن المعاهدة الجديدة وطلب كما طلبت اللجنة الحصول على إحصاءات إضافية عن الأحوال المالية في البلاد المشمولة بالانتداب وعلى بيان عن الاتفاقات الدولية النافذة في تلك البلاد، وقد وافق المجلس على هذا التقرير بجملته بلا مناقشة»[60].

ثامن عشر: نهاية الانتداب البريطاني وتحقيق الاستقلال

تحقق استقلال العراق بعد جهود مضنية من المفاوضات، وتخلّص من الانتداب البريطاني، وكانت تلك هي أمنية العراقيين وفي مقدمتهم فيصل. كان المندوبون السامون البريطانيون لدى مملكة العراق: اللواء السِّير بيرسي كوكس (1920 ـ 1923) والسير هنري

---

(60) جريدة صدى الجمهور، العدد 102 (23 آذار/مارس 1928).

دوبس (1923 ـ 1928)، والعميد السير جيلبرت كلايتون (1928 ـ 1929) والمقدم السير فرانسيس همفريز (1929 ـ 1932). وكان فيصل الأول وطاقمه من الساسة العراقيين بمعية رستم حيدر بمثابة الند لهؤلاء في التفاوض من أجل بناء الجيش والحياة السياسية والاقتصادية بغية الوصول إلى الاستقلال الوطني الذي كان هدفًا عراقيًا للجميع. ويكاد يجمع أغلب المؤرخين على أن أبرز ما خرج به العراق خلال الانتداب البريطاني بإشراف البريطانيين وقرار فيصل الأول ورجالاته:

1 ـ بناء المؤسسة العسكرية (الجيش العراقي على نسق وقواعد النظام البريطاني).

2 ـ بناء الدولة العراقية الفتية (المؤسسات الإدارية والتربوية والاقتصادية وحتى القضائية باستثناء المحاكم الشرعية).

3 ـ بناء الهيئة السياسية والمنظومة الحزبية وإصدار التشريعات والقوانين من خلال الدستور العراقي عام 1925.

4 ـ الحفاظ على وحدة العراق الجغرافية (مشكلة الموصل نموذجًا بحسم دولي وتفاوض بريطاني) وتفاهم العراق مع إيران وتركيا وفي 1925/10/1 عقدت اتفاقية بحرية بين العراق ونجد لإيقاف غزوات النجديين من جزيرة العرب على القبائل العراقية وتوطيد العلاقة بين البلدين.

5 ـ إنعاش سوق العراق وإصدار النقد العراقي وتأسيس البنوك والاعتناء بالبلديات والخدمات وبناء الجسور والمحطات والمتحف والمدارس والبريد والمؤسسة الصحية والأندية وغيرها.

6 ـ أُجري أول إحصاء سكاني في العراق على عهد الانتداب، ففي 1927/10/1 بدأت الحكومة العراقية بإجراء أول تعداد عام للسكان، وظهر أن نفوس العراق كان يبلغ (2,986,854 نسمة) منهم مليون وخمسمئة وإثنا عشر ألفًا و77 نسمة من الذكور والباقي من الإناث باستثناء القبائل الرحل.

تاسع عشر: معاهدة الاستقلال

تم توقيع المعاهدة الأنكلو ـ عراقية الجديدة في حزيران/يونيو 1930. وقد نصت على «تحالف وثيق»، و«مشاورات كاملة وصريحة بين البلدين في جميع مسائل السياسة الخارجية»، والمساعدة المتبادلة في حالة الحرب. ومنح العراق البريطانيين استخدام

القواعد الجوية بالقرب من البصرة والحبانية والحق في نقل القوات في جميع أنحاء البلاد. كان من المقرر أن تدخل المعاهدة، التي تبلغ مدتها خمسة وعشرين عامًا، حيز التنفيذ بمجرد انضمام العراق إلى عصبة الأمم. وقد أدى نوري السعيد دورًا أساسيًا في إبرام معاهدة 1930 والحصول على الاستقلال كأول بلد عربي يحظى به قبل مصر التي عقدت معاهدتها الشهيرة عام 1936. ولكن الحركة الوطنية قابلتها بالرفض وعدت الاستقلال مظهرًا شكليًا.

بتوقيع معاهدة 1930 وتسوية قضية الموصل، اتخذت السياسة العراقية دينامية جديدة. تنافست الطبقة الناشئة من شيوخ القبائل ومن ملّاك الأراضي على مناصب في السلطة مع العائلات الثرية والمرموقة في المدن وضباط الجيش والبيروقراطيين ورثة العثمانيين، نظرًا إلى أن المؤسسات السياسية العراقية المنشأة حديثًا كانت من صنع قوة أجنبية، ولأن مفهوم الحكومة الديمقراطية لم يسبق له مثيل في التاريخ العراقي، فقد افتقر أهل السياسة في بغداد إلى الشرعية ولم يطوروا أبدًا قواعد انتخابية راسخة الجذور. وهكذا، على الرغم من الدستور والجمعية المنتخبة، كانت السياسة العراقية عبارة عن تحالف متحول لشخصيات وجماعات مهمة تبلورت من طبقة سياسية عليا لا تدرك معاني الديمقراطية بالمفهوم الغربي. وأدى غياب المؤسسات السياسية ذات القاعدة العريضة إلى إعاقة قدرة الحركة الوطنية المبكرة على تحقيق قفزات نهضوية أو غرس جذور عميقة في البنية الاجتماعية المتنوعة في العراق. وقد استمرت الإدارة المنتدبة في العمل حتى عام 1932.

عشرون: الرؤية التاريخية للتجربة الانتدابية

في تقييمنا التاريخي للانتداب البريطاني والنظام الملكي العراقي تعد مرحلته أقل مشكلات من المراحل السياسية التي أعقبته في العراق، ليس لأن الانتداب البريطاني ومؤسساته كان يحفل بالمستشارين الأذكياء والرجال البناة ومن وكلاء تحديث البنى، بل بوجود فيصل الأول وثقله في إدارة الأزمات ومحاولاته إيجاد الحلول لها، وفي المقابل بدا الإنكليز أنهم منتدبين أكثر من كونهم مستعمرين لأن القرارات داخل المؤسسات كانت عراقية صرفة! كيف؟

كان الانتداب البريطاني حالة متقدمة جدًا على الاحتلال الذي عرفه العراق في السنوات 1914 ـ 1920، وكانت ثورة العشرين قد أجبرت الإنكليز على تشكيل دولة ونظام

سياسي وتشريعات وأجهزة وأحزاب وصحافة وتجمعات ورأي عام وكلها تحت ظل عرش فيصل. تفاعلت عوامل تحديث المجتمع تدريجيًا، وبدأ التأقلم مع الحياة الجديدة. وبدأ ابن البلد يتعامل مع العالم كونه عراقيًا تقف من ورائه مملكة ودولة ومجتمع. ودفع البريطانيون في هذا الاتجاه لأنهم يدركون أنه مجتمع يعد سليل تاريخ عريق وحضارات كلاسيكية زاهرة، وبدت التجربة التاريخية متباينة في العراق مقارنة بما كانت عليه الحال في مناطق قريبة منه مثل: مصر وإيران ومحميات الخليج العربي وغيرها.

عندما نفكر في التجربة الانتدابية الطويلة لبريطانيا في حكم المستعمرات الشرقية، ونضع إلى جانبها العراق، فإننا نجزم بأن البريطانيين مهما قدموا للعراق، فقد أخذوا منه أكثر مما أعطوه له أو مما منحوه إليه، وبالرغم من كل عنايتهم بالدولة التي أسسوها في العراق، فقد أبقوا المجتمع بائسًا وجائعًا ومهانًا باعتمادهم على المستحوذين الكبار من أصحاب الملكيات الكبرى من الأراضي، والأعيان وبقايا الحكام المماليك وشيوخ العشائر ورجال الدين بمختلف صنوفهم الطائفية. وبالرغم من أن الأقليات السكانية كانت في أغلبها مناصرة للانتداب، إلا أنها بقيت مضطهدة هي الأخرى أسوة ببقية سكان بلاد ما بين النهرين الحقيقيين.

في ظل الانتداب البريطاني، تم إنشاء طبقة حاكمة جديدة من ورثة أعيان وضباط شريفين وضباط موالين وموظفين إداريين قدماء مجربين ورجال قانون وأفندية معلمين وقضاة سابقين وشيوخ عشائر متنفذين وبعض المثقفين وبعض المختصين العرب الذين جاءوا برفقة فيصل. وثمة جنس آخر من العراقيين الوصوليين والمنتفعين صاروا على أيدي الإنكليز أقوياء وأثرياء وأصحاب رؤوس أموال وبعضهم من المندسّين والجواسيس، حسبما أفاد الرائد بول للمندوب السامي البريطاني في بغداد عام 1920. «وأفاد ويلسون من جانبه أن الشيوخ كانوا في معظم الحالات تعتمد بشكل مباشر على الإدارة المدنية للمناصب التي شغلوها؛ وإدراكًا منهم أن مناصبهم تنطوي على التزامات مقابلة، فقد تعاونوا بنشاط مع الضباط السياسيين»[61].

استنتاجات

في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1932، أصبحت المملكة العراقية الهاشمية دولة ذات سيادة كاملة. واستمرت حتى عام 1958. وقد اختلف العراقيون على تسمية ملك عليهم سواء من الوسط أو الشمال والجنوب، فآثر الإنكليز ترشيح فيصل بن الحسين. إن العراقيين

(61) *The Times*, 16 March 1920. No. 3992 - F.O. 371/5033.

قد بايعوا فيصل برضاهم وقد ذهب وفد من أعيان العراق إلى مكة المكرمة ليطلب من أبيه موافقته على تنصيب فيصل على عرش العراق. لم يكن فيصل الأول اسمًا مجهولاً ولا نكرة في التاريخ، إذ جاء العراق وكان يملك كاريزما تاريخية لم يحصل عليها غيره من القادة العرب. ولم يكن فيصل الأول سارقًا للعراق ولا محطّمًا له، بل يعَدّ واحدًا من أبرز بُناته وسيذكره التاريخ بأعظم الذكر. لقد قفز العراق على مدى سنوات قلائل ليتخلص من جملة هائلة من المشاكل والتعقيدات والموروثات، ليطالب بالوقوف على رجليه بعيدًا من الانتداب ودخوله عضوًا في عصبة الأمم. تمتع فيصل الأول برؤية تاريخية بعيدة، فقد أوصى العراقيين في خطابه لهم في بهو العاصمة بغداد لمناسبة الاستقلال ودخول العراق عصبة الأمم، قائلاً: «وليعلم جميع أفراد الشعب بأن مستقبل الأجيال القادمة وكرامتها منوطان بما يقوم به في السنوات القادمة من الأعمال. وليعلموا أيضًا بأن الأمم التي دخلنا في مصافها، سوف ترقب أعمالنا، فإما ستحكم علينا بأننا غير صالحين لنكون أقرانًا لها، أو سيحقق حسن ظنها بأننا أحفاد أولئك الأمجاد الذين أقاموا مدنية استنار العالم بضوئها النيّر إلى هذا اليوم»[62].

(62) راجع خطاب فيصل الأول الذي ألقاه في بهو العاصمة بغداد يوم 6 تشرين الأول/أكتوبر 1932 لمناسبة استقلال العراق ودخوله عضواً في عصبة الأمم، في: مديرية الدعاية العامة، فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية، ص 305 ـ 308.

الفصل التاسع

المحنّك
فيصل ومواجهة المشاكل الصعبة

أولًا: الوحدة الوطنية

ورث فيصل الأول ثقلاً تاريخيًا جسيمًا في العراق، إذ كان الرجل يعَدّ ضرورة تاريخية للعراق والعراقيين، وقد نجح سياسيًا وانتصر تاريخيًا في تجربته العراقية، وانبثقت سياساته أولاً في معالجة جملة من الهويات السائدة في ولايات العراق الثلاث طوال القرن التاسع عشر، التي جمعت كل بقاياها التاريخية مع احتلال البريطانيين له. ونرى دور فيصل الأول على نحوٍ ملحوظ، في رؤيته المتوازنة إلى تلك الترسبات العثمانية في الولايات العثمانية الثلاث: الموصل وبغداد والبصرة، وهي التي ستؤلف العراق الحالي. والتي غدت «مملكة» عاصمتها بغداد التاريخية التي ستقود وتدير العراق مركزيًا من بغداد.

وبسرعة فائقة، تتبلور في هذا الواقع جملة مشكلات حدودية وإقليمية وداخلية، سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية وسكانية لا حصر لها. مع ندرة الكوادر الوظيفية؟ فالمملكة التي ولدت وهي تحمل مفهوم «العراق» لا يمكنها أن تبقى مجرد هيكل عظمي قبلي أو عشائري مشترك يغص بمشاكله وتخلّفه، ولا يمكن أن تبقى هذه «البلاد» خاوية من النزعة الوطنية والوعي السياسي وندرة المحترفين في شؤون الإدارة والتعليم والاقتصاد. كانت مهمة فيصل من أصعب المهمات التي واجهها أي زعيم عراقي من بعده، وكان يدرك أن العراق لا يمكن أن يبقى في الخطوط الخلفية، ولا يمكنه أن يبقى بلا مقومات كأي كيان مصطنع، ولا يمكنه أن يبقى مع مؤسسات هزيلة يتناوب عليها المستشارون البريطانيون الذين توافقهم فكرة إبقاء العراق مصطنعًا.

كان فيصل الأول يدرك تمامًا كما علمته تجاربه مع الأوروبيين، بأن البلاد التي يحكمها لا يمكنها التقدم بأحوالها البائسة، وعلاقاتها الممزقة من دون الاعتماد بشكل مفرط على نموذج متمركز من نماذج أوروبا لبناء الدولة الوطنية (أو القومية)، إذ تتوافر في العراق مركزية جيوتاريخية لا تتوافر عند غيره من دول الإقليم في الشرق الأوسط. وعليه، فلا يمكنه أن يبقى تابعًا لغيره في هذا العالم، سواء أن مثل تلك المقاربات الأوروبية المركزية لم تأتِ من فراغ، إذ كانت مفرطة التقييد ولا مجال لها في مراعاة الأنماط المتباينة والبديلة لظهور الدول الحديثة. وهذا لا يتوافر في العراق إلا بمعالجة مشكلاته الداخلية والإقليمية والدولية معًا، والعراق في رؤية فيصل الأول قادر على أن يكون دولة لها مؤسسات محترمة يديرها عراقيون لهم انسجامهم مع أنفسهم أولاً ومع بلدهم ثانيًا بعيدًا من الماضي وترسباته الصعبة. وعليه، فمن يراقب سياسات فيصل الأول سيجدها متنوعة في خدمة العراق والعراقيين معًا، إذ تم خلال عهده ومن جانب نظامه السياسي، استخدام قدرة النماذج العراقية والنماذج الأخرى على تلبية المعايير الأوروبية للتجانس الوطني والتواصل الإقليمي، وأن يكون العراق عابرًا العنف السياسي داخل حدوده، على وجه التحديد ومطالبة البريطانيين دومًا للحصول على ما يريد العراق وإخراجه من الأذهان كونه دولة مصطنعة إلى دولة مركزية في الشرق الأوسط. وكان من المؤمل أن تتطور الحياة النيابية في العراق بحكم تأسيسها قبل مئة سنة من اليوم، وقد كانت مؤسسة تشريعية بدا فعلها السياسي أقل شأنًا من الشارع أو حتى من الصحافة القوية، إلا أنها بالرغم من كل الشكليات إبان العهد الملكي أفضل من عدمها إبان العهود الجمهورية[1] .

ثانيًا: فيصل إزاء مشكلات إيران مع العراق

1 ـ استمرار التوتر والمشكلات التاريخية الموروثة

لازم الاضطراب والتوتر علاقات الدولتين الجديدتين الجارتين، العراق وإيران، منذ مطلع العشرينيات. كانت إيران قد استهلت تلك «المرحلة» عقب انتهاء الحرب بما قدمته إلى مؤتمر الصلح في باريس 1919 الذي طالبته أن يضم إليها مناطق عراقية واسعة جدًا منها إقليم كردستان العراق في الشمال، ووصلت بمطاليبها حتى مدينة الموصل، ومناطق أبعد

(1) عن سوء التطبيقات والممارسات في الحياة النيابية العراقية، انظر: فائز عزيز أسعد، **انحراف النظام البرلماني في العراق**، تقديم منذر الشاوي (بغداد: منشورات وزارة الإعلام، 1975)، ص 128.

منها يصل بعضها حتى نهر الفرات[2]. ثم تجاهلت إيران تأسيس النظام الملكي العراقي عام 1921، ولم تعر أهمية لتنصيب فيصل على عرش العراق، وربما كان ذلك بسبب انشغالها بترتيب شؤونها الداخلية هي الأخرى، فلقد تأخر اعترافها به حتى عام 1929 [3] مطالبة بشمول رعاياها بالامتيازات الأجنبية في العراق، تلك «الامتيازات» التي كانت تتمتع بها رعايا بعض الدول الأوروبية والأمريكية والآسيوية (كاليابان). وقد استمر الخلاف حتى إلغاء الامتيازات الأجنبية في العراق عام 1929.

منح العراق مهلة زمنية تقدر بأربع سنوات (1924 ـ 1928) في إثر صدور قانون الجنسية العراقية للإيرانيين المقيمين في العراق، لكي يحددوا موقفهم من اختيار الجنسية أو عدمه. ولقد رفضت حكومة العراق طلب إيران تمديد الفترة مذ عرفت أن ذلك سيفسح المجال للقناصل الإيرانيين في العراق بإقناع الإيرانيين باختيار الجنسية الإيرانية وخصوصًا في مناطق البصرة[4].

بقيت إيران، من جانبها، تمارس سياسة التفرقة الإقليمية والمذهبية، وتكررت من جانبها حوادث الحدود بفعل بعض اللاجئين، ثم حدثت اعتداءات إيرانية على الحدود العراقية، ولم يكن هناك ثمة تعاون بين الحكومتين العراقية والإيرانية بشأن الأكراد. وامتد النشاط الإيراني نحو العشائر العراقية في التخوم الحدودية بين البلدين لغرض التجنس بالجنسية الإيرانية. وعدّ ذلك تدخلاً سافرًا في الشؤون الداخلية العراقية، وقدمت الحكومة العراقية مذكرة إلى المندوب السامي البريطاني أوضحت فيها أنها ستكون مضطرة إلى رفع الحصانة الدبلوماسية عن القناصل الإيرانيين في العراق[5] وأدت حوادث الحدود التي تذكيها العناصر المسلحة من الأكراد، إلى تدخلات إيرانية مسلحة عبر الحدود بشكل مكرر خلافًا لمبدأ حسن الجوار[6].

---

(2) انظر: كمال مظهر أحمد، **كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى**، ترجمة محمد الملا عبد الكريم (بغداد: مطبعة المجمع العلمي الكردي، 1977)، ص 332.

(3) محمد كامل عبد الرحمن، **سياسة إيران الداخلية في عهد رضا شاه، 1921 ـ 1941**، مراجعة كمال مظهر أحمد (البصرة: جامعة البصرة، مركز الدراسات الإيرانية، 1988)، ص 140 ـ 141.

(4) المصدر نفسه، ص 141 ـ 142 بالاعتماد على ملفات البلاط الملكي العراقي.

(5) خليل علي مراد، «إيران،» في: إبراهيم خليل أحمد وخليل علي مراد، **تركيا وإيران: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر** (الموصل: [د. ن.]، 1992)، ص 159.

(6) انظر: سيار الجميل، «الخلافات الحدودية والإقليمية: الخلافات العراقية ـ الإيرانية الحدودية والإقليمية،» ألقي في ندوة العلاقات العربية ـ الإيرانية التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع جامعة قطر، تشرين الأول/أكتوبر 1995. ونشرت في كتاب: **العلاقات العربية ـ الإيرانية: الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل**، تحرير عبد العزيز الدوري (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996). ونشر أيضًا في مجلة **المستقبل العربي**، السنة 18، العدد 206 (نيسان/أبريل 1996)، ص 63 ـ 92.

2 ـ موقف بريطانيا من الخلافات السياسية العراقية ـ الإيرانية

كان موقف بريطانيا من الخلافات العراقية ـ الإيرانية الحدودية والإقليمية يعكس بصورة جلية مصالحها الاستراتيجية في أراضي كل من الطرفين؛ فمرة تستجيب لادعاءات إيران وتحاول إقناع العراقيين، ومرة تحتج على تجاوزات الإيرانيين، وتطالب العراق باتخاذ مواقف صلبة إزاء التوسعات والتعنتات الإيرانية[7] سواء بشأن الحدود، أو حوادثها، أو في ما يتعلق بموضوع الأنهار المشتركة وقطع إيران مياه بعضها، وهو ما يسبب خسارة وضرراً عظيمًا بسكان مناطق الحدود العراقية فيضطرون إلى هجرها فتبدو مناطق فارغة[8]. وقد سعت بريطانيا لإقناع إيران بأن تعترف بالحكم الملكي العراقي، ووصل «الاعتراف» في نيسان/أبريل 1929 بعد تسويف عمره ست سنوات، فجرى تبادل المذكرات والتمثيل الدبلوماسي وفقًا للقواعد المرعية[9]، تم ذلك كله بعد حسم مشكلة الموصل لصالح العراق الوطن الأم، إذ كانت إيران ترقب التطورات عن كثب وباهتمام بالغ، كما كانت تعلق كثيراً من الآمال على النتيجة التي ستقررها عصبة الأمم بشأن إقليم الموصل، فلقد كان في نيتها لو لم يأتِ القرار لمصلحة العراق، أن تطالب هي الأخرى بضم أراضي الحدود إليها وتطالب بتعديل الحدود في شط العرب. علمًا بأن هذا «الشط» هو نهر وطني وليس نهراً دوليًا كنهر الدانوب في أوروبا، فنهر شط العرب يجري في إقليم دولة واحدة تملكه بواسطة الحيازة الأزلية.

3 ـ تفاقم الخلافات الإقليمية والحدودية والمائية

في إثر اعتراف إيران بدولة العراق وحكومته عام 1929، أرسل الملك فيصل الأول مستشاره رستم حيدر إلى إيران لكي يقابل الشاه رضا بهلوي ويتلقى الاعتراف، ويوطد العلاقات فتتوقف حوادث الحدود نسبيًا. فجرى تبادل المذكرات والتحقيق الدبلوماسي وفق الأصول، حيث عقد اتفاق مؤقت بين الدولتين مدته سنة واحدة، وأخذت الحكومتان تجدده كل ستة أشهر. وبعد اعترافها بالعراق، لم تعترف إيران بشرعية الاتفاقات السابقة،

---

(7) يتوضح ذلك من خلال دراسة معمقة للمعاهدات العراقية ـ البريطانية في 1922، 1926، 1930؛ مقارنة بما نصت عليه الفقرة الثانية في المادة الثالثة من معاهدة لوزان سنة 1923. فضلًا عن تبيان مواقف الإنكليز الحقيقية في وثائق: .F. O. 371/13778 E. 613/58/84. Persia (1929)

(8) خالد العزي، **مشكلة الأنهار الحدودية المشتركة بين العراق وإيران: دراسة في الجغرافية السياسية والقانون الدولي** (بغداد: 1981)، ص 33 ـ 36.

(9) F.O. 371/13779 (Persia) E. 2708/58/34 (1929), and F.O. 371/18970 (Persia) E. 171/32/34 (1934).

وأنكرت الوثائق التي سبق إبرامها وأعلنت عدم التزامها بها، ورأت في معاهدة أرضروم الثانية 1847 وبروتوكول الأستانة 1913، وبالتالي التحديد الذي قام به قوميسيون التحديد عام 1914 ليست ذات صيغة تنفيذية لتقرير الحدود. وكانت أهم «المشاكل» التي أثارها الشاه هي: مشكلة الحدود البرية ومشكلة الأنهار الحدودية المشتركة، وعددها 25 نهراً، ثم مشكلة شط العرب[10]. وقد تطورت «الخلافات» حتى غدت خطراً ولا سيما بعد توقيع معاهدة 30 حزيران/يونيو 1930 بين العراق وبريطانيا المقرر فيها استقلال العراق ودخوله عضوًا في عصبة الأمم.

وفي مطلع عام 1931، تأسست العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، وعين توفيق السويدي أول وزير عراقي مفوض لدى إيران، فكان للرجل دوره البارع في تعزيز العلاقات الثنائية وبناء الثقة المتبادلة مع الساسة الإيرانيين أيام بقائه في طهران للفترة 1931 ـ 1934. وكان من أبرز ما سجله السويدي في مذكراته أيام بقائه في إيران من انطباعات ومعلومات ومواقف مهمة ما يلي:

أ ـ التسويف الإيراني والمماطلة في معالجة المذكرات السياسية العراقية.

ب ـ الخروقات الإيرانية الحدودية ضد العراق.

ج ـ قطع المياه الجارية من جبال إيران عن زرباطية ومندلي ومناطق عراقية أخرى.

د ـ القضية الكردية وتعقيب الأمور على الحدود واسترداد المجرمين.

هـ ـ انشغال العراق كثيراً بحالة أبنائه العرب في إقليم عربستان (خوزستان).

و ـ شط العرب وانشغال العراق بحقه في تملكه إياه بأجمعه بشاطئيه العراقي والإيراني[11].

تعد مشكلة «شط العرب» من أخطر المشاكل الثنائية التي أثارتها إيران دومًا متخذة نظرية تيمور طاش وزير البلاد الإيراني (أو وزير الدربار الشاهي كما يسمونه) أساسًا لدعاويها. وتتلخص «النظرية» كما سجلها توفيق السويدي بقوله: «كانت نظريته في مسألة شط العرب أن تحديد الحدود في جميع الأمم له قواعد وأسس ثابتة تتمشى عليها فيُتخذ

---

(10) الجميل، «الخلافات الحدودية والإقليمية: الخلافات العراقية ـ الإيرانية الحدودية والإقليمية».

(11) توفيق السويدي، مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية (بيروت: دار الكاتب العربي، 1969)، ص 193 ـ 240.

حدًا فاصلاً نهرًا أو واديًا أو جبلاً أو غير ذلك من التعاريج الأرضية، فتتعين النقاط البارزة في تلك التعاريج لجعلها فواصل ما بين البلدين، لكن لم يجرِ في العرف الدولي أن جعل نهر مهم كشط العرب حدًا ما بين البلدين، وأُعطي بأجمعه إلى مملكة واحدة»[12]. وإن حجة الإيرانيين أنهم أكرهوا على الموافقة لما أقرته لجنة تحديد الحدود بفعل التدخلات الأجنبية ومطامع بريطانيا في الأقاليم المهمة من الدولة العثمانية. وكان الملك فيصل الأول قد بدأ صفحة جديدة مع إيران الشاه رضا بهلوي بزيارة قام بها على رأس وفد إلى إيران في ربيع 1932، وخلال تلك الزيارة، تبادل الطرفان الاعتراف الدبلوماسي وحل القضايا المعلقة بين البلدين[13].

ثالثًا: مشكلة الموصل

عاش العراقيون أزمة أخرى ومعهم فيصل، إذ واجهوا مسألة خطيرة تفاقمت بعد انتقالها من مسألة إقليمية إلى قضية دولية، وهكذا أرادها الإنكليز أن تكون من أجل أن تبقى الموصل عراقية بعدما طالبت بها الجمهورية التركية، فما الذي يمكننا رؤيته هنا ورصد فيصل في التحدي الذي واجهه وهو بين كل من الإنكليز والأتراك؟

1 ـ استراتيجية الموصل

عندما كانت ولاية الموصل ولاية عثمانية كان لها إقليم شاسع ومتنوع التضاريس ومتعدد السكان ومتباين الأديان وثري الموارد وأجناسه كثيرة بين أغلبية عربية وكردية مع التركمان والسريان والكلدان والآثوريين والأرمن والشبك واليزيدية والجرجرية واليهود، وفيه سكان مدن من الحضر وسكان ريف من المزارعين، وسكان بدو في البوادي، وكل نوع يتفرع إلى فروع. فالعرب أنواع والكرد أنواع والتركمان أنواع... إلخ[14]. وقد تم دمجهم جميعًا بشكل مباشر في المجتمع العراقي كونهم من أتباع الإمبراطورية العثمانية[15]، حيث بلغ عدد هؤلاء السكان في الولاية بين ثمانمئة ألف إلى مليون نسمة عند أوائل القرن العشرين[16].

(12) المصدر نفسه، ص 221 ـ 222.

(13) Harry Chapman Sinderson, *Ten Thousand and One Nights: Memories of Iraq's Sherifian Dynasty*, foreword by Dame Freya Stark (London: Hodder and Stroughton, 1973), p. 165.

(14) Cecil J. Edmonds, *Kurds, Turks, and Arabs* (London; New York: Oxford University Press, 1957), pp. 34 - 69.

(15) Charles Tripp, *A History of Iraq* (New York: Cambridge University Press, 2000), pp. 41 - 49.

(16) Quincy Wright, «The Mosul Dispute,» *The American Journal of International Law*, vol. 20, no. 3 (July 1926).

وكان هذا المجتمع «المتنوع» متجانسًا في علاقاته ومصالحه من خلال مركزية المدينة، وقد تأثرت هذه الشرائح بالأحداث والمتغيرات الجديدة، ويبدو أن اندماج الموصل مع العراق كان حلمًا للعرب، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى الكرد أو الآثوريين أو التركمان فعواطفهم مع غير اتجاه العراق، ولكن ظروفهم لم تسمح لهم بالتعبير عن إرادتهم في الوقوف ضد الإنكليز، ولكن مع الحلول التي أقرتها عصبة الأمم، تبلورت مشكلة الموصل، وأن أعيان الموصل وزعماءها قد أيدوا في أغلبيتهم فيصل الأول على نحو كبير، ليس انتصارًا له، بقدر ما هو اعتراف بالتسلسل الهرمي السياسي العراقي وبالشكل الجديد وارتباط الشبكات التجارية ببغداد والبصرة، مع تراكم ميراث تاريخي مشترك وتماسك النظام الاجتماعي في بلاد الرافدين منذ القدم وسبب ارتباط الأرض من خلال النهرين العظيمين، وهذا ما عبر عنه المجتمع سياسيًا من خلال الأحزاب والصحافة.

خلال فترة الحكم العثماني، كانت الموصل عاصمة اقتصادية لها منتجاتها وتجارية لها أسواقها الكبرى من الدرجة الأولى في إنتاج أنواع من السلع التي تعتمد عليها عدة بلدان أوروبية، وخصوصًا بريطانيا، في الجلود والموسلين والأصواف. واعتُبرت الموصل عاصمة تجارية للإمبراطورية العثمانية بسبب موقعها على طول المسالك والطرق التجارية إلى الهند والبحر المتوسط عبر الخليج. كما اعتبرت عاصمة فرعية سياسية[17]. وكان المجتمع قد تخلّص من سيئات القيادات العثمانية وويلات الحرب والمجاعة الرهيبة عام 1917، وكان المجتمع قد ابتلي بالمخاطر من جراء المشاكل والعلاقات السيئة بين المجتمع والدولة. وعليه، فإن حسم مشكلة الموصل لم يكن بريطانيا، بقدر ما كان محليًا، لأن الأغلبية رفضت أن تتخلى عن وطنيتها.

كان العراق العثماني يتكون من ثلاث ولايات كبرى، بغداد والموصل والبصرة، لكل ولاية سناجقها ونواحيها، وفي عهد الاحتلال البريطاني، تغيّر نظامه الإداري ليغدو مكونًا من ألوية واقضية ونواحٍ. وفي عهد المملكة العراقية، وبعد 4 سنوات من ولادتها، تبدأ مسألة الموصل التي ستغدو «مشكلة دولية»، وهو أول نزاع إقليمي ودولي على عهد فيصل الأول يجري بين تركيا وبريطانيا (التي كان العراق تحت انتدابها)، ويتعلق الأمر بشأن حيازة الموصل العثمانية التي كانت جزءًا مهمًا من الإمبراطورية العثمانية حتى 1918، وعند اليوم الأخير من نهاية الحرب العالمية الأولى، عندما احتلتها بريطانيا بعد ساعات من هدنة

(17) Gökhan Çetinsaya, *Ottoman Administration of Iraq 1890 - 1908* (New York; London: Routledge, 2006), p. 156.

مدروس التي وضعت الحرب أوزارها من خلالها. وبعد حرب الاستقلال التركية ومجيء أتاتورك إلى الحكم، اعتبرت الجمهورية التركية الجديدة ولاية الموصل واحدة من قضاياها الحاسمة المحددة في الميثاق الوطني التركي. وعلى الرغم من المقاومة المستمرة، تمكنت بريطانيا من تدويل القضية، وجعلها تقتصر على مشكلة حدودية بين تركيا والعراق[18]. عيّن مجلس عصبة الأمم لجنة تحقيقية أوصت بأن يحتفظ العراق بالموصل، ووافقت تركيا على مضض على القرار بتوقيع معاهدة الحدود لعام 1926 مع الحكومة. ووافق العراق على منح 10 بالمئة من ملكية مخزونات النفط في الموصل إلى تركيا لمدة 25 عامًا.

2 ـ فماذا حدث؟

كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، إذ وقّعت في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1918، كل من الإمبراطورية العثمانية المهزومة وبريطانيا هدنة مودروس. وجاء الاتفاق بين الطرفين ينص على وقف القتال ووقف أية عمليات عسكرية اعتبارًا من يوم 31 تشرين الأول/أكتوبر 1918[19]. لم تكن القوات البريطانية قد دخلت الموصل التي كان أمرها يهمهم جدًا. وكان احتلالها بأي ثمن يستوجب على الجنرال مارشال إرسال قواته إليها، وقبول استسلام الحامية العثمانية»[20]. وجرت مداولات مع القائد التركي علي إحسان باشا في الموصل مع استمرار الاتصالات بين لندن وإسطنبول حول مصير الموصل، ولما رأى القائد التركي تقدّم القوات البريطانية والمضي قدمًا نحو المدينة، غادرها على رأس قواته المنسحبة، واحتل البريطانيون الموصل يوم 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1918 [21].

في آب/أغسطس 1920، تم توقيع معاهدة سيفر لإنهاء الحرب، لكن بقي العثمانيون معترضين على الوجود البريطاني في الموصل إذ تم أخذه بصورة غير قانونية إثر توقيع هدنة مدروس، وعندما تم توقيع معاهدة لوزان بين تركيا وبريطانيا عام 1923، أكدت تركيا أن بريطانيا سيطرت على ولاية الموصل بشكل غير قانوني. وبقي البريطانيون في لندن

(18) من أفضل البحوث عن هذا «الموضوع»، انظر: فاضل حسين، مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الإنكليزية ـ التركية وفي الرأي العام، ط 3 (بغداد: مطبعة إشبيلية، 1977).

(19) David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (London: Macmillan, 2009), pp. 372 - 373.

(20) V. H. Rothwell, «Mesopotamia in British War Aims,» *The Historical Journal*, vol. 13, no. 2 (1970), p. 291.

(21) Paul Knight, *The British Army in Mesopotamia, 1914 - 1918* (Jefferson, North Carolina: McFarland and Co., 2013), pp. 153 - 154.

وبغداد يصرّون إصرارًا قويًا على أن الموصل ضرورية لبقاء العراق ووجوده بسبب قوة مواردها وأمن حدوده الجبلية[22]. كما بقي الأتراك يتنابهم المخاوف من جبال الموصل التي يقطنها الأكراد، وهي صالحة لقيام جيوب مضادة لهم في المستقبل عند حدودهم الجنوبية.

ومن أجل قرار يحدّ من المطالبات المتضاربة بالموصل، دعيت عصبة الأمم إلى تأليف لجنة وإرسالها لتقصي الحقائق وتحديد المالك الشرعي. حققت اللجنة في المنطقة، وأبلغت أن تركيا ليس لديها مطالبة بالموصل، وأن الموصل في عهدة البريطانيين ولا أحد آخر لديه أي حق في الموصل وتوابعها. بدا واضحًا أن بريطانيا كانت ذات تأثير كبير في عصبة الأمم. وكان وزير الحرب البارون موريس هانكي (Maurice Hanke)، قد أصدر بالفعل قرارًا يقضي بضرورة سيطرة بريطانيا على المنطقة بأكملها لعدة أسباب، منها الثروة النفطية في الأرض ومركزية التحكم في استراتيجية الشرق الأوسط كلها[23]. وقد صدر ذلك قبل الانتهاء من عمل اللجنة، لأن بريطانيا أرادت أيضًا تهدئة الغضب التركي من قرار عصبة الأمم، فقامت بمنحهم جزءًا من أرباح النفط. وكان البريطانيون يسيطرون على موارد الموصل على الرغم من أنهم أعادوا السيطرة السياسية إلى فيصل.

أما مجال الخلاف الآخر بين بريطانيا وتركيا، فقد كان يمثّل خط الحدود الفعلي، إذ كان هناك ما عرف بـ «خط بروكسل» الذي قررت عصبة الأمم رسمه ليكون هو الحدود الحقيقية للعراق، وهو نفسه الخط البريطاني الذي كان قد خط التقسيم الذي استخدمته بريطانيا منذ احتلالها للعراق. هكذا، فعندما تم رفع الأمر إلى القادة البريطانيين، حثّ كل من السِّير بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني للعراق، وأرنولد ويلسون، المفوض المدني البريطاني في بغداد المستر لويد جورج، الذي كان رئيس الوزراء، على استخدام خط بروكسل لأنهم لم يفعلوا ذلك. أعتقد أن هناك اختلافًا كبيرًا بين حدود الخطين. وعليه، يبدو هنا أن ذلك يعني بأن خط الحدود الأول هو غير خط بروكسل، وأن مناطق واسعة قد اجتزئت من ولاية الموصل ومنحت لتركيا.

(22) H. I. Lloyd, «The Geography of the Mosul Boundary,» *The Geographical Journal*, vol. 68, no. 2 (August 1926).

(23) Stephen P. Roskill, *Hankey: Man of Secrets*, 2 vols. (New York: Collins, 1970), vol. 2: *1919–1931*, pp. 167 - 169.

3 ـ الموصل جزء من المملكة العراقية

لم تبق الموصل حكرًا على الأتراك والبريطانيين، وكأن لا وجود لكيان وحكومة في بغداد، وكأن لا وجود لمجتمع كبير في الموصل وتوابعها حتى يحدد مصيرها الغرباء، أي بريطانيا وتركيا، اذ وجدنا اعتراضات ساخنة في الموصل من أجل الإبقاء على عراقيتها، كما كان إصرار فيصل على إبقاء ولاية الموصل عراقية، وبدا فيصل دبلوماسيًا بارعًا استطاع أن يوازن بين ما يريده الإنكليز والحاجات الحقيقية للشعب في نظام سياسي ودبلوماسي معقد جدًا. ومع ذلك، كان همه الوحيد يتركز على أحد الأمور التي أرادها وأصر عليها إصرارًا قويًا أكثر من غيرها هو توحيد العراق وإعلاء مكانته القوية، وكان يعتقد أن ذلك لا يتحقق للعراق من دون الموصل.

قبل قرار عصبة الأمم، كان فيصل يلتمس باستمرار من الحكومة البريطانية على إبقاء الموصل ضمن العراق كونها تمثل رأسه، ولا يمكن للعراق أن يعيش موحّدًا من دونها. وأخيرًا، وبعد صدور قرار عصبة الأمم، وافق البريطانيون على أن تكون الموصل عراقية، ولكن مقابل تنازلات عن موارد مهمة. فأسس البريطانيون شركة البترول التركية التي أطلقوا عليها فيما بعد اسم شركة نفط العراق (IPC).

رابعًا: مشكلة الأكراد

1 ـ الكرد وفيصل

في الوقت الذي «كانت البلاد تستعد لوضع حد نهائي لشكل الحكومة المنوي إقامتها في العراق، كانت هناك حركة في الشمال يقوم بها البعض من زعماء الأكراد الذين كانوا يتمسكون بحق تقرير المصير للشعوب التي سلخت من جسم الإمبراطورية العثمانية، فكانت هذه الحركة سببًا أدى إلى تأخير أمر البت في قضية تتويج الأمير فيصل لعرش العراق بضعة أيام»[24]. يتابع ذلك المؤرخ الكردي كمال مظهر أحمد قوله بأن العاهل الهاشمي الأول في العراق قد ترك في ذاكرة الكرد صورة إيجابية، وينقل عن دراسة أصدرها «الحزب الديمقراطي الكردستاني» النص التالي مما قالته عن الملك فيصل الأول بما نصه: «لقد تحولت القضية الكردية في العراق، ومنذ الأيام الأولى لقيام الحكومة العراقية إلى

(24) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ط 7 (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988)، ج 1، ص54.

قضية سياسية ذات أهمية خاصة، فقد بدأ الملك فيصل الذي توِّج ملكًا علي العراق في آب/أغسطس 1921، والحكومة العراقية ينهجان سياسة أكثر مصالحة تجاه القومية الكردية، وحث الملك رعاياه العرب على احترام قومية إخوانهم الكرد، وتشجيعهم على أن يصبحوا عراقيين»[25].

لكن الواقع يترجم غير ذلك على الأرض، إذ بدأت استفزازات الأكراد وتمردهم مع 1925 ـ 1926، وتطورت من مشكلات عشائرية إلى «مسألة» قومية لاحقًا، ذلك أن مجموعة داخلية أخرى أرادت السيطرة على الموصل هي الأكراد. كان الأكراد هم السكان الطبيعيون للولاية وشكلوا أكثر من 60 بالمئة من سكان المنطقة، ولم يرغبوا في الانتماء إلى أي حكومة أخرى غير حكومتهم. لقد كافحوا طويلاً ضد الاندماج في العراق لأنهم أرادوا الاستقلال. لم يعتبر معظم الأكراد أنفسهم جزءًا من دولة العراق الجديدة. حشد قادة أكراد مختلفون الجماعات الكردية التي كان لديها بالفعل قوة نيران خاصة بها وساعدتها قوى إمبريالية مختلفة في مناسبات تناسب حاجاتها. علاوة على ذلك، شعر العديد من الأكراد بالخيانة من الوعود التي قطعها البريطانيون عليهم في أوقات سابقة ولم يتم الوفاء بها بعد ذلك. أراد فيصل دمجهم لأنه، كما هي الحال مع الأغلبية السنية، كان بحاجة إليهم لموازنة السكان الشيعة. استخدمت بريطانيا كلاً من القوة النارية الكردية ورغبة فيصل في عراق موحَّد من أجل الحفاظ على قبضتها الخانقة عليه، وبعد ذلك استخدمت إيران الأكراد وقوتهم النارية من أجل الحفاظ على الاضطرابات في العراق في عهد الخميني. لم يرغب الأكراد في الاندماج في العراق. لكنهم دعموا استمرار الانتداب البريطاني في المنطقة[26].

2 ـ حرب عصابات ضد حكومة بغداد

كان الشيخ محمود الحفيد البرزنجي قد وقف ضد الإنكليز لأكثر من مرة، ونفي وعاد ولم يعترف بالملك فيصل ملكًا على العراق، وبعد مؤتمر لوزان الذي لم يمنح الأكراد شيئًا، بدأت القلاقل من جانب الشيخ محمود، فسيّرت الحكومة المركزية في بغداد حشدًا عسكريًا للقضاء عليه، واحتل الجيش العراقي السليمانية بالفعل في 19 تموز/يوليو 1924، وناضل الشيخ محمود ليخلي المدينة بحرب عصابات، فعمدت الحكومة إلى القضاء عليه،

(25) كمال مظهر أحمد، «موقف الملك فيصل الأول من المسألة الكردية،» في: مجموعة من المؤلفين، بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)، إعداد وتحرير هند أبو الشعر (المفرق؛ عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999)، ص 555.

(26) Wright, «The Mosul Dispute,» pp. 453 - 464.

فهرب إلى الجبال، بيد أن البرزنجي أجبر الجيش على التخلي عن المدينة فأعادت حكومة العراق هيمنتها على السليمانية وقضت على نفوذ البرزنجي وأدارتها بقوة فاستتب لها الأمن إلى حين. وبقيت حركة البرزنجي المسلحة حتى تشرين الأول/أكتوبر 1926 حيث عقد صفقة وغادر هو وأسرته إلى إيران على أن يمتنع عن التدخل في الشؤون السياسية مقابل رد أملاكه إليه[27]. وعاد الشيخ محمود للعمل المسلح من جديد بعد 1930 وطالب حكومة العراق ترك جميع مناطق كردستان ما بين خانقين وزاخو، كي تتولى حكومة كردية تكون تابعة للانتداب البريطاني إدارة شؤون هذه المناطق ريثما تصدر عصبة الأمم قرارها الأخير في شأن الاستقلال العراقي[28].

رفضت الحكومة العراقية مطالبه ووجهت حملة عسكرية للقضاء على هذا التمرد حتى آذار/مارس 1931، حيث قضي على قواته، فانتهت ثورته وسلم نفسه للحكومة في 13 أيار/مايو 1931 وفرضت عليه الإقامة الجبرية في جنوب العراق، وظل مقيمًا بها حتى نشوب حركة 1941. وتوفي في السليمانية عام 1956[29].

3 ـ فيصل وحكمته مع الكرد العراقيين

كتب المؤرخ الكردي كمال مظهر دراسة عن فيصل إزاء المسألة الكردية في العراق، وقال بأنه واجه المسألة حال وصوله العراق، وقد تفاوتت ردود فعل الكرد العراقيين منه بين مناطق السليمانية ومناطق أربيل، وسواء عارضوه أم قبلوه، فهم كانوا ينتظرون حقوقهم من مؤتمرَي سيفر ولوزان، ولكن يعد فيصل هو الزعيم الوحيد الذي حكم العراق وقد مارس منتهى المرونة والدماثة والدبلوماسية مع الكرد أسوة بتعامله الرائع مع بقية الأطياف العراقية الأخرى قاطبة، وأشرك شخصيات معروفة من الكرد في الحكومة، إذ لم تخل أية وزارة من شخصية كردية، وبنى فيصل له صداقات متينة مع أعيان الكرد وأدبائهم. ولم يكن لدى فيصل أي مانع أن يمنح الكرد الحكم الذاتي في إطار مملكته، ولكن أمور العراق كانت بأيدي الإنكليز[30]. إن الكرد العراقيين قد أعلنوا عن احتجاجاتهم

(27) Robert Olson, *The Emergence of Kurdish Nationalist and the Sheikh Sa'id Rebellion, 1880 - 1925* (Austin, TX: University of Texas Press, 1989), pp. 60 - 61.

(28) Kevin McKierman, *The Kurds* (New York: St. Martin's Press, 2006), p. 32.

(29) David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (London: Henry Holt and Company, 2001), p. 10.

(30) انظر: كمال مظهر أحمد، «موقف الملك فيصل الأول من المسألة الكردية،» ص 541 ـ 555.

بعد عقد معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا، وبدأت ما سمِّيت «حركات برزان الأولى» وكان الآثوريون قد تحالفوا مع البارزانيين في حركتهم عام 1932. وبعد القضاء على تمرد البارزانيين استمر الآثوريون في تهديدهم الحكومة، وهو ما أدى إلى قمع حركتهم[31].

وكان ملا أحمد بارزاني (أخو الملا مصطفى البارزاني) قد رفض الإجراءات الإدارية للحكومة في تأسيس إدارة مدنية منظمة في منطقة بارزان وقام بأسر القائمقام وبعض أفراد الشرطة يوم 7 كانون الأول/ديسمبر 1931، فتحركت قوة عسكرية من حامية «بله» ودارت معركة شديدة، أعلن بعدها الملا أحمد اعتذاره وأطلق الأسرى يوم 12 كانون الأول/ديسمبر 1931[32]، ثم تجددت الحركات ردًا على مجموعة عمليات أخرى في شهر شباط/فبراير 1932 فوجهت نحوه قطعات أكبر بعد رفضه مطالب الحكومة فحدثت معارك بين زوزك ومامشك واحتلت شيروان وهرب الملا أحمد وأخوه الملا مصطفى واتباعهما عابرين الحدود نحو تركيا[33].

خامسًا: قضايا العراق في عصبة الأمم

نظر مجلس عصبة الأمم في جلسة 5 الجاري بعد خمسة عشر شهرًا في نتائج أعمال الإدارة البريطانية في العراق في سنة 1926، وذلك بناء على تقرير لجنة الانتداب، وقد اشتمل هذا التقرير على السؤال عن التدابير المتخذة لحماية الأقليات وهي العقبات التي أخرت تنفيذ هذه «التدابير» وأشار بنتيجة الارتياح إلى تحسن الحالة منذ سنة 1926 على حدود العراق المتصلة بإيران وتركيا وسورية، ولكن من بواعث الأسف أن لا تكون العلاقات مع إيران أكثر تحسنًا. وقد طلبت اللجنة إيضاحًا عن القانون الذي يقضي بأن منع أخذ الرسوم على المواد الأولية عند إعادة إصدار البضائع يمكن تقريره بإرادة ملكية، وقد سجلت اللجنة منذ مدة امتياز البترول للشركة الإنكليزية ـ الإيرانية خمسًا وثلاثين سنة، وهي تنتظر الوثائق الإيضاحية التي وعدت بها، وقد طلبت أيضًا أن تطلع على نص الامتياز الممنوح لشركة البترول التركية، وأعربت عن قلقها من النقص المستمر في نفقات مصلحة الصحة العمومية، ورغبت في أن تقف التدابير المتخذة لمقاومة الملاريا ووفيات الأطفال، وخصوصًا في البصرة، ثم اعربت عن رغبتها في الحصول على تقرير عام عن حياة

(31) حسين مكي خماس، من أيام العراق الملكي ـ مذكرات، تحرير ومراجعة علاء الدين خماس (عمان: شركة الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2017)، ص 92.

(32) المصدر نفسه، ص 79.

(33) المصدر نفسه، ص 79 ـ 89.

البلاد الاقتصادية بعد الأزمة التي دامت سنتين أو ثلاث سنوات، وطلبت إيضاحات عن قانون العمل وشروط استخدام العمال الهنود ونقلهم والتعاقد معهم، وأبدت ارتياحها إلى زيادة نفقات التعليم، وطلبت أن تعرف كيفية توظيف الأساتذة الاختصاصيين كما طالبت إيضاحات كثيرة عن التصرف بدخل الأوقاف.

وقد علق الموسيو بالاير مقرر المجلس على آراء اللجنة قائلاً: إنها لم تتناول المفاوضات الأخيرة التي دارت بين حكومة إنكلترا وحكومة العراق بشأن المعاهدة الجديدة وطلب كما طلبت اللجنة الحصول على إحصاءات إضافية عن الأحوال المالية في البلاد المشمولة بالانتداب وعلى بيان عن الاتفاقات الدولية النافذة في تلك البلاد، وقد وافق المجلس على هذا التقرير بجملته بلا مناقشة[34].

سادسًا: المشكلة مع السعوديين

1 ـ تفاقم الأزمة بين البلدين

عانى العراق هذه «المشكلة» منذ زمن طويل، وقد تعقّدت على عهد فيصل الأول بسبب العداء الهاشمي ـ السعودي، وخصوصًا بعد اندحار مملكة الحجاز الهاشمية على أيدي السعوديين عام 1925، وتفاقم الخلاف السعودي ـ العراقي بالمزيد من الهجمات التي تشنها القوى الوهابية ضد المناطق الحدودية بين الدولتين. وكان فيصل الأول يتابع هذا الشأن باهتمام كبير ويقلق بالغ، ويريد حسمه بأي ثمن بحيث يحفظ للعراقيين أرواحهم وأموالهم وللعراق مصالحه العامة. ومن أجل توضيح الصورة جليًا، نقف على التقرير التالي: «لقد نشرت جريدة التايمز في لندن رسالة من مكاتبها في بغداد يقول فيها إن السِّير هنري دوبس[35] المندوب السامي البريطاني في العراق قد صرح في حديث بشأن الاخبار

(34) جريدة صدى الجمهور، العدد 102 (23 آذار/مارس 1928).

(35) السير هنري روبرت كونواي دوبس (Henry Dobbs) (1871 ـ 1934) كان مسؤولًا في حكومة الهند البريطانية وغدا المفوض السامي في العراق. تخرّج في أكسفورد. انضم إلى الخدمة المدنية الهندية عام 1892، وفي عام 1903 اشتغل على تثبيت الحدود الروسية ـ الأفغانية. ومناصب أخرى، ثم شغل منصب رئيس مفوضية بلوشستان 1917 ـ 1919. وكان الممثل البريطاني في بعثة كابول في كانون الثاني/يناير 1921، ومهندس الصداقة الأنكلو ـ أفغانية. وأثمرت المعاهدة الأنغلو ـ أفغانية في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1921، التي أكدت الحدود الهندية ـ الأفغانية، وعمل لاحقًا كمفوض سام للمملكة العراقية بين (1923 ـ 1929)، وهي أطول فترة يشغل فيها هذا المنصب أي مسؤول بريطاني خلال فترة الانتداب على العراق. انظر: A & C Black, «DOBBS, Sir Henry Robert Conway,» in: *Who Was Who, 1920–2008* (New York: Oxford University Press, 2007).

التي شاعت عن إعلان الملك ابن سعود للجهاد أنه لا يشعر شخصيًا بأدنى خوف من الحالة التي نشأت عن سلوك قبائل الإخوان (الوهابيون)، وأنه يظهر أن مسألة الجهاد لا تخرج عن كونها قصة أتى بها بعض البدو من البصرة، ومثل هذه القصص يكذبها في كل مرة ما يرويه ضباط المباحث الذين لم يجدوا أي أساس لهذه الأخبار المزعجة، ثم إن اتخاذ الملك ابن سعود لمثل هذا القرار يعد نقضًا لاتفاق البصرة»[36]. ونتابع: «ويرى السِّير دوبس أنه ليس ثمة أسباب تدعو إلى مثل هذا النقض وأن الحركة التي قامت بها الطائرات ضد المغيرين كان لها أثر بالغ، وقد جاء أن قبيلة مطير بعد الخسائر الشديدة التي حلت بها في 23 شباط/فبراير 1928 لا تميل إلى القيام بهجمات أخرى، إلا أن قبيلة عطية التي لم تجرب الحرب الجوية بعد قد تقوم بعمل عدائي طمعًا في الغنائم. ولكن السير دوبس يشير إلى أن السلاح الجوي كفيل بردها. وقد أوضح أن إنشاء المخافر هو لتنفيذ التزامات العراق بموجب اتفاق البصرة وصد الإغارات على بلاد نجد التي قد يقوم بها نفر من قبيلة شمر الذين لجأوا من نجد إلى البلاد العراقية على إثر انهزام الزعيم ابن الرشيد سنة 1921، ولا أساس لما تذيعه صحف مكة من أن هذه المخافر منافية لاتفاق البصرة، لأنها نشأت بعيدًا من الحدود بقدر الامكان، ويتألف كل مخفر من خمسة عشر من رجال البوليس لا غير. أما العراق، فلا تضمر السوء مطلقًا، ولكن لا يمكن أن ينتظر منها بعد وعدها للبلاد النجدية أن تترك تلك الديار الصحراوية الشاسعة بدون أي ممثل للقانون والنظام»[37].

2 ـ تصريحات جعفر العسكري في لندن

وصل فخامة جعفر باشا رئيس الوزارة العراقية السابق، ليتقلد منصبه الجديد كممثل العراق السياسي في لندن، وقد قابله مندوب شركة رويتر، واستطلع رأيه عن غارات الوهابيين على العراق، فقال له «إنه لم يلق أهمية كبرى على غارات الوهابيين وغيرهم لأن فكرة الجهاد متأصلة في نفس كل وهابي» أو كما جاء في التعبير الإنكليزي: «مولودة مع عظام كل وهابي»، ثم قال وإن القوة الجوية الملكية ووزارة الدفاع العراقية فيها الكفاءة التامة لمجابهة كل صعوبة تنشأ هناك[38].

أما دعوى الوهابيين بشيْد الحكومة المخافر بالقرب من الحدود ليس لها مبرر قطعيًا، لأن أقرب مخفر وهو نقطة بوليس فقط واقع على بعد 70 ميلاً من الحدود، ولا يعلم لأي

(36) صدى الجمهور، العدد 104 (2 نيسان/أبريل 1928).
(37) المصدر نفسه.
(38) صدى الجمهور، العدد 105 (5 نيسان/أبريل 1928).

مدى تبلغ المسؤولية الفعلية التي تقع على عاتق جلالة ملك الحجاز عن حركات عشائره هذه، ولكن العراق يجب أن يعتبر حاكم البلد المجاور له مسؤولاً عن أعمال رعيته[39]. وفي مكان آخر، إن فرنسا كانت متخوفة من حركة الوهابيين، وإن المسيو بربان والسير أوستن تشمبرلن كانا قد تبادلا الآراء عن الحالة الجديدة في بلاد العرب[40].

لقد حسمت الأمور عام 1930، ففي 21 شباط/ فبراير من ذلك العام التقى العاهلان فيصل الأول وعبد العزيز آل سعود على متن البارجة الحربية البريطانية لوبين، وقد انتهى الاجتماع بالاعتراف المتبادل بين المملكة العراقية ومملكة الحجاز ونجد (هكذا كان اسمها عند تأسيس الدولة وفي الثلاثينيات إذ عدل لاحقًا إلى المملكة العربية السعودية)[41].

سابعًا: أزمة الآثوريين في العراق

1 ـ تمرد الآثوريين

مع استقلال العراق عام 1932 ودخوله عضوًا في عصبة الأمم، طالب الرئيس الروحي للآثوريين المار شمعون بالحكم الذاتي داخل العراق، سعيًا للحصول على دعم من بريطانيا والضغط على قضيته أمام عصبة الأمم في ذلك العام. وقد خطط أتباعه الانفصال عن جيش الليفي الذي أسسه البريطانيون من الآثوريين، وهذا الجيش ميليشيا قوة عسكرية تحت قيادة البريطانيين الذين خدموا المصالح البريطانية على مدى سنوات في احتلال العراق، وقرروا إعادة تجمعهم كميليشيا منفصلة بتركيزهم في شمال العراق، حيث أدى إلى إنشاء جيب آثوري بحكم الواقع. وعليه، فالمشكلة ليست عراقية بقدر ما هي آثورية مع البريطانيين، ولكن على أرض عراقية وفي منطقة تزدحم فيها مختلف العناصر السكانية. ويبدو واضحًا أنها رتبت بكل خبث ضد العراقيين وعلى رأسهم فيصل الأول.

في ربيع 1933، انتشرت حملة دعائية نيابة عن مار شمعون في محاولة لإقناع الآثوريين بعدم الحصول على جنسية عراقية وعدم الخضوع للحكومة المركزية. وانتشر نحو 200 مسلح آثوري اعتبرتهم السلطات العراقية تحديًا بل وتمردًا ضد الدولة[42]. ووقعت

---

(39) المصدر نفسه.

(40) صدى الجمهور، العدد 104 (2 نيسان/أبريل 1928).

(41) Sinderson, *Ten Thousand and One Nights: Memories of Iraq's Sherifian Dynasty*, pp. 78 - 79.

(42) Khaldun S. Husry, «The Assyrian Affair of 1933 (I),» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 5, no. 3 (April 1974), pp. 161 - 176.

حوادث مع الكرد العراقيين مع ردود فعل وقلاقل، فبدأت الحكومة العراقية ترسل قطعات لها إلى منطقة دهوك لتهديد بقية الآثوريين عن الانضمام إلى قضية لا طائل منها[43]. وفي حزيران/ يونيو 1933، دُعي مار شمعون إلى بغداد لإجراء مفاوضات، فتمّ احتجازه بعد رفضه التخلي عن السلطة الزمنية[44]. وتقرر نفيه إلى قبرص. ومار شمعون هو مار إيشاي شمعون الثالث والعشرون (1908 ـ 1975)، هو بطريرك الكنيسة الأشورية النسطورية الشرقية منذ 1920، أي منذ شبابه المبكر، حتى مقتله في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1975، اذ أطلق النار على مار شمعون وقتل عند باب منزله في سان خوسيه، بكاليفورنيا، من جانب دايفيد مالك إسماعيل، فكان مصرعه صدمة لكل الآثوريين في العالم وكان مقتله نتيجة مؤامرة من جانب المنشقين عليه[45] .

2 ـ بريطانيا والعراق والآثوريون: الطلبات التسعة

عندما انتهى تفويض بريطانيا للعراق في تشرين الثاني/نوفمبر 1932، كان الآثوريون قلقين بشأن وضعه[46] كأقلية في الدولة العراقية المستقلة الآن، إذ كان الآثوريون يأملون في أن تدعم بريطانيا إنشاء جيب مناطقي لهم في الشمال يمنحهم الاستقلال في شؤونهم الداخلية، ولكن استجابة بريطانيا كانت إلى حد كبير غير متعاطفة مع التطلعات الآثورية، لأنها ستثير الكرد والتركمان والكلدان والسريان، وكل طيف من هذه الأطياف السكانية أكثر من الآثوريين[47].

3 ـ ما نوايا الآثوريين؟

في 1 كانون الثاني/يناير 1932، أرسلت جماعة من الليفي الآثوريين مضبطة موقعة من قائدهم البريطاني، جاء فيها أن «جميع الرجال قرروا التوقف عن الخدمة اعتبارًا من 1 يوليو/

(43) Sami Zubaida, «Contested nations: Iraq and the Assyrians,» *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 3 (2000), pp. 363 - 382.

(44) Ronald S. Stafford, *The Tragedy of the Assyrians* (London: Gorgias Press LLC, 2006) (1st published [1935]).

(45) Aprem Mooken, *The History of the Assyrian Church of the East in the Twentieth Century* (Kottayam: St. Ephrem Ecumenical Research Institute, 2003), pp. 181 - 189.

(46) John Foster, *The Church of the T'ang Dynasty* (London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1939), p. 34.

(47) Reeva S. Simon, *Iraq between the Two World Wars: The Militarist Origins of Tyranny* (New York: Columbia University Press, 2004), 1st published [1986].

تموز». والسبب هو أن بريطانيا «فشلت بشكل كافٍ في ضمان مستقبل الأمة الآثورية بعد انتهاء فترة تفويضها على العراق». وجدير بالذكر أن قائدهم الروحي مار شمعون وأساقفته كانوا يستعدون «لتركيز الأمة الآثورية كلها في منطقة دهوك والعمادية في بداية تموز/يوليو، وأنهم سيدفعون ضريبة عالية إزاء تركهم الليفي البريطاني، فما لهم إلا الانضمام إلى هذا التركيز». اعتقد البريطانيون أن الآثوريين كانوا «يحاولون إجبار «البريطانيين» والحكومة العراقية على إنشاء جيب مستقل للآثوريين في العراق والاعتراف به. «وأعربت بريطانيا عن قلقها من أن مثل هذا العمل السياسي المضاد يمكن أن يقوّض الطبيعة الوحدوية للدولة العراقية مستقبلاً، وأنه سيكون سابقة تلهم بقية الأطياف، وخصوصًا الأكراد، للمطالبة بمنطقتهم كي يستقلوا بها في الشمال عن العراق. أرادت بريطانيا ضمان بقاء مصالحها الاستراتيجية والنفطية الحيوية في العراق. وعليه، فقد دعا المندوب السامي البريطاني الضباط الآثوريين إلى اجتماع في 13 حزيران/يونيو، ووضعهم أمام القانون. وحذرهم «من أن الخطوة التي يتخذونها ستبعد الثقة والتعاطف البريطانيين عنهم، وطلب منهم إعادة النظر في عملهم». إن بريطانيا «ستتجاهل حماقتهم وتسمح لهم بالاستمرار في خدمتهم». ومع ذلك، إذا امتنعوا عن الاستجابة للتحذير البريطاني، فإن «هذا قد يؤدي إلى كارثة محتمة». يمكن ملاحظة أن البريطانيين لن يتسامحوا مع أي تمرد أو احتجاج من جانب جماعات الليفي الآثورية التي قد يقوض أفعالها التسليم الرسمي للسلطة من الإدارة الإلزامية إلى السيادة العراقية. لم ترغب بريطانيا في رؤية الجيش العراقي يضطر إلى إخماد الثورات منذ البداية. كان مار شمعون هو الشخص الرئيسي الأول في التسلسل الهرمي الديني والسياسي الآثوري. وكان أهم شخصية يمكنه استخدام نفوذه لتخفيف حدة الوضع السياسي المتوتر. كان البريطانيون واعين لموقف مار شمعون بين الآثوريين.

4 ـ المطالب الآثورية

في اجتماع عُقد في العمادية في 18 حزيران/يونيو 1932، وجّه الآثوريون التماسهم إلى المندوب السامي البريطاني في بغداد، وأرسلت نسخة منه أيضًا إلى رئيس لجنة الانتداب الدائم في جنيف. والمتضمن المطالب الآثورية[48]، وهي مستنسخة بالكامل في أدناه:

---

(48) Robert DeKelaita, «The Origins and Developments of Assyrian Nationalism,» (Committee on International Relations of the University of Chicago, Assyrian International News Agency, 2009).

«(1) أن الآثوريين يجب الاعتراف بهم كأمة (أمة) مقيمة في العراق، وليس فقط كأقلية دينية عراقية.

(2) وجوب ضم سنجق حكاري في تركيا، التي عاش فيه بعض الآثوريين سابقًا، إلى العراق وإعادة قراه إلى الآثوريين.

(3) تتضمن على أربعة مطالب على التوالي:

(أ) أنه إذا لم يكن من الممكن القيام بذلك، فيجب إيجاد وطن قومي للآثوريين ويجب أن يكون مفتوحًا لجميع الآثوريين المنتشرين في العراق ولجميع الآثوريين العثمانيين السابقين من جميع أنحاء العالم.

(ب) ينبغي ترتيب هذا المنزل الجديد ليشمل كامل منطقة العمادية والأجزاء المجاورة من مناطق زاخو ودهوك وعقرة، وتحويله إلى كيانات ألوية فرعية ضمن مجال لواء الموصل ومقره المنزل الجديد في دهوك تحت حكم متصرف عربي ومستشار بريطاني.

(ج) أن تنقح ترتيبات التسوية القائمة بالكامل بواسطة لجنة مزودة بأموال كافية، وأن تكون الأرض المختارة للاستيطان الآثوري مسجلة بأسمائها كممتلكات خاصة بها.

د) ينبغي إعطاء الأفضلية للآثوريين في اختيار المسؤولين لهذه الألوية.

(4) الاعتراف رسميًا بالسلطة الزمنية والروحية للبطريرك على الأمة الآثورية، وإعطائه إعانة سنوية.

(5) أن يكون للآثوريين عضو في مجلس النواب يسميه الشعب والبطريرك.

(6) على الحكومة العراقية أن تنشئ مدارس بالتشاور مع البطريرك لتدريس لغة الآثوريين.

(7) أن تقدم عصبة الأمم أو الحكومة العراقية هدية بقيمة خمسة ملايين روبية لإنشاء وقف للكنيسة الآثورية.

(8) إنشاء مستشفى في مقر كيانات اللواء ومستوصفات في أماكن أخرى.

(9) لا يجب مصادرة البنادق التي حصل عليها الآثوريون من خلال خدمتهم في الجبايات (الليفي)».

أراد الآثوريون الرد على مطالبهم بحلول 28 كانون الثاني/يناير. كان هذا الموعد النهائي من وجهة نظر المفوضية البريطانية العليا مستحيلاً معهم[49].

---

(49) Ibid.

5 ـ ردود الفعل البريطانية

عندما أثبتت المفاوضات أنها غير مثمرة، تبنت بريطانيا نهجًا عسكريًا وسياسيًا تجاه الآثوريين. وعرضت قوتها الإمبراطورية من طريق تحليق كتيبة مشاة باستخدام سلاح الجو الملكي (RAF) من مصر لتولي واجبات الرسوم. وقد تم توزيع هذه القوات أخيرًا على محطات الضريبة في الموصل وديانا والسليماني والهنيدي. كان للعمل البريطاني تأثير مفيد في القيادة الدينية والسياسية الآثورية.

أصدر مار شمعون كتابين في 29 حزيران/ يونيو يحثّ الضباط الآثوريين ورجال الضرائب على مواصلة «الخدمة المخلصة والطاعة في القوة» حتى يتم النظر في الالتماس الوطني كما سمّاه في 17 حزيران/ يونيو من قبل عصبة الأمم والإجابة المقدمة. ويبدو أن التسويف البريطاني كان نافعًا، ولكن كان التعويل على أن تقوم السلطات والحكومة العراقية بالضغط عليه. وهنا يتوضّح جليًا توريط العراق في المشكلة التي لم يكونوا أصلاً طرفا فيها، إلا بحكم وجود دولة مستقلة الآن وعضو في عصبة الأمم.

6 ـ المشكلة أمام عصبة الأمم

اجتمعت لجنة الولايات الدائمة في أوائل كانون الأول/ديسمبر 1932 لمناقشة الالتماس الآثوري. فأيدت مفهوم «التسوية المدمجة والمتجانسة [للآثوريين] في العراق»، وفضلت إيفاد مفوض العصبة لمناقشة المظالم الآثورية مع العراقيين (علمًا بأن لا وجود لأية مظالم عراقية حتى ذلك الوقت). وحث السفير البريطاني في العراق، السِّير إف. همفري، العراقيين على تجنب مناقشة فكرة الجيب الآثوري المستقل. ولكن الملك فيصل ورئيس وزرائه أخبرا همفري عن معارضتهما لإرسال مفوض عصبة الأمم إلى العراق. لقد سلمت لجنة الولايات الدائمة تقريرها إلى مجلس عصبة الأمم بشأن الالتماس الآثوري. واعتمد قرارًا في اجتماعه في 5 كانون الأول/ ديسمبر 1932 ينص على ما يلي:

«يلاحظ المجلس بارتياح إعلان ممثل العراق اعتزام الحكومة العراقية اختيار خبير أجنبي من خارج العراق لمساعدتها لفترة محدودة في توطين جميع سكان العراق الذين لا يملكون أرضًا بمن فيهم الآثوريين، والتخطيط لتسوية مسألتهم في العراق في ظل ظروف مناسبة وبقدر ما يمكن في الوحدات المتجانسة، على أن يكون مفهومًا أن الحقوق الحالية للسكان الحاليين لن تمس». وكدولة جديدة ذات سيادة، أراد العراقيون إثبات قدرتهم على تعيين مفوض خارجي من اختيارهم، وأرادوا أيضًا التعاون مع مجلس العصبة. لقد أعطيت

لهم الفرصة لمعالجة المظالم الآثورية بمفردهم. كان الآثوريون متخوفين من النوايا العراقية في ما يتعلق بمستقبلهم ووضعهم كأقلية في هذه الدولة المستقلة الجديدة. وهنا، نرى أن بريطانيا قد انسحبت من المشكلة ووضعتها تحت تصرّف العراقيين، وهي ليست مشكلة العراقيين أصلاً.

7 ـ اشتباكات ديرابون

في 21 تموز/ يوليو 1933، عبر أكثر من 600 آثوري بقيادة مالك يعقوب الحدود إلى سورية على أمل الحصول على حق اللجوء من الانتداب الفرنسي على سورية. ومع ذلك، تم نزع سلاحهم ورفض لجوئهم، وتم إعطاؤهم أسلحة خفيفة ثم أعيدوا إلى العراق في 4 آب/ أغسطس 1933. ثم قرروا تسليم أنفسهم للجيش العراقي[50]. أثناء عبور دجلة في قرية ديرابون الآثورية، اندلع اشتباك بين الآثوريين وكتائب الجيش العراقي، وأُعيد كل العراقيين إلى قاعدتهم العسكرية في ديرابون؛ فقام الآثوريون بمهاجمة ثكنات الجيش من دون نجاح يذكر. فتم إعادتهم إلى سورية ولما وصلت الطائرات العراقية. كان الجيش العراقي قد خسر 33 جنديًا أثناء القتال بينما لم يخسر غير النظاميين من الآثوريين[51]. ولا يتفق المؤرخون على من بدأ الاشتباكات على الحدود. ولكن ثمة إجماع على أن الآثوريين استفزوا الجيش في ديرابون[52]، فثارت موجة من السخط لدى العراقيين ونشرت مقالات صاخبة في الصحف العراقية وتصوير بشع عن كراهية الآثوريين للعرب وهم يشوهون جثث الجنود العراقيين القتلى[53]. وقد أثار ذلك غضب الشعب العراقي ضد الآثوريين[54].

8 ـ بداية رد الفعل الرسمي

على الرغم من توقف جميع الأنشطة العسكرية بحلول 6 آب/ أغسطس 1933، إلا أن القصص المبالغ فيها عن الفظائع التي ارتكبها الآثوريون في ديرابون والدعاية المتبادلة بين الطرفين، وانفضاح أسرار ما كان الآثوريون يخططون له في تفجير الجسور

---

(50) Stafford, *The Tragedy of the Assyrians*, p. 136.

(51) Ibid., p. 140.

(52) Zubaida, «Contested nations: Iraq and the Assyrians,» p. 370, and Husry, «The Assyrian Affair of 1933 (I),» p. 174.

(53) Husry, Ibid., pp. 175 - 176.

(54) Stafford, *The Tragedy of the Assyrians*, p. 145.

وتسميم مياه الشرب التي تمر في المدن العراقية الكبرى[55]. ووفقًا لبعض المؤرخين، فإن الصلافة التي استخدمها الآثوريون قابلها تحريض ضد الآثوريين شجعته حكومة رشيد عالي الكيلاني، وكان ذلك يحدث في غياب فيصل عن المشهد على الأرض، فافتقد العراقيون حكمته[56].

كان الجيش العراقي بقيادة الجنرال بكر صدقي، وهو قائد عراقي متمرس من أصل كردي، على الرغم من أنه ليس قوميًا كرديًا[57]، قد تحرك شمالاً لسحق التمرد الآثوري. وقد نشر الآثوريون أخبارًا بشعة عن ممارسات الجيش وخصوصًا الإعدامات والنهب وقتل الأطفال وتشجيع القبائل الكردية والعربية واليزيدية القريبة على نهب القرى الآثورية[58]. ولجأ معظم النساء والأطفال من تلك القرى إلى سيميل ودهوك[59]. ونهبت القبائل أكثر من 60 قرية آثورية. وأحرقت القرى بالكامل، وسكن معظمها فيما بعد من جانب الأكراد[60].

9 ـ مذبحة سيميل

كتب ليثبريدج هيرالد في 18 آب/أغسطس 1933 قائلاً بأن بلدة سميل غدت الملاذ الأخير للآثوريين الفارين من القرى المنهوبة. وتدفق إليها آلاف اللاجئين حول مركز الشرطة في البلدة التي تعرضت للنهب والسلب[61]، وفي 11 آب/ أغسطس، تم إنزال العلم العراقي الذي يحلق فوق مركز الشرطة[62]. ومن دون سابق إنذار أو استفزاز واضح، بدأت القوات في إطلاق النار عشوائيًا ضد الآثوريين العزل. ثم أمر الضابط إسماعيل عباوي توحلة قواته بعدم استهداف النساء. يصف ستافورد المذبحة التي تلت ذلك على النحو التالي:

ثم تبع ذلك مذبحة باردة وممنهجة وقاسية لجميع الرجال في القرية، وعومل الآثوريون بقسوة بالغة، ويستطرد قائلاً: «ارتكاب جريمة وسقط فيها أناس كحشرات ملطخة بالدم في

---

(55) Ibid., p. 183.

(56) Ibid., p. 149, and John Joseph, *The Modern Assyrians of the Middle East: Encounters with Western Christian Missions, Archaeologists, and Colonial Powers* (Boston, MA: Brill, 2000), p. 198.

(57) التفاصيل، في: David McDowall, *A Modern History of the Kurds* (London: I. B. Tauris, 2000), p. 289, and Denise Natali, *The Kurds and the State: Evolving National Identity in Iraq, Turkey, and Iran* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2005), p. 35.

(58) Stafford, Ibid., pp. 167 - 168.

(59) Ibid., p. 158.

(60) Ibid., pp. 160 - 161.

(61) Ibid., p. 159.

(62) Ibid.

الشرق الأوسط» من أجل اجتثاث الآثوريين من الدواخل، وأطلق المدفعيون الرشاشات على نوافذ المنازل التي لجأ إليها الآثوريون. ويختلف المؤرخون في تفسير ما حدث، لأن ثمة مبالغات كبيرة تناقلتها صحف العالم وهي لا أساس لها من الصحة أبدًا، وكلها وظفّت ضد نظام حكم حظي بنيل الاستقلال قبل أية دولة عربية أخرى. ولما بلغ ما حدث إلى أسماع فيصل الأول وهو يستشفي في برن بسويسرا، وكان في حالة سيئة جدًا، وقرأ قوة الاحتجاجات ضده في العالم، أبى إلا أن يسافر عائدًا إلى العراق بسرعة بالطائرة ليعالج سوء الحالة وتسّرع القرارات التي اتخذها ولي عهده الأمير غازي وبلادة بعض المسؤولين العراقيين الكبار. وكانت وجهة نظر العراقيين[63] تتلخص بأن الآثوريين سواء كانوا من جيش الليفي أو لم يكونوا، فهم وكلاء وعملاء بريطانيون يستخدمهم «أسيادهم» لتدمير الدولة العراقية الجديدة التي عارض البريطانيون استقلالها باستمرار. وأن البريطانيين كانوا يأملون في أن يقوم الآثوريون بتدمير التماسك الداخلي للعراق من خلال استقلالهم وتحريض الآخرين مثل الأكراد على أن يحذوا حذوهم[64]. أما الآثوريون، فقد كتب ستافورد عن انخفاض معنوياتهم ووجدهم في القوش بنفسه في 21 آب/ أغسطس، مذعورين تمامًا. لم يكونوا منزعجين فقط، بل إن روحهم انكسرت تمامًا. كان من الصعب التعرف إلى سلوكهم عن أولئك المتغطرسين من متسلقي الجبال الفخورين الذين عرفهم الجميع جيدًا وأعجبوا كثيرًا طوال السنوات العشر الماضية كما يقول [65].

ثامنًا: هموم فيصل ومعاناته

كان الملك فيصل، الذي عاد إلى العراق مكتئبًا ومهمومًا لشدة ما تعرض له من ضغوط أثناء الأزمة، وقد تدهورت صحته أكثر خلال أيام الصيف الحارة في بغداد، قد التقى القائم بالأعمال البريطاني في ملابس نومه وهو يجلس القرفصاء في سريره يوم 15 آب/أغسطس، حيث نفى ارتكاب مذبحة في سميل. ولما اشتد عليه المرض، غادر فيصل العراق مرة أخرى في 2 أيلول/سبتمبر 1933، بحثًا عن مناخ أكثر برودة في أوروبا، حيث توفي بعد خمسة أيام في برن بسويسرا[66]. ويعلق أبرم شبيرا قائلاً «أما بخصوص وفاة الملك

---

(63) Ibid., pp. 160 - 161 .

(64) Peter Sluglett, *Britain in Iraq: Contriving King and Country* (London: I. B. Tauris, 2007), pp. 154 - 156.

(65) Stafford, Ibid., p. 184.

(66) Husry, «The Assyrian Affair of 1933 (I),» p. 351.

فيصل، فقبل الولوج في بعض الحقائق التي لها علاقة بالقضية الآشورية، من الضروري التأكيد بأن أحداث الحركة الآشورية كشفت حالة تستوجب الإشادة بها وهي أصالة الملك فيصل ودماثته العربية العريقة في السياسة والحكم تجاه أبناء رعيته جميعًا دون أي تمييز عرقي أو ديني»[67]. ومن طرف الضباط الكبار، نجد في مذكراتهم، شهادات موضوعية وغاية في دقة المعلومات والحيادية في استعراض ما قامت به القوات العراقية بعيدًا من التهويل والمبالغات المحلية والانحيازات الخارجية[68].

1 ـ نهاية الأزمة

أُرغم مار شمعون، الذي كان محتجزاً منذ حزيران/يونيو 1933، على النفي مع عائلته الكبيرة، على الرغم من التردد البريطاني الأولي، إذ تم نقله على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي إلى قبرص في 18 آب/أغسطس 1933، وإلى الولايات المتحدة في عام 1949، وهو أمر أجبر عليه وبقي منفيًا في شيكاغو. وفي عام 1948، التقى بممثلي العراق وسورية وإيران في واشنطن، داعيًا بعد ذلك أتباعه إلى «العيش كمواطنين مخلصين أينما كانوا يقيمون في الشرق الأوسط»، وقاد ذلك إلى حدوث انشقاقات عنه من قبل الآثوريين المتمسكين بمبادئهم.

2 ـ الدور البريطاني

دخلت العلاقات العراقية ـ البريطانية فترة تهدئة قصيرة أثناء الأزمة وبعدها. وقد شجع البريطانيون العراقيين في السابق على اعتقال مار شمعون من أجل نزع فتيل التوترات[69]. وتأكد للعقلاء أن الاحتجاجات البريطانية والأوروبية التي أعقبت المذبحة ضد العراقيين أن «التمرد الآثوري» كان من صنع فاعل، وأن «القضية الآثورية» هي مشكلة بريطانية من بداياتها حتى نهاياتها[70]. وبقدر ما هوجم العراق على «ارتكابه المجازر»، دعم البريطانيون العراق ورفضوا إجراء تحقيق دولي في عمليات القتل[71] كما أنهم لم يصروا على معاقبة المجرمين

(67) أبرم شيرا، الآشوريون في السياسة والتاريخ المعاصر: مجموعة مقالات وبحوث (السويد: عشتار للطباعة والترجمة والتصميم، 1997)، ص 43.

(68) من أهم مذكرات القادة العسكريين العراقيين الذين تناولوا هذا «الموضوع» بموضوعية وأمانة في مذكراتهم كل من: تحسين العسكري وصالح صائب الجبوري وحسين مكي خماس وغيرهم.

(69) Husry, Ibid., p. 173.

(70) Zubaida, «Contested nations: Iraq and the Assyrians,» p. 371.

(71) Ibid.

الذين يعتبرهم العراقيون الآن أبطالاً[72]. كان الموقف البريطاني الرسمي هو الدفاع عن الحكومة العراقية لمثابرتها وصبرها في التعامل مع الأزمة وإسناد المذابح إلى وحدات الجيش المارقة، وأن تقريرًا عن معركة ديرابون يلوم الآثوريين، ويدافع عن تصرفات الجيش العراقي، ويشيد ببكر صدقي كضابط جيد[73]. وقد أدى التغيير في الموقف البريطاني تجاه الآثوريين إلى ظهور فكرة «الخيانة البريطانية» بين بعض الدوائر الآثورية. وبرحيل فيصل، نسيت القضية الآثورية تمامًا.

استنتاجات

بدا واضحا للمؤرخ أن فيصل الأول واجه خلال حكمه العراق مشكلات عويصة إقليمية وداخلية، واستطاع بذكاء شديد وحنكة سياسية معالجتها بجدارة. فقد عالج المشاكل المزمنة مع إيران بقدر استطاعته، وعالج مشكلة الموصل بقدر استطاعته، كما عالج مشاكل السعوديين على الحدود، ونجح تمامًا في إشراك البريطانيين كقوة دولية يحسب الآخرون لها حسابًا عسيرًا، أما المشكلات الداخلية، فقد عالجها من خلال حكومته العراقية وقواته العسكرية، وقد أدرك منذ زمن بعيد أن ثمة قنابل موقوتة في داخل العراق وهي قابلة للانفجار متمثلة بالأكراد أو الآثوريين أو غيرهم، ومن السهولة أن تثار أكثر من مشكلة في الداخل بتأثير دولي أو إقليمي. وهو يرى أن الحوار هو أفضل وسيلة لحل أي مشكلة بعيدًا من استخدام القوة في دواخل البلاد. وأجد أن الملك فيصل الأول دخل العراق في حالة ومات راحلاً عنه وهو في حالة أخرى، وشتان ما بين الحالتين. لقد تعب جدًا خلال 12 سنة من حكم العراق بسبب تعقيداته وكثرة مشكلاته الصعبة.

---

(72) Ibid.

(73) Ibid.

الفصل العاشر

الرمز

دائرة الإنتليجنسيا:

رعيل فيصل من الحاشية إلى النخبة إلى الطبقة

أولًا: النخبة العربية

اتهم فيصل الأول من جانب بعض العراقيين أنه أحاط نفسه بشخصيات عربية، استقدمهم للعمل ضمن طاقمه أو للعمل في المرافق الحيوية التي يحتاج العراقيون إليها. وأعتقد أنه لم يكن مخطئًا أبدًا في الاعتماد على نخبة من المساعدين والمستشارين، فإن كان البريطانيون قد اعتمدوا على نخبة من المستشارين في مؤسسات العراق وإداراتها، لذا كان حريًا أن تكون لفيصل الأول نخبة من المختصين العرب. ويبدو أن بعض العراقيين ما زالوا حتى اليوم قادرين على رسم صورة مغايرة لواقع فيصل الأول وتاريخه في العراق. يقول علي علاوي: «ومع عدم القدرة على الإحساس بالسعادة في ما يخص العراق، حاول فيصل مناصرة قضية العروبة، حيث أحاط نفسه بمجموعة من الشخصيات من مصر ولبنان وسورية وفلسطين».

نعم، لقد استقدم فيصل نخبة من المختصين العرب كطاقم توكنوقراط للعمل في المرافق الحيوية الأساسية وكان قد عرفهم واحدًا واحدًا [1]، ولو كان العراق يمتلك كادرًا من المختصين أمثالهم لما اعتمد على نخبة عربية من الخبراء المتنوعين، وكان من مصلحة

(1) انظر: سيار الجميل، إنتلجينسيا العراق: تاريخ النخب السياسية والمثقفة إبان القرن العشرين، كتاب نشر متسلسلًا على صفحات جريدة الزمان، لندن، 2002.

العراق أن يعمل طاقم عربي له كفاءته ومعرفته. وهم من لبنان وسورية وفلسطين وتونس (وليس من مصر) أمثال: صفوت العوا، ورستم حيدر، وساطع الحصري، وأمين كسباني، وعبد العزيز الثعالبي، وأحمد المناصفي، وحسين أفنان، وتحسين قدري، وأحمد قدري، وأمين معلوف، وراسم سردست، وعبد الله الحاج وغيرهم[2]. وأعتقد أن بعضهم كان قد اندس إلى حاشيته بغرض الارتزاق أو بغرض التجسس.

لقد قدّم ساطع الحصري (1880 ـ 1968) جهوده التربوية الكبيرة للعراق في بناء جيل أو جيلين عراقيين على أفضل ما يكون، وأرسى الأسس القويمة للمعارف العراقية ونجح في بناء المؤسسة التربوية العراقية. وكانت للحصري مواقفه الصحيحة من تأسيس جامعة آل البيت في العراق[3]، وكانت له مشكلاته مع معروف الرصافي وفهمي المدرس، فضلاً عن اشتراطاته الرسمية على تعيين محمد مهدي الجواهري في التعليم[4]. كتب كلّ من الاثنين وجهة نظره في الآخر في مذكراتهما[5]، وقد وجدنا مشاكسات الجواهري ومشكلاته وثرثراته عندما عيّن تشريفاتي في البلاط بتوسط عند الملك فيصل الأول، كالتي أوضحها السيد باقر الحسني في مذكراته[6].

ثانيًا: المرافقون العرب

اعتمد الملك فيصل الأول في إدارته التأسيسية للعراق إبان العشرينيات على رجالات من أبرز المثقفين والإداريين والعسكريين العراقيين، ولكن كان له طاقم من الشخصيات العربية المثقفة التي ساعدته على بناء مشروعه النهضوي في العراق، ويبدو أنه وجد فيهم القدرة والكفاءة والتخصص كي يستفيد منهم، نذكر منهم:

1 ـ صفوت باشا العوا (المرافق والمعلم الأقدم، وكيل رئيس الأمناء وناظر الخزينة الخاصة).

(2) انظر: غانم وحيد خالد، «أثر المثقفين العرب في تكوين العراق المعاصر 1921 ـ 1941،» إشراف سيار الجميل (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1995).

(3) انظر: سيار الجميل، **جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية اسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل** (الدوحة؛ الشارقة؛ بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، 2012)، وما عالجته في تحليل تلك المواقف، ص 228 ـ 238.

(4) انظر: ساطع الحصري [أبو خلدون]، **مذكراتي في العراق**، 2 ج (بيروت: دار الطليعة، 1967).

(5) قارن بين: محمد مهدي الجواهري، **ذكرياتي**، 2 ج (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1988) وكم أشاد الشاعر الجواهري في مقابلة تلفزيونية له وهو في نهايات حياته بالملك فيصل الأول ووصفه بأجمل الصفات، كونه واحدًا من أنبل الملوك في التاريخ.

(6) انظر ما كتبه باقر السيد أحمد الحسني، **ذكريات في مسيرة الحكم الوطني الملكي في العراق: من الروضة الكاظمية الشريفة إلى البلاط الملكي**، إعداد وتحقيق نزار باقر الحسني (عمّان: مطابع دار الأديب، 2011)، ص 97.

2 ـ إبراهيم الدباس (معلم الملك فيصل الأول في اللغتين الإنكليزية والفرنسية).

3 ـ حسين أفنان (سكرتير مجلس النظار (الوزراء)).

4 ـ أمين كسباني (سكرتير الملك للعلاقات العامة، نائب رئيس الديوان).

5 ـ رستم حيدر (رئيس الديوان الملكي والسكرتير الخاص للملك والمستشار الاقتصادي والسياسي ووزير البلاط لسنوات عديدة).

6 ـ أحمد المناصفي المحامي (مستشار الشؤون القانونية).

7 ـ ساطع الحصري (مستشار الشؤون التربوية والتعليمية بدرجة معاون وزير المعارف).

8 ـ راسم سردست (للخدمات والاتصالات).

9 ـ الأمير زيد بن الحسين (زعيم في الجيش العراقي وسفير للعراق) وآخرون من الأسرة الهاشمية.

10 ـ تحسين قدري (مرافق خاص للملك فيصل برتبة رئيس (نقيب)).

11 ـ أحمد قدري (طبيب الملك فيصل الأول).

12 ـ عبد المسيح وزير (مترجم أول في وزارة الدفاع وأصله من ماردين).

13 ـ أمين معلوف (مدير الأمور الطبية في الجيش العراقي برتبة قائمقام (عميد)).

14 ـ عبد الله الحاج (مساعد رئيس الديوان الملكي).

15 ـ توفيق المفتي (مدير المزرعة الملكية) وتسبب في غرق مدينة بغداد عام 1926 بسبب فتحه ثغرة في نهر دجلة بجوار البلاط الملكي.

16 ـ جميلة خانم (مديرة التشريفات في الحرم الملكي، وهي زوجة ساطع الحصري).

17 ـ محمود هندي (ضابط سوري أتى مع فيصل إلى العراق)[7].

18 ـ الملك علي بن الحسين (ملك الحجاز أخو فيصل لجأ إلى العراق بعد سقوط مملكته).

---

(7) محمود هندي هو أبو المناضل الراحل هاني الهندي الوزير القومي السوري وأحد مؤسسي حركة القوميين العرب ومؤسس مؤسسة الأبحاث العربية في بيروت. ولد في بغداد عام 1927، ساهم في تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. حاولت إسرائيل اغتياله في قبرص سنة 1981 حين فجرت سيارته فنجا، لكنه فقد ذراعه اليسرى. توفي في عمّان عام 2016. (نقلًا عن لقاءات المؤلف مع المرحوم هاني الهندي في عمّان 1992 ـ 1995).

لقد عمل هذا الطاقم العربي جنبًا إلى جنب نخبة من المسؤولين والساسة والمثقفين العراقيين الذين كانوا يتحملون مسؤولياتهم المتنوعة إلى جانب فيصل بن الحسين في مرافق عديدة.

ثالثًا: أبرز شخصيتين عربيتين في تكوين العراق المعاصر

لعل أبرز شخصيتين عربيتين اشتهرتا كثيرًا نظرًا إلى أعمالهما الواسعة في تأسيس العراق المعاصر اعتمد عليهما الملك فيصل الأول في بناء مشروعه العراقي، هما: رستم حيدر تكنوقراط واقتصادي بارز، وساطع الحصري الرجل الخبير في التربية والتعليم وصاحب تجربة إصلاحية عثمانية. وكان لهذين الرجلين مهنيتهما العالية وأخلصا في واجباتهما من أجل المصلحة العامة العراقية، فكسبا ثقة أغلب العراقيين ولم تزل سمعتهما عالية عند الجميع. كما اشتهر كلا الرجلين بترجمة أقوال فيصل إلى أفعال، وإنجاح مهمته الصعبة في العراق بمسك أهم مؤسستين. وسيتضح فضلهما لاحقًا على كل من مؤسسات الدولة وتبلور النخب المتعلمة والمثقفة في العراق. لقد اعتنى رستم حيدر بالمالية العراقية وكرّس الحصري نفسه للمعارف العراقية، فتطورت كل من المؤسستين تطورًا كبيرًا، وخصوصًا ترسيخ الضبط والربط في أجهزة المالية العراقية، وأيضًا تأسيس المناهج التربوية الحديثة وترتيبه للمتحف العراقي بعد نقل الحصري كمدير عام لمديرية الآثار العراقية. ومن غريب الصدف أن هذين الرجلين من الرعيل الأول الذي قدّم خدماته للعراق قوميًا بكل صلابة وأمانة قد دفعا ثمن ذلك باهظًا، إذ خسر الأول حياته في العراق اغتيالاً وهو يؤدي واجبه كوزير عراقي نشيط، ونال الثاني على يد السلطة الاضطهاد في إثر إسقاط الجنسية العراقية عنه لمواقفه القومية السياسية في تأييده حركة رشيد عالي الكيلاني والعقداء الأربعة عام 1941. دعونا نتوقف قليلاً لكي نحلل المكانة التاريخية للرجلين في العراق.

1 ـ رستم حيدر: التكوين الاقتصادي

أ ـ هويته وشخصيته

ينتسب رستم حيدر إلى أسرة لبنانية من بعلبك التي ولد فيها، ثم أكمل دراسته في بيروت ثم في السوربون بباريس وتخصص في السياسة والاقتصاد، وكان مثقفًا وذكيًا وإيمانه راسخ بالأمة العربية ووحدتها الكبرى. عمل سرًا مع رفاقه القوميين قبل الحرب الأولى، ثم التحق بالثورة العربية في الحجاز سنة 1917، فتوسم فيه الأمير فيصل المقدرة والكفاءة، فغدا منذ ذلك الوقت مستشارًا له، وتوثقت عرى صداقتهما فغدا كاتم أسراره،

وبقي مرافقًا له أيام حكمه لبلاد الشام وغادر معه وعاش معه أيام غربته، وحضر إلى جانبه في مؤتمر الصلح بباريس سنة 1919. وأغلب زياراته التفاوضية في لندن، ثم جاء بمعيته إلى العراق فنصب وزيرًا أقدم للبلاد، ثم تسلم حقائب وزارية عدة للداخلية والاقتصاد والمالية.

كان الملك فيصل الأول يبرّه ويقدّر خصاله ومبادئه القومية ومرونته الفكرية وشخصيته السياسية الجذابة، فحظي باحترام الساسة والمثقفين العراقيين، وخصوصًا لخبراته وصراحته في الرأي، وأنه لم يعرف الخداع ولا التضليل في حياته، ولمعرفته بأكثر من لغة أوروبية ولثقافته الواسعة، فقد صحبه الملك في زياراته لإنكلترا وفرنسا وإيران وتركيا، إذ كان مترجمًا حاذقًا للملك نفسه، فضلاً عن تذوقه الآداب الأجنبية كأحد أبرز الأدباء المتضلعين، وهو متوازن فكريًا وأيديولوجيًا بين ثقافتين أوروبية غربية وعربية إسلامية، وضليع في الاقتصاد والاجتماع وعلوم المالية، وذو أفق واسع، فعدّ أحد أبرز الساسة العرب المرموقين المجهولين في مرحلة ما بين الحربين العالميتين[8]!

ب ـ مكانته الرسمية في العراق

قدم رستم حيدر للعراق إبان تأسيسه المعاصر خدمات جلّى كوزير للبلاط أو للمالية، فكان صاحب قرار، وعندما مات فيصل، فقد رستم ركنًا أساسيًا في حياته وتاريخه السياسي، واضطهدته حكومة انقلاب بكر صدقي عام 1936 بعد اصطدامه بسياستها، فغادر العراق متخفيًا نحو مسقط رأسه في بعلبك، ولما زال عهد الانقلاب، عاد إلى العراق مرة أخرى فشغل عدة مناصب كان آخرها وزارة المالية سنة 1939، التي استمر فيها حتى اغتياله يوم 22 كانون الثاني/يناير 1940 فدفن في المقبرة الملكية ببغداد، وقد تأسف العراقيون عليه كثيرًا، ولم يكن اغتياله سياسيًا إذ لم تكن هناك مصلحة خارجية أو داخلية في تصفيته، وكانت له مكانته في قلوب اللبنانيين والسوريين، ولكن زعامته السياسية ومكانته في البلاط وبروزه في المجتمع قد أثارت نقمة بعض ذوي المصالح الذاتية الذين وجهت إليهم الاتهامات القانونية، وقد حوكموا أمام المجلس العرفي العسكري، فحكم على المحرِّض بعد إدانته بسنتي حبس، ونفذ في القاتل حكم الإعدام.

ج ـ مناصب رستم حيدر وآراؤه

إن ما يهمنا بالفعل منجزات الرجل كواحد من أبرز المثقفين العرب الذين أدوا

---

(8) انظر مقال: ميشال جحا، «رستم حيدر في العراق.. كيف تم اغتياله.. وكيف عثر على مذكراته؟،» مجلة بيروت المساء (أيلول/سبتمبر 1988).

أدوارهم في تطور المؤسسات الاقتصادية العراقية في النصف الأول من القرن العشرين، وخصوصًا على مدى عقد كامل من السنين، أي بين أول استيزار له سنة 1930 وبين اغتياله سنة 1940؛ فقد تولى رستم حيدر سبع حقائب وزارية، أربعٌ منها للمالية في عهود الوزارات التي شكلها نوري السعيد، وثلاثٌ للاقتصاد والمواصلات في وزارتَي رشيد عالي الكيلاني ووزارة جميل المدفعي. كان رستم حيدر ذا كفاءة عالية ويتمتع بحذاقة ومهارة وثقافة عليا، وله دوره في التكوين الاقتصادي والمالي للعراق فضلاً عن آرائه السياسية مشددًا على أن تكون المعارضة منصفة والنفقات من أجل مصالح البلاد وأن تطرح المشكلات للمعالجة، ومركِّزًا على ضرورة تقوية الصلات مع دول الجوار وعلى أهمية النفط كثروة وطنية ينبغي أن توضع في خدمة البلد ومصلحته.

كانت له أيضًا جهوده الحثيثة لحماية المصنوعات الوطنية وتشجيع إنتاجها وتطويرها، وقدم سنة 1930 لائحة قانون تعرفة الرسوم الجمركية من أجل تقليل الاستيراد للمواد الكمالية وتشجيع المنتوجات الوطنية. فضلاً عن أفكاره في استثمار بدائل المواد المستوردة من الناتج المحلي مثل استخراج السكر من التمور العراقية وتصديره. وتابع أيضًا وضع حلول ناجعة لمعالجة الأزمات الخانقة، ومعالجة المشكلات الاقتصادية، وطالب البرلمان بالعمل على محاربة الفساد ومحاربة الملذات وغلق الملاهي ومنع الإسراف، ووجوب إشراك جميع ذوي الخبرة في معالجة الأزمات الاقتصادية، وحارب أولئك الذين يتسلمون رواتبهم كموظفين مسيطرين على البلاد من دون واجب وطني. وكانت له خبراته المالية وخصوصًا في استعراضه لائحة قانون الميزانية العامة لسنة 1930، وكان صارمًا في مواقفه وخصوصًا في انتقاداته للسلوك الاقتصادي للوزارات السابقة. كما كان رستم حيدر يطرح دائمًا مشاريع الإنتاج وتشجيع الزراعة وتطوير الثروة الحيوانية ويدعو إلى إصلاح نظام الأراضي والعمل على تمليكها للفلاحين بعد تقسيمها إلى مقاطعات مناسبة. كما دعا إلى الاستثمارات الوطنية في تطوير الصناعات العراقية ونادى بالتوجه إلى التوفير في صناديق خاصة وشركات مساهمة كي يستفيد الجميع.

قال نوري السعيد عن رستم حيدر: «إن رستم حيدر، وهو وزير برئاستي، يتصرف معي تصرف رئيس الوزراء مع أحد وزرائه بلباقته ومهارته وعلمه وشخصيته المؤثرة». كان هذا المثقف عالي المستوى أحد أفضل الرجال التوكنوقراط بكفاءته في موسوعيته العلمية والفنية وخبرته ومراسه وابتكاراته، إذ يقف وراء تشريع العديد من القوانين والأنظمة العراقية التي أخذت طريقها للموافقة من جانب نواب الأمة، فهناك مثلاً: قانون جباية الديون المستحقة للدولة وقانون جباية ضريبة الأراضي وقانون نصف الراتب للموظفين التابعين

لقانون التقاعد المدني لسنة 1930 بهدف تحسين الوضع الاقتصادي وغيرها كثير[9]. ويبدو واضحًا أن بعض العراقيين قد كرهوا رستم حيدر لأنه لم يكن محسوبًا كوزير على أي رئيس للوزراء، بل كان عين فيصل عليهم. ويروي حكمت سليمان أن المذكرات التي كان يرفعها إلى الملك مباشرة، ينتقد فيها الوزراء على أدائهم! بل إن بعض الوزراء العراقيين كانوا يريدون كسب رضى رستم حيدر لينقل ولاءهم للملك، وكانوا مكشوفين حتى سمى حكمت سليمان بأن رجل البلاط هو رستم حيدر، ويقال أيضًا إن مذكرة فيصل الأول الأخيرة كان وراءها رستم حيدر وهو الذي كتبها. وبعد وفاة فيصل الأول، فقد رستم من كان يناصره ويؤازره، إذ حل محله علي جودت الذي وثق به الملك غازي الذي كان يحمل نقمة ضد رستم الذي بقي صلبًا بالرغم من عدم اكتراثه بما يحمل له من تقارير[10].

د ـ منجزات رستم حيدر في العراق

من أبرز منجزات رستم حيدر إبان مدد وزارته التي حمل حقائبها في ظروف عصيبة من حياة تكوين العراق الاقتصادي: تأسيس المصرف الزراعي بهدف تخليص الفلاحين من أيدي المرابين ووقوفه ضد تأسيس المصرف الوطني، إذ رأى أن لا أثر للوطنية فيه لعدم وجود رأسمال وطني لتمويل المؤسسة التجارية المهمة، مركّزًا على أن انبثاق مصرف كهذا برؤوس أموال أجنبية، معناه تسليم إدارته للأجانب الذين سيتحكمون باقتصاد البلد ويحتكرون العملة الوطنية العراقية، فدعا إلى التريث حتى تخلق طبقة من رجال الأعمال العراقيين وهذا ما تحقق فعلاً. ثم كان الرجل وراء تحرير النقد العراقي كضرورة للاستقلال الوطني، فكان وراء سن قانون العملة العراقية فأصبح الدينار العراقي وتوابعه بديلاً من الروبية المتداولة التي كانت حكومة الاحتلال البريطانية قد فرضتها. وكان خصومه يزدادون كثيرًا لأن أفكاره ومشروعاته لا تخدم مصالحهم ومضارباتهم. وكان رستم وراء مشروع استراتيجي اسمه مشروع الغراف وذلك بإقامة ناظم وسد على نهر الغراف، واعتقد بأهميته القصوى في نشر الرخاء وإصلاح أحوال البلاد الاقتصادية، وقد لقي التشجيع من الملك فيصل الأول. ورأى أن هذا المشروع سيفتح الباب أمام العراق لاستغلال مياهه استغلالاً أمثلَ من أجل مستقبل العراقيين في بنائهم النواظم والسدود وتنفيذ أعظم ثورة زراعية في المنطقة منذ ذلك الوقت، ولكنه فوجئ بالمعارضة الشديدة من لدن وزراء آخرين لأسباب

---

(9) سيار الجميل، «إنتلجينسيا العراق: النخب المثقفة في القرن العشرين،» الزمان (لندن)، الحلقة 33 (الصراع السياسي في العراق)، العدد 744، بتاريخ 7 ـ 2000/10/8.

(10) راجع ما كتبه: عبد القادر البراك، ذكريات أيام زمان، كتاب الاتحاد؛ 1 (بغداد: مطبوع تنشره جريدة «الاتحاد»، 1989)، ص 25 ـ 29 (موضوع «حكمت سليمان كما عرفته في آخر حديث له: ملك يتخفّى وراء رجل بلاطه!»).

سياسية وشخصية وإقطاعية، علمًا بأن رستم حيدر قد شجع زراعة الحنطة المحسّنة (العجيبة) في العراق وسن قانونًا لحمايتها، كما كان وراء إيجاد عدة لوائح وقوانين لتطوير قواعد علمية وعملية للحركة اليومية الاقتصادية، ومنها لائحة قانون الموازين والمقاييس والمكاييل، وقانون العلامة الفارقة ولائحة قانون الجمارك، وغيرها.

كان لرستم حيدر دوره المؤثر في التربية والتعليم أيضًا، إذ كان يرى حاجة الأمم إلى الثقافة والعلم بعد الخبز، وكان يشير إلى مخاطر ارتفاع نسبة الأمية في البلاد، وكان قد كتب رسالته التي ضمنها آراءه في إصلاح التعليم وضرورة بنائه على أساس من التفكير المستقل والعملي وإشاعة عدم الترفع عن استخدام المحراث إلى جانب القراءة والكتابة بدلاً من تخريج جيوش اتكالية محشوة أدمغتها بنظريات غير مجدية. اجتهد الرجل في وضع معالجات رائعة في الوحدة الوطنية، ومنها العلاقة بين العرب والأكراد، وأشار إلى عراقية الدولة والمجتمع ووحدة الشعب واحترام الدستور وإشاعة الاستقرار... وعد الجيش سلمًا للاستقرار باعتباره مدرسة فكرية وتربوية وجسمية والواجب تقويته وتطويره. كما دعا إلى استقلال القضاء استقلالاً تامًا وناجزًا، وهاجم الامتيازات الأجنبية وعدًّها سيئة عظمى في حياة الأمم الشرقية وطالب بالعمل على التخلص من قيودها. كما دعا إلى إشاعة روح الانضباط والالتزام بين موظفي الدولة مشددًا على الكفاءة ليس من خلال الشهادة العلمية فقط، بل هناك الخبرة والتجربة في حياة المجتمع، ودعا إلى محاربة المحسوبية والمنسوبية وسيادة تكافؤ الفرص وشدد على صيانة الحريات ونادى بالديمقراطية والمساواة وتطوير البلديات والخدمات. وكانت له رؤيته المستقبلية في حقوق العراق النفطية[11].

هـ ـ مواقف رستم حيدر وأفكاره

يعد الخطاب الذي ألقاه رستم حيدر على نواب الشعب إبان توليه رئاسة اللجنة المالية (بعد عودته إلى العراق إثر خروجه منه مكرهًا بعد انقلاب بكر صدقي سنة 1936، إذ كان الانقلابيون قد حاربوه وفرضوا عليه رقابة شديدة) والذي نشر في جريدة **العالم العربي**، وثيقة مهمة فصّل فيها رستم تفصيلات وافية عن الحالة التي وصل إليها الاقتصاد العراقي أيام حكم الانقلابيين الذين دمروا سمعة البلاد وأفقروا الخزينة وسحبوا السلف من المصارف الأهلية... إلخ. وقدم مقترحات عملية للخروج من الأزمة التي أضاعت سمعة

(11) انظر: رستم حيدر، مذكرات رستم حيدر، تحقيق نجدة فتحي صفوة (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988)، ص 134 ـ 170.

العراق، تتعلق بقضايا الإنتاج وإعادة الديمقراطية وتكريس الحريات وفرض سيادة القانون ومعالجة التذمر الاجتماعي، وأن ذلك كله لا يتم إلا من خلال إرساء مقومات أساسية ثلاثة كأسلوب في إعادة البناء، هي: إعادة الحيوية للحياة الاقتصادية العراقية بتقليل الإنفاق العام بالاعتماد على الإنتاج العام، ثم التحرر من الانكماش الذي أصاب الحياة النيابية العراقية والعمل على ممارسة الحريات ضمن سيادة القانون، والحاجة إلى القيادة الحكيمة التي تعيد الثقة إلى النفوس بالارتفاع عن أي من الاتجاهات لضمان الولاء السياسي للمجتمع العراقي نحو مؤسسات الدولة من أجل تحقيق الأهداف النبيلة.

وعلى الرغم من أن الدولة العراقية كانت قد أولته كامل الثقة والتقدير، وكان المجتمع العراقي برمَّته يحترمه ويعتز بقدراته ومؤهلاته وتاريخه، «ويبدو للباحث بوضوح ما كان يتمتع به رستم حيدر من قدرة فائقة وظفها في بناء تكوينات العراق الاقتصادية، ومقدار خبرته بجغرافية العراق وبيئاته ومناطقه المهمة، قبل أن تمضي عليه فيه عشر سنوات فقط. وكان لا بد لمشروعه أن يتحقق ليشكل بعد ذلك نواة اقتصادية حقيقية لثورة زراعية وإروائية وصناعية في العراق... ولا يخفى ما كان يهدف إليه رستم حيدر من مقاصد نبيلة وحيوية، فثمة آخرون لم يعنِهم من أمور العراق الوطنية والمستقبلية إلا ما يشبع نزعاتهم الذاتية، ويرضي مصالحهم الخاصة أو أفكارهم السياسية المعينة، ولا يتورعون عن التصدي لرستم حيدر وأمثاله وينالون منهم بالنقد والتجريح... وهذا ما تحقق لهم بعد إبعاد رستم عن وزارته، والحيلولة دون تحقيقه لمشروعه في تحديث العراق».

2 ـ ساطع الحصري: التأسيس التربوي الحديث

أ ـ شخصيته

يعد ساطع الحصري أحد أبرز الشخصيات الريادية في الفكر القومي العربي المعاصر، وقد حظي العراق بخدماته الواسعة في التكوين التربوي لأجهزة التعليم ومؤسساته إبان عهد الملك فيصل الأول، ولكن لم يتمتع بأية مرونة تذكر في التعامل مع المثقفين العراقيين المتنوعين والكثيرين. ينتمي ساطع إلى أسرة حلبية كما هو رائج، وقال عن نفسه إنه ولد في اليمن بحكم وظيفة والده. وقد عُرف عنه بأنه درس في إسطنبول وغدا مثقفًا عثمانيًا وتولى مناصب عديدة، وزار أوروبا لدراسة النظم التربوية الحديثة، ثم نشر فكره الإصلاحي الذي ينزع فيه نحو العلمانية وبقي مواليًا للعثمانيين لكنه كان يحمل فكرًا قوميًا عربيا واضحًا.

وقد أسس لفكرة القومية العربية بعد عودته إلى دمشق عام 1919 ليخصص فكره ومواهبه وجهوده لها[12].

ب ـ وصوله إلى العراق

تعرف إلى الملك فيصل إبان محنته وغربته سنة 1920 في إيطاليا ثم ذهب إلى القاهرة، وما إن أعلنت الملكية في العراق حتى دعاه فيصل إليه بعدما كاتبه الحصري، فرحب العراقيون به بحرارة، والتقى بزملائه القدماء من عراقيين وعرب الذين كان قد تعرف إليهم في دمشق، ولكنه تجنب العمل السياسي والحزبي لكي يكرس جهوده كاملة لضمان تأسيس نظام تربوي عراقي رصين ومستحدث بتنصيبه مديراً عامًا للمعارف العراقية (التربية)، وقد مُنح صلاحيات واسعة مع حصانة في الموقع الإداري والصرف المالي بعيدًا من التبدلات في الحكومة. وكان يؤمن بأن هناك سياسة ثانوية متبدلة مع المواقف، وسياسة عليا لها ثوابتها الوطنية والقومية وركائزها في بلوغ الأهداف، فكان الرجل مجددًا ومربيًا، وخصوصًا أن العراق قد غدا موطنه الحقيقي، وأنه شعر بنفسه مسؤولاً فيه مسؤولية كاملة على أخطر جهاز لتكوين مستقبل أبناء العراق هو جهاز التربية والتعليم وخصوصًا وضعه لمناهج تربوية ثبت نجاحها وكان على رأسها القراءة الخلدونية.

بقيت كلمته نافذة في العراق على مدى عقدين كاملين من السنين، أي بين 1921 1941 من أجل أن يبني عند الأجيال التربية والتعليم، ولكن بلباس عربي قومي واضح شديد الوضوح. وكانت لساطع الحصري ثقافته المدنية المعلمنة، التي كرسها لتأسيس تقاليد مدينية ومتطورة ومنفتحة الاتجاهات بعيدًا من التعصب تجاه أي طرف من الأطراف.

ج ـ الحصري: مؤسس النظام التعليمي في العراق

ويعَدّ ساطع الحصري مؤسسًا لنظام التعليم الحديث في العراق المعاصر بعدما عارض سياسة همفري بومان التي وضعها عام 1919، وعارض أيضًا سياسة جيرم فارل الذي تولى المسؤولية ما بين 1920 و1922 مستشارًا لمعارف العراق. رفض الحصري خطط الإنكليز، وشدد على وضع نظام تعليمي كما صرح بذلك أكثر من مرة يرتبط بأحوال العراق الاجتماعية والفكرية وبظروفه التاريخية القومية. وهنا مجرد ربط أي نظام تعليمي بالعراق بأية فلسفة معينة أو أيديولوجية سياسية أو غير ذلك سيولد كوارث مستقبلية، وهذا ما حصل

---

(12) وليم كليفلاند، **الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ترجمة فكتور سحاب (بيروت: دار الوحدة، 1983)، ص 12 ـ 34.

فعلاً!! وهنا أستطيع القول بأن فرقًا كبيرًا نجده بين هاتين الشخصيتين: رستم حيدر وساطع الحصري، إذ كان الأول رجلاً عمليًا براغماتيًا يؤمن بالتفكير التربوي والتعليمي المستقل في حين كان الثاني رجلاً إصلاحيًا مثاليًا ينزع لبناء تفكير قومي أيديولوجي صارخ... كيف؟

كان ساطع الحصري صلبًا في إدارته للتربية والمعارف العراقية (1923 ـ 1927)، فأُطلق عليه أبو التربية الرسمية في العراق، كما ساهم في بناء نظام دار المعلمين ودرس فيها أربع سنوات، وأسس مجلة **التربية والتعليم**. كما كان مسعاه في سياسته التربوية تضييق المبادرة الفردية، وتوسيع مجال العقيدة الوطنية/ القومية (وجعل تدريس التاريخ العراقي والعربي على النحو الذي يذكي المشاعر القومية الصارخة عند الطلبة)، وكان يجهد نفسه في إيجاد مدرّسين من أعلى طراز، منتقدًا بحدة مدرّسي الدين التقليديين وعلمهم الضحل وقدراتهم الضعيفة، فلم يتردد في إحضار مدرّسين عرب أكفاء، فاستهدفه النقد المرير، فارتفع المستوى التربوي العام في العراق، وترسخت فيه النزعة الوطنية، كما وتوطدت فيه الممارسة القومية القوية، وتُرجمت على الأرض في المدارس والمعاهد من خلال الكشافة في الابتدائيات والفتوة في الثانويات بحيث يخضع جميع الطلبة للتدريب العسكري الميداني في عطلهم الصيفية، وبدت الحصرية في المعارف (التربية والتعليم) العراقية قد أفادت مستقبل العراق في القرن العشرين[13].

أوضح لي محمد فاضل الجمالي أنه اصطدم مع الحصري لأسباب عديدة، وبسبب عروبة ساطع وعلمنته، كما وقف ضد رجال الدين المتعصبين في مؤسسة جامعة آل البيت، وقال بفصل العلوم الدينية عن الدنيوية من أجل تأسيس جامعة علمية حديثة، الأمر الذي أثار رجال الدين ضده، فاتهموه بعدة تهم لا أساس لها من الصحة أبدًا، والعكس صحيح، إذ اعتقد أن الفضل يعود للحصري تاريخيًا في تكوين جيل عراقي مبدع في كل حقول العلم والأدب والفن على امتداد القرن العشرين[14].

د ـ منجزات الحصري وأنشطته

كان من أبرز منجزات ساطع الحصري أثناء توليه منصب معاون وزير المعارف:

---

(13) للتوسع في هذا المجال، انظر: عبد الله عبد الدائم، «الفكر التربوي عند ساطع الحصري،» **المستقبل العربي**، السنة 22، العدد 244 (حزيران/يونيو 1999)، ص 139 ـ 141.

(14) هذا ما قاله لي بالنص الأستاذ الراحل فاضل الجمالي في أكثر من مرة رأيته فيها بداره أو في معهد الدراسات الاقتصادية في تونس، وفي مناسبات عديدة خلال عام 1984 وعام 1986 وعام 1990. انظر أيضًا: الجميل، **جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية اسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل**، ص 172 ـ 176.

إصدار قانون مجالس المعارف في الألوية، وإصلاح وتنظيم التعليم الابتدائي وفق منهج يقترن أساسًا بالتوجهات القومية واضحة المعالم، وإسهامه في إيجاد نظام «دار المعلمين» القاضي بأربع سنوات دراسة، وتأسيس مجلة **التربية والتعليم**، وإقناعه فيصل الأول بعدم جدوى تكثير دور المعلمين كونها مسألة تضرّ بمصلحة العراق لعدة أسباب، منها: أن دار المعلمين ببغداد بحاجة إلى إصلاح، وأن مهام دور المعلمين لا تقتصر على تدريس العلوم والآداب، بل ينبغي تعليم طرائق التدريس وفنون التربية، وهذا بحاجة إلى أساتذة ومتخصصين ومطبّقين، وأن تأسيس دور للمعلمين في الموصل والحلة وغيرهما سيؤدي إلى ترسيخ النزعة الإقليمية عند الطلبة في طول البلاد وعرضها وبين مختلف الفئات الاجتماعية. في حين أن المركزية تجمعهم على التعلق بالنزعة الوطنية. من جانب آخر، أذكى ساطع الحصري في العراق المشاعر القومية في سياسته التربوية متخذًا من مادة التاريخ وسيلة أيديولوجية للتأثير في عواطف الناشئة في المدارس الابتدائية وفي مشاعر الشباب في المدارس الثانوية[15].

هـ ـ أبرز أنشطة الحصري في العراق

من أبرز أنشطة ساطع الحصري مساهمته في معالجة أزمة المساعدات المالية للمدارس غير الرسمية، ووضع منهج جديد للدراسة الابتدائية، وإعادة تأليف مجالس المعارف في العراق، وتأسيس دار المعلمين العالية وتنظيمها ببغداد ومشروعه لنظام المدارس الأهلية والأجنبية وإصلاح نظام مدرسة الهندسة ومحاولة تطوير التعليم المهني الصناعي وموقفه السلبي من تأسيس الجامعات ومن ذلك معارضته الشديدة لجامعة آل البيت التي تأسست ببغداد، وعضويته في إصدار نظام كلية الحقوق لسنة 1928 وعضويته في لجنة الأنظمة المدرسية ودوره في إصلاح نظام التفتيش ونقده تقرير لجنة مونرو الذي اتهم ساطع الحصري اتهامات شتى، وخصوصًا ما يتعلق بسياسته ومركزيته وعمله لتفكيك الوحدة الوطنية وسياسته في الوزارة واحتكاره للرأي الواحد... إلخ. من الانتقادات الأخرى للحصري... وجه رئيس لجنة مونرو التي أسميت على مسماه (البروفيسور مونرو الذي زار العراق سنة 1932 ودرس أوضاع العراق التربوية) انتقادات صارخة للحصري وسياسته وآرائه! ومن آثار الحصري الأخرى وضعه للخطة الخمسية إلى وزارة المعارف سنة 1936، ثم تأليفه للقراءة الخلدونية، وله مقالاته في مجلة التربية والتعليم التي أصدرها في العراق

(15) الحصري [أبو خلدون]، مذكراتي في العراق، ج 1: 1921 ـ 1941، ص 440 ـ 447.

بين سنتَي 1928 ـ 1930[16]، ثم جهوده أثناء إدارته لدائرة الآثار القديمة في العراق في إثر إخراجه من وزارة المعارف العراقية، وقد نظمها وكان وراء تأسيس العديد من المتاحف الأثرية، ويقال إن الفضل يعود إليه في تصميم بوابة وزارة الدفاع العراقية القائمة حتى اليوم... كما كان قد اشترك في تأسيس جمعية الكشافة العراقية إلى جانب جميل الراوي وطه الهاشمي ورشيد الخوجه وسامي شوكت. كما اهتم ساطع بالطفل وشدد على مرحلته المبكرة الأولى.

و ـ نهاية ساطع الحصري

كانت لساطع الحصري أسفار إلى عدة بلدان أجنبية وعربية خلال الثلاثينيات، وذاع صيته عربيًا من خلال محاضراته وآرائه وتوغله القومي، وكان يرى أن يعتمد المجتمع على الدولة في كل شيء مع إنشاء النوادي واللجان والهيئات والحياة الحرة، وقد اتهم بالتعاون مع رشيد عالي الكيلاني والعقداء الأربعة في ثورتهم عام 1941، فجرد بعد ذلك من الجنسية العراقية بعد مغادرته إلى سورية، ثم عاش في لبنان ومصر بقي يعتز بالعراق ويحن إليه حتى رجع إليه لكي يموت في بغداد عام 1968. لم يسلم الحصري من الانتقادات حتى بعد وفاته، فالمؤرخ عبد الرزاق الحسني قال إن «الدعاية في تمجيد ساطع الحصري أكثر من حقيقته»، ولكن أشرس هجوم تلقاه الحصري كان من الشاعر العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري الذي صادفته مشكلة مع الحصري، وبرغم تفاهة أسبابها، إلا أنها قد توالدت عنها مواقف واتهامات بين الطرفين، وما كان على ساطع الحصري أن يفكر بطريقة كهذه وهو يعيش في قلب العراق، ومع واحد من الشعراء العرب من الشباب المبدعين منذ ذلك الوقت.

رابعًا: الحاشية الملكية

إذا كان معروف الرصافي قد وصف حاشية فيصل بـ «المخانيث» أو غير ذلك من الكلمات والتعابير غير اللائقة في قصائده أو كتاباته[17]، فإن الحقيقة لا تدل على ذلك، وكل الاتهامات تأتي لأسباب سياسية ونوازع شخصية. فالملك فيصل الأول كما نعرف اختار حاشيته في حكمه لسورية وحكومته الفيصلية هناك من أبرز العراقيين أمثال: جعفر

(16) إبراهيم خليل أحمد، **تطور التعليم الوطني في العراق، 1869 ـ 1932** (البصرة: مطبعة جامعة البصرة، 1982)، ص 49 ـ 68.

(17) معروف الرصافي، **الرسالة العراقية في السياسة والدين والاجتماع يليه كامل الجادرجي في حوار مع الرصافي** (كولونيا؛ بيروت: دار الجمل، 2007)، ص 120.

العسكري وياسين الهاشمي، ومن أبرز الشخصيات العربية المتميزة بكفاءتها وثقافتها العالية وحرفيتها المهنية؛ أمثال سكرتيره الخاص ورئيس ديوانه رستم حيدر، وهناك مرافقه الشخصي ثم رئيس تشريفاته تحسين قدري، وناظر الخزينة الملكية الخاصة صفوت (باشا) العوّا، ومعاون رئيس الديوان الملكي أمين كسباني وعبد الله الحاج، وطبيبه الخاص أمين (باشا) المعلوف وقبله أحمد قدري، وقد اختار له مدرسًا يدرسه اللغة الإنكليزية هو إبراهيم الدباس. وأمين كسباني الذي نصبّ معاون مدير التشريفات الملكية. فمن هو هذا الأخير؟

1 ـ أمين كسباني: شخصية مهمة

أ ـ من يكون؟

جاء في تقرير مهم كتبه أحد الأمريكيين ونشره في واحدة من الصحف الأمريكية عام 1927 أثناء زيارة شخصية قام بها أمين كسباني للولايات المتحدة الأمريكية لرؤية أخيه سليم كسباني: «السيد كسباني طويل القامة، له أرداف رباعية، وهو رجل في العقد الخامس من العمر، ولكنه يبدو أنه أكبر من عمره، أصلع الرأس جزئيًا، ولكن شكله يوحي بإضافة نحو عشر سنوات لتقدير المرء. كان لطيف المعشر، ويبدو وسيمًا ووقورًا، ويبتسم بعينين واسعتين. ولد في لبنان، وفي ضواحي بيروت، ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت، حتى حصوله على درجة البكالوريوس في عام 1920 حيث تم استدعاؤه إلى منصبه الحالي من جانب الملك فيصل في 1921، عندما كان هذا الأخير يحضر مؤتمر السلام بباريس، وقال إنه عاش في مانشستر بإنكلترا، ولكن لديه كشوفات كثيرة، بعد أن زار الجنوب وأمريكا، وشمال أفريقيا وأوروبا ومعظم أجزاء من آسيا، والولايات المتحدة الآن ويتوقع أنه سيبقى بضعة أشهر. إنه ينتمي إلى المسيحيين البروتستانت، والأسرة التي تم تحديدها في وقت مبكر نفسه تتوافق مع مساعي المبشرين الأمريكيين الثقافية»[18].

إن أمين كسباني مثقف نهضوي لبناني كبير لم يأخذ حقه من العناية التاريخية حتى الآن. كان بارعًا وذكيًا وقد برع في العلوم الإدارية ويمتاز برؤيته السياسية العميقة. هو من أهالي كفرشيما، وله دوره في السياسة وحصل على مكانة متميزة لدى الأسرة المالكة

(18) انظر: The Editor, «Motorcars Supplant Camels: In Arabian Desert Traffic, Says Irak King's Secretary,» *The Brooklyn Daily Eagle* (New York), 1/5/1927.

بريطانيا، فنصّب أمين سر الملك جورج ملك بريطانيا العظمى، وكذلك عمل مستشاراً للملك فيصل الأول. وأمين كسباني أصله من بلدة كوسبا في شمال لبنان، وهو من عائلة بروتستانتية تجارية وكان أبوه تاجراً موسراً، أنجب عدة أولاد ومنهم إبراهيم وخليل ونجيب وكان أمين أحدهم، واشتهرت أخته هناء كسباني بالأدب والشعر بعد تخرجها في كلية البنات التابعة للجامعة الأميركية في بيروت، وتوفيت شابة قبل الثلاثين جراء إصابتها بمرض السل، ويقال إنها كانت قد حصلت على جائزة من السلطان عبد الحميد الثاني بسبب أنشطتها الفعالة من أجل المرأة وحقوقها[19]، وكانت قد اقترنت بأحد أبناء آل كوراني في لبنان. درس أمين في الجامعة الأميركية في بيروت، ثم سافر إلى إنكلترا لينضم إلى الجالية اللبنانية الواسعة في مانشستر، ودرس فيها وكان أخوه الآخر تاجراً كأبيه وله أخ هاجر إلى المغرب وأصدر صحيفة فيها، ثم هاجر إلى أمريكا ولحق به أخوه الآخر. لم يتزوج ولم يتبقّ من آل كسباني اليوم إلا بعض الأفراد القلائل. كان فيصل قد التقى بأمين في بريطانيا وأُعجب بأفكاره وإمكاناته، فانضم إليه واصطحبه معه إلى الشام والعراق. حدثتني الزميلة هدى حوا عن أمين كسباني كونه عمّ والدتها وقالت إنه من جيل النهضويين عند مطلع القرن العشرين، وكان فكره ليبراليًا تغريبيًا[20].

ب ـ العراق في ظل فيصل كما رآه أمين كسباني

من النوادر التي وقفت عليها مقابلة صحافية جرت مع أمين كسباني في صحيفة أمريكية كانت تصدر في نيويورك عند زيارته للولايات المتحدة الأمريكية زيارة غير رسمية عام 1927 لأخيه سليم كسباني، وقد جاء في المقابلة ما سجلته الصحيفة على عهد فيصل الأول بقلم اج. أف. كاتجباي، إذ قال:

إن العراق وفقًا لما قاله السيد كسباني هي بلاد متجهة نحو التحديث، ويبدو الرجل أكثر شخص متحمس في العراق لاعتماد الطرائق الغربية للتنمية الاقتصادية وإصلاح التعليم حاضرها. ويعَدّ الملك فيصل قائدًا عربيًا حقيقيًا وصديقًا للحضارة الغربية والفكر المتقدم من أي رجل آخر في العراق. وينقل عن السيد أمين كسباني، قوله إن «الملك فيصل هو المسؤول عن التقدم السريع الذي حصل في العراق، فهو زعيم ديمقراطي بكل

(19) حدثني عنه الأستاذ المؤرخ ألبرت حوراني بتاريخ 2 حزيران/يونيو 1977 في كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد ـ بريطانيا؛ والمعلومات عن أمين كسباني أمدّني بها كل من أستاذنا المؤرخ ألبرت حوراني، في مكتبه بكلية سانت أنتوني ـ جامعة أكسفورد تموز/يوليو 1977.

(20) من حديث مع هدى حوا، التي لها صلة قرابة مع آل كسباني في بيروت 2012.

معنى الكلمة، وإن ملكيته دستورية ولم يزل مستمرًا في خدمة القضية العربية كما كان قد خدمها في أي وقت مضى، ومنذ توليه الحكم وقف ضد الحكومة التركية في العمل لقيادة العرب والحفاظ على حقوقهم التاريخية والجغرافية. ولم يعد هناك أي تمرد في الصحارى العربية»[21].

وأضاف بقوله: «إن فيصل قد كرس جهده كليًا لمهمته في تحسين ظروف العراقيين والحفاظ على أرض العراق، وإنه خلال السنوات الخمس الأخيرة قد حقق نجاحات رائعة. وقال إنه أنشأ الديمقراطية بتأسيسه حكومة وطنية ممثلة بوزارة مسؤولة ومجلس نيابي ومجلس أعيان من خاصة القوم، وأن الحكومة مهتمة في المشاريع الاقتصادية وتشجيع الزراعة ومشروعات الري وتأسيس مصنع للأصواف، وشركات الغزل ونسج الصوف، وقد تم تأسيسها قبل عامين في بغداد تحت رعاية الملك. لدى فيصل أيضًا مشروع تشجير التلال وغيرها من الأراضي التي لا تصلح لأية زراعة. كما أن فيصل بدا مهتمًا قبل أي شيء بجعل نفسه راعيًا سخيًا للحياة المدنية والتعليم والمدارس في كل العراق على غرار ما جرى في بغداد وتطبيق مبادئ تربوية تقدمية»[22].

لقد ألقى السيد كسباني أضواء مثيرة جدًا للاهتمام، ومنها التخلص من وهم شائع يقول بأن بريطانيا العظمى قد أعطت اسميًا العراق شكلاً من الحكم الذاتي. ولكن من يعود إلى المعاهدة البريطانية ـ العراقية القائمة، فسيجد أن لا أساس من الصحة أبدًا لهذا التصريح، ذلك أن ضمان استقلال العراق يكمن في حاجته إلى حماية من كل الاتجاهات. على الشمال ثمة خطر من هجوم يشنّه الأتراك، وفي الشرق ثمة مخاطر من جانب الفرس الإيرانيين، أما في جنوب وغرب البلاد فهناك هجومات متواصلة من جانب ابن سعود وأنصاره. وكان لبريطانيا موقف حازم إزاء تلك الاتجاهات، ولم يزل الأتراك غير راضين على ما حدث حتى الآن في السيادة الخاصة بهم للعراق. ويتابع كسباني قوله: إن العراق وفقًا لرؤيته يتبع سياسة واقعية وسيكون حتى الاستقلال أكثر واقعية من مصر. بالنسبة إلى مصر هي تقريبًا تحت الاحتلال العسكري، على الرغم من تأليف حكومة وطنية يحاول الإنكليز تجاهلها. أما في العراق، فإننا نجزم أن قوته السياسية والوطنية أكبر بانحسار النفوذ الإنكليزي... وقال: «لقد انسحبت القوة البريطانية، وإن 1000 من المشاة قد انسحبوا من

---

(21) قارن بـ: The Editor, «Motorcars Supplant Camels: In Arabian Desert Traffic, Says Irak King's Secretary».

(22) Ibid.

العراق، وإن الأمن في البلاد موجود الآن، وللعراق جيش وطني مع وجود قليل من الضباط والطائرات الإنكليزية، وإن المستشارين في العراق يتكلمون الإنكليزية فيما بينهم فقط من أجل توظيف حكومي مشترك بين الحكومتين كما تم الاتفاق على ذلك. ونفى أمين كسباني أن فيصل ليس مجرد ختم من المطاط، فهو يتمتع حسب رأيه المؤكد باستقلالية كونه يقف على قدم المساواة إزاء الإنكليز، وهو الند للند لهم. وعليه، فهو بريء من كل التهم التي توجّه إليه. إنه ليس مجرد صورة بريطانية وضعت في العراق، بل إن الملك فيصل واحد من أكثر الشخصيات الجذابة في العالم كما يصفه علماء الاجتماع، بدليل تنفيذ ما يصممّه ويقدم على صنعه، وهو قبل أي شي رجل وطني. وأكد السيد كسباني بأن ذلك من الأمور البديهية التي لا يمكن حتى التفكير فيها. إن تفكير فيصل يتضمن سياسة عرفت به وتختزل بـ «مقايضة المصالح» (أي: خذ وطالب) وإن المصالح الشعبية عنده تتقدم قبل أي مزايا أخرى[23].

خامسًا: الحكمة في حكم فيصل الأول

كان فيصل قد عرف بين العراقيين من جراء تعامله مع طلاب العلم العراقيين في إسطنبول أيام تكوينه الأول، ثم كانت له تجربته الزاخرة مع الضباط العراقيين أثناء قيادته الجيش العربي ضد الأتراك الاتحاديين عام 1916 ولأكثر من أربع سنوات حتى فتحه دمشق وتشكيله الحكومة الفيصلية واشتراكهم معه فيها، إذ نصّب قادتهم في مناصب مهمة وخطيرة في الحكومة الفيصلية العربية بدمشق عام 1920، فضلاً عن دعمه الثوار من الضباط العراقيين الذين حاربوا الإنكليز انطلاقًا من دير الزور نحو الموصل وتلعفر وما حققوه من نجاحات ضدهم في أيار/مايو 1920. لقد عرف فيصل العراقيين من تعامله مع ضباطهم لعدة سنوات، فقد كان هو الأقدر على فهم الأوائل الذين كانوا مثالاً للنظام والانضباط والحرفية والوطنية، وهذا ما رآه فيهم وما لمسه منهم، وما وجده معهم منذ أيام الحركة العربية واعتماده على جلّهم في تحقيقه النصر على الاتحاديين الأتراك في الثورة العربية الكبرى عام 1916. كما أنه لم يكن منحازاً إلى أي طرف عراقي دون أي طرف آخر، فلم يكن طائفيًا ولا مذهبيًا ولا عشائريًا ولا جهويًا ولا عنصريًا... إلخ. كان قد جعل الجميع في مرتبة واحدة، وتعامل معهم تعامل أبناء وطن واحد. احترم الجميع عربًا وأكرادًا وتركمانًا وسريانًا وكلدانًا وآثوريين ويهودًا وصابئة ويزيديين وسبتيين... فهو لم يمّيز بين عراقي وآخر

---

(23) Ibid.

لأي سببٍ كان. ويبدو أن هذا «الجانب» قد خدم العراق كثيراً، وخصوصًا في تأسيسه لكيان سياسي موحّد تشغله هيئة اجتماعية واحدة. وكان هذا من حسن حظ العراق والعراقيين بديلاً عمليًا ونافعًا مقارنة بزعيم من نوع آخر لم يمتلك مزايا فيصل. إن كل المرشحين للعرش في العراق ما كانوا مؤهلين لحكم العراق أبدًا، بسبب ضيق أفق تفكير أحدهم، أو تسلُّط وانفرادية أحدهم الآخر، بل وطائفية ثالثهم وشيخوخته! وعثمانية المرشح الرابع ونزعته العسكرية! كان فيصل الأول هو المؤهل الحقيقي لبدء العراق مشروعه التاريخي الحديث على يديه، وقد حقق خلال زمن قصير جدًا إنجازات تاريخية لم يستطع غيره إنجازها[24].

سادسًا: المثقفون العراقيون والتكوين السياسي: التمفصل المزدوج (Double Articulation)

لقد قامت المملكة العراقية الحديثة 1921 ـ 1958، على أساس رفض الأساليب العثمانية السابقة ومرتكزاتها القديمة التي كانت تقوم عليها الولايات العراقية، تلك الولايات التي ظهرت بصورة دولة مركبة. لقد ولد النظام الملكي العراقي في خضم حكم السيطرة البريطانية (الانتدابية)، بعد احتلال الإنكليز العراق خلال الحرب الأولى (1914 ـ 1918) (على مراحل صعبة من التقدم ضد المواجهة العسكرية العثمانية: البصرة 1914؛ الكوت 1916؛ بغداد 1917؛ الموصل 1918)[25]. انبثقت شرعية النظام الملكي عن استفتاء شعبي شكلي بعد المناداة لفيصل بن الحسين كي يتولى عرش العراق، وفي إثر مؤتمر القاهرة في 9 آذار/مارس 1921، كي يتسلم فيصل مسؤوليات الحكم في حفل تنصيبه على عرش العراق ببغداد في اليوم المصادف 23 آب/أغسطس 1921.

---

(24) لا يمكن الكتابة عن فيصل الأول من دون الإشارة إلى أهم ما كتب عنه عراقيًا، ويمكنني أن أذكر المراجع المهمة التالية: عبد الأمير هادي العكام، **الحركة الوطنية في العراق: 1921 ـ 1933م** (النجف: مطبعة الآداب، 1975)؛ محمود شبيب، **حكايات تاريخية عراقية: تجسس، حرب، سياسة** (بغداد: مكتبة الثقافة، 1987)؛ كاظم نعمه، **الملك فيصل الأول والإنكليز والاستقلال** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988)؛ عبد المجيد كامل التكريتي، **الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة، 1921 ـ 1933** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991)، وغازي المرسومي، **البلاط الملكي في العراق ودوره في الحياة السياسية، 1921 ـ 1933** (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).

(25) إن أبرز من وضع تفاصيل الاحتلال البريطاني، هو: محمد طاهر آل المصيب العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، 3 ج (الموصل: مطبعة عيسى محفوظ، 1924)، ج 1، الفصل الثالث، ص 89 ـ 161.

جاء الانبثاق السياسي الجديد في العراق، كي يرفض ما خلفته العهود التاريخية السابقة، وخصوصًا بقايا المركزية العثمانية ومرتكزاتها القائمة على: الولاء لـ«الخلافة» المستحدثة في عهد عبد الحميد الثاني، والتبعية المركزية للسلطنة التي كانت لم تزل قائمة في الأذهان حتى بعد ذلك العهد. لقد واجه العهد الجديد ركامًا من التعقيدات السياسية والاجتماعية التي خلقتها المداخلات الاستعمارية للإنكليز على أرض العراق، وبدأ مثقفو العراق إلى جانب سياسيه وعسكريه من رعيل جيل المخضرمين العثمانيين، في بناء الإدارة الجديدة والتكوين الحديث والتحركات المرتبطة ارتباطًا كاملاً بالمستشارين البريطانيين[26]، وعمدت المملكة العراقية إلى وضع قوانين جديدة، وإجراء إصلاحات جذرية[27]، وإقرار دستور للبلاد عام 1925[28]، ودار السياسة العراقية في فلك التحالف مع بريطانيا ردحًا قاسيًا من الزمن بصيغة المعاهدات بين الطرفين (معاهدات: 1922؛ 1926؛ 1927؛ 1930م..)[29] التي حفظت بريطانيا من خلال بنودها جملة كبيرة من المصالح على حساب العراق وكاهل شعبه.

يتذكر الجيل القديم من المثقفين العراقيين، كيف تلاشت أمام أعينهم تلك القيم التقليدية المتوارثة عن العثمانيين، وحلت محلها قيم جديدة بعد الكينونة السياسية العراقية. لقد قامت مرتكزات النظام الملكي العراقي على مبادئ جديدة، منها ما أعلن على الملأ، ومنها ما أخفي عن الشعب والإنكليز معًا، فهناك: الملكية، وحصرها بـ«العرش الهاشمي»، أي للملك فيصل ولأولاده وأحفاده من بعده، ثم الدولة المكونة على النسق الأوروبي ترتبط جميع السلطات فيها بـ«الدستور» ثم التآخي بين أبناء الشعب العراقي الواحد داخل إطار من الوحدة الوطنية، ثم التحالف مع الإنكليز. وتقوم أيديولوجية الدولة في طبيعتها على الحياة الليبرالية بتعدد الأحزاب وحرية الصحافة والبرلمان[30]. وهناك مبدآن أساسيان

---

(26) مراجعة تفصيلية لـ: «تقويم العراق» لسنة 1923 (دائرة معارف عامة)، أصدرته «إدارة العراق» ومن وضع قلم تحرير العراق، السنة الأولى، بغداد، 1922.

(27) انظر: عبد الرحمن البزاز، **العراق من الاحتلال حتى الاستقلال**، ط 3 (بغداد: مطبعة العاني، 1967)، ص 121 ـ 141. انظر وجهة النظر البريطانية عند: Stephen H. Longrigg, *Iraq, 1900 - 1950: A Political, Social, and Economic History* (London; New York: Oxford University Press, 1953), pp. 19 - 49, and Philip W. Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London; New York: Macmillan Co., 1937), pp. 32 - 68.

(28) انظر: نص القانون الأساسي العراقي عند: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ العراق السياسي الحديث**، ط 2، منقحة (صيدا: مطبعة العرفان، 1957)، ج 1، ص 220 ـ 240. انظر أيضًا شرح الدستور عند: مصطفى كامل، **شرح القانون الأساسي العراقي** (بغداد: مطبعة دار السلام، 1947).

(29) انظر تفاصيل بنود المعاهدات العراقية ـ البريطانية عند: الحسني، المصدر نفسه، ج2 .

(30) كامل، المصدر نفسه، ص 67. وانظر مقارنًا: منذر الشاوي، **القانون الدستوري والمؤسسات الدستورية في العراق** (بغداد: منشورات مركز البحوث القانونية، 1970).

اتبعتهما الخطط التكوينية العراقية بالنسبة إلى بناء الدولة الجديدة كأيديولوجيا مختفية عن العلن، أولهما: القومية التي لم تعلن مبادئها ومرتكزاتها تخوفًا من سطوة السياسة البريطانية المهيمنة، وثانيهما: العلمانية التي لم تعلن بخطوطها وأساليب العمل بها، تخوفًا من سلطات اجتماعية مزروعة في اللاوعي، وتتحكم بها (رجعية) التفكير القديم[31].

في الوقت الذي وقف مثقفو العراق من أبناء الجيل القديم، مع بناء الدولة الجديدة، فإن طابع عدم الاستقرار المميز لهم، قد غلب على أوضاعهم في علاقتهم بالسلطات العديدة، وخصوصًا مع العرش والإنكليز والحكومة، وقد ملأت تحركاتهم في ميدانين كبيرين حافلين بالمزيد من النتاجات والآليات والفعاليات: الصحافة والبرلمان، ولم يتراءَ طابع الاستقرار ذاك عن أسباب سياسية بحتة فحسب، بل كانت هناك، أسباب اجتماعية وتاريخية كذلك، تثيرها دومًا سياسة التحالف مع الإنكليز أولاً، ومؤثرات العقليات العثمانية القديمة ثانيًا.

إن المثقفين العراقيين عاشوا أزمة البحث عن الاستقلال جنبًا إلى جنب، مع اكتشاف ذاتهم، أي التطلع لبناء هوية عراقية لها مقومات قومية، بعيدًا من التحدي البريطاني، والمؤامرات الاستعمارية (في الخارج) والسلطة الانتدابية المهيمنة (في الداخل) التي إن استجاب لها واقع العراق الجغرافي المعاصر، فإن العوامل التاريخية لا تستجيب لها في الوقت نفسه[32]، وعليه، فإن المناخ النفسي والاجتماعي للمثقفين العراقيين، لا بد أن يتأثر بحكم عوامل التناقض والصراع من أجل البقاء والاستقلال، بأربعة مصادر أساسية هي حسب تسلسل تطورها الزمان والمكان:

1 ـ آثار الرواسب العثمانية التي تمكنت في التكوين العراقي الحديث بحكم السيطرة التاريخية، الطويلة الأمد، إضافة إلى الموقع الجغرافي، وهي المتمثلة بإطار التقليدية، ونصرة القديم لمواجهة التحديث: بقايا النظام القديم وطرقهم ووسائلهم وآلياتهم ومراكزهم (رجال الدين/الأصوليون/السلفيون/التقليديون..).

2 ـ العمليات الإصلاحية العثمانية التي تبناها الأتراك في السلطة المركزية أم عند ولاة الأقاليم، وباندفاع شديد في تحديث الحياة العسكرية، وبإجراءات استثنائية في الحياة المدنية (الإصلاحيون ورجال الجيش).

---

(31) فهمي المدرس، مقالات سياسية، تاريخية، اجتماعية (بغداد: مطبعة الشعب، 1931)، ص 25.

(32) انظر: طالب مشتاق، أوراق أيامي، 1900 ـ 1958، إشراف حازم طالب مشتاق، ط 2 (بغداد: الدار العربية للطباعة، 1989)، ج 1، ص 57.

3 ـ تجارب التلاقي والتلاقح في المعارف والآداب والأفكار القومية مع المثقفين العرب في الولايات العربية، ومنها مصر وبلاد الشام، أي بمعنى: تأثر التأثر بالغرب والاتصال غير المباشر به، والعمل على إحياء النهضة العربية، وبعث المخزون القومي العراقي (المفكرون القوميون العراقيون).

4 ـ التجربة الاستعمارية البريطانية، التي تعَدّ مصدر آلام وإلهام للثقافة العراقية في الضد، سواء كان ذلك سرّاً أم علانية، وقد عملت هذه التجربة على بعث الوازع الوطني بشكل لافت للنظر، ومن ثم ترسيخ شرعية الثقافة العراقية بمواجهة الأحداث والنضال التحرري، ناهيك بأن المثقف والدارسين والشباب العراقي لا بد وقد تأثر بأساليب ومفردات وعادات وملابس، هذا القادم الغريب[33].

يكتب طالب مشتاق في مذكراته عن دور الشباب العراقي المثقف في الحركة الوطنية قائلاً: «وكان عدد من الشباب المثقف يشارك في الاجتماعات، وكانت الخطب تتلى والقصائد التي تلقى توقد في قلوب الناس جذوة الحماسة، وتوقظ في نفوسهم شعور العزة والكرامة. إن الدكتور الشيخ مهدي البصير كان (ميرابو) الثورة بلا منازع وكانت خطبه الثورية وقصائده النارية تلهب مشاعرنا وتغمرنا بفيض من الحماسة وتدفعنا دفعًا نحو الأهداف الوطنية بشكل عجيب»[34].

كان لزامًا على المثقفين العراقيين الأوائل، أن يصهروا جملة من المفاهيم والعناصر الفكرية من خلال تكوينهم (السياسي بوجه خاص) في خضم المصادر التي عدّت بمنزلة مرجعيات أساسية لهم في تأطير الحياة السياسية والاجتماعية الجديدة التي بدأت مع تكوين العراق المعاصر، ورغم المزيد من الاخفاقات التي لازمتهم على امتداد حياتهم الأولى عند مطلع القرن، وخصوصًا في القضاء على الكثير من التناقضات الفكرية إزاء السلطة، وفي هيكل متجانس مستحدث ينأى عن القديم، وفك ربقة التحديات والأحداث القاسية، والخروج بعلاقات ذي نمط جديد في التعامل والخبرة والحرية ودعوة العديد منهم للتعامل مع الواقع بأسلوب عقلاني تقل فيه الطوباويات والمثاليات، وقد تربى على يديه جيل عراقي مثقف جديد، أفرزته الظروف بعد الحرب العالمية الثانية، برز منه عدد لامع

(33) قارن أفكاري هذه مع ما طرحه وضاح شرارة عن المثقفين المصريين في كتابه: **المسألة التاريخية في الفكر العربي الحديث** (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1977)، الفصل الرابع: «احتباس السياسي»، ص 171 ـ 202.

(34) انظر: مشتاق، المصدر نفسه، ص 80.

من المبدعين الذين سيؤثرون كثيراً في الثقافة العربية والسياسية الوطنية العراقية، وكسب بعضهم قصب السبق في الفكر والمعرفة[35].

سابعًا: الأمير والتجسير: فيصل الأول وإنتليجنسيا العراق

لقد عمد الملك فيصل الأول إلى جَسْر الفجوة[36] بينه وبين المثقفين العراقيين وذلك في إطار استماعه إلى الآراء والنقد، وحتى النقد الموجه إليه في أكثر من مكان، وعلى لسان أكثر من شاعر، وتطاول عدد من الصحافيين والكتّاب والشعراء، واهتم بالمعارف (التربية والتعليم) كمؤسسة اختار ساطع الحصري كي يتولى قيادتها. وقد استقدم في عهده عدد من المثقفين والمختصين العرب ليزاولوا عملهم في التدريس وإعداد المثقفين، وقد لمع بعضهم في الثلاثينيات، وكان لهم صداهم في بناء معرفة قومية، ومنهم: درويش المقدادي (1898 ـ 1961)، وأنيس زكريا النصولي (1902 ـ 1957)، واسكندر حريق وجلال زريق (1902 ـ 1969)، وعبد الله المشنوق (1904 ـ 1988) وغيرهم[37]. واهتم الملك فيصل الأول بالمؤسسة الصحية، فكلف حنا خياط بتقديم منهاج أعده لإصلاحها على مدى عشر سنوات[38].

إن اقتراب الملك من المثقفين العراقيين، يمثل في حد ذاته ظاهرة رصينة في التحديث، وخصوصًا عندما نعلم أن عددًا معتبرًا من مثقفي النخبة المخضرمة قد أسندت إليه مسؤوليات عليا في الدولة الجديدة، فكان منهم من أسندت إليه مناصب وزارية وعضوية

---

(35) أمثال: يعقوب سركيس؛ مصطفى جواد؛ متى عقراوي؛ عبد الرحمن البزاز؛ جعفر الخليلي؛ جواد علي؛ فاضل الجمالي؛ مجيد خدوري؛ صادق البصام؛ طه باقر؛ حسين جميل؛ زكي صالح؛ عبد الرزاق محيي الدين؛ صديق الجليلي؛ عبد الجبار الجومرد؛ عبد العزيز الدوري؛ سليم النعيمي؛ كوكيس عواد؛ صالح أحمد العلي؛ محمد حديد؛ محمد سلمان حسن؛ عبد الرحمن الجليلي؛ هاشم جواد، وعلي الوردي وغيرهم.

(36) بالنسبة إلى مفهوم سياسة «التجسير»، أي: تجسير الفجوة بين المثقف والأمير، ولو في حدها الأدنى في أيامنا المعاصرة، يراجع ما كتبه سعد الدين إبراهيم، **تجسير الفجوة بين المثقفين وصانعي القرارات** (عمّان: منتدى الفكر العربي، 1986).

(37) انظر: غانم وحيد، «أثر المثقفين العرب في بناء العراق المعاصر،» إشراف سيار الجميل (أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1995).

(38) راجع المنهاج الصحي الذي أعده حنا خياط في مقدمته لكتاب: موسيس دير هاكوبيان، **حالة العراق الصحية في نصف قرن**، سلسلة دراسات؛ 260 (بغداد: دار الرشيد، 1948). وانظر ما ذكره الأستاذ خليل كنه في كتابه: **العراق أمسه وغده** (بيروت: [د. ن.]، 1966)، ص 24 ـ 25.

مجلس الأمة، ولم تكد تخلو وزارة من الوزارات التي تألفت في سنوات عهده الأولى من وزير أديب أو عالم معروف، أمثال: هبة الله الشهرستاني الحسيني وعثمان الديوه جي وأحمد الفخري، وجعفر أبو التمن ومحمد حسين أبو المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وغيرهم ولم يخل أول مجلس للأعيان من وجود بعض الشعراء منه أمثال: جميل صدقي الزهاوي ومحمد علي فاضل، أما المجالس النيابية فقد أشغل عضويتها عدد كبير من الأدباء والشعراء والصحافيين، منهم: معروف الرصافي وباقر الشبيبي وخير الدين العمري وعبد المجيد الشاوي ومحمد مهدي كبه ومحمود الملاح ومحمد حبيب العبيدي وعبد الحسين الأزري وعبد الغفور البدري وروفائيل بطي وغيرهم[39].

لقد استقطبت بغداد كعاصمة جديدة لدولة جديدة العدد الكبير من المثقفين والأدباء والصحافيين العراقيين، فطارت شهرة البعض ممن قدم إليها ثم استوطن فيها، في حين أن من بقي في مدينته ظل مغمورًا رغم مؤهلاته وثقافته العليا ومواقفه الفكرية. إن استحواذ بغداد على الدور الثقافي المؤثر قد جاء رفقة التكوين المعاصر، فغدت لها مركزيتها، وطغت كثيرًا على دور الأطراف والحواضر العراقية، وخصوصًا الموصل والبصرة.

يعَدّ عهد الملك فيصل الأول (1921 ـ 1933)، مرحلة مهمة في بناء العراق المعاصر، وتكوينه السياسي خلال فترة ما بينا لحربين العظميين، وبالرغم من علاقة التحالف مع الإنكليز معاهداتيًا، إلا أن فيصلاً، لم يتفرد بالسلطة، بل عمل على إنماء آلية الوعي السياسي لدى النخبة المثقفة التي بدت أكبر حجمًا مقارنة بما كانت عليه قبل تشكيل الدولة، وبدأ ذلك «الوعي» يزعج الإنكليز يومًا بعد آخر. كما ساعدت ريادة فيصل الكاريزمية على توزيع المسؤوليات، وإعطاء الدور البارز للمثقفين العراقيين كافة وبوازع ليبرالي أقرب إلى العقلانية منه إلى المثالية والحماسية، لم يعمل على تهميش المثقف والمواطن الصالح، كما لم يقف حجر عثرة أمام الأحزاب والجمعيات والنضال السياسي، ولم يعمل على تغيب المؤسسة الديمقراطية، رغم سلبياتها ونواقصها، التي كان على الشعب العراقي ـ في نظره على أقل تقدير ـ أن يمارس من خلالها كوسيلة وأداة، وجوده كواقع وتناقضات! لقد شهدت التجربة والتجربة السياسية والسلطوية في الحكم، أن رؤية الوصول بالعراق

(39) انظر ما كتبه يوسف عز الدين عن علاقة فيصل الأول بالمثقفين في كتابه: **الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه** (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965)، ص 168.

إلى حالة يستطيع بواسطتها فض العلاقة المضطربة مع بريطانيا وبناء مشروعه الوطني/ القومي[40].

لقد دعا الملك فيصل إلى ممارسة فكرية حرة وعلى أسس تقدمية منفتحة على أبرز التيارات الليبرالية الغربية، والاستمرار بالحالة الجديدة التي كان قد بدأ بها الكثير من الكتاب والأدباء المثقفين العراقيين الأوائل من ذوي الآراء المستنيرة. يمكننا أن نفرز عشرات الموضوعات والحقول التي اهتموا بها وكتبوا فيها، أو مارسوها ميدانيًا وصحافيًا، تأليفًا وشعرًا، سواء كان ذلك عند المثقفين المخضرمين أم الذين برزوا على المسرح بعد بروز دولة العراق إلى الوجود. إن من أبرز الأسماء ذوي نزعة الاستنارة من الرعيل المخضرم، انستاس ماري الكرملي وكاظم الدجيلي ولحقهما مصطفى جواد في فقه اللغة العربية، وحنا خياط في الإصلاح الصحي، والشاعر جميل صدقي الزهاوي في تحرير المرأة، والكاتب يونان عبو اليونان في عرض المفاهيم الجديدة، والأديب علي الجميل في النهضوية الاجتماعية والقومية وتحرر المرأة، والتربوي ساطع الحصري في البناء التربوي، وفاروق الدملوجي في إصلاح الفكر الديني، وداود الجلبي في الفهرسة اللغوية/ الموسوعية، وعبد المسيح وزير في الترجمة، والشاعر معروف الرصافي في القصيدة الوطنية، والكاتب إبراهيم صالح شكر في الكتابة السياسية، والأستاذ منير القاضي في القانون، والأديب يوسف رزق الله غنيمة في الرواية الأدبية، والأديب محمد رضا الشبيبي في تاريخ الأدب، ورجل القانون ناجي الأصيل في الكتابة عن الآثار، والسيد باقر الشبيبي في الكتابة الأدبية، والصحافيون روفائيل بطي وسليم حسون وعبد الغفور البدري في المقالة الصحافية، والأديب فهمي المدرس في المقالة الأدبية، والمعلم يحيى قاف في كتابة المسرحية، والمؤرخ عباس العزاوي المحامي في كتابة التاريخ العراقي، والأديب سليمان فيضي في الفكرة الإيقاظية، والصحافي إبراهيم حلمي العمر في الكتابة الدعائية، والملا عبود الكرخي في الشعر الشعبي، وبولينا حسون في الصحافة النسوية، والصحافي نوري ثابت في الصحافة الفكاهية، والشيخ محمد مهدي البصير في الخطبة السياسية، والأديب محمد سعيد الجليلي في الآراء الإصلاحية، والقائد طه الهاشمي في جغرافية العراق، وسامي شوكت في العاطفة القومية، والأديب أحمد عزت الأعظمي في القضية العربية، والمؤرخ صديق الدملوجي في تاريخ الأقلية، والمطران سليمان صائغ في التاريخ المحلي، ورجل القانون إبراهيم الواعظ في السيرة الشخصية،

---

(40) عن مقالة عبد القادر البراك، «الملك فيصل الأول وأدباء عصره،» جريدة الاتحاد، 1989/11/19، وراجع ما سجله متى عقراوي في كتابه: **العراق الحديث**، ترجمة المؤلف مع مجيد خدوري (بغداد: مطبعة النجاح، 1936)، ج 1.

والشاعر عبد المحسن الكاظمي في الشعر المهاجر، والشاعر أنور شاؤول في الشعر الرومانسي، والأديب طه الراوي في اللغة العربية، والمهندس أرشد العمري في الهندسة البلدية، والتربوي طالب مشتاق في الإدارة المدرسية، والسيد محمود فهمي درويش في الفهرسة، ومتى عقراوي في خصائص التعليم، والكاتب محمود السيد في كتابة القصة والفنان محمد القبانجي في قراءة المقام العراقي، والفنان سليم الموصلي (أبو جواد سليم) في الرسم وغيرهم[41].

ثامنًا: من النهضوية نحو النضال (جدل الأجيال): شيخ وشباب

لقد أفرزت النخبة الإنتليجنسية المخضرمة مجموعات كبيرة من المثقفين العراقيين الذين وجدوا أنفسهم في عهد الملك فيصل الأول، يملأون الكثير من المواقع المهمة، وبدأت حياة جيل جديد من المثقفين الذين اختلفوا في رؤاهم وتطلعاتهم عن أفكار الجيل القديم، هكذا، سنجد أن الأغلبية من نخبة الإنتليجنسيا المخضرمة أدركت مكانة العراق الاستراتيجية والدولية والاقتصادية في وقت متأخر من حياتها (وخصوصًا بعد اكتشاف حقول النفط المتعددة)، إن لم يكن البعض من المخضرمين قد قضى نحبه! معنى ذلك: بداية نوع وحالة من التضاد الفكري لا الصراع السياسي بين الذين يشددون على الدور الإصلاحي للمجتمع وبناء الدولة على أسس سياسية/ ليبرالية، وبين الذين بدأوا يدركون أهمية التلاحم بين أدوارهم كمثقفين وبين أبعاد التنمية في إطار من الأسس والأفكار الاقتصادية (أي: الانتقال من طور الإصلاح السياسي إلى حالة التنمية الاجتماعية) على أسس تقوم من جديد بعيدة من آلية التحالف والتبعية والتقاليد المتوارثة[42].

غدا النضال ضد الإنكليز هو الهاجس الأكبر لنسبة كبيرة من المثقفين العراقيين الذين عانى الكثير منهم أزمة الوعي للمتعلمين الجدد، وشقاء الوعي للمثقفين المرموقين، والأسر والاعتقال والنفي والتشريد للبعض ممن كانوا يمتلكون القدرة على المواجهة الحقيقية،

---

(41) انظر: سيار الجميل، «انتلجينسيا العراق: التكوين .. الاستنارة والسلطة،» في: الطاهر لبيب [وآخرون]، **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ 10 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992).

(42) من المحبذ مراجعة ما كتبه: محمد فاضل الجمالي، **العراق الحديث: آراء ومطالعات في شؤونه السياسية** (بيروت: [د. ن.]، 1969)؛ توفيق السويدي، **مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية** (بيروت: دار الكاتب العربي، 1969)، وزكي صالح، **مقدمة في دراسة العراق المعاصر** (بغداد: مطبعة الرابطة، 1953).

وهنا أيضًا مشاكل متنوعة خلقها القلق الجماعي والاغتراب الذهني. وعندما تحقق استقلال العراق ودخل عضواً في عصبة الأمم عام 1932، وقبل موت الملك فيصل الأول بقرابة سنة واحدة، كان أبناء الجيل المخضرم قد غدوا قلة في مجتمع غادروه كمغادرة فيصل إياه، وهو يعيش تشكيلات جديدة، وبرزت فيه نسبة عالية من المثقفين الجدد الذين بدأوا يدركون أهمية دورهم الفاعل في الحياة الوطنية والقومية بعيدًا من السلطة، ولكنهم في الوقت نفسه، بدأوا ينظرون إلى أبناء الجيل المخضرم الذي سبقهم نظرة ازدراء وتنكر، في حين بقيت السلطة بعد موت فيصل بيد الساسة المخضرمين الكبار، وأغلبهم من العسكريين العثمانيين القدامى والمثقفين الأوائل الذين كونتهم إسطنبول، وقد انتهجوا أفكار الملك فيصل وخططه، إذ جاء في مذكرته الشهيرة عن العراق يخاطبهم بالتوجه نحو الاستنارة، فيقول: «إن شبان العراق القائمين بالحكومة، وعلى رأسهم قسم عظيم من المسؤولين، يقولون بوجوب عدم الالتفات إلى أفكار وآراء المتعصبين، وأرباب الأفكار القديمة، لأنهم جبلوا على تفكير يرجع عهده إلى عصور خلت، يقولون بوجوب سوق البلاد إلى الأمام، بدون التفات إلى أي رأي كان، والوصول بالأمة إلى مستواها اللائق، وبالإعراض عن القال والقيل، طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة، إن عدم المبالاة بالرأي بتاتًا، مهما كان حقيراً خطيئة لا تغتفر...».

ولعل فيصل الأول هو أهم من كان يحتاج العراق إليه عند تأسيسه، فلقد أثبتت الأحداث التاريخية أنه كان حكيمًا جدًا في التعامل مع الثنائيات والتناقضات التي كان يعج بها العراق في تلك المرحلة الصعبة من حياته. ولعل أهم ما يمكنني رصده عند الرجل هو وقوفه فوق الجميع، مشاركًا الجميع ولكنه بعيدًا من كل التيارات والأحزاب والاتجاهات والملل والطوائف والأديان والنِّحل؛ فجمع ولاء الجميع نحوه، شارك العرب والأكراد والتركمان وبقية القوميات والأقليات مشاعرهم وأفكارهم، ويقال إنه تأثر جدًا بالموقف الذي اتخذته الحكومة العراقية أثناء استشفائه وغيابه عن العراق إزاء مشكلة الآثوريين وطالب معالجة الأمر بالحكمة. كما أنه شارك الطوائف العراقية جميعًا في مناسباتها الدينية وحضر مجالس العزاء في الكاظمية يوم عاشوراء وأهداها المشاعل والهبات كونه واحدًا من سلالة آل البيت، فضلاً عن احترامه لكل الأديان، إذ تعاطف مع المسيحيين واليهود والصابئة وبقية المتدينين العراقيين، ولم يفرق بين العراقيين أبدًا على أساس الدين أو الملة أو الطائفة أو العرق أو القومية أو الانتماء. إنه فعلاً وضع نفسه فوق ميول الجميع من العراقيين وانتماءاتهم، ولكنه شاركهم مشاعرهم في بناء مشروعه الوطني العراقي، مؤسسًا للنزعة الوطنية على أساس الانتماء الجديد للعراق الحديث مشجعًا كل الكفاءات

وأصحاب المواهب والتطلعات من المثقفين العراقيين الشباب والكهول لأخذ دورهم في البناء الوطني، ويكفي أنه أرسل بعضهم كمبعوثين إلى الخارج للعلم، ويحكى أنه أُعجب بموهبة فائق حسن في شبابه الغض فأرسله إلى فرنسا، فغدا الأخير صاحب مدرسة تجديدية راسخة في الفن التشكيلي لاحقًا.

على هذا الأساس، فإن موت الملك فيصل الأول عُد خسارة للعراق، وكارثة لمثقفيه المخضرمين الجدد، إذ تألب العسكريون القدامى على السلطة في عهد ولده الملك غازي الأول (1933 ـ 1939)، ذلك العهد الذي تفجرت خلاله تناقضات كبيرة، وشهد عام 1936 أول انقلاب عسكري عربي في العراق، وبالرغم من وطنية الملك غازي وعروبته، إلا أن اندفاعاته السياسية وانحسار السلطة عن بلاطه، دفع بالمثقفين الجدد إلى العمل القومي من جديد بعيدًا من السلطة، وبدأوا بتشكيلات سياسية واجتماعية غلب عليها النزوع القومي، ومنها جمعية الجوال العربي ونادي المثنى، وسيصل ذلك النزوع إلى ذروته بعد مصرع الملك غازي عام 1939، وخصوصًا في الأحداث المهمة والدراماتيكية التي عاشها العراق في عام 1941 إبان ثورته وحربه ضد بريطانيا تحت زعامة رشيد عالي الكيلاني والعقداء الأربعة. إن فشل تلك التجربة السريعة قد أعطى للساسة القدماء أيضًا الفرصة من جديد للعودة إلى السلطة، ولكن بأسلوب أكثر رهبة سلطوية، وأمتن علاقة تحالفية مع بريطانيا.

لقد غدا الجيل المخضرم عند الحرب العالمية الثانية، بنية عتيقة، أخذ الخلاف ينمو ضدها من الجيل الجديد الذي انبثق وتربى وتعلم خلال عهد الملك فيصل الأول، ونضج بسرعة في عهد الملك غازي ليمثل فورة النزعتين القومية والوطنية، إذ انشطر التفكير العراقي إلى اتجاهين كبيرين، أولهما قومي النزعة يجد هواه في الفكرة العروبية وتشدد في هذا المضمار من خلال الجمعيات والنوادي والأحزاب مبتدئة بحزب الإخاء ونادي المثنى وحزب الاستقلال ومنتهية بحزب البعث والناصريين والحركيين، وثانيهما عراقي النزعة يجد هواه في الفكرة العراقية وحدها، وتشدد في هذا المضمار من خلال الجماعات والأحزاب مبتدئة بجماعة الأهالي ومرورًا بالوطني الديمقراطي ومنتهية بالحزب الشيوعي العراقي[43]. أخذ هذا الجيل المتشرب بالمبادئ العراقية المستحدثة، يصطدم مع المخضرمين الأوائل الذين عاصروا عهودًا ثلاثة، وتشربوا بالإصلاحية العثمانية وأفكار الإنكليز والمبادئ العراقية، إذ غدا هؤلاء يتصرفون «كموظفين يلتزمون بما تقتضيه الوظيفة

---

(43) سيار الجميل، «إنتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة،» **المستقبل العربي**، السنة 13، العدد 139 (أيلول/سبتمبر 1990).

من إجراءات شكلية لا تهضم الظروف الثورة، وما تستلزمه من السرعة في الحسم والجرأة في اتخاذ المواقف. لذلك كان من الطبيعي أن يحتدم الجدل ويثور النقاش، وقد شهد مجلس الوزراء جلسات حامية ارتفعت فيها الأصوات، وكان ناجي السويدي يشكو دائمًا من ثورية يونس (السبعاوي) ويخاطبه في ساعات المناقشة قائلاً: «ما كسبناه نحن الشيوخ بحكمتنا نخشى أن يضيع بحماقتكم يا شباب»[44].

إن مثل هذه المسألة «في إطارها العام تعكس صراعًا بين جيلين: جيل الشباب القومي الذي يمتلئ حماسة واندفاعًا، وجيل (الحكماء) المخضرمين من بقايا المدرسة العثمانية، أو بصور بتعبير آخر صراعًا بين عقلية تقليدية تسودها ذهنية أغلب أعضاء مجلس الوزراء ممن تدرجوا في سلم الوظائف، فتكيفت ذهنيتهم على الالتزام في كل خطوة بالإجراءات الشكلية وما تقتضيه الوظيفة من مراعاة لقواعد العمل الرتيب، وبين عقلية ثائرة متمردة تتخذ المواقف التي تستلزمها طبيعة الأحداث وتطوراتها من مبادرات سريعة تلاحقها لا تتقيد بالإجراءات الشكلية ولا تلتزم بالقواعد الرتيبة، ومن الطريف أن نذكر أيضًا ما رواه ناجي الأصيل الذي لازم أحد أبرز المثقفين العراقيين المخضرمين، وهو فهمي المدرس الذي سأله نوري السعيد يومًا عن حاله: فأجابه: لست بخير، فنحن كلما زرعنا الورد أنبت شوكًا»، إن هذا الجواب هو تورية لطيفة قصد بها نوري السعيد ومعاني أخرى.

تاسعًا: النخبة المخضرمة في المجتمع: الانقسام والتنوع تجاه السلطة

1 ـ الانقسام في عهد فيصل الأول

انقسم الرعيل الأول في العراق إلى قسمين من الرجالات الذين لم تقتصر مساهماتهم على نشوء العراق المعاصر لوحده فحسب، بل في تأثيراتهما الكبيرة في الواقع التاريخي الصعب الذي عاشه المشرق العربي خلال العقدين الأولين من هذا القرن: وكثيرًا ما كان يحدث صراع خفي بين القسمين، وبأساليب جدلية أو جدالية في المؤسسات التي ظهرت في العراق، وكأن كل طرف يريد الغلبة على حساب الطرف الآخر. وقد كان الملك فيصل الأول هو الذي يوفق بين العسكريين والمدنيين في العراق فأثر الانقسام الخفي بينهما بعد

---

(44) الجميل، «إنتليجنسيا العراق: تاريخ النخب المثقفة في القرن العشرين،» الحلقة 6 (الاتجاهات القومي والاشتراكي وجدنا صداهما لدى الجيل الجديد منذ العشرينيات)، جريدة الزمان، 2000/9/5.

وفاته واستمر مدة طويلة من حياة العراق المعاصر. وكان المستنيرون المدنيون قد نجحوا بأدوارهم كمثقفين معاصرين طوروا أفكارهم واستناروا واندفعوا بتوجهات وتطلعات تقدمية أو تآلفية أن يسحبوا البساط بقوة من تحت أرجل الأصوليين والمتزمتين، وتكاد القطيعة تفعل فعلها بين النخبة المثقفة المستنيرة المحدثة وبين الفئات العريضة من التقليديين والمتصوفة والسلفيين ورجال دين صغار (ملالي). إن هناك من طوى كتبه وآراءه القديمة، كي يمثل الدور الإصلاحي على أقل تقدير[45]، وأثيرت بعض المعارك الفكرية، كان أشهرها تلك التي قامت على جميل صدقي الزهاوي من جانب عباس محمود العقاد (مصر) ومعروف الرصافي (العراق)، وبين ساطع الحصري وفهمي المدرس وغيرها.

2 ـ قضية النصولي في العراق (1926 ـ 1927)

أنيس بن زكريا النصولي (1902 ـ 1957) لبناني تخرج في الجامعة الأميركية في بيروت وعمل مدرسًا للتاريخ العربي في المدرسة الثانوية المركزية في بغداد وقتذاك وألّف كتابًا عندما كان أستاذ التاريخ العربي في الثانوية المركزية في الموصل، وسماه الدولة الأموية في الشام وطبعه في مطبعة دار السلام في بغداد سنة 1926[46]. أحدث كتابه هذا مشكلة من جانب الشيعة العراقيين الذين طالبوا بعقابه واتهموه بأنه يسوّق دعاية أموية من أجل إقامة دولة أموية، فطُرد وعاد إلى بيروت واحتضنت به مدينته فعمل في الصحافة، ثم تولى إدارة التعليم العامة في جمعية المقاصد الخيرية. أثار كتابه جدلاً عنيفًا في المجتمع العراقي عند صدوره. ولا يستوجب الأمر أن يثير الكتاب كل الحساسيات الساخنة والمواقف الحادة. إن كان مؤلفه قد أهدى الكتاب إلى بني أمية؟ ولكنني أجد أن النصولي كان ضحية مشكلة سياسية وخصوصًا أنه لبناني/ سوري وينشر كتابًا عن الأمويين في العراق! ولم يكن يدرك حجم الهوة الفاصلة بين الواقع والتاريخ في العراق، وأعتقد أيضًا بأن الرجل لما كان قد كتب كتابه في مناخ سنّي بمدينة الموصل، لم يراعِ بقية المناخات في العراق التي ينبغي احترام مشاعرها، ولكنني أعتقد أن «المشكلة» سياسية قبل أن تكون ثقافية أو اجتماعية.

والحقيقة أن الكتاب يضمُّ بين طيّاته معلومات ذات قِيمة تاريخية كبيرة حول تاريخ الدولة الأموية، ثاني خلافةٍ في تاريخ الإسلام، ففيه يحلل المؤلف تحليلاً تاريخيًا واعيًا

---

(45) المصدر نفسه، الحلقة 5 (النخبة العراقية اشتركت في تأسيس المشروع النهضوي العربي منذ 1908)، جريدة الزمان، 2000/9/4.

(46) أنيس بن زكريا النصولي، تاريخ الدولة الاموية في الشام (بغداد: مطبعة دار السلام، 1926).

موضوعات تأسيس الدولة الأموية، وفتوحاتها، وحضارتها، وأحوال مجتمعها، وأخيرًا الأسباب التي أَوْدَتْ بمجدها. ولا ضرورة لتلك الضجة التي تداعت إلى أزمة عميقة بمثل هذا العمق. وأعتقد أنها أزمة سياسية مفتعلة ضد حكم فيصل بعد أكثر من 5 سنوات على حكمه، إذ وقع «الكتاب» بيد بعض أولياء الأمور، فكان أن أشعلها وزير المعارف السَّيد عبد المهدي آل شبر المنتفجي (ت 1974) حربًا شعواء مقررًا فصل النصولي وإلغاء عقده وطالب البعض بإحالته على القضاء لينال جزاءه العادل، وهي حجّة من أجل طرد المدرسين والأساتذة العرب ليس إلا وعلى رأسهم ساطع الحصري. ولقد اعترض بعض زملائه من المدرسين السوريين واللبنانيين، وأصروا على استقالتهم تعاطفًا مع النصولي، فكان أن شملهم قرار الفصل. قام طلبة الثانوية المركزية ودار المعلمين في إثرها بتظاهرات أمام وزارة المعارف ضد قرار الفصل وإلغاء تعاقداتهم، وملأت التظاهرات من طلبة المدارس والأساتذة الشوارع تعاطفًا مع النصولي وقضيته وضد وزير المعارف، فقاد ذلك إلى صدام مع الشرطة لإنهاء التظاهرات[47].

انتهى الأمر بفصل النصولي وزملائه وترحيلهم، وقد قام الوزير بفصل الطلبة الذين قادوا التظاهرات لمدد مختلفة. إن التأمل في مثل هذه «القضية» يبين أنها قضية بسيطة أخذت أبعادًا طائفية ومواجهة بين الشيعة والسنة لدى المتعصبين في وزارة المعارف. ولم يكن الطلبة يعبرون في تظاهراتهم عن أية نزعة طائفية، بل كانوا متعاطفين مع أساتذتهم ومدرسيهم وهم من أكفأ المثقفين العرب. والمشكلة أن هؤلاء المدرسين كانوا من خريجي الجامعة الأمريكية ولم يكن في بالهم أي إحياء لنزعة تاريخية أو أية إثارة لحساسيات طائفية أو مذهبية[48]، بمن فيهم ساطع الحصري مدير المعارف العام الذي انتقد فصل النصولي انتقادًا مريرًا، والأمر لا يستوجب كل هذا التعصّب ولا يستحق كل هذه الضجة. وكتب الحصري في مذكراته أن إهداء الكتاب إلى بني أمية أمر عادي[49]. وإذا كان المؤلف قد كتب نصًا في المضمون مطالبًا الشيعة أن يحوّلوا «مجرى أحزانهم إلى فعل الخير والإحسان وبث الفضيلة بين أبنائهم وبناتهم»[50]. والحصري لا يرى في الذي سجله المؤلف أية مثلبة

---

(47) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق، تعريب جعفر خياط، ط 3 (بغداد: دار الرافدين للطباعة والنشر، 1962)، ص 98، والعكام، الحركة الوطنية في العراق: 1921 ـ 1933م، ص 761.

(48) علي ظريف الأعظمي، موجز تاريخ بغداد القديم والحديث (بغداد: المكتبة العربية، 1926)، ص 321.

(49) الحصري [أبو خلدون]، مذكراتي في العراق، ج 1: 1921 ـ 1941، ص 147.

(50) المصدر نفسه.

في الكتاب، ولكن عبد الكريم الأزري (ت 2010)، يرى أن النصولي أساء للشيعة وأنه يحمل طائفية شديدة، وقد أساء عمدًا لتاريخ الشّيعة، في حين قام بتمجيد بني أمية. وعَدّ العراقيون الشيعة كتاب النصولي فتنة طائفية دافع عنها ساطع الحصري[51]. أما خيري العمري فوجد أن الاستعمار البريطاني هو المستفيد الأول من تفاقم قضية النصولي. قال في حكايات سياسية تحت عنوان الكتاب الأزمة: «أغلب الظن أن دار الاعتماد البريطاني هي التي خرجت من المعركة غانمة، فقد كسبت تصديع عرى الوحدة الوطنية، وكسبت جوًا مشبعًا بالحقد الطائفي»[52].

يحدثنا حسين جميل في مذكراته أنه عاد مع الطلبة المفصولين إلى مقاعد الدراسة بأوامر خاصة صدرت عن الملك فيصل الأول؛ بعد أن تمّ فصلهم إذ كانوا السبب في إثارة الشّغب. وثق المحامي حسين جميل (ت 2002)، هذه «القضية» وكان أحد الطّلبة، ويستعرض كل الحدث بتفصيلات ويذكر أن اللجنة التي تألفت دفاعًا عن النصولي وعن زملائه، اقترحت أسماء وفد يذهب لمقابلة المسؤولين يكون أغلبهم من الشّيعة، لاستبعاد تهمة الطائفية. قال حسين جميل: «ولهذا لم أكن أنا من أعضاء الوفد»[53]. واعتبر الطلبة حركتهم «انتصارًا لحرية الفكر والبحث العلمي» وقالوا إن قرار فصل النصولي هو إهدار للحريات في العراق، وأن العراق هو الذي خسر عدة كفاءات طوال تاريخه المعاصر. وإذا كان العراق قد طرد النصولي، فإن لبنان كرّمه وسمى أحد الشوارع في بيروت باسمه. وبقيت هذه «القضية» تجدد نفسها على أيدي العراقيين كونها قضية طائفية لا يمكنها أن تكون فتنة ينقسم من خلالها المجتمع. ويلاحظ اليوم وبعد مئة سنة، أن «الكتاب» قد أعيد طبعه ونشره، ويتداوله الناس في الأسواق اليوم، ولا تأثير له مقارنة بما أحدثه من تداعيات في الأمس، علمًا بأن الشيعة هم الذين يحكمون العراق اليوم.

3 ـ الطائفية: مسألة عابرة أم مشكلة مستحكمة؟

ليس من المستغرب أن لا يعترف البعض بدور فيصل الأول في بناء العراق المعاصر، لأسباب باتت معروفة اليوم بعد مرور مئة سنة على تأسيس العراق المعاصر. إن المشكلة الاساسية التي واجهت فيصل في العراق تتمثل بموجة التهم التي أُلصقت به، وهو براء

---

(51) عبد الكريم الأزري، **مشكلة الحكم في العراق: من فيصل الأول الى صدام** (لندن: [د. ن.]، 1991).

(52) خيري أمين العمري، **حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث**، تقديم علي الوردي (بغداد: الدار العربية للموسوعات، 1969).

(53) حسين جميل، **العراق: شهادة سياسية، 1908 ـ 1930** (لندن: دار اللام، 1987).

منها، ولم يعترف بسماحته وانفتاحه على الجميع، ولا يمكنه الاستغناء عن أولئك الضباط الشريفيين أو المثقفين المستنيرين العراقيين من السنة البارزين، لكي يصف أحدهم بأن «الاستياء الشيعي من النظام الجديد لم يكن أبدًا تحت السطح»[54]. وربما كان وصفه صحيحًا في الوقت نفسه، يلاحظ أنه خلال السنوات الأولى من الحكم الملكي لم يكن هناك إلا عدد قليل جدًا من الشيعة المؤهلين لشغل مناصب حكومية رفيعة. ومع ذلك، فإن فيصل حاول «زيادة وجود الشيعة في جميع أنحاء إدارته»[55]، وإن الرجل كثيرًا ما زار العتبات المقدسة في النجف وكربلاء من أجل الالتقاء برجالات الشيعة العراقيين ليقف على مطالبهم ويتعرّف إلى مشاكلهم. ولم يكن يجاملهم، أو كان يعمل من أجل تثبيت حكم أسرته الهاشمية كما يقول حنا بطاطو[56].

المؤسف حقًا أن تثار مشكلة لا معنى لها أبدًا عند البعض من صنّاع التزمّت وإعلان التطّرف واختلاق المشاكل في مجتمع بدأ يخطو نحو الحداثة. وقد وصفت الأزمة بما جاء في توصيف الحالة بـ «اللامبالاة السنية الطويلة بالحساسيات الشيعية» من خلال سرد مفصل لقضية أنيس زكريا النصولي[57] عام 1927 في العراق، وكأن القضية اختلقها العراقيون السنّة ضد أهلهم وذويهم من أهل الشيعة، إذ قام بالتركيز على وصف النصولي بالمؤيد للسنّة بشدة لإنشاء سلالة أموية من خلال كتاب مدرسي مخصص للاستخدام من جانب الطلاب العراقيين. وهذا منتهى الانحياز إلى قضية لم يتعمد صنعها العراقيون السنّة أولاً، وإن نشر كتاب في التاريخ الأموي لا يمكن أن يثير أبناء القرن العشرين بهذه الدرجة ثانيًا!

لأول مرة يجد فيصل الأول وكل من هو عربي في العراق أنفسهم أمام مجتمع منقسم أشد الانقسام، وأن مصدر صراعه ما يعتمل من حساسيات لدى كل طرف من الطرفين، ولأول مرة خشي فيصل الأول الغضب والاضطرابات الناجمة عن ذلك بين الشيعة ضد السنّة متخذين قضية النصولي سببًا في الطعن بالحكم ونظامه، وقد يؤدي ذلك إلى تحالف أقوى بين الغاضبين وبين البريطانيين، وكلاهما يعارضان مشروع فيصل الأول الرئيسي لزيادة حجم الجيش من خلال التجنيد الإلزامي وتسليحه، وكلاهما يريدان أية زلة ضد فيصل

---

(54) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 479.

(55) Ibid., p. 386.

(56) حنا بطاطو، **العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية**، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1990)، ج 1، ص 44 ـ 45.

(57) المصدر نفسه.

نفسه. وللحقيقة والإنصاف، كان فيصل يعمل بحماسة كبيرة للحدّ من الطائفية وغلوائها، وكان يدرك خطرها على المجتمع منذ وصوله العراق، وجاءت قضية النصولي لتجعل مهمته أكثر صعوبة. وكان رستم حيدر وهو شيعي من لبنان كما رأينا، قد ساعد فيصل على تجاوز الأزمة. وإذا كان أنيس النصولي قد طُرد من العراق ثمنًا لجريمته، فإن الغاضبين لم يكفّوا عن توجيه اتهاماتهم بأي مناسبة ولأي سبب. ولم يكن فيصل غاضبًا من النصولي أو من ساطع الحصري الذي اتهم بالطائفية وتأجيج المشاعر ضد الشيعة، بدليل بقائه على رأس المعارف العراقية.

4 ـ الصراع السياسي تعبيرًا عن الانقسام الاجتماعي

هكذا، سنجد أن رؤوسًا عراقية كبيرة كانت في الصف الأول من الرعيل الأول، ويأتي من بعدهم رجال في الصف الثاني، ومثّل الصفّان نخبة عليا. وبالرغم من الخلافات السياسية في ما بينهم، إلا أنهم عُدّوا من البناة الذين قادهم فيصل، وكان كل واحد من الأربعة قد أدّى دورًا مؤثرًا في البناء السياسي والعسكري معًا وغدوا رموزًا لأنساق من البنى العراقية المعاصرة. فإذا كان جعفر العسكري يرتبط اسمه بمؤتمر القاهرة 9 آذار/مارس 1921 وهو مؤسس الجيش العراقي، فإن ياسين الهاشمي قد ارتبط اسمه بحزب سياسي معارض والشؤون الداخلية للعراق، وبقانون الخدمة الإلزامية. أما نوري السعيد فكانت له حصة الأسد من الأدوار السياسية، وقد ارتبط اسمه بصيغ التحالف مع بريطانيا كأكبر مناصر لها في المعاهدات التي وقعها أو التي كان يباركها (المعاهدات: 1930؛ 1958؛ 1952؛ 1955)، وكان دوره مؤثرًا أيضًا في تأسيس جامعة الدول العربية. أما مولود مخلص، فقد غدا رئيسًا لمجلس الأعيان، وتقلّد كل من عبد المحسن السعدون وعلي جودت الأيوبي وطه الهاشمي وناجي شوكت، رئاسة الوزراء لمرات متعددة، إضافة إلى أدوار الثلاثة الكبار: جعفر العسكري، وياسين الهاشمي ونوري السعيد في رئاسة حكومات متعددة وتوجيه السياسة الخارجية والداخلية للعراق الملكي خلال مناصبهم الوزارية المتعددة، واشتهر أيضًا الكثير من العسكريين القدامى الذين تسنموا حقائب وزارية متعددة، منهم: محمد أمين زكي، وعبد الله الدملوجي، ومن الضباط الشريفيين كل من: صبيح نشأت، ورشيد الخوجة، وجميل الراوي، وعبد اللطيف نوري، وتحسين العسكري، وتحسين علي وغيرهم.

ويبدو للمؤرخ أن أغلب الأسماء أعلاه، كانت تمتلك رصيدًا عاليًا من الثقافة وكان لها اهتمامها في مجالات ثقافية متعددة، وبرز منهم عدد من المتكلمين والخطباء البارعين، والمفاوضين السياسيين الأقوياء، أنهم يمثلون نتاجًا حقيقيًا لمدرسة فيصل الأول السياسية،

وخصوصًا أن أغلبهم قد ترك اختصاصاته العسكرية، وانغمر في الميدان السياسي، ولكن الفرص السياسية لم تتوافر لجميع تلك الفئة العراقية من العسكريين العثمانيين الشريفيين القدماء، إذ بقي قسم منهم من المغمورين، ولم يتسلموا مناصب عسكرية أو سياسية أو إدارية[58]. أما في الكتابة والتأليف، فقد كان لبعضهم القدح المعلى فيهما، ومن الأسماء التي تحضرني: داود الجلبي (طبيب عسكري)، طه الهاشمي، عبد الغفور البدري، نوري ثابت، ومحمد أمين زكي وغيرهم.

استنتاجات

نستنتج أن العسكريين والمدنيين العراقيين قد أثروا كثيرًا في بناء أسس تاريخية العراق المعاصر من خلال أدوارهم الفعالة والمهيمنة على أجهزة كبيرة، بالرغم من ذوبان شخصيتهم العسكرية وبروزهم كسياسيين ومثقفين وأدباء مدنيين، إلا أن مرجعيتهم الأولى كانت كافية منذ البداية لتأسيس أسلوب حياتهم وتفكيرهم وأنشطتهم. وبالرغم من عراقيتهم، فإن فيصل هو الذي جمعهم، ومع كل ذلك فإن خلافاتهم قد شتتهم بعد رحيل فيصل، بل إن عبد المحسن السعدون انتحر قبل وفاة فيصل، أما بعد وفاته، فقد قتل جعفر العسكري عام 1936، وهرب ياسين الهاشمي إلى دمشق ليموت بعد 6 أشهر من هربه عام 1936، وقتل رستم حيدر عام 1940، وقتل نوري السعيد وسحل في الشوارع عام 1958.

كان الطاقم الوزاري والمؤسسي على زمن التأسيس، أي على عهد فيصل الأول 1921 ـ 1933 يضم أسماء أخرى وشخصيات شريفية عسكرية أو تنويرية مدنية من الدرجة الثانية، أخص بالذكر كل من ساسون حسقيل وناجي وتوفيق السويدي ومولود مخلص وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وطه الهاشمي وتوفيق الدملوجي وحنا خياط وفهمي المدرس ورشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت وتحسين العسكري وتحسين علي وبكر صدقي شنوقي وغيرهم.

ولكن بالرغم من كل المعجبين بسياسة فيصل من الساسة العراقيين، فإن هناك من بقي يتحامل عليه، إذ أجد نقدًا لفيصل الأول في الذي قاله حكمت سليمان. يقول عبد القادر البراك: «إن الملك كان يدفع المعارضة لمهاجمة الحكومات التي تقاسمه النفوذ لدى السفارة البريطانية» ويستطرد قائلًا: «حدثني المرحوم حكمت سليمان أحد رؤساء الوزارات السابقين في العراق، أن الملك فيصل الأول كان يقف وراء المعارضة التي تواجه

(58) وهذا نقيض ما روّج له حنا بطاطو بإطلاق أحكامه بلا دقة. انظر: المصدر نفسه، ص 355 ـ 358.

بعض الحكومات التي كان لا يرغب في استمرارها في الحكم كي لا تغطي بنفوذها على نفوذه لدى السفارة البريطانية، أو على توجيه سياسة البلاد على النحو الذي يحقق لهما الاستمرار المتوازن»[59]. وأعتقد أن حكمت سليمان كان يحمل ضد فيصل كون الأخير كان وراء فوز رشيد عالي الكيلاني برئاسة مجلس النواب بدلاً من حكمت سليمان! وعليه يمكن القول إن الدهاء لا يجتمع مع المكر السياسي!

(59) البراك، ذكريات أيام زمان، ص 82.

الفصل الحادي عشر

الباني
دور فيصل الأول
في بناء المجتمع العراقي الحديث

أولًا: فيصل والمجتمع العراقي

ثمة معلومات تاريخية جديدة تكشف حقيقة فيصل الأول الذي نجح في بناء المجتمع العراقي جنبًا إلى جنب مع تكوين الدولة المعاصرة التي عاشت 82 سنة، والتي بدأت عام 1921 وانتهت عام 2003. ويعد عهد فيصل الأول بمثابة قاعدة تأسيسية لنظام دولة ومجتمع في القرن العشرين، وكان يأمل العقلاء أن يكون للعراق شأن كبير في منطقة الشرق الأوسط والعالمين العربي والإسلامي، ولكنه عانى مشكلات صعبة وزادت تعقيداته في النصف الثاني من القرن العشرين. ولعله البلد العربي الوحيد الذي مر بسلسلة انقلابات ومؤامرات واضطرابات واعتقالات ومنافِيَ في الصحراء وحروب وحصارات وإعدامات ومآسي سحل وقتل وقطع رؤوس... نتج منها انقسامات كبرى ورهيبة في المجتمع. ويبدا لي أن فيصل الأول كان الزعيم الوحيد الذي لم يكتفِ بما خبره عن المجتمع العراقي، بل كانت له وسائله السياسية والأخلاقية في التعامل مع العراقيين الذين تباينت وجهات نظرهم كالعادة في الرجل، كما هي عادتهم في تصنيف زعمائهم وقادتهم.

تؤكد أغلب الأدبيات أن فيصل عشق العراق وأحب العراقيين الذين منحوه ولاءهم وناصروه في متاعبه مع الإنكليز من أجل الاستقلال، ولم يكن حبيسًا في بيته ببغداد. لقد تجوَّل في أرجاء العراق، والتقى كل الناس فيه، وعاش مع القبائل البدوية، واصطاف في كردستان، وزار العتبات والأديرة والكنائس والمعابد والأضرحة، وارتاد المجالس والمدارس

واستمع إلى الشعراء وجسّر علاقاته بالمثقفين والمعارضين. وقد نال البعضُ من عروبته، إذ استغربوا إدلاء فيصل بتصريحات وصفوها بـ «غريبة» مثل قوله بأن «العرب كانوا عربًا قبل مجيء سيدنا موسى وعيسى ومحمد (ص)». وأرادوا منه أن يقدم أي تعريف لـ«العرب» الذين يتخيلهم. وكان الأمر المؤكد هو عدم ملاءمة هذا الوصف للعراقيين[1]. هنا نسأل: لماذا لا يلائم هذا الوصف العراقيين؟ أليس جلّهم من العرب؟ أليس العراق مثوى حضاريًا للعروبة وأخلاقياتها منذ القدم؟

إن الشعوبيين فقط يجدون في وصف فيصل غرابة، ليس لنقص في فلسفة فيصل، ولكن لأنهم يكرهون العرب والعروبة. والأنكى من كل هذا وذاك أنهم لا يدركون فهم وصحة ما جاء في تاريخ العرب القديم. وعليه، فإن قول فيصل لا يخالف ما نشره المؤرخ جواد علي في موسوعته عن العرب قبل الإسلام. كان فيصل يدرك ما يقول بثقافته العالية وإدراكه معاني الشعر وتاريخ العرب وأصولهم[2].

ثانيًا: فيصل الأول بين العراق والعراقيين

عرف فيصل ببساطة تعامله مع العراقيين بكل أطيافهم دون أية تكلفة أو غرور، فلقد شيع عنه أنه كان يرضي جميع الأطراف ويقوم بواجبه إزاءهم، محترمًا مشاعرهم، ويتجاوز عن خطاياهم، ولا يفرق بين أبناء مجتمعه أبدًا على أساس ديني ولا طائفي ولا جهوي ولا عرقي أو قبلي، بل يميز الناس على أساس الكفاءة والمعرفة والعمل، وهو يزور الكنيس اليهودي أيام السبت، ويزور كنائس المسيحيين أيام الأحد وفي مناسباتهم[3]، ويؤدي الصلاة مع المسلمين السنّة في الحضرة الكيلانية، ويؤدي مراسم وشعائر الشيعة العراقيين في الكاظمين، وينزل في بيت الشيخ بهاء الدين النقشبندي ببلدة بامرني في كردستان، ويتكلم التركية مع التركمان، ويبادلهم الذكريات والأغنيات القديمة، ويجلس على الأرض ليأكل بيده مع البدو وشيوخهم في مناطق شتى من العراق ويحاكيهم بلغتهم نفسها ويتعامل معهم وكأنه أحدهم. يزور العتبات والمراقد في النجف وكربلاء، ويزور مرقد النبي يونس بالموصل،

(1) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014).

(2) Nur Masalha, «Faisal's Pan - Arabism, 1921 - 33,» *Middle Eastern Studies*, vol. 27, no. 4 (October 1991), pp. 679 - 693.

(3) اشتهرت زيارة الملك فيصل الأول إلى البطريرك يوسف عمانوئيل الثاني في 3 حزيران/يونيو 1931 ملبيًا دعوة الأخير على مائدة غداء في دير مار أوراها شمال الموصل. وقد شرح ذلك جورج البنا في كتابه: **الموسوعة الكلدانية، الكتاب الثاني: سلسلة بطاركة الكلدان** (سان دييغو، كاليفورنيا: [د. ن.]، 2007)، ص 266 ـ 268.

ويجلس تحت شجرة تسمّت باسمه في قرية زاويته قرب دهوك بكردستان العراق[4]. يجالس المثقفين ويستمع إلى الشعراء ويفكر في ما يقوله كل المستشارين ويبادلهم الرأي بالحجة، ويمنح من يثق بهم من رجالات العراق حق إصدار القرارات وصناعتها. وكان يعشق دجلة كثيرًا عندما يكتمل القمر بدرًا فيسطع نوره على صفحات دجلة، وهو يأنس بما قاله الشاعر أحمد شوقي في مدحه:

يـا شِـراعًا وَراءَ دِجلَـةَ يَجـري   فـي دُموعـي تَجَنَّبَـكَ العَـوادي[5]

ولا عجب إن وصف ساطع الحصري هذا الرجل بـ «فيصل العظيم»[6]. وكان الرجل متسامحًا مع نفسه، ومع الآخرين في العراق، وكان يتقبّل النقد بصدر رحب كونه يؤمن بالرأي الآخر، ويصبر على خصومه وبذاءاتهم، ومنهم الشاعر معروف الرصافي الذي ما فتئ ينكّل بفيصل وبأتباعه وأنصاره... وقد طلبه إلى مكتبه وجالسه معاتبًا إياه وصرف له راتبًا شهريًا، ولكن معروف بقي يتعامل معه بعنجهية لا معنى لها أبدًا. لقد كانت تجربة فيصل الأول في العراق على مدى قرابة 12 سنة تجربة تاريخية ناجحة في بناء العراق دولة ومجتمعًا، ولكنها مؤلمة جدًا وتعج بالتحديات والمنغّصات والمشكلات، وكان فيصل قد أفصح في أكثر من مكان عن مواقف محبطة، ومشكلات لا معنى لها وهو يعيش في مجتمع مليء بالتناقضات والفوارق والتمايزات والعصبيات والانقسامات وانعدام التجانس من بيئة إلى بيئة أخرى.

دعونا نتوقف قليلاً عند حقيقة هذا الرجل في كيفية تعامله مع العراقيين، وأعتقد أن تجربته التاريخية في قيادة هذا «المجتمع» تعد مدرسة سياسية لا بد أن يتعلم منها كل زعماء العراق اللاحقين، وخصوصًا أن العراقيين كما بدا واضحًا من تاريخهم المعاصر في القرن العشرين أنهم من أصعب شعوب الدنيا، وأن من يحكمهم بحاجة إلى أن يتأهل طويلاً لممارسة دوره السياسي والإنساني معًا، مع حاجة أي زعيم يحكم العراق إلى الحكمة والتروّي والقوة الذكية والبراغماتية بين استخدام القوة تارة والمرونة تارة أخرى، ناهيكم بالاحتكام إلى العقل وفن التعامل في إرضاء كل الأطراف في آن واحد. إن أهم ما يحتاج إليه كل زعيم يحكم العراق هو التجرد من كل نزوعاته وانتماءاته وارتباطاته ليكون رمزًا

---

(4) كانت شجرة الملك فيصل السامقة موجودة حتى عام 1962، وهي شجرة قديمة من الاسبندار، وهي محاطة بدائرة كبيرة أسمنتية، وتقع في قرية زاويته قرب دهوك (من مشاهداتي الشخصية وكنت ابن عشر سنين).

(5) غنى هذه القصيدة الموسيقار محمد عبد الوهاب الذي قدم إلى العراق على عهد فيصل الأول وغنى أمامه.

(6) ساطع الحصري [أبو خلدون]، صفحات من الماضي القريب (بيروت: دار العلم للملايين، 1948)، ص 9-22.

للجميع وسيدًا للجميع وأبًا للجميع، ولقد توافر ذلك إلى حد كبير في فيصل الأول وحده، ولم تتوافر مزاياه لدى غيره من بعده. ويشير علي الوردي إلى كفاءة فيصل الأول في وضع الكفوئين في مناصب الدولة بعدما كانت بأيدي البريطانيين[7].

ثالثًا: حقيقة مشروعات فيصل الأول من أجل تحديث المجتمع

علينا أن ندرك أن عدة مشروعات قد ارتبطت باسم الملك فيصل الأول وعهده وتاريخه، من أجل إجراء تحولات أساسية في البنية الاجتماعية، وقد نجحت تجاربه وفشلت الأخرى، ولم يكن الرجل مسؤولاً عن فشل تلك التجارب بقدر ما كانت هناك عوامل معلنة أو خفية وراء ذاك الفشل، سواء كانت عوامل خارجية أو داخلية. لقد كانت «مشروعاته» حضارية واجتهادية وتنموية وهي تترجم جزءًا من فلسفته السياسية في تأسيس العراق على أسس جديدة، وكلها تحاول أن تجد البدائل الجديدة وإحلالها محل التقاليد البالية القديمة. وإن كان مشروع تأسيس جامعة آل البيت في العراق قد فشل إبان عهده، ليس بسببه، ولكن بسبب انعدام التوافق بين العراقيين على «مشروع» حيوي وتوفيقي في المجتمع[8]، فليس بقية مشروعات فيصل قد فشلت في التأسيس، سواء كانت في الصناعة أو المالية أو التعليمية أو الزراعة والري... إلخ، وخصوصًا بعد أن يكون قد أمّن الظروف الملائمة في مؤسسات الدولة، وكان دومًا يؤكد الأسس الثابتة والقوية في نشوء أي بنيان.

رابعًا: فيصل الأول وفلسفته السياسية في العراق

كثرت الأقاويل والآراء والأفكار حول فيصل الأول الذي يعده المؤرخ مجيد خدوري واحدًا من أبرز الزعماء العرب المؤسسين في النصف الأول من القرن العشرين[9]. وإذا كانت تجربته السياسية والاستقلالية الأولى في تأسيسه الحكومة الفيصلية في سورية

---

(7) علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1976)، ج 6، ص 42.

(8) التفاصيل في: سيار الجميل، **جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية اسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل** (الدوحة؛ الشارقة؛ بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، 2012)، ص 68 ـ 87.

(9) Majid Khadduri, *Independent Iraq, Nineteen Thirty - Two to Nineteen Fifty - Eight: A Study in Iraqi Politics*, 2nd ed. (New York: Ams Pr Inc, 1980), pp. 23 - 56.

عام 1920 قد أخفقت بفعل الاحتلال الفرنسي لها، فإن تجربته السياسية والتأسيسية الدستورية الثانية في العراق قد نجحت، وإن منجزاته أكبر من حجم سنوات عهده، فقد تسلّم حكم العراق وأوضاع العراق تتصف بالتهرؤ والتأخر، ولما رحل مبكراً عن عمر لم يتجاوز الخمسين عامًا كان قد قدّم أمورًا كبيرة للعراقيين بعدما حكم العراق 12 سنة[10]. ويؤكد أغلب الذين تعاملوا معه في الذي كتبوه عنه في مذكراتهم[11]، أن الرجل كان يتصف بالدينامية والعمل الدائب، ولا فراغ عنده يقضيه بسفاسف الأمور أو في اللهو، بل كان يفكّر دومًا بما يمكن تحقيقه للمجتمع والدولة، وكان كلامه واضحًا شديد الوضوح لا لبس فيه ولا مخادعة به ولا أكاذيب وشعارات براقة، ولا خيالات وأوهام ومقولات لا يفهمها الناس، ولم يكن متسلطًا مع مرؤسيه أو مستبدًا على شعبه، إذ كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالعقد الاجتماعي، وقال مرة: «إن كان الناس على دين ملوكهم، فإن الملوك على دين شعوبهم». وكم كان قد تحمّل من ضغوط وأثقال نفسية وفكرية وسياسية، إذ كان بين مطرقة الإنكليز من جانب وسندان الشعب العراقي من جانب آخر. لذا كان يعمل بصمت من أجل العراق وأبنائه وبناته، وكثيراً ما ردد كلمة «الأجيال» إذ يدرك مسؤوليته تجاه المستقبل، فكان يعمل من أجل أن تقطف الأجيال ثمرات مشروعاته.

إن فيصل الأول هو الحاكم الوحيد الذي حمل للعراق مشروع بناء دولة وتحديث مجتمع من بين كل الحكام الذين حكموا العراق من بعده. بل إذا كان مدحت باشا الوالي العثماني قد طبّق بعض الإصلاحات والخدمات العثمانية خلال ثلاث سنوات من حكمه بغداد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[12]، فإن فيصل الأول قد شرع ببناء مشروع كيان جديد اسمه «العراق» يظهر لأول مرة في هذا العالم، وقد تسلّمه مجردًا من كل المنافع والخدمات في إثر الاحتلال البريطاني له الذي دام أربع سنوات شغلتها الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 وتداعياته المريرة[13].

وعليه، فإن العراق يختلف كثيرًا في كل أوضاعه وأحواله عن كل من مصر التي كان

---

(10) لقد عالج هذه المسألة التاريخية المؤرخ محمد مظفر الأدهمي، **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة** (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1988).

(11) من أبرز تلك التسجيلات هي «المذكرات» التي تركها كل من جعفر العسكري ورستم حيدر وتوفيق السويدي ونوري السعيد وعلي جودت وتحسين قدري وأحمد قدري وناجي شوكت وغيرهم.

(12) عباس العزاوي، **العراق بين احتلالين** (بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، 1956)، ج 8، وصديق الدملوجي، **مدحت باشا** (بغداد: مطبعة الزمان، 1952 ـ 1953).

(13) متى عقراوي، **العراق الحديث**، ترجمة المؤلف مع مجيد خدوري (بغداد: مطبعة النجاح، 1936)، ج 1، ص 34 ـ 45.

قد مضى على نشأة حداثتها أكثر من مئة سنة على ولادة العراق المعاصر 1921، ليأتي اعتلاء فؤاد الأول العرش عام 1917 ويسمي نفسه ملكًا، فيأتي فيصل الأول مؤسسًا لتكوين العراق المعاصر عام 1921، وكذلك تركيا العثمانية التي كانت وريثة إمبراطورية كبرى خلفت للمعاصرين في القرن العشرين كل مؤسساتها وأجهزتها ومرافقها وهيئتها الاجتماعية في إثر ولادة الجمهورية التركية على يد الغازي مصطفى كمال أتاتورك عام 1923 ـ 1924. وهناك إيران أيضًا التي كانت تمر بتحولات تاريخية هي الأخرى مع نهايات الحكم القاجاري وتأسيس المملكة الإيرانية على يد الشاه الجديد رضا بهلوي عام 1925. وإذا كان أتاتورك ورضا بهلوي قد ورث كل منهما دولة ومؤسسات مع مجتمع متماسك، فإن فيصل جاء ليؤسس كيانًا وطنيًا[14] لم يكن له وجود، ويجمع شتات مجتمع ويقوده في غضون عشر سنوات فقط ويبني له قوته وينظم مجتمعه ويحقق له استقلاله وينجح بمشروعاته ثم يرحل في أصعب ظروف كان يجتازها العراق.

وكثيراً ما نقرأ أو نسمع أن فيصل الأول بضاعة إنكليزية، وأن الإنكليز كانوا من وراء تنصيبه ملكًا على العراق. وسواء قبلنا هذا أم رفضناه، فلقد أثبتت الأيام أن فيصلاً كان مؤهلاً تمامًا لحكم العراق في مرحلة تأسيسية كتلك، ليس فقط لإمكاناته السياسية وريادته وسحر جاذبيته وتمتعه بكاريزما الزعامة التي افتقدها الآخرون، وليس لأول مرة يجتمع رأي العراقيين عليه من دون أن يجتمعوا على أي مرشح عراقي كان، ولكن الأهم عندي أنه جاء وهو يحمل مشروعًا نهضويًا، بدأ يغرسه في مجتمع العراق الذي أحبه وعشقه تمامًا، وجعل مجتمعات عربية أخرى تنظر إلى تجربته بدهشة. ناهيكم برؤيته البعيدة في التكوين التاريخي ومعرفته لطبيعة الشعب العراقي وقد خبر مزاجه وتقلباته ومشكلاته، فكان مؤهلاً تمامًا لحكم العراق والتعامل مع العراقيين، والكل يعرف مدى صعوبة حكم العراقيين منذ أزمنة سحيقة، إذ لم يتقبلوا بسهولة أي زعيم بسبب عوامل سيكولوجية موروثة. وبالرغم من كل ما قدمّه فيصل إلى العراق والعراقيين، لم يزل هناك بعد مرور مئة سنة على زعامته للعراق من يصفه بملك معلَّب أو مستورَد!

لما وصل فيصل إلى بغداد أول مرة لم يجدها إلا مدينة كئيبة تزيح عن كاهلها متاعب قرون مضت عانت فيها الويلات والخراب. لم تُفتح له القصور أو القلاع، بل استأجر بيتًا

(14) سيار الجميل، «تكوين الحكم الوطني وإسهام الموصليين في تأسيس الدولة العراقية الحديثة،» في: هاشم يحيى الملاح، **موسوعة الموصل الحضارية**، 5 مج (الموصل: جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992)، مج 5، ص 36 ـ 50.

من أحد تجار اليهود وهو شعشوع[15] ليسكن مع عائلته فيه، ويباشر دوامه وعمله في دائرة قديمة حوّلها إلى بلاط مؤقت حتى بُني البلاط الملكي على نحو بسيط.

عندما سخر أحد معارفه السوريين من البيت الذي يسكنه فيصل ببغداد، وكان في زيارة له، سائلاً إياه: يا سيدي أين هو قصرك؟ ولماذا لا تبني لك قصراً ملكيًا يليق بمقامك؟ فأجابه مباشرة: جئت إلى هنا لأبني مملكة لا لأبني قصراً ملكيًا. ويبدا لنا فيصل منذ أن وطئت قدماه أرض العراق، وقد انصرف إلى الإصلاح الداخلي، وتحديث البلاد وبناء المؤسسات، وتقديم الأهم على المهم معتنيًا بالدولة التي أرادها أن تكون دولة محترمة بين الأمم من خلال خدمتها للمجتمع وتعزيز مكانتها في المنطقة وبناء قوتها العسكرية البرية والبحرية والجوية، ووضع دستوراً للبلاد، وأنشأ مجلسًا للأمة حسب السياقات الجارية في العالم، وأقام علاقات بين العراق وبريطانيا على أسس معاهدات 1922، 1926، 1927، 1930، وطبق التجنيد الإجباري عام 1926، وأقام عدداً من المشروعات في الريّ، والصناعة، والمواصلات، والصحة، والتعليم، والكهرباء، والزراعة وغيرها، وعمل جاهدًا على إصلاح ذات البين بين العراق وجيرانه بتوثيق علاقاته معهم ضمن أسس الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، وخصوصًا بين العراق وكل من تركيا وإيران والسعودية مع احترامه للمجتمع بكل شرائحه وصنوفه وتراكيبه وتنوعاته وتقاليده وأعرافه.

إن عشرينيات القرن العشرين في العراق بدت تسابق الزمن بما تحقق من منجزات ومتغيرات لم يشعر بها الجيل الجديد من الشباب، بل شعر بذلك جيل الآباء الذي عاش مخضرمًا بين قرنين: التاسع عشر والعشرين، فوجد الفرق الهائل بين الذي كانت عليه المؤسسات القديمة والحياة البدائية التي كان يعيشها العراق بولاياته الثلاث، وبين الذي تحقق في طفرة زمنية، وقد شملت التحولات الحياة الاقتصادية والمعيشية، وبرز اسم العراق في العالم بتجربته الديمقراطية بالرغم من بدائيتها، فضلاً عن الحريات التي تمتع بها العراقيون في تبادل أفكارهم ومقالات صحفهم التي تكاثرت بصورة غير طبيعية على الإطلاق. وسعى فيصل خلال عهده المليء بالمشكلات إلى تحقيق الاستقلال وإدخال العراق منظمة عصبة الأمم.

---

(15) شعشوع عراقي يهودي من الأغنياء العراقيين في بغداد، كان يمتلك قصرًا عاديًا يطل على كورنيش الأعظمية، ولم يزل بعض العراقيين يستخدم مصطلح قصر شعشوع للإشارة إلى فخامه البناء، وقد حمل هذا القصر اسم بانيه ومالكه. وقد تم تأجيره من قبل الملك فيصل الأول عند بداية مجيئه إلى العراق عام 1921 وهو الآن مملوك من عائلة آل بنيه الموسرة.

خامسًا: الركائز الخمس

لم ينتبه أغلب العراقيين إلى ما كان يحمله فيصل من آراء وأفكار، بل من هواجس وسلوكيات، عبرت عنها ليست خطبه وأقواله، بل أعماله وسياساته ناهيكم بمواقفه وتصرفاته وصنع قراراته من أجل تنفيذ إجراءاته ومشروعاته:

أولًا، نجح فيصل في تأسيس هوية وطنية لم تكن ممأسسة بمضمون أيديولوجي وبخصوصية لها عناوينها، وكانت «السدارة الفيصلية» أحد تلك العناوين التي تميز العراقيون من غيرهم، وكانت أيضًا رمزًا للأفندية الذين صاروا طبقة في المجتمع تتألف من الموظفين والمعلمين وكل القضاة والمحامين والأطباء والمثقفين المدنيين، وتميز كل العسكريين العراقيين منذ ذلك الوقت أيضًا بارتداء السدارة العسكرية التي تميّز بها القادة والضباط والمراتب في شتى صنوف الجيش العراقي؛ أي نجح الرجل بغرس الانتماء للعراق وطنًا ودولة ومجتمعًا شكلًا ومضمونًا، وقد أصبح هو نفسه جزءًا لا يتجزأ منه.

ثانيًا، إن من يتأمل في طبيعة عهده طويلًا، سيجد أن همّه الأساسي بعد سعيه للاستقلال السياسي للبلاد، عمله الدؤوب في تشكيل الانسجام بين العراقيين برفع مستوياتهم ووعيهم بالمواطنة وتعليمهم وانتشالهم من انتماءاتهم المجهرية والجهوية والعشائرية.

ثالثًا، بدا لنا فيصل الأول يعطي لكل ذي حق حقه في المجتمع. بل ويجده الباحث أنه منح الشيعة الجعفرية في العراق حرياتهم بتعاطفه معهم معتبرًا نفسه واحدًا منهم، بل وكان يصّرح بمحبته آل البيت كونه سليلهم، مراعيًا مشاعرهم الزاخرة ومشاركًا إياهم مناسباتهم الدينية. إن الزعامة الحقيقية أن يشارك صاحبها شعبه أفراحهم وأحزانهم، ولم يكن كاذبًا وهو يسلّم على جدّه الإمام موسى الكاظم ثلاث مرات! إن تعاطفه هذا لم يمنعه أبدًا من احترامه لكل العراقيين ومشاعرهم وأديانهم وثقافاتهم وأعراقهم وانتماءاتهم.

رابعًا، كان فيصل الأول ذكيًا باختيار بعض المستشارين العرب له (فضلًا عن بعض العراقيين المختصين)، وكان يؤكد كفاءة الموظفين وأن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب، مركّزًا على «الأهلية» أي الأخلاقيات والمهنية والاحتراف والخبرة.

خامسًا، كان فيصل يدرك تمامًا موقفه التصالحي الواضح تجاه القوى العظمى من جراء حاجته إليها على امتداد زمني طويل وكان يوازن بطريقة معاكسة بين مصالح العراق والمسؤولين البريطانيين، وكانت سياسته يستمدها من مبادئه وفي مقدمة تلك «المبادئ»

المعادلة الوطنية العراقية كونها عراقية عربية. واستنادًا إلى هذه الخلفية، فإن الشعور بالوطنية والانتماء كان يتطور لدى جيل ما بين الحربين العظميين.

سادسًا: فيصل الأول وعواطفه مع العراقيين

تشير الدلائل التاريخية منذ اللحظات الأولى لوجود فيصل الأول في العراق أنه كان متعاطفًا على نحو كبير مع الشيعة الجعفرية ليس من باب التمثيل أو المخادعة، بقدر ما كانت تحمل جوانحه من محبة لهم أثبتتها خطواته أيام مسيرته على عهده الذي دام قرابة 12 سنة. ومن يتوغل في سيكولوجية الرجل، سيجده يحمل عاطفة عميقة ومحبة كبيرة لآل البيت، كونه واحدًا من ذريتهم وسلالتهم، أو هكذا كان قد تربّى منذ صغره. لقد ذكر بعض العراقيين المنصفين حقائق تاريخية حول هذا «الموضوع» بالذات، الذي أعتقد أنه من أهم موضوعات تاريخ السلطات وعلاقاتها بالمجتمع العراقي إبان القرن العشرين. في حين حاول البعض إخفاء معلومات أو طمس حقائق أو تشويه سمعة فيصل أو السكوت على أحداث ووقائع ولأسباب سياسية وأيديولوجية واضحة.

كتب السيد باقر السيد أحمد الحسني في مذكراته، وكان يعَد من أقرب المقربين للعائلة الهاشمية المالكة منذ عهد فيصل الأول، أن فيصل زار الكاظميين في السنة الأولى من وصوله إلى العراق بين عامي 1921 ـ 1922 أربع مرات، بل وشارك أبناءه الشيعة أحزانهم وحدادهم ومآتمهم يوم عاشوراء، وعندما دخل لأول مرة إلى ضريح حضرة الإمام موسى الكاظم، قال: السلام عليك يا جدنّا! دعونا نقرأ النص التالي: «في 4 أيلول/ سبتمبر 1921 حل شهر محرم الحرام وهو الشهر الذي يعلن الشيعة فيه حدادهم على مقتل الإمام الحسين فقرر أن يزور الكاظمية[16] والاهتمام بهذه المناسبة على نحو ما فعله الإنكليز عقب احتلالهم بغداد وأن يساعد المواكب الحسينية بمبالغ مالية، وحضر الملك تعزية أقيمت في الصحن الكاظمي في العاشر من محرم الحرام الذي صادف يوم 13 أيلول/ سبتمبر 1921، وهو اليوم الذي يقام فيه تمثيل واقعة استشهاد الإمام الحسين في صحن الكاظمية. وأُعدت للملك مقصورة خاصة فوق باب القبلة لاستعراض المواكب الحسينية. وقد حضر الملك

(16) للكاظمية أهمية تاريخية مميّزة ترتبط بجانب الأعظمية بجسر حديث يعرف بجسر الأئمة، نحو جانب الرصافة. وكانت تربطها بالعاصمة بغداد سكة حديد حتى عام 1946. وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد بنى مدينة بغداد عام 145هـ وجعل موضع الكاظمية شمال الكرخ مقبرة خاصة سماها (مقبرة قريش الكبرى)، وتسمى أيضًا الكاظميين ففيها مرقد الإمام موسى الكاظم ومرقد حفيده الإمام محمد الجواد، ودفن فيها الإمام أحمد بن حنبل وهو أحد الأئمة الأربعة الكبار عند السنّة والعديد من كبار العباسيين.

بزيه العربي يرافقه جعفر باشا العسكري وزير الدفاع في الحكومة الجديدة، وكان نوري السعيد مدير الشرطة العام في استقباله عند باب الصحن المكتظ بالجماهير. جلس الملك في المقصورة المعدة له ليشرف على المواكب وهي ترفع الأعلام العراقية لأول مرة ويشاهد تمثيلية مصرع الإمام الحسين. ولأول مرة في حياته وبعد انتهاء مراسم الاحتفالية طلب الملك من الشيخ علي الكليدار سادن الروضة أن يعد له مجلسًا للعزاء الحسيني من الغد ولمدة عشرة أيام في الصحن الكاظمي باسمه وعلى نفقته الخاصة، وطلب من السيد باقر الحسني المعين حديثًا في دائرة التشريفات الملكية متابعته والإشراف عليه وفعلاً أقيمت هذه في العشرة الثانية من شهر محرم في صحن قريش ولمدة عشرة أيام، وكانت تقرأ فيها مرثية الإمام الحسين من جانب خطيب الكاظمية الشيخ كاظم آل نوح، وكان الملك يحضر بنفسه مع حاشيته لهذه الجلسات ولعدة أعوام»[17]. ونجد في مكان آخر خبراً عن الحادثة التي وقعت في الكاظمية في يوم عاشوراء في 10 تموز/ يوليو 1927 «بين الأهالي والشرطة أدت إلى مقتل بضعة أشخاص من الطرفين وجرح العديد منهم. وكانت حكومة ياسين الهاشمي قد منعت التشابيه التي كان الشيعة يقيمونها في مثل هذه المناسبة، وكانت دائمًا موضع احترام المسؤولين وعلى رأسهم الملك فيصل الأول في بداية الحكم الوطني، بل كان يحضرها الملك بنفسه... إن هذا الإجراء الذي اتخذته حكومة ياسين الهاشمي ترك أثراً سيئًا واتهمها أهالي المدينة بالتطرف الطائفي»[18].

يتابع السيد باقر السيد أحمد الحسني وهو معاون مدير التشريفات في البلاط الملكي على عهود الملوك الهاشميين الثلاثة، إذ كتب في مذكراته يقول: «فعند احتلال الإنكليز العراق لم يجدوا من طائفة الشيعة من المتعلمين من يصلح للتعيين في دوائر الدولة لإدارة شئونها ومعاونة حكامها السياسيين، وظهرت المشكلة أكثر وضوحًا عند قدوم الملك فيصل الأول إلى العراق وتشكيل أول حكومة برئاسة عبد الرحمن النقيب تحت الانتداب البريطاني فلم يجد الملك بين الشيعة عددًا كافيًا لتعيينهم في الوظائف الحكومية وبعد المداولة مع سكرتيره رستم حيدر شرح لجلالته العراقيل التي وضعت أمام قبول الطلاب الشيعة للدراسة خلال الحكم العثماني للبلاد فقرر جلالة الملك فيصل إدخال بعض الشباب في المدرسة الجعفرية إلى مدرسة الحقوق فأمر سكرتيره رستم حيدر بمفاتحة مدير المدرسة الشيخ شكر الذي زود الطلاب التالية أسماؤهم وثائق تشير إلى إتمام دراستهم

(17) باقر السيد أحمد الحسني، ذكريات في مسيرة الحكم الوطني الملكي في العراق: من الروضة الكاظمية الشريفة إلى البلاط الملكي، إعداد وتحقيق نزار باقر الحسني (عمّان: مطابع دار الأديب، 2011)، ص 113 ـ 114.
(18) المصدر نفسه، ص 136.

الثانوية وتخرجهم من المدرسة الجعفرية وهم عبد الرزاق الأزري، عباس مهدي، محمد حسن كبة، أحمد زكي الخياط، محمد الشماع، عبد الحميد مهدي، عبد الهادي الظاهر، سعد صالح جريو، جعفر حمندي صالح جبر صادق البصام ومحمد عبد الحسين الحسني وغيرهم فرفض توفيق السويدي مدير مدرسة الحقوق قبولهم لعلمه أن المدرسة الجعفرية لم تصل إلى درجة الثانوية في عهد الأتراك ولا في عهد الاحتلال فراجع هؤلاء الطلاب البلاط، فأمر الملك سكرتيره رستم حيدر إخبار توفيق السويدي برغبة الملك بقبولهم فرفض توفيق السويدي وكذلك رفض ساطع الحصري مدير المعارف العام إلا أن إصرار الملك أجبرهم على قبولهم...»[19].

سابعًا: ما يمكن قوله عن فيصل الأول

أعتقد أن فيصل الأول كان الزعيم والحاكم الوحيد في القرن العشرين في تعاطفه مع الشيعة الجعفرية العراقيين، بمشاركته لهم طقوسهم وعواطفهم وقيمهم وتقاليدهم، علمًا بأنه كان سنّيًا، ولكنه لم يبد عليه أبدًا أي مسحة طائفية، بل بالعكس اتهم من جانب معروف الرصافي كونه يمالئ الشيعة أكثر من عنايته بالسنة العراقيين. وأعتقد أن سلوكه السياسي والقيمي دليل على ذكائه وحنكته، إذ أراد أن يوازن بشكل عادل بين أبناء المجتمع تجانسًا خلاقًا بإعطاء كل ذي حق حقه سواء كان الناس من الأكثرية أم من الأقليات كما يسمونها. وهنا، بدا لنا فيصل الأول كم كان ضرورة للعراق، بل وكم كان مؤسسًا حقيقيًا لكيان قوي، وخصوصًا في تأسيس ذلك «التوازن» من أجل صناعة الانسجام بين كل صنوف المجتمع المتنوع، وهذا ما كان ليكون لولا تأسيسه لجَسر في الفجوة ليس بين الحاكم والمحكوم حسب، بل بين هذا الطيف وذاك في المجتمع.

والأمثلة على مثل هذا السلوك متعددة لا تحصى أو تستقصى. إن مجرد حضوره ومشاركته تلك الأيام المقدسة من محرّم الحرام في الصحن الكاظمي الشريف، ومشاركته الناس أحزانهم، له معاني تاريخية وسيكولوجية وسياسية، قلّما يدركها أو كان قد أدركها أي من الحكام الذين أتوا من بعده. وهذا ينطبق بشكل متبادل على زعماء اليوم الذين لم يتعلموا شيئًا من تجارب من سبقهم! وأن مجرد تأسيسه جامعة آل البيت وباسم آل البيت للجمع بين كل المذاهب في بيئة علمية واحدة له معانٍ وطنية خصبة، قلّما فهم مغزاها من أتى بعده من الحكام العراقيين سواء كانوا سنّة أم شّيعة. إن لقاءاته مع علماء الدين

(19) المصدر نفسه، ص 111 ـ 112.

سواء السنّة منهم في الأعظمية أو الحضرة الكيلانية أو الشيعة في الكاظمية والعتبات المقدسة، جعلهم يعتزون به غاية الاعتزاز. بل إنه الزعيم الوحيد الذي كان يذهب إلى بيوت بعضهم لزيارتهم، وقد فعل ذلك في بغداد والكاظمية والموصل، إذ زار جامع النبي يونس بالموصل بعد قرابة شهر واحد من زيارته الكاظمية. وقد استقبله هناك أعيان الموصل وكان بينهم الأديب الشاعر علي الجميل الموصلي، وهو أحد المشتغلين مع فيصل والرعيل الأول أيام القضية العربية في إسطنبول وبلاد الشام بين عامي 1909 و1911، مرحّبًا به بهذه الأبيات الشعرية قائلاً:

أهــلاً بنابغــة الملــوك ومرحبًــا	جــددت عهــدًا للرشــيد وآلــه
ســعد العــراق بفيصــل وبحزمــه	ســعد لعمــر المجــد كل رجالــه
لـولاك يـا مـولاي هـذا القطـر لـم	يســعد بعيشــته ولا اســتقلاله
هـذا هـو الشـرف الفخيـم وإنمـا	شـرف الكبيـر الحـر فـي أعمالـه

وكان كل بيت من هذه الأبيات قد كتب على لوحة خاصة وعلقت الألواح في أماكن بارزة من جامع النبي يونس لمناسبة زيارة جلالة الملك فيصل لهذا الجامع في 12 تشرين الأول/أكتوبر 1921[20]، وكان فيصل قد اتخذ بيت الشربتي بالموصل مقرًا له، واستقبل فيه بشخصيات الموصل وقت ذاك ومنهم علي أفندي الجميل الذي كان يعرفه منذ أيام 1909 في العاصمة الأستانة، وكان الجميل أحد مؤسسي جمعية المنتدى الأدبي، فأخذه من يده وصعدا معًا إلى سطح الدار المطل على دجلة من بعيد، وكان الوقت مساء، وتبادلا الذكريات والحديث عن الموصل التي عشقها فيصل وعبّر عن رغبته بأن يجعلها العاصمة الثانية بعد بغداد[21].

هكذا نعلم أن دلالات زيارات فيصل للعتبات المقدسة ومراقد الأنبياء والأئمة المسلمين وللمعابد اليهودية والصبئيّة والكنائس والأديرة المسيحية مهمة جدًا، وأن انعكاسات لقاءاته مع رؤساء وشيوخ العشائر ومحادثته لهم بالبدوية تقدر حق قدرها، وأن سفراته نحو جبال الأكراد وجلوسه تحت شجرته التي اعتاد أن يجلس في ظلها بقرية زاويتة من توابع دهوك وبلا أية حراسة أو رقابة تدّل على قدرته في انجذاب العراقيين كلهم إليه،

(20) جريدة الموصل، 1921/10/12.

(21) عن أوراق الأستاذ علي الجميل ورقة يتحدث فيها عن فيصل الأول في زيارته الأولى للموصل 12 ـ 13 تشرين الأول/أكتوبر 1921.

وكذلك مخاطبة التركمان العراقيين باللغة التركية التي كان يجيدها جعلتهم يكسبونه إلى جانبهم، ويمنحونه عواطفهم بعدما كانوا من الرافضين له.

ثامنًا: الملك فيصل الأول
لم يجعله العراقيون رمزًا لهم!

سيذكر التاريخ أن الملك فيصل الأول الذي حكم العراق 1921 ـ 1933، وأسس وجوده الحديث هو الرجل الوحيد الذي نجح في تجربته بحكم العراق، لما امتلكه من حنكة وقوة وصبر وذكاء ودهاء... وسيغدو مع توالي الزمن رمزًا لوحدة العراق بالرغم من كره بعض العراقيين له، كونه حكم بلادهم بعدما جاء من سلالة أشراف مكة، وهي عربية هاشمية من الحجاز، ولم يكن من أصلاب العراقيين. ولكن ثبت للقاصي والداني، أنه أسدى إلى العراق خدمة لا تضاهى ورحل إلى بارئه عام 1933 وقد جعل من العراق دولة مستقلة رسميًا، لها مؤسساتها ومكانتها في العالم، وعضوًا مؤسسًا لعصبة الأمم. لقد كان اسمه وسيبقى واحدًا من أبرز القادة العرب الذين عرفهم العالم في القرن العشرين ولكنه غبن في تاريخه غبنًا شديدًا، مقارنة بما حصل عليه غيره من زعماء مؤسسين أمثال أتاتورك تركيا ورضا بهلوي إيران.

كانت تجربة فيصل الأول تجربته في الثلث الأول من القرن العشرين، خالية من خطايا كالتي ارتكبها قادة عرب آخرون في ثلثيه الآخرين. وكانت إيجابيات الرجل من دون شك أكبر كثيرًا من سلبياته، إذ تمتع بقدرة كاريزمية فائقة في الحكم والقيادة وتعامله المتوازن بين البريطانيين والعراقيين. وأستطيع القول إن عهده هو العهد الدستوري والتأسيسي الأول الذي شهد لوحده عراقيًا حرية في الصحافة وانبثاق الأحزاب وولادة الفكر الحديث والتيارات الجديدة. وتعد العشرينيات من أخصب حالات الأجهزة والمرافق السياسية والمدنية والعسكرية برغم فقر البلاد المدقع وارتباط العراق بمعاهدات ثقيلة مع البريطانيين، وخروجه من تركة نظام عثماني طويل كانت له قساوته وسكونيته السياسية والاقتصادية. كما شهد عهد فيصل الأول حالة وفاق دبلوماسي وسياسي مع كل من الجارتين إيران وتركيا إذ توثقت عرى علاقاته بهما[22].

---

(22) لمزيد من التفاصيل، انظر: سيار الجميل، «الخيارات الفكرية والسياسية لدى العرب والأتراك،» **المستقبل العربي**، السنة 17، العدد 185 (تموز/يوليو 1994)، ص 113 ـ 114.

تاسعًا: أولويات العراقيين

كان فيصل الأول يرى أن ثمة أولويات للعراق لا بد أن تتقدم على متطلباته الأخرى، فلا يمكنه أن يغدو دولة محترمة من دون استراتيجيتين اثنتين كانتا وما تزالان تشكلان أخطر ما يواجهه العراق:

أولاهما، **أمن المجتمع الداخلي العراقي** وانضباطه واستقراره وحيادية دولته إزاء تنوعات ذلك المجتمع الصعب المراس. ولقد أثبتت تجارب ذلك القرن صحة هذه النظرية التي ضرب بها الآخرون عرض الحائط. فلقد جمع فيصل الأول ولاء جميع تنوعات الداخل وكل ثنائيات ومزدوجات المجتمع وتناقضاته، فلم يفضّل فصيلاً على آخر، ولا مدينة على أخرى، ولا قومية على أخرى، ولا طائفة على أخرى ولا دينًا على آخر، بحيث لم يتوانَ في إلقاء خطاب له في كنيس لليهود العراقيين. وأعتقد أنه الزعيم الوحيد الذي نجح في فهم العراقيين فهمًا حقيقيًا وهو يحكمهم، وكنت أتمنى أن تبقى مدرسته الفكرية لا السياسية مستمرة حتى اليوم، لكان وضع العراق أفضل كثيرًا مما يعرفه التاريخ.

ثانيهما، ثبات علاقات العراق الإقليمية بجيرانه في النصف الأول من القرن العشرين. إن أخطر ما يهدد العراق والعراقيين ذلك الوضع الإقليمي الذي يقع العراق في إساره، وله أجندته القديمة في التاريخ وله صفحاته القاسية في الواقع. ولقد نجح فيصل الأول في تأسيس ركائز قوية في توثيق علاقات الإقليم وبني في ما بعد على قاعدته كل من ميثاق سعد آباد 1936 وميثاق بغداد 1955. هذان الميثاقان اللذان لم يفهمهما من لا يتمتع ببعد نظر تاريخي، فتعرضا للهجوم الكاسح سياسيًا وإعلاميًا عراقيًا وعربيًا. وهذا أيضًا بعيد جدًا عن فهم أولئك القادة العرب والعديد من المثقفين والسياسيين العرب الذين لا يدركون أبعاده ولا يفكرون في عواقبه أبدًا، وخصوصًا أن لكل من تركيا وإيران أطماعهما القديمة في العراق شمالاً ووسطًا وجنوبًا

عاشرًا: استراتيجية فيصل الأول في تحديث العراق

إنني أرى أن فيصلاً الأول كان يرى أن ثمة أولويات للعراق لا بد من أن تتقدم على متطلباته الأخرى، فلا يمكن للعراق أن يغدو دولة محترمة من دون معالجة حالتين أساسيتين واستراتيجيتين كانتا وما تزالان حتى اليوم تمثلان أخطر ما يواجهه مستقبل العراق، وهما:

أولاً، أمن المجتمع الداخلي العراقي وانضباطه واستقراره وحيادية دولته إزاء تنوعات

ذلك المجتمع العراقي الصعب المراس. ولقد أثبتت تجارب ذلك القرن صحة هذه النظرية التي ضرب بها الآخرون عرض الحائط. فلقد جمع فيصل الأول ولاء جميع تنوعات الداخل وكل ثنائيات ومزدوجات المجتمع وتناقضاته، فلم يفضّل فصيلاً على آخر ولا مدينة على أخرى، ولا قومية على أخرى، ولا طائفة على أخرى ولا دينًا على آخر، بحيث لم يتوان عن إلقاء خطاب له في كنيس لليهود العراقيين! وأنصح كل العراقيين، وخصوصًا من أبناء الأجيال الجديدة، أن تقرأ على مهل وبتفكير عميق وصيته التاريخية (مذكرته) التي كتبها قبل رحيله لكي يعرفوا أن فيصلاً الأول هو الرجل الوحيد الذي نجح في فهم العراقيين فهمًا حقيقيًا وهو يحكمهم، وكنت أتمنى أن تبقى مدرسته الفكرية لا السياسية مستمرة حتى اليوم، إذ كان وضع العراق أفضل كثيراً مما يعرفه التاريخ، ولكن كل من واصل مدرسة فيصل العراقية من بعده، وخصوصًا نوري السعيد ومن تبقّى من رعيله، كانوا قد غلّبوا السياسة على الفكر بحكم ظروفهم برغم معرفتهم بحاجات المجتمع العراقي الأساسية التي لم يدركها الآخرون ويا للأسف!

ثانيًا، ثبات علاقات العراق الإقليمية مع جيرانه في النصف الأول من القرن العشرين من خلال الركائز التي بنيت مع كل من تركيا وإيران والسعودية، حيث خلق محاولة جادة في توفير الأمن الإقليمي في المنطقة. لقد ثبت تاريخيًا أن أخطر ما يهدد العراق والعراقيين هو ذلك الوضع الإقليمي الذي يقع العراق في إساره وله أجندته القديمة في التاريخ وله صفحاته القاسية في الواقع. لقد نجح فيصل الأول في تأسيس ركائز قوية في توثيق علاقات الإقليم وبني في ما بعد على قاعدته كل من ميثاق سعد آباد 1936 وميثاق بغداد 1955؛ هذان الميثاقان اللذان لم يفهمهما من لا يمتلك بعد نظر تاريخيًا، فتعرضا للهجوم الكاسح سياسيًا وإعلاميًا عراقيًا وعربيًا.

لقد أتاحت كلتا الحالتين التاريخيتين المتقدمتين للعراق الفرصة أن يكون عضوًا مستقلاً سيدًا في عصبة الأمم عام 1932.

حادي عشر: فيصل الأول
مؤسسًا دولة ذات مشروع استراتيجي

إن وجود الحكم الملكي في العراق إبان المرحلة التأسيسية في عهد فيصل الأول 1921 ـ 1933 أو إبان المرحلة الانتقالية على عهد غازي 1933 ـ 1939، أي بمعنى، أن العراق المعاصر عاش في أول عقدين من حياته، بروح الفطرة الملازمة لأبنائه الذين وجدوا

أنفسهم في دولة ملكية يقف على رأسها فيصل الأول وابنه، وأعتقد أن جميع العراقيين سواء أولئك الذين كانوا مع فيصل أم ضده قد شعروا بأن شيئًا جديدًا قد ظهر للوجود اسمه العراق الحديث بزعامة ملك مستنير، وهذا يكفي فقط من أجل النسج للإعلان الأولي عن اهتمامات العالم ببلاد عريقة حظيت بملك كسب ثقة العراقيين منذ الأيام الأولى؛ علمًا أن كسب ثقة العراقيين صعبة جدًا في بداية الأمر. ويبدو لي أن تلك «الزعامة» المؤهلة كانت حاجة العراق إليها ضرورة أساسية بالرغم من رؤية العراقيين لها من منظار آخر، فهي قد وجدت فيها مزجًا حقيقيًا بين التاريخ والدين والمذاهب والعروبة والحداثة والقيادة والتجربة الفيصلية. ويبقى الإنكليز هم أصحاب الأمر والنهي في كل المقترحات والترشيحات والحل والعقد والفصل، وأتى العراقيون لينادوا بفيصل بن الحسين ملكًا على العراق. ولحسن الحظ، فإن الذي ساعد على ذلك كله، حجم التواريخ التي حفرها المثقفون والعسكريون العراقيون في الذاكرة، وهم الذين قادوا تحركات العرب ضد الأتراك أيام الحرب العالمية الأولى تحت قيادة فيصل نفسه .

ثاني عشر: الدولة في العراق تسبق المجتمع

من المنجزات الأساسية للعراق، التي غدت مثار اعتزاز نخبة واسعة من المثقفين العراقيين على صفحات الجرائد والمجلات في الفترة بين 1921 و1939، ما سمي «استقلال العراق» ودخوله كأول دولة في المنطقة عضوًا مستقلاً في عصبة الأمم، وهذا إجراء مهم جدًا على المستوى الدولي. وكان هناك سبب آخر هو أن مواكبة الحاجات المستمرة للبلاد التي كانت في طور صعب من التردي والتخلف. وعليه، فقد أضيفت منجزات بصورة رائعة إلى وسائل التعليم، وبتماسك كافٍ أخذت الملكية العراقية في هذه السنين بفكرة مشروع التعاطف مع آلام جميع الوطنيين العرب وحياتهم وبتأييد صارخ من قبل المثقفين العراقيين مدنيين كانوا أم عسكريين. بدأ العمل بنشر هذه الفكرة في المدارس على عهد فيصل الأول (1921 ـ 1933)، الذي اتبع كرئيس أعلى للبلاد نهجه الريادي بحكم ما تملكه من كاريزما، لم يتمتع بمثلها غيره من القرناء، وفي العراق، قبل أي بلد عربي آخر، ولكن بإلحاح واضح. وأقصد بنهج الريادة هنا، العمل على تأسيس كيان مدني حديث لكل من الدولة والمجتمع، وهذا ما لم نجده عند معاصريه من القادة العرب، فلقد تفوق كثيرًا بقدراته في هذا المجال على أخيه الأمير عبد الله الأول في شرقي الأردن، أيضًا على الملك فؤاد الأول في مصر، وأيضًا على الملك عبد العزيز آل سعود وغيرهم.

لقد استطاع فيصل ومن حوله العشرات من الساسة والمثقفين المدنيين والعسكريين العراقيين الأوائل، بناء كيان عراقي مدني تفوَّق على غيره من الكيانات العربية أولاً سنة 1921، وسبق كلاً من الجمهورية التركية (التي تأسست عام 1923 ـ 1924 على يد أتاتورك) والمملكة الإيرانية (التي تأسست عام 1925 على يد الشاه رضا بهلوي) بالرغم مما في العراق من مشاكل داخلية متنوعة، إذ كانت هناك واجبات صعبة تفرض نفسها بإلحاح أيضًا تتمثل برعاية مختلف عوامل الثبات التي تضغط على المشاعر العامة والأهداف العامة أيضًا في داخل العراق.

ثالث عشر: مشروع تجديد العراق

سعيًا لتجديد العراق في المؤسسات الوطنية، باشر الملك فيصل الأول اهتمامه بكيفية تقّبل المجتمع لتلك المؤسسات أولاً، وكيفية بناء علاقات الثقة بين العراق وجيرانه من أجل وضع نهايات لكف الأذى الذي يتعّرض له البلد من كل الأطراف ثانيًا، في حين تبقى الوحدة الوطنية هي الشغل الشاغل والهم الوحيد أمامه ثالثًا، واعتماده على أهم كفاءات البلاد وأكثرها عملاً وتفانيًا وإخلاصًا للبلاد لا لنفسه وتجسيره للفجوة بينه وبين كل أبناء النخبة العراقية رابعًا، ناهيكم بمبدأ «خذ وطالب» في التعامل مع الإنكليز الذين ربطوا العراق بمعاهدات معهم خامسًا. هذه كانت أهم النقاط الجوهرية في سياسة فيصل في مشروعه تجديد العراق .

أبقى فيصل عيونه متيقظة ليس فقط على ما هو يستحق ذلك، ولكن على ما يمكن أن يحقق بالتدريب، وتجنب أي خطوة تثير ذكريات المغامرة الفردية؛ فلقد كان مؤسسًا لدولته الفيصلية من قبل أن يغتالها الفرنسيون في دمشق، كما تجنّب تمامًا أن يثير أي مشاعر عراقية بالضد من سياسته، على الرغم من تمكنه من إصدار قرارات استراتيجية. ومع كل هذا وذاك، لم يخلص الرجل من انتقادات حادة وجهها العراقيون له علنًا وبلا أي مبرر. وبالطبع في هذه تمامًا مثل الاتجاهات السياسية المناسبة الأخرى كان يتوخى تجنيب العراق الدخول في أي مزالق إقليمية وفي منطقة حساسة مشوبة بالحذر، وكان يخشى عاقبة أي انقسامات داخلية فلم يشغل باله تمامًا إلا بشعبه، وأنه كان قلقًا على مصيره من بعده رغم تأسيسه على قاعدة القوة داخليًا، ويكفي ذلك برهانًا ساطعًا على من يقول بأن فيصلاً في مبادئه وركائزه كان نموذجًا مستعارًا لدولة خلقها الإنكليز!! وإذا كان فيصل له بعض الأخطاء والهفوات، فهي لا تعد خطايا وجنايات كالتي ارتكبها غيره من زعماء العراق لاحقًا، إذ لم يبق فيصل

الأول رمزاً تأسيسيًا للعراق، ولم يتبع كل الزعماء الذين أتوا من بعده خطواته أسسا والبناء عليها مقارنة بما حدث في كل من إيران وتركيا والسعودية.

إن العراق بعده وتحت حكم ولده الشاب قليل الخبرة الملك غازي (1933 ـ 1939) سقطت الدولة فريسة للانقلابات العسكرية والقلاقل الداخلية من قبل القبائل، وتأثيرات القوى السياسية العربية، ولكن على أي حال لم يكن هناك حاجة ضرورية إلى الانحراف عن الطريق الرئيسي للسياسة الملكية التي رسمها المؤسس فيصل، ما عدا فترة قصيرة (1936 ـ 1937)، إذ غدا العراق قاعدة أساسية لفعاليات جميع العرب من ساسة ومثقفين، وأصبح مسرحًا قوميًا قويًا يعطي اهتمامه للمشكلات العربية أكثر مما يعطيه للتوازنات والمعضلات الداخلية، علمًا بأن الجيش العراقي نمت قوته من 800 ضابط و19500 رجل مقاتل في عام 1936 إلى 1426 ضابطًا و26345 رجلاً مقاتلاً في عام 1939، وكان هناك القليل من الطيارين العراقيين في عام 1933 إذ كان يبلغ عددهم 37 طيارًا، وكان من المتوقع أن يزدادوا إلى 127 في نهاية العام التالي.

أكثر من ذلك، فإن الخط الحديدي الأمامي من بغداد إلى قصبة بيجي شمالاً، وهو جزء حيوي من الخط المعياري، كان من المفترض أن يكون جزءًا استراتيجيًا من الخط الحديدي بغداد ـ برلين، ولكنه تُرك غير مكتمل في نهاية الحرب العالمية الأولى، وأُكمل عموديًا باتجاه الشمال الغربي وصولاً إلى قرية تل كوجك عند الحدود السورية، وهي خطوة استراتيجية في حياة مسالك العراق البرية التي عملت على تغيير اتجاه اقتصادات المنطقة من الموصل شمالاً إلى الخليج العربي جنوبًا، وذلك يعني في الحقيقة ليس فقط الربط بين المدن العراقية، بل يعني تقدم عملية التطوير في اتجاه التغيير الاجتماعي في العراق وتأسيس التجسير المنظم في الاقتصاد.

والتفت فيصل الأول إلى المؤسسة الصحية، فوجد من الضروري تأسيس كلية للطب في العراق معتمدًا في ذلك على الطبيب البريطاني هاري سندرسن. ففي عام 1927، تأسست كلية بغداد الطبية، ونصّب سندرسن أول عميد وأستاذ للطب فيها. وسرعان ما تم الاعتراف بالمدرسة من قبل الكليات الملكية للأطباء في لندن والجرّاحين في إنكلترا، الأمر الذي مكن الطلاب العراقيين من الدراسة في بريطانيا بعد إكمال دراستهم الأولية فيها. كما ساعد سندرسون في ثلاثينيات القرن الماضي على إنشاء الهلال الأحمر وإنقاذ الأطفال في

العراق[23]. هكذا، لحقت بتأسيس هذه الكلية الحيوية عدة كليات ومعاهد كان من أشهرها دار المعلمين العالي التي تخرج في أروقتها أفضل المبدعين ورواد الثقافة العربية إبان النصف الأول من القرن العشرين.

هذا غيضٌ من فيض التأسيس، وهذه مجرد نماذج وأمثلة تاريخية لما حفل به تجديد العراق الحديث بعدما كان مشرذمًا وضعيفًا وآيلاً للانقسامات الداخلية، وتعبث به الأجندة الخارجية مهما كان نوعها. لقد كانت معاناته ولم تزل ناتجة ليس من عوامل خارجية بحتة فقط، بل إنه كان يكابد ولم يزل من أمراض داخلية لا توصف، وإذا كان العراقيون يحلمون بدولة يمكن أن يكون لها وزنها بين الأمم، فقد كان عليهم أن يجددوا أساليب تفكيرهم بخلاصهم من ترسبات البداوة والأمراض الاجتماعية المزمنة التي دامت طويلاً، فباتوا يحلمون بمجتمع آمن ومستقر يمكنهم أن يعيشوا فيه على درجة من التقدم والاستقرار. وأعتقد أن فيصلاً الأول قد أدرك المعادلة الصعبة التي ناضل من أجلها طوال سنوات عهده، وحقق نتائج ممتازة.

رابع عشر: فيصل الأول:
رائد التكوين السياسي والثقافة القومية في العراق

كان في مقدور العراقيين أن يولّوا عليهم وينادوا على عرش مملكتهم الوليدة واحدًا منهم، ولكنهم اختاروا بمحض إرادتهم وبملء وعيهم أحد القادة العرب اللامعين فانتخبوه بالإجماع بعد ترشيحه ملكًا على العراق، فلقد حظي فيصل بن الحسين، كقائد عربي حجازي له سمعته القومية وشهرته السياسية، بتقدير وحب العراقيين، وكان أغلب أنصاره في قيادته لحملاته على الأتراك للحقبة 1916 ـ 1920 هم من العراقيين العسكريين والمدنيين الذين عملوا في جيشه ومؤسسته وإدارته، وكان اسمه يسري على الأفواه بوصفه شخصية قومية بطولية عربية مؤسسة لها تأثيرها التاريخي الواضح في الحركة العربية سواء في ميدان الحرب أم في قيادة حكومته العربية ضد الفرنسيين في سورية، أو في ترؤسه الوفد العربي إلى مؤتمر الصلح بباريس سنة 1919.

لم يجد أبناء العراق حرجًا في أن يتولى زعامة العراق عربي حجازي سليل أشراف

(23) Harry Chapman Sinderson, *Ten Thousand and One Nights: Memories of Iraq's Sherifian Dynasty*, foreword by Dame Freya Stark (London: Hodder and Stroughton, 1973).

مكة، بل إن المثقفين والعسكريين منهم وجدوها فرصة تاريخية للعراق أن يتزعمه فيصل بن الحسين، ففي ذلك تمهيد السبيل لنيل الطموحات السياسية وتحقيق (التطلعات) القومية التي ناضلوا من أجلها السنوات العجاف الطوال، وقد صدق زعمهم إلى حد كبير، إذ غدا العراق على امتداد عقود القرن العشرين قاعدة سياسية واجتماعية وثقافية للحركة القومية العربية، ومعينًا لا ينضب من النتاجات والبطولات والنضالات كما يصفه أغلب الكتاب القوميين، سواء كانوا من العرب أم العراقيين. ولقد كانت النتائج عند نهايات القرن العشرين لغير مصلحته أبدًا بعد كل الذي قدمه من أجل القضايا القومية التي أولاها العراقيون اهتمامهم أكثر من إيلائهم الاهتمام لشؤونهم الداخلية.

كان الملك فيصل الأول نفسه، أحد أبرز المثقفين العرب الذين يمتلكون موهبة أدبية راقية، ووعيًا سياسيًا بمستقبل أمتهم، فكرّس نهجه السياسي في بلورة جملة من الإنجازات، فضلاً عن كونه امتلك وعيًا اجتماعيًا بمشاكل العراق الإثنية والمذهبية والعشائرية، فكان عهده تأسيس لبنة أساسية قوية في انطلاق الدولة والمجتمع الجيدين ويشكل ومضمون تاريخيين جديدين. وقد ناضل العراقيون تحت راية وإدارة فيصل ضد الإنكليز حتى حصلوا على استقلالهم الوطني مبكرًا. إن ما يمكن ملاحظته لدى القوميين العراقيين أنهم كانوا أكثر قومية من الملك نفسه، بحيث وجدت أن الرجل كان يمتلك وعيًا بمشاكل العراق الوطنية أكثر من العراقيين القوميين أنفسهم، وكثيرًا ما صّرح بذلك سواء في خطبه منذ اعتلائه العرش وانتهاءً بآخر مذكرة تاريخية كتبها باسمه وتركها من بعده للتاريخ من أجل مستقبل العراق.

لم يكن أحد من أفراد الأسرة الهاشمية بثقافة الملك فيصل الأول، أو إمكاناته الريادية، وقد ازدحم عهده بالمثقفين والمربّين والمدرّسين العرب، وتواصل بعده عهد الملك غازي الذي ازدحم بالساسة والضباط والمفكرين والمدرسين العرب (وكان أغلبهم من يحمل نزعة قومية صارخة)، وكان الأمير زيد بن الحسين[24] (أخو الملك فيصل) قد غدا عراقيًا هو الآخر،

(24) الأمير زيد هو أخو فيصل (غير الشقيق) والابن الرابع للشريف الحسين بن علي، من زوجته الثالثة عادلة خانم فقط. تلقى تعليمه في مدرسة غلطة سراي الثانوية في إسطنبول، وكلية القسطنطينية وكلية باليول بجامعة أكسفورد. وبين العامين 1916 و1919، كان الأمير زيد قائد الجيش الشمالي العربي في عمليات الثورة العربية. عمل منذ عام 1923 في سلاح الفرسان العراقي وتمت ترقيته إلى رتبة عقيد. ثم عمل سفيرًا عراقيًا في برلين وأنقرة في الثلاثينيات ولندن في الخمسينيات. وبقي مع أسرته في لندن وتوفي الأمير زيد في باريس يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر 1970 ودفن في الضريح الملكي بقصر رغدان، عمان، الأردن. وقد أنجب من زوجته الأميرة فخر النساء نجله الوحيد الأمير رعد بن زيد في تشرين الثاني/نوفمبر 1933. انظر: Kamal S. Salibi, *The Modern History of Jordan* (London: I. B. Tauris, 1998).

ويمتلك قدرًا من الثقافة السياسية التي أهّلته للخدمة في السلك الدبلوماسي العراقي. إن الميراث التاريخي لحكم الأسرة الهاشمية في العراق يمثل في حد ذاته ظاهرة عربية نادرة، ولكنها لم تستمر؛ إذ صادفت المزيد من المشاكل والتحديات، علمًا بأن العراقيين كانوا وما يزالون يغرسون في ذاكرتهم التاريخية أعمق الفصول والأحداث والشخوص والألوان والتجارب والتواريخ، التي ترافقت مع تأسيس دولتهم المعاصرة في تجربتها القومية. وقد شدد العراقيون على النزعة القومية قبل أن يستقر وضع العراق من الناحية الدستورية والوطنية والمؤسسية. ومن يراجع أدبيات فيصل الأول وخطبه نجده يؤكد المواطنة العراقية أولاً، ثم على العرب والعروبة ثانيًا، ثم على الإسلام والأديان السماوية ثالثًا. وعليه، فقد فهمه وفهم أيديولوجيته الخاصة البعض من أبناء جيله، وخالفه البعض الآخر ممن كانت له رؤى ومفاهيم من نوع آخر.

خامس عشر: التأسيس النهضوي في العراق

عندما وصل فيصل الأول إلى العراق لبدء مشروعه في التغيير والتقدم، لم يجد أناسًا لهم قدراتهم وكفاءاتهم وتخصصاتهم من العراقيين. إنه لم يجد إلا حفنة صغيرة من المختصين والأطباء والمعلمين والأساتذة والبقية أغلبهم من الموظفين الأفندية أو من ذوي الثقافة البسيطة، وكانت المدن تعج بالملالي ورجال الدين، وأن الحياة الجديدة تتطلب ذوي التخصص في مختلف الميادين، وخصوصًا في التعليم. وعليه، فلم يكن أمام فيصل إلا الاستعانة بعدد من الأساتذة الأكفاء ومن خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، وكذلك عدد من المربيات والمدرسات المتخصصات، وقد شغلوا مواقع حيوية من مدن العراق.

1 ـ الملك فيصل الأول مؤسسًا لمجتمع موحّد

إن وجود الحكم الملكي في العراق إبان المرحلة التأسيسية على عهد فيصل الأول 1921 ـ 1933 أو إبان المرحلة الانتقالية على عهد غازي 1933 ـ 1939، أي بمعنى، أن العراق المعاصر عاش في أول عقدين من حياته، بروح الفطرة الملازمة لأبنائه الذين وجدوا أنفسهم في دولة ملكية يقف على رأسها فيصل الأول وابنه. وأعتقد أن جميع العراقيين سواء أولئك الذين كانوا مع فيصل أم ضده قد شعروا بأن شيئًا جديدًا قد ظهر للوجود اسمه العراق بزعامة عربية هاشمية، وهذا يكفي فقط من أجل النسج للإعلان الأولي عن اهتمامات السلالة الهاشمية الحاكمة التي تمثلها أسرة صغيرة جدًا اكتسبت ثقة العراقيين منذ الأيام

الأولى علمًا بأن كسب ثقة العراقيين صعبة جدًا في بداية الأمر. ولحسن الحظ، فإن الذي ساعد على ذلك التواريخ التي حفرها المثقفون والعسكريون العراقيون في الذاكرة، وهم الذين قادوا تحركات العرب ضد الأتراك أيام الحرب العالمية الأولى.

من المنجزات الأساسية للعراق التي غدت مثار اعتزاز نخبة واسعة من المثقفين العراقيين في الحقبة 1921 ـ 1933 كانت تتمثل بما سمي «استقلال العراق» ودخوله كأول دولة في المنطقة عضوًا مستقلاً في عصبة الأمم، وهذا إجراء مهم جدًا على المستوى الدولي. وكان هناك سبب آخر هو أن مواكبة الحاجات المستمرة للبلاد التي كانت في طور صعب من التخلف. وعليه، فقد أضيفت منجزات بشكل رائع إلى وسائل التعليم. وبتماسك كاف أخذت الملكية العراقية في هذه السنين بفكرة مشروع التعاطف مع آلام جميع الوطنيين العرب وحياتهم، وبتأييد صارخ من قبل المثقفين العراقيين مدنيين كانوا أم عسكريين. بدأ العمل بنشر هذه الفكرة في المدارس في عهد فيصل الأول (1921 ـ 1933)، الذي اتبع كرئيس أعلى للبلاد نهج ريادة في هذا الباب قبل أي بلد عربي آخر، ولكن بإلحاح واضح، بالرغم مما في العراق من مشاكل داخلية متنوعة، إذ كانت هناك واجبات صعبة تفرض نفسها بإلحاح أيضًا تتمثل برعاية مختلف عوامل الثبات التي تضغط على المشاعر العامة والأهداف العامة أيضًا في داخل العراق.

2 ـ فيصل الأول: النسيج الداخلي بين اللحمة والتفكك

قال الملك فيصل الأول في مذكرته الخاصة التي كتبها قبل أن يموت بأنه ما زال هناك الكثير الذي يستوجب عمله. قال ذلك بقلب مليء بالأسف بأن ليس هناك شعب عراقي ولكن هناك جمهرة كبيرة جدًا من الكائنات البشرية خالية من أي أفكار وطنية، ولكنها مشربة بتقاليد سخيفة غير مرتبطة مع بعضها، وهذه الجمهرة تصغي لصوت الشر، ميالة إلى الفوضى السياسية، وهي دومًا مستعدة للنهوض ضد أي حكومة مهما كانت. ويتابع فيصل بأن من كل هذه الجماهير نريد أن نوجد شعب ندرّبه، ونعلّمه، ونهذبه... لقد أدرك فيصل الأول طبيعة المجتمع العراقي منذ وقت مبكر. كما عمل بمعرفة ودراية على استمالة الشيعة في العراق والاستماع إلى مطالبهم ومعاناتهم على امتداد تاريخ طويل. كما أصغى للسنة العراقيين وعرف أوضاعهم. فبدأ فيصل ليس بطريقة المصادفة كما يريد البعض أن يقول بتحسين الوضع الاجتماعي والمعيشي لكل الطوائف ولم تجرِ أية تفرقة طائفية في عهد التأسيس، وليسهل تسلمهم وقبولهم للخدمة الحكومية، عبر أشياء أخرى وضع أعضاء

شباب من هذه الطائفة في برنامج تدريبي سريع ومنحهم الفرصة ليصعدوا في مراكز عالية في المسؤولية.

كذلك رأى الأكراد يتلقون نصيبًا جيدًا من التعيينات الحكومية، وفي الوقت نفسه شعر بأنه يمكن أن لا يكون هناك عمل جاد وصلب نحو حالة جيدة حقيقية من دون قوة الجيش. وبما أن الحكومة بعيدة من الناس وضعيفة، كانت في عام 1933 في البلد أكثر من 100,000 بندقية بينما الحكومة تقتني 15,000 فقط. كانت هناك شكوك لدى فيصل الأول حول إذا كان سيستطيع التعامل مع نشوب حرب مسلحة في مناطق واسعة منفصلة، فكّر بأنه سيكون من الجنون عمل إصلاحات مهمة ومشاريع تطوير بدون التأمين بأن هناك قوة حماية كافية. ولكل هذه الأسباب أخذ في الحسبان بأن الجيش هو العمود الفقري لإنشاء الأمم. وفقًا لذلك في عام 1933، وهو العام الذي حصل في بعض المناطق الداخلية العراقية ما يثير القلق. وعليه، قام فيصل برفع القوة العسكرية العراقية المؤسسة إلى 11500 رجل من مجموع 7500 الذي بقي ثابتًا منذ عام 1925.

3 ـ فيصل الأول والحركة النسوية

أولى فيصل الأول عنايته بالمرأة كثيرًا، وجعلها نصف المجتمع ويتوجب العناية به وبالنسوة، وقد بدأت الحركة النسوية العراقية بأنشطة اجتماعية معلنة في بادئ الأمر، وتقدم تلك الحركة نخبة من نسوة الطبقة الأرستقراطية العليا في المجتمع ممثلاً ذلك بـتأسيس أول نادٍ نسوي سموه «نادي النهضة النسائية» في بغداد 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1923، وتألف من المؤسسات السيدات: نعمة سلطان حمودة، وأسماء الزهاوي، وحسيبة جعفر، وبولينا حسون، وعقيلات كل من عبد الرحمن الحيدري، ونوري السعيد، وجعفر العسكري وساطع الحصري وغيرهن.

كانت بولينا حسون (أخت الصحافي المعروف سليم حسون)، وكانت تتمتع بثقافة عليا، وقد بدأت أنشطتها في المجال الصحافي، إذ أسست أول مجلة نسائية عراقية باسم ليلى في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1923 وترأست تحريرها مطالبة بتعليم المرأة ويمنحها حقوقها السياسية. ومن ثمّ بدأ تأسيس المنظمات النسوية الخيرية مثل الهلال الأحمر وجمعية حماية الأطفال وجمعية بيوت الأمة وجمعية البيت العربي. تجدر الإشارة إلى أن هناك نخبة من المثقفين العراقيين المستنيرين طالبوا بتعليم المرأة وتهذيبها ومنحها حريتها وحقوقها والدخول إلى ميادين الحياة الوظيفية من خلال العمل والإنتاج. ووقف فيصل نفسه إلى جانب المرأة وإنصافها في المجتمع راغبًا في أن تكون مشاركتها فعالة إلى جانب

الرجل. كانت المرأة العراقية تعيش عهدذاك ظروفًا بالغة الصعوبة، إذ كان الصراع محتدًّا بين دعاة السفور ودعاة الحجاب، وكان المحافظون هم الأغلبية في المجتمع والمجددون الأقلية.

انعقد المؤتمر النسائي الشرقي في بغداد في تشرين الثاني/نوفمبر 1932 بعدما استأذنت نور حمادة رئيسة المؤتمر من الملك فيصل الأول فأذن لها في أن يعقد المؤتمر في بغداد، فاجتمعت الوفود النسائية العربية وجاء عن المؤتمر: «لأول مرة في التاريخ تحظى بغداد بانعقاد مؤتمر نسائي كهذا. وللمرة الأولى يتاح للمرأة العراقية مثل هذه الفرصة النافذة فهل لها أن تنتهزها بدراية وذكاء»[25].

استنتاجات

كان العراق محظوظًا جدًا أن يتزعمه رجل متمدن ومستنير كي ينتشل هذه البلاد من مخاضها الصعب، ويفتح الأبواب أمام خبراء ومختصين ليساهموا في بناء المؤسسات، وتنوير الأذهان وتنمية جيل جديد مع عناية بالخدمات التي يتطلبها بناء إنسان جديد ومجتمع جديد. وقد وجدنا حجم التحديات التي صادفها البناة الأوائل سواءٌ كانوا من العراقيين أم كانوا من العرب، ناهيكم بما صادفته المرأة من اهتمام إبان العشرينيات لتكون الأساس لنمو حركات ثقافية ونسوية عراقية متقدمة.

(25) مجلة الحاصد، العدد 13 (تشرين الثاني/نوفمبر 1932).

الفصل الثاني عشر

المجدّد

مشروع تجديد العراق ومذكرة فيصل والرحيل الأخير

أولًا: فيصل إزاء زعماء آخرين

بعيدًا ممّن بقي يعجب بالملك فيصل الأول مؤسس العراق المعاصر الذي حكم خلال الحقبة 1921 ـ 1933، أو ممّن اختلف معه ومع أسلوبه، فالأمانة التاريخية تقتضي بعد مرور 70 سنة على رحيله، استعادة ذكراه كواحد من أبرز القادة العرب الذين عرفهم العالم في القرن العشرين ولكنه غبِّن في تاريخه غبنًا شديدًا، وبرغم بعض أخطائه التاريخية، والإنسان غير معصوم من الأخطاء، إلا أن تجربته في الثلث الأول من القرن العشرين كانت خالية من خطايا كالتي ارتكبها قادة عرب آخرون في ثلثيه الآخرين. نعم، لقد كانت الحالة صعبة ومريرة في ظل أوضاع الهيمنة الفرنسية والبريطانية على العرب، ومع ذلك إيجابيات الرجل من دون شك أكبر كثيرًا من سلبياته. ولقد تمتع بقدرة كاريزمية فائقة في الحكم والقيادة وتعامله المتوازن بين البريطانيين والعراقيين؛ وفي عهده الذي استمر 12 عامًا ولدت من خلاله دولة العراق المعاصر وبُنيت مختلف مؤسساتها الدستورية والخدمية.

ومر عهده بسلسلة من المعاهدات مع بريطانيا، ولم يرحل الرجل عام 1933، إلا وكان العراق قد نال استقلاله رسميًا ودخل عضوًا أصيلًا في عصبة الأمم. أي أن فيصلًا الأول لم يرحل إلا وكان العراق دولة معترفًا بها لها سيادتها وكامل مؤسساتها. وأستطيع القول إن عهد فيصل الأول هو العهد الدستوري والتأسيسي الأول الذي شهد لوحده عراقيًا

حرية في الصحافة وانبثاق الأحزاب وولادة الفكر الحديث والتيارات الجديدة، وتعدّ حقبة العشرينيات من أخصب حالات الأجهزة والمرافق السياسية والمدنية والعسكرية برغم فقر البلاد المدقع وارتباط العراق بمعاهدات ثقيلة مع البريطانيين، وخروجه من تركة نظام عثماني طويل كانت له قساوته وسكونيته السياسية والاقتصادية. كما شهد عهد فيصل الأول حالة وفاق دبلوماسي وسياسي مع كل من الجارتين إيران وتركيا، إذ توثقت علاقاته مع مؤسسَين اثنين لهما: مصطفى كمال أتاتورك والشاه رضا بهلوي.

ثانيًا: أولويات العراق

كان فيصل الأول يرى أن ثمة أولويات للعراق لا بد من أن تتقدم على متطلباته الأخرى، فلا يمكن للعراق أن يغدو دولة محترمة من دون معالجة حالتين أساسيتين واستراتيجيتين كانتا وما تزالان حتى اليوم تمثلان أخطر ما يواجهه مستقبل العراق، وهما:

1 ـ أمن المجتمع الداخلي العراقي وانضباطه واستقراره وحيادية دولته إزاء تنوعات ذلك المجتمع العراقي صعب المراس. ولقد أثبتت تجارب ذلك القرن صحة هذه النظرية التي ضرب بها الآخرون عرض الحائط. فلقد جمع فيصل الأول ولاء جميع تنوعات الداخل وكل ثنائيات ومزدوجات المجتمع وتناقضاته، فلم يفضّل فصيلاً على آخر، ولا مدينة على أخرى، ولا قومية على أخرى، ولا طائفة على أخرى، ولا دينًا على آخر، بحيث لم يتوان عن إلقاء خطاب له في كنيس لليهود العراقيين.

وأنصح كل العراقيين، وخصوصًا من أبناء الأجيال الجديدة، أن تقرأ على مهل وبتفكير عميق وصيته التاريخية التي كتبها قبل رحيله لكي يعرفوا أن فيصل الأول هو الرجل الوحيد الذي نجح في فهم العراقيين فهمًا حقيقيًا وهو يحكمهم، وكنت أتمنى أن تبقى مدرسته الفكرية لا السياسية مستمرة حتى اليوم، لكان وضع العراق أفضل كثيرًا مما يعرفه التاريخ، ولكن كل من واصل مدرسة فيصل العراقية من بعده، وخصوصًا نوري السعيد وعبد الكريم قاسم، كانا قد غلّبا السياسة على الفكر برغم معرفتهما بحاجات المجتمع العراقي الأساسية التي لم يدركها الآخرون ويا للأسف!

2 ـ ثبات علاقات العراق الإقليمية مع جيرانه في النصف الأول من القرن العشرين.
إن أخطر ما يهدد العراق والعراقيين ذلك الوضع الإقليمي الذي يقع العراق في إساره وله أجندته القديمة في التاريخ وله صفحاته القاسية في الواقع. ولقد نجح فيصل الأول في تأسيس ركائز قوية في توثيق علاقات الإقليم وبني في ما بعد على قاعدته كل من ميثاق سعد آباد 1936 وميثاق بغداد 1955. هذان الميثاقان اللذان لم يفهمهما من ليس له بعد

نظر تاريخي، فتعرّضا للهجوم الكاسح سياسيًا وإعلاميًا عراقيًا وعربيًا... وهذا أيضًا بعيد جدًا من فهم أولئك القادة العرب والكثير من المثقفين والسياسيين العرب الذين لا يدركون أبعاده ولا يفكرون في عواقبه أبدًا، وخصوصًا أن لكل من تركيا وإيران أطماعهما القديمة في العراق شمالاً ووسطًا وجنوبًا.

ثالثًا: عراق فيصل إزاء الآخرين

في جهوده لتجديد العراق في المؤسسات الوطنية، باشر الملك فيصل الأول بالاهتمام وأبقى عيونه متيقظة ليس فقط على ما هو يستحق ذلك، ولكن على ما يمكن أن يحقق بالتدريب، وقام بتجنب أي خطوة تثير ذكريات المغامرة على الرغم من تمكنه من إصدار قرارات استراتيجية. وبالطبع في هذه تمامًا، مثل الاتجاهات السياسية المناسبة الأخرى، كان يتوخى تجنيب العراق الدخول في أي مزالق إقليمية وفي منطقة حساسة مشوبة بالحذر، وكان يخشى عاقبة أي انقسامات داخلية، فلم يشغل باله تمامًا إلا بشعبه، وكان قلقًا على مصيره من بعده برغم تأسيسه على قاعدة القوة داخليًا، ويكفي ذلك برهانًا ساطعًا على من يقول بأن فيصلاً في مبادئه وركائزه كان نموذجًا مستعارًا لدولة خلقها الإنكليز!! مع أن العراق بعده وتحت حكم ولده الشاب القليل الخبرة الملك غازي (1933 ـ 1939) سقطت الدولة فريسة للانقلابات العسكرية والقلاقل الداخلية من جانب القبائل، وتأثيرات القوى السياسية العربية. ولكن على أي حال لم يكن هناك حاجة ضرورية إلى الانحراف عن الطريق الرئيسي للسياسة الملكية التي رسمها المؤسس فيصل، ما عدا فترة قصيرة (1936 ـ 1937)، إذ غدا العراق قاعدة أساسية لفعاليات جميع العرب من ساسة ومثقفين، وأصبح مسرحًا قوميًا قويًا يعطي اهتمامه للمشكلات العربية أكثر مما يعطيه للتوازنات والمعضلات الداخلية، علمًا بأن الجيش العراقي نمت قوته من 800 ضابط و19500 رجل مقاتل في عام 1936 إلى 1426 ضابطًا و26345 رجلاً مقاتلاً في عام 1939، وكان هناك القليل من الطيارين العراقيين في عام 1933، إذ كان يبلغ عددهم 37 طيارًا، وكان من المتوقع أن يزدادوا إلى 127 طيارًا في نهاية العام التالي.

وأكثر من ذلك، فإن الخط الحديدي الأمامي من بغداد إلى قصبة بيجي شمالاً، وهو جزء حيوي من الخط المعياري، كان من المفترض أن يكون جزءًا استراتيجيًا من الخط الحديدي بغداد ـ برلين، ولكنه تُرك غير مكتمل في نهاية الحرب العالمية الأولى، قد أكمل عموديًا في اتجاه الشمال الغربي وصولاً إلى قرية تل كوجك عند الحدود السورية، وهي

خطوة استراتيجية في حياة مسالك العراق البرية التي عملت على تغيير اتجاه اقتصادات المنطقة من الموصل شمالاً إلى الخليج العربي جنوبًا، وذلك يعني في الحقيقة ليس الربط بين المدن العراقية فقط، بل يعني تقدم عملية التطوير باتجاه التغيير الاجتماعي في العراق وتأسيس التجسير المنظم في الاقتصاد.

رابعًا: الحياة الاقتصادية الصعبة

1 ـ الأوضاع الاقتصادية

إن قراءات متأنية في صحف عراقية إبان عهد فيصل تجعلنا نرسم رؤية واضحة عن أوضاع العراق الاقتصادية وحجم المعاناة الاقتصادية والضائقة المعيشية التي كان يعيشها الناس وقتذاك والمشاكل الكبيرة التي كان يعانيها العراقيون، وخصوصًا البطالة وقلة الرزق وعسر الحال ونضوب منابع الثروة مع قلة العمل وغياب البرامج الحكومية وموت المهن مع حالة الركود والاعتماد على الرواتب والإعانات وتعطيل قوى الإنتاج في العراق بالاعتماد على المستورد الذي غزا الأسواق. وقد نشرت مقالات صارخة في ما يخص إنعاش الحياة الاقتصادية ومنها حاجتنا إلى الصناعة وحماية الإنتاج الوطني وحماية المعملات الداخلية فضلاً عن الدعوة إلى تخريج مهرة متدربين وليس إلى تخريج أفندية متعلمين[1].

«لا قوام للدولة الا بخزينة مليئة، ولا استقلال، بل ولا حياة، بلا ثروة؛ فالثروة هي روح الاستقلال، ثم لا حياة لأمة تثقل عاتقها الضرائب الباهظة، والرسوم الفادحة، وهي في حالة حرجة يمكن أن يقال عنها إنها عائمة في بحر من الإفلاس، نظرًا لوقوف محور التجارة، وموت الصناعة والحرف في سائر البلاد العراقية المسكينة، والزراعة قد شعر بحالها وتعاستها الغريب والقريب...». ونقرأ في مكان آخر نقدًا عن أحوال العراق الاقتصادية: «سنة بعد سنة وعراقنا المحبوب ما زالت ميزانيته هي كما هي عليه منذ بضع سنوات إن لم يصبها عجز فتقابل بين الواردات والمصارفات وإن كان فضلة فلن تسمن ولا تغني من جوع ولا يمكن أن تذكر، وما ذاك إلا لما قد تكبدته من المصارفات الباهظة ورواتب باهظة يمكن خفضها ووظائف كثيرة يمكن الاستغناء عنها وجيوب قضت الظروف بحكم الضرورة أن تملأ من خزينة الدولة، بل من مال الأمة يمكن أن يكون قد حان قطع المخصصات عنها كل ذلك

---

(1) سرمد الجميل، **مقالات علي الجميل في الاقتصاد والتجارة** (الموصل: دار العابد للطباعة والنشر، 2009)، ص 72 ـ 87 و95 ـ 102.

مما أنهك الميزانية أضف إلى هذه المبالغ المخصصة للجيش العراقي التي يمكن اقتصادها لو تبدل الأصول ورجال الأمة والقابضون على إدارة شؤون الأمة في غفلة عن البحث والتنقيب عن إيجاد المنابع للواردات وعن البحث عن مشروعات اقتصادية تفيض الذهب والفضة للحكومة والأهلين معًا»[2]. من جانب آخر، فإن الثروات كان يسيطر عليها أبناء الطبقة العليا المتألفة من الأعيان وشيوخ القبائل. ذلك «أن بريطانيا خلقت قاعدة اجتماعية للنظام الملكي، مثبتة لزعماء القبائل الملائمين لهوائها والحيازة الكاملة لما كان يكوّن سابقًا ثروات قبائلهم المعهودة»[3]. وهنا أخالف هذا «الرأي»، ذلك أن تلك القاعدة الاجتماعية كانت مترسخة في المجتمع العراقي قبل أن يأتي الإنكليز، ولم يكن ليعيش النظام الملكي من دون الاعتماد على تلك القاعدة الموروثة منذ الأزمنة العثمانية، وخصوصًا تركة عهد التنظيمات العثمانية، وبضمنها تداعيات قانون الأراضي وقانون الطابو وقانون التسوية، وقد وجد أصحاب الثروات والإقطاعات في العراق أن مستقبلهم رهين النظام الملكي والعكس صحيح. أما الصناعة، فقد بقيت متخلفة بسبب التخلف، ووصف المؤرخ لونغريغ ذلك الوضع الصناعي في العراق خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته بتوصيفه قائلاً: «لم يكن بإمكان التطور الصناعي أن يتقدم إلى الإمام بالرغم من أنه كان ضمن منهاج كل وزارة، وأنه حظي بالتشجيع المسرف بموجب التشريع الذي سُن فيه عام 1929، فقد كان العراق يعاني من عجز في رأس المال والمواد الأولية والأيدي الماهرة والقوة الشرائية المحلية»[4].

2 ـ نقطة التحول الاقتصادي: من مجتمع خامل إلى مجتمع إنتاجي ثم إلى ريعي

كان يوم 5 نيسان/أبريل 1927 يومًا حافلاً في العراق، إذ احتفل فيصل الأول وشعبه بتدشين فتح أول بئر نفطي في العراق من قبل شركة النفط التركية المحدودة وفي الاحتفال الذي جرى أقيم لذلك، قال المدير العام للشركة المستر بول:

«يا صاحب الجلالة إننا بسرور عظيم، نرحب بجلالتكم هنا في هذا اليوم بمناسبة افتتاح عمليات الحفر في العراق. لقد أظهرتم جلالتكم منذ البداءة قدرًا فائقًا للفائدة التي سينالها شعبكم الكريم من استثمار منابع النفط في هذه المملكة العظيمة. إن التقدم الذي

---

(2) علي الجميل، «ميزانية الدولة بين أيدي نواب الأمة،» صدى الجمهور، العدد 13 (31 آذار/مارس 1927).

(3) انظر: أحلام حسين جميل، الخلفية السياسية والاجتماعية للأوضاع التي كان يطبق في ظلها دستور 1925 في العراق (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1986)، ص 15 ـ 34.

(4) Stephen H. Longrigg, *Iraq, 1900 - 1950: A Political, Social, and Economic History* (London; New York: Oxford University Press, 1953), pp. 210 - 213.

تم حتى الآن إنما يعود فضله في مقياس غير صغير إلى مؤازرة جلالتكم المستمرة... إن مهمة القيام باستثمار منبع نفط جسيم على طريقة عملية واقتصادية، لهي مشكلة عظيمة جدًا، فالجيولوجيون والمهندسون والحفارون جميعهم يجب أن يؤدوا وظائفهم قبل أن يتحققوا من وجود النفط بكميات تجارية. لقد تمّ حتى الآن في ما يتعلق بمناطق النفط في العراق كثير من هذه الأعمال الأولية. والآن أشرتم جلالتكم إلى البئر الأول ببدء الحفر فيها حتى الطبقات السفلى التي نرجو أن نجد فيها خزائن النفط المكنونة، وسيباشر في أقرب ما يمكن من الزمن بآبار أخرى... إن نجاح أعمالنا حسبما نؤمل، سيزيد زيادة ثمينة في واردات حكومة جلالتكم، وسيعين على تخفيف عبء دافعي الضرائب، ولكن المنفعة المالية ليست الرابطة الوحيدة التي تربط مقدرات هذه الشركة بمقدرات العراق. إنه لمن آمالنا أن توجد وظائف لعدد كبير من العراقيين ولأفراد من شعوب أخرى تقطن هذه البلاد، وأن تمنح بصورة خاصة كل فرصة تقدم للشبان الطموحين من الطبقات المهذبة الذين يمكن أن ينخرطوا في أشغالنا، وكذلك سنكون بوجه عام مستعدين في كل زمان لأن نعمل بكل ما في طاقتنا على ازدياد سعادة العراق وأهله...»[5].

فأجابه الملك فيصل بخطاب مطول أقتطع منه بعض فقراته المهمة. قال:

«يسرني كثيرًا أن أرى النجاح ظاهرًا في أعمالكم. لا أشك في أن الصعوبات التي اعتورت أعمالكم كانت كبيرة...، وإنما تذلل الصعوبات بمثل الجهود التي بذلتموها وأثني على القائمين بها من جيولوجيين ومهندسين وغيرهم... إني أعلم أن مصالحنا في هذا المشروع مشتركة كل الاشتراك، فما ينجم منه من خير لنا نفعه، ومن شر لا سمح الله فعلينا ضرّه، لذلك يتحتم علينا أن نتآزر إدراك النجاح التام ولا ندرك هذا النجاح إلا إذا أخلصنا النية وعملنا يدًا واحدة على استثمار هذه الخزائن المكنونة ضمن ما تتطلبه مصالحنا المشتركة.. تخفيفًا لعبء البلاد وزيادة في يسر أبنائها ورفاهيتهم إنما يعود عليها نفسها بفوائد جمة.. راجيًا أن تتوّج أعمالكم هذه بالنجاح المطلوب لخير الجميع»[6].

3 ـ العراق سيصبح مصرَ أخرى!

لقد نشرت جريدة **إيفننغ ستاندارد** *(Evening Standard)* رسالة من رئيس غرفة التجارة السابق في بغداد قال فيها إن العراق سيصبح بعد سنوات قليلة مصرَ أخرى، بل وأعظم من

(5) جريدة صدى الجمهور، العدد 105 (5 نيسان/أبريل 1928).

(6) المصدر نفسه.

القطر المصري. ولا شك أن لبريطانيا نصيب عظيم في استخراج الكنوز المدفونة في هذا القطر[7]. جاء ذلك في مقال بعنوان «مستقبل العراق الاقتصادي» قال فيه المستر ولسون رئيس غرفة التجارة الإنكليزية في بغداد سابقًا في الجريدة المذكورة، قال فيها: إن زراعة العراق وما يستخرج من معادنه، وما يستنبط من زيته هي كل يوم في ازدياد، فالمستقبل أمامه عظيم الإشراق، وإذا دام تقدمه على هذا المنوال بضع سنوات، أصبح مصرَ ثانية، ولكن أعظم منها، وستسترد إنكلترا من نصيبها في هذه السوق كثيراً من المال الذي أنفقته في زمن الحرب! وقد أثار هذا الكلام بعض العراقيين وحنقهم، إذ توضحت أهداف بريطانيا من العراق[8].

وفي لبنان، انتشرت من خلال الصحف اليومية دعوة إلى اللبنانيين للهجرة إلى العراق بدلاً من ذهابهم إلى أمريكا، فقد جاء في صحيفة **الوطن** اللبنانية القديمة ببيروت دعوة بعنوان «هاجروا إلى العراق ولا تكونون فيه غرباء» اختصر ما جاء فيها: «دعونا أبناء لبنان إلى انتياب العراق بدلاً من انتياب الأقطار الأميركية، وقلنا إن في العراق رزقًا وبسطنا فضل المهاجرة إليه. إن العراق يستقبله على الرحب، وفي العراق يرى قومه وأهل لسانه، وفي العراق سهول زراعية واسعة، وفي العراق أرض يستطيع اللبناني أن يستعمرها، وفي العراق حكومة تعامل اللبناني كما تعامل العراقي وإذا لا بد من حمل الكشة، فحملها في العراق أشرف وأربح من حملها في غاب البرازيل... وإذا كان لا بد من الضرب في الأرض، فأرض العراق أخصب أرض في الدنيا. إن الزارع يتسع له هناك مجال الزراعة، والصانع يتسع له مجال الصناعة والتاجر تتسع له سوق التجارة، والأديب يعيش عزيزاً، فاذا قال شعراً جيدًا أو نثر كلامًا طيبًا تلقته حوله مسامع العرب. زد على ذلك أن الهجرة إلى العراق ليست بكثيرة المشقات والنفقات. والعراق أشد من أميركا احتياجًا إلى الأيدي العاملة. ويا حبذا لو أن حكومة لبنان تفاوض الحكومة العراقية في سبيل معاهدة تعقد بين الفريقين على هذا الشأن الحيوي»[9].

لا أعتقد أن الدعوة قد لقيت آذانًا صاغية، وخصوصًا بعد طرد العراق للأستاذ أنيس زكريا النصولي في العشرينيات، ومن بعده جاء مقتل الوزير رستم حيدر من جانب عراقيين!

(7) جريدة صدى الجمهور، العدد 104 (2 نيسان/أبريل 1928).

(8) جريدة صدى الجمهور، العدد 103 (29 آذار/مارس 1928).

(9) جريدة صدى الجمهور، العدد 102 (23 آذار/مارس 1928) (نقلًا عن جريدة الوطن البيروتية).

وعليه، فقد بقيت القوانين العملية سارية في الأرياف العراقية، لأن عملية التفتيت لا يمكنها أن تأتي دفعة واحدة، سياسيًا وإداريًا واقتصاديًا واجتماعيًا سواء ما يخص مهام شيوخ القبائل ورؤساء العشائر والملاكين والإقطاعيين المتنفذين، إذ عاش العراق منذ أزمنة طويلة مشكلة الأراضي، وهي مشكلة موروثة مستحكمة ومعقدة جدًا[10]، ولكن حدث أن بدأ أول تفتت لتلك القيم لمصلحة الدولة المؤسسة ولمصلحة مجتمع مقسم ومنقسم ومتعدد القبائل، فبدأت عناصر الوحدة الوطنية تنمو بشكل مضطرد. كانت الملكية العراقية تتكلم عن فكرة لتكامل الشعب (أمة عربية واحدة، شعب عراقي واحد) أو تعبر عن الروابط بصورة مختلفة، في حين بقي الشيخ هو المدافع عن العرف والتقاليد. ولكن الملكية الجامعة لكل الولاءات بدت نصيرة فكرة توحيد قانون الأمة، ولكن ضمن فلسفة تقول بحضور عدد كبير من العرب ساسة ومثقفين وعاملين في البلاد، وبعدما كان هناك إنكار متأصل بين فكرة الشعب العراقي الواحد وفكرة الشعب العربي الواحد، ولكن عوامل الاستنكار كانت تخف شيئًا فشيئًا بوجود حقيقة اتحاد جميع العرب (الوحدة العربية) التي حمل لواءها جميع أنظمة الحكم في العراق في عهديه الملكي والجمهوري. ولكي نكون موضوعيين في تقييم السياسة العراقية، فإنني أعتقد بأن سياسة النظام الملكي في العراق لم تكن خاطئة في بلورة العراق أن يكون قاعدة للقومية العربية في فترة ما بين الحربين العظميين ضمن المنظور الآني، ولكنها أخطأت خطأً جسيمًا في عدم قدرتها على رؤية المستقبل ضمن نمو التفكير السياسي لدى العراقيين أنفسهم والعمل على خلق قاعدة داخلية عراقية وطنية خالية من المشكلات والشوائب الداخلية قبل المغامرة في العزف المكثف على أنشودة الوحدة العربية... ذلك أن الجيل العراقي الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية وبدأ العمل في الميدان السياسي والثقافي برغم تشبعه بالمبادىء القومية، إلا أن انقسامًا سياسيًا سيحصل عنده في التفكير والوعي والممارسة والخطاب والعمل بين آليتين غير متناسقتين البتة مثلتا تناقضًا صارخًا بين الوطنية العراقية والقومية العربية.

يقول علي علاوي عن فيصل الأول: «كان النفوذ البريطاني كبيرًا بما يكفي لإعطاء مصداقية لمطالبة المعارضة بأن العراقيين ما زالوا عبيدًا لقوة عظمى». وهذا ليس بصحيح

(10) عماد الجواهري، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق، 1914 ـ 1932 (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1978)، ص 111 ـ 176 و309 ـ 313.

أبدًا، بدليل ما شهده العراق إبان عهد فيصل. ولو طال عمر فيصل لعشرين سنة أخرى لسلك العراق مسالك أخرى! إذ ساد التسامح العرقي والديني، وكم تقضي الضرورة باستحضار ذلك لمعالجة حالة العراق المعاصر، إذ كان لفيصل دوره في نزع فتيل الأسباب الجذرية للعنف والطائفية والتمزقات. إن تحليل مبادئ فيصل يُظهر كيفية تعامله مع الديناميات العرقية والدينية والسياسية والطائفية لا تزال تمثل إعاقات في إعادة رسم الشرق الأوسط اليوم(11).

سادسًا: فيصل الأول ومشروع تأسيس جامعة آل البيت

يأتي قرار الملك فيصل الأول بتأسيس جامعة في العراق باسم «جامعة آل البيت» متزامنًا مع تأسيسه مؤسسات وأجهزة ومرافق متعددة منذ السنة الأولى لاعتلائه عرش العراق سنة 1921، نظرًا إلى حاجة البلاد وأبنائها إلى مؤسسة علمية عليًا من أجل بناء كوادر علمية مثقفة وكفؤة في إطار تكوين العراق المعاصر، وخصوصًا، في العاصمة بغداد التي كانت منارة للعلم والعلماء في سالف الأزمان، وما شهدته تواريخها الحضارية المزدهرة من المدارس الكبرى ودور العلم والترجمة وخزانات الكتب وأسواق الأدب وبيوت الفقه واللغة والبيمارستانات.. وكان فيصل الأول يمتلك الوعي بأهمية تجديد مكانة بغداد العلمية، وهو يزور أطلال المدرسة المستنصرية ويقرأ عن بيت الحكمة والنظامية. هكذا، ولدت فكرة تأسيس جامعة علمية في العراق ترعى حاجته الأساسية. وجاء التأسيس سريعًا لضرورة أجمع عليها المفكرون الذين كانوا قد بسطوا ذلك في الصحف البغدادية.

كان فيصل الأول يدرك جيدًا ومنذ اللحظة التاريخية الأولى لوصوله إلى العراق أن المجتمع الذي سيقوم بمهمة إدارته، هو مجتمع تتباين مستوياته وانتماءاته، وتتنوع أغراضه وأهواء الناس فيه، وأن أبناءه بحاجة ماسة وحقيقية إلى الثقافة والمعرفة والنضج، وهي السبل الأساسية لمحو تبايناته وتنوعاته الدينية والمذهبية والطائفية والقومية والأقلياتية، وأن ذلك لا يتم فعلاً إلا من خلال بناء مؤسسات علمية راقية تجتمع من خلالها الكلمة، وباستطاعة خريجيها الارتقاء بالمجتمع والدولة معًا، ولا سيما أن الدولة كانت لم تزل

(11) Charles Tripp, *A History of Iraq*, 3rd ed. (New York: Cambridge University Press, 2007), pp. 34 - 76.

في طور الانتداب، وأن استقلال العراق بحاجة ماسة إلى رجالات لهم تكوينهم وثقافتهم وكفاءتهم العليا[12].

كان أبناء العراق قد اعتمدوا في تربيتهم وتكوينهم وتدريبهم علميًا وأدبيًا وفنيًا، مدنيًا وعسكريًا، على المدارس العليا في إسطنبول، فضلاً عن مدرسة الحقوق ببغداد وعلى شعب الاختصاص في «دار الفنون» و«دار المعلمين» والمدرسة العسكرية، وعلى «مدرسة الصناعة» العثمانية في الموصل وذلك في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وجاء تأسيس الحكم الوطني وانبثاق الدولة العراقية كنقلة تاريخية نوعية في حياة المجتمع العراقي الذي بقي قرابة أربعة قرون في ظل الحكم العثماني؛ وأن ذلك «المجتمع» غدت له الآن شخصيته وهويته ورسالته الجديدة في الحياة المعاصرة وخصوصًا بعدما تقلد الملك فيصل الأول مقاليد سلطاته الدستورية فيه.

ويبدو للدارس والمؤرخ أن الرجل كان على دراية تامة بما هي عليه أحوال المجتمع العراقي قبل وصوله إليه. فلما بدأ إدارته للعراق أخذ يفكر استراتيجيًا بما تحتاج البلاد إليه في المستقبل، وذلك بإيجاد مخارج حقيقية وعملية لرجال العراق وشبابه القادرين على تحّمل أعبائهم والاضطلاع بمسؤولياتهم والقيام بواجباتهم الوطنية بعد تحصيلهم درجات الكفاءة وشهادات المهارة وتعيينهم موظفين في وزارات الدولة ومؤسساتها الإدارية والقضائية والتربوية والفنية، كما أن كلاً من الدولة والمجتمع العراقيين كانا بحاجة ماسة إلى كوادر متخصصة في الآداب والعلوم والفنون يمكن الاعتماد عليها كنخبة عليا في الإصلاحات النهضوية والعمليات التحديثية، ناهيكم بأن تكوينًا كهذا لا يمكن إنجازه في خارج البلاد، وذلك بالاعتماد على التعليم العالي الأجنبي نظرًا إلى عدة محاذير، منها: صعوبة إرسال البعثات الدراسية وكلفتها المالية، وصعوبة المواصلات، وازدياد عدد الطلبة وغيرها من الأسباب. وأعتقد أن الاهتمام الرسمي قد انصبّ أساسًا على تخريج كوادر من الموظفين والمعلمين، وغابت أي مشروعات لتخريج كوادر مهنية وحرفية وفنية وخلق صناعيين وزراعيين في البلاد.

لقد صرح الملك فيصل الأول عدة مرات بـ «إعادة مجد المستنصرية» وصلاحيتها

---

(12) سيار الجميل، جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية إسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل (الدوحة؛ الشارقة؛ بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، 2012)، ص 87 ـ 89. وللتوسّع في ملابسات ما حدث على مدى ست سنوات من حياة هذه «المؤسسة» التي أغلقت بعد فشلها جراء التباينات الفكرية بين رجال العلم ورجال الدين، انظر: فهمي المدرس، بيان عن جامعة آل البيت: الشعبة المالية الدينية في دورين من حياتهما: دور التأسيس ودور الجهاد العلمي (بغداد: مطبعة الآداب، 1930).

لهذا الغرض السامي، وكان قد تفقّدها مع جمهرة من العلماء العراقيين في اليوم العاشر من شهر ذي القعدة سنة 1339 هجرية 16 تموز/يوليو 1921 (أي بعد خمسة أيام فقط من المناداة به على عرش العراق يوم 11 تموز/يوليو. وتّم تنصيبه في 22 آب/أغسطس 1921، ولكن تبيّن أن ما تبقى من أطلال المستنصرية التي شيدت في القرن الثاني عشر الميلادي لا يصلح لجامعة حديثة في القرن العشرين؛ وأجمع الرأي على إبقاء القديم على قدمه مع جعله متحفًا أثريًا أو مكتبة عامة. لقد بقي فيصل الأول يستقرئ الأحوال من جميع نواحيها مع بعض رجالات العراق، وبالأخص من أصحاب الحل والعقد، مفاتحًا إياهم بتأسيس صرح علمي كان يشجعه بنفسه، مشترطًا لإنجازه: الإخلاص الدائم والعزم القوي والمال الوفير والإجماع على التأييد. ولما كانت الجامعات مظهرًا من مظاهر الاستقلال، فإنها لا تأتي بطريقة عفوية بل بطريقة مدروسة، كي تغدو صرحًا أساسيًا في البلاد من أجل الاستقلال الذي يعد صعب المنال. هكذا، تحقق حلم فيصل أمل العراقيين بتأسيس جامعة مستوفية شروط الجامعات العصرية، وذلك لما ضمّته من شعَب (كليات) وأقسام علمية على حّد تعبير رئيسها فهمي المدرس. وهذا يخالف ما ذهب إليه ساطع الحصري من أن الجامعة لم تستوفِ شروط العصر، فكان مصيرها الرحيل مع الأسف [13]!

سابعًا: على أعتاب النهاية:
مذكرة الملك فيصل الأول

1 ـ مذكرة مثيرة للجدل

يقدم فيصل الأول مساهمة مهمة في فهم العراق والعراقيين للأجيال القادمة من خلال مذكرته (الشهيرة) ـ إنْ صدّقنا أنها له ـ المكونة من ثماني صفحات وقد كتبت في عام 1932، أي قبل وفاته بعام واحد، وتم توزيعها على النخبة السياسية العراقية. إن تحليلها عقلانيًا والتأمل فيها علميًا سيجعل من فيصل الأول هو الزعيم العراقي الوحيد الذي فهم العراقيين على حقيقتهم، فما تضمنته من فقرات يعدّ ذات أهمية تاريخية ومعاصرة كبيرة ويجب أن تخصص لكل العراقيين الذين يحكمون العراق أو كل المواطنين الذين يريدون التخلص من آفات حكمتهم

---

(13) سيار الجميل، «الملك فيصل الأول والتأسيس العلمي الحديث: جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: تأسيسها وتجربتها وتداعياته،» في: مجموعة من المؤلفين، بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)، إعداد وتحرير هند أبو الشعر (المفرق؛ عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999)، ص 341 ـ 383.

عدة قرون. وبدا فيصل فيها أشجع زعيم عراقي قدم تحليلاً نقديًا صارخًا للمجتمع العراقي. واتفق مع علاوي الذي قال: «ليس هناك وثيقة أكثر أهمية في التاريخ العربي الحديث»[14].

2 ـ تساؤلات من أجل الدقة التاريخية

مضت سنوات على رحيل الملك فيصل الأول من دون أن يذكر أحد أية مذكرة كتبها فيصل وأرسلها إلى بعض خواصه، إلا بعد مضي سنوات طوال، وهي «المذكرة» التي زعم البعض أن فيصل قد كتبها قبل وفاته[15]. وقد عوّل عليها العديد من المؤرخين تعويلاً كاملاً، وبنوا أحكامهم المطلقة من خلالها. إن التأمل في نص «المذكرة» يمنحنا الثقة بعد مقارنتنا لما جاء في خطبه على امتداد 12 سنة من حكمه للعراق[16]، ذلك أن «المذكرة» قد كتبها أحد مستشاريه وربما كان رستم حيدر، سواء في آخر حياة فيصل، أو في إثر رحيله وختمت باسمه لاحقًا، وخصوصًا أن «النص» قد ورد في مرجع يتيم واحد كتبه بعد زمن من رحيل فيصل موظف صغير اسمه عبد الرزاق الحسني[17]! ثم نشرت ملحقًا في ذكريات علي جودت، ووجدناها في كتاب عبد الرحمن البزاز، ثم تناقلها الآخرون .

إن مشكلة هذا «النص» ليس عند صاحبها الذي صدق في خطابه، إذ كتب مذكرته وكأنها وصية منه للعراقيين الذين يستوجب عليهم قراءتها من خلال نزعة وطنية كونها تمتلك أهدافًا سامية لبناء العراق في المستقبل. وإنني أعتبرها «وثيقة» تلخص تجربة فيصل في حكم العراق، وقد كتبها وهو في كامل وعيه وأهليته، إذ تعد واحدة من الأوراق التي كتبت من أجل بناء دولة موحدة ومتقدمة، وتسعى لأن يدرك المجتمع العراقي طبيعة دولة

---

(14) Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014), p. 536.

(15) كنت أعتقد، وربما كنت مخطئًا، بأن المذكرة قد ألصقوها به ظلمًا منذ أن نشرها عبد الرزاق الحسني حتى اليوم، انظر: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ الوزارات العراقية**، 10 ج في 5 مج، ط 7 (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988)، ج 3، ص 318. (وكان قد طبع عدة طبعات من قبل في لبنان). وبالرغم من نشرها عند أكثر من شخصية عراقية حاولت البحث عن مصدر رسمي وأكثر ثقة للاعتماد عليها، حتى وافاني مؤيد الونداوي بصورة صفحة قديمة مطبوعة على الآلة الكاتبة لصفحة من المذكرة.

(16) **فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق** (بغداد: مديرية الدعاية العامة، مطبعة الحكومة، 1945).

(17) انظر نص المذكرة عند: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ الوزارات العراقية**، ط 2 (صيدا: مطبعة العرفان، 1965)، ج 3، ص 286. وقد أعاد نشرها أيضًا: عبد الرحمن البزاز، **العراق من الاحتلال إلى الاستقلال**، ط3 (بغداد: مطبعة العاني، 1967)، (ملحق ب)، ص 311 ـ 319. انظر أيضًا: علي جودت، **ذكريات 1900 ـ 1958** (بيروت: مطابع الوفاء، 1967)، ص 356. من المفيد جدًا مقارنة نص المذكرة، مع خطاب التتويج، انظر: البزاز، ملحق أ، ص 309 ـ 310. وللاطلاع على المزيد من المعطيات، انظر: برامج الأحزاب العراقية المشكلة خلال المرحلة الأولى من تأسيس الدولة، عند: الحسني، **تاريخ العراق السياسي الحديث**، ط 2، ج 3، ص 206 ـ 212.

المواطنة. وعليه، فينبغي قراءتها بروح وطنية وقد كتبها زعيم أخلص للعراق وأهله. هكذا، نعلم أن الملك فيصل الأول أراد أن يسجل «مذكرة» بينه وبين بعض رجاله من المساجلة الخاصة لا العامة للمذاكرة بشأن أهم المشكلات الاجتماعية التي يعيشها العراقيون، فكتب (أو: كتبت عنه) مذكرة في آذار/مارس 1932، أي قبل شهور فقط من الاستقلال، حيث اشتكى من الأوضاع الاجتماعية المركبة والمعقدة في العراق، وتناول بالنقد بعض السلوكيات السيئة للعراقيين، وصعوبة طبعهم، ولخّص جهوده في أن يصنع من هذا العراق وطنًا موحدًا ينصهر فيه الجميع، وبلدًا يمكن أن يكون له أدواره في المستقبل.

3 ـ مذكرة من أجل بوصلة عراقية للمستقبل

إن مذكرة فيصل[18] اقتنع الجميع أن فيصل هو من كتبها (أو أوعز لأحدهم بكتابتها نقلاً عنه) قبل وفاته ووزعها على خاصته من المسؤولين طالبًا مناقشة ما فيها، إذ لم يرد ذكرها في أي مصدر رسمي أو غير رسمي على عهد الرجل، ولكنها ظهرت فجأة لاحقًا من دون أية معلومات عن مصدرها وكيف كُتبت؟ وهل ثمة ردود على ما طلبه فيصل من جماعته في ما تضمنته، وخصوصًا أن الرجل يطرح فيها مشروعًا للإصلاح والتغيير. لم يذكر عبد الرزاق الحسني من أين وصلته المذكرة، وهو الذي نشرها أول مرة[19]، إذ يبدو أنه استلبها من أحدهم من دون أن يذكر اسمه، أو أنه قد سطا عليها من دائرة عليا كعادته التي سطا فيها على محاضر وملفات ووثائق ديوان مجلس الوزراء.

ولكي نناقش محتوى ما ورد في هذه «المذكرة»، فلا بد أن نفترض أنها تعود للملك فيصل بالرغم من أنني لم أزل غير مقتنع تمامًا، ذلك أن مجرد التأمل في نص «المذكرة» يمنحنا الثقة بعد مقارنتنا لما جاء في خطب الملك فيصل الأول على امتداد 12 سنة من حكمه للعراق، أن «نص» مذكرة فيصل قد نشر بعد رحيل فيصل بسنوات طوال من جانب موظف صغير اسمه عبد الرزاق الحسني[20]، ثم لحق به بعض السياسيين من دون ـ ذكر

---

(18) لما كنت قد نشرت أن لدي شكوكًا في «مذكرة فيصل»، فقد أرسل لي الصديق مؤيد الونداوي رسالة بتاريخ 2016/1/31، أكدّ لي فيها قائلًا: «أود إعلامكم أنني امتلك نسخة أصلية منها مع رد أحد الساسة الذين أرسلت إليهم المذكرة وقتها للعلم مع التقدير». لقد أرسل لي صفحة فولسكوب واحدة من المذكرة مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومعها صفحة مكتوبة بخط اليد تعليقًا على المذكرة ولكن قراءتها صعبة.

(19) راجع: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ الوزارات العراقية**، 10 أجزاء في 5 مجلدات (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990)، ج 3، ص 318. (وكان قد طُبع عدة طبعات من قبل في لبنان).

(20) انظر نص المذكرة عند: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ الوزارات العراقية**، ط 2 (صيدا: مطبعة العرفان، 1965)، ج 3، ص 286. وقد أعاد نشرها أيضًا: عبد الرحمن البزاز، **العراق من الاحتلال إلى الاستقلال**، ط 3 (بغداد: مطبعة =

المصدر الحقيقي للنص! علمًا بأن مضمون المذكرة المزعومة هو معبّر عن حقائق لا يمكن لأحد من العراقيين نكرانها أبدًا. وكان الفضل للملك فيصل الأول في لمّ شمل المجتمع العراقي في كيان وطني موحد، ونجح في خلق نسيج عراقي متعايش، بل نجح في خلق فضاء ثقافي عراقي مدني بالرغم من كل التحدّيات الصعبة التي صادفها من عقليات متحجّرة، وعشائر متمردة، وبيئات طائفية غير مقتنعة، وملالي ترتبط بهم مجموعات بشرية تؤمن بالخرافات والغلو والأوهام، أو من نخبة مثقفين غير منسجمة الروابط والاتجاهات، ومن معارضين سياسيين يناضلون سواء كانت القلة من أجل مبادئ وطنية صادقة، أو كانت الكثرة من أجل السلطة أو المناصب والمال. السؤال: هل قدمت تلك النخبة الخاصة الذين اختار فيصل استمزاج آرائهم بردود عليها إلى فيصل؟ وأين هي الردود تلك؟ يقول علي علاوي: «لقد كانت مؤامرة صمت فضولية، بل وشريرة، في ما يتعلق بإحدى أهم الوثائق السياسية للتاريخ العراقي الحديث»[21].

4 ـ فيصل من الآمال العريضة إلى الإحباط المتعب

يتبين من قراءة هذا «النص» أن فيصل الأول قد تغّير كثيرًا بعد 12 سنة من حكمه للعراق من زعيم طموح مليء بالآمال وهو يضج بالأمنيات عام 1921 إلى زعيم يأكله الإحباط ومتعب جدًا عام 1932، إذ يرى أن مجتمع العراق الذي تعب كثيرًا من أجل رقيه ووحدته وانسجامه وتقدمه لم يزل يغرق في انقساماته ويصّر على أخلاقياته وهو عاشق للمشكلات والمشاغبات، ولا يعرف ما الذي يريده أبدًا. ويبدو أن هذه «المذكرة» قد سجلت خاتمة مؤلمة لفيصل، وكان الأمل أن يتخذها العراقيون جدول عمل لبناء مستقبلهم، ولكنهم تفرقوا في سبل من نوع آخر على امتداد القرن العشرين ويا للأسف الشديد.

يبدو واضحًا من قراءة نص «المذكرة» أن فيصل الأول كان مطلعًا تمامًا على واقع البلاد ويعرف طبيعة المجتمع العراقي بدقة والتوجهات السيكولوجية للعراقيين وولاءاتهم وانتماءاتهم الفكرية وانقساماتهم المذهبية، وأن المفردات التي طرحها لم تكن غريبة على البريطانيين، إذ وردت في عدد من الرسائل والتقارير التي كتبها البريطانيون للمدة

= العاني، 1967)، ملحق (ب) ص 311 ـ 319. راجع أيضًا: جودت، ذكريات **1900 ـ 1958**، ص 356. ومن المفيد جدًا مقارنة نص المذكرة، مع خطاب التتويج، انظر: البزاز، المصدر نفسه، ملحق (أ)، ص 309 ـ 310. وللاطلاع على المزيد من المعطيات، انظر: برامج الأحزاب العراقية المشكلة خلال المرحلة الأولى من تأسيس الدولة، عند: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ العراق السياسي الحديث**، ط 2، منقحة (صيدا: مطبعة العرفان، 1957)، ج 3، ص 206 ـ 212.

(21) Allawi, *Faisal I of Iraq*, p. 542.

1917 ـ 1921، وخصوصًا تلك التي تتضمن الأوضاع الاجتماعية وما يتغلغل من انقسامات غير منظورة، يصل بعضها إلى صراعات بين مكونات المجتمع الطائفية والقبلية الكبرى والعشائرية الصغرى وجهويات المدن ودواخل الأرياف المتنوعة، ناهيكم بالحزازات العرقية في الأماكن المختلطة، بل إن صراعات دموية نشبت بين أبناء قبائل وعشائر حول الأراضي والمياه والنفوذ، سواء عند العرب أم الأكراد أم غيرهم، وهذا ما نجده واضحًا عند برسي كوكس وويلسون وغيرترود بيل وأيرلاند وفوستر ولونغريغ وغيرهم.

وعليه، فإن فيصل لم يكتشف شيئًا جديدًا، ولم يظلم العراقيين، ولم يتكتم على تفسخ أوضاعهم، ولم يتفاخر بالأكاذيب وتمجيد الأحوال ومباركة السلوكيات اللعينة، بل طرح مشروعًا لعلاج المجتمع من أمراضه القاتلة، وتهذيب العراقيين وتعليمهم وتخليصهم من الكسل والخمول والعادات البالية. وما يلفت النظر، أي الجديد في الأمر، صراحته ليس مع العامة، بل الاقتصار على قول رأيه بوضوح للنخبة التي قرر أن يرسل النسخ إليها، إذ أحب أن يستمزج الآراء العراقية في الذي طرحه، وهو تعمد عدم التوسع في إشراك أكبر عدد من العراقيين كيلا يضيع مشروعه بالقال والقيل، ويبدو أن «المذكرة» كانت متأخرة، كون الساسة الذين اختارهم فيصل من أجل المداولة لم نجد لهم ردودًا على «المذكرة».

ثامنًا: نسخة من أصل «المذكرة» ومقارنتها

هي من مقتنيات عبد العزيز القصاب، وقد وصلتني نسخة من «المذكرة» مطبوعة على الآلة الكاتبة ومعها رد بخط اليد كتبه عبد العزيز القصاب خُطّ على ورق صغير الحجم، وقد محي حبر الكتابة، وكان الرجل قد احتل منصب وزير الداخلية بعدما كان قد تنقل متصرفًا لعدة ألوية في العراق[22]. ويمكننا ملاحظة الفوارق الأساسية بين النص الاصلي وبين بقية النسخ المنشورة، ومنها:

1 ـ من خلال فحص النص الأصلي لـ «المذكرة» لم أجد أي توقيع باسم فيصل عليها، كما لم أجد أي تاريخ هجري أو ميلادي، ولا في أي مكان كتبت المذكرة أو طبع النص، فالمتواتر عند من نشر النص، وضع اسم فيصل في ذيل النص، ولم أجد أية رسالة تسبق

(22) لقد سهّل لي مؤيد الونداوي مؤخرًا الاتصال بالأخ عمار القصاب الذي أكدّ لي أن نسخة أصلية من نص المذكرة موجود بين أوراق عائلته، التي زوّدت بها، وببعض أوراق عبد العزيز القصاب. وعبد العزيز القصاب القشعم هو سياسي عراقي ولد في بغداد عام 1882 وتوفي فيها في 12 حزيران/يونيو 1965. انظر: عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي (بيروت: منشورات عويدات، 1962).

هذا «النص» قد وجهها فيصل إلى أنصاره ورجاله. وعليه، فإن «النص» الأصلي يخلو تمامًا من أي توقيع ومن أي تاريخ.

2 ـ لقد استطعت أن أقارن بين النسخة الأصلية وبقية النسخ المنشورة، فوجدت بعض الفوارق وبعض الحذوفات وبعض الاختلافات البسيطة، مثل: «عن وقوفهم» وفي الأصل «عن عدم وقوفهم» فتغير المعنى كاملاً، «والمؤثرات» في الأصل تصبح «والمؤتمرات»، و«مقسمّة» وأصبحت «منقسمة»، وعبارة تشطب هي «وتستوجب رد الفعل»، «لمدده وعدده» في الأصل تحّرف إلى «لعدده وعدته»، و«حركات بارزة» (وفي الأصل: حركات بارزان)، وتحذف عبارة «بدون أن نعطيهم سلطة على العشائر» من نص يتحدث فيه عن شيوخ العشائر، وهو يتحدث عن القانون الأساسي للبلاد، تحذف العبارة التالية من النص: «وفي اعتقادي أنه من الضروري أعاد النظر في مواده خاصة قسم الأبنية والطرقـات»... إلخ من الكلمات والعبارة المحرّفة والمحذوفة.

3 ـ بالرغم من الاتهامات والصفات البذيئة التي أطلقها البعض ضد فيصل، كونه استخدم لغة واضحة وصريحة، عدّها البعض عبارات جارحة بحق العراقيين! وأرى أن الرجل كان في مذكرته، حقيقيًا وغير مزيّف ولا بمنافق على العراقيين، فهو لم يجاملهم رياء عندما يستخدم القلم العريض ويقول الكلام المباشر في توصيف أنواع متعددة من هذا الشعب، فلا حاجة لكي يكابر البعض، وينعت فيصل بنعوت غير لائقة. وأعتقد أن فيصل نفسه سبق غيره من علماء الاجتماع العراقيين في معرفته بالمجتمع العراقي وضرورات إصلاحه وعلاجاته.

4 ـ عن نقص الهوية الوطنية العراقية[23]، كتب فيصل في مذكرته قائلاً: «العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية تأسست على حطام الحكم العثماني. هذه الحكومة تحكم على شريحة كردية، أغلبيتها من الجهلة، تضم أشخاصًا لديهم طموحات شخصية تدفعهم إلى التخلي عنها [الحكومة] بحجة أنها لا تنتمي إلى عرقهم. [تحكم الحكومة أيضًا] الأغلبية الشيعية الجاهلة التي تنتمي إلى نفس العرق في الحكومة، ولكن الاضطهاد الذي لحق بهم نتيجة للحكم التركي، والذي لم يكن تمكنهم من المشاركة في الحكم وممارسته، وقاد إسفينًا عميقًا بين الشعب العربي المنقسم إلى هاتين الطائفتين لسوء الحظ. كل هذا جعل هذه الأغلبية، أو الأشخاص الذين لديهم تطلعات خاصة، متدينين بينهم، الباحثين

(23) هذا ما يمكن للمؤرخ أن يستكشفه من خلال استبطانه مذكرة الملك فيصل الأول التي كتبها قبيل وفاته عام 1933.

عن مناصب غير مؤهلة، وأولئك الذين لم يستفيدوا ماديًا من القاعدة الجديدة، للتظاهر بأنهم ما زالوا يتعرضون للاضطهاد لأنهم شيعة»[24].

تاسعًا: مذكرة الملك فيصل الأول

كتب فيصل:

«كنت منذ زمن طويل أحس بوجود أفكار وآراء حول كيفية إدارة شؤون الدولة، عند بعض وزرائي، ورجال ثقتي، غير أفكاري، وآرائي. وكثيرًا ما فكرت في الأسباب الباعثة لذلك. وفي الأخير ظهر لي أن ذلك كان ولم يزل ناشئًا عن عدم وقوفهم تمامًا على أفكاري، وتصوراتي ونظري في شؤون البلاد، وفي كيفية تشكيلها، وتكوينها، والسير بها، نظرًا إلى ما أراه من العوامل والمؤثرات المحيطة بها والمواد الإنشائية المتيسرة، وعوامل التخريب والهدم التي فيها كالجهل، واختلاف العناصر، والأديان والمذاهب والميول والبيئات. لذلك رأيت من الضروري أن أفضي بأفكاري، وأشرح خطتي في مكافحة تلك الأمراض، وتكوين المملكة على أساس ثابت، وأطلع عليها إخصائيًا، ممن اشتركوا وإياي في العمل، وإني ألخص خطتي مختصرًا، بجملة تحت هذا، وبعد ذلك أتقدم إلى تفصيل نظرياتي ومشاهداتي:

أولًا، إن البلاد العراقية من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، مقسّمة على بعضها، يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبّرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية، أو طائفية، أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة، والقوة معًا، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثرات رجعية، أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل:

ثانيًا، في العراق أفكار ومنازع متباينة جدًا وتنقسم إلى تسعة أقسام: (1) الشبان المتجددون بمن فيهم رجال الحكومة؛ (2) المتعصبون؛ (3) السنّة؛ (4) الشيعة؛ (5) الأكراد؛ (6) الأقليات غير المسلمة؛ (7) العشائر؛ (8). الشيوخ؛ (9) السواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة أو محاكمة.

إن شبان العراق القائمين بالحكومة، وعلى رأسهم قسم عظيم من المسؤولين،

(24) Osman, *Sectarianism in Iraq: The Making of State and Nation Since 1920* (London: Khalil Routledge, 2014), p. 71.

يقولون بوجوب عدم الالتفات إلى أفكار وآراء المتعصبين، وأرباب الأفكار القديمة، لأنهم جبلوا على تفكير يرجع عهده إلى عصور خلت، ويقولون بوجوب سَوق البلاد إلى الأمام، بدون التفات إلى أي رأي كان، والوصول بالأمة إلى مستواها اللائق، وبالإعراض عن القيل والقال، طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة ترغم الجميع على اتباع ما تمليه عليهم.

إن عدم المبالاة بالرأي بتاتًا، مهما كان حقيرًا، خطيئته لا تغتفر، ولو أن بيد الحكومة القوة الظاهرة، التي تمكنها من تسيير الشعب رغم إرادته، لكنت وإياهم، وعليه فإننا لحين ما نحصل على هذه القوة، علينا أن نسير بطريقة تجعل الأمة مرتاحة، نوعًا ما، بعدم مخالفة تقاليدها كي تعطف على حكومتها في النوائب. إن المثل الصغير الذي ضربه لنا (الإضراب العام) يكفينا لتقدير حسياتها، ووضعها موضوع الاعتبار، وكذلك يكفينا لتقدير مبلغ قوانا لإخماد هياج مسلح، ما قاسيناه إبان ثورة الشيخ محمود والنقص العددي البارز الذي ظهر في قواتنا العسكرية آنئذ، كل ذلك يضطرني أن أقول بأن الحكومة أضعف من الشعب كثيرًا. ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر، لكنه يوجد في المملكة ما يزيد على المئة ألف بندقية يقابلها خمسة عشر ألف بندقية حكومية، ولا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومية وشعب كهذه. هذا النقص جعلني أتبصر، وأدقـق، وأدعو أنظار رجال الدولة ومديري دفة البلاد للتعقل وعدم المغامرة.

ألمحت فيما تقدم إلى أفكاري الخاصة، وأفكار رجال الحكومة، والشبان، وحالة الشعب، كل ذلك توطئة لما سأقوله فيما يلي. وتصوير البلاد كما أراها في الوقت الراهن، وكما أشخص أمراضها، وبعد ذلك أبين أيضًا ما أراه ضروريًا لمعالجتها. العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسمًا كرديًا أكثريته جاهلة، بينهم أشخاص ذوو مطامع شخصية يسرقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليست من عنصرهم. وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصريًا إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكّنهم من الاشتراك في الحكم، وعدم التمرن عليه، والذي فتح خندقًا عميقًا بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية، أو الأشخاص الذين لهم مطامع خاصة، الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق، والذين لم يستفيدوا ماديًا من الحكم الجديد، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويشوقون هذه الأكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون بأنه سيئ بحت، ولا ننكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل. أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان، بقطع النظر عن الأقليات

الأخرى المسيحية، التي يجب أن لا نهملها، نظراً للسياسة الدولية التي لم تزل تشجعها للمطالبات بحقوق غير هذه وتلك، وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر: كردية، وشيعية، وسنية، لا يريدون إلا التخلي عن كل شكل حكومي، بالنظر لمنافعهم، ومطامح شيوخهم/ التي تتدافع بوجود الحكومة.

تجاه هذه الكتل البشرية، المختلفة المطامع والمشارب، المملوءة بالدسائس، حكومة مشكلة من شبان مندفعين، أكثرهم متهمون بانهم سنيون أو غير متدينين، أو أنهم عرب، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم، ويريدون أن يعترفوا بما يتهمون به، ولايوجد بتلك الفوارق، وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها. يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع، غير مبالين أيضًا بنظر السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين على علم بمبلغ قواهم .

أخشى أن أُتهم بالمبالغة، ولكنه من واجبي أن لا أدع شيئًا يخامرني، خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا إلا نفر قليل ممن يعلمون وجانبهم ومسؤولياتهم. ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة، وأنقل ما سمعته ألوف المرات، وسمعه غيري من الذين يلقون في أذهان أولئك المساكين البسطاء من الأقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم. إن الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسني، ما الذي هو للشيعي؟ حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها، ويضربون الأمثلة على ذلك مما لا لزوم لذكرها. أقول هذا على سبيل المثال، وذلك للاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون. وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الإسلامية، ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها، وهناك غير هذا دسائس أشورية، كلدانية، ويزيدية، والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهن قوى الحكومة تجاه البسطاء، كما أن العقول البدوية، والنفوذ العشائري الذي للشيوخ، وخوفهم من زواله بالنسبة إلى توسع نفوذ الحكومة، كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع والاحتراصات تشتبك في هذا الصعيد أو تصطدم، وتعكر صفو البلاد وسكونها، فإذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية وحكيمة معًا، ردحًا من الزمن، حتى تزول هذه الفوارق وتتكون الوطنية الصادقة، وتحل محل التعصب المذهبي والديني، هذه الوطنية التي سوف لا تكون إلا بجهود متمادية، وبسوق مستمر من جانب الحكومة، بنزاهة كاملة. فالموقف خطر. وفي هذا الصدد وقلبي ملآن أسى، أنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية، خالية من أية فكرة وطنية، متشبعة بتقاليد وأباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سمّاعون للسوء ميّالون للفوضى مستعدون دائمًا للانتقاص على أية حكومة كانت، فنحن نرى، والحالة هذه، أن نشكل من هذه الكتل شعبًا

نهذبه، وندربه، ونعلمه، ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف، يجب أن يعلم عظيم الجهود التي يجب صرفها لإتمام هذا التكوين وهذا التشكيل. هذا هو الشعب الذي أخذت مهمة تكوينه على عاتقي، وهذا نظري فيه.

وإن خطتي في تشكيله وتكوينه هي كما يلي :

في اعتقادي أن العمل وإن كان شاقًا ومتعبًا، إلا أنه ليس مما يوجب اليأس والتخوف، إذا عولج بحكمة وسداد رأي وإخلاص. إذا قامت الحكومة بتحديد خطة معينة، سارت عليها بجد وحزم، فإن الصعوبات تجابه، وبارقة الأمل في الرسوخ السياسي تزداد نورًا. وألاحظ أن منهاجًا يقرب مما سأذكره أدناه يكون كافلاً لمعالجة المهمة والنجاح. وإليك بالاختصـار أولاً ثم بالتفصيل:

1 ـ تزييد قوة الجيش عددًا، وبشكله الحاضر، بحيث يصبح قادرًا على إخماد أي قيام مسلح ينشب في آن واحد على الأقل في منطقتين متباعدتين.

2 ـ عقب إتمام تشكيل الجيش على هذه الصورة تعلن الخدمة الوطنية.

3 ـ وضع التقاليد والشعائر الدينية بين طوائف المسلمين بميزان واحد، مهما أمكن، واحترام الطوائف الأخرى.

4 ـ الإسراع في تسوية مشكلة الأراضي.

5 ـ توسيع المأذونية لمجالس الألوية والبلديات بقدر الإمكان على نموذج القانون العثماني.

6 ـ الإسراع في تشكيل مدرسة الموظفين.

7 ـ الأعمال النافعة وحماية المنتوجات.

8 ـ المعارف.

9 ـ تفريق السلطة التشريعية والسلطة الإجرائية.

10 ـ تثبيت ملاك الدولة.

11 ـ وضع حد للانتقادات غير المعقولة ضد إجراءات الحكومة في الصحف والأحزاب.

12 ـ العدل والنظام والطاعة عند الموظفين، والعدل عند قيامهم بوظائفهم.

1) بدأت بالجيش، لأني أراه العمود الفقري لتكوين الأمة، ولأني أراه في الوقت الحاضر أضعف بكثير (بالنسبة لمدده وعدده، من أن يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه، وهي

حفظ الأمن والاطمئنان إلى إمكانية كفاءته، نظراً إلى ما تتطلبه المملكة، ونظراً إلى العوامل المختلفة الموجودة، والتي يجب أن تجعلنا دائمًا متيقظين لوقوع حوادث عصيان مسلح في كل وقت .

إنني لا أطلب من الجيش أن يقوم بحفظ الأمن الخارجي في الوقت الحاضر الذي سوف نتطلبه (منه في الأصل) بعد إعلان الخدمة العامة، أما ما سأطلبه منه الآن، هو أن يكون (فقط في الأصل) مستعدًا لإخماد ثورتين تقعان (لا سمح الله) في آن واحد، في منطقتين بعيدتين عن بعضهما. إنني غير مطمئن إلى أننا بعد ستة أشهر، وبعد أن تتخلى إنكلترا عن مسؤوليتها في هذه البلاد، نتمكن من الوقوف لوحدنا، ما دامت القوة الحامية هي غير كافية، ولا يمكنني أن أوافق على تطبيق الخدمة العامة أو القيام بأية إجراءات أخرى هامة، أو محركة، أو مهيجة، ما لم أكن واثقًا بأن الجيش يتمكن من حماية تنفيذ هذا القانون، أو أي إجراءات أخرى، وعليه أرى من الضروري إبلاغه لحد يتمكن معه من إجابة رغبتي المارّ ذكرها وذلك بشكله الحاضر.

أرى من الجنون القيام بإنشاءات وإصلاحات عظمى في البلاد، قبل أن نطمئن إلى كفاية القوة الحامية لهذه الأعمال. أمامنا حركات بارزان في الربيع القادم، ومن الضروري أن أرى بيدنا قوة احتياطية لمجابهة أي طارئ آخر يحدث في المملكة .

2) علينا أن نطمئن معنويات إخواننا الشيعة بالكيفية الآتية:

(1) إعطاء التعليمات إلى قاضي بغداد، كما عمل، أن يسعى لتوحيد أيام الصيام والإفطار وهذا ممكن وشرعي.

(2) تعمير العتبات المقدسة، حتى يشعروا أن الحكومة غير مهملة لتلك المقامات، التي هي مقدسة لدى الجميع، والتي هي كذلك من الآثار التأريخية التي تزين البلاد، فعلى الحكومة من كل الوجوه محافظتها من الخراب.

(3) إن رجال الدين من الشيعة ليس لهم أي ارتباط مع الحكومة، وهم في الوقت الحاضر أجانب عنها، خاصة حيث يرون أن رجال الدين السنيون، يتمتعون بأموال هم محرومون منها والحسد (خاصة في الطبقة الدينية) معلوم، فعلينا ما دمنا غير قادرين على تقسيم الأوقاف فيما بينهم، أن نفكر في إيجاد أوقاف خاصة، ومن رأيي أن ذلك ممكن بالطريقة التي كنت تشبثت بها غير أن الظروف حالت بيني وبين تحقيقها .

4) إن احترام الشعائر العامة غير عسير، خاصة في أيام رمضان. والحيلولة دون تفشي

الموبقات، وإذا تمكنت الحكومة من سد بيوت الخناء لقامت بأكبر عمل يربط العامة بها.

5) لم أتكلم عن الضرائب إذ إن قانون ضريبة الاستهلاك قطع قول كل مفسد، وإنه لأكبر عمل جريء ولسوف نقتطف ثماره إن شاء الله .

6) إن مشكلة الأراضي وحلها سيربط الأهالي بالأراضي، وهو ذو مساس كبير بالشيوخ ونفوذهم، ولا لزوم للإسهاب بمنافعه، ويجب الإسراع بتطبيقه، على قدر المستطاع، كما أنه يجب أن لا يحس الشيوخ والآغوات بأن قصد الحكومة محوهم، بل بقدر ما تسمح لنا الظروف يجب أن نطمئنهم على معيشتهم ورفاهيتهم (بدون أن نعطيهم سلطة على العشائر).

7) يجب أن تكون قضية المدرسة مطمئنة لكل سكان العراق، بأنهم سيشتركون فعلاً في خدمات الدولة، والاشتراك في خيرها وشرها مع أهل بغداد والموصل بصورة متساوية ونزول تهمة (الحكومة السنية أو العربية) كما يقول أصحاب الأغراض من أكراد وشيعة.

8) أقول بتحفظ: إنه إذا أمكن إعطاء صلاحيات للألوية، شبيهة بمجالس الولايات في العهد العثماني، فسيكون ذلك من جملة أسباب تشويق سكان الألوية للاشتراك في الحكم.

9) لقد بحثنا (في الأصل: تحدثنا) كثيرًا حول تفريق السلطة التشريعية عن السلطة الإجرائية ويجب عمل ذلك بتعديل القانون الأساسي.

10) علينا أن لا ندع مجالاً للأحزاب (المصطنعة) والصحف والأشخاص، ليقوموا بانتقادات غير معقولة، وتشويه الحقائق، وتضليل الشعب، وعلينا أن نعطيهم مجالاً للنقد النزيه المعقول، وضمن الأدب، ومن يقوم بأمر غير معقول يجب أن يعاقب بصرامة.

11) على موظفي الدولة أن يكونوا آلات مطيعة، ونافعة، حيث هم واسطة الإجراءات، ومن يحس منه أنه يتداخل مع الأحزاب المعارضة، أن يشوق ضد الدولة، ينحى عن عمله، وعليه أن يعلم أنه موظف قبل كل شيء وخادم لأية حكومة كانت.

12) النافعة، أتيت بهذا الاسم الجديد، ورجعت إلى التعبير التركي، حيث رأيت أنه (أشمل) للأعمال المختلفة في مرافق الأمة. حسنًا عملنا في السنة الماضية بتخصيص مبالغ للأعمال الرئيسية، ولا ننكر أن ذلك القانون صدر بصورة مستعجلة، على أن يكون قابلاً للتحوير والتبديل في بعض مواده، عندما نرى ضرورة ذلك. وفي اعتقادي أنه من الضروري إعادة النظر في مواده خاصة قسم الأبنية والطرقات.

أقول بكل أسف إن الزراعة أفلست في بلادنا، بالنظر لبعد مملكتنا عن الأسواق، لقد وضعنا الملايين لإنشاءات الري، ولكن ماذا نريد أن نعمل بالمحاصيل؟ إننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بأيدينا من منتوجات أراضينا، فكيف بنا بعد إتمام هذه المشروعات العظيمة؟ هل القصد تشكيل أهرامات من تلك المحاصيل الخام والتفرج عليها؟ ماذا تكون فائدتنا منها إذا لم نتمكن من إخراجها إلى الأسواق الأجنبية واستهلاكها في الداخل على الأقل؟ ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل أن نهيئ لها أسواقًا تستهلكها، ونحن مضطرون إلى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج. أعتقد أنه من الضروري إعادة النظر من جديد في موقفنا الاقتصادي، نرى جيراننا الأتراك والإيرانيين، باذلين أقصى جهودهم للاستغناء عن المنتوجات الأجنبية، وكم هي العقبات التي وضعوها لمنع دخول المنتوجات الأجنبية، وكم هي العقبات التي وضعوها لمنع دخول الأموال الأجنبية بلادهم وكيف لا يبالون بصرف الأموال الطائلة لإنشاء المعامل لسدّ حاجاتهم .

علينا أن نقلع عن السياسة الخاطئة التي أتتنا عن سبيل تقليد الأمم المتشبثة، وعلينا أن نعاون المتشبثين من أبناء الوطن بصورة عملية فعّالة، وعلينا أن نعطي الانحصارات لأبناء البلاد إلى مدد معينة للذين فيهم روح التشبث. وإذا لم يظهر طالب أو راغب لإنشاء عمل صناعي ترى الحكومة أنه مربح فعليها أن تقوم هي به ومن مالها الخاص أو بالاشتراك مع رؤوس أموال وطنية إذا أمكن وإلا فأجنبية أو كلاهما معًا .

على الحكومة أن تشكل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف أنواعها كبيرة كانت أو صغيرة وتبدأ ببناء الأهم فالمهم، وترشد الأهلين إلى كيفية التشبث بالأعمال الصغرى وتقوم هي بالأعمال الكبرى إذا تعذر القيام بها من قبل الاهالي. إنه لمن المحزن والمضحك والمبكي معًا أن نقوم بتشييد أبنية ضخمة بمصاريف باهظة وطرق معبدة بملايين الروبيات ولا ننسى الاختلاسات، وتصرف أموال هذه الأمة المسكينة التي لم تشاهد معملاً يصنع لها شيئًا من حاجاتها. وإني أحب أن أرى معملاً لنسيج القطن بدلاً من دار حكومة، وأود أن أرى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي.

عاشرًا: قصة رحيل فيصل

1 ـ القصة المتداولة

قال صائب شوكت في أوراقه (المخطوطة) عن فيصل الأول: «لقد برهن بعد بضع سنوات من اعتلائه العرش أنه ذو شخصية محترمة وخبرة سياسية وأنه يمتلك موهبة في

البقاء السياسي بالرغم من الظروف الحرجة، وبعد عام 1930 تناقص عدد العراقيين الذين كانوا يشككون في إخلاص الملك فيصل الأول لخدمة بلاده، وبعد حكم قارب الاثني عشر عامًا وجه ملك إنكلترا الدعوة إليه لزيارة لندن فقبلها ولما حدث التمرد الآثوري عاد إلى بغداد للعمل على وضع حد للمشكلة، ولكنه وجد أن كل شيء قد انتهى وأن الأمر خرج من يده فأصابه الاضطراب الذي أدى إلى فقدانه النوم وخانته شهيته فراح يتطلع إلى الراحة عن طريق الإفراط في التدخين وتناول القهوة المُرة، لذا فإنه غادر البلاد لمواصلة العلاج فوصل العاصمة السويسرية»[25]. ويستطرد صائب شوكت قائلاً: «وشعر الملك فيصل بألم شديد، ولما حضر الطبيب الخاص أشار على الممرضة بزرقه إبرة تحت الجلد فاستراح الملك وأذن لحاشيته بالانصراف. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء ذلك اليوم استدعى الملك ممرضته وطلب إليها إبلاغ الحاشية بالحضور حالاً فصعد إليه الملك علي شقيقه الأكبر ونوري السعيد ورستم حيدر وتحسين قدري فوجدوه يلفظ أنفاسه الأخيرة»[26].

هكذا، توفي الملك فيصل في 8 أيلول/سبتمبر 1933، عن عمر يناهز 50 عامًا. كان السبب الرسمي للوفاة نوبة قلبية بتأثير تصلب الشرايين أثناء إقامته في فندق بلفيو بالاس (Bellevue Palace Hotel) [27] بمدينة برن، بسويسرا، التي ذهب إليها ثانية بعد عودته من زيارته العلاجية الأولى إلى العراق لمعالجة تمرد الآثوريين في حركتهم المضادة، وعاد ثانية إلى برن لإجراء فحص طبي عام وقد توفي فيها، وقد حنطّت جثته وعادوا بها إلى العراق عبر إيطاليا والبحر المتوسط ومن السواحل الفلسطينية نحو العراق، وقد دفن في المقبرة الملكية بعد تشييع جنائري رسمي وشعبي كبير. وقد خلفه على العرش ابنه الوحيد الأمير غازي باسم الملك غازي الأول. ولقد كان موت فيصل حادثًا جللاً وكبيرًا عند العرب قاطبة وفي العالم كله، وقد ودعته سويسرا رسميًا، ثم إيطاليا باستقبالها وتوديعها نعشه رسميًا، واهتزت كل من فلسطين وسورية والأردن ولبنان ومصر وكل أرجاء الدنيا العربية، وقام بتأبينه والكتابة عنه أغلب الكتاب والأدباء العرب ومنهم طه حسين وعباس محمود العقاد وعبد الرحمن الشهبندر وعبد الرحمن عزام وأحمد حسن الزيات وإبراهيم عبد القادر المازني وجميل صدقي الزهاوي في رثائه والشيخ محمد مهدي البصير والسيد التفتازاني

---

(25) من أوراق الدكتور صائب شوكت (مخطوطة).

(26) المصدر نفسه.

(27) لم يزل هذا الفندق موجودًا وفي الخدمة في قلب مدينة برن السويسرية، وعنوانه: Kochergasse 3 - 5, Bern, CH - 3000, Switzerland.

وفكري أباظه وفارس الخوري وشكيب أرسلان وأكرم زعيتر ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب وغيرهم[28].

2 ـ موت فيصل: مسألة تاريخية وتعدد الروايات والاتهامات

لقد أثير العديد من الأسئلة عن وفاته المفاجئة، حيث أكد الأطباء السويسريون أنه بصحة جيدة ولم يكن هناك ما ينذر بأمر خطير له. كما أبلغت ممرضته الخاصة عن علامات التسمم بالزرنيخ قبل وفاته. وقد ثارت عواطف العراقيين يوم ذاك معبرين عن سخطهم في الصحف اليومية وفي الشوارع وكل المحافل العامة! لاحظ العديد من رفاقه في ذلك اليوم أنه كان يعاني ألمًا في البطن (علامة تسمم) وليس في الصدر (علامة نموذجية للنوبة القلبية). تم تحنيط جسده بسرعة قبل إجراء تشريح الجثة المناسب لمعرفة السبب الدقيق للوفاة، وهو إجراء طبيعي في مثل هذه المواقف[29]. وقد تعددت الروايات التي شككت في وفاة فيصل في برن بسويسرا، إذ قيل إن الملك لم يمت بفعل نوبة قلبية مفاجئة، إذ كان قلبه سليمًا، ولكن الروايات العراقية والعربية تقول بأن الإنكليز كانوا وراء قتل فيصل الأول. فرواية تقول بأن سيدة هندية كانت ضيفة على الملك فيصل برفقة أخيها، واتهمت بدس السم للملك[30]، وهذه الرواية هي التي عرفها الناس، ووجدت لها لقاءات وتحقيقات صحافية في بريطانيا خصوصًا.

3 ـ رواية الطبيب الخاص المرافق للملك هاري سندرسن

هذه هي الرحلة الأخيرة للملك في حياته وقد زار فيها عمان، القدس، القاهرة، الإسكندرية، نابولي، ثم بلجيكا وأخيرًا لندن. وفي طريق عودته إلى بغداد نزل الملك بسويسرا وبالتحديد في مدينة برن. وذلك في 2 أيلول/سبتمبر 1933، وبعد 6 أيام، أي في 8 أيلول/سبتمبر 1933. تعرض الملك لنوبة قلبية قوية أدت إلى وفاته في مدينة برن. هذه هي

---

(28) راجع نصوص ومقالات ومراثي وذكريات هذه النخبة من الأدباء العرب وما قالوه بحق فيصل في: محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ظبيان، **فيصل بن الحسين من المهد إلى اللحد: سجل عام لتاريخ القضية العربية وتطوراتها، مج 1: في حياة الفقيد الحافلة بجلائل الأعمال، وصدى الفاجعة الكبرى في جميع أنحاء العالم وآراء العظماء وكبار المفكرين في شخصية الفقيد** (دمشق: المطبعة العصرية، 1933)، ص 80 ـ 144.

(29) إن أفضل من عالج موت فيصل الأول هو محمد مظفر الأدهمي في بحثه. انظر: «هل قتل الملك فيصل الأول،» في: محمد مظفر الأدهمي، **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة** (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1988)، ص 107 ـ 142.

(30) موسى محمود الشهبندر، **ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال** (بيروت: دار رياض الريس للطباعة والنشر، 1993).

الرواية الرسمية التي أذيعت لكل العالم[31]. وكان سندرسن باشا يرافق الملك فيصل الأول بحكم عمله كطبيب خاص له، وقد رافقه في رحلاته الخارجية إلى عدة بلدان، وكان فيصل الأول يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، بحيث جعله طبيبًا للعائلة المالكة بأسرها، ولم أجد له أي دور طبي أثناء إقامة الملك فيصل في برن بسويسرا إلا الاستشارة.

4 ـ رواية النشاشيبي

رواية أخرى نشرها ناصر الدين النشاشيبي، تقول بأن ممرضة كانت على معرفة برستم حيدر، إذ كان عشيقها، وقد التحقت بالباخرة الملكية في الإسكندرية ورافقت الملك كممرضة له، إذ يقول النشاشيبي: «هناك فتاة يهودية مصرية باسم فيكي أو (فيكتوريا حكيم) تسكن في منطقة المعادي بالقاهرة وتجيد التحدث بأكثر من لغة أجنبية (الإنكليزية والفرنسية، والإيطالية) كما تجيد لعبة البريدج. وكانت فيكي وعائلتها يقضون شهور الصيف في رأس البر... وشاءت الصدف أن تتعرف عائلتها إلى رستم حيدر الذي وقع في حب فيكي فوعدها بأن لا يفارقها مطلقًا. وأنه سوف يضمها إلى الحاشية الملكية. وكان رستم قد علم بأن فيكي كانت درست التمريض في المستشفى الإسرائيلي بالإسكندرية واشتغلت في ذلك المستشفى. وبعد فترة قصيرة تلقت فيكي برقية مستعجلة من رستم حيدر يطلب فيها أن تعدّ نفسها لكي تقوم بمهمة الممرضة الخاصة للملك فيصل الأول».

وقد تحدثت لاحقًا عن دور الإنكليز في العبث بأدوية الملك فيصل ومراقبته، وكان صديقه ومستشاره اللبناني رستم حيدر على معرفة بذلك، ولما كانت تلك الممرضة (فيكي) تزرق الإبر للملك، كان الإنكليز يتابعون أمر صحته على حد قوله حتى بدا على نحو مفاجئ متعبًا وشاحبًا وتصاحبه آلام في بطنه لا في صدره، وقد تقيأ وتوفي بعدما طلب رؤية حاشيته التي هرعت إليه وهو يلفظ أنفاسه أمام كل من أخيه الملك علي ورستم حيدر ونوري السعيد وتحسين قدري[32]، ولم يفحص القيء للتأكد من أية سموم قد يحتوي عليه،

---

(31) Harry Chapman Sinderson, *Ten Thousand and One Nights: Memories of Iraq's Sherifian Dynasty*, foreword by Dame Freya Stark (London: Hodder and Stroughton, 1973), pp. 213 - 216.

(32) كان تحسين قدري الذي لازم فيصل الأول مرافقًا عسكريًا ورئيس تشريفاته منذ عام 1916 وحتى وفاته عام 1933 (واستمر في مناصب عديدة في العراق الملكي وحتى 1958) خزين أسرار تاريخ طويل عن فيصل الأول ورجاله، لكنه بقي صامتًا لم ينطق أبدًا بأية معلومات تكشف تاريخًا يتضمن فجوات من الغموض، وقد دفنت تلك الأسرار التاريخية معه.

ولم تشرّح الجثة، بل تمّ الإسراع بتحنيطها والسفر بها نحو العراق. ويعلل أحدهم مقتل رستم حيدر في بغداد بعد سبع سنين أي في سنة 1940، بأن الإنكليز رتبوا مقتله من خلال أحد العراقيين ليقضوا على سرّ موت فيصل[33].

لا أدري من أين أتى ناصر الدين النشاشيبي بهذه القصة؟ ومن أين أخذها؟ ومن قال بها أو لفقّها واخترعها؟ وما غرض النشاشيبي من إدراجها واعتمادها؟ ولماذا أُلصقت التهمة برستم حيدر هذه المرة؟ وما الغرض من وراء ذلك؟ ولماذا ربط مصرع رستم حيدر بمقتل فيصل؟ إن المؤرخ لا يمكنه أبدًا اعتماد هكذا قصص لا سند لها كهذه، ولا دليل وثائقي واحد على وجودها أصلاً.

5 ـ بحث الأدهمي: حيثيات بلا قرائن

دعونا نعالج موت فيصل الأول معتمدين في ذلك على ما كتبه المؤرخ العراقي محمد مظفر الأدهمي في كتابه، إذ هو الوحيد من المؤرخين المعاصرين الذي اعتنى بمسألة موت الملك فيصل الأول في دراسة مستفيضة، دارسًا ومحللاً كل الأوليات والقرائن التي وقفنا عليها، ولكنني أخالفه في بعض أحكامه باتهامه نوري السعيد قتل فيصل الأول من دون أية أدلّة دامغة!

نعم، شكك العراقيون والعرب بموت فيصل الأول في مدينة برن السويسرية، وقالوا بأنها ليست ميتة طبيعية منذ سماعهم بالنبأ الجلل، وعبروا عن ذلك في الصحف أو من خلال تظاهرات الناس في الشوارع، وأقيمت التعازي ومجالس الحداد في كل من العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، واتهم الإنكليز بقتل فيصل، وأرسلت وفود إلى بغداد في أربعينية الفقيد، وتحّول موت فيصل إلى ظاهرة قومية، إذ نشرت القصائد والمراثي والأهازيج الشعبية، وأقيمت حفلات التأبين وبكى الناس فيصلاً في كل أرض العروبة مع رثاء الزعماء والملوك والرؤساء من كل العالم.

لقد أكدّ العديد من الكتاب والمؤرخين مقتل فيصل، وغدت وفاته قضية تشغل الناس طوال القرن العشرين، ولكن بقيت ولم تزل مجرد شكوك من خلال حيثيات اليومين الأخيرين من حياة فيصل، ولكن بلا قرائن ولا ركائز دامغة ولا حقائق واضحة تؤكد ما ذهب إليه الناس، ولم يكّلف أحد من المؤرخين نفسه للبحث والتقصّي بعد أن يفرض

(33) ناصر الدين النشاشيبي، **نساء من الشرق الأوسط** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1988).

تساؤلاته المثيرة والمتعددة حول هذا «الموضوع» باستثناء محاولة بحثية واحدة[34]. وبالرغم من ذلك، فقد اكتفى الناس بالتقرير الرسمي القائل بأن الملك توفي من جراء جلطة قلبية وتصلب الشرايين، مع العلم أن ثمة أدلّة وحيثيات تشير إلى أنه مات مسمومًا.

6 ـ الليدي موريال باجيت

تدخل على الخط سيدة بريطانية أخرى اسمها الليدي موريال باجيت (Lady Muriel Paget)[35]، ولا أحد يدري ما الذي كانت تفعله في برن بسويسرا، إلا ما قاله طبيب الملك ألبرت كوشر (Albert Kocher)[36] عنها أنها هنا تحت العلاج من قبله أيضًا، وهي تمتلك معلومات كافية عن قضايا طبية بحكم خبرتها في الشؤون الإنسانية وكانت تعمل في صربيا عند بدايات الحرب وأنها تعرف معظم الأطباء والممرضات والأشخاص الذين سهروا على صحة فيصل. ويستطرد بأنها استفسرت منهم حول الموضوع عن كثب. وهنا نسأل: ما سر علاقتها بالموضوع إن لم تكن مرتبطة بجهة ما في بريطانيا؟ لقد أوضحت بأنها شاهدت الملك فيصل يوم وفاته، وقد عاد من نزهة في السيارة إلى الفندق، وكان يبدو بصحة جيدة، وكان بمعيته امرأة هندية برفقة أخيها، وقد شرب الشاي على الساعة السادسة مساء، وبعد ساعة تقريبًا، أي في الساعة السابعة، شعر فجأة بآلام في بطنه، فأرسل بطلب طبيبه ألبرت كوشر، فشكى فيصل من عطش شديد، ولما شرب شيئًا تقيأه بشدة، فربما أتته سكتة قلبية، ولكن لماذا كان الألم في بطنه، وليس في صدره؟ يبدو أنه نتيجة تسمّم، وبعد

(34) تجرد المؤرخ محمد مظفر الأدهمي قبل أربعين سنة للبحث والتقصّي عن موضوع وفاة الملك فيصل الأول، ونشر دراسة مهمة بعنوان: «هل قتل الملك فيصل الأول؟»، انظر الفصل الأخير من كتابه الأدهمي، **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة**، ص 107 ـ 142.

(35) كانت السيدة موريل إيفلين فيرنون باجيت (CBE DStJ Muriel Paget) (آب/أغسطس 1876 ـ 16 حزيران/يونيو 1938) خبيرة بريطانية وعاملة إغاثة إنسانية، مقرها في البداية في لندن، ولاحقًا في شرق أوروبا ووسطها. حصلت على OBE عام 1918 وتمت ترقيتها إلى CBE عام 1938. حصلت على جوائز تقديرًا لعملها الإنساني من حكومات بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وإستونيا واليابان ولاتفيا وليتوانيا ورومانيا وروسيا الإمبراطورية. في عام 1916 تم استثمارها كسيدة نعمة لأمر القديس يوحنا. وتضمنت مبادراتها إنشاء منظمة بريطانية لرعايا بريطانيين في منظمة الإغاثة الروسية، تم بناء داشا في نهاية المطاف في Detskoye Selo. كان الهدف من هذا المنزل الريفي الصغير أن يكون بمثابة دار للتقاعد والنقاهة للرعايا البريطانيين المشردين. بعد بعض التأخير، افتتح داشا في عام 1933، وتم وضعه تحت إشراف السيدة مورلي التي كانت تعمل سابقًا في كلية نيونهام، كيمبرج. انظر: Wilfrid Blunt, *Lady Muriel: Lady Muriel Paget, her Husband, and her Philanthropic Work in Central and Eastern Europe* (London: Methuen and Co., 1962), pp. 287 - 288.

(36) توفي الطبيب ألبرت كوشر في عام 1941. انظر مقالة طويلة وافية عنه في *The New York Times* بتاريخ 10 أيار/مايو 1941.

فترة وجيزة، تحسّنت حالة الملك، وطلب أن يكون لوحده، ولكن عاودته الآلام الشديدة بعد قليل، ثم لفظ أنفاسه.

إن تقارير الأطباء تشير قبل يومين فقط من وفاته بأن قلبه كان سليمًا، وأن موته لم يكن من جراء تصّلب في الشرايين، ولم يجر أي تشريح للجثة من أجل معرفة أسباب الوفاة، ويبدو أن عدم التشريح كان لأسباب دينية، بل حنطّت الجثة بسرعة على أمل نقلها إلى تراب الوطن، وأن المرأة الهندية قد اختفت مع أخيها تمامًا. وقد أكّدت الليدي موريال باجيت أن ثمة حقيقة تختفي وراء ما أعلن، وأن المعلومات التي تسمع ليست مجرد إشاعات. من طرف آخر، كان من الصعب أن ثلاثة أطباء سويسريين لهم مكانتهم وأهميتهم أن يخفوا أي شكوك، أو يتكتموا على أية معلومات[37].

هكذا، تبلور العديد من الأسئلة عن وفاة فيصل المفاجئة، حيث أكد الأطباء السويسريون أنه كان يتمتع بصحة جيدة، ولم يكن هناك شيء خطير له. كما أبلغت ممرضته الخاصة عن علامات التسمم بالزرنيخ قبل وفاته. لاحظ العديد من رفاقه في ذلك اليوم أنه كان يعاني ألمًا في البطن (علامة تسمم)، وليس في الصدر (علامة نموذجية للنوبة القلبية). لقد تم تحنيط جسده بسرعة قبل إجراء تشريح الجثة المناسب لمعرفة السبب الدقيق للوفاة، وهو إجراء طبيعي في مثل هذه المواقف[38].

الحقيقة، لا توجد وثيقة رسمية بريطانية أو سويسرية واحدة تؤكد أو تجزم بقضية (مقتل) فيصل الأول، وقد عمل المؤرخ الأدهمي على إخضاع المسألة للتحليل التاريخي مستندًا إلى أدلة وإحداثيات ما جرى اعتمادًا على تقرير المفوضية البريطانية في برن، وقد قمت بالتثبت من حقيقة الليدي موريال باجيت بخبرتها ومعرفتها وآرائها التي سجلتها في تقريرها. ويبدو أن المفوض البريطاني في برن قد اقتنع بما قالته باجيت، بل الأحرى أنه كان يمتلك أدلة ومعلومات جعلته يميل إلى تصديق ما قالته الليدي باجيت في روايتها، واحتمال أن وراء قتل فيصل دوافع سياسية، وقد ألحّ على وزارة الخارجية البريطانية أن من المهم معرفة سبب القتل ومن يكون القاتل الحقيقي.

7ـ السؤال الآن: من كان وراء قتل الملك فيصل؟ ولماذا؟

إن الشبهات تحوم كلها حول بريطانيا في تصفية الملك فيصل الأول، وتكمن الدوافع

---

(37) الأدهمي، الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة، ص 111.
(38) المصدر نفسه، ص 111.

في تخلصها من فيصل، محاولته تحقيق أحلامه في تكوين إمبراطورية عربية بعد استقلال العراق، أو تأسيس دولة متحدة من العراق وسورية وشرق الأردن يهدد المشروع الصهيوني الذي وقف فيصل ضده عام 1919[39]. فضلاً عن كونه ازداد صعوبة في تعامله السياسي مع البريطانيين، إذ تعقّد اصطدامه معهم لأكثر من مرة، ولكن بريطانيا تدرك مكانته الإقليمية والدولية. وأعتقد أن هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل بريطانيا تتخلص منه، إذ لا يمكن أن اتفق مع الأدهمي في قوله محاولة فيصل التحوّل في سياسته من بريطانيا نحو إيطاليا، فإجراء علاقات عراقية إيطالية لا يمثل تهديدًا خطيرًا للمصالح البريطانية.

8 ـ تهمة ضد نوري السعيد لا أساس لها من الصحة التاريخية

أما اتهام الأدهمي لنوري السعيد بقتل سيده فيصل الأول أو حتى اتهامه بالاشتراك بمؤامرة لقتله، فإنني أرى ذلك اتهامًا واهيًا يثير السخرية، وهو جزء من الكراهية الجمعية التي يكنها بعض العراقيين لنوري السعيد، إذ تصل درجة الاتهام إلى كونه «أقوى الاحتمالات وأرجحها» على حد قول الأدهمي[40]! وقد وصل التحامل ضد نوري السعيد عند العراقيين الساخطين عليه، بحيث اتهموه بقتل كل من مات في العراق، أمثال: غازي الأول ورستم حيدر وغيرهما. ولا يمكن الاقتناع بأن السبب أن فيصل لم يعد يطيق نوري السعيد الذي أخذ يتصّرف كمركز قوة بعد معاهدة 1930[41]، فقد بقي يدين بالولاء لسيده فيصل حتى نهايته. وحتى ياسين الهاشمي كان يتصرّف كمركز قوة على عهد فيصل، وذلك لا يثير المقت عند فيصل، فكل الساسة العراقيين قد جعلهم يقفون على مسافة واحدة منه. ومن جانب آخر، إنني أخالف الأدهمي أيضًا في إشراكه جعفر العسكري مع صهره نوري السعيد بتدبير قتل فيصل[42]!! وهنا أشير إلى خطورة الاستسلام لما يتبادله البريطانيون في وثائقهم وتسجيلاتهم وبرقياتهم وانطباعاتهم عن العراقيين، والأكثر خطورة بناء تصورات وإطلاق أحكام وتوزيع اتهامات. إن كل ما ساقه الأدهمي من مبررات لتثبيت التهمة ضد نوري السعيد لا يمكن أن يكون مقنعًا أبدًا.

بعد كل ما ساقه الأدهمي من اتهامات وأحكام جازفة، عاد ليقول: «ورغم ميلي الشديد إلى الاعتقاد بأن الملك فيصل الأول قد قتل مسمومًا على يد نوري السعيد بعلم

(39) المصدر نفسه، ص 124 ـ 125 و128 ـ 131.
(40) المصدر نفسه، ص 120.
(41) المصدر نفسه، ص 131.
(42) المصدر نفسه، ص 137 ـ 139.

من بريطانيا، إلا أنني لا يمكنني، للأمانة التاريخية، أن أجزم بذلك، بسبب وجود ثغرات لم أتوصّل إلى حقيقتها. آمل أن يقوم الباحثون والمختصون بتحليلها وتغطيتها»[43]. ومع كل هذا التردد، فإن الأدهمي عاد في نهاية الفصل ليقول بأن «أصابع الاتهام تشير إلى نوري السعيد بعلم من بريطانيا»[44]. هنا، اسمحوا أن أرد على مثل هذا الاتهام بالنقاط التالية:

1 ـ ليس هناك أي دليل مباشر وقرينة واضحة ولا حتى إشارة واحدة تؤكد جميعها اتهام نوري السعيد بقتل سيده الملك فيصل الأول. ولم يتم العثور على أية معلومة تفيد بمعرفة نوري بالأطباء ولا بالممرضة ولا بالآنسة الهندية ولا بالآخرين.

2 ـ لا أعتقد أن نوري السعيد بهذا الغباء أن يشترك في مثل جريمة كهذه ثمنًا لصراعات سياسية داخلية بينه وبين خصومه، فقد كان فيصل بيضة القبان بالنسبة إلى الطرفين العراقيين المتعارضين: نوري السعيد وجعفر العسكري من طرف وياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني من طرف آخر.

3 ـ لا مصلحة مباشرة قريبة أو بعيدة لنوري السعيد بقتل فيصل الأول الذي وثق به منذ زمن طويل، وبقي نوري مع سيده في السراء والضراء مخلصًا له ولأسرته الهاشمية حتى آخر رمق في حياته.

4 ـ لولا ثقة الملك فيصل بنوري السعيد، لما جعله يرافقه في رحلته الأخيرة، وقد ضم أقرب الناس إليه ضمن وفد مصغر، ولو صدق هذا الاتهام، فكيف سيضمن نوري عمله إن لم يختره فيصل!!!

5 ـ إن آلاف الوثائق البريطانية التي اطلع عليها عشرات المؤرخين منذ 60 ـ 70 سنة، لم يتم العثور فيها على أية إشارة تدين نوري في مثل هذه «المسألة» وأعتقد أنه مهما بلغت أخطاء نوري فمثل هذه تعد أخلاقية لا سياسية.

6 ـ إن قرار تحنيط الجثة وإرسالها إلى العراق بالسرعة اللازمة وبأية وسيلة لضمان وصولها مبكرًا من أجل إكرامها بدفنها، لم يكن قرارًا يمكن أن يتخذّه نوري لوحده بوجود الأخ الأكبر لفيصل الملك علي، ولا يمكن لنوري تجاوزه بأي حال من الأحوال.

بعد خمسة أيام من وفاة فيصل الأول، نشرت جريدة **ديلي اكسبريس** *(Daily Express)* البريطانية مقابلة مع المرأة الهندية المس بابسي بافري (Miss Bapsi Pavy) التي حامت

(43) المصدر نفسه، ص 140.

(44) المصدر نفسه، ص 142.

حولها الشكوك، واتُّهمت بدس السُّم لفيصل، وقد توضّح من تلك المقابلة، محاولة هذه المرأة تبرئة نفسها من التهمة الموجهة إليها، وقامت وزارة الخارجية البريطانية بإرسال نص المقابلة الصحافية المنشورة إلى وزيرها المفوض في برن بسويسرا المستر (السِّير لاحقًا) هوارد كينارد (1878 - 1955) (Mr. Howard Kennard)، كي تزيل شكوكه طالبة منه أن يغلق هذا الملف.

9 ـ من تكون بابسي بافري؟

امرأة هندية جميلة وذكية اشتهرت كثيرًا في مجتمع لندن، وهي ابنة أحد رجال الدين البارسيين (نسبة إلى طائفة Parsi)[45]، وكانت غنية وتسافر كثيرًا قدمت من بومباي إلى لندن بعد زيارة ألمانيا وبلجيكا واليونان ومصر، حيث استقبلت مع أخيها العديد من ملوك وزعماء العالم، وكانت تجري معهم تحقيقات، وكانت تعرف بالآنسة بي بي. درست في الهند والولايات المتحدة، فهي خريجة بومباي وكولومبيا. وكانت تقدم نفسها إلى العالم بوصفها ابنة رئيس كهنة (بومسي) في بومباي. ولها شقيق يصاحبها في حلها وترحالها هو جال بافري. لقد سافرت كثيرًا والتقت بعدد من الشخصيات المهمة في العالم، ففي عام 1924 ذهبت إلى أمريكا واستقبلها الرئيس ـ كوليدج. وفي عام 1926 ذهبت إلى روما واستقبلها البابا في الفاتيكان. وفي عام 1928 جاءت إلى إنكلترا واستقبلها الملك جورج والملكة ماري في البلاط البريطاني. وفي عام 1933، استقبلها الملك فيصل الأول في برن بسويسرا قبل موته بساعات، وفي عام 1934، عادت إلى روما مرة أخرى، فاستقبلها موسوليني. كما استقبلها شاه إيران رضا بهلوي. والفوهرر هتلر مستشار ألمانيا، وقد استقبلها ملك أفغانستان، وملوك ثلاث دول أخرى إذ عادت إلى هذا البلد. السؤال: هل قتلت هذه السيدة الهندية الملك فيصل الأول ؟ أم كان هناك غيرها يفعل فعلته في الظل؟

---

(45) بارسي تكتب Parsi أو Parsee هم طائفة من بارس (أي من بلاد فارس) من بقايا أو أتباع الديانة الزرادشتية الإيرانية، وقد انحدرت تسميتهم من بارس (بلاد فارس) في قلب إيران وكانوا قد هربوا إلى الهند. كونهم من الزرادشتيين الفارسيين الذين التجأوا نحو الجنوب والشرق واتخذوا من سواحل الهند الغربية موطنًا لهم لتجنب الاضطهاد الديني من قبل الصفويين. وهم يعيشون بشكل رئيسي في مومباي وفي عدد قليل من البلدات والقرى في معظمها إلى الشمال من مومباي، ويتواجد بعضهم أيضًا في كراتشي (باكستان) وبنغالورو (كارناتاكا، الهند). على الرغم من أنهم يعيشون في الهند، لكنهم لا يتمتعون بمواصفات الطبقة الاجتماعية، لأنهم ليسوا بهندوس، ولكنهم يشكلون مجتمعًا محددًا جدًا. انظر: *Collins English Dictionary* - Complete and Unabridged, 12th ed. (New York: HarperCollins Publishers, 2014).

بعد مرور عدة أشهر على الحدث، نشرت جريدة الصنداي اكسبريس *(Sunday Express)* البريطانية، قصة أدبية كتبتها كاتبة إنكليزية معروفة، لكي يقال إن الملك فيصل لم يمت قتيلاً، وإنما توفي فجأة كونه عاش متيّمًا عاشقًا لامرأة جميلة جدًا هام بحبها وهامت بحبه هي الأخرى مذ التقيا وهو في شبابه المبكر في إسطنبول، ولأنه لم يتزوج منها كونها أجنبية ومسيحية (كذا)، وأنها أمرأة كان لها دورها التاريخي الكبير كما صورتها القصة في صنع فيصل ملكًا، وأنها عملت لمصلحة العرب سياسيًا بدءًا بالثورة العربية الكبرى (1916 ـ 1918)، وترافقت معه طوال حياته وحتى موته، وبقيت كاتبة القصة تصّور كل هذه المادة من خيالها. كان اسم العشيقة في القصة هو Thara تارا (أو تورا)، ومؤلفة هذه القصة هي الأميرة كاثرين ردزيويل (Princes Catherine Radziwill)[46] ولا يعرف أبدًا من أين خبرت كاتبة القصة سيرة فيصل الأولى ومن أين أخذت معلوماتها عن شخصية فيصل، ولا معرفة لها بفيصل ولا بشخصيته التي لم تكن عادية. ويتبين من دراسة سيرة الكاتبة الأميرة وأدبها أنها رومانسية جدًا وأن لها القدرة والبراعة في كتابة الروايات والقصص الرومانسية، وأغلب أعمالها القصصية وهمية ومن نسج الخيال عندما كتبت العديد من الروايات عن حياة ملوك وأمراء في قصورهم وقلاعهم الأوروبية.

تمثّل قصة حب فيصل سيرة بدأت مع شبابه البكر في إسطنبول وتنتهي عند موته في برن بسويسرا، وكأن القصة مستلبة من دائرة الاستخبارات البريطانية. وقد كتبت بأسلوب أدبي عالي المستوى له جاذبيته ومستواه الرفيع وتوصيفه للمكان والشخوص.

بطلة القصة تورا، شخصية وهمية أرادت الكاتبة الأميرة أن تجعلها محورًا مؤثرًا في حياة فيصل، بل وتشركها في صنع الأحداث حتى في محادثات سرية بين فيصل وبريطانيا قبل إعلان الثورة العربية 1916، وأن تورا هي التي جلبت لورانس وعرفته بفيصل بعد اندحار الأخير أمام الأتراك، وهذا خطأ تاريخي، لأن لورانس لم يلتقِ فيصل إلا بعد 4 أشهر على

---

(46) الأميرة كاثرين ردزيويل (أو: رادزيفيتش)، بولندية الأصل؛ 30 آذار/مارس 1858 ـ 12 أيار/مايو 1941، أرستقراطية بولندية روسية. ولدت في روسيا في بيت رزيوسكي البولندي الليتواني، في عام 1873 تزوجت من الأمير البولندي الليتواني فيلهلم رادزيفيتش. كانت شخصية بارزة في المحاكم الإمبراطورية في ألمانيا وروسيا، لكنها تورطت في سلسلة من الفضائح. جمعت بين حبها لرفاهية المحاكم، والحياة الاجتماعية، والقيل والفضول مع موهبتها الأدبية وكتبت عشرين كتابًا عن الملوك الأوروبيين والمحكمة الروسية، بما في ذلك وراء **الحجاب في المحكمة الروسية** (1914) وسيرتها الذاتية حدث حقًا (1932). انظر: Leda Farrant, *The Princess from St. Petersburg: The Life of Princess Catherine Radzwill* (Book Guild Ltd., 2000), pp. 6 - 12.

تلك المعركة، ولم تشر الوثائق إلى اسم تورا أبدًا! ولم يحدث أن جاءت تورا إلى سورية أو العراق أبدًا، وأن فيصل كان يستضيفها بحكم علاقته الشخصية معها، إذ لم نقرأ ذلك في أي مصدر من مصادر التاريخ! وواضح جدًا أن القصة ملفقة تمامًا، وقد صيغت لتشويه سيرة فيصل والطعن به أولاً، ولتجريح مشاعر العرب والمسلمين والاستهزاء بعاداتهم وتقاليدهم مع بث الفتنة بين المسلمين والمسيحيين المتعايشين معًا منذ القدم ثانيًا.

11 ـ ما بعد الرحيل

جاء في أوراق صائب شوكت (مخطوط) المعلومات التالية: «نقل جثمان الملك فيصل الأول من محطة (بيرن)[47] إلى (برنديزي) في إيطاليا ومنها نقلته دراعة إيطالية مجللة بالسواد وسلمته إلى الدراعة البريطانية. وصلت الدراعة إلى حيفا ونقل الجثمان منها إلى البر حيث نقلته طائرة خاصة إلى بغداد بحراسة ثلاث طائرات من القوة الجوية البريطانية في فلسطين، ومن الرطبة استقبلت الجثمان تسع طائرات من القوة الجوية العراقية حتى مطار بغداد يوم 15 أيلول/سبتمبر 1933، ومنه نقل إلى (بهو) البلاط الملكي حيث وضع على عربة مدفع وسار الموكب (في تشييع مهيب) نحو المقبرة الملكية التي أعدت في الأعظمية ووري التراب وفي اليوم نفسه 15 أيلول/سبتمبر 1933[48].

وصدر عن الملك غازي الأول البيان الآتي: «إلى الشعب العراقي الكريم، إن عواطف الإخلاص والمحبة التي انبعثت عن قلوب أبناء أمتي على أثر الكارثة العظمى التي حلت بالبلاد بوفاة قائدها وباني كيانها جلالة والدي المعظم تغمده الله برحمته كان لها أعظم أثر في نفسي، وفي هذه الساعة التي يجيش قلبي فيها بألم الفراق وبشكر الأمة على عواطفها الصادقة المواسية يحق لي أن أنتظر من أبناء شعبي أن يؤازروني بكل قواهم كما آزروا والدي في جهاده وأن يساعدوني على النهوض بالمسؤولية العظمى التي ألقتها العناية الإلهية على عاتقي وأن يعملوا وإياي على تمجيد ذكرى فقيد الأمة وسليل البيت الهاشمي وتطيب روحه وذلك ببذل كل ما في وسعنا في سبيل تحقيق أمانيه السامية»[49].

وبمناسبة مرور أربعين يومًا على وفاة الملك فيصل الأول أقيم في بغداد احتفال كبير شاركت فيه وفود من جميع أنحاء العراق ومن مختلف البلدان، وتحول العزاء إلى

---

(47) كانت محطة سكة حديد برن ثاني أكبر محطة في سويسرا. وعلى مدار الوقت، تم توسيع محطة برن تدريجيًا وإضافة خدمات جديدة.

(48) من أوراق الدكتور صائب شوكت.

(49) المصدر نفسه.

تظاهرة قومية عبَّر فيها الجميع عما يكنونه للملك الراحل من محبة واعتزاز وتقدير. لقد تقلد الحكم بعد فيصل الأول نجله الوحيد الأمير (الملك) غازي المولود بمكة 1912، وقد قتل في حادث سيارة في 4 نيسان/ أبريل 1939، وقد تزوج من بنت عمه الأول الأميرة عالية بنت علي ملك الحجاز سابقًا. وبرحيل فيصل الأول سيتجه تاريخ العراق المعاصر اتجاهات صعبة، إذ يقول المؤرخ حنا بطاطو إن موت فيصل كان سببًا في اختلال التوازن في الحكومة الملكية[50].

12 ـ ذكرى زعيم عربي

أخيرًا، من الصعب على المرء أن يجد في تاريخ العرب الحديث شخصية تجمع صفات القيادة وحنكة رجل الدولة مع مناقب الاعتدال والحكمة والكياسة. ويذهب علاوي إلى أبعد من ذلك، إذ يرى «أن القومية العربية الواقعية، الهادفة والبناءة قد انتهت عندما مات فيصل الأول، لتحل محلها «قومية متقلبة، متشدقة وغاضبة». نعم، كانت عقلانية فيصل الأول قد تعاملت مع العروبة فجعل العراق منطلقًا لها بحكم تاريخه وموقعه، فكان واقعيًا حتى رحيله، في حين بدأ العراق يتأثر بالنازية والفاشية الصاعدتين أوروبيًا، فبدأت الجمعيات والنوادي القومية في العراق إبان عهد ولده غازي حكم 1933 ـ 1939، ومع رحيله كانت الحرب العالمية الثانية وفي غمارها دخل العراق مغامرة الحرب مع البريطانيين من جراء التأثر بألمانيا النازية. كان نوري السعيد يحمل فكر فيصل ورؤيته العروبية، فكان أن أصدر من وحي فيصل عدة مشروعات قومية واقعية وعلى رأسها الاتحاد الكونفدرالي العربي الذي تحّول على يد العرب إلى «جامعة الدول العربية»[51]. أما القومية المتقلبة المتشدقة والغاضبة، فإنها قد مارستها أحزاب ووظفها مستبدّون وصبغتها ثنائية التناقض بين الرومانسية والعنف! رحل فيصل وقد سميت ساحة تكريمًا له في نهاية شارع حيفا في قلب بغداد، حيث يقف تمثال الفروسية له. تم هدم التمثال بعد إطاحة الملكية في عام 1958، ولكن تم ترميمه لاحقًا.

رحل فيصل الأول بعدما قدّم إلى العراق والأمة العربية الكثير، وكانت آخر كلماته وأقواله: «لقد قمت بواجبي، فلتعش الأمة من بعدي بسعادة وقوة واتحاد».

---

(50) حنا بطاطو، «العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية: عودة إلى أبرز القضايا والتساؤلات،» في: مجموعة من المؤلفين، **المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات** (بغداد؛ بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، 2006)، ص 59.

(51) سيار الجميل، **جامعة الدول العربية: شيخوخة مشروع عربي فاشل؛ اشتراطات التغيير في القرن الواحد والعشرين** (عمّان: دار العرب للنشر والتوزيع؛ بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، 2015)، ص 15 ـ 18.

الخاتمة

حصيلة تاريخية

أولًا: فيصل الرمز العربي

سيذكر التاريخ أن الملك فيصل الأول الذي انتصر مع رهط من القيادات العسكرية في ريادة الثورة العربية، حكم سورية الكبرى لسنتين (1918 ـ 1920)، ونال سمعة كبيرة وواسعة بمشاركته في مؤتمر فرساي بباريس 1919، ثم حكم العراق نحو ثلاث عشرة سنة (1921 ـ 1933)، وأسس وجوده الحديث. هو الرجل الوحيد الذي فشلت تجربته في سورية من جراء الهجمة الفرنسية القاسية، ونجح في تجربته بحكم العراق، لما امتلكه من حنكة وقوة وصبر وذكاء ودهاء توافرت فيه كأحد أبرز الزعماء العرب في القرن العشرين. وسيغدو مع توالي الزمن رمزًا لوحدة العراق ونهضته المعاصرة بالرغم من كره بعض العراقيين له، كونه حكم بلادهم بعدما جاء من سلالة أشراف مكة، وهي عربية هاشمية من الحجاز، ولم يكن من أصلاب العراقيين سواء كانوا من المدن أو من الريف والبوادي، ولكن ثبت للقاصي والداني، أنه خدم العراق خدمة لا تضاهى ورحل إلى بارئه عام 1933، وقد جعل منه دولة مستقلة رسميًا، لها مؤسساتها ومكانتها في العالم، وعضوًا مؤسسًا لعصبة الأمم، فضلًا عن منجزاته التاريخية في التعليم والعلاقات السياسية الإقليمية وإعمار المدن وتطوير المؤسسات وأهمها الجيش والقضاء والإدارة. كما عمل على تنمية الاقتصاد العراقي وأصدر العملة العراقية بالدينار ومفرداته. لقد كان وسيبقى اسمه واحدًا من أبرز القادة العرب الذين عرفهم العالم في القرن العشرين، ولكنه غُبن في تاريخه غبنًا شديدًا، مقارنة بما حصل عليه غيره من زعماء مؤسسين أمثال أتاتورك تركيا ورضا بهلوي إيران وعبد العزيز آل سعود وغيرهم.

كانت تجربة فيصل الأول في الثلث الأول من القرن العشرين خالية من خطايا ارتكبها قادة عرب آخرون في ثلثيه الآخرين. وإن إيجابيات الرجل من دون شك أكبر كثيرًا من سلبياته؛ التي منها مرونته مع البريطانيين. تمتع بقدرة كاريزمية فائقة في الحكم والقيادة وتعامله المتوازن بين البريطانيين والعراقيين. وأستطيع القول إن عهده هو العهد الدستوري والتأسيسي الأول الذي شهد لوحده عراقيًا حرية في الصحافة وانبثاق الأحزاب وولادة الفكر الحديث والتيارات الجديدة، وتُعَد العشرينيات من أخصب حالات الأجهزة والمرافق السياسية والمدنية والعسكرية برغم فقر البلاد المدقع وارتباط العراق بمعاهدات ثقيلة مع البريطانيين، وخروجه من تركة نظام عثماني طويل كانت له ترسباته وبقاياه مع قساوته وسكونيته السياسية والاقتصادية. كما شهد عهد فيصل الأول حالة وفاق دبلوماسي وسياسي مع كل من الجارتين إيران وتركيا، إذ توثقت عرى علاقاته بهما.

كان فيصل الأول يرى أن ثمة أولويات للعراق لا بد أن تتقدم على متطلباته الأخرى، فلا يمكنه أن يغدو دولة محترمة من دون استراتيجيتين اثنتين كانتا وما تزالان تشكلان أخطر ما يواجهه العراق: أولاهما، أمن المجتمع الداخلي العراقي وانضباطه واستقراره وحيادية دولته إزاء تنوعات ذلك المجتمع الصعب المراس. ولقد أثبتت تجارب ذلك القرن صحة هذه النظرية التي ضربها الآخرون عرض الحائط، فلقد جمع فيصل الأول ولاء جميع تنوعات الداخل وكل ثنائيات ومزدوجات المجتمع وتناقضاته، فلم يفضّل أي فصيل على آخر ولا أي مدينة على أخرى ولا قومية على أخرى ولا أي طائفة على أخرى ولا أي دين على آخر، بحيث لم يتوان عن إلقاء خطاب له في كنيس لليهود العراقيين. وأعتقد أنه الزعيم الوحيد الذي نجح في فهم السوريين والعراقيين فهمًا حقيقيًا وهو يحكمهم، وكنت أتمنى أن تبقى مدرسته الفكرية لا السياسية مستمرة حتى اليوم، لكان وضع العراق أفضل كثيرًا مما يعرفه التاريخ. ثانيهما، ثبات علاقات العراق الإقليمية مع جيرانه في النصف الأول من القرن العشرين. إن أخطر ما يهدد العراق والعراقيين ذلك الوضع الإقليمي الذي يقع العراق في إساره، وله أجندته القديمة في التاريخ وله صفحاته القاسية في الواقع.

يبدو لي أن تجربته القومية في مملكته السورية العربية عام 1920 التي نحرها الفرنسيون قد علمته الكثير من الإيمان بأن الواقع شيء والخيال شيء آخر. وهذا ما لم يدركه حتى اليوم تلك الكثرة من الناس الذين ليس لهم إلا طوباوية التفكير الأحادي بعيدًا

من واقع الأمة وحاجاتها الأساسية ومصالحها العليا! لقد بدا واضحًا للمؤرخ أن فيصل قد نجح في تأليف حكومة عربية في دمشق (1918 ـ 1920) وانتقل ليبني دولة عراقية في بغداد (1921 ـ 1933) دامت حتى عام 2003. فإن كان قد خرج من دمشق محبطًا كونه لم يكمل دوره التاريخي فيها، فقد رحل رحلته النهائية عام 1933، وقد ترك العراق دولة لها مؤسساتها ومستقرة الأحوال وقد أمّن على حدودها، وأنهى مشاكلها مع إيران وتركيا والسعودية بعد أن أمّن استقلال البلاد ودخوله عضوًا في عصبة الأمم.

نجح فيصل الأول في تأسيس ركائز قوية في توثيق علاقات الإقليم، وبني في ما بعد على قاعدته كل من ميثاق سعد آباد 1936 وميثاق بغداد 1955. هذان الميثاقان اللذان لم يفهمهما من لا يتمتع ببعد نظر تاريخي، فتعرّضا للهجوم الكاسح سياسيًا وإعلاميًا عراقيًا وعربيًا. وهذا أيضًا بعيد جدًا من فهم أولئك القادة العرب والعديد من المثقفين والسياسيين العرب الذين لا يدركون أبعاده ولا يفكرون في عواقبه أبدًا، وخصوصًا أن لكل من تركيا وإيران أطماعهما القديمة في العراق شمالاً ووسطًا وجنوبًا.

ثانيًا: دروس تجربة فيصل الأول السياسية في العراق؟

بالرغم من عروبة الرجل الصلبة وتفكيره القومي، فإنه كان عراقيًا أكثر منه عربيًا برغم كل دعواته إلى اتحاد الأمة. لقد نجح في بناء دولة مؤسسية دستورية قوية على عهده الذي لم يدم طويلاً، ولا أقصد بالدولة القوية دولة عسكرية دكتاتورية ذات حكم شمولي وجيش عرمرم، بل دولة دستورية معلمنة مدنية ومؤسسية ومستقرة وعلاقاتها طبيعية مع كل العالم. وباستثناء بعض القلاقل الداخلية، فقد نجح فيصل الأول في أن يتبع سياسة حكيمة وواقعية في مشروع «خذ وطالب» مع الإنكليز، وسياسة «المد والجزر» مع دول الإقليم القوية، وسياسة «المصالح النظيفة» مع العرب، وسياسة «فوق الميول والجهوية والاتجاهات» مع مجتمع الداخل المتنوع!

ما أحوجنا اليوم إلى قيادة واقعية مثل قيادة فيصل الأول! وزعامة كاريزمية مؤهلة لإدارة البلاد وانتشالها من مستنقع غطست فيه. لقد نجح فيصل الأول في تأسيس دولة كانت قد تكونت قاعدتها من برنامج عمل أجمعت عليه أحزاب عراقية مدنية وصحافة حرة، وتفكير سليم، ونخبة مؤهلة وقديرة في الإدارة والمالية والتربية ورسم الخطط وصناعة القرار

السياسي رفقة فيصل، إذ كانت تعمل معه منذ العهد القديم. ولكن فيصل الأول أتعبه العراق والعراقيون كثيراً. وللتاريخ يذكر الشاعر محمد مهدي الجواهري: «لقد تحمل الملك فيصل الأول من وزر العراق أكثر مما ينبغي، فالعراق بلد أتعب الحاكمين والمحكومين جميعًا وعلى مدى التاريخ...!». وحري بالعراقيين اليوم أن يجعلوا من فيصل الأول رمزاً تاريخيًا لهم، ويترسمّون خطواته في بناء مستقبل جديد للعراق، ولكن ضمن استراتيجية جديدة تتناسب وحياة هذا العصر .

المراجع

1 ـ العربية

كتب

الأتاسي، نشوان. **تطور المجتمع السوري 1831 ـ 2011**. بيروت: دار أطلس للنشر والترجمة، 2020.

إبراهيم، سعد الدين. **تجسير الفجوة بين المثقفين وصانعي القرارات**. عمّان: منتدى الفكر العربي، 1986.

أحمد، إبراهيم خليل. **تطور التعليم الوطني في العراق، 1869 ـ 1932**. البصرة: مطبعة جامعة البصرة، 1982.

ــــــــــــ وخليل علي مراد. **تركيا وإيران: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر**. الموصل: [د. ن.]، 1992.

أحمد، كمال مظهر. **كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى**. ترجمة محمد الملا عبد الكريم. بغداد: مطبعة المجمع العلمي الكردي، 1977.

الأدهمي، محمد مظفر. **الملك فيصل الأول: دراسات وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991.

الأرمنازي، نجيب **سورية من الاحتلال حتى الجلاء**. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1953.

الأزري، عبد الكريم. **مشكلة الحكم في العراق: من فيصل الأول الى صدام**. لندن: [د. ن.]، 1991.

أسعد، فائز عزيز. **انحراف النظام البرلماني في العراق**. تقديم منذر الشاوي. بغداد: منشورات وزارة الإعلام، 1975.

الأعظمي، علي ظريف. **موجز تاريخ بغداد القديم والحديث**. بغداد: المكتبة العربية، 1926.

أفندي، راقم. **ديوان راقم أفندي 1853 ـ 1891م: ما تبقى من شعر عبد الله راقم أفندي النجيفي الموصلي**. دراسة وتحقيق سيار الجميل. بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر، 2019.

ألماظ، ماري شهرستان. **المؤتمر السوري العام 1919 ـ 1920**. بيروت: دار أمواج، 2000.

الأمين، حسن. **سراب الاستقلال في بلاد الشام: 1918 ـ 1920م**. بيروت: شركة رياض الريس للكتب والنشر، 1998.

الأيوبي، علي جودت. **ذكريات 1900 1958**. بيروت: مطابع الوفاء، 1967.

بابان، أحمد مختار. **مذكرات أحمد مختار بابان: آخر رئيس للوزراء في العهد الملكي في العراق**. إعداد وتقديم كمال مظهر أحمد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999.

باروت، محمد جمال. **التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحوّل من البدونة إلى العمران الحضري**. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

البراك، عبد القادر. **ذكريات أيام زمان**. بغداد: مطبوع تنشره جريدة «الاتحاد»، 1989. (كتاب الاتحاد؛ 1)

البزاز، عبد الرحمن. **العراق من الاحتلال إلى الاستقلال**. ط 3. بغداد: مطبعة العاني، 1967.

البصير، محمد المهدي. **تاريخ القضية العراقية**. وقف على تصحيحه وطبعه سعد آل جريو (طبع على نفقة المؤلف). بغداد: مطبعة الفلاح، 1923.

بطاطو، حنا. العراق: **الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية**. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، 1990.

________. **فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم**. ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندي؛ مراجعة ثائر ديب. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

البنا، جورج. **الموسوعة الكلدانية، الكتاب الثاني: سلسلة بطاركة الكلدان**. سان دييغو، كاليفورنيا: [د. ن.]، 2007.

التكريتي، عبد المجيد كامل. **الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية، 1921 ـ 1933**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991.

جارجلو، إسماعيل حقي أوزن. **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**. ترجمه إلى العربية خليل علي مراد. ط 2. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2003.

جمال باشا السفاح. **مذكرات جمال باشا**. إعداد محمد السعيدي؛ تقديم سليمان الرياشي. بيروت: دار الفارابي، 2013.

الجمالي، محمد فاضل. **العراق الحديث: آراء ومطالعات في شؤونه السياسية**. بيروت: [د. ن.]، 1969.

جميل، أحلام حسين. **الخلفية السياسية والاجتماعية للأوضاع التي كان يطبق في ظلها دستور 1925 في العراق**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1986.

جميل، حسين. **العراق: شهادة سياسية، 1908 ـ 1930**. لندن: دار اللام، 1987.

الجميل، سرمد. **مقالات علي الجميل في الاقتصاد والتجارة**. الموصل: دار العابد للطباعة والنشر، 2009.

الجميل، سيار. **بقايا وجذور التكوين العربي الحديث**. بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997.

______. **التحوّلات العربية: إشكاليات الوعي، وتحليل التناقضات، وخطاب المستقبل**. بيروت؛ عمّان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1997.

______. **تكوين العرب الحديث**. ط 2. عمّان: دار الشروق للطباعة والنشر، 1997.

______. **جامعة آل البيت في العراق 1924 ـ 1930: مشروع تأسيس جامعة عراقية إسلامية اجتهادية: المصداقية والفشل**. الدوحة؛ الشارقة؛ بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، 2012.

______. **جامعة الدول العربية: شيخوخة مشروع عربي فاشل؛ اشتراطات التغيير في القرن الواحد والعشرين**. بيروت: دار العرب للنشر والتوزيع؛ الدار العربية للعلوم ناشرون، 2015.

______. **الرؤية المختلفة: قراءة نقدية في منهج محمد عابد الجابري (أجوبة الخطاب عن أسئلة التاريخ)**. بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999.

______. **زعماء وأفندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب**. بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999.

______. **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل منهج رؤيوي معاصر**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1989.

______. **العثمنة الجديدة: القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك**. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

______. **العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة**. ط 2. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013.

______. **نظرية الأجيال: المجايلة التاريخية، فلسفة التكوين التاريخي، تحقيب الثقافة العربية الإسلامية**. ط 2. بيروت؛ تورنتو: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2018.

جواد، مصطفى وأحمد سوسة. **كتاب دليل خارطة بغداد المفصّل**. بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1958.

الجواهري، عماد. **تاريخ مشكلة الأراضي في العراق، 1914 ـ 1932**. بغداد: دار الحرية للطباعة، 1978.

الجواهري، محمد مهدي. **ذكرياتي**. بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1988. 2 ج.

جودت، علي. **ذكريات 1900 ـ 1958**. بيروت: مطابع الوفاء، 1967.

الحربي، علاء جاسم محمد. **الملك فيصل الأول: حياته ودوره السياسي في الثورة العربية وسورية والعراق 1883 ـ 1933**. بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1990.

الحسن بن طلال (الأمير). **الأعمال الفكرية المجلد الأول**. عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع؛ بيروت: مطبعة برجي، 2007.

الحسني، باقر السيد أحمد. **ذكريات في مسيرة الحكم الوطني الملكي في العراق: من الروضة الكاظمية الشريفة إلى البلاط الملكي**. إعداد وتحقيق نزار باقر الحسني. عمّان: مطابع دار الأديب، 2011.

الحسني، عبد الرزاق. **تاريخ العراق السياسي الحديث**. ط 2، منقحة. صيدا: مطبعة العرفان، 1957.

________. تاريخ الوزارات العراقية. ط 7. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988.

الحسو، نزار. **الصراع على السلطة في العراق الملكي: دراسة تحليلية في الإدارة والسياسة**. بغداد: دار آفاق عربية، 1984.

حسين، فاضل. **مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية الإنكليزية ـ التركية وفي الرأي العام**. ط 3. بغداد: مطبعة إشبيلية، 1977.

الحصري، ساطع [أبو خلدون]. **صفحات من الماضي القريب**. بيروت: دار العلم للملايين، 1948.

________. **مذكراتي في العراق**. بيروت: دار الطليعة، 1967. 2 ج.

________. **يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث**. بيروت: مكتبة الكشاف ومطبعتها، 1948.

الحكومة السورية في ثلاث سنوات من 15 شباط 1928 إلى 15 شباط 1931: على عهد رئاسة صاحب الفخامة السيد تاج الدين الحسني. دمشق: مطبعة الحكومة، 1931.

الحكيم، حسن. **مذكراتي: صفحات من تاريخ سوريا الحديث، 1920 ـ 1958**. بيروت: دار الكتاب الجديد 1965. 2 ج.

الحكيم، يوسف. **سوريا والعهد الفيصلي**. ط 3. بيروت: دار النهار، 1980.

________. **سورية والانتداب الفرنسي**. بيروت: دار النهار، 1983.

حمادة، محمد عابدين ومحمد تيسير ظبيان. **فيصل بن الحسين من المهد إلى اللحد: سجل عام لتاريخ القضية العربية وتطوراتها، مج 1: في حياة الفقيد الحافلة بجلائل الأعمال، وصدى الفاجعة الكبرى في جميع أنحاء العالم وآراء العظماء وكبار المفكرين في شخصية الفقيد**. دمشق: المطبعة العصرية، 1933.

حيدر، رستم. **مذكرات رستم حيدر**. تحقيق نجدة فتحي صفوة. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988.

خدوري، مجيد. **نظام الحكم في العراق**. ترجمة فيصل الأطرقجي. بغداد: مطبعة المعارف، 1946.

الخطاب، رجاء. **عبد الرحمن النقيب: حياته الخاصة وآرائه السياسية وعلاقته بمعاصريه**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

خماس، حسين مكي. **من أيام العراق الملكي: مذكرات**. تحرير ومراجعة علاء الدين خماس. عمّان: شركة الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2017.

خوري، فيليب. **أعيان المدن والقومية العربية: سياسة دمشق، 1860 ـ 1920.** ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1993.

الخوري، كوليت. **أوراق فارس الخوري، الكتاب الثاني: العهد الفيصلي وبداية الانتداب (1918 ـ 1924م).** دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1997.

دروزة، محمد عزة. **مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305 ـ 1404 هـ/1887 ـ 1984م.** بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993. 6 مج.

الدملوجي، توفيق سعيد (العقيد). **والذكريات...** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.

الدملوجي، صديق. **مدحت باشا.** بغداد: مطبعة الزمان، 1952 ـ 1953.

الراوي، إبراهيم. **ذكرياتي من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث.** ط 2. بيروت: مطبعة دار الكتاب، 1969.

الرصافي، معروف. **الرسالة العراقية في السياسة والدين والاجتماع يليه كامل الجادرجي في حوار مع الرصافي.** كولونيا؛ بيروت: دار الجمل، 2007.

الرهيمي، علاء حسين عبد الأمير. **المعارضة البرلمانية في العراق في عهد الملك فيصل الأول: دراسة تحليلية.** بغداد: مؤسسة بيت الحكمة، 2007.

الريحاني، أمين. **فيصل الأول: رحلة وتاريخ.** بيروت: دار الجيل، 1988.

________. **ملوك العرب.** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986.

الريماوي، سهيلة. **التجربة الفيصلية في بلاد الشام.** عمّان: وزارة الشباب، مطبعة التوفيق، 1988.

________. **الحكم الحزبي في سوريا أيام العهد الفيصلي (1918 ـ 1920م).** عمّان: دار مجدلاوي، 1998.

الزركلي، خير الدين. **الأعلام.** ط 15. بيروت: دار العلم للملايين، 2002.

________. **ما رأيت وما سمعت.** القاهرة: المطبعة العربية ومكتباتها، 1923.

زكي، مأمون أمين. **ازدهار العراق تحت الحكم الملكي، 1921 ـ 1958: دراسة تاريخية، سياسية، اجتماعية مقارنة.** لندن: دار الحكمة، 2011.

زيادة، خالد. **حكاية فيصل.** ط 2. بيروت: دار النهار للنشر، 1999.

السامر، فيصل. **جوانب جديدة من حياة الملك فيصل الأول.** باريس: [د. ن.]، 1976.

السعدون، حميد. **إمارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمية 1546 ـ 1918.** عمّان: دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

سعيد، أمين. **أسرار الثورة الكبرى ومأساة الشريف حسين.** بيروت: دار الكاتب العربي، 1965.

ـــــــــــ. **أيام بغداد: وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ومعالمه التاريخية**. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1934.

ـــــــــــ. **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن**. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997. 3 مج.

مج 1: **النضال بين العرب والأتراك**.

مج 2: **النضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز**.

مج 3: **إمارة شرق الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية وثورة الشام**.

السعيد، نوري. **مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية، 1916 ـ 1918**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1987.

سلامة، غسان. **المجتمع والدولة في المشرق العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987. (مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي. محور «المجتمع والدولة»)

سلطان، علي. **تاريخ سوريا: 1918 ـ 1920: حكم فيصل بن الحسين**. دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1987.

السويدي، توفيق. **مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية**. بيروت: دار الكاتب العربي، 1969.

الشاوي، منذر. **القانون الدستوري والمؤسسات الدستورية في العراق**. بغداد: منشورات مركز البحوث القانونية، 1970.

شبيب، محمود. **حكايات تاريخية عراقية: تجسس، حرب، سياسة**. بغداد: مكتبة الثقافة، 1987.

شبيرا، أبرم. **الآشوريون في السياسة والتاريخ المعاصر: مجموعة مقالات وبحوث**. السويد: عشتار للطباعة والترجمة والتصميم، 1997.

شرارة، وضاح. **المسألة التاريخية في الفكر العربي الحديث**. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1977.

صالح، زكي. **مقدمة في دراسة العراق المعاصر**. بغداد: مطبعة الرابطة، 1953.

صايغ، أنيس. **الهاشميون والثورة العربية الكبرى**. بيروت: دار الطليعة، 1966.

ـــــــــــ. **من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر: في مفهوم الزعامة السياسية**. بيروت: المكتبة العصرية، 1965.

صحيفة العاصمة: الصحيفة الرسمية للحكومة العربية 1918 ـ 1920. عمّان: منشورات جامعة آل البيت، 1998. (سلسلة الوثائق الهاشمية). 2 مج.

طلاس، مصطفى. **الثورة العربية الكبرى: دراسة تاريخية**. دمشق: دار طلاس للترجمة والنشر، 1984.

عبد الرحمن، محمد كامل. **سياسة إيران الداخلية في عهد رضا شاه، 1921 ـ 1941**. مراجعة كمال مظهر أحمد. البصرة: جامعة البصرة، مركز الدراسات الإيرانية، 1988.

عبد الله بن الحسين (الملك). **الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين: حقبة من تاريخ الأردن.** تحرير عمر المدني. عمّان: الدار المتحدة، 1977.

______. **مذكراتي.** عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع؛ مكتبة برهومة، 1989.

عبد الهادي، عوني. **مذكرات عوني عبد الهادي.** تقديم وتحقيق خيرية قاسمية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012.

العجلوني، محمد علي. **ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى.** عمّان: مكتبة الحرية، 1956.

العراق في سجلات الوثائق البريطانية، مج 2: 1918 ـ 1921. المحرر الاستشاري ألف دي ل. رش؛ محرر البحوث جين بريشود؛ ترجمة كاظم سعد الدين. بغداد: بيت الحكمة، 2012.

عز الدين، يوسف. **الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه.** القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965.

العزاوي، عباس. **العراق بين احتلالين.** بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، 1956.

العزي، خالد. **مشكلة الأنهار الحدودية المشتركة بين العراق وإيران: دراسة في الجغرافية السياسية والقانون الدولي.** بغداد: الاتحاد العام لنساء العراق، 1981.

العسكري، تحسين. **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية.** ط 2. دبي: جلوبال انفورميشن تكنولوجيز، 2004.

العسكري، جعفر. **مذكرات جعفر العسكري.** تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوة. لندن: دار اللام، 1988.

العظمة، عبد العزيز. **مرآة الشام وتاريخ دمشق وأهلها.** تحقيق نجدة فتحي صفوة. بيروت: دار رياض الرئيس للكتب والنشر، 1987.

عقراوي، متى. **العراق الحديث.** ترجمة المؤلف مع مجيد خدوري. بغداد: مطبعة النجاح، 1936.

العكام، عبد الأمير هادي. **الحركة الوطنية في العراق: 1921 1933م.** النجف: مطبعة الآداب، 1975.

العلاف، عبد الكريم بن مصطفى البغدادي. **بغداد القديمة.** بغداد: مطبعة المعارف، 1960.

العمر، فاروق. **الأحزاب السياسية في العراق 1921 ـ 1932.** بغداد: مطبعة الإرشاد، 1978.

العمري، خيري أمين. **حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث.** تقديم علي الوردي. بغداد: الدار العربية للموسوعات، 1969.

______. **شخصيات عراقية.** بغداد: دار المعرفة، 1955.

العمري، صبحي. **لورانس كما عرفته.** بيروت: دار النهار، 1969.

العمري، صبحي. **ميسلون: نهاية عهد.** لندن؛ قبرص: دار رياض الريس للطباعة والنشر، 1991. (سلسلة أوراق الثورة العربية؛ 3)

العمري، محمد طاهر آل المصيب. **تاريخ مقدرات العراق السياسية.** الموصل: مطبعة عيسى محفوط، 1924. 3 ج.

غالمار، فالديمار. **عراق نوري السعيد: انطباعاتي عن نوري السعيد بين سنة 1954 ـ 1958**. دراسة وتقديم وتحقيق سيّار الجميل، ط 1 محققة. بغداد: دار ميزوبوتيميا للطباعة والنشر والتوزيع، 2015.

الفرحاني، محمد. **فارس الخوري**. بيروت: مطبعة دار الغد، 1964.

فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق. بغداد: مديرية الدعاية العامة، مطبعة الحكومة، 1945.

فيضي، سليمان. **في غمرة النضال**. بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، 1952.

قاسمية، خيرية. **الحكومة العربية في دمشق**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982. 2 مج.

مج 1: **1916 ـ 1918**.

مج 2: **1918 ـ 1920**.

ـــــــــ وعزيز العظمة. **الرعيل العربي الأول: أوراق نبيه وعادل العظمة**. لندن؛ بيروت: دار رياض نجيب الريس، 1991.

قدري، أحمد. **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**. دمشق: وزارة الثقافة، 1993.

قدري، تحسين. **مذكرات تحسين قدري، 1892 ـ 1986: المرافق العسكري الأقدم للملك فيصل الأول**. دراسة وتحقيق سيار الجميل. بيروت؛ عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018.

القصاب، عبد العزيز. **من ذكرياتي**. بيروت: منشورات عويدات، 1962.

قلعجي، قدري. **الثورة العربية الكبرى 1916 ـ 1925: جيل الفداء يومًا بيوم مع كامل الأسماء والأدوار والوثائق**. ط 2. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1994.

القيسي، سامي. **ياسين الهاشمي وأثره في تاريخ العراق المعاصر**. بغداد: دار دجلة، 2013.

كامل، مصطفى. **شرح القانون الأساسي العراقي**. بغداد: مطبعة دار السلام، 1947.

كليفلاند، وليم. **الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**. ترجمة فكتور سحاب. بيروت: دار الوحدة، 1983.

كنه، خليل. **العراق أمسه وغده**. بيروت: [د. ن.]، 1966.

لبيب، الطاهر [وآخرون]. **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ 10)

لجنة عسكرية في وزارة الدفاع. **تاريخ القوات العراقية المسلحة**. بغداد: الدار العربية للطباعة 1986.

لونغنيس، إليزابيث. **أزمة الطبقات الوسطى في المشرق العربي: المهن العليا ودورها في التغيير الاجتماعي**. ترجمة رندة بعث. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 2012.

لونكريك، ستيفن همسلي. **أربعة قرون من تاريخ العراق**. تعريب جعفر خياط. ط 3. بغداد: دار الرافدين للطباعة والنشر، 1962.

متى عقراوي. **العراق الحديث**. ترجمة المؤلف مع مجيد خدوري. بغداد: مطبعة النجاح، 1936.

مجموعة من المؤلفين. **بناء الدولة العربية الحديثة (تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق)**. إعداد وتحرير هند أبو الشعر. المفرق؛ عمّان: منشورات جامعة آل البيت 1999.

ــــــــــــ. **المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات**. بغداد؛ بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، 2006.

محمد، رشاد وغسان حداد. **أوراق من تاريخ سورية المعاصر، 1946 ـ 1966**. عمّان: مركز المستقبل للدراسات، 2001.

المدرس، فهمي. **بيان عن جامعة آل البيت: الشعبة المالية الدينية في دورين من حياتهما: دور التأسيس ودور الجهاد العلمي**. بغداد: مطبعة الآداب، 1930.

ــــــــــــ. **مقالات سياسية، تاريخية، اجتماعية**. بغداد: مطبعة الشعب، 1931.

مديرية الدعاية العامة. **فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله: ومضات من سيرة الملك الزعيم مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية**. بغداد: مطبعة الحكومة، 1945.

مذكرات فيصل: مذكرات سرية عن القضية واحتلال سورية. نشرها سامي الشمعة. دمشق: دار اليقظة العربية، [د. ت.].

المرسومي، غازي. **البلاط الملكي في العراق ودوره في الحياة السياسية، 1921 ـ 1933**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002.

مشتاق، طالب. **أوراق أيامي، 1900 ـ 1958**. إشراف حازم طالب مشتاق. ط 2. بغداد: الدار العربية للطباعة، 1989.

الملاح، هاشم يحيى. **موسوعة الموصل الحضارية**. الموصل: جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992. 5 مج.

الملك عبد الله بن الحسين: مفكرًا وأديبًا. إعداد وتحرير بكر المجالي وقاسم الدروع. عمّان: مطبعة الروزنا، 1999.

الملك غازي. **أوراق الملك غازي: المملكة العراقية (البلاط الملكي)**. تحقيق وتعليق زهير كاظم عبود؛ تقديم سيار الجميل. بغداد؛ بيروت: مؤسسة شرق غرب دار المسار للنشر 2010.
عبد الحسين، محمد. **ذكرى فيصل الأول**. بغداد: مطبعة الشعب، 1933.

الموسى، سليمان. **الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908 ـ 1924**. بيروت: دار النهار، 1977.

ــــــــــــ (محرر). **الثورة العربية الكبرى: وثائق وأسانيد**. عمّان: وزارة الثقافة والفنون، 1966.

ــــــــــــ (محرر). **المراسلات التاريخية: الثورة العربية الكبرى**. عمّان: المؤلف، 1973.

مج 1: **1914 ـ 1918**.

مج 2: **1920 ـ 1923**.

________. **صور من البطولة**. عمّان: المطبعة الهاشمية، 1968.

________. **لورانس والعرب: وجهة نظر عربية**. عمّان: منشورات وزارة الثقافة، 1992.

________. **مذكرات الأمير زيد في الحرب في الأردن 1917 ـ 1918**. ط 3. عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011.

الشهبندر، موسى محمود. **ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال**. بيروت: دار رياض الريس للطباعة والنشر، 1993.

المومني، نضال داود. **الشريف الحسين بن علي والخلافة**. عمّان: مطبعة الصفدي، 1996.

النشاشيبي، ناصر الدين. **نساء من الشرق الأوسط**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1988.

النصولي، أنيس بن زكريا. **تاريخ الدولة الأموية في الشام**. بغداد: مطبعة دار السلام، 1926.

النصيري، عبد الرزاق أحمد. **نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932**. بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1988.

نظمي، وميض. **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**. ط 3. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1983.

نعمه، كاظم. **الملك فيصل الأول والانكليز والاستقلال**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988.

النقيب، خلدون حسن. **الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة**. ط 2. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996.

الهاشمي، طه. **مذكرات طه الهاشمي**. تحقيق خلدون ساطع الحصري. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1978.

هاكوبيان، موسيس دير. **حالة العراق الصحية في نصف قرن**. بغداد: دار الرشيد، 1948. (سلسلة دراسات؛ 260)

هندي، إحسان. **كفاح الشعب العربي السوري 1908 ـ 1948**. دمشق: إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، 1962.

________. **معركة ميسلون**. دمشق: وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد، 1967.

الوثائق الهاشمية. بإشراف عام محمد عدنان البخيت؛ جمع وإعداد هند أبو الشعر؛ تحرير محمد الأرناؤوط وسلطي الشخاترة. عمّان: جامعة آل البيت، المطبعة الهاشمية، 1988. 2 مج.

الوردي، علي. **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**. لندن: دار الوراق، 2007.

الياسري، عبد الشهيد. **البطولة في ثورة العشرين**. النجف: مطبعة النعمان، 1966.

دوريات

«اتفاقية فيصل وايزمان لورانس.» **المؤرخ العربي**: العدد 23، 1983.

تويني، جبران. «ولله المثل الأعلى،» و«الأمير فيصل والوحدة العربية.» جريدة **القبلة** (مكة المكرمة)، السنة 4، العدد 330 (16 صفر 1338هـ الموافق 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1919.

جحا، ميشال. «رستم حيدر في العراق.. كيف تم اغتياله.. وكيف عثر على مذكراته؟.» مجلة **بيروت المساء**: أيلول/سبتمبر 1988.

جريدة **القبلة** (مكة المكرمة): 1921/5/5.

جميل، حسين. «بداية فكرة الجمهورية في العراق.» **الهلال** (القاهرة): كانون الثاني/يناير 1965.

الجميل، سيار. «إنتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة.» **المستقبل العربي**: السنة 13، العدد 139، أيلول/سبتمبر 1990.

________. «الخلافات الحدودية والإقليمية: الخلافات العراقية ـ الإيرانية الحدودية والإقليمية.» **المستقبل العربي**: السنة 18، العدد 206، نيسان/أبريل 1996.

________. «الخيارات الفكرية والسياسية لدى العرب والأتراك.» **المستقبل العربي**: السنة 17، العدد 185، تموز/يوليو 1994.

________. «سيمون بوليفار العرب: كيف كتب علي علاوي تاريخ الملك فيصل الأول؟.» **المستقبل العربي**: السنة 38، العدد 443، كانون الثاني/يناير 2016.

________. «مؤتمر باريس 2013: مئوية المؤتمر العربي الأول في باريس 1913.» **عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**: السنة 2، العدد 5، صيف 2013.

الجميل، علي. «ميزانية الدولة بين أيدي نواب الأمة.» **صدى الجمهور**: العدد 13 (31 آذار/مارس 1927).

الحاصد: العدد 13، تشرين الثاني/نوفمبر 1932.

حشيمي، أمين. «الأحزاب.» **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية دمشق): السنة 1، العدد 32 (5 حزيران/يونيو 1919).

الخطيب، محب الدين. «قوميتنا العربية.» جريدة **العاصمة**: السنة 1، العدد 48، آب/أغسطس 1919.

________. «الوطنية.» جريدة **الحكومة الرسمية** (دمشق): السنة 1، العدد 82، كانون الأول/ديسمبر 1919.

الخوري، فائز. «الاشتراكية والمساواة.» **العاصمة** (جريدة الحكومة الرسمية دمشق): السنة 1، العددان 33 ـ 34 (حزيران/يونيو 1919).

صدى الجمهور: العدد 102 (23 آذار/مارس 1928)؛ العدد 104 (2 نيسان/أبريل 1928)؛ العدد 105 (5 نيسان/أبريل 1928).

عبد الدائم، عبد الله. «الفكر التربوي عند ساطع الحصري.» **المستقبل العربي**: السنة 22، العدد 244، حزيران/يونيو 1999.

عبد العالي، نهلة نعيم. «حادثة الأميرة عزة.. أسرار وحقائق.» ملاحق جريدة **المدى** اليومية «الملاحق» ذاكرة عراقية، 2014/2/23.

عزمي، محمود. «العظماء السبعة الذين عرفتهم.» مجلة **الاثنين** الصادرة بمصر: 4 كانون الثاني/يناير 1943.

الموصل: 1921/10/12

رسائل جامعية، أطروحات

خالد، غانم وحيد. «أثر المثقفين العرب في تكوين العراق المعاصر 1921 ـ 1941.» إشراف سيار الجميل (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1995).

النصيري، عبد الرزاق أحمد. «دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908 ـ 1932.» (أطروحة دكتوراه مقدمة إلى جامعة بغداد، كلية الآداب، 1990).

ندوات، مؤتمرات

العلاقات العربية الإيرانية: الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل. تحرير عبد العزيز الدوري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996.

الندوة التاريخية التي عقدت في معهد العالم العربي بباريس لمناسبة مرور 100 سنة على انعقاد المؤتمر العربي الأول، في سانت جرمان في باريس عام 1913، وذلك بتاريخ 4 ـ 5 حزيران/ يونيو 2013.

وثائق، أرشيف

الأرشيفات المستخدمة واللقاءات والاتصالات العلمية والمعلومات والأوراق التاريخية

أرشيف دائرة التسجيلات البريطانية في لندن، والمكتبة الوطنية البريطانية لاحقًا.

أرشيف المس غيرترود بيل في مدينة درم في نيوكاسل ببريطانيا.

أرشيف مكتبة الكونغرس الأمريكية في واشنطن دي سي، الولايات المتحدة الأمريكية.

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية SOAS في جامعة لندن ببريطانيا.

مكتبة بودليان الجديدة في جامعة أوكسفورد ببريطانيا.

مكتبة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة بدولة قطر (والاطلاع على أرشيف جريدة القبلة الحجازية).

مكتبة جامعة آل البيت في الأردن (والاطلاع على جريدة العاصمة التي أصدرتها الحكومة العربية بدمشق).

مكتبة جامعة تورنتو في مدينة تورنتو بكندا.

لقاءات مع الاستاذ المؤرخ البرت حوراني بتاريخ 2 تموز/ يوليو 1977 في كلية سانت انتوني بجامعة أكسفورد بريطانيا.

لقاء قديم مع الدكتور محمد فاضل الجمالي وزوجته سارة باول جمالي رحمهما الله في داره بالعاصمة التونسية قبل ربع قرن في عام 1984 وعام 1986 وعام 1990.

حديث مع د. هدى حوا، التي لها صلة قرابة مع آل كسباني في بيروت 2012.

لقاءات المؤلف مع الأستاذ المرحوم هاني الهندي في داره بمنطقة الشميساني عمّان 1992 ـ 1995.

لقاء مع الأستاذ المرحوم أكرم الحوراني في عمان بالأردن يوم 2 حزيران/يونيو 1996.

2 ـ الأجنبية

Books

Ahmad, Feroz. *The Making of Modern Turkey*. London; New York: Routledge, 1993.

Aldington, Richard. *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry*. London: Collins, 1955.

Allawi, Ali A. *Faisal I of Iraq*. New Haven, CT; London: Yale University Press, 2014.

Allen, Malcolm Dennis. *The Medievalism of Lawrence of Arabia*. University Park, Pennsylvania: Penn State Press, 1991.

Al - Askari, Ja'far. *A Soldier's Story: The Memoirs of Jafar Pasha Al - Askari (1885 - 1936)*. Translated by Mustafa Tariq Al - Askaripage; edited by William Facey and Najdat Fathi Safwat. London: Arabian Publishing, 2003.

Ambrosius, Lloyd E. *Woodrow Wilson and American Internationalism*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2017.

Antonius, George. *The Arab Awakening*. New York: Simon Publications 2001.

Asher, Michael. *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia*. New York: Viking, 1998.

Baker, Randall. *King Husain and the Kingdom of Hejaz*. New York: Oleander Press, 1979.

Barbour, Neville. *Palestine, Star or Crescent?*. New York: Odyssey Press, 1947.

Barr, James. *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle That Shaped the Middle East*. New York: Simon and Schuster, 2011.

Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and New Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1983.

Belgelerle Osmanlı Devrinde Hicaz 1, (Mekke - i Mükerreme). Istanbul: Çamlıca Basım Yayın, 2008.

Bell, Florence (ed.). *The Letters of Gertrude Bell*. London: Ernest Benn Limited, 1927. 2 vols.

Bell, Gertrude L. *The Arabian Diaries, 1913–1914*. Edited by Rosemary O'Brien. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2000.

________. *The Desert and the Sown*. With many Illustrations and a Map. London: William Heinemann, 1907.

________. *A Woman in Arabia: The Writings of the Queen of the Desert*. Edited by Georgina Howell. London: Penguin Audio, 2015.

Ben - Dror, Elad. *Ralph Bunche and the Arab - Israeli Conflict: Mediation and the UN 1947–1949*. London: Routledge, 2015.

Bennet, G. H. *British Foreign Policy during the Curzon Period, 1919–1924*. New York: St. Martin's Press, 1995.

Beshara, Adel. *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and Identity*. New York; London: Taylor and Francis, 2012.

Blunt, Wilfrid. *Lady Muriel: Lady Muriel Paget, her Husband, and her Philanthropic Work in Central and Eastern Europe*. London: Methuen and Co., 1962.

Bonsal, Stephen. *Suitors and Suppliants: The Little Nations at Versailles*. Introduction by Arthur Krock. New York: Simon Publications; Prentice Hall 1946.

Bostancı, Mustafa. *Birinci Dünya Savaşı'nda Osmanlı Devleti'nin Hicaz'da Hâkimiyet Mücadelesi (The Struggle of Ottomans in Hijaz Region during the World War I)*. Istanbul: Akademik Bakış, 2014.

Burdett, A. L. P. (ed.). *Records of the Hijaz, 1798 - 1849*. [Slough]: Cambridge Archive Editions, 1996), 8 vols.

Vol. 7: *1910 - 1918*.

Cadner, Brian. *Allenby*. London: Cassell, 1965.

Cannon, John and Robert Crowcroft (eds.). *The Oxford Companion to British History*. 1st Revised ed. New York: Oxford University Press, 2009.

Çetinsaya, Gökhan. *Ottoman Administration of Iraq 1890 - 1908*. New York; London: Routledge, 2006.

Chemers, Martin M. *An Integrative Theory of Leadrership*. New York; London: Psychology, Press, 2014.

Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*, 12th ed. London; New York: Cambridge University Press, 1922.

Ciment, James D. and Thaddeus Russell (eds.). *The Home Front Encyclopedia: United States, Britain, and Canada in World Wars I And II*. Santa Barbara: Praeger Security International/ABC - CLIO, 2007.

Cleveland, William L. *A History of the Modern Middle East*. 6th ed. London: Routledge, 2018.

Cohen, Aharon. *Israel and the Arab World*. New York: Funk and Wagnalls, 1970.

Cohen, Michael J. *Britain's Moment in Palestine: Retrospect and Perspectives, 1917 - 1948*. London: Routledge, 2014.

Collins English Dictionary. Complete and Unabridged. 12th ed. New York: Harper-Collins Publishers, 2014,

Crooper, John Milton. *Woodrow Wilson: A Biography*. New York: Knopf, 2009.

Cushman, Clare. *The Supreme Court Justices: Illustrated Biographies, 1789–1995*. 2nd ed. London; Thousand Oaks: Congressional Quarterly Books, 2001.

David, Philippe. *Un Gouvernment arabe? Damas: Le Congrés Syrien*. Paris: Marcel Giard, 1923.

Dawisha, Adeed. *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009.

Dumper, Michael and Bruce E. Stanley (eds.). *Cities of the Middle East and North Africa: A Historical Encyclopedia.* Santa Barbara: Praeger Security International/ ABC - CLIO, 2007.

Edmonds, Cecil J. *Kurds, Turks, and Arabs.* London; New York: Oxford University Press, 1957.

Encyclopaedia of Islam. London; Leiden: Brill, 1934.

Encyclopedia Britannica. 15th ed. Chicago, IL: Encyclopedia Britannica Inc., 2010.

Erskine, Beatrice. *King Faisal of Iraq: An Authorised and Authentic Study.* London: Hutchinson, 1933.

Erskine, Mrs. Steuart. *King Faisal of Iraq.* With an appreciation by Viscount Allenby; and a foreword by Ja'far Pasha al Askeri. London Hutchinson 1934.

Falls, Cyril. *Official History of the Great War Based on Official Documents by Direction of the Historical Section of the Committee of Imperial Defence; Military Operations Egypt and Palestine from June 1917 to the End of the War.* London: H. M. Stationary, 1930.

Farrant, Leda. *The Princess from St. Petersburg: The Life of Princess Catherine Radzwill.* Book Guild Ltd., 2000.

Fattah, Hala with Frank Caso. *A Brief History of Iraq.* New York: Facts on File, 2009.

Faulkner, Neil. *Lawrence of Arabia's War: The Arabs, the British and the Remaking of the Middle East in WWI.* New Haven, CT: Yale University Press, 2016.

Foster, John. *The Church of the T'ang Dynasty.* London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1939.

Friedman, Isaiah. *Palestine, a Twice - Promised Land?: The British, the Arabs and Zionism, 1915–1920.* London: Routledge, 2018.

Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East.* New York: H. Holt, 2001.

Gallman, Waldemar J. *Iraq under General Nuri: My Recollection of Nuri Al - Said, 1954–1958.* Baltimore, MA: Johns Hopkins University Press, 1964.

Gelber, Yoav. *Jewish - Transjordanian Relations 1921–1948: Alliance of Bars Sinister.* London: Routledge, 2014.

Ghani, Cyrus. *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power.* New York; London: I. B. Tauris, 2000.

Ghareeb, Edmund A. and Beth K. Dougherty. *Historical Dictionary of Iraq.* Lanham, MA: Scarecrow Press, 2004.

Gilbert, Martin. *Churchill: A Life.* London: Heinemann, 1991.

Glad, Betty. *Charles Evans Hughes and the Illusions of Innocence: A Study in American Diplomacy.* Urbana, IL: University of Illinois Press, 1966.

Goldschmidt, Arthur. *Biographical Dictionary of Modern Egypt*. Boulder, CO: Lynne Rienner Publishers, 2000.

Grainger, John D. *The Battle for Syria, 1918 - 1920*. Rochester, NY: Boydell Press, 2013.

Graves, Richard Perceval. *Lawrence of Arabia and His World*. London: Thames and Hudson, 1976.

Graves, Robert. *Lawrence and the Arabs*. London: Jonathan Cape, 1934.

Green, Joseph. *A Social History of the Jewish East End in London, 1914–1939: A Study of Life, Labour, and Liturgy*. New York: Edwin Mellen Press, 1991.

Grint, Keith. *Leadership: Limits and Possibilities*. New York: Palgrave Macmillan, 2005.

Hall, Rex. *The Desert Hath Pearls*. Melbourne: Hawthorn Press, 1975.

Heckscher, August. *Woodrow Wilson*. Norwalk, Connecticut: Easton Press, 1991.

Hogarth, David George. *Hejaz Before World War I: A Handbook*. 2nd ed.New York: Oleander Press 1978.

_________. *The Penetration of Arabia: A Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula*. London: Lawrence and Bullen, 1904.

Holt, Edgar. *The Tiger: The Life of Georges Clemenceau 1841–1929*. London: Hamilton, 1976.

Hourani, Albert. *The Emergence of the Modern Middle East*. Berkeley, CA: University of California Press, 1981.

_________. *A History of the Arab Peoples*. Cambridge, MA: Belknap of Harvard University Press, 1991.

Hourgronje, C. Snouck. *The Revolt in Arabia*. With a foreword by Richard J. H. Gottheil. New York; London: G. P. Putnam's sons, 1917.

Howell, Georgina. *Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008.

________. *Queen of the Desert: The Extraordinary Life of Gertrude Bell*. London: Macmillan, 2007.

Hughes, Matthew. *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917–1919*. London: Routledge, 1999.

Huneidi, Sahar. *A Broken Trust: Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians, 1920–1925*. London: I. B. Tauris, 2000.

Hyde, H. Montgomery. *Solitary in the Ranks: Lawrence of Arabia as Airman and Private Soldier*. London: Constable, 1977.

Iraq Administration Reports 1914 - 1932. Cambridge, MA: Achieve Editions, 1992. 10 vols.

Ireland, Philip W. Iraq: A Study in Political Development. London; New York: Macmillan Co., 1937.

James, Lawrence. *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia.* London: Little, Brown Book Group, 2010.

________. *Imperial Warrior: The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby 1861–1936.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1993.

Joseph, John. *The Modern Assyrians of the Middle East: Encounters with Western Christian Missions, Archaeologists, and Colonial Powers.* Boston, MA: Brill, 2000.

Karsh, Efraim and Inari Karsh. *Empires of the Sand. The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789 - 1923.* Cambridge, MA: Harvard University Press 1994.

Kayalı, Hasan. *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908 - 1918.* Berkeley, CA: University of California Press, 1997.

Kedourie, Elie. *England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire 1914–1921.* London: Mansell Publishing Limited, 1987.

________. *In the Anglo - Arab Labyrinth: The McMahon - Husayn Correspondence and its Interpretations, 1914–1939.* New York: Cambridge University Press, 1976. (Cambridge Studies in the History and Theory of Politics)

Kerrigan, Michael. *Who Lies Where A Guide to Famous Graves.* London: Fourth Estate Limited, 1998.

Khadduri, Majid. *Arab Contemporaries: The Role of Personalities in Politics.* Baltimore, MA: Johns Hopkins University Press, 1976.

Khadduri, Majid. *Independent Iraq, Nineteen Thirty - Two to Nineteen Fifty - Eight: A Study in Iraqi Politics.* 2nd ed. New York: Ams Pr Inc, 1980.

Khouri, Fred John. *The Arab - Israeli Dilemma.* Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1985.

Khoury, Philip S. *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920–1945.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987.

________. *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus, 1860-1920.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983.

Knight, Paul. *The British Army in Mesopotamia, 1914 - 1918.* Jefferson, North Carolina: McFarland and Co., 2013.

Korda, Michael. *Hero: The Life and Legend of Lawrence of Arabia.* Reprint edition. New York: Harper Perennial, 2011.

Laurens, Henry. *La Question de Palestine: Une Mission sacrée de civilisation, 1922 - 1947.* Paris: Fayard, 2002.

Lawrence, Thomas E. *Revolt in the Desert.* London: Leonaur Ltd., 2008.

_________. *The Seven Pillars of Wisdom*. London: Wordsworth Editions, 1997.

_________. *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph: The Complete 1922, Oxford Text*. Saint Paul, MN: Wilder Publications, 2011.

Leclerc, Christophe. *Avec T. E. Lawrence en Arabie, La Mission militaire francaise au Hedjaz 1916–1920*. Paris: L'Harmattan, 1998.

Lewis, Geoffrey. *Balfour and Weizmann: The Zionist, the Zealot and the Emergence of Israel*. London: A and C Black, 2009.

Litvinoff, Barnet. *The Essential Chaim Weizmann: The Man, The Statesman, The Scientist*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1982.

Longrigg, Stephen H. *Iraq, 1900 - 1950: A Political, Social, and Economic History*. London; New York: Oxford University Press, 1953.

____________. *Syria and Lebanon under French Mandate*. London: Oxford University Press, 1958.

Lukitz, Liora. *Iraq: The Search for National Identity*. London: Routledge Publishing, 1995.

_________. *A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq*. London: I. B. Tauris, 2006.

Mack, John E. *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998.

MacMillan, Margaret. *Paris 1919: Six Months That Changed the World*. Foreword Richard Holbrooke. London: Random House Trade Paperbacks, 2003.

Mallowan, Max E. L. *Mallowan's Memoirs*. New York: Dodd, Mead and Company, 1977.

Mansfield, Peter. *The Ottoman Empire and its Successors*. London: Macmillan, 1973.

Marr, Phebe with Ibrahim Al - Marashi. *The Modern History of Iraq*. 4th ed. London: Routledge, 2018.

Massad, Joseph A. *Colonial Effects: The Making of National Identity in Jordan*. New York: Columbia University Press, 2001.

Mazur, Yosef. *Zionism, Post - Zionism and the Arab Problem: A Compendium of Opinions about the Jewish State*. Edited by Mike Cohen. Boulder, CO: Westview Press 2012.

McDowall, David. *A Modern History of the Kurds*. London: I. B. Tauris, 2000.

McKierman, Kevin. *The Kurds*. New York: St. Martin's Press, 2006.

McMeekin, Sean. *The Berlin - Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*. Cambridge, MA: Belknap Press, 2012.

Meyer, Karl E. and Shareen B. Brysac. *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East*. New York: W. W. Norton and Co., 2008.

Mohs, Polly A. *Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War*. London: Routledge, 2007.

Mommsen, Wolfgang J. *The Political and Social Theory of Max Weber*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1992.

Monroe, Elizabeth. *Philby of Arabia*. London: Pitman Publishing, 1973.

Mooken, Aprem. *The History of the Assyrian Church of the East in the Twentieth Century*. Kottayam: St. Ephrem Ecumenical Research Institute, 2003.

Morris, L. Robert and Lawrence Raskin. *Lawrence of Arabia: The 30th Anniversary Pictorial History*. New York: Doubleday and Anchor, 1992.

Murphy, David. *The Arab Revolt 1916 - 18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*. London: Osprey, 2008.

Muslih, Muhammad Y. *The Origins of Palestinian Nationalism*. New York: Columbia University Press, 1988.

Natali, Denise. *The Kurds and the State: Evolving National Identity in Iraq, Turkey, and Iran*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2005.

Neep, Daniel. *Occupying Syria under the French Mandate: Insurgency, Space and State Formation*. New York: Cambridge University Press, 2012.

Neiberg, Michael S. *The Treaty of Versailles: A Concise History*. New York: Oxford University Press, 2017.

Nicolson, Harold. *King George the Fifth: His Life and Reign*. London: Constable and Co, 1952.

O'Brien, Rosemary (ed.). *Gertrude Bell: The Arabian Diaries, 1913–1914*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2000.

Olson, Robert. *The Emergence of Kurdish Nationalist and the Sheikh Sa'id Rebellion, 1880 - 1925*. Austin, TX: University of Texas Press, 1989.

Onley, James. *The Arabian Frontier of the British Raj: Merchants, Rulers, and the British in the Nineteenth - Century Gulf*. Oxford: Oxford University Press, 2008.

Orlans, Harold. *T. E. Lawrence: Biography of a Broken Hero*. Jefferson, NC; London: McFarland, 2002.

Osman, Khalil. *Sectarianism in Iraq: The Making of State and Nation Since 1920*. London: Routledge, 2014.

Oxford Dictionary of National Biography. Oxford: Oxford University Press, 2020.

Paris, Timothy J. *Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920–1925: The Sherifian Solution*. London: Frank Cass, 2003.

Patrick, Andrew. *America's Forgotten Middle East Initiative: The King - Crane Commission of 1919*. London: I. B. Tauris, 2015.

Petersen, Andrew. *Dictionary of Islamic Architecture*. London: Routledge, 2002.

Price, Emyr. *David Lloyd George: Celtic Radicals*. Cardiff: University of Wales Press, 2006.

Priestland, Jane. *Records of Jordan, 1919 - 1965*, 14 vols. London: Archives Editions, 1996. 14 vols.

Vol. 1: *1919 - 1922.*

Provence, Michael. *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism.* Austin, TX: University of Texas Press, 2005.

Ramsaur, Ernst E. *The Young Turks: the Prelude to the Revolution of 1908*. New York: Russell and Russell, 1957.

Ramsay, William Mitchel. *The Thousand and One Churches*, with Gertrude L. Bell. London: Hodder and Stoughton 1909.

__________ and Gertrude L. Bell. *The Thousand and One Churches*. Edited by Robert G. Ousterhout and Mark P. C. Jackson. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Museum of Archaeology and Anthropology, 2008.

Al Rasheed, Madawi. *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidis of Saudi Arabia.* New York: I. B. Tauirs, 1991.

Records of Iraq 1914 - 1966. Chippendham, Wilts, UK: Antony Rowe Ltd., 2001.

Report of the Commissioner of Education for the Year Ended June 30, 1912. Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1913. (Congressional Edition, vol. 6410)

Rhodes James. *Churchill: A Study in Failure 1900 - 1939.* London: Weidenfeld and Nicolson 1970.

Rogan, Eugene. *The Arabs: A History.* 3rd ed. New York: Basic Book, 2012.

Rolls, S. C. *Steel Chariots in the Desert.* London: Jonathan Cape, 1940.

Rose, Kenneth. *King George V.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1983.

Roskill, Stephen P. *Hankey: Man of Secrets*. New York: Collins, 1970. 2 vols.

Vol.1: *1877 - 1918.*

Vol. 2: *1919 - 1931.*

Salibi, Kamal S. *The Modern History of Jordan*. London: I. B. Tauris, 1998.

Satia, Priya. *Spies in Arabia: The Great War and the Cultural Foundations of Britain's Covert Empire in the Middle East.* London: Oxford University Press, 2008.

Schneer, Jonathan. *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab - Israeli Conflict.* London: Random House Trade Paperbacks 2012.

Segev, Tom. *One Palestine Complete: Jews and Arabs under the British Mandate.* New York: Metropolitan Books/Henry Holt and Company, 2000.

Shikara, Ahmad A. R. *Iraqi Politics, 1921 41 □: The Interaction between Domestic Politics and Foreign Policy.* London: LAAM Ltd., 1987.

Sicker, Martin. *Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831 - 1922.* Westport CT: Greenwood Publishing Group, 1999.

Simon, Reeva S. *Iraq between the Two World Wars: The Militarist Origins of Tyranny.* New York: Columbia University Press, 2004.

________ and Eleanor H. Tejirian. *Creation of Iraq, 1914 - 1921.* Foreword by Gary Sick. New York: Columbia University Press, 2004.

Sinderson, Harry Chapman. *Ten Thousand and One Nights: Memories of Iraq's Sherifian Dynasty.* Foreword by Dame Freya Stark. London: Hodder and Stroughton, 1973.

Slater, Elinor and Robert Slater. *Great Jewish Men.* New York: Jonathan David Company, Inc, 1996.

Sluglett, Peter. *Britain in Iraq: Contriving King and Country.* Foreword Albert Hourani. 2nd ed. Revised ed. New York: Columbia University Press, 2007.

Smith, Charels D. *Palestine and the Arab - Israeli Conflict: A History with Documents.* Subsequent 4th ed. London: Palgrave Macmillan, 2001.

Stafford, Ronald S. *The Tragedy of the Assyrians.* London: Gorgias Press LLC, 2006.

Tabachnick, Stephen (ed.). *The T. E. Lawrence Puzzle.* Athens: University of Georgia Press, 1984.

Tarbush, Mohammad A. *The Role of the Military in Politics: A Case Study of Iraq to 1941.* London: Routledge, 1988.

Tauber, Eliezer. *The Formation of Modern Iraq and Syria.* London: Routledge, 2013.

Teitelbaum, Joshua. The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of the Hijaz. London: C. Hurst and Co. Publishers, 2001.

Townsend, John. *Proconsul to the Middle East: Sir Percy Cox and the End of Empire.* London: I. B. Tauris, 2010.

Townshend, Charles. *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq 1914 - 1921.* London: Faber and Faber, 2010.

Tripp, Charles. *A History of Iraq.* 3rd ed. New York: Cambridge University Press, 2007.

Troeller, Gary. *The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud.* London: Frank Cass, 1976.

Turner, Adrian. *The Making of David Lean's Lawrence of Arabia.* Dragon's World Ltd.,1994.

United States, Congress House, Committee on Foreign Affairs. *Jewish National Home in Palestine: Hearings Before the United States House Committee on Foreign Affairs,* Seventy - Eighth Congress, Second Session. U. S. Government Printing Office, 1944.

Uyar, Mesut and Edward J. Erickson. *A Military History of the Ottomans: From*

Osman to Atatürk. Santa Barbara: Praeger Security International/ABC - CLIO, 2009.

Venetia, Montagu (ed.). *Edwin S. Montagu: An Indian Diary*. London: Heinemann, 1930.

Wallach, Janet. *Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell Adventurer, Adviser to Kings, Ally of Lawrence of Arabia*. London: Phoenix/Orion Books Ltd., 1997.

Wasserstein, Bernard. *Herbert Samuel: A Political Life*. Oxford: Clarendon Press, 1992.

Weizmann, Chaim. *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, Series A. Edited by Dvorah Barzilay and Barnet Litvinoff. Jerusalem: Israel University Press, 1977. Vol. 8: *Nov. 1917 - Oct. 1918*.

Who Was Who, 1920–2008. New York: Oxford University Press, 2007.

Wien, Peter. *Arab Nationalism: The Politics of History and Culture in the Modern Middle East*. Abingdon: Routledge, 2017.

Wilson, Arnold Talbot and Gertrude Lothian Bell. *Review of the Civil Administration of Mesopotamia*. London: H.M. Stationery Off., 1920.

Wilson, Jeremy. *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence*. London: William Heinemann, 1989.

Wilson, Mary Christina. *King Abdullah: Britain and the Making of Jordan*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1990.

Yitzhak Nakash. *Reaching for Power: The Shi'a in the Modern Arab World*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011.

Young, Hubert. *The Independent Arab*. London: J. Murray, 1933.

Zeine, Zeine N. *Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria*. Delmar, NY: Caravan Books, 1977.

Periodicals

Abu - Manneh, Butrus. «Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abdulhuda Al - Sayyadi.» *Middle Eastern Studies:* vol. 15, no. 2, May 1979.

Al - Jamil, Sayyar. «Arab Nationalist Pioneers in Mosul.» *International Journal of Contemporary Iraqi Studies*: vol. 3, no. 2, November 2009.

Anghie, Antony T. «Introduction to Symposium on the Many Lives and Legacies of Sykes - Picot.» *American Journal of International Law:* vol. 110, 2016.

Baldissera, E. «Note di Storia Siriana: Gli ultimi giorni del regno siriano di Faisal ibn Husein.» *Orient Moderno*: vol. 52, 1972.

Barker, Alex. «The Allies Enter Damascus.» *History Today*: vol. 48, 1998.

Berry, Helen. «Gertrude Bell: Adventurer, Diplomat, Mountaineer and Anti - suffragette.» *BBC History Magazine*: September 2013.

Brecher, Frank W. «Woodrow Wilson and the Origins of the Arab - Israeli Conflict.» *American Jewish Archives*: vol. 39, no. 1, 1919.

Clark, Christopher. «Sir Edward Grey and the July Crisis.» *International History Review*: vol. 38, no. 2, 2016.

Crozier, Andrew J. «The Establishment of the Mandates System 1919 25 -: Some Problems Created by the Paris Peace Conference.» *Journal of Contemporary History*: vol. 14, no. 3, 1979.

Donaldson, Megan. «Textual Settlements: The Sykes - Picot Agreement and Secret Treaty - Making.» *American Journal of International Law*: vol. 110, 2016.

The Editor. «Motorcars Supplant Camels: In Arabian Desert Traffic, Says Irak King's Secretary.» *The Brooklyn Daily Eagle* (New York): 5/ 7 /1992.

Eldar, Dan. «France in Syria: The Abolition of the Sharifian Government, April - July 1920.» *Middle Eastern Studies*: vol. 29, no. 3, July 1993.

Husry, Khaldun S. «The Assyrian Affair of 1933 (I).» *International Journal of Middle East Studies:* vol. 5, no. 3, April 1974.

«Jews and Arabs in Syria: The Emir Feisul Looks to a Bright Future.» The Times: 12 December 1918.

Kayalı, Hasan. «Elections and the Electoral Process in the Ottoman Empire, 1876 - 1919.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 27, no. 3, 1995.

Kedouri, Elie. «The Capture of Damascus, 1 October 1918.» *Middle Eastern Studies*: vol. 1, no. 1, October 1964.

Khoury, Philip S. «Factionalism among Syrian Nationalists during the French Mandate.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 13, no. 4, November 1981.

__________. «The Tribal Shaykh, French Tribal Policy and the Nationalist Movement in Syria between Two World Wars.» *Middle Eastern Studies*: vol. 18, no. 2, April 1982.

Lieshout, R. H. «"Keeping Better Educated Moslems Busy»: Sir Reginald Wingate and the Origins of the Husayn - McMahon Correspondence.» *The Historical Journal*: vol. 27, no. 2, June 1984.

Lloyd, H. I. «The Geography of the Mosul Boundary.» *The Geographical Journal*: vol. 68, no. 2, August 1926.

The Manchester Guardian: 22 June 1916.

Martin, Thomas. «Anglo - French Imperial Relations in the Arab World: Intelligence Liaison and Nationalist Disorder, 1920 1939 -.» *Diplomacy and Statecraft*: vol. 17, no. 4, December 2006.

Masalha, Nur. «Faisal's Pan - Arabism, 1921 33 -.» *Middle Eastern Studies*: vol. 27, no. 4, October 1991.

Mousa, Suleiman. «A Matter of Principle: King Hussein of the Hijaz and the Arabs of Palestine.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 9, no. 2, 1978.

Nafi, Basheer M. «King Faysal, the British and the Project for a Pan - Arab Congress, 1931 - 33.» *Islamic Studies*: vol. 37, no. 4, 1998.

Parnell, Charles L. «Lawrence of Arabia's Debt to Seapower.» *Proceedings* (United States Naval Institute): vol. 105, August 1979.

Provence, Michael. «Ottoman Modernity, Colonialism, and Insurgency in the Interwar Arab East.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 43, no. 2, May 2011.

Rabinovich, Itamar. «Symposium: The Greater - Syria Plan and the Palestine Problem.» *The Jerusalem Cathedra*: 1982.

Riesebrodt, Martin. «Charisma in Max Weber's Sociology of Religion.» *Religion*: vol. 29, 1999.

Rothwell, V. H. «Mesopotamia in British War Aims.» *The Historical Journal*: vol. 13, no. 2, 1970.

Simon, Reeva S. «The Hashemite «Conspiracy»: Hashemite Unity Attempts, 1921 - 1958.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 5, no. 3, June 1974.

Smith, Charles D. «The Invention of a Tradition: The Question of Arab Acceptance of the Zionist Right to Palestine during World War I.» *Journal of Palestine Studies*: vol. 22, no. 2, 1993.

Tanenbaum, Jan Karl. «France and the Arab Middle East 1914 - 1920.» *Transactions of the American Philosophical Society* (Florida): vol. 68, no. 7, 1978.

Tauber, Eliezer. «The Struggle for Dayr al-Zur: The Determination of Borders between Syria and Iraq.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 23, no. 3, August 1991.

Teitelbaum, Joshua. «Sharif Husayn Ibn Ali and the Hashemite Vision of the Post - ottoman Order: From Chieftaincy to Suzerainty.» *Middle Eastern Studies*: vol. 34 no. 1, January 1998.

Troeller, Gary. «Ibn Sa'ud and Sharif Husain: A Comparison in Importance in the Early Years of the First World War.» *The Historical Journal*: vol. 14, no. 3, September 1971.

Wasserstein, Bernard. «Herbert Samuel and the Palestinian Problem.» *English Historical Review*: vol. 91, no. 361, October 1976.

Weber, Max. «The Three Types of Legitimate Rule.» Translated by Hans Gerth. *Berkeley Publications in Society and Institutions*: vol. 4, no. 1, 1958

Wright, Quincy. «The Mosul Dispute.» *The American Journal of International Law*: vol. 20, no. 3, July 1926.

Zubaida, Sami. «Contested nations: Iraq and the Assyrians.» *Nations and Nationalism:* vol. 6, no. 3, 2000.

Theses

Al - Amr, Saleh. «The Hijaz under Ottoman Rule 1869 - 1914: The Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence.» (Unpublished Ph.D. Dissertation, University of Leeds, 1974).

Al - Jamil, Sayyar. «A Critical Edition of al - Durr al - Maknūn fī al - Ma'āthir al - Mādiya min al - Qurūn of Yāsīn al - 'umarī (920 - 1226 A.H. = 151415/ A.D. 181112/ A.D.).» (PhD Doctor of Philosophy, St. Andrews University, Scotland, 1983) 3 vols.

Vol. II: *The Text.*

Khoury, Philip S. «The Politics of Nationalism: Syria and the French Mandate, 1920 - 1936.» (Ph.D. Thesis, Harvard University, 1980).

Kuhn, Anthony John. «Broken Promises: The French Expulsion of Emir Feisal and the Failed Struggle for Syrian Independence.» (Carnegie Mellon University; H&SS Senior Honors Thesis April 2011).

Masalha, Nur - Eldeen. «King Faisal I of Iraq: A Study of his Political Leadership, 1921 - 1933.» (Phd Dissertation, School of Oriental and African Studies, University of London, 1987).

Mundy, Angus. «The Arab Government in Syria from the Capture of Damascus to the Battle of Meisalun (30 September 1918 - 24 July 1920.» (Unpublished MA Dissertation, American University of Beirut, 1965).

Nashabi, Hisham. «The Political Parties in Syria 1918 - 1933.» (Unpublished MA Dissertation, American University of Beirut, 1952).

Russell, Malcolm B. «The Birth of Modern Syria: Amir Faysal's Government in Damascus, 1918 - 1920.» (Unpublished Ph.D. Thesis, Johns Hopkins University, 1977).

Documents: Reports and Recordes

The Hashemite Royal Family

Jordanian Government. Archived from the original on 6 April 2019.

[Le Retour a Jerusalem Ce que pensent du sionisme les representants des musulmans et des communantes chretiennes]. Le Matin (in French). France. 1 March 1919.) Archives de la Bibliothèque nationale de Paris).

Abdullah to Ronald Storrs, October 20, 1914, FO3716237/.

Arnold Wilson, Baghdad to FO April 30, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966.

Belgelerle Osmanli Devrinde Hicaz 1, (MEKKE - I MUKERREME) (Istanbul: CAMLICA, 2008).

C.O. 730. File 15378089/. The Public Record Office, London. P.R.O.

EC 39th minute November 27, 1918, CAB27/ 24.

F. O. 37113778/ E. 61384/58/. Persia (1929).

F.O. 37113779/ (Persia) E. 27081929) 34/58/).

F.O. 37118970/ (Persia) E. 1711934) 34/32/).

F.O. 371 - 6350. E541 dated, ?

F.O. 686. 74. File. No. 51, dated 51921/6/.

F.O. 686. 95. File No. 51. Dated 51921/6/.

F.O. 686.74, dated on 121921/6/ .

F.O. 686 - 74. No. 2, dated 191921/6/.

F.O. 882/ 5, Note by T.E. Lawrence October 27, 1916.

Great Britain, 1930: Report of the Commission on the Palestine Disturbances of August 1929, Command paper Cmd. 3530 (Shaw Commission report).

IDCE 38th minute May 17, 1920, FO3715226/

Instruction from IO to Iraqi High Commissioner Percy Cox August 5, 1920, IOR/L/PS/10919/.

IOR/L/PS/10919/

Iraq Administration Reports 1914 - 1932, vol. 5.

Letter by Emir Feisal to Felix Frankfurter, published in full at amislam.com (collection ofcorrespondence).

Letter from Gouraud to Millerand18. February 1920, Tanenbaum (1978) p. 37.

Minute sent to all departments of FO October 16, 1920.

Minute written in the Political Department of FO, September 27, 1920, FO371/ 5038

National Archives and Records Administration, Washington D.C., Record Group 59 - State Department, roll 440, 760.2111035/59/, New York City, 25bJuly 1919, 1.

Note by Secretary of State for IO Edward Montagu, August 26, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 »(2001)

Note from IO (on the basis of information from Percy Cox, Baghdad) to FO on February 15, 1921, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001) and Report from IO to FO June 1, 1921, IOR/L/PS/10920/.

Note from Ronald Storrs, April 19, 1914, FO141460/

Notes from conversation between Garland, The Arab Bureau, and Sheikh Abdul Melik of The Arab Agency, August 1920, FO3715040/.

Private Papers Collections, in Middle East Center, St. Antonys College, University of Oxford, U.K.

Record of Iraq 1914 - 1966 (Published by Antony Rowe Ltd, Chippendham, Wilts, UK, 2001).

Report from the Baghdad Political Department to FO 26 January 1919, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001).

Report by High Commissioner Percy Cox to FO 26 December 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001)

Report of a Committee Set up to Consider Certain Correspondence Between Sir Henry McMahon and the Sharif of Mecca in 1915 and 1916 Archived 24 October 2015 at the Wayback Machine, UNISPAL, Annex A, paragraph 19..

Report of the Cairo Conference June 1921 (Appendix minutes of meetings of the Political Committee 13 and 14). March 1921), CAB/ 24126/.

Report of the Cairo Conference June 1921, CAB/ 24126/

Report of the Cairo Conference June 1921, CAP/ 24126/

Report of the Commissioner of Education for the Year Ended June 30, 1912. Whole Number 525. Volume 1, Washington Government Printing Office, 1913. In: Congressional Edition, Volume 6410. U.S. Government Printing Office, 1913.

Slater, Elinor; Slater, Robert, Great Jewish Men (Jonathan David Company, Inc, 1996).

State Report from Baghdad to FO 24 November 1918, Records of Iraq 1914 - 1966 (2001)

State Report from the High Commissioner Percy Cox in Baghdad, 10 June 1921, IOR/L/PS/10919/

Telegram from Sir Milne Cheetham til FO, 30. januar 1919, Records of Iraq 1914 - 1966 .

Telegram from Churchill to Cox September 10, 1920 (Summary of Letters from the French).

Telegram from Churchill to Cox September 10, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966).

Telegram from Consul General Kitchener to Cheetham, September 24, 1914, FO371/ 2139

Telegram from Consul General Kitchener to Foreign Minister Sir Edward Gray, 6 February 1914, FO371/ 2130

Telegram from High Commissioner Percy Cox in Baghdad to Winston Churchill April 18, 1921, Records of Iraq 1914 - 1966.

Telegram from IO to F.O. , October 20, 1920, IOR/ L/ PS/ 18/ B353

Telegram from Kitchener to Cheetham, September 24, 1914, FO371/ 2139

Telegram from Montagu to F.O. October 9, 1920, Records of Iraq 1914 - 1966 .

Telegram from Wilson to Cairo High Commissioner Sir Reginald Wingate, January 28, 1919, Records of Jordan , 1919 - 1965 Vol. I, London 1996.

Telegram from Wilson to Cairo High Commissioner Sir Reginald Wingate, January 28, 1919, Records of Jordan 1919 - 1965 Vol. I, London 1965.

The National Archives of the United States (Washington, DC., Records of the

Department of State Relating to Internal Affairs of Asia, 1910 - 1929).
Record Group R.G. no. 58 - 9, Syria (890.d00101).
The political committee consisted of Winston Churchill, Percy Cox, Hubert Young, Gertrude Bell and T.E. Lawrence.
The Times, March 16, 1920. No. 3992 - F.O. 3715033/.
United States. Congress. House. Committee on Foreign Affairs (1944). Jewish National Home in Palestine: Hearings Before the United States House Committee on Foreign Affairs, Seventy - Eighth Congress, Second Session. U.S. Government Printing Office.
Wilson to IO April 2, 1920, IOR/L/PS/10756/ and Wilson to IO May 24, 1920, IOR/L/PS/10759/
Wilson to IO July 31, 1920, FO 3715038/.

فهرس

- ب -

-ح-

- ض -

- ط -

- ع -

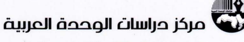
- ي -

لا تزال الأحداث التي شهدها الوطن العربي عقب الحرب العالمية الأولى وانهيار الخلافة العثمانية، وما حمله هذان الحدثان من تفتيت للمشرق العربي، ووضع اللبنات الأولى لتأسيس كيان صهيوني في فلسطين، مقابل إحباط مشروع فيصل بن الحسين لتأسيس الدولة العربية الموعودة، موضع خلاف وجدل وسط المؤرخين والمثقفين العرب. فهل أن قيام الثورة العربية الكبرى المراهنة على بريطانيا ضد العثمانيين وما تمخض عنها من دولة فيصل الأول في سورية، كانت خيارًا سليمًا لنيل عرب المشرق استقلالهم ووحدتهم، أم أنه ساعد البريطانيين على إسقاط الدولة العثمانية وبسط سيطرتهم على المنطقة وتسهيل إنشاء الكيان الصهيوني في قلب المنطقة وتفتيت بلاد الشام؛ وبالتالي كيف يتم تقييم تلك الشخصية العربية ودورها في ظل الأحداث الكبرى في المشرق العربي عقب الحرب العالمية الأولى؟

يقدّم هذا الكتاب عرضًا مفصّلًا لتجربة الملك فيصل الأول (1883 – 1933)، والأبعاد التاريخية للأدوار والمشروعات النهضوية العربية التي تميّز بها. يروي الكتاب الأحداث الدرامية للملك فيصل الأول، مع إعادة تقويم دوره التاريخي الحاسم في التطورات السياسية لما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها وحتى رحيله عام 1933. وهو كتاب يمثل قراءة تاريخية متوازنة لموضوع فيصل الأول، لا لذاته وتمجيد عرشه، بل لقراءة تاريخه، ومعرفة مواقفه، وفهم مشروعاته.

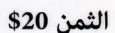
سيّــار الجميل

باحث وأستاذ جامعي عراقي، من مواليد الموصل عام 1952. حائز درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث للشرق الأوسط من جامعة سانت أندروز (بريطانيا) عام 1982. عمل محاضرًا في عدد من الجامعات العربية، منها جامعة الموصل وجامعة تونس الأولى وجامعة وهران في الجزائر وجامعة الحسن الثاني في المغرب وجامعة الإمارات، فضلًا عن عدد من الجامعات الأردنية. من مؤلفاته: **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل بحث رؤيوي معاصر** (1989)؛ **بقايا وجذور: التكوين العربي الحديث** (1997)؛ **التحولات العربية: إشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل** (1997)؛ **العرب والمسلمون في القرن الواحد والعشرين** (2000)؛ **إنتليجنسيا العراق: دراسة في النخب العراقية المثقفة الحديثة** (2001).



بناية «بيت النهضة» شارع البصرة
ص ب: 113-6001 الحمرا - بيروت 2034-2407 لبنان
تلفون: 750084 /5/6/7 1 (961+)
فاكس: 750088 1 (961+)

www.caus.org.lb
info@caus.org.lb
@CausCenter
@CausCenter
CausCenter



978-9953-82-954-8

